شرح مسائل الجاهلية

مع زوائـــد الدويش

للشيخ المصلح الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

صابر الدريني رحمه الله

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:
فإن رسالة مسائل الجاهلية للشيخ الإمام أبى عبد الله محمد بن سليمان التميمى رحمه الله ورضى عنه من المسائل المفيدة النافعة التى تبين مفارقة الإسلام للجاهلية وببيان الجاهلية وصورها يتضح الإسلام ويعلو ويسمو مرتفعاً عن كل مظاهر الجاهلية – سواء كانت جاهلية عامة مطلقة ،أو جاهلية مقيدة – وقد ذكر الإمام فيها بعضا من صور الجاهلية ومسائلها التى كانت منتشرة فى زمانه أو قبله ، نصحاً للمسلمين وصوناً وحماية لجناب التوحيد ، وحرصاً منه رحمه الله على أن تبقى دعوة الحق بيضاء نقية قولاً وعملاً ،سلوكاً ظاهراً وباطناً فجزاه الله خيرا

ولأهمية مسائل الجاهلية اهتم بها العلماء والدعاة شرحاً وتفصيلاً ومنهم من زاد عليها مسائل مستحدثة فى زمانه ، وقد قام الشيخ محمود شكرى الألوسى البغدادى بشرحها وقام الشيخ محب الدين الخطيب بنشرها وتحقيقها والتعليق عليها فى شرح سماه – فصل الخطاب فى شرح مسائل الجاهلية ،ثم قام بشرحها والتعليق عليها الشيخ يوسف بن محمد السعيد فى مجلدين ، ثم شرحها الشيخ صالح آل الشيخ ،وكذلك الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن السعد وشرحها كذلك شيخنا بن جبرين رحمه الله تعالى ورضى عنه ،وهذه أفضل الشروحات التى وقفت عليها ،مع شروحات كثيرة مسجلة أو مفرغة لبعض طلبة العلم ، وقد شرحناها قبل عقدين من الزمان شرحا مختصراً ،وفى هذا البرنامج العلمى لشرح كتب التوحيد والسنة والذى بدأناه فى شهر رجب من سنة 1445بالدورة العلمية الأولى بجامعة بن خلدون بمدينة القسطنطينية (استنبول) رأينا شرح هذه الرسالة جمعاً بين شرح الشيخ الألوسى وزوائد الشيخ عبد الله الدويش على مسائل الجاهلية رحمهما الله تعالى –مع شرح الشيخ صالح ،وكما سبق أننا لم نقصد الحصر بذكر كل مسائل الجاهلية ، فهى لا تنحصر ، بل متجددة فى كل عصر ومصر ،وعلى الدعاة وطلبة العلم أن ينبهوا على صور الجاهلية الواقعة فى مجتمعهم ويحرروها ويحققوها ويحذروا الناس منها ،حماية للدين ونصحاً للمسلمين ،ومن المناسب أن نترجم ترجمة مختصرة للمصنف والشارح وصاحب الزوائد رحمهم الله تعالى وغفر لهم ونفعنا بعلمهم .

ترجمة المصنف: فأما نسب هذا الشيخ فهو الإمام العالم، القدوة البارع، محمد بن عبد الوهاب ابن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف/ بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن سنيع بن نهشل بن شداد بن زهير بن إدريس بن مسعود بن طارئة بن عمرو بن ربية بن ساعدة بن ثعلبة بن عقبة بن ملكان بن عدي بن عبد بن مناف بن تميم فشت البدع قبل ولادة الشيخ محمد، واعتقد الناس النفع والضرر بالرسول والصالحين، وبالقبور والأشجار، والقباب والمزارات، فيطلبون منهم الحاجات، ويرجعون في الشدائد إليهم، وينذرون لهم، ويذبحون لهم، واشتد تعظيم الأموات.

وكان حظ نجد في هذه الجاهلية الجديدة أكبر الحظوظ، فقد اجتمع على أهله الجهل، والبداوة، والفقر، والانقسام في كل ناحية من نواحي نجد، من الأمراء، بمقدار ما كان فيها من القرى، ففي كل قرية أمير، وفي كل ناحية جمعية أمم، وكان في كل إمارة قبر، عليه بناء، أو شجرة لها أسطورة، يقوم عليها سادن من شياطين الإنس، يزين للناس الكفر، ويدعوهم إلى الاعتقاد بالقبر والذبح له، والتبرك به، والدعاء عنده. ثم ذكر شجرة تسمى "شجرة الذئب"، وقبر "زيد بن الخطاب" وذلك على سبيل المثال.

كان العلماء قلة، والحكام عتاه ظلمة، والناس فوضى يغزو بعضهم بعضًا، ويعدُو قويهم على ضعيفهم.

في تلك البيئة نشأ "محمد بن عبد الوهاب" رحمه الله فرأى شمس الإسلام إلى أَفول، ورأى ظلمة الكفر إلى امتداد وشمول.

وأراد الله له الخير، فقدر له أن يكون أحد الذين أخبر الرسول أنهم يبعثون ليجددوا لهذه الأمة دينها، بل لقد كان أحق بهذا الوصف من كل من وصِفَ به في تاريخنا.

فقد حقق الله على يديه عودة نجد إلى التوحيد الصحيح، والدين الحق، والألفة بعد إلاختلاف، والوَحدة بعد الانقسام.

ولا أقول: إن الرجل كامل، فالكمال لله، ولا أقول: إنه معصوم، فالعصمة للأنبياء، ولا أقول: إنه عارٍ عن العيوب والأخطاء.

ولكن أقول: إن هذه اليقظة، التي عمت نجدًا ثم امتدت حتى جاوزته إلى أطراف الجزيرة، ثم إلى ما حولها، ثم امتدت حتى وصلت إلى آخر بلاد الإسلام ليست إلا حسنة من حسناته عند الله إن شاء الله

ولد –رحمه الله سنة خمس عشر بعد المائة والألف من الهجرة النبوية،(1115)في بلد /العيينة/ من أرض نجد، ونشأ بها، وقرأ القرآن بها حتى حفظه وأتقنه قبل بلوغه العشر، وكان حاد الفهم، سريع الإدراك والحفظ، يتعجب أهله من فطنته وذكائه.

وبعد حفظ القرآن اشتغل بالعلم، وجد في الطلب، وأدرك بعض الأرب قبل رحلته لطلب العلم، وكان سريع الكتابة، ربما كتب الكراسة في المجلس.

قال أخوه سليمان كان والده يتعجب من فهمه، ويعترف بالاستفادة منه مع صغر سنه.

ووالده هو مفتي تلك البلاد، وجده مفتي البلاد النجدية، لآثاره وتصنيفه وفتاواه تدل على علمه وفقهه، وكان جده إليه المرجع في الفقه والفتوى، وكان معاصرا للشيخ منصور البهوتي الحنبلي، خادم المذهب، اجتمع به بمكة.

وبعد بلوغ الشيخ سن الاحتلام، قدمه والده في الصلاة ورآه أهلا للائتمام. ثم طلب الحج إلى بيت الله الحرام، فأجابه والده إلى ذلك المقصد والمرام، وبادر إلى قضاء فريضة الإسلام، وأداء المناسك على التمام. ثم قصد المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وأقام بها قريبا من شهرين، ثم رجع إلى وطنه قرير العين.

واشتغل بالقراءة في "الفقه" على مذهب الإمام أحمد رحمه الله. ثم بعد ذلك رحل يطلب العلم، وذاق حلاوة التحصيل والفهم، وزاحم العلماء والمشائخ الأخيار، وأتى الإحساء، وهي إذ ذاك آهلة بالمشائخ والعلماء؛ فسمع وناظر وبحث واستفاد، وطالت إقامة الشيخ ورحلته في البصرة. وقرأ بها كثيرا من الحديث والفقه والعربية، وكتب الحديث والفقه واللغة ما شاء الله في تلك الأوقات.

وكان يدعو إلى التوحيد ويظهره لكثير ممن يخالطه ويجالسه، ويستدل عليه، ويظهر ما عنده من العلم وما لديه؛ كان يقول: إن الدعوة كلها لله، ولا يجوز صرف شيء منها إلى سواه. وربما ذكروا بمجلسه إشارات الطواغيت، أو شيئا من كرامات الصالحين الذين كانوا يدعونهم ويستغيثون بهم ويلجئون إليهم في المهمات؛ فكان ينهى عن ذلك ويزجر، ويورد الأدلة من الكتاب والسنة ويحذر، ويخبر أن محبة الأولياء والصالحين، إنما هي متابعتهم في ما كانوا عليه من الهدى والدين، وتكثيرأجورهم بمتابعتهم على ما جاء به سيد المرسلين. وأما دعوى المحبة والمودة مع المخالفة في السنة والطريقة، فهي دعوى مردودة غير مسلمة عند النظر والحقيقة، ولم يزل على ذلك رحمه الله.

ثم رجع إلى وطنه، فوجد والده قد انتقل إلى بلدة حريملا، فاستقر معه فيها يدعو إلى السنة المحمدية ويبديها، ويناصح من خرج عنها ويفشيها، حتى رفع الله شأنه، ورفع ذكره، ووضع له القبول، وشهد له بالفضل ذووه، من أهل العقول والمنقول. وصنف كتابه المشهور في التوحيد، وأعلن بالدعوة إلى صراط العزيز الحميد، وقرأ عليه هذا الكتاب المفيد، يسمعه كثير ممن لديه من طالب ومستفيد، وشاعت نسخة في البلاد، وطار ذكره في الغور الأنجاد؛ وفاز بصحبته واستفاد من جرد القصد وسلم من الأشر والبغي والفساد، وكثر –بحمد الله– محبوه وجنده؛ وصار معه عصابة من فحول الرجال، وأهل السمت الحسن والكمال، يسلكون معه الطريق، ويجاهدون كل فاسق وزنديق. أخلاقه وسجاياه

كان بشوشًا متواضعًا جوادًا، ذا عبادة وإيثار للفقراء والمساكين، أضف إلى ذلك قوة وهيبة تهابه الأمراء والرؤساء، بل كان يهابه كل من يراه.

ومن العجائب، أنه في أصله متواضع، لين العريكة سمح بشوش، لكن الله تعالى جعل له هيبة في القلوب، ومنحه كمال الرأي والفراسة والتدبير، وكان شكورًا لنعمة الله، وعلى جانب عظيم من الإنطراح بين يديه، وكثيرًا ما يلهج بقوله تعالى: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} [النمل: 19]، ويتمثل لهذه الأبيات:

بأي لسان أشكر الله أنه ... لذو نعمة أعجزت كل شاكر

حباني بالإسلام فضلًا ونعمة ... علي وبالقرآن نور البصائر

تحالفه مع محمد بن سعود: خرج الشيخ سنة سبع أو ثمان وخمسين ومائة وألف (1158)وكان عمر الشيخ 43 سنة ، خرج من العيينة إلى بلدة الدرعية، فنزل في الليلة الأولى على عبد الله بن سويلم، ثم انتقل في اليوم التالي إلى دار تلميذه الشيخ أحمد بن سويلم، فلما سمع بذلك الأمير محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن محمد بن ربيعة بن مانع بن الحسيب بن المقلد بن بدران بن مالك بن سالم بن مالك بن حسان بن ربيعة بن مرة بن منقذ بن الحارث بن سعد بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل،، قام من فوره مسرعا إليه ومعه أخواه ثنيان ومشاري، فأتاه في بيت أحمد بن سويلم، فسلم عليه، وأبدى له غاية الإكرام والتبجيل، وأخبره أنه يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده.

فأخبره الشيخ بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دعا إليه، وما كان عليه صحابته رضي الله عنهم من بعده وما أمروا به وما نهوا عنه، وأن كل بدعة ضلالة، وما أعزهم الله به بالجهاد في سبيل الله وأغناهم به وجعلهم إخوانا. ثم أخبره بما عليه أهل نجد في زمنه من مخالفتهم لشرع الله وسنة رسوله بالشرك بالله تعالى والبدع والاختلاف والظلم.

فلما تحقق الأمير محمد بن سعود معرفة التوحيد، وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية قال له: يا شيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه؛ فأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به والجهاد لمن خالف التوحيد، ولكن أريد أن أشترط عليك اثنتين: نحن إذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترتحل عنا وتستبدل بنا غيرنا. والثانية: أن لي على الدرعية قانونا آخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول لا تأخذ منهم شيئا. فقال الشيخ: أما الأولى فابسط يدك: الدم بالدم

والهدم بالهدم. وأما الثانية فلعل الله أن يفتح لك الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها. فبسط الأمير محمد يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد في سبيله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقام الشيخ ودخل معه البلد واستقر عنده. فأعطاه الشيخ عقد المرام، وأقام عنده في تلك البلاد، يدعو الناس إلى ما خلقوا له، في وقت طرق الإسلام قد عفت آثارها، وخبت أنوارها، ووهت أركانها، وجهل مكانها؛ فشيد من معالمها ما عفا من كلمة التوحيد، وأوضح سبيل الهداية لمن أراد أن يسلكها، وأظهر كنوز السعادة لمن قصد أن يملكها.

وقام معه على ذلك إخوانه، ووزراؤه، وأعوانه، وأنصاره، من أهل الدرعية؛ فجردوا للدعوة أمضى سنان، وأرخوا في ذلك العنان؛ فصار الشيخ يدعو إلى التوحيد، ويقمع كل شيطان مريد، ويناظر أهل الشرك والعناد، وينكر على أهل البغي والفساد، نصره الله بالحجة واللسان، والسيف والسنان.

أمر بالجهاد هو والإمام محمد بن سعود، وشمروا عن ساعد الجد والاجتهاد، وعدوا للجهاد ما استطاعوا من العتاد.

وكان الشيخ هو الذي يجهز الجيوش، ويبعث السرايا على يد الإمام، ويكاتب أهل البلدان ويكاتبونه، والوفود إليهما، والضيوف عنده، وصدور الأوامر من عنده; حتى أذعن أهل نجد، وتتابعوا على العمل بالحق، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فعمرت نجد بعد خرابها، وصلحت بعد فسادها، واجتمعت بعد افتراقها، وحقنت الدماء، ونال الفضل والفخر والملك من نصره وآواه، وملك الحرمين الشريفين واليمن وعمان، وما دونه وما وراءه.وظل على ذلك حتى توفاه الله سنة 1206 رحمه الله وغفر له وجزاه عن دعوة التوحيد خيرا.

ترجمة الشارح :هو أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بهاء الدين بن محمد بن أبي الثناء شهاب الدين بن عبد الله بن صلاح الدين بن محمود لخطيب الألوسي.

ولد رحمه الله تعالى في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان عام ثلاثة وسبعين ومائتين وألف (1273) من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم في بغداد من بلاد العراق.

نشأ رحمه الله تعالى، في بيت علم ودين، فقد كان كثير من أسرته علماء وأدباء، فأبوه عبد الله (ت1291) كان عالما، له مؤلفات، وجده أبو الثناء محمود بن شهاب الدين صاحب "روح المعاني" كان —أيضا– عالما، وإن كان عنده شيء من البدع ، فالله يسامحه، ومن أولاء عمه نعمان خير الدين صاحب جلاء العينين، فقد كان خيرا دينا عالما وقورا.

-بدأ أبو المعالي رحمه الله تعالى في طلب العلم في سن مبكرة جدا، فأخذ عن أبيه مبادئ العربية والخط، ثم بعد وفاة أبيه كفله عمه خير الدين فأخذ عنه، كما أخذ عن مشايخ بلده، وبعد أن استوى على سوقه عقد حلقا للعلم في داره ينهل منها الطلاب، ويفيدون منها توفي أبو المعالي-رحمه الله تعالى- في اليوم الرابع من شهر شوال عام (1342هـ) على أثر مرض ألمّ به في أواخر شهر رمضان من العام نفسه، نسأل الله تعالى له الرحمة والنجاة من النار، وجزاه على ما قدم للمسلمين خير الجزاء

ترجمة صاحب الزوائد هو الشيخ عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش العريني من بني عمر من قبيلة سُبيع، ولد الشيخ عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد الدويش، في عام 1373 هـ بمدينة الزلفي، وقد تربى في كنف والده، إذ توفيت والدته وهو رضيع، ثم ترعرع ونشأ نشأة مباركة، عُرف من خلالها بالصفات الحميدة والأخلاق الطيبة، من العفاف والطهارة وحسن الخلق.وكان ملازمًا لخدمة والده منذ الصغر، فأثرت فيه هذه الملازمة، ممافي الزلفي عام 1373 هـ، وأخذ عن علماء عصره، وقد برز الشيخ في الحديث وعلومه، له مؤلفات عديدة، جعله في نفس والده محبوبا إليه، يعز عليه مفارقته.وكان آية في سرعة الحفظ والفهم مع الذكاء المتوقد، وكانت هذه الصفات الموجودة فيه هي التي دفعته إلى طلب المزيد من العلم والمعرفة، وطلب العلم من مظانه.بدأ بطلب العلم صغيرًا بجدٍ واجتهاد، فأحب الرحلة لذلك، فقدم مدينة بريدة عام 1391 هـ وبدأ الدراسة فيها على أيدي العلماء العاملين، فنزل في المسجد في إحدى غرفه، وذلك في مسجد الشيخ محمد بن صالح المطوع رحمه الله، فكان في كل مراحل طلبه للعلم بارزًا ونابغًا.فأدرك العلم الكثير في وقت قصير، وكان سعيه دائمًا في تحصيل العلم وإدراكه، واقتناء المؤلفات الجيدة في جميع مصادر العلوم الشرعية كالحديث ومصطلحه ورجاله، والتفسير وأصوله، والفقه وأصوله وغير ذلك.وكان مكبًا على كتب السلف الصالح، ولذلك تجده شديد التأثر بهم وبأحوالهم، وذلك ظاهر في سلوكه وطريقته في حفظ الوقت، ومعاملة الطلاب وغير ذلك من السلوك المستقيم.

وكان أشد تأثرا بشيخي الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وتلاميذهما من أئمة هذه الدعوة.

وكان واسع الأفق، جيد الفهم والحفظ لما يقرأ ويُلقي عليه، وشاهد ذلك بروزه في وقت قصير، فقد قيل إنه يحفظ الأمهات الست وغيرها من كتب الحديث، وكان عنده من كل فن طرف جيد، لأنه كان مكبًا على دراسة هذه الفنون، فكان عالما بالعقيدة والتوحيد والتفسير والفقه والنحو.واهتم بعلم الحديث وبرع فيه لذا أعجب به علماء زمانه ،فهو من العلماء الزهاد المنقطعين للعبادة والتعليم، توفي رحمه الله في مدينة بريدة يوم 27/ 10/ 1408 هـ عن عمر لم يتجاوز الأربعين سنة رحمه الله وغفر له ونفعنا بعلمه.

قال الشيخ الألوسى رحمه الله فى مقدمة شرحه (الحمد لله الذي هدانا للدين المبين، وأنار لنا الصراط المستقيم والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين.

أما بعد فيقول العبد المفتقر إلى عفو الله وغفرانه محمود شكري الألوسي البغدادي كان الله تعالى له، وأحسن عمله: إني قد وقفت على رسالة صغيرة الحجم كثيرة الفوائد تشتمل على نحو مائة مسألة من المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية من الأميين والكتابيين، وهي أمور ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان ولا أخذت عن نبي من النبيين، ألفها الإمام محيي السنة، ومجدد الشريعة النبوية، أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي، تغمده الله تعالى برحمته. فرأيتها في غاية الإيجاز، بل كادت تعد من قبيل الألغاز، قد عبر عن كثير منها بعبارة مجملة، وأتى فيها بدلائل ليست بمشروحة ولا مفصلة. حتى إن من ينظرها ليظن أنها فهرس كتاب، قد عدت فيه المسائل من غير فصول ولا أبواب، ولاشتمالها على تلك المسائل المهمة الآخذة بيد المتمسك بها إلى منازل الرحمة، أحببت أن أعلق عليها شرحًا يفصل مجملها ويكشف معضلها من غير إيجاز مخل ولا إطناب ممل.

مقتصرًا فيه على أوضح الأقوال، ومبينًا ما أورده من برهان ودليل، عسى الله أن ينفع بذلك المسلمين، ويهدي به من يشاء من عباده المتقين. فيكون سببًا للثواب، والفوز يوم العرض والحساب، والأمن من أليم العذاب، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. (فإن هذه المسائل الجاهلية التي خالفهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيها –كما ترى– هي عزيزة المعاني، وهي مهمة جدا في حياتنا اليوم، بل إنه على الشباب والدعاة إلى الله جل وعلا أن يكون في حلقاتهم وأن يكون في بيان دعوتهم ما يستدلون فيه بكثير من هذه المسائل؛ لأنه إذا بُيّنت للناس أنّ هذه خصلة من خصال اليهود، خصلة من خصال الجاهلية، بدلائلها وبكلام أهل العلم عليها، ثم بُيّنت أن هذه دخلت في الأمة، يكون هذا من أنفع أبواب الدعوة، من أنفع طرقها، وهذه هي الطريقة أو هذه من الطرق السلفية المحمودة في الدعوة؛ دعوة الناس، ولهذا الشيخ [محمد بن عبد الوهاب] رحمه الله اعتنى ببيان هذه المسائل؛ لأن الجميع راغب في أن يكون مجانبا لسنن أهل الجاهلية ولطرائقهم ولخصالهم سواءً كانوا يهودا أو نصارى أو مشركين أو مجوس ، إلى آخره من الملل و النحل.

فعنايتكم بهذه المسائل فهما واستنباطا ثم عنايتكم بشرح كيف كان عليه أهل الجاهلية؛ ببيان أصل المسألة، ثم صور دخول هذه الخصلة في هذه الأمة، وأن هذا مصداقا لقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع» هذا من الأمور التي تعين الداعية على الوصول إلى مبتغاه وتبين الحق للناس.

وهي مسائل عظيمة أسأل الله جل وعلا أن ينفعنا دائما فيما بيَّنه إمام هذه الدعوة من المسائل العظيمة التي نحتاج إليها ولا شك في كل وقت في هذا الزمان، ومذاكرتها والتذكير بها ضروري؛ يعني حبذا لو

يكون في المجالس أن تؤخذ مسألة، مسألة، من هذه المسائل ويُقرأ شرحُها للألوسي أو لغيره، وينظر فيها ويتأمل لأنها أشد ما تكون الحاجة إليها كما قال في المقدمة، قال: لا غنى للمسلم عن معرفتها.)

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش المتوفى سنة 1409 رحمه الله تعالى فى مقدمة الزوائد (الحمد لله الذي أنزل الكتاب على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الذي بين لأمته طرق الجاهلية العمياء، ونهاهم عن سلوكها، وتركهم على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

أما بعد: فإنا نهينا عن التشبه بأهل الجاهلية كما قال تعالى {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} وثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن ... » الحديث. إذا عرف هذا وأن ما عليه أهل الجاهلية مذموم إلا ما وافق الشرع، فالواجب على كل مسلم معرفه ذلك لئلا يقع فيه وهو لا يشعر، وقد جمعت أشياء من ذلك وهي عامة لأهل لجاهلية من أهل الكتاب وغيرهم، فإن قيل ألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مسائل الجاهلية فما فائدة ما جمعته؟ فالجواب: أن هذه ما ذكرها الشيخ ثم ليعلم أن هذا ليس استدركًا عليه لأنه لم يذكر أنه جمع كل ما عليه أهل الجاهلية، وإنما ذكر أمورًا خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يدع المحصر حتى يقال إن هذا استدراك عليه ،والله المسئول أن يجعل عملنا خالصًا صوابًا إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير)

والنية معقودة بإذن الله تعالى وحوله وقوته بشرح كل رسائل ومؤلفات أئمة السنة فى التوحيد والعقيدة نسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد والهداية والرشاد .وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

.صابر الدريني

مدينة القسطنطينية

السابع من شهر رجب سنة 1446

بسم الله الرحمن الرحيم

[المتن]

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: هذه أمور خالف فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أهل الجاهلية من الكتابيين والأميين مما لا غنى للمسلم عن معرفتها:

فالضدُّ يظهر حسنَه الضدُّ ....

.... وبضدها تتبين الأشياء

فأهم ما فيها وأشدها خطرا عدم إيمان القلب بما جاء الرسول – صلى الله عليه وسلم –، فإن انضاف إلى ذلك استحسان ما عليه الجاهلية تمت الخسارة، كما قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ) [العنكبوت:52]

(المسألة الأولى) أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته يريدون شفاعتهم عند الله، بظنهم أن الله يحب ذلك، وأنّ الصالحين يحبونهم كما قال تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) [يونس:18]، وقال تعالى (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) [الزمر:3].

وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فأتى بالإخلاص، وأخبر أنه دين الله، الذي أرسل به جميع الرسل، وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص، وأخبر أنّ من فعل ما استحسنوا فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

وهذه هي المسألة التي تفرق الناس لأجلها بين مسلم وكافر، وعندها وقعت العداوة ولأجلها شرع الجهاد، كما قال تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)[الأنفال:39].

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، حمدا كثيرا طيبا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا الكتاب قليل الصفحات، لكنه اشتمل على مسائلَ من أهم المهمّات، بل إنّ هذه الوُريقات في هذه الرسالة هي أصول الدِّين؛ لأنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – إنما بُعث ليخلِّص الناس من جهالة الجاهليين على أنواع مللهم وأصناف نحلهم.

فإذن هي خلاصة لما أَمر به اللهُ جل وعلا، وأمر به رسولُه صلى الله عليه وسلم المشركين والكفار أن يتركوه.

وهذه الرسالة هي مسائل؛ المسألة منها قد تكون بضعة أسطر، وقد تَقِلُّ إلى كلمتين أو ثلاث.

وقد تناولها بالشرح؛ بشرح وجيز يكشف عن مراميها ومعانيها علاّمة العراق الشيخ السّلفى محمود شكري الأَلُوسِي، وهو شرح مطبوع متداول، لكنه في كثير من الأنحاء والمواضع لم يكشف الكشف الذي ينبغي.

وهناك من إخواننا من سجَّل رسالة ماجستير في شرح هذه المسائل، ولا شك أنها تحتاج ذلك لعظمها كما سترى، وليس من رأى كمن سمع.

سمّاها الشيخ الإمام رحمه الله تعالى "مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أهل الجاهلية"

وكما ذكر في المقدمة أنّ الجاهليين الذين يريدهم بقوله "أهل الجاهلية" هم الأميون يعني مشركي العرب وأصناف أهل الكتاب، وكذلك غيرهم من الصابئة والمجوس وأنواع أهل الملل.

والجاهلية راجعة إلى الجهل بالله جل وعلا، وبما يستحقه، وبما يحبه من الدين والطاعة، وهذه الجاهلية هي كل ما كان عليه الناس قبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما خالفوا فيه الدين المشترك للرسل صلوات الله وسلامه عليهم أو ما شرعه من الدين الحق على ألسنة رسله.

فيشترك في ذلك ما كان عليه أهل الجاهلية من العرب، وأهل الجاهلية من أهل اليهود، وأهل الجاهلية من النصارى، وأهل الجاهلية من المجوس، وأهل الجاهلية من الصابئة، وهكذا إلى جميع أنواع أهل الملل.

شرح العنوان

مسائل : جمع مسألة وهى الأشياء التى خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية فى زمانه ،فهى مسائل فى الدين أصولاً وفروعاً وسلوكاً وأخلاقاً قولية وعملية خالف فيها الكفار والمشركين ،وهذا هو الأصل الذى جاءت به الشريعة ،مخالفة الكفار والمشركين ،وهذا مقصد شرعى من مقاصد الإسلام ،فقوله مسائل يعنى أموراً خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الجاهلية وفارقهم فيها

والجاهلية :

الجاهلية غالب إطلاقها في الكتاب والسنة يُعنى بها الحال، وقد تطلق ويُعنى بها صاحب الحال.

فمن الأول؛ وهو أن تطلق ويعنى بها الحال، يعني الصفة التي هي راجعة إلى نفي العلم والإغراق

في الجهل بما أنزل الله جل وعلا على رسوله، هذه الجاهلية التي هي الحال والصفة منها قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لأبي ذر حين عيّر رجلا أسود وهو بلال —بالراجح– بأمه، قال عليه الصلاة والسلام «أعَيّرتَهُ بأمّهِ؟ إِنّكَ امرُؤٌ فيكَ جاهِليّة»، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام «ثنتان من أمتي من أمر الجاهلية»، وكذلك قول عائشة ''كان نكاح الناس في الجاهلية على أربعة أنحاء'' ونحو ذلك من الأحاديث التي فيها ذكر الجاهلية، ويدل لذلك قول الله جل وعلا (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[المائدة:50]، فإنه في هذه النصوص يعنى بالجاهلية الحال والصفة.

وقد يراد بها ذو الحال، فيقال فلان جاهلي، كما يقال امرؤ القيس شاعر جاهلي، يريدون بذلك أنه هو الجاهلي لعيشه في تلك الفترة التي هي الجاهلية المطلقة.

والجاهلية تقسم باعتبارات:

فتارة تنقسم إلى قسمين:

وهي الجاهلية المطلقة.

والجاهلية المقيدة.

وتارة تقسم إلى ثلاثة أقسام وهي:

جاهلية في المكان.

جاهلية في الزمان.

جاهلية في الأشخاص.

فالقسمة الأولى وهي الجاهلية المطلقة والمقيدة:

فنعني بالمطلقة: الكاملة من جميع الوجوه بأحد الاعتبارات الثلاث.

والمقيدة: يعني المقيدة بوجه من الوجوه، إما مقيدة بمكان، أو بزمان، أو بشخص، أو ببعض الصفات.

فالجاهلية في المكان تكون مطلقة ومقيدة:

فالمطلقة في بلاد الكفار؛ دار الحرب، بلاد الكفار، هذه يقال لها أمكنة جاهلية، والمكان جاهلي؛ لأجل أنها دار كفار.

وقد يكون المكان فيه جاهلية مقيدة ببعض الأمور كما هو في بلاد المسلمين، فإنه لا يزال فيهم بعض خصال الجاهلية فيكون فيهم بعض الجاهلية، تكون مقيدة ببعض الأشياء، أو مقيدة ببعض الأمكنة دون بعض، تقول البلد الفلاني من بلاد المسلمين فيه جاهلية، أو بلد أصبح جاهليا إذا رجع أهله وارتدوا عن الإسلام إلى الشرك.

وجاهلية الزمان أيضا مطلقة ومقيدة:

فالجاهلية في الزمان المطلقة هي ما كان قبل مبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كانت جاهلية مطلقة في الزمان؛ يعني كل ما كان قبل زمن الرسول – صلى الله عليه وسلم – –وَحَدُّهُ بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم –– يقال لها جاهلية بإطلاق.

والجاهلية المقيدة بالزمان هذه هي التي تكون في بعض ظهور خصال الجاهلية في وقت دون وقت، لكنها جاهلية مقيدة وليست مطلقة؛ يعني مقيدة بوقت ظهرت فيه خصال الجاهلية، فتكون مقيدة بالوقت .

فلا يصح إطلاق لفظ الجاهلية العامة المطلقة حتى لا يفهم منها تكفير الناس والمجتمعات المسلمة ،أو وصفها بأنها مجتمعات جاهلية بمفهوم أهل الغلو فى التكفير فيكفرون الناس والمجتمع بالعموم أو يتوقفون فيه ،وهذا خطأ ، لأنه بعد بعثة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – انقضت الجاهلية المطلقة، ولا يزال في أمته من ينافح عن هذا الدين ويرفع رايته، فليس ثم جاهلية منسوبة إلى زمنٍ ، وإنما تكون منسوبة إلى وقت من الأوقات فيما إذا ظهرت بعض الصفات ثم يجاهدها ويظهر عليها أهل الحق بالإنكار فلا تصبح جاهليةً يعني الزمن.. لأن هذا إطلاق للزمن بكامله، والنبي – صلى الله عليه وسلم – أخبر بأنه لاَ يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِه «عَلَى الْحَقّ ظَاهِرِينَ لاَ يَضُرّهُمْ من خالفهم ولا مَن خَذَلَهُمْ حَتّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وهم على ذلك» هؤلاء يبينون وينصحون.

القسم الثالث جاهلية في الأشخاص وهي أيضا مطلقة ومقيدة:

فالمطلقة في الكافر. والمقيدة في شخص دون شخص، أو في شخص في بعض حاله دون بعض، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – لأبي ذر «إِنّكَ امرُؤٌ فيكَ جاهِليّة»؛ يعني بعض خصال الجاهلية.

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

إذاً هما حكمان حكم الله وحكم الجاهلية حكم الله وحكم الطاغوت **والجاهلية هى كل ما يخالف الاسلام** والجاهلية المطلقة هى قبل الاسلام زمن الكفر والشرك العام وما بعد الاسلام جاهلية مقيدة فى الزمان والمكان والأشخاص وهى بحسبها أما جاهلية كبرى مكفرة أو جاهلية دون الشرك الأكبر **فمن الجاهلية ما هو كفر** كقوله–تعالى–: {يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} ، وقوله تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} .

ومن الجاهلية ما هو معصية، وهي ما تكون بترك واجب أو فعل محرم دون الكفر، وهذه لا يكفر صاحبها.ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: "إنك امرؤ فيك جاهلية" وكذا الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة على الميت.

ومن جاهلية الدعاة الجدد وغيبة الوعى عندهم ألا يعتبرون بالفرق بين أن تفرح لوصول الأخف ضرراً على المسلمين مع اعتقاد فساده وفساد طريقة اختياره ,وبين أن تتعامى عن جاهليته ومفارقة طريقة حكمه للإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هذه غيبة وعى وجاهلية جديدة تسمى جاهلية الدعاة الجدد

فالجاهليات المذكورة في القرآن أربعة:

ظن الجاهلية :جاهلية عقيدة وظن سوء بالله تعالى من نسبة الولد والزوجة والفقر .

حكم الجاهلية :وجاهلية حُكْم وتشريع.

تبرج الجاهلية : وجاهلية تبرُّج وسلوك.

حمية الجاهلية :وجاهلية حميَّة واندفاع!

الجاهلية تعني الخفة والطيش، والتفلّت والتحلل، واتباع الهوى، وعدم الاتزان والانضباط، والقيام بتصرفات وسلوكيات باطلة، وعدم الالتزام بحكم الله وشرعه.

ويمكنك أن تقول: "**الجاهلية**" حالة نفسية سيئة، تصيب صاحبها، فيرفض الالتزام بحكم الله، والالتزام بشرعه، ويتمرد عليه، ويتّبع الباطل، ويعيش حياته على هواه، بما لا يتفق مع إنسانيته وكرامته .

ونؤكد على أن "الجاهلية" ليست مقابِلة للعلم والمعرفة والثقافة، بمعنى أنه لا يوصف بها إلا الإنسان الجاهل، الذي لا علم ولا معرفة عنده، أو المجتمع المتخلف البدائي، الخالي من الاختراعات والصناعات، فهذه الحالة توصف بالجهل وليس بالجاهلية؛ فيقال: هذا إنسان جاهل. أي: غير عالم. وهذا مجتمع جاهل. أي: مجتمع بدائي متخلف، لا علم عنده ولا صناعة.

أما الجاهلية فإنها مقابِلة للهدى والإيمان، والاستقامة والتقوى، والاتزان والانضباط، والجدية والموضوعية، فيوصف بها من فقد هذه الصفات الإيجابية، فرداً كان أو مجتمعاً، وقد توجد مع العلم والمعرفة، وقد تكون مع الصناعة والتكنولوجيا، وقد تتحقق عند إنسان حمل أرقى الشهادات العلمية، وعند مجتمع بلغ الذروة في تكنولوجيا الصناعة والاختراع، حتى وصل إلى القمر والمريخ.

وبمعنى آخر: **الجاهلي هو** : **الكافر**، وهو المذنب العاصي، وهو الخاضع لغير الله، وهو المتبع لهواه، وهو الذي يعيش حياته بعيداً عن شرع الله، والمسرف على نفسه بالشهوات والملذات المحرمة.

والمجتمع الجاهلي هو الذي لا يخضع لحكم الله وشرعه، ولا ينظم حياته ومناهجه ومؤسساته على أساس منهج الله. وقد يكون هذا المجتمع متقدماً في الماديات والاختراعات

وقد يكون عند المسلم بعض الممارسات والتصرفات والنظرات الجاهلية، وهي تلك التي تختلف مع الإسلام، مع أنه ملتزم بالإسلام في معظم حياته، ودليل هذا ما حصل من أبي ذر الغفاري ، فقد كان من أصدق الصحابة إيماناً وكلاماً، وشهد له رسول الله بذلك، حيث قال: "ما أقلَّت الغبراء، ولا أظلّت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر". ومع ذلك أخطأ في حق أخيه بلال الحبشي . قال: حصل بيني وبين بلال كلام، فعيّرته بأمه، وقلت له: يا ابن السوداء؛ فشكاني إلى رسول الله ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : " أعيّرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى". لم يكن أبو ذر كافراً، بل كان من أصدق الصحابة إيماناً، ومع هذا أخبره رسول الله أن فيه جاهلية، ولم يقل له: أنت جاهلي .

وهذا معناه أن الجاهلية ليست كفراً دائماً، وكل من أذنب وعصى ففيه جاهلية بمقدار ذنبه ومعصيته، مع أنه مسلم صالح؛ فكل كفر جاهلية، وليست كل جاهلية كفراً، وكل كافر جاهلي، وليس كل جاهلي كافراً.

حكم الجاهلية : وكل حكم غير حكم الله باطل، وكل شرع يتعارض مع شرع الله منكر مردود ظالم قبيح. والمجتمع الإسلامي لا يقرّ أي حكم جاهلي؛ لأنه ملتزم بحكم الله. والمسلمون الصالحون لا يتحاكمون إلى حكم يتعارض مع حكم الله لأنه حكم أهل الجاهلية، ويستحيل على مؤمن أن يساوي بين حكم الله وحكم أهل الجاهلية، كما أنه يستحيل على مؤمن أن يترك حكم الله، ويطلب حكم أهل الجاهلية، وأن يظن أن حكم أهل الجاهلية أفضل أو أعدل أو

أنسب من حكم الله، ويستحيل على الدولة المسلمة أن تقرر في قوانينها حكماً جاهليّاً، وتشريعاً جاهليّاً، متعارضاً مع حكم الله.

الجاهلية في هذه الآية جاهلية حكم وتشريع، وجاهلية قانون ونظام. وتقرر بصراحة أن الحكم نوعان لا ثالث لهما: حكم الله في مقابل حكم الجاهلية، ومن لم يشرع أو يطبق حكم الله، فقد شرع أو طبق الحكم الجاهلي لا محالة. وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!

(العلمانية حكم الجاهلية وعبودية للهوى)

لقد جعل الله طريقين للحكم لا ثالث لهما: حكم الله أو حكم الجاهلية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

وجاهلية الحكم لا تختص بزمان بعينه، ولكنها وضع تنظيمي يأبى التحاكم إلى ما أنزل الله، وهذا الوضع قد وجد بالأمس، ويوجد اليوم، وسيوجد غدًا، وحيثما وجد فهو حكم الجاهلية وإن توارى خلف لافتات من ادعاء التقدمية والاستنارة والتحضر.

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ﴾ [القصص: 50] .

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18].

فلا مقابل لشريعة الله وما جاء به رسول الله × إلا أهواء الذين لا يعلمون، ولا توجد منطقة وسطى بينهما، ومتى خرج العبد من شريعة الله فقد دخل في عبادة الهوى من دون الله.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: 43، 44].

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23].

والإنسان في هذه الحياة على مفترق طريقين لا ثالث لهما، فإما أن يختار العبودية لله، وإما أن يرفض هذه العبودية فيقع لا محالة في عبودية لغير الله، والعلمانية بما تقوم عليه من رفض

الشريعة، تعبيد البشر إلى غير ما أنزل الله، فهي ترجع بهم إلى الجاهلية وتدخلهم في عبادة الهوى من دون الله.

ظن الجاهلية (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه) (أن عند ظن عبدى بى فليظن عبدى بى ما شاء)

قال ابن القيم في الآية الأولى: فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله. وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا الظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا؛ فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك، هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

وقال الطبرى رحمه الله (هذه الآية الكريمة تتحدث عن موقف المنافقين في غزوة أحد حيث أنزل الله النعاس أمنة للمؤمنين، أما المنافقين فقد أهمتهم أنفسهم. يقول ابن جرير "قوله: (قد أهمتهم أنفسهم) يقول: هم المنافقون لا هم لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها، في شغل قد طار عن أعينهم الكرى، يظنون بالله الظنون الكاذبة ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكاً في أمر الله وتكذيباً لنبيه ، ومَحْسَبَة منهم أن الله خاذل نبيه ومعل عليه أهل الكفر به... وقوله: (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) يقول: يخفي يا محمد هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك صفتهم، في أنفسهم من الكفر والشك في الله ما لا يبدون لك، ثم

أظهر نبيه على ما كانوا يخفونه بينهم من نفاقهم، والحسرة التي أصابتهم على حضورهم مع المسلمين مشهدهم بأحد، فقال مخبراً عن قيلهم الكفر وإعلانهم النفاق بينهم: (يقولون لو كان لنا من الأمر من شيء ما قُتلنا هاهنا) يعني بذلك أن هؤلاء المنافقين يقولون: لو كان الخروج إلى حرب من خرجنا لحربه من المشركين إلينا، ما خرجنا إليهم ولا قتل منا أحد في الموضع الذي قتلوا فيه بأحد")

حمية الجاهلية تتحدث الآية عن ما فعلته قريش بالمسلمين، عندما منعت الرسول وأصحابه من الدخول إلى مكة معتمرين، وأوقفتهم في سهل "الحديبية"، وأدت المفاوضات في النهاية إلى عقد صلح "الحديبية" في نهاية السنة السادسة من الهجرة.

لماذا منع الكفار دخول المسلمين الحرم معتمرين مع أنه مفتوح لكل من أتاه حاجّاً أو معتمراً؟! لماذا يُمنع منه المسلمون مع أنهم أهله الأصلاء؟! إن الذي دفعهم إلى هذا هو "حمية الجاهلية."

والحمية هي الأنفة والإباء، مأخوذة من "الحمي"، وهو القوة المحركة التي تحمي وتسخن، وتولد الحرارة المعنوية. هذه الحمية الغضبية هي التي حركتهم وسخّنتهم، ودفعتهم إلى أن يخالفوا المنطق والعقل، ويمنعوا المسلمين من دخول الحرم، بدون ذنب ارتكبوه، إلا أنهم مسلمون! ومنَّ الله على رسوله والمؤمنين، فأنزل السكينة عليهم، وملأت عليهم حياتهم، ودفعتهم إلى حسن التصرف، ومقابلة حمية قريش الجاهلية بتلك السكينة الإيمانية.

"حمية أهل الجاهلية". فالجاهلية هنا جاهلية انتماء سياسي وقومي، وتصرف قيادي؛ لأنها صفة للحالة العامة التي كان عليها زعماء قريش، عندما أصدروا قرارهم القيادي السيادي بمنع المسلمين من أداء العمرة. والجاهلية حالة يكون عليها الزعماء والمسؤولون، عندما يتخذون قراراً جائراً ظالماً خاطئاً، لأن الذي دفعهم إلى هذا القرار "حمية الجاهلية."

تبرج الجاهلية والتبرج: إظهار المرأة لعورتها، عند خروجها من بيتها، بأن تسير في الشارع أو تجلس في الأماكن العامة وهي تكشف شعرها، أو تضع المساحيق على وجهها، أو تكشف عن عنقها أو عضدها أو صدرها أو رجلها أو بطنها أوسرّتها...

واعتبرت الآية خروج النساء متبرجات كاشفات لعوراتهن من فعل النساء في الجاهلية الأولى، ودلَّ هذا على أن خروج النساء متبرجات سلوك جاهلي بدائي، لا تفعله المرأة الجادة الواعية العفيفة. والجديد في الآية أنها وصفت الجاهلية بالجاهلية الأولى، والمراد بالأولى الأولية الزمنية،

أي: الجاهلية السابقة، التي كانت عليها النساء في القرون القديمة، حيث كانت تخرج كاشفة عن مفاتنها.

ووصف الجاهلية بالأولى يدل على أن هناك جاهلية ثانية وثالثة ورابعة، تمر بها النساء في أزيائهن وملابسهن، وفي تبرجهن وتعرّيهن. كما أن وصف جاهلية التبرج والأزياء بالأولى يدل على أن التبرج والتعري ليس فنّاً ولا تقدماً، ولا حضارة ولا "شياكة"، وإنما هو "رجعية" وانحطاط، وتأخّر وتخلّف، لأنه عودة بالمرأة إلى عصور التخلف والبدائية والظلام!

إن المرأة التي ترضى لنفسها أن تقدم جسدها للرجال متخلفة، والتي تكشف أمامهم من جسمها أكثر مما تستر رجعية، تعود إلى البدائية الأولى للبشرية، ولا يتفق هذا مع كرامة المرأة وعفتها وطهارتها. وإن التبرج والتعري سلوك جاهلي طائش، وإن كل امرأة تقوم بهذا التصرف إنما هي جاهلية رجعية متخلفة، أما العفيفة المتسترة فهي المتحضرة المتمدنة الواعية المتزنة.(من كتاب (المسائل والفوائد من شرح مقدمة التوحيد لعبد الله الغليفى رحمه الله)

والذي حدا بالشيخ في هذا الأمر العظيم يعني التصدي لجمع هذه المسائل هو ما رواه البخاري وغيره عن النبي – صلى الله عليه وسلم –، من حديث ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال «أبغضُ الرجال إلى الله ثلاثةٌ: مُلحِدٌ في الحرَم, ومُبْتغٍ في الإسلام سنّةَ الجاهلية, ومُطَّلب دم امرئ بغير حقّ ليهريقَ دمَه» فمن طلب وابتغى في الإسلام سنة يعني مسألة من مسائل الجاهلية فهو داخل في قوله(أبغضُ الرجال إلى الله ثلاثةٌ) فمن ابتغى شيئا من أمر الجاهلية وطلبه أو كان فيه ولم يتركه بعد البيان له فهو داخل في هذا الوعيد الذي أخبر به عليه الصلاة والسلام.

والجاهليون الذين خالفهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، والذين تذكر هذه المسائل لبيان سننهم وما كانوا عليه، قد يكونون من العرب كما ذكرت أو من أهل الكتاب أو غيرهم كما سيأتي إيضاحه في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وذكر أهمية معرفة سنن الجاهلية؛ لأنه كما جاء عن عمر رضي الله عنه فى الخبر الذى اخرجه ابن سعد فى الطبقات ،والحاكم فى المستدرك ،والبيهقى فى الشعب ،وأبو نعيم فى الحلية، والحارث بن مسكين فى البداية والنهاية ،كلهم من طريق شبيب بن غرقدة عن المستظل بن حصين البارقي قال :خطبنا عمر بن الخطاب فقال :قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب ،فقام رجل من المسلمين إليه فقال :متى يا أمير المؤمنين؟ قال : حين يسوس أمرهم من لم يعالج أمر الجاهلية ولم يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم --قال شيخ الاسلام بن تيمية رحمه الله في منهاج السنة، ومجموع الفتاوى ، والفتاوى الكبرى معلقاً على أثر عمر رضى الله عنه–

إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية –'' قال – فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر ضرورة ما عند من علمه ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيمانا وجهادا ممن بعدهم لكمال معرفته بالخير والشر وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح وقبح حال الكفر والمعاصي .

قال بن القيم رحمه الله تعالى في الفوائد ''إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية'' ''وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية و الشرك، وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه ويعود المعروف منكرا، والمنكر معروفا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان، وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا والله المستعان''(مدارج السالكين) أنه قال: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية. فإذا عرف المرء الجاهلية وعرف أنه يجب عليه أن يتباعد عنها كان أحرى له أن يكون على بينة من أمره ولا تدخله سنة من سنن الجاهلية ولا مسألة من مسائل الجاهلية، ولهذا قال الشيخ رحمه الله في هذه الخطبة (لا غنى بالمسلم عن معرفتها) لا غنى بالمسلم عن معرفة هذه الأمور؛ لأنها أمور دخلت على المسلمين وابتغوا سنة الجاهلية عن جهل تارة، وعن علم مع عناد واستكبار تارة أخرى، وكما ذكر من قول الشاعر (وبضدها تتبين الأشياء) وقول الشاعر الآخر قبله (فالضد يظهر حسنَه الضدُّ) وقوله هنا (فالضد يظهر حسنَه الضدُّ) هذا من كلام عجز بيت للمنبجي أحد الشعراء المعروفين يقول في وصف شخص:

فالوجه مثل الصبح مبيضٌ والشعر مثل الليل مسودُّ

صنفان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنَه الضدُّ

وأما قوله (وبضدها تتبين الأشياء) فهذا من الشعر السائر المعروف لأبي الطيب المتنبي قالك

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتبين الأشياء

في قصيدة يُثني بها ويمدح بها أبا علي هارون بن عبد العزيز الكاتب أحد المتنسكة الذين مالوا إلى التصوف، وفي بعض الطبعات جُعلت وكأنها بيت واحد فتنبه لذلك

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المصنف رحمة الله تعالى عليه: هذِهِ مَسائِلُ خالفَ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عَلَيْهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ الكِتابِيِّينَ والأمِّيِّينَ، مِمَّا لا غِنى لِمسْلِمٍ عَنْ مَعْرِفَتِها. فالضِّد يظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ وَبِضدِّها تتميز الأَشْياءُ وَأَهَمُّ ما فيها وَأَشَدُّهُ خَطَرًا، عَدَمُ إيمانِ القَلْبِ بِما جاءَ به الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم، فَإنِ انْضافَ إلى ذلكَ اسْتِحْسانُ دِينِ الجاهِلِيَّةِ والإيمانُ بهِ، تَمَّتِ الخَسارةُ والعياذُ باللهِ تعالى، كما قال تعالى [العنكبوت: 52] :. . {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [العنكبوت: 52]

(المسألة الأولى) دعاء الصالحين: أَنَّهم يَتَعبَدونَ بإشْراكِ الصَّالِحِينَ فِي دعاء اللهِ تعالى وعبادته، وَيَرَوْنَ ذلكَ مِنْ تَعْظيم الصَّالِحِينَ الَّذي يُحِبُّهُ الله، ويُريدونَ بِذلكَ شَفاعتَهم عند الله لِظَنِّهِم أنَّهم يُحِبونَ ذلكَ كما قَالَ تَعَالى فِي أوائلِ [الزُّمَر2-3] : {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ - أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمر: 2 - 3] وقالَ تَعالى [يونس: 18] : {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس: 18] وهذهِ أعظمُ مسألة خالَفَهم فيها رَسول الله صلى الله عليه وسلم، فَأتى بالإخلاص، وأَخْبَرَهم أنَّه دِينُ الله الَّذي لا يُقْبَلُ مِن أحَدٍ سِواهُ وأنَّ مَنْ فَعَلَ ما يسْتَحْسنونه، حَرَّمَ الله عليه الجَنَّةَ، ومأواه النَّارُ.

وهذه المسألةُ هي الدِّينُ كُلُّهُ، وَلأجْلِها تَفَرَّقَ النَّاسُ بينَ مسلمٍ وكافِرٍ، وعندَها وَقَعَتِ العَداوةُ، ولأجلِها شُرِعَ الجهادُ؛ كما قال تَعالى فِي [البقرة: 193] : {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة: 193]

فأهل الجاهلية كانوا يتعبدون بإشراك الصالحين في عبادتهم، في العبادة والدعاء يرجون شفاعتهم لظنهم أن الصالحين يحبون ذلك وأن الله جل وعلا يحب ذلك.

وهذه المسألة هي زبدة الرسالة؛ رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنها مسألة الإخلاص في الدين، والعبادة فأهل الجاهلية كانوا يتعبدون الله جل وعلا بإشراكهم الصالحين في عبادة الله.

والصالحون جمع الصالح. **والصالح يراد به العهد وهو ثلاثة أصناف**:

الأنبياء والرسل.

الصالحون من البشر.

الملائكة.(وقد فصلنا ذلك فى شرح كشف الشبهات فى التوحيد)

وهؤلاء قد وقع في إشراكهم بالعبادة طوائف من الأميين مشركي العرب وغيرهم، فتارة يعبدون نبيا، وتارة دعون ويعبدون ملَكا، وتارة يعبدون صالحا ليس بملك ولا بنبي. قال جل وعلا ? أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى(19)وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ?[النجم:19-20]، وقال جل وعلا ?وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ?[المائدة:116] ?وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ(1) لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ?[سبإ:40]الآيات، ذكر جل وعلا هذه الأنواع في عدة آيات في القرآن، وهذه الشبهة أو هذا العمل الذي كانوا يعملونه من إشراك الصالحين جاء في هذه الأمة وورثته هذه الأمة من الجاهليين، والجاهليون حين عبدوا الصالحين يعني أنهم توجهوا إليهم، تارة يستغيثون بهم، تارة يذبحون لهم، تارة ينذرون لهم، تارة يستشفعون بهم، تارة يجعلونهم وسائط ونحو ذلك من أفعالهم، وهذه الأعمال حكم عليهم الله جل وعلا أنهم مشركون، وهذه هي –أعني الأفعال- هي عين ما حصل وحدث في هذه الأمة بعد القرون المفضلة.

هل كان أهل الجاهلية يعملون تلك الأعمال عن جهل أم عن علم؟ بل كانوا يفعلونها عن علم، وكانوا يعلمون حججا لذلك، ولهذا جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، قال جل وعلا عنهم (فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ)[غافر:83]، فأهل الجاهلية عندهم علوم ولكنها مضادة لعلم الأنبياء، مضادة للعلم الذي أنزله الله جل وعلا، قال جل وعلا (فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ)، فعندهم علم ولكنه ليس بنافع، ولهذا من حاجّ أهل التوحيد في الأزمان المتأخرة، فإنما يحاجهم بشبه مثل الشبه التي كانت عند أهل الجاهلية وواجهوا بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ومن أعظمها ما قال الشيخ رحمه الله تعالى في قوله تعالى (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[الزمر:3]. من أعظمها مسألة الشفاعة، طلب الزلفى إلى الله جل وعلا بأولئك الصالحين، فتجد أن منهم طائفة يقولون نحن لا نتوجه إلى الأولياء، إلى الصالحين، إلى الأنبياء، لأجل أنهم يستقلون بالنفع أو بدفع الضر، وإنما نتخذهم شفعاء عند الله جل وعلا؛ لأجل ما لهم من المقام الرفيع عند الله جل وعلا وهذا الأصل هو الذي يفعله المتأخرون، المشركون من هذه الأمة حيث إنهم يزعمون أنهم ما اتخذوا أولئك إلا واسطة، ويسمّون تلك الواسطة وذلك العمل يسمونه توسلا، والتوسل شيء واتخاذ الواسطة شيء آخر، عندهم شبه وحجج ولكنها داحضة كما قال الله جل وعلا (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ)[غافر:5]، وهم تارة يعبدون عبادة مستقلة؛ يعني بعضهم يتوجه إلى الأولياء، إلى الصالحين، إلى اللات، إلى العزى، يتوجهون لأجل أنهم عُبَّاد لهم منزلة عند الله، فيصرفون بعض العبادات لهم استقلالا، وتارة يتخذونهم واسطة.

فإذن هذه المسألة هي أعظم المسائل التي خالف فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أهل الجاهلية، فإن الله جل وعلا أمره بالإخلاص، وأن يأمر الناس بالإخلاص، فقال جل وعلا آمرا نبيه (قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي(14)فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ)[الزمر:14-15] وقال جل وعلا (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)[البينة:5]، وقال جل وعلا (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ(11)وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)[الزمر:11-12]، وهكذا في آيات كثيرة يأمر الله جل وعلا بإخلاص الدين له، ونبذ الشرك، والتوجه إليه وحده دونما سواه، خالفوا ذلك فأشركوا.

ما معنى الشرك؟ أنهم جعلوا لله جل وعلا ندا في العبادة، وهذا هو الشرك الأكبر، والنِدّ هو الشبيه

والنظير كما حسان في هجائه، قال:

أتهجوه ولستَ له بندٍّ فشركما لخيركما الفداء

يعني لست له بمثيل ولا نظير، فمن جعل أحدا مع الله مثيلا ونظيرا لله في العبادة والتوجه فقد سواه بالله جل وعلا، وقد أشرك بذلك الشرك الذي حكم الله جل وعلا به على المشركين بأنهم من أهل النار وأنهم حُرِّمَت عليهم الجنة.

قال جل وعلا مخبرا عن احتجاج المشركين وقولهم لآلهتهم في النار، قال جل وعلا في سورة الشعراء (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(97)إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[الشعراء:97-98]، فأخبروا عن أنفسهم أنهم سووا آلهتهم برب العالمين، وهذه التسوية تسوية في محبة العبادة، تسوية في العبادة؛ لأنهم توجهوا إلى الله وتوجهوا إلى غيره، عبدوا الله وعبدوا غيره، صرفوا بعض أنواع العبادة لله وصرفوا بعضا آخرا لغير الله، فهذا معنى التسوية وهو معنى اتخاذ النِّد، أنهم جعلوا لله عبادة وجعلوا لغيره عبادة أيضا، ولهذا استنكف المشركون لما أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – بكلمة التوحيد لا إله إلا الله، ما ذا قالوا؟(أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[ص:5].

واليوم إذا رأيت فإنه قد دخل هذا الأمر يعني هذا النوع من الشرك في المسلمين بعد مضي نحوٍ من ثلاثة قرون شيئا فشيئا.

وأصل البلاء الذي من أجله دخل هذا النوع من الشرك هو أنه فسرت كلمة التوحيد بأنها دالة على الربوبية، كما عليه أهل الكلام ومن تبعهم، لم يجعلوا كلمة التوحيد دالة على إفراد الله جل وعلا بالعبادة، وإنما جعلوها دالة على إفراد الله جل وعلا بالربوبية، ولهذا تجد في كتب أهل الكلام أنهم قالوا الإله هو القادر على الاختراع، الإله ما عندهم؟ القادر على الاختراع. لا إله إلا الله عند أهل الكلام معناها: لا قادر على الاختراع –يعني على الخلق– إلا الله. وهذا المعنى يقر به أهل الجاهلية (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)[الزخرف:9]، (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[الزخرف:87]، كانوا يوقنون بأن الله جل وعلا هو القادر على الاختراع وحده وأنّ غيره لا يخلق شيئا، لهذا احتج عليهم ربنا جل وعلا بقوله (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[الأعراف:191] لأنهم يقرون بتلك المقدمة.

كذلك أخذ هذا المعنى طوائف من المبتدعة من جنس الأشاعرة فقرروه في كتبهم، قرروه في كتبهم، فيقول أحد من متأخريهم وهو السَّنوسي في رسالته التي يسمونها أم البراهين، يقول فيها في معنى كلمة التوحيد يقول: فمعنى لا إله إلا الله لا مستغنيا عما سواه، ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله، فمعنى الإله —هذا كلامه– هو المستغني عما سواه المفتقر إليه كل ما عداه. لما درس الناس مثل هذه صار توحيد العبادة عندهم ليس هو معنى كلمة التوحيد، انحرف الناس شيئا فشيئا حتى اتخذوا آلهة من دون الله، يظنون أن التعلق بأرواح الموتى وسؤال من له جاه عند الله –على حَسَب ظنهم— سؤاله ليس من الشرك، وهذا

أصل البلاء الذي دخل في المسلمين، شيئا فشيئا دخل حتى عُظمت القبور وشُيدت وعُظم أصحابها، حتى أُعتقد أن لهم بعض خصائص الإلهية، حتى وصل الأمر في عهد الشيخ الإمام محمد رحمه الله تعالى إلى أنهم كانوا يعتقدون فيهم أنهم ينفعون ويضرون استقلالا والعياذ بالله، بل كانوا يشركون بهم في الرخاء وفي الشدة. لهذا قال الشيخ في قواعده الأربع: أن مشركي أهل زماننا أعظم شركا من مشركي العرب ذلك لأن أولئك كانوا يشركون في الرخاء وأما في الشدة فكانوا يوحدون الله ويخلصون الدين له كما قال جل وعلا عنهم (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)[العنكبوت:65]. وأما أهل هذا الزمان فإنهم يشركون في السراء وفي الضراء كما قال أحد علماء الدعوة حيث ناقش رجلا في تعلق طائفة من الناس بابن عباس في الطائف، كما كان قبل الدعوة كانوا يتعلقون به ويجعلونه إلها لهم، ويصرفون له حقوق الله جل وعلا، يجعلونه مستغاثا به، مذبوحا له، منذورا له، مدعوا، قال له: إن ابن عباس –يقول هذا أحد علماء الدعوة، يقول للآخر– إنّ أهل الطائف –يعني من كان منهم على هذا الاعتقاد– يتوجهون إلى ابن عباس يعرفون ابن عباس ولا يعرفون الله، فقال الرجل الآخر: معرفتهم بابن عباس تكفي. وهذا أمر قد لا يظهر لكثير من الناشئة في البلاد، لكن من عرف ما عليه الخرافيون في بعض البقاع في هذه البلاد وفي غيرها من بلاد المسلمين، يجد أن هذا الأمر شائع منتشر، بل إنهم يزيدون في أنهم يعتقدون أن بعض الأولياء لهم الضر والنفع الاستقلالي.

هذه المسألة ذكرها الشيخ أول مسألة لعظم شأنها، وهي الزبدة لرسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – بإخلاص الدين له، وبتوحيده جل وعلا وعدم الإشراك به، ونبذ الشرك الذي كان يفعله أهل الجاهلية.

قال رحمه الله: إن من فعل ذلك فقد أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن الله حرم عليه الجنة ومأواه النار كما قال جل وعلا مخبرا عن قول عيسى بن مريم عليه السلام (وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ [رَبِّي](1) وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)[المائدة:72].

إذن هذه المسألة هي أعظم المسائل، إذا كانت هي أعظم المسائل التي خالف فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أهل الجاهلية فكون الدعوة تُجعل مركّزة عليها معتنية بها أتم العناية يكون ذلك من وِراثة دعوة المصطفي – صلى الله عليه وسلم –؛ لأنْ هذه المسألة من أعظم المسائل التي خالف فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أهل الجاهلية، فإذا كانت كذلك فغيرها من المسائل التي خالف فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أهل الجاهلية هي دونها في المرتبة، فعليه يكون ورثة الأنبياء، ورثة النبي – صلى الله عليه وسلم –، من ورثوا عنه العلم النافع إنما يدعون أول ما يدعون ويهتمون أكثر ما يهتمون به بهذه المسألة العظيمة وهي أن ينقضوا الناس من النار وأن يجعلوهم ممن يرجى له الجنة، وذلك بنهيهم عن الشرك وبتوضيح مسألة التوحيد أتم إيضاح ومعنى الشهادة لله جل وعلا بالوحدانية وما فيها من النفي والإثبات ومعنى الكفر بالطاغوت ونحو ذلك من أصول التوحيد.

إذا كان كذلك، فتعلم أن من توجه في دعوته بغير الاهتمام بهذه المسألة العظيمة فإنما اهتم بأمر لم يكن اهتمام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – به أولا، ولهذا جاء في حديث معاذ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له «إنك تأتي أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يوحدوا الله» كما في صحيح البخاري في كتاب التوحيد، أو في الرواية المشهورة «إلى أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» أو «إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله».

فهذه المسألة هي أعظم المسائل، وعليها يجب أن تكون الدعوة مركزة مهتما بها؛ لأنها هي التي بها يتفرق الناس إلى مسلم وكافر، وأما غيرها من المسائل فهو دونها بكثير.

قال الشيخ رحمه الله: من أجل هذه المسألة تفرق الناس إلى مسلم وكافر وهذا يعني أن من أشرك بالله جل وعلا صالحا أو غير صالح فإنه كافر بالله، كافر، لا نتوان عن إطلاق الشرك عليه، ولا إطلاق الكفر عليه؛ لأنه ما دام أنه مشرك بالله جل وعلا، فعل الشرك، فإنه يطلق عليه أنه مشرك كافر، لكن الشرك الذي يُطلق عليه لا تستباح به أمواله ولا يستباح به دمه، بل ذلك موقوف على البيان، موقوف على الدعوة، لابد من البيان والدعوة قبل الاستباحة، لكن الحكم عليه، يُحكم عليه بأنه مشرك وتُرتَّب عليه أحكام الكفار في الدنيا، ولكن لا يشهد عليه بأحكام الكفار في الآخرة؛ يعني بأنه من أهل النار حتى نعلم أنه رد الحجة الرسالية بعد بيانها له بعد أن أقامها عليه أهل العلم، أو أنه قاتل تحت راية الكفر.

هذه هي المسألة الأولى، وطريقتنا في هذا الشرح ذكر إيضاح لهذه المسألة بما يتم معه فهم مرادات المؤلف رحمه الله تعالى، وليست مجال تقرير المسألة بكل ما يتعلق بها من فروع؛ لأن المقام يضيق عن ذلك، وموطن بيان هذه المسائل كتاب التوحيد وغيره من الكتب التي أُلفت في هذا الشأن.

(الثانية) التفرق

أنهم مُتَفرِّقونَ، ويَرَوْنَ السَّمْعَ والطَّاعةَ مَهانَةً ورَذالةً. فَأمَرَهُمُ الله بالاجتِماعِ، وَنَهاهُم عَن التفْرقة فقالَ عزَّ ذكرُه [آل عمران: 102 –103] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ – وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: 102 – 103]

يُقالُ: أرادَ سُبحانه بما ذُكِرَ ما كانَ بين الأوسِ والخَزْرجِ مِنَ الحُروبِ التي تَطاوَلَت مِائةً وَعِشرينَ سَنَةً، إلى أنْ أَلَّفَ سُبحانَه بينهم بالإسلام، فَزالتِ الأحقادُ، قاله ابنُ إسحاقَ(والأوس هم بنو الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن مزيقيا، إحدى قبائل الأنصار، وكان لهم مع الخزرج ملك يثرب، فلما جاء الإسلام، كانوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنصارا ،وكذلك الخزرج هم بنو الخزرج أخي الأوس بن حارثة، وكانوا في يثرب كالأوس قبل الإسلام وبعده..)، وكان يومُ بُعاث آخِرَ الحُروبِ التي جَرَت بينهم،(يوم بعاث من الايام التي جرت بين الأوس والخزرج، وكان في أوله للخزرج، ثم ظفرت به الأوس، فكادوا يبيدون خضراءهم.) وقد فُصِّلَ ذلكَ في "الكامل " ومِن النَّاسِ مَن يقولُ: أراد ما كان بَيْنَ مُشركي العَرَبِ مِنَ التَّنازعُ الطَّويلِ والقتالِ العريضِ، ومنه حربُ البَسوسِ(حرب البسوس من الحروب التي جرت بين بكر وتغلب ابني وائل، وهي أطول حروب العرب، حيث مكثت أربعين سنة، وسببها بغي كليب بن ربيعة.)، كما نُقلَ عن الحَسَنِ رضي الله عنه. وَقَالَ تَعالى [التغابن: 16] : {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} [التغابن: 16] إلى غيرِ ذلِكَ من الآيات النَّاصَّةِ على النَّهي عنِ الاستبدادِ والتَّفَرُّقِ وعَدَمِ الانقيادِ والطَّاعة مِمَّا كانَ عليه أهلُ الجاهِلِيَّة.

أنهم متفرقون في دينهم كما قال تعالى (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وكذلك في دنياهم ويرون أنّ ذلك هو الصواب، فأتى بالاجتماع في الدين بقوله (شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) [الشورى:13]، وقال تعالى (الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) [الأنعام:159]، ونهانا عن مشابهتهم بقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ) [آل عمران:105]، ونهانا عن التفرق في الدنيا بقوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) [آل عمران:103].

هذه المسألة الثانية وَصَفَ فيها أهل الجاهلية بأنهم متفرقون في دينهم ودنياهم، عندهم العزة والكرامة في التفرق؛ لأنه يدل على استقلال كل بما عنده، وأنه لا يتبع أحدا، متفرقون في دينهم، كلٌّ له دين، بعضهم يعبد الملائكة، بعضهم يعبد الصالحين، بعضهم ينكر البعث، بعضهم يجحد الرسالة بعضهم يؤله

عيسى، بعضهم يؤَلِّه عزيرا، ونحو ذلك، في دينهم لم يجتمعوا، كذلك في دنياهم، فبين الله جل وعلا أنهم شرع لنا من الدين ما نجتمع بيه في الدنيا، قال جل وعلا (شَرَعَ لَكُمْ مِن الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)[الشورى:13]، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في شرح هذه الآية في قاعدة الجماعة والفرقة: إن الأصل الأصيل الذي دعا إليه الأنبياء جميعا وهو الدين المشترك والإيمان المشترك هو الاجتماع على دين حق وعدم التفرق في ذلك. وأكد ذلك جل وعلا بقوله (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) فذكر جل وعلا ما وصف به أمر المرسلين بقوله (وَصَّيْنَا) وما أمر به النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، قال (شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) فهذه الآية فيها الأمر بالاجتماع، (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) وإقامة الدين بالاجتماع على التوحيد؛ يعني على ما دعا إليه النبي – صلى الله عليه وسلم –، بأن لا يكون في البلاد شرك، وأن لا يُقر الشرك وأن لا يكون هناك ما يخرم الأصل الدين، لأنه إذا تفرق الناس في أصل تفرقوا في الدنيا ولا شك، فأهل الشرك لما تفرقوا في الدين تفرقوا في الدنيا، فالتفرق في الدين يورث التفرق في الدنيا، وكذلك التفرق في الدنيا —يعني بعدم الاجتماع كما سنوضحه — يورث التفرق في الدين، فأمر الله جل وعلا بعدم التفرق في الدين وعدم التفرق في الدنيا؛ يعني بالأمر بالاجتماع والائتلاف في الأبدان والاجتماع في الدين، فهما نوعان من الاجتماع؛ اجتماع في الأديان واجتماع في الأبدان وأحدهما ملازم في الآخر، لهذا قال أهل العلم:

الجماعة في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – «الجماعة رحمة والفرقة عذاب» ونحو ذلك من النصوص التي فيها ذكر الجماعة هو ما يكون من مجموع الأمرين، اجتماع في الدين واجتماع في الدنيا، اجتماع في الأبدان واجتماع في الدين، فكما أن النبي – صلى الله عليه وسلم – خالف أهل الجاهلية في أنهم متفرقون في الدين فأتى بدين واحد يخضع له الجميع، كذلك أمره بالاجتماع في الدنيا وأن يقروا لولاتهم وأن لا يخرجوا عليهم كما سيأتي إيضاحه في المسألة الثالثة.

قال جل وعلا (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ)[آل عمران:105] أنزلها الله جل وعلا على صحابة النبي – صلى الله عليه وسلم – مع كون الذين كانوا قبل من اليهود والنصارى افترقوا على أكثر من سبعين فرقة؛ اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فنهانا الله جل وعلا عن التفرق في الدين بقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا) يعني أنه جل وعلا أمر بالاجتماع على التوحيد والاعتصام بحبل الله، وأن لا نتفرق في الدين وأن نجتمع على الكلمة العظمى كلمة التوحيد، وأن لا يحدث فيما بيننا حدث مخالف لأصل الإسلام ولا نخالف عما أنزل الله على رسوله.

الآية الأخرى في قوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)[آل عمران:103] فهذه الآية في الاجتماع في الدنيا، فإن الناس إذا تفرقوا في الدنيا؛ يعني تفرق بعضهم عن بعض بأن أطاع بعضهم طائفة وأطاع الآخرون طائفة أخرى وحصل هذا التفرق في الأبدان في الدنيا نتج عنه جزما التفرق في الدين ويبدأ صغيرا ثم يكون كبيرا، فكلما تفرق الناس في الدين نتج عنه فرقة في الأبدان، وكلما تفرقوا في الأبدان – يعني بأنْ يكون لكل طائفة مطاع لا يقرون بطاعة كبرائهم من ولاة الأمر– فإنهم ينتج عن ذلك تفرقهم في دينهم فأمر الله جل وعلا بقوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)، (لَا تَفَرَّقُوا) في أبدانكم، (لَا تَفَرَّقُوا) عن من ولاه جل وعلا أمركم، لهذا جاء في الحديث –الذي سيأتي إن شاء الله تعالى– أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال «إنّ اللهَ يَرْضَىَ لَكُمْ ثَلاَثاً أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً, وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُوا, وأن تُناصِحوا من ولاه الله أمركم» كان أهل الجاهلية يعتزون بالتفرق، ويعتبرون الطاعة مذلة ومهانة كما سيأتي في المسألة الثالثة، وهاتان المسألتان متصلتان ببعض، فإن أهل الجاهلية لما لم يطيعوا ولاتهم مع كونهم مشركين تفرقوا في دنياهم لأن إحدى المسألتين متصلة بالأخرى، فأتى الله جل وعلا بالاجتماع في الأمرين، وإنما تتم الشريعة بالأمرين جميعا، اجتماع في الدين بأن لا نتفرق فيه، واجتماع في الدنيا بأن لا يكون في المسلمين أحزاب (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)، ولهذا كلما نشأ في الإسلام ناشئة تُفَرِّقُ عن الجماعة الأولى وعن النهج الأصل، فإن ذلك يعد من التفرق والاختلاف، إذا كان ذلك عن أراء مستقلة وعن دين مستقل في الأصول، وهذا الذي حدث في الأمة فافترقت إلى ثلاث وسبعين فرقة ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال «هي الجماعة»، يعني التي اجتمعت في دينها واجتمعت في دنياها.

(المسألة الثالثة)

أن مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة، والسمع والطاعة له ذل ومهانة، فخالفهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وأمر بالصبر على جور الولاة وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة، وغلظ في ذلك وأبدى وأعاد.

وهذه الثلاث التي فيه جمع بينها فيما ذكر عنه في الصحيحين أنه قال: « إنّ اللهَ يَرْضَىَ لَكُمْ ثَلاَثاً أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً, وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُوا, وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» ولم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسب الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها. أن مخالفة ولي الأمر، وعدم الانقياد له –عندهم– فضيلة، وبعضهم يجعله دينا، فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، وامرهم بالصبر على جور الولاة والسمع والطاعة والنصيحة لهم، وغلظ في ذلك، وأبدى وأعاد.

وهذه الثلاث هي التي ورد فيها ما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: " يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم".

وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من كره من أميره شيئا، فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرا، مات ميتة جاهلية"

وروى أيضا عن جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، فقلنا: أصلحك الله، حدّث بحديث ينفعك الله به سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: "دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعنا، فكان1 فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان"

والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة، ولم يقع خلل في دين الناس أو دنياهم إلا من خلال الإخلال بهذه الوصية.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة، لم يقع خلل في دين الناس أو دنياهم إلا بسبب الإخلال في هذه الثلاث أو بعضها، هذه الثالثة أهل الجاهلية كانوا فوضى، لا يقرون بولاية لأحد ولا يرضون ذلك؛ لأنهم يعتقدون أن الطاعة لبشر مثلهم أنها ذل ومهانة، كيف يطيع ويسمع له وهو مثله؟ بما فضل عليه؟ ويعتبرون عدم الطاعة دليل العزة ودليل الكرامة ودليل الرفعة، فخالفهم النبي – صلى الله عليه وسلم – خالف أهل الجاهلية بأن أمر بطاعة ولاة الأمر يعني المسلمين في غير المعصية، أمر بطاعتهم في المعروف، وأن لا يُخرج عليهم وأن لا يُفَرَّق الناس من حولهم، ولهذا كان أول من خالف هذا الأصل الخوارج حيث إنهم خرجوا

عن ولاية وخلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بآراء اجتهدوا فيها، والنبي – صلى الله عليه وسلم – أمر بالطاعة قال «أطع», قال «أسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك», وقال في الحديث الآخر حينما سأله: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا». «إنه يكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ولكن من رضي وتابع». قال: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا.» وفي رواية «ما أقاموا فيكم الصلاة.»، وفي حديث آخر قال «إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان.»، فما دام أن الوِلاية يصح عليها اسم الإسلام، ولم تنتقل عنه إلى الكفر ولم يُحكم بردتها، فالطاعة والسمع واجبان، وتجميع الناس حولها ما دام اسم الإسلام باقيا واجب؛ لأنه ما يحصل للناس من الاجتماع ولو كان هناك نقص في بعض أمور الدين فإنه ما يحصل من الاجتماع أضعاف أَضعاف ما يحصل من المصلحة من التفرق، وأنتم إذا نظرتم إلى تاريخ المسلمين، وجدتم أن هذا الأصل حزم في مواضع وكلما ظن الناس أنهم بخروجهم على الوالي المسلم أنه سينتجون خيرا فإنه ترتد عليهم ولا يكون ذلك خير، كما قال عليه الصلاة والسلام «لا يأتيكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» خرجوا على بني أمية ولم يقروا لهم، وقامت دولة بني العباس ومع ذلك لم تكن دولة بني العباس كدولة بني أمية وهكذا في نزول من الزمان، فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – بمخالفة المشركين في ذلك، وقد كان الواحد من المشركين ينصح بالاجتماع وينهى عن التفرق فقال أحد منهم:

لا يصلح الناس فوض لا صَراط لهم   ولا صَراط إذا جُهالهم سادوا

كانوا يأمرون بأن يرجعوا إلى كبرائهم، ولكن ما كانوا يطيعون، بل كانت الجزيرة العربية فيها من القيادات والاختلاف قبل مبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما لا يحصى ولا تغيبن عنكم الحروب الدائرة في الجاهلية وأسباب ذلك.

إذن فهذا الأصل من الأصول العظيمة، قال رحمه الله: وأبدى فيه –يعني النبي – صلى الله عليه وسلم – – أبدى فيه وأعاد وغلظ في ذلك، من التغليظ أنه قال «اسمع وأطع ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك» تسمع وتطيع لم؟ لأن أخذ المال وضرب الظهر هذا مفسدته عليك وستلقى ربك أنت وهو ويقتص لك منه، لكنك إذا لم تطع تعدى ذلك إلى الناس فصار الاختلاف وصارت الفرقة ومعها لا يكون الاجتماع في الدين.

في هذه الجزيرة قبل دعوة الشيخ رحمه الله تعالى كان الناس متفرقون كل في جهة، كان في شرق الجزيرة العربية كانوا يدينون للولاية العثمانية، وكان في غربها يدينون [للأشراف] وفي وسط الجزيرة يعني في نجد لم تكن تحت ولاية؛ إنما كان لكل بلد أمير ولكل بلد والي يطيعه أصحابه وكان في ذلك من القتال ما تعلمون حتى إنه في يوم واحد في بعض القرى القريبة من الرياض في يوم واحد قُتل أربعة؛ كان أمير فقتله واحد تولى الإمارة، وقتله ثالث وتولى الإمارة، وقتله رابع وتولى الإمارة في يوم واحد، وهي كلها قرى لا تزيد القرية عن مئات إن كثرت.

فأنعم الله جل وعلا على هذه البلاد بدعوة التوحيد، واجتمع الناس في دينهم وفي دنياهم ولا شك أن التفرق في دنيا سيورث التفرق في الدين والتفرق في الدين يورث التفرق في الدنيا وإنما يحصل —كما قال الشيخ– يحصل الفساد في الناس من الإخلال في أحد هذه الثلاث أو بها جميعا؛ إذا أشركوا وقع الشرك، إذا لم يجتمعوا في الدين ولم يجتمعوا في الدنيا، إذا لم يطيعوا ولاة أمورهم ولم يناصحوهم فإنه يقع الافتراق في الدين والدنيا، وهذه الثلاث أصول عظيمة، هذه الثلاث كما ذكر جمعها النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله « إنّ اللهَ يَرْضَىَ لَكُمْ ثَلاَثَاً أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً, وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُوا, وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» وهي مسائل عظيمة أسأل الله جل وعلا أن ينفعنا دائما فيما بيّنه إمام هذه الدعوة من المسائل العظيمة التي نحتاج إليها ولا شك في كل وقت في هذا الزمان، ومذاكرتها والتذكير بها ضروري يعني حبذا لو يكون في المجالس أن تؤخذ مسألة، مسألة، من هذه المسائل ويُقرأ شرحها للألوسي أو لغيره، وينظر فيها ويتأمل لأنها أشد ما تكون بحاجة إليها كما قال في المقدمة قال: لا غنى للمسلم عن معرفتها.

أسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن ينور قلوبنا جميعا، وأن يجعلنا متبعين لنبينا – صلى الله عليه وسلم –، وأن يعلمنا العلم النافع وأن يرزقنا الدعوة إليه والصبر على الأذى فيه، وأسأله جل وعلا أن يجعل آخر أيامنا خيرا من أولها وأن يجعل أيامنا في قرب منه وازدياد وزلفى إليه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وأسأل الله جل وعلا لي ولكم الثبات إلى الممات والاستعداد ليوم لقاه.

مسألة : هل الرد على المخالف لا يتطرق إلى الرد على الفرق والجماعات والأشخاص !

والجواب: الرد على المخالف من أصول هذا الدين؛ وهو من جهاد البيان ،الجهاد بالعلم والرد على المخالف ، لأن الله جل وعلا هو أول من ردّ، وأعظم من رد على المخالفين لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وهو الذي حاجهم بنفسه جل وعلا، فالرد على المخالفين من أعظم القربات، يقول شيخ الإسلام: وهو من أعظم أنواع الجهاد. وهذا صحيح وقد يفوق جهاد الأعداء الخارجيين؛ يعني أن مجاهدة العدو الداخل أعظم من مجاهدة العدو الخارج؛ لأن العدو الخارج بينةٌ عداوته أما العدو الداخل فهذا قد يخفى، ومن أعظم العداوات أن ينشأ في المسلمين من يدعوهم إلى غير منهج السلف لأن هذا –كالبدع والشركيات والمناهج الضالة من منحرفة كالرافضة والخوارج ونحوها– فإن هذا لا شك أنه الرد على هؤلاء من أعظم القربات، الخرافيين الصوفيين أهل الطرق ونحو ذلك كل هؤلاء الرد عليهم من أفضل القربات وأعظم الطاعات، وهو نوع من الجهاد لا بد منه قال جل وعلا (فَلَا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)[الفرقان:52] ومجاهدتهم بالقرآن وبالعلم من أعظم أنواع الجهاد، أما أن يتركوا ويسكت عنهم، فمتى يعرف الحق؟ إذا سكت العالم على بيان ضلال الضالين، متى يعرف الحق؟ لأننا يجب علينا أن نرعى الدين، الدين علينا أهم من الأشخاص فإذا كان الرد على فلان يحمي حمى الدين —هذا المخالف– ولا مفسدة راجحة في الرد؛ من سفك دماء ونحوه، فهذا يتعين الرد، فالرد على المخالفين من

أصول الإسلام ولا شك.

فقوله أنه عليه أن يبين منهج السلف دون التطرق إلى الفرق الضالة كلام غير دقيق وغير صحيح.

وكذلك الجهاد بالسنان شرع لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الدين كله لله ،لا شك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – إنما جاهد لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وليكون الدين كله لله جل وعلا، كما قال(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)[الأنفال:39] وفي الآية الأخرى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)[البقرة:193]، يعني جميعا، وقال جل وعلا (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)[البقرة:208]، فالمأمور به العباد أن يخلصوا الدين، إذا ما أخلصوا الدين لله جل وعلا فإنهم يجاهَدون جهاد كفر كما فعل النبي – صلى الله عليه وسلم –، من أجل هذه المسألة جُوهد المشركون وأُستبيحت دماؤهم وأموالهم، ومن أجلها تفرق الناس بين مسلم وكافر فالدماء بأي شيء أبيحت؟ لأجل الكفر والمحاربة إن لم يقبلوا الإسلام أو دفع الجزية ، دماء المشركين أبيحت لأجل أنهم مشركون لأجل أنهم يشركون مع الله آلهة أخرى، فهذه المسألة هي التي يجاهد من أجلها لأنها أعظم ما يجاهد لأجله.

مسألة : يقال عندما يتعدى الإمام بالضرب وأخذ المال يُصبر عليه كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –، ولكن لو مسّ العِرضَ فهل يُصبر عليه أيضا؟

أولاً هذه الزيادة معلولة ولم تثبت فى الصحيح "هذه الزيادة؛ ذكرها مسلمٌ رحمه الله، في غير الأصول، من طريق: أبي سلام، عن حذيفة، عن النبي صلى الله عليه وسلم. وهو معلول؛ لأن أبا سلام لم يسمع من حذيفة"! قاله الدارقطني وجماعة من الحُفاظ، ورُوي من غير هذا الوجه عند أحمد، ولا يصحّ! وكذلك عند ابن حبَّان، وهو معلول، ولا يصحّ في ذلك شيءٌ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم! ولو كان هذا الحديث معروفًا؛ لاحتجّ به الصحابة على عبد الله بن عمرو بن العاص، حينما تجهَّز للقتال دفاعًا عن أرضه، وكان سيقاتل خليفةَ عصره، ورواه مسلم. – واحتجّ عمرو بحديث: «من قُتل دون أرضه فهو شهيد»، "حديث حذيفة، قد رواه الشيخان من طريق أبي إدريس الخولاني عنه، وليس فيه زيادة «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»، وإنما بلفظ: "قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». ويَحسُن بنا ها هنا عرض كلام ابن حزم رحمه الله، على الفهم الخاطئ لهذه الزيادة، حيث قال رحمه الله: "فإذا كان هذا كذلك؛ فيقينٌ لا شك فيه، يَدري كلُّ مسلم، أن أخْذ مال مسلم أو ذمّي بغير حق، وضرْب ظهره بغير حق؛ إثمٌ وعدوانٌ وحرام"! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم». فإذًا لا شك في هذا، ولا اختلاف من أحد من المسلمين؛ فالمسْلِم مالَه للأخذ ظلمًا، وظهرَه للضرب ظلمًا، وهو يقدر على الامتناع من ذلك بأي وجه أمكنَه؛ مُعاونٌ لظالِمه على الإثم والعدوان! وهذا حرامٌ بنصّ القرآن". انظر: الفِصَل.

"وعلى فرضية ثبوت هذه الرواية –تنزُّلًا–؛ فقد نصَّ ابنُ حزم رحمه الله وغيرُه؛ على أنها محمولةٌ على الحاكم الشرعيّ العَدْل، إذا فعل ذلك بحقِّه، ولم يكن فيه معتديًا ولا ظالما، كإقامة حدٍّ وغيره. فلْيَخسأ أولئك الذين اشتَرَوا الضلالةَ بالهُدى، وباعوا دينَهم بعرضٍ من الدنيا، ولَبَّسُوا على المساكين والجاهلين دينَهم، وجعلوا من الطواغيت الفجَرَة؛ أتقياءَ بَرَرة، ووُلاةً لأمر المسلمين، وأُمراءَ المِلَّة والدِّين! ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم. (وقد شرحنا هذا الحديث وفصلنا القول على هذه الزيادة فى شرح اللمعة)

قوله هنا (لو مسَّ العِرض) هذه مجملة تحتاج إلى تفصيل.

مسُّ العِرض إذا كان بالتعدي على العرض مباشرة فإنه يُقاتِل المرء دون عِرضه؛ يعني أتى والي من الولاة ودخل يريد أن يأخذ زوجتك أو يتعدى عليها تقاتل دون ذلك، فإن قُتلت دون عرضِك فأنت شهيد.

أما مسّ العرض بمعنى أن يكون هناك مثل ما يكون في مثل هذا الزمان الإعلام ونحوه الذي يفسد النساء، ويُفسد الأعراض فهذا لاشك أنه لا يدخل ضمن الأول؛ لأنّ هذا ليس متعينا ولا موجها لواحد بعينه، وإنما عليه أن يتحصّن بالدين، وهذا من جنس الفتن ومن جنس أنواع البلاء والمعاصي التي تنتشر في الناس بأمر الولاة ونحوهم، وهذا لا يخرج به المرء عن الإسلام، فكيف إذن لا يُصبر عليه؟

فإذن العبارات المجملة ينتبه أصحابها.

مسألة : المصر على كفرٍ من العُبّاد الجاهليين دعاة الصالحين والأولياء، بعد أن بين له الأمر وما هو عليه ثم أقر وأصر على ما هو عليه، أو أنه قاتل تحت راية كفر، هل تنطبق عليه أحكام الكفار في الآخرة أم يبقى كمن لم يبين له؟

الجواب: أن من قاتل تحت راية كفرية معتقدا صحة ما قاتل لأجله ولو لم يصله البيان بمفرده فإنه إذا مات يشهد عليه بالنار، كما فعل الصحابة؛ الصديق ومن معه مع المرتدين لما أسروا من أسروا قال ما تركوهم حتى يشهدوا بأن قتلاهم في النار، وأن قتلى المسلمين في الجنة، فمن قاتل تحت راية كفر غير مكره معتقد صحة ما قاتل له ولو لم يبين له بمفرده فإنه يكون كافرا ظاهرا وباطنا، يُشهد عليه بالنار، أما إذا خرج معهم ولم يقاتل ونحو ذلك فهذا ليس له هذا الحكم.

مسألة :هل كل المسائل التي ذكرها المؤلف مخرجة من الملة؟

الجواب: لا، هذه المسائل اشتملت على ما هو شرك أكبر، وما هو كفر، وما هو شرك أصغر، وما هو بدعة وما هو محرم. اشتملت على هذه الأنواع سيأتينا إن شاء الله تعالى كل هذه الأنواع، بعضها مثل التقليد في المسألة الرابعة قال: إن دينهم مبني على أمور أعظمها التقليد، التقليد على النحو ذاك محرم، قد يكون شركا أكبر، إذا كان تقليدا في التحليل والتحريم ونحوه. إذن هذه المسائل لا تأخذ المسألة تقول أنها شرك لأنه ذكرها الشيخ في مسائل الجاهلية، لا، هذه خصال كان عليها أهل الجاهلية بعضها يكون شرك وبعضها ليس كذلك ،كما بينا ذلك وفصلناه فى المقدمة فى معنى الجاهلية وأقسامها .

سؤال :من قال إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله خرج على العثمانيين، وكيف نرد عليهم؟

الجواب من جهتين:

الجهة الأولى: أنه كما ذكرت لكم نَجْد في وقت الشيخ لم تكن تحت ولاية العثمانيين، بل إن نجدا من سنة 260 هـ وهي لم تخضع لولاية، لا ولاية العباسيين لا ولايات أخر، كانت مستقلة، تسلط عليها بعض الخوارج من ذلك الوقت وطائفة من أهل اليمن ونحوها، يعني استقلت لم تدخل تحت طاعة من ذلك الوقت، فكانوا في تفرق فلم يُجبر أهلها ولم يخضعوا لبيعة وإنما كانوا مستقلين، لما ظهرت الدولة العثمانية كانت نجد كل بلد لها أميرها، فما خضعوا تحت الخلافة العثمانية في أول ما قامت لأنه أول ما قامت كانت على إسلام صحيح بعد ذلك انحرفت.

هذا لما أتى الشيخ وهم على هذا النحو كل بلد لها أمير، ما يقرون بطاعة لبني عثمان بخلاف الأحساء والمنطقة الشرقية وهؤلاء يقرون للولاية للعثمانيين، والوالي على الأحساء ونحوها تحت ولايته، كذلك [الأشراف] ونحوهم كان عندهم نوع استقلال لكنهم تحت الولاية العامة، أما نجد كانت مستقلة، هذا من جهة.

الجهة الثانية: أن في وقت الشيخ رحمه الله تعالى كان العثمانيون يدعون إلى الشرك الأكبر وإلى الطرق الصوفية ويحببون ذلك وينفقون على القبور وعلى عبادتها ينفقون عليها الأموال، فمن هذه الجهة لو كانت نجد داخلة تحت الولاية لما كان لهم طاعة لأنهم دعوا إلى الشرك وأقروه في عهودهم الأخيرة، أما في المائتين سنة الأولى (250 سنة الأولى) كانوا على منهج، يعني كانوا في الجملة جيدين، لكن لما في كان في سنة 1100 تقريبا وما بعدها لما كثر الشرك في المسلمين هم كانوا ممن يؤيدون ذلك تأييدا وينفقون عليه، وقد وجد من أقوال الخلفاء العثمانيين –حسب التسمية الشائعة– ولاة بني عثمان وجد منهم من يكتب أدعية في استغاثة بالرسول – صلى الله عليه وسلم – أو استغاثة بالأولياء ونحو ذلك.

فالجهة الأولى هي المعتمدة التي ذكرتُ لك، والثانية فرع عنه.

المسألة الرابعة دينهم التقليد

أن دينهم مبني على أصول: أعظمها التقليد، وهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار من الأولين والآخرين:

كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} الزخرف.

فأمرهم الله تعالى بقوله: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} الأعراف .

وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} ، قال: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ} البقرة.

إلى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا في ربقة التقليد، لا يحكمون لهم رأيا، ولا يشغلون فكرا، فلذلك تاهوا في أودية الجهالة، وهكذا كل من سلكهم في أي عصر كان.

الخامسة: الاقتداء بفسقة أهل العلم وجهالهم وعبادهم:

فحذرهم الله تعالى من ذلك بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} التوبة

وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} المائدة.

إلى آيات أخر تنادي ببطلان الاقتداء بالفساق وأهل الضلالة والغي، وذلك من سنن الجاهلية وطرائقهم المعوجة.

السادسة: الاحتجاج بما كان عليه أهل القرون السالفة، من غير تحكيم العقل، والأخذ بالدليل الصحيح.

وقد أبطل الله تعالى- ذلك بقوله في "طه": {قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ} طه.

وقال تعالى في " القصص": {فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ.وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}

وقال عز ذكره في سورة "المؤمنين": {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ.فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ. إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ}وقال ـ تعالى ـ في (ص) : {وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على ءالهتكم إن هذا لشيئ يراد ما سمعنا بهذا في الملّة الأخرة إن هذا إلاّ اختلاق}.

فجعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ما جاءت به الرّسل: أنه لم يكن عليه أسلافهم، ولاعرفوه منهم، فانظر إلى سوء مداركهم، وجمود قرائحهم، ولو كانت لهم أعين يبصرون بها، وآذان يسمعون بها، لعرفوا الحقّ بدليله، وانقادوا لليقين من غير تعليله، وهكذا أخلافهم وورّاثهم، قد تشابهت قلوبهم.

السابعة: الاعتماد على الكثرة، والاحتجاج بالسواد الأعظم، والاحتجاج على بطلان الشيء بقلة أهله، فأنزل الله تعالى، ضد ذلك وما يبطله، فقال في " الأنعام": {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.

فالكثرة على خلاف الحق لا تستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب، فالحق أحق بالاتباع، وإن قلّ أنصاره، كما قال تعالى: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} ص، فأخبر الله عن أهل الحق أنهم قليل، غير أن القلة لا تضرهم:

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل (البيت للشاعر اليهودي السموءل بن غريض بن عادياء الأزدي، كما في ديوانه) ،المقصود أن من له بصيرة ينظر إلى الدليل، ويأخذ ما يستنتجه البرهان، وإن قلّ العارفون به، المنقادون له.ومن أخذ ما عليه الأكثر وما ألفته العامة من غير نظر الدليل فهو مخطيء، سالك سبيل الجاهلية، مقدوح عند أهل البصائر.

(المسألة الثامنة) الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء كقوله(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) [الشعراء:111]، وقوله (أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) [الأنعام:53] فرده الله بقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)[الأنعام:53]

الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريبا، فرد الله تعالى ذلك بقوله في "هود": {فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ}.

ومعنى الآية: {فَلَوْلا كَانَ} تحضيض فيه معنى التفجع، أي: فهلا كان {مِنَ الْقُرُونِ} ، أي: الأقوام المقتربة في زمان واحد {مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ} ، أي: ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل، أو ذوو فضل، على أن يكون البقية اسما للفضل، والهاء للنقل، ومن هنا يقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم ، ومنه قولهم: " في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا"، {يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ} الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قصصهم، وفسر الفساد بالكفر وما اقترن به من المعاصي، {إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا} استثناء منقطع، أي: ولكن قليلا ممن أنجيناهم، لكونهم كانوا ينهون.

(المسألة التاسعة) الإقتداء بفسقة العلماء فأتى بقوله (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)[التوبة:34]، وبقوله (لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)[المائدة:77].

الاستدلال على المطلوب، والاحتجاج بقوم أعطوا من القوة في الفهم والإدراك، وفي القدرة والملك، ظنا أن ذلك يمنعهم من الضلال.فردّ الله تعالى ذلك عليهم بقوله سبحانه، في "الأحقاف": {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} ومعنى الآية: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ} أي: قوّينا عادا وأقدرناهم و"ما" في قوله تعالى: {فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ} موصولة أو موصوفة، و"عن" نافية، أي: في الذي، أو في شيء ما مكناكم فيه من السعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادي التصرفات، كما في قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ} ، ولم يكن النفي بلفظ "ما" كراهة لتكرير اللفظ، وإن اختلف المعنى، {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً} ليستعملوها فيما خلقت له، ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم، ويستدل بها على شؤون منعمها عز وجل، ويداوموا على شكره جل ثناؤه.

{فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ} حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل، {وَلا أَبْصَارُهُمْ} حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى {مِّن شَيْءٍ} أي: شيئا من الأشياء، و "من" مزيدة للتوكيد، وقوله: {إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} تعليل للنفي.

{وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، ويقولون: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

فهذه الآية تبطل الاحتجاج بقوم أعطوا من القوة في الفهم والإدراك وسعة الأذهان وغير ذلك ما لم يكن مثله للعرب الذين أدركوا الإسلام، ومع ذلك ضلوا عن سواء السبيل، وكذبوا الرسل بالأباطيل، فالتوفيق للإيمان بالله ورسله، والإذعان للحق، وسلوك سبله، إنما هو فضل من الله تعالى لا لكثرة مال ولا لحسن حال، ومن يرُدّ الحق ويستدل بكون من هو أحسن حالا منه لم يقبله، ولم يحكم عقله، ويتبع ما يوصل عليه الدليل، فقد سلك سبيل الجاهلية، وحاد عن الحجة المرضية.

ومثل هذه الآية: قوله تعالى: {وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}البقرة. كان اليهود يعلمون من كتبهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله سيرسل نبيا كريما من العرب، وكانوا من قبل يستفتحون على المشركين ببعثته، ويقولون: يا ربنا أرسل النبي الموعود إرساله، حتى ننتصر على الأعداء، فلما جاءهم عرفوا، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، كفروا به، حسدا منهم أن تكون النبوة في العرب، وهم يزعمهم أحسن أثاثا ورئيا، ولم يعلموا أن النبوة والإيمان بها فضل من الله يؤتيه من يشاء.

ومثلها أيضا قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}.

الضمير في قوله: {يَعْرِفُونَهُ} عائد على العلم في قوله: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ} ، فكتمانه الحق، وعدم جريهم على مقتضى علمهم لما فيهم من الجاهلية، والاعتقاد أن فضل الله مقصور عليهم ولا يتعداهم على غيرهم.

وآية "الأنعام" موافقة لهذه الآية لفظا ومعنى، وهي قوله تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}

(**المسألة العاشرة**) الاستدلال على بطلان الدين بقلة أفهام أهله وعدم حفظهم كقوله (بَادِيَ الرَّأْيِ)[هود:27]. الاستدلال بعطاء الدنيا على محبة الله تعالى:

قال سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا

عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ. وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}.

وقال في سورة " القصص ": {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ. قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}وفي آيات أخرى في سورة "القصص" يقول الله سبحانه: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}. على آخر الآية.

فقد كفانا الله تعالى إبطال هذه الخصلة الجاهلية بقوله في الآية الأولى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ} ، وفي الآية الأخرى بقوله: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ} ... إلخ، فعلمنا من ذلك محبة الله ورضى الله إنما يكون بطاعته والانقياد لرسله، والإذعان للحق باتباع البرهان.

وأما كثرة المال، وسعة الرزق، وعيش الرخاء، فلا دليل فيه على نجاة المنعم عليه بمثل ذلك، ولو كانت الدنيا وما فيها تعادل عند الله جناح بعوضة ما سقى من عصاه شربة ماء.

قال سبحانه: {وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ}

والمقصود أن ما كان عليه أهل الجاهلية من كون زخارف الدنيا من الأدلة على قرب من حازها من الله وقبوله عنده، فقول بعيد عن الحق، ومذهب باطل لا ينبغي لمن له بصيرة أن يعوّل عليه.
في المعنى العام للمسائل التي قبلها وذلك أن المسائل التي قبلها كانت في ذكر الاستدلال؛ استدلال المشركين وأهل الجاهلية على ما هم عليه من الباطل بأنواع من الأدلة.
فذكر من تلك الأدلة أنهم يستدلون بالأثر على الصواب، وأنّ الشيء يعرف بأنه حق إذا كان أتباعه هم الأكثرين.

وذكر من أدلتهم أنهم يحتجون بالأولين والمتقدمين.
وذكر من استدلالاتهم أنهم استدلوا بقوم أعطوا قوى، أعطوا أفهاما، وأعطوا علوما، يستدلون بهم وبأحوالهم على بيان صلاح ما هم عليه وبطلان ما جاءت به المرسلون.

وهذه المسألة هي تلك المسائل، وهي أنهم يستدلون على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء، يستدلون على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء، وهذا تنوع من الأدلة التي يستدل بها أهل الجاهلية في الماضي، ويستدل بها كل من كان فيه شعبة من شعب أهل الجاهلية في كل زمان ومكان، يستدلون على بطلان أمر من الأمور بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء، وذلك أنه في ظاهر أفهامهم أن أهل الشرف والسيادة وأهل الرفعة والريادة وأهل الوجاهة والمال هم أحرى بأن يكونوا أوصل للحق وأعرف للحق وأحسن استدلالا عليه، فكيف يكون الضعفاء الذين هم أضعف عقولا، وأضعف أفهاما عندهم، كيف يصلون إلى الحق دونهم؟ فاستدلوا بذلك على أن أولئك الضعفاء عقولهم ليست صائبة، وأفهامهم ليست مستنيرة، وأنهم هم أهل الأفهام وأهل العقول، وإذا كان كذلك تم لهم الدليل بأن جاءت به المرسلون إنما اقتنع به الذين ليس لهم عقول صائبة، وليس لهم عقول مستنيرة، وليس لهم أفهام جيدة وقرائح قوية، فاستدل ذلك على بطلانه، إذْ لم يقتنع به أهل الفهم، يقنع به أهل العلو، لم يقتنع به أهل الجاه، أهل المال، الرؤساء، الأشراف، الملأ، ونحو ذلك.
وهذا الاستدلال في أصله صحيح شرعا، ولكنهم هم استدلوا به، فخلطوا ولم يزنوه بالميزان الشرعي الصحيح، وكيف ذلك؟ صحيح أن كل من كان أوفر عقلا وأجود ذهنا وأصح قريحة أنه يصل إلى الحق، وأنّ من كان دونه في الفهم، ودونه في العقل، ودونه في إتيان اللب والفهم، هذا يكون أبعد من الذي قبله في الوصول إلى الحق، ولهذا ذكر الله جل وعلا المشركين بأنه أعطاهم ألبابا وأعطاهم عقولا، لكن هذا الأصل لما كان صحيحا كان حال المشركين معه منقلبة ومنعكسة؛ لأنه يثبت بذلك أنّ من استجاب للحق وتبع المرسلين أنهم هم أهل العقول وهم أهل الألباب وهم أهل الفهم، قال جل وعلا (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)[العنكبوت:43]، والمشركون لم يعقلوها فثبت أن من عقلها هم العالمون، وإن كانوا عند أولئك أقل فهما، كذلك قال جل وعلا (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) فالذين يتذكرون ويتبعون الرسل هم أولوا الألباب وهم أولوا العقول.
إذن فهؤلاء المشركون وأولئك المشركون كيف لم يتم لهم هذا الاستدلال، مع أنه في أصله صحيح؟ ذلك أنهم إن ظنوا أنهم هم أهل العقول، وهم أهل الأفهام، وهم أهل الألباب، فذلك قد يكون صحيحا في نفسه لكن العقل يصرفه عن فهم الحجة ويصرفه عن اتباع الحق أنواعا من الصوارف كانت متوافرة في أولئك المشركين، متكاثرة فيهم، ظاهرة بادية في حالهم وشأنهم:
(وأعظم تلك الصوارف الاستكبار والهوى: ذلك أن الهوى يغطي العقل عن الحق وهم كانوا أهل هوى

فالهوى كان صارفا لاستعمال عقولهم فيما كان ينفع (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)[الفرقان:43]،(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)[القصص:50].

(من الصوارف أيضا التي جعلت عقولهم ضعيفة وأفهامهم كليلة، وهم يضنون أنهم يحسنون صنعا وأنهم هم أولوا الألباب من الصوارف الغنى، و الله جل وعلا بين أن الإنسان يصرفه المال عن رؤية الحق فقال جل وعلا (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(6)أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)[العلق:6-7]، فالإنسان إذا رأى نفسه غني، غني وكثر ماله كان ذلك في الأكثرين صارفا لهم عن رؤية الحق وعن اتباع الحق؛ لأن للمال بهرج وله زينة، فيحتاج صاحب المال إلى التجرد العظيم و الإخلاص الأعظم الذي يصرفه عن الركون إلى تلك اللذة وذلك الإغراء حتى يقبل الحق، فكان هذا صارفا لأذهانهم لقبول الحق ومن رؤيتهم الحق حقا، ومن استعمالهم ما أعطاهم الله جل وعلا من الألباب في إبصار الهدى وإتباع المرسلين.

(من الصوارف أيضا ما هم فيه من الجاه فكانوا أهل جاه، إما في نسب كشرف النسب غير كسبي، وإما في رئاسة وترفع وسؤدد بين الناس، ونحو ذلك من أنواع الجاه، الجاه صاحبه يغطِّى عقله إذا لم يكن مبصرا البصر الشرعي، فلهذا ردوا الحق لأنهم كانوا على جاه امتنعت عقولهم من رؤية الصواب لأجل غطاء الجاه وغطاء السؤدد.

(ومن الصوارف أيضا العجب بالنفس واعتقاد رفعتها، فإذا اعتقد المرء في نفسه أنه أرفع من غيره فإنه يصده ذلك عن قبول الحق إذا جاء به غيره، ولهذا فإن المشركون قالوا ما قالوا حيث قال طائفة منهم (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)[الزخرف:31] أرادوا أن تكون الرسالة في العظماء الذي هم أعلى منهم رتبة وشرف حتى لا يكون في صدورهم حرج من أتباعه، ومن الأنواع الصوارف كثيرة.

هذه المسألة ذكر فيها إمام الدعوة رحمه الله نوعا من أنواع الصوارف وحجة واستدلالا لهم يستدلون به، ذلك الاستدلال أنهم يستدلون على بطلان الشيء المراد إثبات أنه حق لأنه ما اتبعه إلا الضعفاء، والضعفاء يشمل -يعني هذا الاسم- كل ضعيف مالا وجاها ونسبا وفير ذلك من أنواع الضعف الذي يكون بين الناس.

احتجوا بهذا على أنه لو كان الحق لو كان هذا الذي جاء به الرسول حقا لكنا أحرى به (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)[الأحقاف:11]، (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا) يعني عن الذين آمنوا (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)[الأحقاف:11] فهذا نوع، كذلك ما قص الله جل وعلا في قصة نوح من الآيات التي استدل بها المصنف رحمه الله تعالى حيث قال الملأ من قوم نوح (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ)[هود:27] هذه الآية في سورة هود، أو الآية التي استدل بها المؤلف (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)[الشعراء:111] (الْأَرْذَلُونَ)

جمع أرذل، أصلها في اللغة لشيء الدون، ذلك أن هذه المادة رَذَلَ أصلها في اللغة لشيء الدون يعني إذا كان شيئان عال ودون، فالدون هو الأرذل من الأمرين؛ يعني أنهم قسموا الناس إلى فريقين: أشراف وسادة وملأ، وآخرون هم الضعفاء وهم الأراذل، وقال جل وعلا في هذه الآية مخبرا عن قيل قوم نوح (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)، (أَنُؤْمِنُ لَكَ) يعني أنصدق بما جئت به(وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)، وفي قراءة أخرى (وأَتْبَاعك الْأَرْذَلُونَ) وهي ليست سبعية؛ يعني كيف يكون الصواب مع أولئك مع أنهم الضعفاء وهم الأرذلون، وقد قال المفسرون أن أكثر أتباع نوح كانوا من أهل الصناعات بعضهم أهل حياكة، وبعضهم أهل نجارة، وبعضهم أهل بيع وشراء، ونحو ذلك، فاستدلوا بنوع المتبعين لنوح عليه السلام استدلوا بذلك على بطلان ما جاء به (أَنُؤْمِنُ لَكَ) الإيمان هاهنا لغوي يعني التصديق. وضابط ذلك: أن الإيمان في القرآن عُدِّي تارة بالباء وعدي تارة باللام.والغالب فيما عدي بالباء أنه الإيمان الشرعي، المعروف تعريفه. وما عدي باللام يراد به المعنى اللغوي، قال جل وعلا (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا)[يوسف:17]، فلما عُدي الإيمان باللام علمنا أنه لغوي، وهو التصديق الجازم الذي لا يخالط صاحبه شك فيما خوطب به، أو في الشيء.

هنا (أَنُؤْمِنُ لَكَ) يعني أنصدق لك تصديقا جازما لا امتراء فيه والذين اتبعوك هم الأرذلون (وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)، فمنعهم هذا النوع من تصديقه ومن اتباعه.

ولم يكن هذا في قوم نوح فحسب بل كان هذا في العرب وفي قريش بخاصة، فلما اتبع النبي – صلى الله عليه وسلم – أولئك الصحب الكرام والصفوة المنتخبون، قال المشركون (أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا)[الأنعام:53] كيف يكون؟ هدى الله يهدي به أولئك الذين هم ضعاف، الذين هم موالي، الذين هم صغار السن ونحو ذلك، فأجابهم الله جل وعلا بقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)[الأنعام:53]، الله أعلم حيث يجعل هداه وحيث يجعل توفيقه،فهل أنتم تتحكمون في فعل الله جل وعلا. إذن لو استعملوا عقولهم لوصلوا إلى الصواب، لو لم تكن على قلوبهم أنواع من الغشوات لوصلوا إلى الصواب والحق، ولكن عقولهم لم تكن نافعة (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)[الأحقاف:26]، فأولئك لم ينفعهم العقل ولم ينفعهم ما أوتوه من الفهم، فكان حقا أن يكون أولئك الأقوام الضعفاء فيهم هم أهل العقل، وهم أهل الفهم، وهم أهل الإدراك لهذا قال بعض السلف: كم من لبيب ولا لب له، وكم من عاقل ولا عقل له. كم من لبيب أعطاه الله جل وعلا لبا يفهم به الأشياء ولكنه في الواقع لا لب له، لم؟ لأنه انصرف عما ينجيه في الآخرة هل يكون من عقل العاقل أن يقتحم الردى ويضع نفسه على دكادك من نار هل هذا من العقل ؟هل هذا من اللب؟ هل يكون العاقل الذي يجحد الحق الذي سيوصله لو اتبعه إلى الجنة ويرضى بزينة الحياة الدنيا القاصرة الفانية الهالكة عن الجنة؟ يرضى بأن يكون من أهل النار أو بأن يتعرض في الآخرة إلى العذاب وهو في الجنة يتبع عرضا زائلا؟ ليس هذا بعاقل ولهذا اعقل العقلاء أكملهم إيمانا، ولو كان

في الناس ضعيف العقل، إذا كان أكمل إيمانا، وكمل إيمانه ولو كان في الناس وضيعا لا مال له، فقيرا ليس بذي سؤدد ليس بذي شرف، وليس بذي جاه لكنه هو لو أقسم على الله لأبره، وهو صاحب العقل، وصاحب اللب، فما أحسن قول القائل: كم من ذي لب ولا لب له، وكم من ذي عقل ولا عقل له.

هذه المسألة التي هي من صور أهل الجاهلية ومن شعبهم ومن مسائلهم، ومما اختصوا به، هذه المسألة جاءت إلى المسلمين وكانت فيهم لأنها من سنن أهل الجاهلية والنبي – صلى الله عليه وسلم – قال «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال «فمن» وفي رواية أخرى قالوا: يا رسول الله فارس والروم؟ قال «فمن الناس إلا أولئك».

فهذه الأمة جاءت فيها هذه الشبهة وذلك الاستدلال، وذلك في أصناف من هذه الأمة:

الصنف الأول: هم أهل الرئاسة بأنواع من الرئاسات، وأولئك إذا رأوا المتبعين للهدى وللحق تنقصوهم وتنقصوا عقولهم، وقادهم ذلك التنقص إلى أنّ هذا الذي هم عليه ليس هو الصواب، فإذا رأوا من يتمسك بالسنة احتقروه، واستدلوا بأنه من أهل الفقر والمسكنة، من الموالي، من غير أشراف الناس، على أنه إنما اختار هذا الطريق، وهذا النحو لأجل ضعف عقله وهم أهل العقول الكاملة وهم الكَمَلَة الذين هم عند أنفسهم أصحاب فهْم، فيستدلون بفهْمهم ومعرفتهم وعقولهم على أن هذا ليس هو المراد بالشريعة، وهذا كان في كثيرٍ من أصحاب الرياسات، فكانت تلك الرياسات معطلة لعقولهم عن رؤية الصواب.

الصنف الثاني قوم من العقلانيين الذين درسوا الفلسفة، وعرفوا المنطق، وكانت لهم عقول وأفهام وذكاء، لكنهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية عنهم: أُوتوا عقولا ولم يؤتوا فهوما، وأوتوا ذكاء ولم يؤتوا ذكاء. أولئك أهل الفلسفة ينظرون إلى من يسمونهم بالحشوية، ينظرون إليهم وما هم عليه بأنهم هم الأراذل هم الضعفاء، الضعفاء في العقل، الضعفاء في الفهم، فيقودهم ذلك لأن أولئك الذين وسموهم بالضعف والرذالة بأن أولئك لم يعتنوا بعقولهم –يعني عقول أولئك الفلاسفة–، لم يعتنوا بمنطق اليونان، لم يعتنوا بالفلسفة، لم يعتنوا بتلك الدلائل التي يسمونها عقلية ليس لهم سعة في العلوم، إنما مدارهم على النقل، ليس عندهم فهم إنما هم ينقلون قال الله وقال رسوله، لم يدخلوا في الفهم بعقولهم، يستدلون بضعفهم عن المشاركة على بطلان هذا النوع، فيقولون: لو كان ذلك صوابا لكان وصل إليه فلاسفة الأمة طالب الحكمة منهم، هؤلاء هم أهل العقول العالية وهم أهل الفهوم السامية، فلا بد أن يكون هناك تقديم لطريقة أولئك على طريقة أولئك الحشوية. هذه كانت في قرون، ثم وصل بطائفة من الفلاسفة الجمع بين

الطريقتين، لم يصدعوا بالحق ولم يروه تماما، حيث إنه من اتبع الكتاب والسنة ولم يدخل في ذلك بعقله يعني العقل المعارض للكتاب والسنة، لم يدخل في ذلك بعقله، حاولوا أن يجمعوا بين الطريقتين، كما جمع بينها ابن رشد ونحوه، فحاول أن يجمع بين طريقة المتكلمين الذين يحتقرون الناس ممن عداهم وبين طريقة أهل الأثر في عدة مصنفات لهم، لهذا سموهم الحشوية ما ذا يعنون بكلمة الحشوية؟ يعني أنهم حَشْوِ الوجود، ليسوا هم النخبة، ليسوا هم المتميزين، إنما هم حشوية لا قيمة لهم، كما قال أولئك: إن أتباع الرسل هم الأراذل وهم الضعفاء. كذلك قال من ورِثهم من هذه الأمة إنّ من اتبع الكتاب والسنة واتبع الحديث والأثر وأثبت ما أثبت فيهما إنما هم حشوية يعني حشو في الوجود، حشو في هذه الأمة ليسوا معتبَرين مهما قالوا ومهما فعلوا.

أيضا دخلت تلك المسألة في أهل الغِنى من هذه الأمة أهل الأموال، فأهل الأموال من هذه الأمة غرهم غناهم، يعني من غره منهم غناه فكان إذا أتاهم بالحق من ليس بأهل غنى تراه لا يسمع، تراه يجد في نفسه صدودا عنه، إذا جالسه من ليس من أهل المال، وليس من أهل الغنى، وليس من أهل الزينة في لباسه وفي مركبه، وفي بيته ونحو ذلك، تراه لا يعير لقوله اهتماما، وذلك أنه يستدل بضعفه على أن ما جاء به وما قاله ليس بحق، كما قال أولئك.

أيضا دخل ذلك في الأمة وهذا يتجلى في هذا العصر بالذات دخل فيمن يسمونهم العصريين من الإسلاميين يعني ممن اهتموا بالفكر، اهتم بالفكر طائفة من أهل هذه الأمة، ورأوا أن عرض الإسلام عن طرق الفكر وعن طريق الجمع بين منتجات الحضارات من الأفكار وما جاء في هذه الشريعة أنه يُخرج للناس ما يقتنعون به، فإذا كان الحق رأوه عند من ليس مفكرا ومن لم يعتنِ بهذه الفكريات احتقروه؛ لأنه عنده ناقص العقل، ناقص الفهم، بليد الذهن، وهذا كثير وتجد أن كثيرين ممن كتبوا الكتابات الإسلامية إذا خاطبهم من يعتني بعلم الكتاب والسنة وبعلم الأثر الذي هو أعلى العلوم وصفوة العلوم وأصوب العلوم، رأيت عندهم في أنفسهم وقد يُظهرون احتقارا له وردا لما جاء به لِمَ؟ لأنه ضعيف عندهم بتلك العلوم الفكرية، ولهذا واجهنا كما واجه ربما كثيرون منكم أنه يعاب على من يكثر النفقة في الكتاب والسنة في هذا العصر، يعاب عليه؛ لأنه ليس عنده علم بهذه الأمور الفكرية الجديدة بأنواع من الفلسفات الفكرية وأنواع من الدراسات الإسلامية الحديثة، يعيبون عليه، وهذا ليس بعيب؛ لأن الله جل وعلا جعل أهل اللب وأهل الفهم إنما هم أهل الإتباع لكتابه ولسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم –. أهل التذكر هم أُلُوا الألباب، فكلما كان الرجل أطوع لله وأتبع لسنة النبي – صلى الله عليه وسلم – كلما كان هو ذو اللب، وكلما كان هو ذا اللب كان ذا الفهم؛ لأن هذه الأمور لم يطالب بها الشرع، وهذا داء سرى في طوائف في هذه الأمة، وأخشى أن يتسرب إلى هذه البلاد التي هي خلاصة في دعوتها اتباع الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح.

أيضا دخل في طائفة نختم بها هذه الطوائف دخل في طوائف من الدعاة والدعوات، ذلك أن طوائف من أولئك الذين يعتنون بالدعوة –مشكورين– رأوا أنهم كلما كان عندهم معرفة أعظم بالواقع على اختلاف صنوفه وأحواله من قياسات ومن فكريات، ومن أحوال، ومن تقلبات، ومن دراسات، كلما كانوا أقرب إلى الصواب، ويرون أن من لم يعتني بتلك العلوم من العلماء ومن طلبة العلم أنهم هم أضعف منهم فهما وأقل منهم نظرا وأقل منهم تسديدا وصوابا، وهذا أيضا من آثار أولئك، لأنه فيه اعتناء بفهومهم،

واحتقار للآخرين باقتصارهم على النقول على الكتاب والسنة، ليست معرفة تلك الأمور مرذولة ومردودة بل العلم بتلك الأشياء مطلوب شرعا –بحده المطلوب شرعا على ما يقرره أهل العلم–؛ لكن الاستدلال بفهومهم ومعرفتهم لتلك الأمور على أن غيرهم ليس على الصواب لأجل أنه ما فهم تلك الأمور، هذا من جنس احتجاجات الأولين، فيرى أن المفتي إذا لم يكن عالما بالواقع يكون ذاك الذي علم أفهم منه وأرفع، فتكون فتوى العالم مردودة يستدل على بطلانها بقلة فهمه لتلك الأمور، وهذا ليس بأمر مؤصل شرعا، إنما الأمر المؤهل شرعا العمدة هو الدليل، فإذا كان للعالم استدلال وفهم فإنه يكون هو الصواب، إذا كان للعامل اتباع للكتاب والسنة فليس عليه أن يعرف كل ذلك، من علم هذه الأشياء علما صوابا فإنه قد يكون ذلك العلم نافعا وقد يكون ضارا له.

المقصود من ذلك أن طائفة في العالم الإسلامي عموما اعتنوا بتلك العلوم، ورأوا أن من لم يعتنِ بها أنه هو الأضعف وهذا من مداخل الشيطان على القلوب؛ لأن هذه الأمة لن يصلحها إلا شيء واحد ألا وهو التربية على كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والسعي في انجاء الناس في الدار الآخرة، ولا شك أنه بالإجماع أن تلك العلوم ليست منجية لعامة الناس في الدار الآخرة وليست بنافعة في الدار الآخرة؛ لكنها قد تنفع الأمة، فيكون المخاطب بها طائفة قليلة من هذه الأمة، وأما نشرها على العوام فهذا ليس بحد شرعي.

إذا كان كذلك، فإن هذه الحجة من أنه من كان أقل فهما في تلك الأمور فيدل على بطلان ما جاء به وعلى بطلان ما قاله هذا من جنس حجج أهل الجاهلية، ودخل هذا في الأمة بنوع من تلبيسات الشيطان على النفوس. إذن فنخلص من هذا إلى أن أهل الجاهلية يستدلون على بطلان الشيء لأنه لم يتبعه إلا الضعفاء، والواجب أن نظر إلى الحق مجردا عن من أتى به، فربما يأتي بالحق شيطان، كما علّم أبي هريرة رضي الله عنه، الشيطان علمه دعاء معروفا لا يزال كل منا يدعو به، وإنما علم أبي هريرة شيطان، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – لأبي هريرة بعد أن ذكر له ما قال «صدقك وهو كذوب».

فإذن يُنظر إلى الحق وتكون غاية المؤمن طلب الحق، ومن جاء به فهذا لا يهم من جاء به ليس بمقصود، قد يجيء به الصغير، قد يجيء به الضعيف، قد يجيء به المولى، قد يجيء به الرفيع، قد يجيء به من لم يكن عنده جاه، ونحو ذلك.

المقصود أن يكون الحق إذا جاء به جاءٍ أن يكون مقبولا دون نظر في حال من جاء به، يعني من حيث رفعته ووضاعته، لكن تارات تلتبس هذه المسألة بما إذا كان الذي يجيء به من أهل البدع، من أهل الأهواء ونحو ذلك، هذا له مقام آخر.

هذا ملخص لهذه المسألة وهي كما ترى مسألة مهمة.

الحادية عشر:.الاستدلال على بطلان الشيء بأخذ الضعفاء به، وضعف فهم من أخذ به، على ما يدل عليه قول قوم نوح له كما حكاه عنهم الكتاب الكريم.

قال تعالى في سورة "الشعراء": {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) . (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) 1. {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ}.

فانظر إلى قوم نوح كيف استنكفوا من اتباع نبيهم لسبب اتباع الضعفاء له، وذلك لكون مطمح انظارهم في الدنيا، وغلا لو كانت الآخرة همهم، لاتبعوا الحق أينما وجدوه، ولكن لجاهليتهم اعرضوا عن الحق لاتباع شهواتهم.

وانظر إلى هرقل لما كان من العقل والبصيرة على جانب عظيم، اعتقد اتباع الضعفاء دليلا على الحق، فقال في جملة ما سأل أبا سفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وسألتك عن أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم اتباع الرسل" ومثل ذلك قوله تعالى في سورة "هود": {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ. فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} الآيات.

الإقتداء بفسقة العلماء والعباد.

أهل الجاهلية جاهلية العرب سألوا اليهود وسألوا النصارى عمّا هم عليه فاقتدوا بهم لما أجابوهم بأنهم على صواب، كما قال جل وعلا (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِن الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا) [النساء:51]، (يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِن الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا) يعني أن اليهود لما سألهم المشركون من أهدى نحن أو أتباع محمد؟ أجابوهم بأنهم هم أهدى، وهذا نوع إقتداء؛ بل هو اتباع لأولئك بل سماه الله جل وعلا إيمانا بالجبت والطاغوت، كانوا يقتدون بالفسقة من العلماء الذين يأكلون أموال الناس ظلما، وصفهم الله جل وعلا بقوله (إِنَّ

كَثِيرًا مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) [التوبة: 34] أولئك الفسقة من العلماء لَبَسوا الحق بالباطل وكتموا الحق وهم يعلمون، وهذا جار في كل زمان كذلك اقتدوا باليهود مع أن اليهود كانوا أهل أكل للأموال بالباطل، هذا دليل الفسق (إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)، الواجب أن يكون الإقتداء بأهل الصلاح والطاعة، أما الذي يشتري هذه الدنيا بالآخرة، فيدفع الآخرة ثمنا لهذه الدنيا، هذا فاسق، يشتري الدنيا ويدفع ثمن الآخرة ويصد عن سبيل الله، هذا دليل الفسق، أولئك المشركون كان من خصائصهم أنهم يذهبون إلى من علموا فسقه، ومن علموا ضعف ديانته، ومن علموا مخالفاته، فيقتدون بهم في الدين، وهذه ظاهرة سواءً في مشركي العرب، أو في أهل اليهودية، أو في النصارى، أو في غيرهم من أصحاب الملل، كلهم كانوا عندهم هذه الخصلة؛ لأنّ المرء يحب من يسهِّل عليه ومن يرضيه بواقعه، الأصل في هذا أنّ المرء يحب من يقول له إنك على صواب، ويأنف ممن يقول له إنك على غير الصواب والهدى، فإذا قال له قائل: إنك على صواب وهدى فرح به. ولو كان يعلم أنه ضال ولو كان يعلم أنه فاسق، لأن تحري الصواب والبراءة من غيره من الضلال، هذا لا يؤتاه إلا طالب الحق، لا يؤتاه إلا من رغب في الحق وسعى إليه، فأولئك يسألون أهل الضلال من اليهود والنصارى فإذا أجابوهم قبلوا ذلك، وهذه كما ترون سَرَتْ في هذه- الإقتداء بفسقة العلماء- في أنواع كثيرة؛ في طوائف كثيرة من الأمة، وهي واضحة ظاهرة.

فمن الناس من يقتدي أو يرضى بحكم قاضٍ يعلم أنه جائر فيه، يعلم أن هذا القاضي قبل رِشوة، قبل مالا، ومع ذلك يرضى ويقتدي به في ما قال, يأتي بعض القضاة ويستدل ببعض القضاة الذين يأخذون الرشاوي، وكان هذا في الزمن القديم كثيرا خاصة في القرون ما بين الثالث إلى الحادي عشر، كَثُرَ هذا جدا، وكان الحكام يعني القضاة يأخذون الرشاوي على المال، وكل قاض يستدل ويستشهد بفعل من سبقه، ويقول أنا أحكم بهذا للحاجة، ونحو ذلك، فيقتدي بالفاسق الذي يعلم فسقه، من أنه الرشوة في الحكم كفر وهذا أعظم من مجرد الفسق، كذلك العلماء الذين يعلم من حالهم أنهم فسقة, يعلم من حالهم أنهم لا يصلون كما هو موجود في كثير من الأمصار.

وقد سئل بعض أهل العلم عن حال علماء مصره وبلده عن أنهم لا يؤدون الصلوات، يفعلون ما يفعلون من المنكرات، كيف يكون علمهم؟ قال: صنعة. يعني اتخذوا العلم مهنة وصنعة من الصنائع، فكانوا فسقة بذلك, الناس اقتدوا بهم؛ فيستفتونهم فيفتون ويرشدونهم ويبينون لهم في وسائل البيان المختلفة، ويقبلون، وهذا نوع من آثار الجاهلية في النفوس، والواجب أن يسعى إلى من يعلم أنه أصلح وأنه أبر وأنه أتقى و يأخذ الدين منه؛ لأنه هو الذي لا يحابي، إذا كان الطالب يطلب الحق فيذهب إلى من يقول له الحق ولو كان مُرا، هذا طالب الحق والهدى، أما الذي يطلب من يصحح له وضعه، فإنه يذهب إلى

فسقة أهل العلم الذين يتكسبون بالدين ويتكسبون بالعلم فيجيبون كل واحد بما يناسبه. ومن صنوف أولئك:طائفة كان في ما مضى من الزمان كانوا يفتون على المذاهب الأربع؛ يأتي ذلك المستفتي إلى ذلك العالم، فيستفتيه المستفتي، فيُفتي العالم بالمذهب الذي عليه ذلك المستفتي، يقول أنا على مذهب فلان فيفتيه، غالب أولئك كما وصفهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بعض رسائله متأكلون بالعلم.

بعض أولئك العلماء لا يفتي إلا بمال، يقول: أنا لا أفتيك إلا أن تعطيني شيء.

بعض أولئك العلماء فيما مضى من الزمان يعلمون أنه على فسق في حاله، ولكنهم يقتدون به في أموره الخاصة، يعني يرون حاله في بيعه يرون حاله في شرائه ويقتدون به، يقولون فعله العالم الفلاني، طيب ذلك العالم غير متحر للصواب، وربما كان فاسقا.

بعض أولئك العلماء يفتي الناس بما يناسبهم برخص من رخص أهل العلم إذا استفتاه بعض أهل الوجاهة، بعض أهل المال، لا يريد أن يكدر خاطره، فيذهب يفتي له برخصة من رخص الفقهاء ليست صوابا، يعلم أنها ليست صوابا، أو بقول مهجور من الأقوال في الفقه إرضاء له، وهذا يكثر عند المخالطين للكبراء وللأمراء في كل زمان وكل مكان، فإذا لم يكن المرء على –يعني العالم الذي يسأل فيجيب– إذا لم يكن على تحر في دينه، لا يهمه في تبليغه دينه أن يرضى ذلك السائل أو لا يرضى، فإنه لا يقتدى به، إذا كان هذا المستفتى أو المسؤول يُهِمه رضي ذاك هذا يجب أن لا يقتدى به ولا يؤخذ العلم منه.اليوم ربما خالط طائفة من الناس من أهل العلم الأغنياء أصحاب الأموال الباهرة أصحاب الشركات أو العقارات أو المؤسسات أو نحو ذلك، فيأتيه ويكون ذلك أو يكون له مصلحة منه، فإذا سأله أفتاه بما يريح ذاك، وهذا من أنواع الإقتداء بفسقة العلماء الذين كانوا من قبل، ذلك أن الله جل وعلا وصفهم بقوله (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)[آل عمران:99]،(قل يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)[آل عمران:70]، (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)، (لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ)[آل عمران:71]، (لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[آل عمران:99]، هذه في آل عمران كما ذكرت وهنا وصفهم بأنهم يصدون عن سبيل الله، يعلمون أنهم يصدون عن سبيل الله ومع ذلك يقتدون بهم، كانوا يفرحون بأنهم سيجيء نبي يتبعونه، فلما جاء النبي كفروا به وأعرضوا عنه، وهذا نوع من الصد عن سبيل الله، فكانوا بذلك فسقة، كان الناس يعلمون أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ومع ذلك كانوا يقتدون بهم، وهل أولئك أصحاب إقتداء؟ هل يجوز الإقتداء بهم؟ لا.

الصنف الثاني فسقة العبّاد:

والفسق في العبادة يكون بالخروج عن السنة، فكل من تعبد بعبادة بدعية فهو فاسق بها، كأصحاب الطرق الصوفية، وأصحاب الأقوال والأحوال التي لا توافق السنة، فأولئك بأجمعهم أهل فسق إذ كانوا خارجين عن سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –، فلما كان حالهم كذلك، كان الواجب أن ينكر عليهم

وأن لا يقتدى بهم، المشركون اقتدوا بفسقة العبّاد، وهم الذين ابتدعوا بدعا من النصارى وغيرهم، كان في كل مكان ربما اقتدى المقتدي بعابد فاسق، يعني خرج بعبادته عن الشريعة التي أنزلها الله جل وعلا على رسولِ ذلك المتبع فاتبع.

وهذه الخصلة من الجاهلية سرت في هذه الأمة في أنواع من الناس، يجمعهم أصحاب الطرق الصوفية الذين اقتدوا بمن يعلمون فسقه؛ بل إن الأمر زاد على ذلك حتى جعل أولئك أولياء لله جل وعلا، صنف بعض كبار الصوفية يعني غلاة الصوفية، صنفوا مصنفات في طبقات الأولياء مثل الشعراني وغيره، وجعلوا من الأولياء -كما رأيت ذلك بنفسي- جعلوا من الأولياء من يأتي الفواحش وقال في ترجمة أذكرها قال: سيدي فلان الفلاني قدس الله روحه، ونوّر ضريحه كان يتلو آيات ليست في القرآن. وهذا أنا اطلعت عليها بنفسي، وقال: وخطب رضي الله عنه سبع جمع في جمعة واحدة. يعني خطب في سبعة بلاد في جمعة واحدة، يخطب هنا وهنا وهنا في وقت واحد، وهذا لا شك أنه إما أن يكون مجنونا، أو يكون تتلبس به الشياطين عن اختيار منه، أو غير ذلك، المهم أن هذا ليس من الأولياء لأن هذا لا شك أنه من الفسقة بل من الكفرة إذا كان يتلو آيات ليست من القرآن ويقول أنها من القرآن فهذا من الكفرة، يقتدي به ويجعل في التراجم ويثنى عليه، فعمّ ذلك في بلاد المسلمين اليوم وطمّ، حتى لا تكاد تدخل بلد إلا وفيه طريقة وفيه زاوية وفيه من يتبع الشيخ الفلاني والشيخ الفلاني، يذكرون من مناقب كل صاحب طريقة وكل شيخ من أولئك، يذكرون من مناقبه أشياء لا يفعلها الأتقياء إنما يفعلها الفسقة، تارة تكون منسوبة إليه لا تصح وتارة تكون صحيحة، وفي الجملة من كان على فسق في العبادة، كيف يقتدى به؟ فهذه الشعبة من شعب أهل الجاهلية، وجدت في المسلمين والواجب أن تصدى، الواجب أن ينكر على أصحابها؛ لأنها من خلال الجاهلية والنبي – صلى الله عليه وسلم – أتى لرفض كل خصلة من خصال الجاهلية، تلك الخصال الباطلة التي لم يأذن الله جل وعلا بها.

ساق المؤلف هنا قوله جل وعلا (لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ) هذه آية المائدة (وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)[المائدة:77]. فجمع في أوساطهم أنهم ضلوا من قبل، وذلك بأنهم فعلوا بعيسى عليه السلام ما فعلوا فلم يؤمنوا به، قتلوا الأنبياء، حرموا الحلال، وحللوا الحرام، وأكلوا الربا، وجعلوا السبت وقتا للصيد، مع أنه نهوا عنه ونحو ذلك، وأضلوا كثيرا بما أفتوه، جعلوا التوراة؛ جعلوا تفسير التوراة إليهم فأحلوا حراما فيها، وحرموا حلالا فيها، كما وصف الله ذلك عنهم، وقال (وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) فوصفهم بتلك الصفات التي فيها أمعنوا في الضلال، مع ذلك اقتدى بهم من اقتدى من أهل الجاهلية.

إذن نخلص من هاتين المسألتين إلى أن أهل الجاهلية كان لهم أنواع من الاستدلال، وبقي من أدلتهم مما ذكره المؤلف ثلاثة أدلة ستأتي إن شاء الله تعالى.

هذه الاستدلالات بأنواعها يجمعها أنها استدلالات في نظر العقل الصائب مرفوضة، وسبب استدلال أولئك بها مع أنه قد يكون أعطوا عقولا وأعطوا فهوما وأعطوا معرفة، يكون سبب استدلال أولئك بها أنه غُشِّي على قلوبهم وغُشِّيت أبصارهم ولم يتوصلوا بعقولهم إلى الصواب؛ لأنه كانت عندهم أنواع من الصوارف ،لما صارت عندهم الصوارف استدلوا على ما هم عليه من أنواع الباطل بأنواع من الأدلة التي يقنعون أنفسهم أنهم على صواب، ويردون بها رسالات المرسلين، منها، من أدلتهم التقليد، ومن أدلتهم الاحتجاج بالأولين، من أدلتهم الاغترار بالكثرة، من أدلتهم الاحتجاج بأهل القوة في الفهم، وأهل العقول، وأهل المال، وأهل القوة في الدنيا، وأهل الرفعة فيها، ويستدلون بأن الحق الذي جاءت به المرسلون ليس بحق؛ لأنه لم يتبعه إلا الضعفاء، كذلك يقتدون بفسقة العلماء، يقتدون بفسقة العباد.

إذا نظرت إلى هذه الأدلة بمجموعها وجدتَ أنها هي عين ما يحتج به المشركون والخرافيون والمخالفون للحق في كل زمان، فإمام الدعوة لما أتى بالدعوة ودعا الناس إليها، وُوجِه بأنواع من الاستدلالات، تمحضت في استدلالات أهل الجاهلية، ووجه بالتقليد، ووجه بأنك وأصحابك قليلون، وسواد الأمة الأعظم ليسوا على ما أنت عليه، ووجه بقول من قال إن أهل نجد هؤلاء الذين ظهر فيهم محمد بن عبد الوهاب -على قولهم- ما عندهم علوم لا بالعربية، ولم يتعلموا علم الكلام ولا المنطق، ويتبين ذلك بسؤال أرسل إلى الشيخ من بعض أهل الأمصار، وجه إليه سؤالا يريد منه أن يعرب سورة والعاديات ضبحا، ويقول بين لي ما فيها من البديع وما فيها من البيان في سؤالات من البلاغة ومن النحو متنوعة، الشيخ رحمه الله تعالى مشغول عن مثل هذا، لا يريد إثبات نفسه في هذه العلوم، فترك الرد عليه، مع أن الجواب عنها معروف في كتب المفسرين، يقولون إن هؤلاء الذين ظهرت فيهم الدعوة هؤلاء، دعوة محمد بن عبد الوهاب ليس عندهم إلا فقه الحنابلة حتى التفسير ليس عندهم مشاركة فيه، حتى الإسناد ليس معهم معرفة به ونحو ذلك، فيستدلون بضعف أفهامهم وعدم مشاركتهم، وعدم عقولهم، ويستدلون بأنهم قليل، وأن من خالفهم كثير، ويستدلون أيضا بأن أهل نجد أهل فقر ومسكنة وليس عندهم شيء، بعضهم أكله حاف، ومساكنهم معروفة أما المدن الكبار التي فيها علماء الأمصار هؤلاء هم أهل الفهم وهم أهل القوة انخدعوا بذلك، واستدلوا بذلك كله، وهذا موجود في المؤلفات التي ترد على دعوة الإمام؛ الدعوة السلفية في آخر هذه الأزمان، كل هذا موجود؛ بل إنه وجد في هذا العصر من صرح بذلك، وهو الذي يقول: إن أهل هذه البلاد وعلماءها طائفة من البدو الجهّال. وهذا لا شك أنها حجة قد احتج من تقدمه من أهل الضلال.

المقصود أنه في كل وقت تظهر هذه الاستدلالات إما أكثرها وإما بعض منها.

فإذا تبينت ذلك، تهتم بالحجة والاحتجاج على من خالف الحق، بأن هذه الحجة أوردها واحتج بها واستدل بها وجعلها دليلا المشركون من قبل، وأبطل الله جل وعلا تلك الحجة.

فإذا أتى بشيء من ذلك تبطل أولا نوع الاستدلال، ثم بعد ذلك تنظر في الدليل وهذا مما ينبغي أن يهتم

به طلاب العلم الذين يهتمون بالردود على المخالفين وإبطال أقوال الخرافيين والقبوريين والمبتدعة وأنواع الضالين.تُبطل نوع الاستدلال قبل أن تنظر في الدليل وما فيه، فإذا كان ذلك تماما كان من أوجه الرد على أولئك أنّ تلك من استدلالات أهل الجاهلية.

مسألة :ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – جحر الضب دليلا على الاتباع الأعمى، ما سبب اختيار النبي – صلى الله عليه وسلم – لذلك على وجه الخصوص؟

من أوجه ما قيل في ذلك أنه لا أحد يرغب في دخول جحر الضب، فضربه النبي – صلى الله عليه وسلم – مثلا لشناعته، ما فيه أحد يختار جحر الضب، فلو دخل المشركون أو دخل اليهود والنصارى جحر ضب، يقول النبي عليه الصلاة والسلام «لدخلتوه»، وهل هذا يعقل؟ هل هذا يكون عند ذي فهم وعند ذي بصر؟ لا، فهو مثل ضُرب لشناعته، ولأجل أنه لا يختاره عاقل معه لبه وعقله.

مسألة : هل فعل من يفتي بالشريعة في الفتوى، وعند القضاء –يعني إذا قضى– يقضي بالقانون، هل هذا من فعل فسقة العلماء؟ هل فعله هذا يعتبر مما يَكفر به مثله أو يُكَفَّر به مثله؟

ما فيه شك أن هذا أقل أحواله أن يكون فاسقا، يفتي بالشريعة للناس، وإذا قضى بينهم لأجل أن الحكومة تلك تجعل القانون هو الدستور أو هو ما يُقضى به، يقضي بالقانون في مسائل ويفتي بالشريعة أقل أحواله أنه فاسق، وقد يكون كافرا؛ قد يكون كافرا إذا كان يعتقد أن هذا الفعل جائز، إذا كان يعتقد أن فعله هذا جائز ويحسنه للناس، فهذا يكون كافرا بالإجماع.

وحكمه بالقانون يعني التزام القانون في كل ما جاء به وعدم خروجه عنه يعده كثير من أهل العلم كفر ولو كان يعتقد عدم الجواز، فحال هذا المسؤول عنه إذا كان من العلماء فإنها لا شك أنها حال فسق على أقل الأحوال، وقد يكون كافرا بذلك، كما فصلناه قبلُ في الفرق بين الحاكمية والتشريع

(**المسألة الحادية عشرة**) الاستدلال بالقياس الفاسد كقولهم (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا).

(**المسألة الثانية عشرة**) إنكار القياس الصحيح والجامع لهذا وما قبله عدم فهم الجامع والفارق.

من خصال أهل الجاهلية رمي من اتبع الحق بغير الإخلاص، وطلب الدنيا، فرد الله عليهم بقول نبيهم الذي حكاه الله عن نوح في الآية الأولى المذكورة في المسألة الحادية عشرة، بقوله: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ} ومقصودهم أن أتباعك فقراء، آمنوا بك لينالوا مقصدهم من العيش، لا أن إيمانهم كان لدليل يقتضي صحة ما جئت به، ردّ عليهم بما ردّ

(**المسألة الثالثة عشرة**) الغلو في العلماء والصالحين كقوله (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)[النساء:171].

من خصال أهل الجاهلية: الإعراض عن الدخول في الحق الذي دخل فيه الضعفاء، تكبرا وأنفة.

فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله في سورة "الأنعام": {وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}. ومثل ذلك قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى}. وغير ذلك.وحاصل الردّ: أن من آمن من هؤلاء الضعفاء، إنما كان إيمانه عن برهان، لا كما زعم خصومهم، ولست أنت بمسؤول عنهم، ولا هم مسؤولون عن حسابك، فطردهم عن باب الإيمان من الظلم بمكان.

(المسألة الرابعة عشرة) أنّ كل ما تقدم مبني على قاعدةٍ وهي النفي والإثبات فيتبعون الهوى والظن، ويُعرضون عما جاءت به الرسل.

الاستدلال على بطلان الشيء بكونهم أولى به لو كان حقا. قال تعالى في سورة "الأحقاف": {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}. بعد قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

هذه المسألة –المسألة العاشرة والمسألة الحادية عشرة والثانية عشرة– هذه من تتمة مسائل أنواع الاستدلال لدى أهل الجاهلية، فإن الشيخ كما سبق أن عرفتم ذكر مسائل استدلال التي يستدلون بها أنواع الأدلة عندهم متوالية، ومن أدلتهم أنهم يستدلون على بطلان الدين بقلة أفهام أهله وعدم حظهم، كما قال جل وعلا في قصة نوح مخبرا عن قول قوم نوح (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)[هود:27]، وهذا ليس خاصا بجاهلية دون جاهلية من الجاهليات التي سبقت رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم –، وإنما هو كثير فاشٍ، فأهل الجاهلية الماضون لم يزالوا يستدلون بهذا الدليل؛ يستدلون بضَعْف المتبعين للحق في الجاه، وضعفهم في الدنيا على بلادة أذهانهم، ثم يستدلون بهذه المقدمة الفاسدة على أنهم ليسوا بأحقَّ بالهدى منهم، وإنما ذلك دليل بطلانه؛ لأنه لا يصل إلى معرفة الشيء بأنه حق إلا ذووا العقول وذووا الأفهام، فما دام أن أهل الجاه وأهل العقل عندهم لم يتبعوا الرسل، وذلك لأنهم تأملوا، كما يزعمون وأهل الحق الذين اتبعوا الرسل كانت عندهم عجلة، وقلة فهم ولهذا اتبعوا الرسل، هذا كثير، واستشهد عليه الإمام رحمه الله تعالى، بقصة قوم نوح فإن قوم نوح قالوا لنوح عليه السلام (مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) فذكروا شيئين، ذكرهما الشيخ رحمه الله تعالى.

الأول: عدم الفهم لديهم بأنهم لم يتدبروا واستعجلوا.

والثانية: أن ليس لهم فضل مال يعني ليس لديهم حظ.

والعبارة في أكثر النسخ التي بين أيديكم (وعدم حفظهم) والذي يظهر لي بعد تأمل أن صوابها (وعدم حظهم) لأنها هي التي تناسب تمام الآية في قوله تعالى (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) والفضل في أحد

وجهي التفسير هو الجاه والمال، في قوله تعالى هنا فيما استشهد به الإمام رحمه الله تعالى (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِي الرَّأْيِ) في قوله (بَادِي) قراءتان سبعيتان:

قرأها الجمهور (بَادِيَ) بدون همز في آخره من البدوّ وهو الظهور.

وقرّاؤها أبو عمر البصري المعروف أحد القرّاء السبعة المشهورين، قرأها (بَادِئَ) بالهمز. وعلى قراءة التسهيل (بَادِيَ) فإنه من البدوّ وهو الظهور، واختلف أهل العلم في التفسير، في تفسير هذا الحرف على ثلاثة أقوال:

منهم من قال (بَادِيَ الرَّأْيِ) يعني في ظاهر الرأي لكل أحد، (مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِي الرَّأْيِ) وهذه الرّذالة فيهم وأنهم اتبعوك، هذا ظاهر لكل أحد يظهر للرائي ويظهر لذي الرأي بوضوح لا خفاء فيه ولا لبس.

الثاني: أن قوله (بَادِيَ الرَّأْيِ) من الظهور أيضا، وهو أنهم أظهروا شيئا وأخفوا غيره، فيكون البدوّ هنا بمعنى الظهور راجع إلى الاتباع لا إلى كونهم أراذل، ما نراك إلا اتبعك إلا الذين هو أراذلنا اتباعا في الظاهر في بادئ الرأي، أما في باطن الأمر وفي حقيقته فإنهم ليسوا متبعين لك ولا مقتنعين بما جئتهم به، وهذا استدلوا له بقوله تعالى (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)[الشعراء:113] ونحو ذلك بآية هود وغيرها، يعني أن نوحا عليه السلام أحال حسابهم على الله جل وعلا، فدل على أن مرادهم ظهور شيء منهم وإخفاء شيء آخر منهم، إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، أو إخفاء التكذيب، فأحالهم عليه السلام إلى حساب الله جل وعلا.

القول الثالث هو أنه في قوله (مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) يعني أنهم ظهر لهم الرأي بدون تأمل، فأول رأي ظهر؛ اتبعوه ولم يتأملوه ولم يتدبروه لقلة فهمهم، وهذا القول الثالث هو الذي يتفق مع ما أورده المصنف رحمه الله تعالى، فإنهم عند قوم نوح استعجلوا ولم يتدبروا، اتبعوه في بادئ الرأي فيما ظهر لهم من رأيهم، ولو تأملوا واستيقنوا الرأي واستخيروه وتحققوا منه وتدبروه وتأملوا العواقب فيه وتأملوا أسراره لم يتبعوا، وذلك تلك العجلة وذلك الأمر الذي حصل منهم وهو عدم التدبر دليل على قلة أفهامهم، وهذا مظنة عدم الوصول إلى الحق، فأبطلوا الدين وأبطلوا صحة ما جاء به نوح عليه السلام بأنهم جعلوا الذين اتبعوه ما اتبعوه إلا لضعف أفهامهم كما قال الشيخ رحمه الله تعالى.

فإذا كان كذلك، كان هذا الدليل مستقيما موافقا لأحد أوجه التفسير المنقولة عن أهل العلم، والقراءة الأخرى التي قرأها أبو عمر (بَادِئَ الرَّاي)، (بَادِئَ) بهمز، من البدء وهو الأولوية يعني أن اتباعهم له كان من عجلة، وإنما اتبعوه في بادئ ذي بدء، أول ما نظروا برأيهم، برايهم اتبعوه، فهذا من البدء وهو الأولوية، وعلى هذا فيكون المعنى على هذا الوجه من التفسير أنهم استعجلوا أيضا، فيتفق مع ما فهمه الإمام المصنف رحمه الله تعالى، يتفق ما جاءت به القراءتان جميعا؛ قراءة الجمهور (بَادِي الرَّأْيِ) في أنّ

معنى البدوّ هو الظهور بالمعنى الثالث؛ وهو أنه ظهر لهم ذلك من غير تدبر ولا تأمل، وكذلك على قراءة أبي عمر (بَادِئَ الرَّاي) وذلك من الأولية وعدم التدبر والاستعجال.

وهذا الذي ذكره رحمه الله تعالى، أردفه بقوله في استدلالهم بأن أولئك الذين اتبعوا نوحا ليسوا بأهل حظ لقلة فهمه وعدم حظهم، وذلك لأنهم قالوا لنوح ومن معه (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)، ذلك أنهم جعلوا مقياس الفضل هو كثرة الحظ في الدنيا، والفضل هنا فُسِّر بأنه الحظ في الدنيا من جاه أو مال، (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) يعني لستم بأهل جاه فوق جاهنا فتفضلون علينا، ولستم بأهل مال فوق مالنا فتفضلون علينا، فكان المقياس عندهم كما سيأتي في المسألة التي بعدها هو مقياس الفضل، هو الجاه والمال يعني الحظوظ الدنيوية، وهذا كثير في كل جاهلية، في كل جاهلية كثير هذا، كل رسول يأتي تكون الحجة عند أولئك متنوعة منها أن الذين اتبعوه هم الضِّعاف، وفي قوله تعالى (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)[يس:20-21] في سورة يس ذلك الرجل المؤمن الذي أتى من أقصى المدينة ليسعى بشرح الإيمان، قال طائفة من أهل العلم بالتفسير إن قوله هنا (مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) فيه تنبيه على أنه من فقراء الناس ومن عدم أشرافهم، ليس من الأشراف، وإنما هو من الضعفة، وأما الأشراف فالعادتهم أنهم يسكنون وسط المدينة، إذ هي المجتمع، وأما أقصى المدينة، إنما يسكنه الذين ليسوا بذي جِدَة ولا جاه ولا شرف، وهكذا جاء رجل إلى موسى(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ)[القصص:20]، فهذا الاحتجاج كثير في أن الذين يتبعون الرسل إنما هم الضعفاء، وهذا فهمه هرقل عظيم الروم حينما سأل أبا سفيان الأسئلة المشهورة التي رواها البخاري وغيره، فقال له من تلك الأسئلة: هل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم. قال هرقل: وكذلك الأنبياء إنما يتبعهم الضعفاء. وهذا عام في كل رسالة فكل أهل جاهلية يستدلون بهذا الدليل، وقريش أيضا واجهت النبي – صلى الله عليه وسلم – بذلك، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – ربما رغب أن يكون الذين يؤمنون به من أشراف القوم ومن عليتهم ومن سادتهم فانصرف إليهم عن النفر المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، رغبة في إسلام أولئك، لأنه لو أسلم الكبراء لحصل من الخير الشيء الكثير، فأنزل الله جل وعلا على نبيه قوله (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)[الكهف:28]، وكذلك قوله (عَبَسَ وَتَوَلَّى(1)أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى(2)وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(3)أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى(4)أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى(5)فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى)[عبس:1-6] الآيات، وهذا الأمر ظاهر لا يحتاج إلى مزيد إطالة.

كذلك في هذه الأمة، دخلت هذه الشعبة من شعب الجاهلية في هذه الأمة:

فممن دخلت إليه هذه الشبهة الذين يعتزّون بعلومهم الخَلْفية من أصحاب الكلام ونحوهم، فإنهم لم يعتنوا بفقه النصوص الشرعية لزعمهم أنها إنما هي ظواهر يفهما كل أحد، وأما البواطن والأسرار فإنما خاصة بذوي العقول النيرة، فجحدوا ما أنزله الله جل وعلا من الآيات البينات وحرفوها وأولوا بعضا منها وردوا طائفة أخرى؛ لأجل أفهامهم، واحتقروا أهل السنة والجماعة لأجل أنهم لا يفهمون فهمهم، فهُم لم يعرفوا علم الكلام ولم يعرفوا الأصول القطعية المستقاة من المنطق؛ منطق اليونان، ونحو ذلك مما يعتزون به.

كذلك شغّب على أهل الحديث فيما مضى من الزمان وعلى فقههم في النصوص طائفة من غلاة الفقهاء الذين اتهموا من يتبع ظواهر النصوص ويأخذ بالفقه مستقًا من النصوص ولو لم يكن عنده رسوخ قدم في كل العلوم، رموهم بأوصاف بشعة، حتى إن بعضهم سماهم الحمير، كما قال ابن العربي المالكي في أحد أقواله في وصف الظاهرية، قال: فلما أتى هؤلاء الحمير الذين كذا وكذا. وصفهم بأوصاف يعني بشعة، لأجل أن في الأندلس كان هناك معركة محتدمة بين أتباع ابن حزم الظاهري وبين فقهاء المالكية، والتوسط لو راموا التوسط كان ممكنا، لكنهم ردوا على هؤلاء وتنقصوهم، تنقصوا أفهامهم ووصفوهم ببلادة الفهم وبلادة الذهن ونحو ذلك لأحل هذا الأمر، لأجل اتباعهم للنصوص.

كذلك بعض الذين عاصروا الدعوة من العلماء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، فإنهم رموا أتباع الدعوة بأنهم لا يفهمون بأنهم عوام، وبأنهم ليس عندهم مشاركة في العلوم، ليس عندهم معرفة إلا بعض المسائل في العقيدة وبفقه الحنابلة لا غير، فاتهموهم في بعض ما دعوا إليه من المسائل التي دلائلها كالشمس في رابعة النهار، اتهموهم بأنهم لم يفهموا الحق ولم يعرفوا المراد منه.

كذلك -وهذا سيأتي تفصيلها- الذين ادعوا أن باب الاجتهاد قد قفل وأنه لا يسوغ لأحد اليوم أن يجتهد في النصوص لأجل أن النصوص تحتاج إلى فهم وطابع أهل الزمان عدم الفهم، فهم اتهموا بأنهم يجتهدون في فهم النصوص وهم ليسوا من أهل الفهم؛ بل أفهامهم ضعيفة وأذهانهم كليلة، فلا يمكن أن يجتهدوا فباب الاجتهاد قد انقطع.

كذلك في هذا الزمان بخصوصه زماننا هذا القريب، ترى أن بعض من أدركته هذه الشعبة من شعب أهل الجاهلية، ربما تسلط عليه الهوى فرمى من هو بين أن يكون مجتهدا وبين أن يكون مصيبا يعني الحق يعني الصواب، أو يكون مجتهدا مخطئا يرميه ببلادة الذهن وعدم الفهم ونحو ذلك من الأوصاف، والواجب على أهل الإيمان أن لا يعرج على هذه المسألة، بل الواجب عليهم أن يبينوا الحق بدليله، ولا يستهزئوا بالخلق لا يستهزئوا بالناس في علومهم، بل إذا أخطأ المخطئ يقال هذا مخطئ والصواب كذا, يبين الحق بدليله, تبين المسألة بحججها وبراهينها التي توضح المراد منها، دون دخول في هذا الأمر لأنه إذا قال فلان هذا فهمه كذا، فإنه يزيد شيئا فشيئا حتى تسلط عليه هذه الشعبة، فيتدرج في الأمر حتى إذا أتى ذلك الضعيف في الفهم عنده، إذا أتى بحق واضح جعله باطلا؛ لأجل أنه ضعيف الفهم، والواجب على

المؤمن أن يأخذ الحق ممن جاء به، ولا يستدل على بطلان الشيء لأن من أتى به ليس بأهل أن يأتي بذلك، وهذا كما ترى ظاهر في فئام في هذا الزمان.

المسألة التي تليها هي أنهم يستدلون بالقياس الفاسد كما قالوا هل أنتم إلا بشر مثلنا(قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) [إبراهيم:10] ونحو ذلك.

القياس ينقسم إلى قسمين: قياس صحيح وقياس فاسد.

والشيخ رحمه الله ذكر مسألتين الحادية عشرة والثانية عشرة، وكل منهما في القياس: الأولى في القياس الفاسد، والثانية في القياس الصحيح.

والقياس يريدون به في العموم -لا في اصطلاح الفقهاء والأصوليين- يريدون به في العموم إلحاق شيء بشيء لوجه شبه بينهما، فيكون سبب القياس جامع يجمع بين شيئين المقيس والمقيس عليه، فيجمعهما شيء فيقاس أحدهما على الآخر، ولا يخفى عليكم أنه عند الفقهاء إلحاق حكم مسكوت عنه بحكم منصوص عليه بعلة جامعة بينهما، هذا أخص.

فإذن القياس هو كما ذكرناه ما يجمع شيئين بوجه شبه يسمى قياس، فإذا جمعت بين شيئين، يقال لك قِسْتَ الأمر؛ فقست بين هذا وهذا إذا جمعت بينهما لشبه بينهما، فإذا ألحقتَ شيئا بشيء لأجل الشبه صرت قائسا.

هذا الدليل الذي استدلوا به هم استدلوا بقياس يعني أهل الجاهلية استدلوا بقياس استدلوا بأنواع من القياس؛ يعني بأفراد من القياس، بعض تلك الأقيسة فاسد أو أكثرها فاسد، منها انهم أبطلوا النبوة بكون النبي الرسول بشرا (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)[الفرقان:7]، قال جل وعلا في آية سورة الفرقان (وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)[الفرقان:20] يعني أن كل رسول جاء بهذا، بل أمر المشركين أن يسألوا من قبلهم، هل من قبلهم أتتهم ملائكة أم أتاهم بشر فقال جل وعلا (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النحل:43، الأنبياء:7. اسألوهم، أهل الذكر المراد بهم في هذه الآية أهل الكتاب؛ علماء اليهود والنصارى، اسألوهم هل جاءتهم الرسل من البشر أم جاءتهم الرسل من الملائكة؟ فإذا كانت جاءتهم الرسل من البشر فلما تنكرون أن يكون رسولكم بشرا، وإذا كانت أتتهم الرسل من الملائكة فإنكم لكم وجه حجة في ذلك.

وجه القياس أنهم قالوا إن هذا الرسول يأكل كما نأكل، ويشرب كما نشرب، (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)[المؤمنون:34] فصفاته بشرية؛ ينكح الأزواج، يتكلم كما يتكلمون، ينام كما ينامون، يأكل كما يأكلون، يشرب كما يشربون. بشر، فقالوا ما دام أنه بشر فهو ليس بأهل أن يتنزل عليه الوحي من الله جل وعلا.

وهذا القياس فاسد لأنه صحيح هو قياس؛ لأنهم جمعوا بين الأمرين لوجه شبه؛ لكنه قياس فاسد، لأنهم

كما ذكر المصنف رحمه الله أنهم لم يفهموا الفارق بين الأمرين، وهو أن وجه الجمع هذا لا يدل على أنه ليس هناك فارق بين الرسل وبين هؤلاء، فهناك فارق. فإذن سبب هذا القياس الفاسد أنهم ما عرفوا الفارق.

وهذا جاء من كفار قريش وممن قبلهم من الكفار.

كذلك جاء في هذه الأمة كما جاء من قبل، الذي جاء ليس هو إنكار النبوة لأجل أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – بشر؟ لا، ولكن الاستدلال بقياس فاسد، ما أمثلة هذا القياس الفاسد الذي استدلوا به؟ من لحق الجاهلية في هذه الشعبة؟

من أمثلة ذلك القياس الفاسد أنهم كما هو عند المعتزلة وعند غيرهم قالوا إنّ الولي إذا أثبتت له كرامات الأولياء، إذا أثبت له كرامة صار نبيا. لم؟ لأن النبي هو بشر أُعطي آيات، أُعطي أشياء خارقة للعادة، فلو كان ثَم بشر يمكن أن يُعطي ذلك لصار نبيا؛ يعني لاشتبهت الوَلاية بالنبوة، فهنا أبطلوا هذا الحق وهو الإيمان بكرامات الأولياء لأجل هذا القياس الفاسد.

كذلك طائفة من الصوفية أو غلاة الصوفية، قالوا إنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يُخصّ بشيء، بل إنما مدار رِفعة شأنه على أنه يتلقى الوحي من الله جل وعلا، فإذا حصل التلقي لبشر صار مثله في المزية؛ لأنّ وجه الشبه بينهما حصل، وهو أن هذا يتلقى وهذا يتلقى، وهذا كان في أوائل القرون يعني في القرن الرابع أو أواخر القرن الثالث، بل زاد حتى زعم غلاتهم كابن عربي ونحوه أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، لم؟ قال:لأنّ خاتم الأولياء يتلقى من الله جل وعلا مباشرة، وأما خاتم الأنبياء فإنما تلقى بواسطة. ولهذا يهتمون بالكشف.

من أوجه هذا القياس الفاسد أنهم جعلوا كل من اتصف بالتقوى من أهل الإيمان متبركا به في ذاته، فكما أن النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو إمام المتقين، وسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، لما كان يتبرك بشعره، بعرقه، بثيابه، بغير ذلك من أجزاء ذاته، بسؤره يعني ببقية شرابه، ببقية أكله ونحو ذاك، نقلوا ذلك وعَدَّوه على كل من كان وليا، كل من كان تقيا، قالوا لأنه يقاس على النبي، فاستدلوا بالقياس الفاسد هذا وهذا كثير، بل قد دخل فيه طائفة من العلماء؛ يعني من غير تحقيق أجازوا أن يتبرك بالصالحين بشرابهم يعني بشرب بقية الشراب، أن يتمسح بهم، أن تأخذ بعض فضلاتهم يعني فضلات الأكل ونحو ذلك يتبرك بها، لم؟ قالوا لأنه يجمع بينه وبين النبوة الصلاح، فإذن سبب التعدي هو الصلاح، والصحيح أن سبب التعدي هو النبوة، سبب التبرك هو النبوة لأنّ الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا لتبركون بأبي بكر ولا بعمر ولا بعثمان ولا بعلي، لا بأخذ بقية شرابهم ولا بشعرهم ولا بثيابهم ولا بغيره ذلك، فدل على أن الجامع هنا ليس هو الصلاح والتقوى وإنما الجامع هو إيش؟ إنما الوصف هنا هو النبوة، فليس ثم جامع بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وبين غيره من أمته. وهكذا في أنواع.

أنكروا القياس الصحيح أيضا، والقياس الصحيح هو ما كان الجامع بين الشيئين أو ما كان الجامع بين الشيئين مقبولا معتبرا ليس بفارق؛ يعني جامع صحيح، وليس ثم فارق بين هذا المقيس والمقيس عليه، أنكروا القياس الصحيح، القياس الصحيح كان ينبغي أن يدل أولئك المشركين على أنّ نبوة النبي – صلى الله عليه وسلم – صحيحة، بل نبوة كل نبي صحيحة، لم؟ لأنّ البشرية التي كان عليها الأنبياء تخرج بإتيانهم –البشرية التي تجمع بينهم وبين غيرهم– تخرج إذا كان أُعطي ذلك البشر آيات بينات وبراهين دالات على صدقه ليس في وسع البشر أن يأتوا بمثلها، فالقياس الصحيح يقتضي أن يقال إنّ كل من أتى بآية ومعجزة كما يسميها المتأخرون أو ببرهان مع دعوى النبوة مما لا يستطيعها البشر، وكان ذلك الذي أتى به معروفا بأمانته معروفا بتقواه معروفا بصلاحه في القوم، أن هذا يدل على نبوته، فهذا القياس صحيح، أنهم كانوا يقيسون، أن من أوتي هذه الأمور فإنه لم يؤتها من عند نفسه، وإنما أعطاه الله جل وعلا إياها.

القياس الصحيح يقتضي أن يعلموا أن الذين اتبعوا الرسل زادوا عليهم في المزية من أجل إيمانهم، فهناك جامع بين مستحق الجزاء الحسن وبين الأنبياء ألا وهو الإيمان، ولهذا أتباع كل أمة، أتباع كل نبي من الأمم يتبعون نبيهم، يعني هناك جامع بينهم، فكان يجب أن يقيسوا صحة ما ذهب إليه أولئك الناس بصحة النبوة، فإذا ثبتت النبوة ثبت أن أولئك اتبعوه على الحق والهدى، وهذا يعني أن لا يستدلوا بالعكس فيستدلوا بأولئك القوم على بطلان النبوة، بل ينبغي أن يثبتوا النبوة يعني يسعوا في معرفتها بدلائلها وبراهينها، فإذا ثبتت فإن أولئك يثنى عليهم لأنهم اتبعوا النبوة، وذلك مقتضى لقياس الصحيح. مقتضى القياس الصحيح أيضا في هذه الأمة أن من اتبع العلم الذي ورّثه النبي – صلى الله عليه وسلم – للأمة فهو أحق أن يكرم وأحق أن يتبع، كما قال عليه الصلاة والسلام «العلماء ورثة الأنبياء»، فالجامع بين العالم والنبي هو اتباع ما جاء من عند الله جل وعلا، فكل نبي اتبع ما عند الله جل وعلا، وما جاء به الرسول فهو وريث له، وهو قياس صحيح، يعني ألحق أولئك في الإكرام والتبجيل بالأنبياء، ليس في درجة الإكرام والتعظيم وإنما في جنسه؛ في جنس الإكرام والتعظيم لأجل الجامع بينهما وهو اتباع وِراثة النبوة.

أيضا في هذه الأزمان المتأخرة –وهذا هو مقصد الشيخ من إيراد المسألة– هو أنهم أنكروا على أهل العلم من أتباع أهل السنة والجماعة، ومن الذين شهروا بالدعوة أنكروا عليهم ما جاءوا به، مستدلين بأنهم ليسوا بكفء لهذه المسائل التي أتوا بها، فجعلوا هناك وجه شبه بين العلماء في ذلك الوقت وبين الذين ضلوا بعدم الفهم وعدم معرفة الأدلة، فأغلقوا باب التدبر وباب الاجتهاد، فكان هذا منهم –يعني قياس علماء الدعوة بأرباب أهل الفرق الذين استدلوا بالمتشابه والذين راموا الناس على غير الهدى– كان من منهم هذا قياسا فاسدا، وتركوا القياس الصحيح وهو أن من أتى بالحق مع أدلته أنه يُلحق بأئمة الهدى

ولو كان متأخرا، فليس بالتأخر يهضم من أتى بالحق، بل قد يأتي بالحق المتأخر، ويكون ذلك رفعة لشأنه ومزية له.

الأقيسة الصحيحة هذه تركوها، الأقيسة الصحيحة أبرزها أن من كان من أهل العلم جاء بما كان عليه الأوائل فإن القياس يقتضي أن يلحق بالأئمة، وهم ألحقوه بأهل الشبه وأهل الفتن، وألحقوه بأهل الضلال وبأهل البدع، لم؟ لأنه عندهم لا يمكن في هذه الأزمان المتأخرة أن يستقل أحد بالفهم.

يعني مقصود الشيخ من ذكر القياسين أن ينتبه إلى أن القياس ينبغي مع جامع واضح وفارق واضح، فإذا قاس أحد شيئا على شيء أو أمرا على أمر ينبغي أن يكون بل يجب أم يكون الجامع بينهما والفارق منتفيا، فإذا كان موجود والجامع غير موجود، فإنه يدل على أن القياس فاسد، وإذا كان الجامع موجودا والفارق غير موجود أو ضعيف فإنه يدل على أن القياس صحيح.

ثم انتهى من مسائل الاستدلال وذكر المسألة العظيمة وهي أنه من خصال أهل الجاهلية هي الغلو في الصالحين والعلماء، والغلو في العلماء والصالحين أخبر الله جل وعلا عنه في غير ما موضع من كتابه، منه في قوله تعالى(قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا) [المائدة:77] ومنها في قوله (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) [التوبة:31] فأهل الجاهلية من قبل كان عندهم غلوّان غلو في العلماء وغلو في الصالحين:

الغلو في العلماء كان على أنحاء:

الأول أنهم كانوا يتبعونهم في التحليل والتحريم، فيحللون ما حلله العلماء ولو كان ذلك حراما ويحرمون ما حرمه العلماء ولو كان في كتاب الله حلال، فجعلوا العلماء في منزلة فوق منزلة النبوة فجعلوهم أربابا، جعلوهم معبودين كما قال تعالى (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) قال عدي بن حاتم للنبي – صلى الله عليه وسلم – ما عبدناهم قال: «ألم يحلوا لكم الحرام فأحللتموه؟» قال: بلى. قال: «ألم يحرموا عليكم الحلال فحرمتموه؟» قال: بلى. قال: «فتلك عبادتهم».

فهذا نوع من أنواع الغلو وهو أن يُعتقد في العلم أنه يستقل بالإتيان بالإحكام، يستقل بالإتيان بالشرع، وهذا نوع شرك، كما قال جل وعلا (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21].

كانوا يعتقدون في العلماء أنه يمكن يحذفوا ويلغوا بعض الكتب المنزلة ويثبتوا بعضا آخر كما حصل من علماء اليهود والنصارى أنهم غيروا في التوراة والإنجيل إما بزادة أو بنقص أو بتغيير للمعاني بتفسيرها تفسيرات باطلة، ومع ذلك اتبعوا.

كذلك الغلو في الصالحين يكون على أنحاء:

من أشهرها وأظهرها أن يعتقد أن كل ما فعلوه من أنواع الصلاح والعبادة أنه صواب، فيقتدى بهم

مطلقا، لاعتقاد أنهم مصيبون في كل ما يفعلون، فلا ينظرون في وجه حجة فعل ما فعله الصالح، وإنما ينظرون إلى فعله، فيستدلون بالفعل المجرد عن الحجة، وهذا هو الغلو في الصالحين، الغلو في الصالحين في حياتهم أن يُنظر إلى أفعالهم ويقتدى بهم، مع ظهور أن تلك الأفعال مخالفة للحجة أو مع عدم وضوح الحجة من أفعالهم.

من أوجه الغلو في الصالحين أنهم أعتقد فيهم أن لهم منزلة عند الله جل وعلا في حياتهم وبعد مماتهم، كمنزلة الوزراء عند الملوك أو المقربون، كمنزلة المقربين عند الملوك منهم، فكما أن المقربين من الملوك يرفعون حاجاتهم إليهم ويأتون بما يريده الناس إلى الملوك فيكونون شفعاء ووسطاء؛ لأجل شفاعتهم ووساطتهم، يجيب الملك طلبتهم ورغبتهم، جعلوا أولئك الصالحين عند الله جل وعلا كذلك، لهم من المنزلة ولهم من الزلفى ما يمتنع معه أن يرد الله جل وعلا طلبهم، هذا الغلو بهم في الحياة وبعد الممات، جعلهم يستغيثون بهم، جعلهم يصرفون لهم أنواع العبادات، فهذا اللاتّ الذي كان يلتّ السويق كان شركهم به من أجل ذلك؛ لأنه كان رجلا صالحا –كما جاء في الأثر عن ابن عباس وغيره–، يلتّ لهم السويق وغير ذلك، بل إن الأنبياء إنما وقع الشرك بهم لأجل الصلاح الذي فيهم، بعد موت الصالح يظن أنه له عند الله جل وعلا من الزلفى ما يمكن له أن يُتوسل به وأن يستشفع به وأن يطلب رضا ذلك الصالح بعد مماته بالتوجه إليه بأنواع العبادات كما هو مشهور.

من أنواع الغلو في الصالحين التبرك بهم، وهذا كان في اليهود وكان في النصارى، فكانوا يتبركون بصالحيهم، وكانوا يتمسحون بهم ونحو ذلك، وهذا لم يكن إلا للأنبياء، وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك كلِّه محذرا من هذه الشعبة من شعب الجاهلية، فقال عليه الصلاة والسلام « لَعْنَة الله على الْيَهُودَ وَالنَّصَارىَ. اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وصَالحيهم مَسَاجِدَ» وقوله هنا (صالحيهم) يدخل فيه العلماء ويدخل فيه من كان صلاحه من غير علم، (اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وصَالحيهم مَسَاجِدَ)، وهذا نوع من الغلو، بل إنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – نهى عن الغلو مطلقا، كما جاء، يعني مبينا لما جاء في القرآن حيث نهى الله جل وعلا عن الغلو مطلقا فقال (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)، فقال عليه الصلاة والسلام «إنما أهلك من كان قبلكم الغلو»، وفي حديث عمر رضي الله عنه حينما قطع الشجرة قال لهم ناهيا عن الغلو: إنما هلك من كان قبلكم من مثل هذا، يتتبعون آثار أنبيائهم، فما أدركتم من هذه المواضع فصلوا، وما لا فلا تتعمدوا. أو كما قال عمر رضي الله عنه.

المقصود من هذا أنّ النهي عن الغلو كثير في الكتاب وفي السنة، والدلائل عليه من أعمال الصحابة كثيرة، هذا الغلو الذي نهي عنه دخل في الأمة في أنواع شتى كما هو ظاهر لديكم، كان الغلو في العلماء أو ما ينتسب إلى العلم بقبول أقوالهم من دون حجة، سواء في ذلك الذين ينتسبون إلى الكلام، فقُبلت أقوالهم بتحريف الشرع من دون حجة، وأيضا الذين ينتسبون إلى الفقه قبلت أقوال بعضهم من غير حجة، حتى صار قول الفقيه مثلا أو قول العالم الفلاني الذي هو مأجور فيه لأنه مجتهد فيه صار

علما على الحق عند من يتعصب لهم، فصار الدليل عندهم قول العالم وهو نوع غلو لأن العالم إنما يستعان به على فهم الأصول، وفهم الأدلة من الكتاب والسنة و لا يتبع استقلالا، إنما فيما كان فيه اجتهاد وخفي على المرء وجه الصواب في ذلك، فإنه يعني على أهل العلم وعلى طلبة العلم، فإنه يتبع في ذلك لأجل اجتهاده، وهذا سبق أن أوضحناه لكم مفصلا في باب أو في مسألة التقليد.

آل الأمر بهذا أن جعل أقوال المتأخرين حجة، وهذا أعظم ما ووجه به أتباع دعوة الإمام رحمه الله تعالى الدعوة السلفية، واليوم يواجه به كل داع إلى السلفية في أي مكان من أعظم ما يواجه به أقوال أهل العلم، وهذا نوع من أنواع الغلو فإذا كان بعض أهل العلم زل في مسألة أو غلط وهو مأجور إن شاء الله على اجتهاده؛ لكنه غلط فيها، فإنه لا يجوز أن يجعل قوله حجة في المسائل المختلف فيها أو التي يراد بحثها، فإذا كان ثم دليل واضح من الكتاب والسنة، فلم يؤخذ بأقوال بعض أهل العلم في المسائل التي أخطؤوا فيها.

فمثلا في مسألة الشفاعة؛ الاستشفاع بالنبي – صلى الله عليه وسلم – طائفة أجازته على اعتبار أنّ طائفة من أهل العلم ذكروه في كتبهم في المناسك، هذا صحيح، طائفة من أهل العلم ذكروا ذلك في مناسكهم، ففي آخر الحج يقولون يذهب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويفعل عنده كيت وكيت، ومن ضمن تلك الأفعال أنه يستشفع به، هذا غلط ممن ذكره من أهل العلم، لاشك فيه، فلا يجوز لأحد أن يغلو في ذلك العالم الذي قال بتلك المقالة ويجعل قوله حجة، مع أننا نعلم أن المسألة قطعا لم تكن معلومة في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا في زمن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فإذن هي مسألة مبتدعة على أقل أحوالها كيف والصواب أنها شرك بالله جل وعلا.

اليوم يؤلف من يؤلف مؤلفات ضد الدعوة ويجعلون الحجج فيها قول فلان، وفلان، وفلان، قول مثلا العالم الفلاني، وقول العالم الفلاني، بجواز التوسل، بفعل كذا وكذا كما فعل بعض المتأخرين في مكة وهو الدكتور محمد علوي المالكي في كتابه الأخير، حيث جعل عمدة كتابه على أنه ساق أقوال العلماء في كتبهم على جواز التوسل وبعض الأفعال التي نحكم على بعضها بأنه بدعة، وعلى بعضها بأنه شرك أصغر، وعلى بعضها بأنه شرك أكبر، استدل بأقوال ساقها في جميع المذاهب، ومن بينها أقوال بعض الحنابلة، هذا صحيح، يعني تلك الأقوال كثير منها صحيح إلى قائليها، لكن هذا نوع من أنواع الغلو، إذ أنّ الاستدلال بأقوال العلماء وجعل تلك الأقوال حجة والإعراض عن نصوص الكتاب والسنة الظاهرة، هذا هو الغلو الظاهر، فيأتي بقول العالم يعارض بع قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لا شك أنّ هذا من نوع الغلو الذي حذر منه النبي عليه الصلاة والسلام، بل إن ابن القيم رحمه الله تعالى بسط القول في هذا النوع من الغلو في كتابه إعلام الموقعين، وقال: إنّ بعض هذه الأمة –يعني مما أبلغ فيه– يعني من أتباع الفقهاء جعلوا العلماء أربابا، كما فعل اليهود والنصارى، وذكر الأمثلة لهم من بعض المتكلمين وبعض المتعصبة المذاهب ونحو ذلك. ومن أحسن ما قيل في هذا قول الذهبي رحمه الله تعالى:

العلم قال الله وقال رسوله قال الصحابة ليس خُلْفٌ فيه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فقيه

أراء الفقهاء العلماء تحترم تقدر وتجل ولا يستهان بأمرهم ولا بشأنهم؛ لكن إذا ظهر الدليل فلا يغلوا الناس فيهم.

أما الغلو في الصالحين فحدث ولا حرج، ظاهر لديكم في إقامة المشاهد لهم والاستغاثة بهم والذبح لهم، وصرف جميع أو أكثر أنواع العبادات لهم، بما لا وجه لبيان كل أفعال من تأثر بتلك الشعبة من شعب الجاهلية. المقصود من هذا أن هذه المسألة وهي الغلو من خصال أهل الجاهلية، والغلو يكون أيضا في الأشخاص الذين يشار إليهم بالبنان من علماء وصالحين ومن غيرهم ممن لم يذكرهم الشيخ؛ يعني ممن ليسوا بعلماء وقد لا يعرف صلاحهم بيقين، كمثل الغلو في رؤساء الدعاة مثلا، والذين يشار إليهم بالبنان في الدعوة في بلد أو في بلاد ونحو ذلك، كيف يغلوا الناس فيهم؟ بأن يجعلوا أقوالهم أو طريقتهم في الدعوة أو منهجهم يجعلونه أصل وتُصرف نصوص العلماء، وتُصرف أدلة الكتاب والسنة إلى ما يوافق هذه الطريقة، فبعض مثلا من يعظم طائفة من أولئك تجد أنه ألف كتبا مدارها على الغلو فيهم بأنهم لا يخطئون، وبأنهم لا يحصل منهم زلل، وأن كل ما فعلوه هو الصواب وأن طريقة الدعوة إنما هي طريقتهم، وأن السبيل إنما هو سبيلهم ونحو ذلك، هذا نوع من الغلو؛ لأن حقيقته أن يقال في ذلك الداعية المشهور أو في ذلك القائد أو في ذلك الرئيس أو في ذلك المعظم ونحو ذلك أن يقال إن كلّ ما جاء به صواب في الدعوة، وهذا يدعى به لأحد، فضلا أن يدعي به لمن ليس من أهل العلم المتحققين به، لهذا من آثار الغلو في الأشخاص التعصب، فإذا غلا في شخص ما تعصّب له، فصار القول الصواب هو ما يقوله فلان الذي غُلِي فيه، والقول الخطأ القول الذي انصرف عنه، هذا نوع من الغلو، والواجب على المؤمنين –هذا كالتتمة لما ذكره الشيخ رحمه الله– أن لا يغلو في أحد فلينظروا في حال الناس مهما كانوا معلما كان أو داعية أو عالما، أن ينظروا في حاله، ينظروا في قوله هذا عليه من الأدلة ما هو واضح، هل طريقته في أمر ما أو في أموره كلها متابعة للشرع؟ هل عليها حجة بينة أم لا؟ فإذا كان عليها حجة بينة واضحة فالحمد لله، يكون اتباعه اتباعا للحجة، وإذا كان ليس عليها بينة فلا يتبع أحد على خطأ أخطأ فيه أو على ضلال ضلّ فيه.إذا تبين ذلك، فإن من مصائب هذا العصر الذي أُبتلي بها الناس التعصب، التعصب لمن يعجبون به، فترى الواحد خاصة في الشباب، ترى الواحد منهم إذا أُعجب بشخص ممن قد يكون له أثر كبير في المسلمين، أو قد لا يكون له أثر ونحو ذلك، تراه يتعصب بحيث لا يسمع فيه ولا يقبل فيه لا كذا ولا كذا، وهذا نوع من أنواع الغلو الذي لا يجوز أن يكون في المؤمنين، بل يُنظر في كلامه هو بَشَر ومن أتباع النبي – صلى الله عليه وسلم –، فينظر ما كان وافق فيه السنة ووافق فيه الهدى فيقبل، وما لم يكن موافقا فيه فيرد عليه، كيف والإمام مالك رحمه الله تعالى ''ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر'' فمن هو دونه فلا غَرْوَ أن يكون رادّ ومردود عليه؛ يعني فلا يكون

هناك تعصب عند طائفة مداره الإعجاب بأن كل ما قاله فلان فهو صواب، وكل ما لم يقله فهو خطأ، كذلك لا يكون عندنا ما يقابل التعصب بالجهة الأخرى وهو أن يكون هناك إهدار لكل صواب أصاب فيه عالم من أهل العلم أو طالب من طلبة العلم، بل الواجب أن يقال للمحسن أحسنت للمصيب أصبت وللمخطئ أخطأت، فهذا هو الذي يجب على المؤمنين، لا أن تنغلق عيونهم، تنغلق قلوبهم بحيث يكونون متابعين لكل شيء أتى به من يعجبهم سواء كان صوابا أو خطأ، وهذا يحتاج إلى نوع من التربية ينبغي أن يعتنى بها؛ ألا وهي التربية على أن يكون المقدم في نفس المؤمن هو المنهج الذي لا يخطئ، الدليل الذي لا يلحقه نقص؛ الكتاب، السنة، الإجماع ما أجمع عليه أو ما ذكره أهل السنة والجماعة في عقائدهم، وما عدا ذلك فكل يقرب منه ويبعد بحسب ما عنده من العلم والهدى.

وهذه مسألة مهمة فينبغي للشباب أن يوسعوا صدورهم، وأن لا يضيق صدرهم بعرض الآراء على الكتاب والسنة، لا، لأنه ما من أحد إلا وهو راد ومردود عليه، ولا يعتقد المراد أنه كامل، ويعتقد الناس في المردود عليه أنه ساقط بمرة، لا، بل كل أحد يجمع بين صواب وبين خطأ، فيتبع المصيب في صوابه ولا يهضم الصواب فيه، بل يشار إليه به ويثنى عليه به، ويرد على المخطئ بخطئه، ويقال إنك أخطأت في هذا ولا يتبع في خطئه، ولا يؤخذ به فيما أخطأ فيه.

هذا هو المنهج الصواب في هذه الأمور عند من أخطأ في المسائل الاجتهادية، فلا نغلوا ولا نجفوا، فالغلو مذموم والجفاء مذموم بين أهل السنة والجماعة فيما بينهم، فينبغي بل يجب أن يكون هذا كاليقين عندنا، ذم الغلو في الناس، الأشخاص، في العلماء، في الصالحين، هذا أصل من الأصول عند أهل السنة الجماعة، والغلو شعبة من شعب أهل الجاهلية؛ لأنه سببه التعصب والنفس تقبل شيئا ما، وتعجب بشخص ما فيكون القول هو ما قاله، والخطأ هو ما صد عنه.

لفظ أهل السنة والجماعة هل يدخل في هذا اللفظ من قريب أو بعيد الأشاعرة والماتريدية وغيرهم من أهل البدع؟

الجواب: أن الواجب على المؤمنين أن يتبعوا الكتاب والسنة وما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام، والذين ورثوا المنهاج الذي قال جل وعلا فيه (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)المائدة:48]، أن المنهاج هذا ورثه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – صحابته، ورثه عن الصحابة التابعون المقربون إليهم، ثم ورثه أئمة أهل السنة والجماعة ودونوه في كتبهم، فنعلم قطعا أن الصواب هو ذلك المنهج؛ لأنه هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى قبل أن تظهر الفتن ويظهر الاختلاف في هذه الأمة.

أهل السنة والجماعة يراد بهم من لزموا طريقة الصحابة رضوان الله عليهم في جميع الأبواب؛ في باب الاتباع والعقيدة والعمل وغير ذلك، ولهذا تجد أنه في عقائد أهل السنة والجماعة يذكرون مسائل الإيمان الست يعني أركان الإيمان الست ثم يذكرون مسائل تميز بها أهل السنة والجماعة منها الأخلاق، منها

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائل أخر تميّزوا بها عن غيرهم.
إذن فعقيدتهم يعني منهاجهم هذا يشمل الأمور العقدية ويشمل الأمور العملية، تقديم الكتاب والسنة، الأخذ بالحديث والاحتجاج به ذم الرأي ونحو ذلك هذا من أصولهم.
إذا تبين ذلك فالأشاعرة والماتريدية ليسوا من أهل السنة والجماعة لأنهم خالفوا أهل السنة والجماعة في مسائل كثيرة، ليست مخالفة أهل السنة والجماعة للأشاعرة والماتريدية لأهل السنة والجماعة في باب الصفات فقط؟ لا، خالفوا في الصفات، خالفوا في القدر، خالفوا في أصل الاتباع؛ إتباع الكتاب والسنة. فالقاعدة عندهم أن القواطع العقلية مقدمة على الأدلة الظنية، وأهل السنة والجماعة يجعلون النصوص مقدمة على العقل، فالقاعدة التي بنى عليها الأشاعرة والماتريدية مذهبهم تبعا للمتكلمين أن العقل مقدم على النقل، وهذه القاعدة يرد بها أهل السنة والجماعة من أسها.
كذلك يخالفون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأشاعرة والماتريدية وأهل البدع يخالفون في طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغايته، فيجعلون غايته الخروج تبعا للمعتزلة، وأهل السنة والجماعة يجعلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غايته إصلاح الخلق وانتظام شمل الناس على الدين.
وغير ذلك من المسائل، فإذن الأشاعرة والماتريدية ليسوا من أهل السنة والجماعة قد يطلق على الأشاعرة في بعض الكتب أنهم من أهل السنة، والسبب في ذلك أنه مقابلة لأهل التشيع، فيقال شيعة ورافضة وأهل سنة فيدخلون في أهل السنة، فيدخلون أهل السنة والجماعة يعني أهل الحديث وأتباع السلف الصالح ويدخلون الأشاعرة ويدخلون الماتريدية ونحوهم ممن ليس هو من الرافضة.
فإذن الإطلاق أهل السنة والجماعة لا يدخلون فيه لكن أهل السنة دون لفظ الجماعة قد يدخلون فيه إذا كان على وجه المقابلة، يعني احتجت أن تقابل تقول الرافضة وأهل السنة فإنه يعنى بأهل السنة من هم ضد الرافضة، والأشاعرة والماتريدية ونحوهم كان لهم ردود على الرافضة ووقفات ضد الرافضة.

الصلاة خلف المبتدع في الدين والقبوري وإذا أقيمت الصلاة وهو إمام ما الحل؟ ثم ما وضع حديث «صلوا وراء كل بر وفاجر»؟

أولا الصلاة خلف المبتدعة وأهل الكبائر بمعنى أهل الكبائر المظهرين لها، الأصل فيها أنها جائزة، الصحابة رضوان الله عليهم صلوا وراء أمراء الجور الذين يظهرون الكبائر وإزهاق النفوس كما صلى ابن عمر خلف الحجاج ابن يوسف، وأنس صلى خلف الحجاج أيضا، كما روى صلاة ابن عمر خلف الحجاج البخاري وغيره، هذا من جهة أهل الكبائر، و أهل البدع كذلك يصلي خلفهم، وأهل السنة والجماعة نصوا على ذلك في عقائدهم، لكن إذا كان صاحب البدعة هذه يمكن أن يستغنى عنه؛ بمعنى أنه ليس بإمام راتب شخص يتقدم وتعرف أنه صاحب بدعة هنا تنهره عن التقدم ويتقدم صاحب

السنة، يعني أنه عند الاختيار لا يجوز أن يأمّ صاحب كبيرة ولا صاحب معصية ظاهرة ولا صاحب بدعة، لكن إذا كان ليس عند الاختيار، وإنما أدركت جماعة وفيهم من هو كذلك فإذا كانت بدعته لا تخرجه إلى الكفر فإنه يصلي خلفه، أما حديث «صلوا وراء كل بر وفاجر» فهو حديث ضعيف ومعناه صحيح

ماهو الفرق بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

الجواب: أن أهل السنة والجماعة لا يفرقون بين الطائفة المنصورة والفرقة الناجية؛ بل الفرقة الناجية عندهم هي الطائفة المنصورة والطائفة المنصورة عندهم هي الفرقة الناجية، وذلك أن الأحاديث التي جاءت فيها أوصاف الطائفة المنصورة من مثل «لاَ تَزَالُ مِنْ أُمّتِي طَائِفَةٌ عَلَى الْحَقّ لاَ يَضُرّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ حَتّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وهم كذلك» ومن مثل قوله عليه الصلاة والسلام« لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ » وفي الرواية الأخرى «يقاتلونهم» ونحو ذلك، هذه كلها أوصاف للطائفة المنصورة، وهذه الطائفة المنصورة عندهم هي الفرقة الناجية، وحُكي الإجماع على ذلك من أهل السنة والجماعة، والفرقة الناجية لم تأتي في حديث بهذا الاسم بخلاف الطائفة المنصورة، فإن الطائفة المنصورة ذكرت هذه اللفظة أو ما يدل عليها أما الفرقة الناجية فإنما فهمت فهما من حديث الافتراق «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال «الجماعة». فعلى هذا سموا الفرقة هذه التي هي الأولى يعني التي لم تخرج سموها الفرقة الناجية، وبيان ذلك أن الطائفة المنصورة والفرقة الناجية كلٌّ من اللفظين فيه نعت ليس في الأخرى، الطائفة المنصورة يعني أنها منصورة في الدنيا والفرقة الناجية يعني أنها ناجية في الآخرة، فأحد الوصفين ليس معارضا للآخر، فأحد الطائفتين وصف دنيوي وهو أنها منصورة في الدنيا كما قال تعالى (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171)إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ(172)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)[الصافات:171-173] الطائفة المنصورة في الدنيا، والفرقة الناجية فهي التي تنجو من عذاب الله في الآخرة، تنجو من عذاب النار في الآخرة فالفرقة الناجية في الآخرة هي الجماعة الحق وهي الطائفة المنصورة في الدنيا، هكذا نعلم من فهم أئمة أهل السنة والجماعة في ذلك.

(المسألة الرابعة عشرة) أن كل ما تقدم مبني على قاعدة وهي النفي والإثبات فيتبعون الهوى والظن ويعرضون عمّا جاءت به الرسل.

(**المسألة الخامسة عشرة**) اعتذارهم عن اتباع ما آتاهم الله بعدم الفهم، كقولهم (قُلُوبُنَا غُلْفٌ1)،(يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)[هود:91] فأكذبهم الله وبين أن ذلك بسبب الطبع على قلوبهم وأن الطبع بسبب كفرهم.

الاستدلال بالقياس الفاسد، وإنكار القياس الصحيح، وجهلهم بالجامع والفارق.

قال تعالى في سورة "المؤمنين": {فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ. إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ}.

ومعنى الآية: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ} : شروع في بيان إهمال الناس، وتركهم النظر والاعتبار فيما عدّد سبحانه من النعم قبل هذه الآية، وما حاقهم من زوالها، وفي ذلك تخويف لقريش.

وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه، فقال متعطفا عليهم، ومستميلا لهم إلى الحق: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ} ، أي: اعبدوه وحده.

{مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} : استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها.

{فَلا تَتَّقُونَ} : الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أتعرفون ذلك، أي: مضمون قوله تعالى: {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} ، فلا تتقون عذابه تعالى الذي يستوجبه ما أنتم عليه من ترك عبادته سبحانه وحده وإشراككم به عز وجل في العبادة ملا يستحق الوجود لولا إيجاد الله إياه، فضلا عن استحقاق العبادة، فالمنكر عدم الاتقاء، مع تحقق ما يوجبه.

{فَقَالَ الْمَلأُ} أي: الأشراف الذين كانوا من قومه، وصف الملأ بالكفر مع اشتراك الكل فيه، للإيذان بكمال عراقتهم وشدة شكيمتهم فيه، وليس المراد من ذلك إلا ذمهم، دون التميز عن أشراف آخرين آمنوا بع عليه السلام، أو لم يؤمن به أحد من أشرافهم، كما يفصح عنه قوله: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} وهذا القول صدر منهم لعوامهم.

{مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} أي: في الجنس والوصف، من غير فرق بينكم وبينه.

وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة في وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة، ووصفوه بقوله سبحانه وتعالى: {يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ} : إغضابا للمخاطبين عليه السلام وإغراء لهم على معاداته.

والتفضل: طلب الفضل، وهو كناية عن السيادة، كأنه قيل: يريد أن يسودكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً} : بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد، بعد تحقيق بشريته عليه السلام.

أي: ولو شاء الله تعالى إرسال الرسل، لأرسل رسلا من الملائكة، وإنما قيل: لأنزل، لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال.

{مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} ، هذا إشارة إلى الكلام المتضمن الأمر بعبادة الله عز وجل، خاصة والكلام على تقدير مضاف، أي: ما سمعنا بهذا الكلام في آبائنا الماضين قبل بعثته عليه السلام، وقدر المضاف، لأن عدم السمع بكلام نوح المذكور لا يصلح للرد، فإن السماع بمثله كاف في القبول.

{إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ} ، أي: ما هو إلا رجل به جنون أو جن يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول.

{فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ} ، أي: فاحتملوه، واصبروا عليه وانتظروا لعله يفيق مما هو فيه محمول على مرامي أحوالهم في المكابرة والعناد.

وإضرابهم عما وصفوه عليه السلام به من البشرية، وإرادة التفضل إلى وصفه إلى ما ترى، وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا، وهو على ما تقدم محمول على تناقض مقالاتهم الفاسدة- قاتلهم الله تعالى أنا يؤفكون.

والقياس الفاسد والصحيح، والجامع والفارق، مفصل في كتب الأصوليين.

فبين الرسل عليهم السلام وسائر الناس مشابهة من جهة البشرية. ولوازمها الضرورية، فيصح حين إذن قياس الرسل على غيرهم فيها، وعليه قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} .

وبين الرسل والأنبياء عليهم السلام وغيرهم من البشر فروق كثيرة.

منها: أن الله تعالى اصطفاهم على الناس برسالاته ، وبكلامه ووحيه، فلا يقاس أحد من الناس بهم حين إذ من هذه الجهة، كما لا يصح قياس غيرهم بهم في سائر خصائصهم التي فصلت في غير هذا الموضع، فالجاهلية لم يميزوا بين القياس الصحيح والفاسد، ولا عرفوا الجامع ولا الفارق، كما سمعت من قياس الرسل على غيرهم، وهكذا أتباعهم اليوم ومن هو على شاكلتهم.

(**المسألة السادسة عشرة**) اعتياضهم عما أتاهم من الله بكتب السحر كما ذكر الله ذلك في قوله (نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(101)وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ)[البقرة:101-102].

الغلو في الصالحين من العلماء والأولياء، كقوله تعالى في سورة "التوبة": {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}.

فاتخاذ أحبار الناس أربابا يحللون ويحرمون، ويتصرفون في الكون، وينادون في دفع ضر أو جلب نفع من جاهلية الكتابيين، ثم سرى إلى غيرهم من جاهلية العرب، ولهم اليوم بقايا في مشارق الأرض ومغاربها، تصديقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : " لتتبعن سنن من كان قبلكم ... " الحديث، حتى نرى غالب الناس اليوم معرضين عن الله، وعن دينه الذي ارتضاه، متوغلين في البدع، تائهين في أودية الضلال، معادين للكتاب والسنة ومن قام بهما، فأصبح الدين منهم في أنين، والإسلام في بلاء مبين، وحسبنا الله، ونعم الوكيل.

(**المسألة السابعة عشرة**) نسبة باطلهم إلى الأنبياء (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ)[البقرة:102] وقوله (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا)[آل عمران:67]. قال تعالى في سورة البقرة: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ}.

وفي سورة النساء: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً}.

الغلف: جمع أغلف، كأحمر وحُمر، وهو الذي لا يفقه، وأصله ذو القلفة: الذي لم يُختن، أو جمع غلاف، ويجمع على غُلُف بضمتين أيضا.

أرادوا على الأول: قلوبنا مغشاة بأغشية خَلقية مانعة عن نفوذ ما جئت به فيها.

وهكذا قولهم: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} ، قصدوا به إقناط النبي صلى الله عليه وسلم عن الإجابة، وقطع طمعه عنهم بالكلية. ومنهم من قال: معنى غلف: مغشاة بعلوم من التوراة تحفظها أن يصل إليها ما تأتي به: أو بسلامة من الفطرة كذلك.

وعلى الثاني أنها أوعية العلم، فلو كان ما تقوله حقا وصدقا لوعته.

قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والسدي رحمهم الله : أو مملوءة علما، فلا تسع بعد شيئا، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره.

ومنهم من قال: أرادوا أنها أوعية العلم، فكيف يحل لنا اتباع الأمي، ولا يخفى بعده.

وقال تعالى في سورة هود: {وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ. وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ. قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} .

وقد كذبهم الله تعالى في دعواهم هذه في آيات كثيرة، وذكر أن السبب في عدم الفهم إنما هوالطبع على القلوب بكفرهم، لا القصور في البيان والتفهيم.

[الشرح]

المسألة الخامسة عشرة (اعتذارهم عن اتباع ما أتاهم الله بعدم الفهم، كقولهم (قُلُوبُنَا غُلْفٌ)، (يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)[هود:91]) ونحو ذلك من الآيات، فبين ذلك جل وعلا بأن ذلك وهو عدم الفقه وعدم الفهم بسبب الطبع على قلوبهم وبسبب جعل الأكنة على القلوب، وأن ذلك أيضا كان عدلا من الله جل وعلا، وذلك لأنه بسبب كفرهم بالله جل وعلا.

وهذه المسألة مسألة عظيمة ألا وهي أن المشركين وأهل الجاهلية على اختلاف ملل الجاهليات ونحلهم يعتذرون عن اتّباع الحق ويكون عذرهم هو أنهم لم يفقهوا ما قيل لهم ولم يعلموه، يريدون بذلك أنهم لم يفقهوا الحجة فقه من يستجيب لها، ولم يعلموا أن تلك الحجج التي جاءت بها الرسل أو جاء بها الأنبياء أنها غالبة وأنها مقدمة على الحجج التي يحتجُّ بها أولئك فعند المشركين حجج وعلم والرسل والأنبياء جاءوا بحجج وعلم فلم يفقه أهل الجاهليات أن حجج الأنبياء والمرسلين أدلَّ على المراد من حجج المشركين.

ولبيان ذلك نقول إن الحجة لا بد من إقامتها فالله جل وعلا ما بعث رسول إلا لأجل إقامة الحجة [لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[النساء:165]، وقال سبحانه (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ

رَسُولًا)[الإسراء:15]، فمن كمال عدل الله تبارك وتعالى ومن كمال حُكمه وحِكمته أنه جل وعلا ما عذّب أحدا حتى يقيم عليه الحجة، ولذلك بعث الله المرسلين وبعث الأنبياء لكي تنقطع حجج الناس بل إنّ الله جل وعلا أخذ على ابن آدم أو على بني آدم العهد لما أخرجهم من ظهور آبائهم ألاّ يكذبوا بتوحيد الله جل وعلا كما قال سبحانه (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ)[الأعراف:172]، إلى أن قال (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(172)أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)[الأعراف:172-173]، فالله جل جلاله أقام الحجج المتنوعة حجج مسموعة وحججا مرئية، وهم اعتذروا عن الاتباع بعدم فهم الحجة، قال سبحانه مخبرا عن قولهم (يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)[هود:91]، وقال سبحانه(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوه) وقال سبحانه مخبرا عن قول اليهود أنهم قالوا (قُلُوبُنَا غُلْفٌ)، وتقرير هذا أن **فهم الحجة له نوعان**:

النوع الأول: أن يفهم معناها؛ يعني أن يقيم الحجة من يفهم معنى الحجة، بأن يكون بلسان المخاطب، وأن يفهم المراد من الحجة، وهذا النوع متفق على أنه لابد منه، فإن الله جل جلاله ما بعث رسوله إلا بلسان قومه يبين لهم، كل رسول بعث بلسان قوم ذلك الرسول، يتكلم بلغتهم ويتكلم بلسانهم حتى يبين لهم الحجة، وحتى يفهموا معناها، وهذا متفق على أنه لا بد منه؛ لأنه إذا خوطب أحد بغير اللسان الذي يفهمه لم يكن ثَم إقامة للحجة، فإذن هذا النوع رجع إلى أنه في يعني إقامة الحجة، فإقامة الحجة لا يكون إلا بفهم معناها في هذا النوع.

النوع الثاني: فهم الحجة الفهم الذي يتبعه استجابة للحجة، فإن من فهم الحجة فهما مستقيما كاملا لابد أن ينقاد لها وهذا هو الذي لا يشترط في إقامة الحجة، فلم يكن لأولئك عذر بقولهم (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)، (مَا نَفْقَهُ) يعني ما نعلم ولا نفهم أن هذا الذي تقول أرجح من قولنا، ولا نفهم أن علمك الذي أوتيت به أرجح من علمنا، وهذا النوع هو الذي حرمه المشركون في أنهم لم يفهموا فهم استجابة، لم يفهموا الحجة من جهة كونها أرجح من حجتهم، ولكن الحجة فهموا معناها.

فإذن فهم الحجة معناها.

النوع الأول لابد منه وهو، **فهم المعنى، وفهم مدلولات الكلام وفهم الاستدلال ووجه الاستدلال**

وأما النوع الثاني وهو أن تفهم فهم من يستجيب، فإن هذا لا يشترط في إقامة الحجة، فإن الحجة تقوم ولو زعم الزاعمون أنهم لم يفهموا معناها إذا بينت لهم ألفاظها وكانت بلسانهم وبين لهم معناها من أهل العلم والفهم لبيان المعنى.

لهذا قال جل وعلا مخبرا عن قول المشركين (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) وقال (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ) ولم يمنعهم هذا الاحتجاج بأنهم ما فقهوا ولا فهموا بأن تكون الحجة قد أقيمت عليهم، وإذْ أعرضوا حلّ عليهم سخط الرب جل وعلا، وأيضا أخبر سبحانه أن قريش بل والعرب جُعلت على قلوبهم أكنة قال سبحانه

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) جعل الله جل وعلا على قلوب المشركين أكنة تحجب الفقه وتمنع الفهم، حواجز تمنع ذلك أن يفقهوا يعني أن يفهموا، هذا الفهم إنما فهم موقع الاحتجاج؛ فهم رجحان الحجة على ما عندهم من الحجج، وهذا كل طائفة من طوائف الشرك والجاهلية تحتج بهذا بأنه ما فهمت بأنهم ما يريدون أن ينسبوا إلى أنفسهم أنهم ردوا الحجة عنادا واستكبارا.

ولهذا قال أئمتنا إن إقامة الحجة شرط وأما فهم الحجة فلا يشترط. فليس كفر كل من كفر عن عناد وتكذيب؛ لأن أولئك لم يفهموا وجه الحجة الفهم الذي يجعلهم يقدمونها على حجتهم، ولكنهم فهموا تلك الكلمات وفهموا دلائلها وفهموا معناها.

قال الشيخ رحمه الله تعالى هاهنا (**فأكذبهم الله جل وعلا في ذلك**) يعني فيما احتجوا به من أنهم ما فقهوا يعني أكذبهم في أنهم فهموا المعنى، ولكنه جعلت على قلوبهم أكنة أن يفقهوه الفقه النافع، وهو سبحانه كثيرا في القرآن ينسب الفعل إلى من ينتفع به، فقول الشيخ رحمه الله (أكذبهم الله) يعني في أنهم ما فقهوا الفقه الذي هو بمعنى فهم المعنى وبين أنهم فهموا المعنى، ولكنه الله جل وعلا بين أنه جعل على قلوبهم أكنة وكثيرا في القرآن ما يأتي نسبة الفعل إلى من ينتفع به، قال سبحانه (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ)[فاطر:18]، فأخبر سبحانه في هذه الآية أن النبي – صلى الله عليه وسلم – إنما ينذر الذين يخشون ربهم بالغيب مع أنه عليه الصلاة والسلام نذير للعالمين، لكن أضيف إلى أولئك الإنذار لأنهم هم الذين انتفعوا به (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ) لأنهم هم الذين اتفعوا بذلك.

فهنا في قول الشيخ فأكذبهم الله جل وعلا في ذلك، وبيّن سبحانه أن سبب عدم الفقه هو الطبع على القلوب، يعني عدم الفقه الذي هو في ترجيح الحجة، الفهم الذي يترتب عليه ترجيح حجة المرسلين على ما عندهم من الأوهام والحجج، وبيّن سبحانه أن ذلك الطبع بسبب كفرهم، عدلا منه جل وعلا وحكمة، وهذا في كل أهل جاهلية يأتون بمثل هذا.

وهذه المسألة موسومة في كتب العلماء بمسألة إقامة الحجة وفهم الحجة، **وتبيّن لك أن الصواب تقسيم فهم الحجة إلى قسمين**؛ لأن من أهل السنة في هذا القرن من اعترض على أئمتنا على عدم اشتراط فهم الحجة لأنه قال لابد من فهم الحجة، كيف تقام الحجة على من لم يفهمها؟ والعلماء بينوا لكن هؤلاء ما انتبهوا إلى أنّ فهم الحجة بالمعنى الأول الذي ذكرناه وهو **فهم المعنى، وفهم مدلولات الكلام وفهم الاستدلال ووجه الاستدلال** هذا لا بد منه، أما الفهم الذي هو **معرفة رجحان هذه الحجة على غيرها وقطع الشبه جميع الشبه فهذا لا يشترط** كما بينه الأئمة.

إذا تبين لك ذلك، فنقول إن هذه الخصلة من خصال الجاهلية نفذت في هذه الأمة في قديم زمانها وفي حديثه:

فأما في قديم زمانها يعني في أوائل الأمر، من جهة أن كثيرا ممن أعرضوا عن الكتاب والسنة وعن لزوم اتباع الكتاب والسنة، والأخذ بما كان عليه سلف هذه الأمة، وأن علومهم كانت أعلم وأسلم وأحكم، وأنهم كانوا اتقى لله جل وعلا من أن يخوضوا فيما غير ما أذن الله جل وعلا أن يخوضوا فيه، إذا بين لهم ذلك، محسنهم يقول ما أفقه هذا الكلام؛ يعني هذه حجة ليست بواضحة، هذا الكلام ليس بواضح الدلالة، فيرد هذا الأصل العظيم مع ما عليه من الدلائل الواضحات لأجل عدم فهمه، وعدم فهمه بموقع الحجة، وأن هذه الحجة أقوى حجته هذا ليس بعذر له، ليس بعذر له ولا يعذر في ذلك.

مثال هؤلاء أهل البدع في الاعتقادات، سواء كانت منها الاعتقادات الكفرية أم ما كان دون ذلك، هؤلاء اعتاضوا وتركوا كتاب الله والسنة وما كان عليه السلف إلى آراء أحدثوها واعتقادات وضعوها، حتى إنهم وضعوا أدلة عارضوا بها الأدلة القرآنية والأدلة النبوية، مثل الدليل الذي وضعه طائفة أو الذي وضعه جهم بن صفوان ومن بعده من المعتزلة؛ الدليل الذي يسمى بدليل الأعراض، والذي من أجله وبسببه أُوِّلت الصفات وحُرفت النصوص، ووقع البلاء العام في المسلمين بسبب ذلك الدليل المحدث المبتدع، الذي هو خطأ في نفسه، وجناية على الشرع، تحصيل هذا الدليل أنّه أراد أن يثبت وجود الله جل وعلا بإثبات حدوث الأجسام، وأن الأجسام لا يثبت حدوثها إلا بإثبات حلول الأعراض فيها، **الأعراض هي المعاني التي تطرأ أو تزول**، فلما أثبت الوحدانية يعني وجود الله جل وعلا بهذا الدليل، صار معه متعين أن ينفي كل ما يعارض ذلك الدليل، فنفى إثبات الصفات لأن الصفات عنده أعراض تطرأ وتزول، وإذا أثبت الصفات كالرحمة والمغفرة والنزول والاستواء والكلام وغير ذلك من الصفات، إذا أثبتها فإنه يعني في فهمه أنه يثبت أعراضا تطرأ وتزول، وهو ما أثبت حدوث الأجسام إلا بهذه الطريقة التي هي طريقة الأعراض، فكان مستمسكا بدليله، وبدليله هذا ظهرت الفرق المعتزلة والكلابية والماتريدية والأشعرية ومن نحى نحوهم، وهو دليل باطل من أصله، لما خوطب أهل الاعتزال من أهل السنة الذين أخذوا بهذا الدليل وعظموه، الذي هو يستدل على وجود الله بدليل حدوث الأعراض في الأجسام، لما أُحتج عليهم بأن هذا الدليل لم يأت في كتاب ولا في سنة وأنه منقوض من أصله، وأن أدلة القرآن هي المتعينة في إثبات حدوث المخلوقات، وأن الله جل وعلا هو موجدها وحدثها وخالقها وربها، قالوا إنّ نقض ذلك الدليل لا نفهمه، وقلوبنا لم تفهم ذلك، وعقولنا لم تدرك ذلك، ونحو هذا، مع أن هذا الدليل واضح في نفسه، لكن جعل في قلوبهم ما يصدهم عن اتباع الأدلة القرآنية فأحدثوا ذلك الحدث الأكبر في الملة، ألا وهو ذلك الدليل الباطل من أصله الذي بسببه حدثت الفرق المختلفة.

كذلك في العبادات طوائف المبتدعة من المتنسكة والمتصوفة ونحو ذلك، إذا أُحتج عليهم ببطلان بدعهم وبطلان طرائقهم في السلوك، وأنهم لا يجوز أن يسلك طريق إلا أن يكون موافقا للنص في العبادات وفي العقائد ونحو ذلك، بينوا أنهم لا يفهمون تلك الأدلة، وأن ما عليه ما بينه أشياخهم أن هذا أوضح لهم هؤلاء أقيمت عليهم الحجة وبينت لهم ولكنهم ما فقهوها فقه من يتبع السلف الصالح، فلا يعذر أولئك بالجهل، بل أكذبهم الله جل وعلا بما كذب به الأولين الذين اعتذروا بأنهم لم يفقهوا، هم يسمعون كلام الله ويسمعون سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –، وكلام أهل العلم في بيانها، وبينت لهم تلك الأمور، وصنفت في ذلك مصنفات ومع ذلك بقوا على طرائقهم المبتدعة، وطرقهم الصوفية المحدثة، يحتجون بأنهم ما يفهمون هذا الفهم يعني فهم كون حجة السلف أرجح من حججهم، طريقة السلف أرجح من طرائقهم، هؤلاء لا يعذرون لأنهم مكذبون بما كذب الله جل وعلا الأولين.

وهكذا كل من أقيمت عليه الحجة من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – من الحجج التي فَهْمُها لا يختلف فيها اثنان، أو من الحجج التي يمكن أن تفهم أكثر من منحى، لكن أهل العلم بينوا معناها وأوضحوا مرادها واستدلوا عليه بالدلائل، من بين له ذلك فقد أقيمت عليه الحجة، فمن خالف بعد ذلك ولو احتج بعدم الفقه والفهم فهو مكذِّب.

قال الشيخ رحمه الله إن الله جل وعلا أكذبهم (**فأكذبهم الله**) وبين أن سبب ذلك هو الطبع على قلوبهم، وأنّ الطبع بسبب الكفر وهذه السببية مطردة في كل من خالف الكتاب والسنة ونهج سلف هذه الأمة في العلوم والأعمال في الاعتقادات وفي السلوك وفي الفقه، كل من خالف هذا فإنه يعاقب على صنيعه بأنه لا يفهم الحجج، قال جل وعلا ?وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا?[الكهف:101]، مع أنهم سمعوا كلام الله، وسمعوا كلام رسوله – صلى الله عليه وسلم –، يعني أهل الشرك لكنهم (لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) ذلك هو السماع النافع، لا يقدرون عليه، الاستطاعة بمعنى القدرة لأنهم جعلت على قلوبهم الأكنة عقابا لهم على أعراضهم عن الاتباع، فكل من أعرض عن الاتباع يخشى عليه أن يعاقب بعدم فهم الحجج، وهذه هي أعظم العقوبات، أن يعاقب المرء بأن لا يفهم كلام الله جل وعلا ولا كلام رسوله – صلى الله عليه وسلم –.

وإذا تأملت اليوم أكثر المخالفين فإنهم إذا بُينت لهم الأدلة والنهج الصحيح، يقولون إن هذا غير واضح، هذا لا يُلزم الناس به ونحو ذلك، وهذا من جنس ما كان عليه أهل الجاهلية؛ من أنهم لم يفقهوا، ولم يفهموا، ولم يتبين لهم أن حجة المرسلين أعظم من حجتهم، ولاشك أن من ورث الكتاب وورث السنة فإن حجته أعظم من حجة غيره، ولو كان عنده من العلم وعنده من العقل الشيء الكثير، كما قال شيخ الإسلام في المتكلمين: أوتوا ذكاء ولم يؤتوا زكاء أو أتوا علوما ولم يؤتوا فهوما. يعني الفهم النافع فإنه حُرِم كثيرون الفهم النافع، فكل من جادل بالباطل، وقال أنه لم يفهم الحجج التي عليها سلف هذه الأمة

فإن ذلك بسبب إعراضه، فليكن أول ما يكون من أمره في علاجه أن ينسلخ من كل طريقة ليس فيها اتباع السلف، ثم بعد ذلك سيرى من نفسه وُفِّق للفهم، ووفق للسماع النافع، ووفق للفقه فقه الأدلة، ولهذا ترى عند أئمة الإسلام الذين انشرحت صدروهم للعقيدة الصحيحة، وانشرحت صدورهم لاتباع النبي – صلى الله عليه وسلم –، وجاهدوا في ذلك وبينوا، عندهم من فيهم النصوص ما ليس عند غيرهم، فمن اتبع النصوص نطق بالحكمة، مثل ما قال بعض الأئمة: من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة. وهذا ظاهر بين، فإن المؤمنين في كل زمان لم يزالوا يحتاجون إلى من ينطق بالحكمة، وليس أولئك إلا أئمة أهل العلم الذين تبعوا السلف الصالح وتفقهوا في الكتاب والسنة.

فاليوم كل من أقيمت عليه الحجة وبينت له فإنه لا يجوز أن يُعذر باحتجاجه بعدم الفهم يعني الفهم النافع، إلا في بعض المسائل المشتبهة التي اختلفت فيها أنظار أهل العلم وكان في النصوص ما يعذر معه أولئك، من أنهم يفهمون منها كذا، تفهم من طائفة شيء وتفهم منها الطائفة الأخرى شيئا آخر، فهذا لا بأس به يعني خلاف يعذر به صاحبه؛ لأنه ناتج في أصله عن اتباع أما إذا كان ناتج عن معارضة للنصوص بالأفهام التي لم يتبع فيها أصحابها كلام أهل العلم فأصحابه غير معذورين.

المسألة السادسة عشرة قال الشيخ (اعتياضهم –يعني أهل الجاهليات– عما آتاهم من الله بكتب السحر كما ذكر الله ذلك في قوله ?نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(101)وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ?[البقرة:101-102]) وهذا بيان لفعل اليهود، وأن اليهود تركوا ما جاء به أنبياؤهم وما ساستهم به الأنبياء من العلم النافع إلى غير ذلك من كتب السحر.

وفي قوله تعالى هنا (اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ):

قال بعض أهل العلم إن معنى (اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) يعني في ملك سليمان فـ(عَلَى) بمعنى (في).

وقال آخرون إن معنى (مَا تَتْلُو) ما تكذب، فتكون (تَتْلُو) مضمنة معنى الكذب، وهو المناسب للتعدية بـ(على)؛ لأن كذب يُعدى بـ(على)؛ كذب على فلان، والتضمين معروف في لغة العرب مطرد كثيرا.(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ)، (تَتْلُو) هنا مضمنة معنى الكذب والملك في هذه الآية معناه العهد، فيكون معنى الآية: واتبعوا ما تكذب الشياطين على عهد سليمان.

وفي تفسير هذه الآية ستة أوجه، كيف كان ذلك الاتباع وكيف كان دخول السحر من جهة الشياطين على عهد سليمان، ستة أقوال ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ورتبها ترتيبا حسنا.

الذي يهمنا منها ما يجمع تلك الأقوال ويناسب هذه المسألة وهو أن حاصل تلك الأقوال: أن سليمان عليه السلام جعل كتبا من كتبه أو كتبا من كتب الشياطين تحت كرسي له، مخفاة عن الناس، مدفونة لا يعلم بذلك أحد، وكان عهد سليمان لدى الناس يطلعون عليه ويعملون به، فهو نبي من الأنبياء عليه السلام، سليمان عليه السلام منع الناس من النظر فيما كتبته الشياطين من السحر والأقوال التي أخذوها من الكهنة كما في أحد الأقوال، وأيضا دفن عهده وكتابه تحت كرسيه، فلما توفي سليمان عليه السلام أَعلمت الشياطين الكهانَ بأن عهد سليمان مكتوب ومجعول تحت كرسيه، فحفروا فوجوده -والذي تجتمع عليه الروايات عن الصحابة رضى الله عنهم ننقله ،وأما ما تختلف فيه فليس هذا محل بيانه لأنه دخلها كثير من الإسرائيليات، والروايات كلها عن الصحابة ليس في ذلك شيء مرفوع، لكن الذي يناسب ظاهر المعنى —معنى الآية- هو ما أصفه لك الآن- بيّن الشياطين للكهان أن عهد سليمان تحت كرسيه فحفروا فوجدوه.

أما على القول بأن عهده الذي كان عَهِدَ به للناس فإنهم يقولون إن الشياطين كذبت على سليمان بأنهم لما استخرجوه زادوا فيه أقوالا وزادوا فيه إباحة السحر، وزادوا فيه كيف يسحر المسحور أو كيف يسحر الناس ونحو ذلك من الأقوال الشيطانية، ومن قال إنّ الذي دفنه سليمان هو كتب الكهنة وما كتبه الكهنة، فيكون أولئك الشياطين استخرجوا تلك الكتب من الكهنة، وزعموا للناس أنها عهد سليمان، مع أن عهد سليمان كان معروفا فيهم، كان محفوظا في الناس يعرفونه ويعملون به، لكن لما أظهرت الشياطين تلك الكتب وقالوا إنها من عهد سليمان أو إنها عهد سليمان قال اليهود إنّ سليمان ساحر، وهذا ما أخبر الله جل وعلا به في قوله (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ)[البقرة:102] ما كفر سليمان عليه السلام بالسحر، وإنما عهد للناس العهد الذي ينفعهم، وعلّمهم ما ينفعهم، وأقام الحجة عليهم وبين لهم ما ينجيهم، وأنفذ فيهم ما أوحى الله جل وعلا (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) وحاشاه أن يكون كذلك (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) يعني بعد موت سليمان بما أخذوه من الكتب زاعمين أن هذا من دين سليمان، زاعمين أن هذا هو عهد سليمان.

وهذا هو أصل هذه المسألة من أن أولئك الذين كانوا من أتباع سليمان اعتاضوا عما آتاهم من الله جل وعلا من عهد سليمان، ومما أنزله الله جل وعلا عليهم وبينهم لهم على لسان سليمان عليه السلام، ذلك القدر المتيقن، ذلك القدر الذي لا شك فيه و لا التباس اعتاضوا عنه بكتب السحر التي جعلتها الشياطين، وهذا الأمر أصل في أنّ أهل الجاهليات نبذوا الرسالات وأخذوا بما هو من جنس السحر أو أخذوا بالسحر أصلا كما في هذه المسألة.

فهذه المسألة أصل في كل من خالف الرسل ممن جاء بعدهم إنما خالف الرسل لأنهم اعتاضوا واستبدلوا

ما أنزل الله جل وعلا عليهم، وما أمرهم باتباعه، استبدلوه بشيء آخر من الكتب إما كتب سحر، وإما بكتب محرفة، وإما بكتب مفتراة على الله جل وعلا ونحو ذلك.

اليهود طائفة منهم من علمائهم افتروا على الله الكذب؛ بأن جعلوا في التوراة ما ليس منها، وأدخلوا فيها ما ليس منها، حرّموا على الناس الحلال، وأحلوا لهم الحرام، مع أن التوراة الأصلية كانت في أول الأمر موجودة عند الناس ولكنهم تركوها و أخذوا بتلك الأقوال وبتلك الآراء.

وهكذا في أهل الجاهلية العرب كان ذلك عندهم نبذوا المتيقن لديهم من دين إبراهيم عليه السلام، وأخذوا بما أحدثه طائفة من أهل مكة أو طائفة من العرب.

فكانت هذه المسألة واضحة في أن أهل الجاهلية يتركون ما أنزل الله جل وعلا إلى غيره.

وهذه الشعبة من شعب أهل الجاهلية أيضا هي في هذه الأمة في أوسع صورها، وفي أظهر مظاهرها وأوضح مظاهرها، أعظم مما كان عند اليهود وأعظم مما كان عند غيرهم، ذلك أن كتاب الله جل وعلا محفوظ (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[الحجر:9]، والسنة؛ سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – محفوظة أيضا بما بينه أهل العلم من صحيحها وسقيمها، فالدين محفوظ ليس بعرضة للتغيير ولا التبديل، دين باق إلى قيام الساعة، كتاب الله باق وسنة النبي – صلى الله عليه وسلم – باقية، وهذا يوجب على الناس أن لا يحيدوا عنها، وأن لا يرغبوا الهدى في غير الكتاب وسنة النبي – صلى الله عليه وسلم –، ما الذي حصل في هذه الأمة؟ تُركت تلك الأصول.

تُرك الكتاب وتركت السنة، واستبدل طائفة من هذه الأمة كتب السنة كتب الفلسفة وكتب الكلام.

طائفة أخرى استبدلت بكتب السنة كتب الرأي من كتب بعض الفقهاء المتقدمين الذين لا يذكرون في كتبهم إلا الرأي؛ أرأيت إن كان كذا فكيف يكون، بخلوِّها من الحجج والأدلة وكلها مبنية على قياس ورأي.

ترك طائفة من هذه الأمة سير السلف في العبادات وأخذوا بكتب القوم الذين صنفوا في ذلك من أهل الطرق ونحو ذلك مع أن الكتاب محفوظ والسنة محفوظة لكنهم اعتاضوا واستبدلوا ما آتاهم من الله جل وعلا بغيره من جنس ترك أولئك لعهد سليمان واتباعهم السحر، بل إن طائفة من هذه الأمة أخذت بالسحر وكتب السحر وتركت الأصل المنزل على هذه الأمة.

الفلاسفة دخلوا في هذه الأمة فطائفة من عقلاء هذه الأمة كما يقولون وكما يسمونهم العقلاء والأذكياء، تركوا الكتاب والسنة وزعموا أن نصوص الكتاب والسنة هذه توهيمية تخيلية إنما تنفع للعوام، وأن النبي – صلى الله عليه وسلم – ما ذكره في السنة، بل وما أنزله الله جل وعلا في الكتاب إنما هو وهم وخيال هؤلاء يسمون أهل الوهم والتخييل؛ يعني قالوا إن هذه النصوص وتلك الظواهر من النصوص ليست مرادة وإنما هي ظواهر وهمية خيالية لإصلاح الناس؛ لأنه لا يصلح الجمهور –على حد قولهم– إلا

هذا لا يصلح الناس لأجل بلادة عامتهم وعدم فهمهم كما يقول أولئك، لا يصلحهم إلا هذه الطريقة والحكماء يصلحون الناس بما يناسبهم من الطرائق، يقولون فأتى الكتاب والسنة بالطرائق التي تصلح للجمهور وما فيها من الوهم والتخييل، وأما طرائق أهل العقول والحجى وأهل الفهم والنظر فإنما هي طريقة الفلسفة؛ طريقة طلب الحكمة بالاستدلال بالكونيات ونحو ذلك مما يبحثونه، وبه قُدمت الفلاسفة على صفوة هذه الأمة، ومن أجله قيل إن علم السلف أسلم ولكن علم الخلف أعلم وأحكم، كما قاله ضُلاَّلهم.

كذلك اعتاض طائفة من هذه الأمة عما جاء في الكتاب والسنة وما بيّنه علماؤنا؛ يعني علماء سلف هذه الأمة من معانيهما، اعتاضوا عنهما بكتب أحدثها المتكلمون والمتكلمون أخص من الفلاسفة، فكل فيلسوف متكلم وليس كل متكلم فيلسوف، وأخذوا بمنطق اليونان وأخذوا بالقواعد التي يسمونها قوطع عقلية وأدخلوها بهذه الأمة، وجعلوا كتبهم في العقائد مقدمة على العقائد التي جاءت في الكتاب والسنة بل إنه منهم –من أهل الكلام– من زعم أن نصوص الكتاب والسنة تحير ولا تهدي، لأننا لا نعرف المعنى ،مع أن هذه المدرسة مبناها على الرأي وليس مبناها على النص.

كذلك أهل السلوك أهل السلوك اعتاضوا عن الزهد المشروع الذي كان عليه صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، بل ما كان من هدي النبي – صلى الله عليه وسلم – الذي هو عليه والسلام أزهد الزاهدين وإمام العارفين وقدوة العباد، اعتاضوا عن ذلك إلى كتب خاصة وضعها القوم في زهدهم وعبادتهم، فصنفوا كتبا في ذلك، ومن أوائل من صنف في هذا الحارث المحاسبي وطائفة من طبقته، وكان ذلك شائعا فانتبه إلى ذلك أئمة السنة، فصنفوا في مقابلة ذلك ما يهدي الناس في باب السلوك، صنفوا كتب الزهد، أئمة الحديث صنفوا كتب الزهد، في مقابلة أخذ المتصوفة بكتب يضعونها ليست معتمدة على هدي السلف، فصنف الإمام عبد الله ابن المبارك كتاب الزهد، وصنف الإمام أحمد الزهد وهكذا طوائف صنفوا الزهد في مقابلة **ترك أولئك زهد السلف إلى زهد مبتدع** وتصنيف الكتب فيه، ولهذا حذر السلف من تلك الكتب وتلك التصانيف، زاد الأمر حتى وضع للسلوك أصولا في هذه الأمة، فاعتاضوا عن أصل الكتاب والسنة إلى تلك الأصول المبتدعة والعياذ بالله، حتى جُعلت تلك الأصول في آخر الأمر طريقة من طرائق القوم لها اصطلاحاتها ولها مدلولاتها مما يعارض به الكتاب والسنة، بل زاد الأمر حتى وصل بهم الحال أن جعلوا مقام السائرين من الأولياء أعظم من مقام الأنبياء كما قال قائلهم وهو ابن عربي في فصوصه قال :

مقام النبوة في برزخ فُوَيْقَ الرسول ودون الولي

فجعل الولاية أعظم من النبوة والنبوة أعظم من الرسالة ذلك أن الولاية عندهم كسبية تكتسب مما أخذ من المعارف والكتب التي تهدي تبين كيف تكتسب وأما النبوة فإنما هي فضل وما كان بالكسب تكشف له الحجب، وما كان بالاختيار لا تكشف له الحجب ولهذا فضلوا خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء، كما يقولون، سبب ذلك ترك ما أنزل الله جل وعلا إلى غيره، فكانوا حقيقين بما وصف الله جل وعلا اليهود بقوله(نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(101)وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ)[البقرة:101-102]، وهكذا في جوانب السحر كذلك في الكهانة، في الجبت، في الصرف، ونحو ذلك من الأنواع، كلها فيها كتب، موجودة في الأمة، ولهذا كان أهل العلم يوصفون بأن تحرق وتمنع الكتب التي فيها البدع، بل نصّ الفقهاء على أن كتب البدع التي تشتمل على الضلال أنها تحرق ولا يضمّن من حرقها من كتب أهل الضلال وأهل البدع المشتملة على مناقضة الشرع ومناقضة كتب السنة، مثل كتب السحر والشعوذة والفلسفة والكلام ونحو ذلك، وقد كان العلماء قديما يحذرون من كتب البدع ويمنعونها ويحرقونها ، ولكن اليوم كثر ذلك في الناس لأجل أن من الناس من اعتاض عن تلك الكتب إلى غيرها من الكتب، وهذا لا شك أنه خصلة من خصال أهل الجاهلية، وسبب من أسباب الضلال، أن يكون عندنا كتاب الله جل وعلا نقي كأنما أنزل الساعة، ويكون عندنا سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –كأن النبي – صلى الله عليه وسلم – بيننا يحدثنا بها ونترك ذلك إلى غيره من الهذيان وإلى غيره من الأفهام و الأفكار، لا شك من جنس فعل أهل الجاهلية.

ثم إن هذه المسائل الجاهلية التي خالفهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيها كما ترى هي عزيزة المعاني وهي مهمة جدا في حياتنا اليوم، بل إنه على الشباب والدعاة إلى الله جل وعلا أن يكون في حلقاتهم، وأن يكون في بيان دعوتهم ما يستدلون فيه بكثير من هذه المسائل؛ لأنه إذا بينت للناس أن هذه خصلة من خصال اليهود، خصلة من خصال الجاهلية، بدلائلها وبكلام أهل العلم عليها، ثم بينت أن هذه دخلت في الأمة، يكون هذا من أنفع أبواب الدعوة، ومن أنفع طرقها، وهذه هي الطريقة أو هذه من الطرق السلفية المحمودة في الدعوة؛ دعوة الناس، ولهذا الشيخ رحمه الله اعتنى ببيان هذه المسائل لأن الجميع راغب في أن يكون مجانبا لسنن أهل الجاهلية ولطرائقهم ولخصالهم سواء كانوا يهودا أو نصارى أو مشركين أو مجوس ...إلى آخره من الملل و النحل.

فعنايتكم بهذه المسائل فهما واستنباطا، ثم عنايتكم بشرحِ ما كان عليه أهل الجاهلية ببيان أصل المسألة، ثم صور دخول هذه الخصلة في هذه الأمة، وأنّ هذا مصداقا لقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع» هذا من الأمور التي تعين الداعية على الوصول إلى مبتغاه، وتبين الحق للناس.أسأل الله الكريم أن يزيدني وإياكم من الهدى والاهتداء، وأن يجعلنا

ملازمين لما أنزله الله جل وعلا علينا منابذين لكل ما يخالف ذلك الأصل العظيم،

مسألة : هل يشهر بأهل البدع غير المكفرة ويحذر منهم ومن آرائهم؟

أهل البدع سواءً كانت بدعتهم مكفرة أو كانت بدعتهم ليست بمكفرة، هدى السلف الصالح يلزم أن يبيَّن للناس من حالهم؛ لأجل أن لا يتعدى ضررهم إلى الناس، لأنه ما من مبتدع إلا وسيمارس بدعته، إن لم يدع إليها قولا، دعا إليها فعلا، وهذا يتعين أن يُحمى الدين من هؤلاء؛ لأن حماية الدين وحراسة الملة أصل من أصول الإسلام وواجب من واجباته العظام على هذه الأمة، فلا بد أن تبقى في هذه الأمة طائفة تحرس هذا الدين من بدع المبتدعين، سواء أكانت بدع مكفرة أو كانت بدعهم غير مكفرة؛ لأن حماية الدين أغلى من حماية ورعاية الأشخاص، ومهما كان مقامهم في العلم، مقامهم في السلوك ونحو ذلك، فالسلف مازالوا ينكرون في وقتهم على من كان معروفا بالصلاح؛ أنكر الإمام أحمد على الحارث المحاسبي، أنكر الإمام أحمد على طائفة، بل أنكر الأئمة الواقفة في خلق القرآن، مع ما حصل في تلك الأزمنة من المحنة العظيمة.

فإذن **هدي السلف الإنكار على أهل البدع**، لكن هذا متوقف على شيء، وهو أن يثبت وصف البدعة لمن ينكر عليه، فإذا ثبت وصف البدعة على من ينكر عليه، بوصف أهل العلم الراسخين العارفين بالبدع، بوصفهم لذلك، فإنه ينكر عليهم، لا يكون مسألة البدع والابتداع محل اجتهادات، فلان يرى أن هذه بدعة والآخر لا يرى، إن اختلفنا في هذه المسألة من جنس المسائل الأخرى الرجوع فيها إلى أهل العلم، هل هذه بدعة أو لا؟ فإن من الناس من يكفر بما ليس بمكفر، ومنهم من يبدع من ليس بمبدع، وهكذا، فيجب أولا أن يثبت أنها بدعة بإثبات أهل العلم، ثم بعد ذلك ينكر على أصحابها هناك مقولة انتشرت ألا وهي أنه لا ينكر إلا على أهل البدع المكفرة، وهذه المقولة خطأ ومخالفة لمنهج سلف هذه الأمة من أصله.

إذا كان لابد من فهم الحجة هل يعني هذا أنه لابد من ذكر الأدلة ووجه الدلالة ولا يكفي أن يقال إن هذا شرك أو بدعة أو حتى معصية أم لا؟

الحكم ليس إقامة الحجة لمن ذكر حكم مسألة لواقع فيها لا يعتبر هذا إقامة للحجة حتى يبين له الحجة الرسالية، كما يعبر عنها أهل العلم يقولون إقامة الحجة هي إقامة الحجة الرسالية، ليس إقامة الحجة في رأي أحد؛ يعني تبيين له آيات من القرآن العظيم، تبين له الأدلة من السنة من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم –، ثم يبين له وجه دلالتها، ويبين له ذلك من هو عارف بأوجه الاستدلال فاهم لذلك، فإذا بُيِّن له ذلك من هو عارف بأوجه الاستدلال فأصر ولم يستجب فقد أقيمت عليه الحجة، وإقامة الحجة مختلف فبعض المسائل لا يكفي في إقامة الحجة فيها فعل الواحد من أهل العلم، بل لابد أن تجلى مسائلها وذلك لكونها غامضة، فإقامة الحجة تبع لأصل المسألة.

فإذا كانت المسألة واضحة كانت إقامة الحجة فيها أسهل وأيسر مثل كون الاستغاثة بغير الله جل وعلا من الأموات شرك ،هذه ظاهرة واضحة، الأدلة عليها لا تحتاج مزيد بيان ومتابعة في ذلك.
لكن هناك مسألة غلِط فيها طائفة من أهل العلم، وهي طلب الشفاعة من النبي – صلى الله عليه وسلم – شرك أم لا؟ هذه المسألة إقامة الحجة فيها يجب أن يكون بأبلغ من إقامة الحجة في الأولى؛ لأن تلك واضحة بينة، وأما هذه ملتبسة فيكون إقامتها بإقامة الدلائل وإيضاحها وتوالي ذلك وتصنيف المصنفات ونحو ذلك حتى تقام وتبين؛ لأنها فيها نوع اشتباه عند كثير من الناس، لاشك أنه من قال بها وهم قلة أن قولهم خطأ وقول ضعيف لا يلتفت إليه، بل هي من جنس غيرها طلب الشفاعة من النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن جنس طلب غير الشفاعة من الدعاء وغيره، بل إن الشفاعة معناها أن تطلب من النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يدعو؛ أن يكلم الطالب من النبي أن يدعو له، وهذا طلب ودعاء ولهذا نحتاج إلى مزيد بيان،وقد فصلنا مسألة الشفاعة فى مقدمة التوحيد، وشرح السنة ،وشرح كتاب التوحيد ،وكتاب المسائل والفوائد ،فالطلب من الميت شرك أكبر ،خلافا لمسألة التوسل والتبرك .
فإذن إقامة الحجة له مراتب مختلفة، فكلما كانت المسألة أكثر اشتباها كانت إقامة الحجة فيها لابد أن يكون أكثر وأبلغ، وهذه المسألة نصّ عليها وذكرها أئمتنا منهم الشيخ محمد بن إبراهيم ،والشيخ اسحاق ،والشيخ بن سحمان ،والشيخ أبا بطين ،والشيخ بن جبرين رحمهم الله جميعا وغفر لهم .

ما معنى قولهم لابد من إقامة الحجة من انتفاء الموانع وثبوت الشروط؟

انتفاء الموانع وثبوت الشروط، لا أعلم –ربما القصور– أنها جعلت تبعا لمسألة إقامة الحجة، وإنما جعلت هذه في مسائل الأحكام والأسماء؛ يعني هل يكفر؟ الكفر متى يطلق؟ البدعة متى تطلق؟ الفسق متى يطلق؟ ونحو ذلك، هذه من الأسماء، وهذه الأوصاف هي التي قال فيها أهل العلم لا بد حين إطلاقها على المعين أن تجتمع الشروط وأن تنتفي الموانع، أما في إقامة الحجة فلا أذكر أحدا في ذلك.

ما معنى قولهم قامت الحجة ببعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – ؟

الحجة ببعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – قامت على العالمين، على العالمين جميعا (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[الأنبياء:107]، والنبي – صلى الله عليه وسلم – بُعث للناس أجمعين، قد قال عليه الصلاة والسلام «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا أدخله الله النار» لابد أن يكون في إيضاح الحجة وإقامتها أن يكون الدين واضحا، لا يكفي أن يسمع ببعض الحجة ولا يفهم يعني ولا تقام عليه بدلائلها، لا يكفي أن يسمع شيئا والتشويشات عليه، بل لا بد أن يسمع اليهود والنصارى ونحوهم أن يسمعوا ببعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – على ما بعث به، فإذا كان منهم من سمع هذا الكلام، من سمع عن النبي – صلى الله عليه وسلم – سماعا، لكن ما عرف دينه ما عرف ما جاء به حقا كما يبلغه أهل العلم، إذا ما عرف القرآن وما أقيمت عليه الحجة من وجه آخر،

هذا لا يقال أنه أقيمت عليه الحجة الرسالية، لكن هذا إنما نعني به طائفة من الذين ربما ما سمعوا بالنبي – صلى الله عليه وسلم – أو سمعوا به سماعا محرفا هذا قد ينجيهم، ويُبعث لهم يوم القيامة رسول من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، إذا كان لم يسمعوا بالإسلام الذي بعث الله جل وعلا به نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم –، فإذا كان لم يُسمع بالدعوة فلا بد من إقامة الحجة.

إذا لم تقم الحجة هل يكفر عبدة القبور أم لا؟ الجواب نعم، من قام به الشرك فهو مشرك، الشرك الأكبر من قام به فهو مشرك، وإنما إقامة الحجة شرط في وجوب العداء، كما أن اليهود والنصارى نسميهم كفار، هم كفار ولو لم يسمعوا بالنبي – صلى الله عليه وسلم – أصلا، كذلك أهل الأوثان والقبور ونحو ذلك من قام به الشرك فهو مشرك، وترتَّب عليه أحكام المشركين في الدنيا، أما إذا كان لم تقم عليه الحجة فهو ليس مقطوعا له بالنار إذا مات، وإنما موقوف أمره حتى تقام عليه الحجة بين يدي الله جل وعلا.

فإذن فرق بين شرطنا لإقامة الحجة، وبين الامتناع من الحكم بالشرك، من قام به الشرك الأكبر فهو مشرك ترتب عليه آثار ذلك الدنيوية، أنه لا يستغفر له ولا تؤكل ذبيحته ولا يضحى له ونحو ذلك من الأحكام، وأما الحكم عليه بالكفر الظاهر والباطن فهذا موقوف حتى تقام عليه الحجة، فإن لم تقم عليه الحجة فأمره إلى الله جل وعلا.

هذا تحقيق كلام أهل العلم في هذه المسألة وهي مسألة مشهورة دقيقة موسومة بمسألة العذر بالجهل.

قول العلماء ما هو معلوم من الدين بالضرورة وما ليس معلوما من الدين بالضرورة؟

هذا ليس تقسيما لإقامة الحجة هذا تقسيم لما يكفر به المؤمن، يرتد به المسلم من المسائل التي ينكرها، فأهل العلم يقولون إذا أنكر معلوما من الدين بالضرورة فهذا يكفر، أما إذا لم ينكر معلوما من الدين بالضرورة؛ المسائل التي يخفى دليلها فلا بد من التعريف، من المسائل التي اختلف فيها أهل العلم، هذا يمنع من التكفير، حتى ولو اعتقد إباحتها مثل مثلا الحنفية رحمهم الله يرون إباحة النبيذ أعني متقدميهم يرون إباحة نبيذ التمر، مع أن الدلائل من السنة على تحريمه ظاهرة، مع ذلك أهل العلم لم يكفروهم؛ لأنهم اعتقدوا ذلك، لأنهم كانت لهم شبهة في هذا، فهُم ما أباحوا الحرام الذي يعلمون أنه حرام، وإنما أباحوا ما اعتقدوا أنه حلال، فلم يكفرهم أهل العلم بذلك، كذلك المسائل التي تجدّ في كل عصر من المسائل المختلف فيها، ولو كان هناك قول شاذ أو ضعيف في المسألة فهذه شبهة تدرأ التكفير. هناك **بعض المسائل يكون أصلها معلوم من الدين بالضرورة وأما أفرادها فتكون مختلفا فيها**، مثل الربا أصله في القرآن بلا شك، فمن زعم أن الربا مباح فهو كافر بالله جل وعلا، لكن بعض صور الربا بعض أهل العلم يقول هذا من الربا، وآخرون يقولون هذا ليس من الربا، فإذا اختلف الناس يعني من أهل العلم في صورة هل هي من الربا أم لا؟ فهذه شبهة تمنع من التكفير، هذا أصل عند أهل السنة نبّه عليه شيخ

الإسلام رحمه الله في غير ما موضع.

قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)[الإسراء:15]، وقال تعالى (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[النساء:165]، يستدل بذلك بعض الجماعات بأن الحجة قامت على الناس بإرسال خاتم النبيين والمرسلين، ويستنبطون من ذلك تكفير كل من ارتكب ما يكفره بدون إقامة حجة عليه، فما رأيكم في هذا القول؟

هذا أوضحناه مرارا من أنه لا يكفي في إقامة الحجة ببعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – في كل مسألة الناس خالفوا فيها الأصل الذي جاء به عليه الصلاة والسلام، بل مثل ما سبق وذكرنا أن المسائل تقسم إلى ما يعلم من الدين بالضرورة وما لا يعلم من الدين بالضرورة، المسائل تقسَّم إلى أشياء واضحة جلية تكون إقامة الحجة فيها سهلة، وأخرى تحتاج إلى إقامة حجة تلوى حجة، الذين يكفِّرون الناس بهذا الأمر هؤلاء خارجون عن السنة هؤلاء من جنس الخوارج، بل الخوارج كما هو معلوم لا يزالون يخرجون إلى قيام الساعة حتى يقاتل آخرهم مع الدجال والعياذ بالله، فهؤلاء هم الذين يكفرون الناس بالمعصية أو يكفرون الناس بدون إقامة للحجة بما يبيّنه أهل العلم. إنما عندهم هوى فيكتفون بأصل بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – عن إقامة الحجة. وقد فرقنا مراراً بين الكفر والتكفير، بين الشرك وبين القتل

8/ أيضا في مسألة إقامة الحجة يقول: الذين خالفوا أئمة الدعوة رحمهم الله في فهمهم للحجة هل لم يعلموا قول الأئمة في إقامة الحجة؟

لا، الذين أقيمت عليهم الحجة عُلموا وبينت لهم برسائل خاصة، بمصنفات، بمناظرات أقيمت، بينت لهم الأدلة، وجه الاستدلال، هدي سلف هذه الأمة، بينت لهم الأدلة من الكتاب والسنة بين لهم الهدى أوضح لهم ذلك تماما، فإذا كان عرض لهم شيء من أن ما عندهم من الحجج أظهر، فهذا يكون عقوبة لهم، الحجة أقيمت عليهم، فليس كما ذكرت من الشرط أن تفهم الحجة فهم استجابة، بل يكفي أن تقام الحجة ولو قال لم أفهمها، فهذا ليس مانع من أن يكون أقيمت عليه الحجة، **فإقامة الحجة معناها إبانة المسألة بدلائلها الواضحة الخالية عن معارضة واضحة ظاهرة**، أما جنس المعارضات مثلا بأحاديث ضعيفة، بأحاديث موضوعة، بأوجه من فعل أهل العلم، بإقرار بعض الناس لبعض بتلك الشركيات وتلك المنكرات فهذه ليست بحجة ترد بها الأدلة.

[المتن]

(**المسألة السابعة عشرة**) نسبة باطلهم إلى الأنبياء، كقوله (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) [البقرة:102]، وقوله (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا) [آل عمران:67].

(**المسألة الثامنة عشرة**) تناقضهم في الانتساب ينتسبون إلى إبراهيم مع إظهارهم ترك اتباعه.

(**المسألة التاسعة عشرة**) قدحهم في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم كقدح اليهود في عيسى وقدح اليهود والنصارى في محمد – صلى الله عليه وسلم –.

(**المسألة العشرون**) اعتقادهم في مخاريق السحرة وأمثالهم أنها من كرامات الصالحين ونسبته إلى الأنبياء كما نسبوه إلى سليمان عليه السلام.

المسألة السابعة عشرة من المسائل التي خالف فيها الرسول – صلى الله عليه وسلم – أهل الجاهلية، وأهل الجاهلية المراد بهم كلّ من كان على غير دين الإسلام، سواء كان من المشركين أو من أهل الأديان المحرّفة أو المنسوخة أو من أهل الأديان المبتدعة، هذا تذكير بما قاله الشيخ في أول الكتاب.

فمن ما كان عليه المشركين من الجاهلية ومن المشركين ومن اليهود والنصارى أنهم كانوا ينسبون باطلَهم إلى الأنبياء، إذا فعلوا فعلا نسبوه إلى الأنبياء ليكون حجة ولتلقى عنهم التبعة. المشركون؛ مشركوا العرب كانوا ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام ويعتقدون أن كثيرا من الدين الذي هم عليه كان عليه إبراهيم عليه السلام، ويستدلون بذلك على صحته.

وكذلك كان اليهود وكذلك كان النصارى.

قال الله جل وعلا في الصنف الأول (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[النحل:120]، وقال (وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

وقال جل وعلا في إبطال دعوى أولئك (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا)[آل عمران:67].

كذلك كان أولئك الجاهليون ينسبون باطلهم وما هم عليه من الضلال الذي لم تأمر به الرسل مطلقا من مثل السحر ينسبونه إلى بعض الأنبياء كما مرّ معنا في نسبتهم ذلك إلى سليمان عليه السلام، قال جل وعلا (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ)[البقرة:102]، ولهذا كان السحرة السابقون لبعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – ينسبون سحرهم وما تعلموه من السحر إلى سليمان عليه السلام، كما قال هنا (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ)؛ لأن سليمان عليه السلام لم يأمر بالسحر ولم يرض به، وإنما فعلت الشياطين ما فعلت بأنْ دسَّت كتب السحر تحت كرسيه حتى لما مات أُستخرج ذلك ونُسب لسليمان عليه السلام، قال تعالى (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) يعني بما أملوه في الكتب وجعلوه مستورا مركوما ودفن تحت كرسي سليمان ثم استخرج بعد موته.

كذلك اليهود والنصارى الجميع يقول إنّ إبراهيم عليه السلام الذي هو إمام الحنفاء ووالد للأنبياء والرسل عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، ينسبون إبراهيم عليه السلام إليهم، فاليهود يقولون إن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى يقولون إن إبراهيم كان نصرانيا؛ يعني كان على اعتقاد اليهود المتأخر الذي أُحدث، فاليهود أحدثت اعتقادات، وأحدثوا أنواعا من الباطل، يقولون أن إبراهيم كان على ذلك الاعتقاد الذي وضعه علماؤهم بعد موسى عليه السلام، كذلك النصارى ينسبون إبراهيم الخليل إليهم، وكذلك المشركون، فردّ الله جل وعلا دعوى الجميع بقوله (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)[آل عمران:67]، فأبطل دعوى المشركين في نسبة باطلهم إلى إبراهيم، وأبطل دعوى اليهود في نسبة باطلهم إلى إبراهيم، وأبطل دعوى النصارى في نسبة باطلهم إلى إبراهيم عليه السلام.

وهذا الأمر ألا وهو نسبة الباطل إلى الأنبياء لِمَا كان عليه أهل الجاهلية هذا كثير في هذه الأمة، ما من دعوى مضِلَّة في هذه الأمة إلا وأصحابها ينسبونها للنبي – صلى الله عليه وسلم –؛ لأنه من أجمع عليه أنه لا يجوز الإتيان بدين لم يكن عليه النبي – صلى الله عليه وسلم –، كأهل الضلالات والأهواء المختلفة في هذه الأمة كل ينتسب في دينه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –:

الخوارج أول ما خرجت قالت نحن المنتسبون إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – والصحابة كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام لأنهم لم يقيموا الدين الذي جاء به.

وكذلك الرافضة فعلت ذلك، وهكذا كل نحلة تنسب باطلها إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – ليكون ذلك أقوى لها، وأيضا لأنهم كان عندهم بعض الشبه في ما راموه وما ذهبوا إليه من المسائل.

كذلك المتكلمون والصوفية ونحوهم مما ذكرنا سالفا مرارا في شرح هذه المسائل كل ينتسب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –.

ونسبة الباطل إلى الأنبياء يكون على طريقين:

الطريق الأولى: أن ينسب الباطل إلى الأنبياء بأنهم فعلوه وأنهم اعتقدوه.

والثانية: أن ينسب الباطل إلى الأنبياء يعني إلى أنه من دينهم.

وهذا هو الذي حصل في هذه الأمة فكان بعض هذه الأمة نسب باطله إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – اعتقادا وفعلا مثل ما فعل طائفة من المتكلمين أكثرهم وأهل البدع في مسائل الاعتقاد نسبوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام كان على هذا الاعتقاد، وكذلك أهل التصوف يقولون إن النبي عليه الصلاة والسلام كان على ما يفعلونه، وهذا كان مشهور من بعض أسانيدهم في لبس الخرقة [الشركية] المعروفة بإسناد معروف، فيقولون إن أول من ألبسها هو النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا من جنس ذلك الباطل الذي كان عليه أهل الجاهلية في أنهم يبتدعون دينا يقولون إن النبي عليه الصلاة والسلام

فعله، وهذا ولا شك مما يروج ذلك الباطل عند الجهلة إذا كان نسبه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – موسوما بالصلاح أو موسوما بالعلم، هذه الجهة الأولى.

والثانية أنهم ينسبونها إلى النبي عليه الصلاة والسلام استنباطا لم يكن فعله، وهذا أكثر في هذه الأمة فإنه في المسائل التي لم يظهر النص فيها تماما، ويكون عند بعض السلف فيها شبهة في بعض مسائل الصفات والإيمان والقدر ونحو ذلك، ومسائل الأسماء؛ أسماء الكفر البدعة الفسوق وما أشبه ذلك، والأحكام والوعد والوعيد ونحو ذلك، هذه ينسبونها إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – استنباطا، لا يقولون أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال هذا نصا أو اعتقد هذا نصا، لكن يقولون هذا يستنبط من فعله عليه الصلاة والسلام وما كان عليه.

فطائفة من ضلال هذه الأمة ينسبون باطلهم إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بالأمر الأول وطائفة ينسبون إليه عليه الصلاة والسلام بالأمر الثاني.

ولهذا كل أحد في هذه الأمة لا يخرج من الفرق الاثنين والسبعين، فقد لا يخرج في انتسابه للكتاب والسنة، فكل يقول إننا على الكتاب والسنة، وسواء في ذلك ما كان من دينهم صوابا أو ما كان خطأ وضلالا، فالكل يقول نحن ننتسب إلى الكتاب والسنة، ولهذا اعتنى أئمة الإسلام من سلف هذه الأمة بالتنصيص على شيء زائد على اتباع الكتاب والسنة، ألا وهو اتباع سلف هذه الأمة لأنّ نسبة الباطل إلى الأنبياء كثر في الأمة جدا، نسبة الباطل إلى النبي عليه الصلاة والسلام كثر في هذه الأمة جدا، حتى إنه لا يُعجز من كان عنده هوى أن يستخرج من نصوص الكتاب والسنة ما يدل على بدعته وما يؤيد به نحلته، وقد أطنب الشاطبي رحمه الله في الموافقات في ذكر هذه المسألة وكذلك في الاعتصام، وبين أن النصارى احتجوا على المسلمين بخصوص بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)[الشعراء:214]، وبين أيضا أن من هذه الأمة من قال إنه لم يرد في القرآن تحريم للخمر وذلك لأن الله جل وعلا قال (فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[المائدة:90] ولم يحرمها تحريما.

وكذلك ما استدل به الخوارج واستدل به المرجئة في مسائل الوعد والوعيد، فالخوارج غلو في التكفير والمرجئة جفوا في النصوص حتى أدخلوا في الإيمان والإسلام من ليس مسلما ولا مؤمنا وأخرجوا العمل عنه. كلٌّ يأخذ من نصوص الكتاب والسنة ما يدل على بدعته، وذلك لأن الله جل وعلا ابتلى الناس بالنبي عليه الصلاة والسلام وبفهم الدين الذي جاء به ،فنصوص الكتاب والسنة قد يكون بعضها يشتبه على من لم يكن من الراسخين في العلم، بل قد يشتبه على كثير من طلبة العلم، فابتلى الناس جل وعلا باتباع النبي عليه الصلاة والسلام فهو الموضح للشريعة، ولما كان أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام لبيان القرآن ليست مبنية بكاملها، بل قد يكون من يُبيّن منها الآيات وكان في حديثه عليه الصلاة والسلام ما فيه نوع اشتباه، احتجاج الناس إلى صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بيان الدين الحق وفي بيان ما يضاده، وهكذا يحتاج الناس إلى أهل العلم، فإن الله جل وعلا قال (هُوَ الَّذِي

أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)[آل عمران:7]، وتلك المتشابهات تشتبه على بعض الناس دون بعض، فإذا كان هناك في كلام الله ما هو مشتبه لا يفهمه كثير من الناس، وما اشتبه على طائفة يعني الذي اشتبه على طائفة من أهل العلم فكلام رسول الله عليه الصلاة والسلام أولى أن يكون فيه اشتباه، وهذا حصل بالفعل، فالأحاديث قد يكون بينها تعارض، بينها اختلاف، أحاديث فيها رجاء، وأخرى فيها تخويف، أحاديث فيها وعد وأخرى فيها وعيد، وأهل العلم هم الذين يحملون بعض الكلام على بعض، يجعلون أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام بعضها يفسر بعضا، من أهل الأهواء نسبوا أباطيلهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام من جرّاء الاستدلال بالمتشابهات، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المشهور «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» (فاحذروهم) لم؟ لأنهم اختلفوا في الكتاب واستدلوا بالمتشابه منه، وهكذا استدل من استدل بآيات من الكتاب، وأحاديث من أحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم – تأييدا لباطلهم، فكل من أهل الأهواء في هذه الأمة يستدل على باطله بما كان عليه النبي – صلى الله عليه وسلم –، أو بما قاله عليه الصلاة والسلام أو ببعض نصوص الكتاب، ولهذا احتاجت الأمة أعظم حاجة إلى صحابة النبي – صلى الله عليه وسلم –، لكي يبينوا للناس تلك النصوص، فضلَّ الخوارج أول ما ضلوا في آيات الأسماء وآيات الوعد والوعيد وفي أحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم – في الأسماء وفي الوعد والوعيد، فبيّن الصحابة ما يعنى بذلك، فضلوا في بيان مسألة الحكم بغير ما أنزل فكفروا بها، والصحابة رضوان الله عليهم بينوا لهم الصواب في ذلك.

وهكذا لم يزل الناس محتاجون إلى صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بيانه، لهذا كان أئمة الإسلام ينتسبون إلى الجماعة، ينتسبون إلى السنة والجماعة، ولا يكتفون بنسبتهم إلى السنة؛ لأن النسبة إلى السنة يدخل فيها كثير من أهل البدع في مقابلة الرافضة، وأما السنة والجماعة فإنها تلخص الطريق الذي يكون أتباعه ويكون معتقدوه على طريقة الصحابة وعلى طريقة الجماعة قبل أن تظهر الأهواء وقبل أن تفسد العقول والقلوب.

كذلك احتاج إلى أسماء يُميّزهم منها الانتساب إلى السلف، إلى الأثر إلى الجماعة، إلى الحديث ونحو ذلك، مما يميز أهل الحق من غيرهم من أهل الأهواء، وتجد في عصور هذه الأمة في كل القرون المتقدمة لا يعزب أحد أن ينسب شيئا من باطله إلى الكتاب والسنة، بل قد يجد من نصوص أهل العلم ما يدل لباطلهم، فيكون نسب باطله إلى النبي عليه الصلاة والسلام إلى بعض أئمة أهل العلم، وأهل السنة يقولون إذا كان في كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – ما هو مشتبه، فكذلك يكون في كلام أهل العلم ما هو مشتبه، لا يفهمه إلا أهل العلم الراسخون، فإذا كان من الناس من ليس بذي رسوخ في العلم، ربما يجد في نصوص أهل العلم ما لا يتضح المراد منه حتى نصوص أئمة أهل السنة والجماعة.

ولهذا يحتاج في فهمه إلى عرضه على أهل العلم، إلى عرضه على كلامه في مواضع أخر من كلام ذلك

العالم، إلى عرضه على نصوص الكتاب والسنة، وهذا لا يكون إلا من أهل العلم.
فإذن الكلام المشتبه قد يوجد في كلام أهل العلم بمعنى يشتبه معناه، لا يتضح المراد منه، قد يوجد هذا في كلام أهل العلم، بل إنه موجود وكثير.
لهذا اعتنى أئمة الإسلام أئمة أهل السنة والجماعة ببيان الأصول التي من خالفها فقد خالف النبي عليه الصلاة والسلام وخالف صحابته، أصول مجمع عليها وهي التي سمّوها معتقد أهل السنة والجماعة العقيدة السنة يعني العقيدة، الشريعة يعني العقيدة، ونحو ذلك، فصنفوا مصنفات في ذلك، التي تزيل أي باطل نُسب إلى النبي عليه الصلاة والسلام أو إلى بعض المتقدمة.

وهكذا تجدون في كل زمان بحاجة؛ بل في أشد الحاجة لأن تكون النسبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام وإلى صحابته ونزيد إلى أئمة أهل السنة والجماعة، لم؟ لأن بعض كلمات الصحابة قد لا تكون وافية منقولة إلينا في كل المسائل فنحتاج إلى فهم أئمة أهل السنة والجماعة لفهم كلام الله، كلام رسوله – صلى الله عليه وسلم –، كلام صحابة النبي عليه الصلاة والسلام.
وبهذا يتضح طريق النهج الصواب، وتبطل به طرق الضلالات المختلفة.
فإذن ما يُتخلق به من هذه الخصلة من خصال أهل الجاهلية. أن يُلتزم طريق السنة والجماعة وطريق أئمة الإسلام.
فإذن عندنا الكتاب والسنة، واتباع سلف هذه الأمة، وهم صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن تبعهم بإحسان، والإقتداء بأئمة أهل السنة والجماعة الذين هم على النهج الذي لا اشتباه معه ولا يخرج عنه إلا صاحب خطأ أو صاحب هوى.
المسألة الثامنة عشرة وهي أنّ أهل الجاهلية يتناقضون في الانتساب، فينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام مع مخالفتهم لدينه، وذلك كثير في اليهود والنصارى وفي الجميع، في جميع من تبع الأنبياء هم متناقضون من جهة أنهم ينتسبون نسبة نبي من الأنبياء وإلى رسول، وهم يخالفون ما أمر به وجاء به.
وقد أوضحنا في كتاب فضل الإسلام هذه المسألة بتفصيل، وذلك أنّ إمام الدعوة رحمه الله عقد لها باب في باب ما جاء عن الخروج عن دعوى الإسلام وأن المنتسب إلى الحق والهدى إلى النبي عليه الصلاة والسلام بل إلى الإسلام هذا يلزمه أن يكون انتسابه صحيحا، وإلاّ لكان دعوى؛ لكان تناقضا، مثل ما قال الشيخ هنا.
فإذن إذا كان الانتساب إلى الكتاب والسنة وإلى ما كان عليه سلف هذه الأمة ثم خالف ذلك في غير شبهة وغير تأويل فإنه يكون قد تناقض في ذلك الانتساب، إذا لم يكن هناك شبهة وتأويل في بعض المسائل فإنه يكون تناقض في الانتساب، ينتسب إلى الكتاب والسنة وإلى الصحابة إلى السلف وهو

ليس على ذلك النهج يطلب غيره فإن دعوى الانتساب لا تنفعه؛ لأن أهل الجاهلية انتسبوا إلى إبراهيم، وكان ذلك أعظم ما يفخرون به ولم ينفعهم ذلك.

فإذن قول الشيخ هنا (**تناقضهم في الانتساب**) تنبيه على هذه المسألة المهمة وهي أن المنتسب لا يشرك في مجرد الانتساب، بل يشرك بصحة الانتساب إذا كان انتسابه صحيحا على الدين والهدى الذي كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام فإن ذلك شرف له وهو بذلك محق، أما إذا كان ينتسب وهو يخالف فلا تنفعه تلك النسبة مهما علا صوته بها.

وهذا فيه إبطال لما دخل في هذه الأمة من جراء هذا الانتساب، وبيان أن ذلك من جنس ما كان عليه أهل الجاهلية، ينتسبون إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهم يخالفونه في أبواب الاعتقاد وفي أبواب العمل والسلوك والأخلاق وغير ذلك، ينتسبون إلى الصحابة وهم يخالفون نهجهم، ينتسبون إلى الكتاب؛ إلى القرآن وهم يخالفون ما جاء في القرآن، وهذا كثير جدا في كل صاحب هوى وبدعة لا يخلو من التناقض؛ لأنه إنما عصم كتابه من التناقض، وعصم الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما أخبر به من التناقض، وهكذا، فالأمر المعصوم هو ما دل عليه الكتاب والسنة وما كان عليه صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام أجمعون، هذا هو السالم من التناقض، أما غيره من الطرق فإن صاحبه لابد أن يتناقض، تجده في مسألة يحكم بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف، وأخرى تراه ينقض بعض الشيء ويخرج عنها، وهذا قد تقدم بيانه مرارا فلا مزيد الكلام عليه.

المسألة التاسعة عشرة هي أنهم يقدحون في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم، وذلك من مثل ما قدح اليهود في عيسى، ومن مثل ما قدح المنافقون والمشركون في النبي عليه الصلاة والسلام من جرّاء فعل بعض الصحابة ونحو ذلك، وهذا ظاهر بيّن في أنّ صاحب الهوى يتلمّس ما يُبطل به حجة من جاءه بالهدى وما يُضعف به مكانَه، وقد يكون ذلك عن طريق القدح في الأتباع، إذا لم يجد طريقا على صاحب الدعوى؛ على النبي عليه الصلاة والسلام، على أحد من أهل العلم، إذا لم يجد طريقا قدح في الأتباع ليكون قدحه في الأتباع قدحا في المتبوع، وهذا كان في المشركين كما سمعتم، وكان عند اليهود وعند النصارى وعند أصحاب كل النِّحلات؛ لأنّ من أسهل الطرق؛ لأنّ الأتباع ليسوا بمعصومين فلابد أن يحصل منهم غلط، لابد يحصل منهم قصور، فإذا أُبطل الحق بفعل الأتباع صار ذلك نوع هوى، بل هو هوى باطل، وهذا جاء في طوائف في هذه الأمة ،كما هو دين القرامطة والسبئية.

من أظهر الأمثلة على ذلك ما فعله بعض الناس من نسبة كثير من الباطل إلى الإمام أحمد رضي الله عنه بفعل بعض الجهلة من أصحابه المتأخرون؛ يعني الذين كانوا بعده بنحو قرن من الزمان، فإن الحنابلة مثلا كانوا بعد زمن الإمام أحمد يعني تلامذة الإمام أحمد كانوا على عقيدته وعلى طريقته في الاعتقاد وفي السلوك، بعد ذلك صار عند طائفة من الحنابلة من عوامهم وبعض طلبة العلم صار عندهم خروج عن

طريقة الإمام أحمد في بعض مسائل المعتقد وفي بعض مسائل السلوك يعني معاملة الناس، ومن الأمثلة الظاهرة على ذلك ما فعلوه بالإمام ابن جرير رحمه الله تعالى حيث إنهم سمعوا منه كلمة قالها في مسجده حين الدرس فلحقوه و[غلّقوا] عليه بابه لمخالفته، وهذا لا شك أنه لن يرض عنه أئمة الحنابلة في وقته ولن يرض عنه أهل العلم، لهذا قال ابن كثير رحمه الله حينما ساق هذه الحكاية قال: إنّ هذا من فعل جهال الحنابلة. ومما حصل منهم، من بعض التصرفات منهم، بل بعض الأقوال من التجسيم الذي كان عند بعض الحنابلة وإثبات صفات لم ترد في النصوص الثابتة من مثل القاضي أبي يعلى ونحو ذلك في كتابه ''إبطال تأويلات الصفات'' قدح المعتزلة والأشاعرة والمتكلمون في عقيدة الإمام أحمد لأجل فعل أولئك الأتباع، فلما فعلوا ما فعلوا، قالوا إن عقيدتهم؛ عقيدة الإمام أحمد، بل عقيدة أهل السنة والجماعة أنجبت مثل هذا،مثل عقيدة أبو الحسن التميمى الذى نقل مافهمه من عقيدة الإمام أحمد وكتبه فى عقيدة نسبها للإمام أحمد مع أنها من أقوال وفهم التميمى ،وهى تخالف عقيدة الإمام أحمد وفهمه وحرفه ونصه المنقول عنه لذلك يقول الإمام الذهبى رحمه الله تعالى عن التميميون (والتّميميّون معروفون بشيءٍ من الانحراف عَنْ طريقة أحمد، كما انحرف ابنُ عَقيل وابن الجَوزي وابن الزاغوني، وأبو يعلى وغيرهم. اهـ.

•قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ٤/ ١٦٧ - ١٦٨: كان أبو الحسن الأشعري وأصحابه منتسبين إلى السنة والجماعة ... وكان من أعظم المائلين إليهم: التميميون -أبو الحسن التميمي وابنُه وابنُ ابنِه ونحوهم-، وكان بين أبي الحسن التميمي وبين القاضي أبي بكر بن الباقلاني من المودة والصحبة ما هو معروف مشهور، ولهذا اعتمد الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه الذي صنفه في مناقب الإمام أحمد -لما ذكر اعتقاده- اعتمد على ما نقله من كلام أبي الفضل عبد الواحد بن أبي الحسن التميمي، وله في هذا الباب مصنف ذكر فيه مِن اعتقاد أحمد ما فهمه، ولم يذكر فيه ألفاظه، وإنما ذكر جمل الاعتقاد بلفظ نفسه؛ وجعل يقول: «وكان أبو عبد الله .. »! وهو بمنزلة مَن يصنف كتابا في الفقه على رأي بعض الأئمة ويذكر مذهبه بحسب ما فهمه ورآه، وإن كان غيره بمذهب ذلك الإمام أعلم منه بألفاظه وأفهم لمقاصده؛ فإن الناس في نقل مذاهب الأئمة قد يكونون بمنزلتهم في نقل الشريعة، ومن المعلوم أن أحدهم يقول: «حكم الله كذا أو حكم الشريعة كذا» بحسب ما اعتقده عن صاحب الشريعة بحسب ما بلغه وفهمه، وإن كان غيره أعلم بأقوال صاحب الشريعة وأعماله وأفهم لمراده. اهـ كلامه

لهذا نقول هاهنا إن القاعدة المقررة أنه يُنظر إلى الحق الثابت، ولا ينظر إلى من أخطأ تطبيق ذلك الحق، فإنّ من الناس من يكون يخطئ في تطبيق الحق، فلا ينسب خطؤه إلى ذلك الطريق الحق، مثل بعض المنتسبة إلى طريق السلف أخطأ في بعض المسائل، فلا يجوز أن ينسب ذلك الخطأ إلى طريق السلف إما في الاعتقاد، وإما في السلوك، من جهة، من مثل ما ذكرنا، من تأويل الصفات في إثبات الصفات عن طريق التجسيم حتى نسب لله جل وعلا نحرا وعضدا ومجاري في الحلق ونحو ذلك، مما هو قد أُستدل

عليه بعض الأحاديث الموضوعة المكذوبة، وفي السلوك كذلك فإنّ بعض الحنابلة كانت عندهم يعني بعض المنتسبين إلى أهل السنة والجماعة كان عندهم نوع –كما قال شيخ الإسلام وغيره- استهانة ببعض المسائل لا يُنسب لأهل السنة والجماعة، وإنما ينسب إلى أهل السنة والجماعة ما قرره أوائلهم وبينوه.

أصحاب الهوى يقدحون في الحق؛ في العقيدة بفعل الأتباع، وهذا لا يجوز؛ **لأن الحق ينظر إليه من جهة نصوصه لا من جهة أتباعه**، لهذا تجد أنّ بعض المغرضين أصحاب الهوى في هذا العصر بل فيما قبله أي من العصرانيين ومن العقلانيين ومن الفلاسفة يقدحون في صحة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام بما حصل من صحابته رضوان الله عليهم بعده من الخلاف، بما حصل منهم من اختلاف، بل إن بعض الناس قدح في إمكان إقامة حكم الله جل وعلا في الأرض عن طريق دولة تقيمه وخلافة، قدح في ذلك؛ لأن هذا لم يكن في الصدر الأول لأن الصحابة اختلفوا وتقاتلوا وتناحروا وهم الصفوة، فكيف يمكن الإقامة مع أن الصفوة لم تستطع عمل ذلك إلا في قريب من عشرين أو ثلاثين عاما، وانتشر بينهم القتل وانتشر بينهم ما هو معروف، فيستدلون بهذا الأمر الذي نعلم أنه كان عن اجتهاد ، على إبطال صحة هذا الدين وإبطال الحق الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام.

وهذا كثر في مؤلفات في هذا العصر تقدح في الالتزام بالإسلام وفي إمكان تطبيقه.

كذلك أصحاب المذاهب؛ أتباع الأئمة الأربعة، فإنه قد يكون عند بعض الأتباع ما هو من الخطأ، بل ما هو من الإجحاف، بل ما هو من الضلال، قد يكون ذلك إما في مقال، وإما في رأي، وإما في سلوك، **ولا يجوز أن ينسب باطل المقلدين إلى أولئك الأئمة**، ويُنتقص من شأن الأئمة من مثل الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى والإمام مالك أو الإمام الشافعي أو الإمام أحمد أو نحوهم من الأئمة، لا يجوز أن تنسب تلك الأخطاء التي كانت عند أولئك إلى الأئمة وننتقص بذلك فقه الأئمة وما كانوا عليه، ولهذا ألف شيخ الإسلام رحمه الله رسالته المعروفة "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" وهذا شاع في هذا الوقت في بعض المؤلفات التي رأيتها، واستدلوا فيها على بطلان أو على القدح في بعض الأئمة ببعض أقوال المتأخرين من أصحابهم، ولاشك أنّ هذا من جنس فِعل أهل الجاهلية لأنهم يقدحون في بعض الصالحين بما ظهر في الأتباع.

وقد ذكرنا أكثر من مرة قبل ذلك فى شروحات كتب التوحيد والسنة أن طالب العلم بل المسلم يفرق بين قول إمام المذهب وبين قول الأصحاب والأتباع وما عليه المذهب ،والعبرة بقول إمام المذهب

كذلك بعض أئمة السلوك من ينسب إليهم المتصوفة مثل عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى ونحوه من الصالحين المعروفين بملازمة السنة كالجنيد وأضرابهم، هؤلاء أتباعهم أنشؤوا طرقا وضلالات ونسبوها إلى أولئك الأئمة أو إلى أولئك الصالحين، لا يجوز لأحد أن يتنقص أحد من أولئك الذين عُلم صلاحهم

وعُلم متابعتهم من جرّاء فعل هؤلاء المتأخرين، ولهذا يشارك من فعل مثل هذا الفعل يشارك أهل الجاهلية.

بعض الوهابيين –كما يقال– في بعض الأمصار اليوم عندهم طريقة في الدعوة ليست الطريقة التي كان عليها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى من أنهم أول ما يبدؤون في دعوتهم يتنقصون أولئك الذين يقال لهم أولياء — يقدحون فى الأشخاص المعظمين عند هؤلاء الصوفية أو المبتدعة — فيجعلون المسألة شخصية أكثر منها علمية فيكون التعصب للأشخاص والدفاع عنهم وهذا خطأ—

فمثلا إذا وجدوا أن الصوفية متعلقين بفلان من الناس، جاء أولئك الذين هم ينتسبون إلى نصرة السنة المحمدية، وإلى نصرة العقيدة الصحيحة، لكن يخطؤون في الطريق وفي الأسلوب؛ لأنهم يقدحون أول ما يقدحون في ديانة ذلك الميت وفي عقيدته، وهذا لاشك أنه يُحدث عدم قناعة بما يقوله أولئك، يتجاوز هؤلاء حدهم حتى ربما نسب البعض منها إلى الكفر وإلى الضلال وإلى أنهم طواغيت ونحو ذلك وهي مبنية منذ مئات السنين، ، هؤلاء الصوفية والخرافيين استغلوا ذلك، فنسبوا ذلك الباطل وتلك الطريقة الفجّة، تلك الطريقة التي ليست هي الطريقة الشرعية إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، وهذا من جنس ما كان عليه أهل الجاهلية في أنهم يتنقصون الأنبياء بفعل بعض المنتسبين إليهم، ، فلا يجوز أن يقدح في أحد من أهل العلم بفعل بعض المنتسبين إليه، بل أعظم من ذلك أنه قد قدح في الإسلام بفعل المسلمين، ولا بد هنا أن يكون تباين بين الإسلام والمسلمين؛ لأن المسلمين بفعلهم لا يدلون على الإسلام، فمن أراد أن يعرف الإسلام ولأن يتعلم الإسلام يأخذه من معينه الصافي، ولا ينظر في أفعال أهله لأنه ربما كان في أفعال بعض المسلمين ما يصد عن الالتزام بالإسلام واعتقاد صحته

فهذه المسألة مهمة في أنه لا يتنقص من أحد بفعل بعض الأتباع يعني هذه من خصال أهل الجاهلية، بل يجب أن ينظر إلى ذلك المتبوع ويعرف أحواله، نعرف أحواله، فإن كانت على الحق والهدى أثنينا عليه خيرا وخطّأنا أتباعه فيما راموا إليه، وكما تعلمون أن شيخ الإسلام ابن تيمية شرح كثيرا من كلمات القوم من جنس شرحه لكلمات فتوح الغيب لعبد القادر الجيلاني، ومن جنس ثنائه على عدي بن مسافر الكردى الشامى الذي تتبعه الطائفة العدوية ونحو ذلك، فنثني على الصالحين إذا ثبت صلاحهم وسلامة اعتقادهم وأما الأتباع فيذمون، **وذم المتبوع بفعل التابع هذا نوع وخصلة من خصال أهل الجاهلية.**

المسألة العشرون من مسائل الجاهلية هي أنهم يعتقدون في مخاريق السحرة وينكرون كرامات الأولياء، واعتقاد أن تلك المخاريق أنها من كرامات الصالحين، يقول (العشرون اعتقادهم في مخاريق السحرة وأمثالهما من كرامات الصالحين ونسبته إلى الأنبياء كما نسبوه إلى سليمان عليه السلام)

سليمان عليه السلام سُخِّرت له الجن والطير وسخرت له الريح، وسخرت له أشياء كثيرة، السحرة فعلوا بعض الأشياء، فأهل الجاهلية ظنوا أن مخاريق السحرة من جنس كرامات الأولياء، فنُسب فعل السحرة إلى سليمان عليه السلام، نُسب فعل أهل الخوارق والشعوذة إلى الأنبياء، بل جعلوها من الكرامات؛

يعني جعلوا أولئك السحرة وأولئك المشعوذين وأشباههم جعلوهم من الصالحين؛ من الأولياء الذين تعطى لهم الكرامة:

ولنبين هذا نقول **إن المخاريق والخوارق على ثلاثة أقسام**:

خوارق أعطاها الله جل وعلا **للأنبياء**.

وخوارق أعطاها الله جل وعلا **للأولياء**.

وخوارق جرت على يد **الفسقة والكفار** ومن خرج عن طريق الأنبياء.

فالأولى ألا وهي المخاريق التي جرت على يد الأنبياء هذه هي التي تسمى آيات وبراهين وبينات ومعجزات للأنبياء.

والثانية هي التي تسمى كرامات الأولياء.

والثالثة هي التي تسمى أحوال شيطانية وشعوذة ودجل وسحر.

ولهذا أهل السنة والجماعة يؤمنون بكرامات الأولياء، كما قالوا في عقائدهم: ونؤمن بكرامات الأولياء.

والكرامة هي: أمر خارق العادة في علم أو تأثير طرأ على يدي ولي.

أمر خارق للعادة -هذا أولا-، في علم أو تأثير هذا بيان النوع، جرى على يدي ولي.

والولي عند أهل السنة والجماعة في الاصطلاح هو كل مؤمن تقي ليس بنبي.

فإذن ما يجري من الخوارق على الذي ليس بمؤمن تقي ظاهرا لمتابعته للسنة والتزامه؛ تحليله الحلال وتحريمه الحرام والمحافظة على الواجبات والانتهاء على المحرمات، ما جرى على أيدي هؤلاء يعني من كان مؤمنا تقيا سميناه كرامة، وأما من لم يكن على هذا الوصف، قد يكون في حقه كرامة وقد يكون حالا شيطانية، وأما إذا كان على ضد ذلك ممن كان من أهل المعاصي والبدع والفسوق والشركيات ونحو ذلك فهذا لاشك أن ما يحصل له أنه من قبيل المخاريق و الأحوال الشيطانية؛ لأن الكرامة نعمة يعطيها الله جل وعلا أولياءه؛ يعني المؤمنين المتقين، وأما السحرة والمشعوذين وأشباههم فإنّ ما يجري على أيديهم من الخوارق إنما هو من الشياطين.

هذه الأمة من أجل مشابهتها لمن سلف جرى عل يدي كثير من المنتسبين من هذه الأمة بعض المخاريق الكثيرة؛ من مثل المشي على الماء، دخول النار، من مثل الطيران في الهواء، من مثل سماع الأصوات البعيدة، من مثل إحياء بعض الميتين من الحيوانات ونحوها، ونحو ذلك، فيجري على يدي أولئك المشعوذون أو أولئك الفسقة يجري على أيديهم بعض المخاريق، فانغر بهم الجهال فجعلوا مخاريق السحرة كرامات، وجعلوا أولئك السحرة وأولئك المشعوذين جعلوهم أولياء، وهذه الشعبة من جنس ما كان عند أهل الجاهلية، حيث جعلت طائفة فيهم السحرة والمردة من الشياطين من أتباع سليمان عليه السلام؛ لأنهم فعلوا السحر وكان السحر عندهم من جنس ما يفعله سليمان عليه السلام.

لهذا اشتد نكير السلف على من ظهر منه ذلك.

فقال من قال منهم: **إذا رأيت الرجل يسير على الماء أو يطير في الهواء فلا يغرنك حتى تزنه بالكتاب والسنة.**

لأن ذلك قد يكون من فعل الشياطين، الشياطين قد تحمل الرجل المشعوذ -ساحر أو نحوه- وتجعله يمشي على الماء أو تجعله يطير في الهواء، ونحو ذلك. كما يجري بطائفة ممن نقلت الأخبار عنهم.

كذلك قد يجعلون الرجل يدخل في النار ولا يضره ذلك.

وقد يجعلون الرجل أو المرأة تمشي على الجمر ولا يضرها ذلك.

قد يجعلونه يدخل في حلقه آلة حادة أو سكين أو نحو ذلك ولا يضره ذلك.

هذا لا يغرنّ من رآه، لم؟ لأنا نجزم بأن تلك المخاريق قد تكون أحوالا شيطانية، وقد تكون من الله جل وعلا يعني كرامة، والضابط يعني الفرق بين هذا وهذا ،الفرق كما قال حتى **تزنه بالكتاب والسنة**، فإذا كان الرجل متبع وليس بمبتدع مستقيم صاحب تحليل الحلال وأداء الواجبات وتحريم المحرمات ونحو ذلك، فهذا ما جرى على يديه من كرامات الأولياء، سواء أكان من جهة الكشف والعلم أو من جهة القدرة والتأثير، وأما إذا كان الرجل ليس على ذلك فاسق، فاجر، مشعوذ، مشرك، مبتدع، ونحو ذلك، فهذا ما يجري على يديه نعلم جزما أنه من الخوارق.

طائفة اليوم من أصحاب الطرق يجعلون من علامات الكرامات وصحة الطريقة التي ينتسبون إليها، الدخول في النار كما يفعله الرفاعية من المتصوفة، من دلائل صحة طريقة أحمد الرفاعي عندهم أن أتباعه يدخلون في النار ويمشون فيها ولا تحرق شيئا منه ولا تضره، منهم من يكون صالحا فيكون ذلك كرامة له، ومنهم وهم الأكثر من يكون ذلك من جهة الشياطين؛ يعني تكون النار من فعل الشيطان ليس نار على الحقيقة ويدخل هذا ويعبر بسرعة ولا يضره ذلك بمساعدة الشيطان له في ذلك.

والذين يعرفون أحوال الصوفية والغلاة يعرفون هذه المسألة بوضوح، وأن من هذه الأمة من جعلوا من هو مشعوذ، فاسق، فاجر، مبتدع، مشرك، من جعلوه في مقام الأولياء، يجعل في مصاف عباد الله الصالحين، الدليل هو جريان تلك المخاريق على أيديهم، وتلك المخارق ليست بدليل؛ لأنها قد تكون أحوالا شيطانية، إذا كانت، بل هي أحوال شيطانية إذا كانت لأصحاب البدع، والفسوق، والفجور.

مالفرق بين من يقول نحن على مذهب أهل السنة والجماعة، ولا يقولون على طريقة السلف؟

أهل السنة والجماعة لفظ من الألفاظ الشرعية التي هي من جنس لفظ الإسلام، والأصل أنه لا يجوز الخروج عن دعوى الإسلام والتسمية بغيره؛ لأن الله جل وعلا قال (هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا)[الحج:78]، وفي هذا تسمية متبعي النبي عليه الصلاة والسلام التي سماهم الله جل وعلا بها أنهم المسلمون، مما سمى الله جل وعلا به أهل الإيمان أنهم مؤمنون، كذلك جاءت تسميتهم في بعض نصوص السنة أنهم أهل الجماعة «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي» فمن كان على ذلك

فهو من أهل السنة، كذلك جاء في حديث الافتراق المشهور قوله عليه الصلاة والسلام «كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال «الجماعة»، فسمي أهل الفرقة الناجية أهل سنة وجماعة وهم السلف الصالح، ، التسمية بأهل السنة والجماعة تسمية شرعية، كذلك التسمية بالسلف وأتباع السلف الصالح ،الذين هم الصحابة عند الاطلاق، كذلك تسمية شرعية لأنها هي معنى السنة والجماعة.

توسّع الناس في الانتساب إلى أهل السنة والجماعة أكثر، بل توسعوا دون الانتساب إلى السلف، فصار كثير من الطوائف ينتسبون إلى السنة والجماعة، فالأشاعرة يقولون نحن أهل السنة والجماعة، والماتريدية يقولون نحن أهل السنة والجماعة، وهذا غلط منهم؛ لأن الجماعة هي ما كان عليه صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام فسّر الفرقة الناجية بأنها الجماعة، وفي رواية أخرى قال «هم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»، وهذه أحاديث مشهورة وإن كانت في بعض أسانيدها ضعف.

إذن هذا غلط منهم في الانتساب كون يسمون أنفسهم أهل السنة والجماعة هذا غلط؛ لأنهم ليسوا من أهل الجماعة هم من أهل الفرقة؛ لأنهم فارقوا طريق الجماعة الأولى في مسائل الصفات، بل في أعظم من ذلك، ألا وهو تفسير التوحيد في تفسير شهادة أن لا إله إلا الله خالفوا فيها تفسير الصحابة وفي مسائل الصفات في القدر وفي الإيمان وفي مسائل كثيرة إذن فانتسابهم خطأ، لهذا كان أئمة أهل السنة والجماعة كثيرا ما ينتسبون إلى الأثر وإلى الحديث إلى السلف لأنهم يخرجون بذلك عن الدائرة الأوسع التي أدخل بعض أهل البدع أنفسهم فيها.فإذن راية أهل السنة والجماعة بالأصل رفْعها راية صحيحة لأن الجماعة حق لكن الماتريدية والأشاعرة يرضون براية أهل السنة والجماعة، لكنهم إذا قلت لهم على طريقة السلف خالفوا، لهذا نقول في الأصل أن أهل السنة والجماعة هم أهل السلف، لكن إذا كان ثَم التباس في الانتساب نقول الانتساب إلى السلف أخص من الانتساب إلى أهل السنة والجماعة، فإنه قد يكون الرجل ينتسب إلى السنة والجماعة وإذا أردته أن ينتسب إلى السلف ،إلي الصحابة ،لم ينتسب.

لهذا كان الانتساب إلى السلف أدق لأجل إخراجه لبعض المنتسبين خطأ إلى السنة والجماعة، فمن أطلق لفظ أهل السنة والجماعة يريد بها المعنى الصحيح وهو أنهم المتبعون للسلف كان إطلاقه صحيحا وكلامه صوابا، أما إذا أطلقها ويريد بذلك أنه ليس المطلوب أن يكون على منهج السلف وإنما على منهج أهل السنة والجماعة الذي يشمل الطوائف التي تنتسب إلى ذلك، قلنا إن ذلك خطأ.

فهذا هو تفصيل المقام في هذين اللفظين، وبعض الناس يخطِّئ من ينتسب إلى السلف ويقول أن السلف هم أهل السنة والجماعة مطلقا، وبعضهم يخطّئ من يقول إنّ السلف وأهل السنة والجماعة كلها واحد، والصواب هو التفصيل فإنها بمعنى واحد في الأصل، ولكنها من جهة التفصيل اختلفت، والله أعلم.

هل يحصل للفاسق كرامة، وكيف؟

قد يحصل له كرامة بقدر ما عنده من الإيمان، لكن لا يجزم بأنها كرامة، لا يجزم بأنها كرامة، والكرامات لا

يعتقد فيها عند أهل السنة والجماعة، وإنما هي نعمة لمن حصلت له يجب عليه أن يشكر الله جل وعلا عليها، لا يعتقد فيمن حصلت له لأنه قد تحصل من بعض ممن ليس بمسدد الإيمان، تحصل له كرامة على قدر إيمانه، ولهذا **يقول أهل السنة إن كرامات الأولياء لا تبلغ مبلغ معجزات الأنبياء**، مع أنها من جنسها في كونها خارق للعادة، لكن معجزات الأنبياء أعظم؛ لأن إيمانهم أعظم؛ ولأن الحاجة لمعجزاتهم أعظم. أما كرامات الأولياء الصالحون المسددون فهي أقل مرتبة، كذلك لمن حصلت له لمن ليس بمؤمن مسدد ،فاسق يعمل بعض المعاصي، قد تحصل له لكن لا يجزم بأنها كرامة لكن هو إذا علم ذلك من نفسه فإنه يشكر الله جل وعلا عليها ويستقيم على الطريق.

نقول الإيمان والتقوى تتفاضل، لهذا كل من عنده بعض الإيمان وبعض التقوى فإن عنده بعض الوَلاية، الولي ليس هو المؤمن المتقي الكامل، بل كل مؤمن تقي له نصيب من الوَلاية من ولاية الله له بقدر ما عنده من الإيمان والتقوى.

الحادية والعشرون: تحريف كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

ولكم في هذا العصر من هو على شاكلتهم، تراه يصرف النصوص ويؤولها إلى ما يشتهيه من الأهواء.

الثانية والعشرون: تحريف العلماء لكتب الدين. قال الله تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}. ومن نظر إلى قضاة هذا الزمان وما تلاعبوا به من الأحكام، وصرف النصوص إلى ما تهواه أنفسهم، وتبديل الحق وإبطاله، بما ينالونه من الرشا وغير ذلك مما هم عليه اليوم، تبين له من ذلك بحر لا ساحل له.وهكذا بعض المبتدعة وغلاة القبور، وقد بُيّن حالهم في غير هذا الموضع.

الثالثة والعشرون: وهي من أعجب المسائل والخصال: معاداة الذي انتسبوا إليه أشد العداوة، وموالاتهم لمذهب الكفار الذين فارقوهم أكمل الموالاة. كما فعلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لما أتاهم بدين موسى، واتبعوا كتب السحر، وهو من دين آل فرعون. ومثل هؤلاء في الأمة الإسلامية كثير، هجروا السنة، وعادوها، ونصروا أقوال الفلاسفة وأحكامهم.

(المسألة الرابعة والعشرون) ترك الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبرا وأنفة فأنزل الله تعالى (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) [الأنعام:52] الآيات. أنهم لما افترقوا- وكل طائفة لا تقبل من الحق إلا ما قالته طائفتهم، وكفروا بما مع غيرهم من الحق.-قال تعالى في سورة البقرة: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ [يَوْمَ الْقِيَامَة] فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}. ولا شك أن هذا من خصال الجاهلية، وعليه اليوم كثير من الناس، لا يعتقد الحق إلا معه، لا سيما أرباب المذاهب، يرى كل أهل مذهب أن الدين معه لا يعدوه إلى غيره، وكل حزب بما لديهم فرحون.

وكل يدعي وصلا لليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

والحزم أن ينظر إلى الدليل، فما قام عليه الدليل فهو الحق الحري أن يتلقى بالقبول، وما ليس عليه برهان ولا حجة ينبذ وراء الظهور، وكل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا من اصطفاه الله لرسالته.

(**المسألة الخامسة والعشرون**) الاستدلال له على بطلانه بسبق الضعفاء كقوله (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) [الأحقاف:11]. أنهم لما سمعوا قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الافتراق: "وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة"، ادعى كل فرقة أنها هي الناجية. كما حكي عن اليهود والنصارى في قوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ}. مع أن النبي صلى الله عليه وسلم بين في آخر الحديث المراد من الفرقة الناجية، فقال: "وهم ما كنت عليه أنا وأصحابي" أو كما قال. وردّ الله تعالى عليهم بقوله: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}. والمقصود أنهم ليس لهم برهان على هذه الدعوى، بل الدليل على خلاف ذلك. وأبو العباس تقي الدين تكلم على حديث الفرق في كتابه منهاج السنة بما لا مزيد عليه، حيث استدل به الرافضي على حقيقة مذهبه وبطلان مذهب أهل السنة، فراجعه إن أردته.

(**المسألة السادسة والعشرون**) تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. وأنهم أنكروا ما أقروا أنه دينهم، كما فعلوا في حج البيت، فتعبدوا الله بإنكارهم والبراءة منه مع ذلك الإقرار.

كما قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً}

إلى أن قال: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}. يقال: عن سبب نزول قوله: {وَمَنْ يَرْغَبُ ... } إلخ ما روي أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه: سلمة ومهاجرا إلى الإسلام، فقال: قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة، وأبى مهاجر، فنزلت. انتهى.

(**المسألة السابعة والعشرون**) تصنيف الكتب الباطلة ونسبتها إلى الله كقوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) [البقرة:79] الآية.

وكذلك من مسائل الجاهلية التعبّد بكشف العورات.قال تعالى في سورة الأعراف: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}.

قال بعض المفسرين: الفاحشة هنا: الفعلة القبيحة المتناهية في القبح، والتاء إما لأنها مجراة على الوصف المؤنث، أي: فعلى فاحشة، وإما للنقل من الوصفية إلى الاسمية، والمراد بها هنا: عبادة الأصنام، وكشف العورة في الطواف، ونحو ذلك.وعن الفراء تخصيصها بكشف العورة. وفي الآية حذف، أي: وإذا فعلوا فاحشة، فنهوا عنها قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، محتجين بأمرين: بتقليد الآباء، والافتراء على الله. وكان من سنة الحُمس وهم (قريش وما ولدت، ومن كان مأخذها من القبائل كالأوس والخزرج وخزاعة وثقيف وغزوان وبني عامر وبني صعصعة وجديلة قيس وبني كنانة إلا بني بكر، سموا بذلك لأنهم تحمسوا- أي: تشددوا- في دينهم، فكانوا يرون التزهد، وقيل: بل سموا بالكعبة، لأنها حمساء: حجرها أبيض يميل إلى السواد، والأول أشهر.) أنهم لا يخرجون أيام المواسم إلى عرفات، إنما يقفون بمزدلفة، وكانوا لا يسلؤون، ولا يأقطون ولا يرتبطون عنزا ولا بقرة، ولا يغزلون صوفا ولا وبرا، ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر، وإنما يكتنون بالقباب الحمر في الأشهر الحرم، ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحلّ إذا دخلوا الحرم، وأن يتركوا ثياب الحل، ويستبدلونها بثياب الحرم، إما اشتراء وإما عارية وإما هدية، فإن وجدوا وإلا طافوا البيت عرايا.

وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك، غير أن المرأة كانت تطوف في مُفرّج القوائم والمواخير.

قالت امرأة(هي ضباعة بنت عامر بن صعصعة، كما في "الروض الأنف) وهي تطوف بالبيت:

اليوم يبدوا بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

أختم مثل القِعب باد ظلّه ... كأن حمّى خيبر تمُلّه

وكلّفوا العرب أن يفيضوا من مزدلفة، وقد كانوا يفيضون من عرفة، إلى غير ذلك من الأمور التي ابتدعوها وشرعوها، مما لم يأذن به الله. ومع ذلك كانوا يدّعون أنهم على شريعة أبيه إبراهيم عليه السلام وما ذلك إلا لجهالتهم.وغالب من ينتمي إلى الإسلام اليوم ابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله، فمنهم من اتخذ ضرب المعازف وآلات اللهو عبادة يتعبّون بها في بيوت الله ومساجدهومنهم من اتخذ الطواف على القبور والسفر إليها والنذور وأخلص عبادته وأفضل قرباته.

ومنهم من ابتدع الرهبانية والحيل الشيطانية، وزعم أنه سلك سبيل الزهاد وطريق العباد، ومقصده الأعلى نيل شهواته الحيوانية والفوز بهذه الدنيا الدنية، إلى غير ذلك مما يطول، ولا يعلم ماذا يقول.

إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

(المسألة الثامنة والعشرون) أنهم لا يقبلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم كقوله (قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) [البقرة:91]

وكذلك من مسائل الجاهلية التعبّد بتحريم الحلال.

فردّ الله تعالى ذلك عليهم بقوله في سورة الأعراف: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.ومعنى الآيات: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} ، أي: ثيابكم لموارة عوراتكم عند طواف أو صلاة.وسبب النزول: أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة، حتى إن كانت المرأة لتطوف البيت عريانة، فتعلق على سفلها سيورا مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر والدواب وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى هذه الآية: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ} مما طاب لكم

قال الكلبي: كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الطعام إلا قوتا، ولا يأكلون دسما في أيام حجهم، يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: يا رسول الله، نحن أحق بذلك، فأنزل الله تعالى- الآية.

وفيه يظهر وجه الأكل والشرب هنا.

{وَلَا تُسْرِفُواْ} بتحريم الحلال، كما هو المناسب لسبب النزول.

{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} بل يبغضهم، ولا يرضى أفعالهم.

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} من الثياب وكل ما يتجمل به، وخلقها لنفعهم من الثياب كالقطن والكتان والحيوان والحرير والصوف.

{وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} أي: المستلذات، وقيل: المحللات من المآكل والمشارب كلحم الشاة وشحمها ولبنها.

{قُلْ هِيِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ، أي: هي لهم بالأصالة، لمزيد كرمهم على الله تعالى والكفرة، وإن شاركوهم فيها، فبالتبع، فلا إشكال في الاختصاص.

{خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ، أي: لا يشاركهم فيها غيرهم.

{كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} ، أي: مثل تفصيلنا هذا الحكم، نفصّل سائر الأحكام لمن يعلم ما في تضامينها من المعاني الرائقة.

{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ} ، أي: ما تزايد قبحه من المعاصي، ومنه ما يتعلق بالفروج.

{مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} : بدل من الفواحش، أي: جهرها وسرها.

وعن البعض: {مَا ظَهَرَ} الزنى العلانية، {وَمَا بَطَنَ} الزنى سرا3، وكانوا يكرهون الأول، ويفعلون الثاني، فنهوا عن ذلك مطلقا.

وعن مجاهد، {مَا ظَهَرَ} التعري في الطواف، {وَمَا بَطَنَ} الزنى.

والبعض يقول: الأول: طواف الرجال بالنهار. والثاني: طواف النساء بالليل عاريات.

{وَالإِثْمَ} ، أي: ما يوجب الإثم، وأصله الذم، ثم أطلق على ما يوجبه من مطلق الذنب، وذكر للتعميم بعد التخصيص بناء على ما تقدم من معنى الفواحش.

ومنهم من قال: إن الإثم هو الخمر، وعليه أهل اللغة ، وأنشدوا له قول الشاعر:

نهانا رسول الله أن نقرب الزنى ... وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا

وقول الآخر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم يذهب بالعقول{وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: 33] وهو الظلم والاستطالة على الناس، وأفرد بالذكر بناء على التعميم فيما قبله، أو دخوله في الفواحش للمبالغة في الزجر عنه {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33] بالإلحاد في صفاته والافتراء عليه كقولهم [الأعراف: 28] {وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [الأعراف: 28] ولا يخفى أن متصوفة زماننا على هذه الخصلة الجاهلية: فقد حرموا على أنفسهم زينة الله والطيبات من الرزق ليعتقد الناس صلاحهم، وابتدعوا الخلوات والرياضات وغير ذلك من شعائرهم في المأكل والملبس وسائر

شئونهم، وما دروا أنهم بذلك من القوم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا وقلبا خاشعا وعينا دامعة.

اللهم اهدنا فيما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

اللهم اجعلنا ممن آمن حق الإيمان واتقى حق التقوى وصدق حق التصديق.

اللهم اجعلنا من الذين يتعلمون العلم ابتغاء وجهك ويطلبون به ما عند إنك ولي ذلك وإنك مسؤول.

اللهم لا تكلنا لأنفسنا طرفة عين فيما تقلبنا وأينما توجهنا.

أما بعد:فهذه المسائل من مسائل الجاهلية؛ يعني الخصال التي كان عليها أهل الجاهلية من المسائل المهمة لكثرة الواقعين في ذلك في هذا الزمان ومن قبله، فذكر المسألة الرابعة والعشرين قال (المسألة الرابعة والعشرون –يعني من خصال أهل الجاهلية ومن مسائلهم– ترك الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبرا وأنفة فأنزل الله جل وعلا قوله (وَلَا تَطْرُد الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)[الأنعام:52]) وهذه الخصلة من خصال أهل الجاهلية كانت قائمة في الكبار فيهم من ذوي الجاه, وذي المال، وذي الشرف، وذوي الرئاسة، من كبار جاهلي العرب, ومن كبار الجاهلية في الأمم الأخرى من اليهود والنصارى وغيرهم.

فإن المرء إذا كان مقدما مرفوعا إما لأجل جاهه، أو لأجل علمه، أو لأجل عقله في فئته فإنه يدخل إليه الشيطان من هذه الجهة وينفخ فيه حتى يجعله متكبرا على الحق –والعياذ بالله–.

وذكر قول الله جل وعلا (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)، وهذه الآية ذكر المفسرون في سبب نزولها عدة روايات مجملها أن المشركين قالوا لرسول الله :– صلى الله عليه وسلم – اجعل لنا مجلسا تخصُّنا به، لا نجلس مع هؤلاء الأعبد. يعنون: خبابا وبلالا وصهيبا, وذُكر في بعض الروايات وسلمان، ولكن هذا ليس بجيد لأن هذه الآية مكية, مجلسا تخصنا به, اجعل لنا مجلسا تخصنا به, فمالَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى ذلك بقلبه وهمّ بذلك، فأنزل الله جل وعلا (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)، وقوله هنا (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ) يعني ما همَّ به عليه الصلاة والسلام، وإلاّ فهو لم يقع منه طردٌ لهم، وإنما همّ بأن يخص أولئك من بين المؤمنين الذين هم ليسوا كأولئك في الشرف والجاه والرفعة، وكان ذلك من رسول الله عليه الصلاة والسلام طمعا في إسلام أولئك، وأنّ أولئك كبار القدْر، كبار الجاه، ذوو نفوذ وذوو أمر مطاع، فطمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في هدايتهم، فقبل شرطهم بأن يخصهم ويستنكف ويطرد أولئك النفر المؤمنين الذين ليسوا كأولئك في الجاه والرفعة والرئاسة ونحو ذلك، فأنزل الله جل وعلا هذه الآية.

وهذا الذي ذُكر في سبب النزول، ظاهر منه استدلال الشيخ رحمه الله تعالى، من أنّ أولئك المشركين كانوا يرغبون في استماع الحق وكن منعهم من الحضور إلى مجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التكبر عن أن يَشركوا أولئك النفر المؤمنين الذين كانوا إما فقراء وإما موالي، عبيد، أو نحو ذلك، فكرهوا أن يشاركوهم في مجالسهم، وكرهوا أن يحضروا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويكون فيه أولئك حتى إنه ذُكر أن بعضهم قال: اجعل لنا مجلسا تعرف به العرب مفضلنا. تعرف به العرب مفضلنا، هذا يدل على ما في داخل صدورهم من التكبر والأنفة, والحق إنما يكون مع الذين يميلون له, لا يكون مع المتكبرين, ولهذا أولئك لا ينفع فيهم مثل هذا، قال جل وعلا(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)[الأنفال:23] يعني أهل الكتاب، لو شاء الله جل وعلا لأسمعهم ولو أسمعهم الحق والهدى كما يَسمعه من ينتفع به، (لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) لأنهم يعلمون الحق، ولكنهم ينسلخون عنه تكبرا وأنفة، وهذا الذي منع كثيرا من الجاهليين من كبار قريش من الدخول في الإسلام، تعرفون كلمة أبي جهل المشهورة في ذلك، حيث قال: حتى تنازعنا نحن وبني هاشم الشرف، فقالوا فتصدقوا وتصدقنا، ونحروا ونحرنا، وبذلوا وبذلنا حتى إذا كنا كفرسي رهان قالوا منا رسول يأتيه الوحي من السماء وليس منكم أحد، لا والله لا نؤمن به أبدا. هذا يدل على أن أولئك تركوا قبول الحق، ومنعهم الدخول في الحق سبق الضعفاء، منعهم من ذلك أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام أقبل على أولئك النفر تكبرا منهم وأنفة.

كذلك اليهود، اليهود كان فيهم ذلك وكانوا يخفون الحق، ويقولون كيف نتّبع هذا النبي الأمي فنخسر مالنا ونخسر جاهنا ونخسر ما يبذله لنا ذووا الأموال، وهذا سيأتي إن شاء الله تعالى في بيان سبب تبديلهم الكتب وتبديلهم المنزَّل عليهم.

هذه الخصلة كما رأيتم، هذه سببها ما يقع في النفوس من التكبر، وهذا دخل ووجد في هذه الأمة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، وُجد في هذه الأمة المنتسبين إلى الإسلام قبل المتمسكين إلى الإسلام، فكثيرا منهم منعه من قبول الحق التكبر والأنفة أنْ كل أولئك الذين سبقوا إليه هم الذين سبقوا وهم الذين تقدموا في الحق ويكون ذلك الكبار تابعين، يكون أولئك الكبار لاحقين، والكبار وذوو الجاه وذوو السمعة وذوو الرئاسة دائما يحبون أن يكونوا هم الذين يتقدمون الناس، هم الذين يسبقون ولو كان سبقهم في غير الحق وفي غير الهدى، فإنّ همتهم لما جعل الله جل وعلا في قلوبهم من الضلال ومن ترك الهدى لو كان ذلك في غير الصواب سلكوه، وهذا ظاهر في كثير من أئمة البدع في الإسلام، فإنهم لم ينقادوا ولم يسلموا للحق لأنهم يعتقدون أنهم ذووا شرف ذووا رفعة، لما أوتوه من عقول، لما أوتوه من فهم، فكيف يميلون للحق مع أن الذين اتبعوه هم الذين يسمونهم أهل الظاهر ويسمونهم حشوية، ويسمونهم بأسماء متنوعة تؤول جميعا وتجتمع جميعا في أنهم ليسوا بذوي نباهة ولا بذوي عقول.

فإذن أولئك الذين كانوا من الكبار في الإسلام من أهل البدع كان كثيرا منهم يعلم الحق ولكنه يصعب عليه أن يتركَه من أجل ما لَه من المنزلة والرفعة، يصعب عليه أن يتركه لذوي عقول ضعيفة عنده، وهذا يجر إلى أنه لا يُقدّم، ولا يكون مرفوعا، ولا يكون مبجلا، ولا يكون متبوعا، ولا تراه في كثير ممن أبتلي بإتباع الناس لهم إذ لم يكن معهم إنصاف، ولم يكن معهم تقوى وخير من الله جل وعلا، فإنه يصدهم الأتباع، يصدهم كثرة من يعظمهم، يصدهم كثرة من يتبعهم على أن يقبلوا الحق، فإن النفس إذا وجدت من يتبعها، إذا وجدت من يعظمها، ثم كان السبيل في قبول الحق والرضوخ له أن يُترك تعظيمه أن يُترك رفعه فإنه يصعب جدا من النفوس أن تقبل ذلك، وهذا كَثُر في الذين ركبوا هواهم في هذه الأمة في أصناف شتى كثيرة، أينما توجهت وجدت ذلك.

فإذن كل من لم يقبل الحق لأجل التكبر والأنفة فإنه لهم نصيب في مشابهة الجاهليين في ذلك، وهذا يدل على أن ترك قبول الحق لأجل سبق الضعفاء أو لأجل تقدمهم أو لأجل أنهم أخص لصاحب الدعوة فإن هذا –والعياذ بالله– من الكبائر، بل قد يكون مخرجا من الملة إذا كان فيه عدم قبول أصل الدين، مثل ما يحصل من كبار علماء المشركين في هذه الأزمان المتأخرة. وهذا لأنه معظم في طائفته، صعب أن يترك ويسحب منه كل ما اكتسبه في حياته الطويلة، هذا صعب على النفوس خاصة في أنفس كبار السن، يعني من دخل في الكهولة ونحو ذلك، فيصعب عليه نفسيا هذا.

إذا تبين لك ذلك، فإذن نستفيد من هذا أن هذه الخصلة من خصال أهل الجاهلية كثيرة تأملها تجدها في هذه الأمة، في الأغنياء، في ذوي الترف، في الرؤساء، في الملوك، في الأمراء، في نحو ذلك، هذه موجودة فيهم إلا ما شاء الله جل وعلا، فإنهم تراهم يتنقّصون الحق لأجل من اتبعهم ويرفضون الدخول فيه لأجل حال من دخل فيه.

أيضا ننبه إلى أن على أهل الدعوة، على الدعاة، على أهل العلم أن يعتنوا بالصفوة الذين أقبلوا على الله جل وعلا، وأن يتركوا الالتفات إلى ذوي الشرف وذوي الرفعة إلا إذا كان أولئك يقطنون مع غيرهم ويقبلون مع غيرهم، أما أن يقبل على أولئك ويترك الذين يريدون وجه الله جل وعلا، فإنّ هذا من الذي نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام قال جل وعلا في سورة الأنعام (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)[الأنعام:52]، نبّه أنهم أهل الإخلاص أهل طمع فيما عند الله جل وعلا لا يريدون إلا وجه الله جل وعلا، وهذا فيه تنبيه إلى أن أولئك الذين همّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يطرد هؤلاء من أجلهم أنهم لا يريدون وجه الله جل وعلا، أنه لهم مقاصد أخر في ذلك، قال جل وعلا (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ)[الأنعام:52]، وهذا فيه النهي الشديد عن ذلك، وكذلك قال جل وعلا في سورة الكهف (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا)[الكهف:28]، قال المفسرون في قوله (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يعني تريد التزيّن فدخول أولئك ولمجالسة أولئك.

وهذه خصلة نفسية تدخل في قلوب كثيرين، فعلى الدعاة أن يكون همهم إيصال الحق، وإذا كان هناك في إيصال الحق فيه شيء من ترك ما أمرنا الله جل وعلا به رعايةً لخواطر بعض ذوي الشرف وذوي الجاه ونحو ذلك، فلا يقبل الداعية، لا يقبل طالب العلم، لا يقبل العالم بذلك، إلا إذا كان ثَمّ مصلحة راجحة، كما كان النبي عليه الصلاة والسلام يفعل في المدينة مع رؤساء الوفود، هذا له حال آخر، أما أن يُشترط على صاحب الدعوة أو العالم أن لا يجلس مع أولئك، مع هؤلاء، وأن يكون لهم مجلس مع الخاصة من ذوي الشرف، فهذا هو الذي نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام.

المسألة التي تليها أنهم يستدلون على بطلان ما جاء به النبي يعني على بطلان الحق، يستدلون على بطلانه سبق الضعفاء كقوله (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)[الأحقاف:11]، هذه المسألة مسألة استدلال والمسألة الأولى مسألة طلب، ففي الأولى طلب ذلك وفي الثانية يستدلون على بطلان الحق.

الأولى يريدون سماع الحق ولكنهم طلبوا أن لا يكون معهم أولئك الضعفاء، أولئك الأعبد، أولئك الذين ليسوا من ذوي الجاه ومن ذوي الشرف ومن ذوي الرفعة؛ لأنهم يلحقهم نقص، ويلحقهم شيء من التعيير إذا جلسوا في مجلس فيه أولئك الأعبد والجميع على حد سواء.

قال رحمه الله تعالى في هذه المسألة –أعني المسألة الخامسة والعشرون– استدلال على بطلانه يعني على بطلان الحق بسبق الضعفاء، يستدلون على بطلانه بسبق الضعفاء كما قال جل وعلا في سورة الأحقاف (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)[الأحقاف:11]، قوله هنا (لِلَّذِينَ آمَنُوا) يعني عن الذين آمنوا (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا) اللام هنا بمعنى (عن) يعني وقال الذين كفروا عن الذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه، قال جل وعلا (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)[الأحقاف:11]، فهم استدلوا على بطلان ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام بسبق الضعفاء.

وهذه المسألة غير المسألة التي مرت معنا أنهم يستدلون على بطلانه؛ لأنه إنما أخذه الذين ليس لهم عقول، وليس لهم حظ لما سبق من المسائل، حيث استدل على ذلك بقوله تعالى في سورة هود (بَادِيَ الرَّأْيِ)[هود:27]، وأولئك دخلوا من غير تدبر ومن غير فهم، هنا يستدلون على البطلان بسبق هؤلاء، فهؤلاء كونهم سبقوا وهم أراذلنا وهم من ليسوا بذوي فهم، كونهم سبقوا، هذا دليل على أنه ليس بحق، لأنه لو كان حقا لأخذه ذووا العقول وأخذه ذووا الشرف وأخذه ذووا الفهم من الملأ من الكبار.

هذه المسألة واضحة المعنى، وهي شبيهة بالمسألة التي سلفت من قبل لكن هذه في الاستدلال على البطلان بالسّبق وتلك ليست استدلالا بالسبق وإنما استدلال بحال الضعفاء.

قال (**السادسة والعشرون تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**)

هذه الخصلة التي هي تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه هي في اليهود في بني إسرائيل، وهذا التحريف للكتاب عي أنهم وجدوا صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – في التوراة، صفة واضحة جلية فلما رأوا النبي – صلى الله عليه وسلم – عرفوا أنه هو المدعو، وأنه هو نبي الأميين، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ)[البقرة:89]، وكان من صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه ربعة أكحل العينين جعد الشعر، فسأل اليهودَ المشركون في مكة ما تجدون في صفة النبي – صلى الله عليه وسلم –، النبي الأمي الذي يخرج؟ قالوا: نجد صفته في كتابنا أنه طويل أزرق العينين سائل الشعر. أو نحو ذلك، فوصفوه بغير الوصف الذي جاء في التوراة، فحرفوا وهذا معنى قوله أنهم حرفوا كتاب الله من بعد ما عقلوه، يعني من بعد ما عرفوه، من بعد ما فهموه، كما قال جل وعلا في الآية الأخرى في سورة البقرة (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[البقرة:146]، يعرفون النبي – صلى الله عليه وسلم – ويعرفون أن ما أنزل إليه حق كما يعرفون أبناءهم لا يلتبس عليهم ذلك، ولكنهم كتموا الحق (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، وهذا ظاهر في معنى تحريفهم لكتاب الله. هذه الخصلة في اليهود تبعها أنواع من التحاريف وسبقها أنواع من التحريف، أما من يبق فإنهم حرّفوا كتاب الله جل وعلا؛ يعني الذي أنزل عليهم، حرفوا تارة بحذف بعض ما جاء فيه، فإن تحريف التوراة والإنجيل لأهل العلم فيها مذاهب:

(**منهم من يرى أن التحريف في المعنى** دون اللفظ، وأنهم ما حرّفوا التوراة بمعنى أزالوا الألفاظ وتركوا بعضا ومحوا بعضا، وإنما حرفوها من جهة المعنى والتفسير، وإلى هذا المعنى [يرمي] شيخ الإسلام ابن تيمية في سلف له من أهل العلم، في كتابه المشهور "الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح" من أراد هذه الأقوال بشيء من التفصيل فهي موجودة في إغاثة اللهفان لابن القيم، فقد ذكر فصلا طويلا في التحريف وما وقع فيه وهو قول عدد من أهل العلم.

يقول إن التحريف إنما هو تحريف المعنى، أما التوراة فإنهم لم يغيروا ألفاظها كما يستدل على ذلك بقصة اليهود بين الذين زنيا، وقال للنبي عليه الصلاة والسلام «كتاب الله الرجم» وراموا أن يغير حتى أتى عبد الله بن سلام فأخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – أنها في التوراة، فأتوا بالتوراة فوضعوا أصابعهم على هذا الموضع، فقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: مُرْهُ فليرفع يده فإن الآية تحته. فرفع يده فوجدها كما أخبر به عبد الله بن سلام.

هذا نوع من التحريف ليس تحريفا في اللفظ، ولكنه كتم للحق تحريف في المعنى وهذا من فعل الأحبار، لهذا كان شيخ الإسلام يرى أن التحريف كان في المعنى.

(**وقال آخرون** من أهل العلم إن التحريف كان في الألفاظ بزيادة ونقصان وزادوا أشياء وتركوا أشياء وحذفوا أشياء.

(**وقال آخرون –وهو القول الصحيح** فيما يظهر– أن التحريف الذي حصل في التوراة يجمع الأمرين، منه ما هو تحريف للألفاظ ومنه ما تحريف للمعنى، زادوا في التوراة أشياء من أقوال أهل العلم فيه من أقوال أحبارهم، وزادوا فيها أشياء هي من قبيل التأصيل حتى جعلت من كلام الله، جعلوا فيها قصصا طوالا، جعلوا فيه أخبار هي ليست من أصل التوراة ولكن زادوها؛ زادها علماؤهم حتى جعلت من التوراة، ومنه ما هو تحريف بالمعنى الذي حصل من كتب المتقدمة نوع تحريف، تحريف بالمعنى، تحريف في المعنى بأن يفسر الكلام الذي جاء على غير ما يعلمون تفسيره كما قال (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[البقرة:136]، ومنه ما هو تحريف في اللفظ يُزيدون وينقصون، يحذفون، يضعون أشياء زائدة. وهذا يجمع القولين السابقين وهو الظاهر وهو الصواب؛ لأن التحريف بمعنى الحذف واضح موجود، ففي التوراة أشياء وفي الإنجيل أشياء لا يمكن أن تُنسب على أنها منزلة من عند الله جل وعلا، فيها أشياء شركية فيها أشياء فيها الخنى والزنى والعياذ بالله، فيها أشياء لا يصح ولا يجوز أن تنسب لله جل وعلا، كذلك فيها أشياء من كلام علمائهم واضحة، حيث فيها مثلا في التوراة قال موسى وقال فلان، بل فيها نسبة أقوال لمن بعد موسى عليه السلام، وكذلك في الإنجيل، وهذا ظاهر لأنه زِيد فيها ونقص، كذلك تحريف المعنى لأنهم فسروها بغير تفسيرها.

هذا الذي حصل لأولئك من جهة تحريف المعنى وتحريف اللفظ لم يحصل لهذه الأمة في الجهتين وذلك لأن القرآن محفوظ قال جل وعلا (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[الحجر:9]، الذكر هو القرآن حفظه الله جل وعلا أن يزاد فيه أو ينقص، حفظه الله جل وعلا من التحريف والتبديل لأنه لا دين بعد دين الإسلام، ولا رسول بعد محمد عليه الصلاة والسلام، ولما كان القرآن محفوظا لم يتطرق إليه تحريف في لفظه، وإنما كان التحريف في تأويله، التحريف في معناه، وهذا هو الذي شابه فيه هذه الأمة اليهود، فإنهم يعلمون أنه من الحق كذا وكذا مما جاء في القرآن وجاءت به السنة، ولكنهم يحرفون ذلك ويصرفونه عن عانيه اللائقة به، وعما دل عليه إلى أقوال أخرى تنصر مذاهبهم، وهذا هو الكثير في هذه الأمة، وكل أهل الأهواء وأهل البدع وأهل الخرافة وأهل الشعوذة يجدون في القرآن ما يستدلون به محرّفين لمعناه متبعين لما تشابه منه، هذا القدْر شابهوا به اليهود ومن شابههم من أهل الملل.

مثال ذلك ما يكثر عند مؤولة الصفات من نفي ظواهر الآيات التي اشتملت على صفات الله جل وعلا، ويحرفون المعنى إلى معنى آخر مخترع من عند أنفسهم.

مثاله عند أول آية في القرآن (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) تجد أنّ القوم يفسرون (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بما يخرج اشتمالهما على الرحمة، ويقولون إن الرحمة هنا ليست في حق الله جل وعلا حقيقة، وإنما يراد بالرحمة هنا مجاز عن الإلهام, مجاز عن الإحسان, وهذا من أنواع التحريف؛ تحريف المعنى, كذلك يأتون إلى مثل قوله

جل وعلا (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) في آيات، ويقولون إن استوى بمعنى استولى فيزيدون فيه.

ولهذا قال بعض أهل العلم ما أشبه (لام) الجهمي بـ (نون) اليهودي، فإن اليهود قيل لهم قولوا حطة فقالوا حنطة أو قالوا حبة في شعرة، والجهمي قيل له قولوا استوى فقال استولى.

ويشابههم من قال بقولهم من أهل العلم من حاول أن يضلل عن معنى الظاهر الذي جاء به نصوص الصفات في القرآن ويصرف ذلك إلى معان أخر، من مثل ما جاء في تفسير الاستواء عند ابن العربي المالكي في كتابه ''عارضة الأحوذي'' حيث قال: إن الاستواء يأتي عند العرب على خمسة عشرة معنى. فساقها، وقال: فنقول للمثبت أي هذه المعاني المراد؟ وهذا غلط, وهو من التحريف؛ تحريف المعنى –والعياذ بالله–؛ لأن استوى في لغة العرب لا تكون إلا بمعنى واحد وهو بمعنى علا وارتفع (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ)[المؤمنون:28]، يعني علوتم عليه وارتفعتم عليه.

وفى تفسير معنى الاستواء بالاستيلاء معنى قبيح هو كفر وردة وخروج من الإسلام ،وهو أن العرش كان مسلوباً مغصوباً من إله آخر غير الله حتى استولى عليه الله منه ،وأن العرش الذى خلقه الله بيده خرج عن سيطرة الله وقدرته مدة من الزمن إلى أن استولى عليه الله ! تعالى الله عن ذلك وتقدس ،وهذه التأويلات الباطلة للمبتدعة كثيرة جداً في أبواب القدر وأبواب الإيمان ونحو ذلك.

فالمعتزلة مثلا استدلوا بقول الله جل وعلا (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)[النساء:79]، على أن العبد هو الذي يفعل المعصية و أن الله جل وعلا لا يخلق فعله هذا ويعرضون عن قوله جل وعلا (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)[النساء:78]، ونحو ذلك.

كذلك في أبواب الإيمان بالغيب حرفوا النصوص، ففي القرآن إثبات الميزان، وفي القرآن إثبات الصراط، وفي القرآن إثبات الصحف؛ أن هناك صحف تتطاير ومنهم من يأخذ صحيفته بيمينه ومنهم من يأخذ بشماله، القوم الذين لا يؤمنون بالغيبيات من العقلانيين من المعتزلة ومن شابههم لا يؤمنون بذلك ويحرفونه عن معناه.

كذلك المشركون الذين يؤيدون الشرك والخرافة، فإنهم يأتون إلى دلائل التوحيد التي في القرآن ويحرفونها عن معناها, ويأتون مثلا إلى الآيات التي فيها أنّ المشركين يدعون غير الله جل وعلا ويجعلونها دعوة الأصنام لا غير، ويخصون شرك المشركين لأنهم متبركون في العبادة بالأصنام، ويخرجون من ذلك عبادة الأوثان أو عبادة الصالحين، ونحو ذلك مما جاء موضحا في القرآن.

وهذا طفحت به كتبهم واستدلوا من ذلك بدلائل من القرآن ونحو ذلك، يحرفون المعاني، ولهذا يقول أهل السنة: أهل السنة يكتبون ما لهم وما عليهم، وأما أهل البدعة فإنما يكتبون ما لهم. يأتون بآية فيكتبونها, يحرفون معناها ويجعلونها لهم، فأما أهل السنة إذا كانت الآية لهم، الحديث لهم استدلوا به وإذا كانت عليهم يعني أنها تُشْكل على ما يستدلون له، فإنهم يكتبونها ويذهبون إلى طلب دفع ذلك الإشكال، إلى طلب رفع تلك الشبهة التي ضربت بتلك الآيات فإن الله جل وعلا جعل كتابه فيه اشتباه إلا على

الراسخين من أهل العلم، حتى يتميز أولئك الصفوة الذين هم الراسخون في العلم، فيكتبون مالهم ويكتبون ما عليهم ما يستدل الخصم به عليهم إنصافا منهم، فلا يدخلون في الأدلة التي عليهم يدخلون فيها بتحريف وصرف لها عن معانيها لكي يوافق ما عندهم، بل يأخذون بما دلت عليه ويجيبون عن ذلك بأنهم إنما يرومون الحق، فكل من صرف الدلائل عن ظاهرها وحملها على شيء لا تعرفه العرب من لغاتها فإن ذلك يدخل في مشابهة اليهود الذين حرّفوا الكتاب من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

مسألة :بعض طلبة العلم يترفع عن مخالطة العوام، ويقول لا أخالط إلا من فيه خير، هل هذا من التكبر والأنفة؟

الجواب : الأصل أنه يخالط العوام الذين فيهم خير، أما العوام الذين ليس فيهم خير لا يخالطهم، العامي قد يكون في عقيدته وفي استسلامه لله أحسن من بعض المنتسبين, وهذا ظاهر قد يكون عليه بعض مظاهر التقصير أو مظاهر المخالفات لكنه في حقيقة الأمر هي أقوى يقينا وإيمانا –يعني في مسائل إيمان القلوب– من غيره فخالطه العوام لأجل دعوتهم التأثير فيهم ونحو ذلك مطلوبة، لكن مثل ما قال «لا تصاحب إلا مؤمن ولا يأكل طعامك إلا تقي» , يحرص المرء على أنه إنما يخالط من ينفعه أو يؤثر عليه.

مسألة :إذا كان معنى كلمة استوى غير معداة بأي حرف معناها علا فكيف يفهم قوله تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) الآية وقول الإمام للمصلين استووا وغير ذلك. ؟

الجواب: أن مادة استوى غير مادة سوّى, سوّى هذه مادة واستوى مادة أخرى, فسواه بمعنى أصلحه وعدله، يقول الإمام استووا يعني أصلحوا صفوفكم وعدلوها، بأن لا يكون أحد باديا صدره متقدم, متأخر, ونحو ذلك كذلك قال (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) جعلته مستوى لخلقه, بخلاف قوله تعالى في سورة القصص(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) [القصص:14]، هذا (اسْتَوَى) بمعنى كمل خلقه واشتد يعني علا خلقه وارتفع على جنس الخلق (بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) فإذا كان جنس خلقه يعني خلق موسى على حال فبلغ أرفع الحال وأعلا الحال.

أما ما ذكر في التسوية في قوله تعالى(فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) [البقرة:29] , (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ) هذه مادة أخرى بمعنى الإصلاح والتهيئة. هنا تعرف استوى أصل معناها علا وارتفع, فإذا كانت معداة تقول استوى فلان يعني علا وارتفع، بدون على كذا وإلى كذا، فإذا كان عديت استوى بحرف الجر إلى فيكون استوى ضمن معنى قصد كما في قوله جل وعلا (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)[البقرة:29]، نعرف أن استوى بمعنى علا وارتفع لا تتعدى بحرف (إلى). فإذا تعدت بحرف (إلى) يكون فعل استوى ضُمِّن معنى قصد وعمد؛ لأنك تقول قصد إلى الشيء وعمد إلى الشيء.

والتضمن باب مهم في فهم اللغة وذلك أن التضمن فيه إثبات للمعنى الأول وزيادة المعنى المضمن فقوله تعالى هنا (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)[البقرة:29]، (اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) يعني علا وارتفع وعمد وقصد إلى السماء فسواهن، فيكون معنى الاستواء بالتعدية بـ(إلى) فيه المعنى الأصلي وهو

العلو والارتفاع، وفيه المعنى الذي أفادته تعدية الفعل بحرف (إلى) وهو معنى القصد والعمد.
وهذا إذ ذهبت إلى بعض المفسرين ممن يفسرون بتفسير السلف لقوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) يقول عمد وقصد، لا يعني هنا أنه أول إنما هو فسره بما تضمنه؛ لأجل ظهور المعنى الأصلي، وهذا ما يفسره بعض أهل العلم بأنه تفسير —يسميه بعضهم —تفسير باللازم أو بالتضمن، وهذا باب شريف لفهم اللغة والقرآن.
إذا عديت بـ(على) صار مع معنى ارتفع وعلا معنى زائد وهو استقر؛ يعني تقول: استقر على الشيء. فيكون قوله تعالى (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ)[المؤمنون:28]، يعني ارتفعت وعلوت واستقررت، فصار فيه هنا زيادة معنى أفاده تعدية الفعل بحرف (على)، وهذا هو الذي ذُكر في قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) قال بعضهم علا وارتفع، قال بعض السلف واستقر أيضا لأن هذا هو بادر اللغة.
إذا كان لي سلطة في بعض معاملة العمال الأجانب أفلا أتسبب في تشهيرهم؟ ما فهمت لكن نذكر جملا في هذا.

أحوال الكفار فى ديار المسلمين

أنّ الكفار الموجودين في دار إسلام على **قسمين**:
منهم من يظهر العداوة للمسلمين، إما بكلمة وإما بفعل أو نحو ذلك، فهذا يجب أن يسعى في تشهيره وذلك أنه ناقض أصلا من أصول، ناقض أصلا وشرطا من شرائط السماح له بالدخول وأيضا لأنه وهو قبل كل شيء لأنه نابذ الإسلام وأظهر العداوة، فهذا يجب أن نظهر له العداوة وأن نسعى في إبعاده عن ديار المسلمين، حتى لا يوقع الشر وحتى لا يظهر في بلاد المسلمين غير رفعة كلمة الله جل وعلا.
الصنف الآخر هم الذين لا يقاتلون في الدين لا يظهرون العداوة وإنما همهم مصلحتهم، فهؤلاء يعاملون بالعدل، الأصل في هؤلاء أن يعاملوا بالعدل والقسط، كما قال جل وعلا (يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[الممتحنة:8]، فمن لم يعادينا في الدين ولم يُظهر لنا هذه العداوة ويتبين منه ذلك، فهؤلاء يعاملون بالعدل وهو الأصل فيهم كما قال (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)[النحل:90]
ومنهم من يعامل بالبر كما في هذه الآية (أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) يحسن إليهم يساعدون، لهذا أجاز الفقهاء الصدقة للكافر، الصدقة المطلقة تجوز للكافر؛ يعني الذين لم يبارز في العداوة، والزكاة تجوز للمؤلَّف للكافر الذي يتألف في الإسلام ونحو ذلك، فمعاملتهم، معاملة هؤلاء الذين لم يظهروا العداوة لا يجوز أن يعتدى عليهم ولا أن يبغوا عليهم، ولا أن يظلموا، ولا أن يؤخذ شيئا من حقوقهم، ولا أن يسعى المسلم ضدهم في أمر لا يستحقونه وإنما يعاملهم بالعدل فبالعدل قامت الأرض والسموات، الله جل وعلا أمر بالعدل مع الأعداء قال (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَى)[المائدة:8]، فلو كان كافرا إذ لم يكن يظهر لنا عيبا في الدين لم يظهر عداوة، لم يستهزئ، لم يظهر شيئا مما يكون به معاديا للحق وأهله، للإسلام، للنبي – صلى الله عليه وسلم –، للقرآن ونحو ذلك فإنه يعامل بالعدل، وقد يعامل بالحسن والبر فإذا كان في ذلك مصلحة شرعية، كما أجاب النبي – صلى الله عليه وسلم – دعوة اليهودي وأكل من طعامه وأكل من طعامه وكما كان يحسن إلى بعض جيرانه ونحو ذلك مما في ذلك فيه مصلحة للدعوة.

فبهذا يتحرر الأمر، فبعض الناس يغلو في هذا الأصل في الولاء والبراء، وبعضهم يجفو ويقصر عنه الذي يغلو يحمل كل الكفار على محمل واحد ممن هم في دار الإسلام، وهذا ليس من حكم الله جل وعلا في شيء، وبعضهم يجفو ويقصر حتى يقع في مودّتهم وفي دعوتهم وفي إقرانهم وفي الاستئناس لهم وفي تقريبهم ونحو ذلك، وكلا الطرفين ذميم، ذاك غالا وهذا جافي مقصر، والصواب هو ما دل عليه كتاب الله وسنة ونبيه عليه الصلاة والسلام.

لا يجوز إدخال مشرك ولا كافر إلى جزيرة العرب يحرم على أي مؤمن أن يدخله أو يتسبب في إدخاله يعني ليكون مقيما بها، أما إذا كان مارا غير مقيم يعني ثلاثة أيام يمر لحاجة لغرض، هذا أذن به عمر به عمر رضي الله عنه أذن لتجار أهل الذمة في كل مكان ثلاثة أيام، يأتوا إلى المدينة فيقيموا بها ثلاثة أيام ويذهبوا إلى مكان آخر ثلاثة أيام، فلا يقيمون بالجزيرة أما الإقامة في الجزيرة واستدعاؤهم ليعملوا ونحو ذلك فهذا محرم لظهور الدلائل في ذلك.

ولا يجوز الاستئناس بهم والركون إليهم لأن هذا من الموالاة المحرمة قال جل وعلا (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ)[هود:113]، أدخل فيها بعض أهل العلم يعني من السلف أدخلوا فيها بري القلم له تقريب الدواة يعني الحبر له ونحو ذلك، لأنه ظالم متعدي منابذ، إذا نابذ الدين وأظهر العداوة فلا يجوز مساعدته، بل يجب إظهار العداوة له كما أظهر لنا العداوة، لكن الشيء إذا لم يكن كذلك إذا كان مسالم في حالة، فكيف تعامله تظلمه تتعدى عليه؟

من الناس من يجفو ويوادهم والعياذ بالله ويواليهم و يقربهم ويسكنهم في أفضل المساكن، إذا أتى المسلم ما أكرمه وإذا أتى هذا أكرمه لأجل نظره إليه وليس لأجل مصلحة دنيوية، لكن من أجل أنه أمريكي أو بريطاني وهذا كذا ونحو ذلك، وهذا لاشك أنه ضال، مثل ما ذكرت هذه من أنواع الموالاة والموالاة هذه محرمة، الموالاة محرمة، فلا يجوز للمسلم أن يلقي المودة للكفار قال جل وعلا (وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)[الممتحنة:].

كيف نعامل الكافر فى الطريق ؟

نحن ذكرنا أنهم يعاملون بالعدل، هذا أصل؛ معاملتهم بالعدل، إذا مرّ المؤمن في الطريق يعني على رجليه ليس في السيارة، هذا له وسط الطريق؛ لأن الدار دراه، والإسلام يعلو ولايعلى عليه والكفار لهم جنبات الطريق، «إذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه» يعني لا تفسحوا لهم يعني يمشي المسلم في صدر

الطريق ويترك لأولئك جنبات الطريق، هذا الذي جاء فيه مثل هذا الحديث أنك تمشي في الوسط وإذا أتى مشرك أو كافر نصراني أو نحوه وتحققت أن هذا مشرك أو نصراني فإنك تضطره إلى أضيقه، بمعنى أنك لا تفسح له تمشي وتتركه هو الذي يذهب إلى أضيق الطريق «تضطره إلى أضيقه» يعني أنك تمشي في وسط الطريق وهو يختار الطريق الضيق، لا تفسح له تعامله كالمسلم، لا يجوز ذلك، وهذا ليس مما ينافي العدل، بل هذا من مقتضى العدل لأن الإسلام يعلو ولا يُعلا عليه؛ ولأن المسلم أحق بداره؛ ولأنه في دار الإسلام لا يكرم كافر على مسلم، فإذا جعلت له وسط الطريق وأخذت بنيات الطريق فهذا من نوع إكرام له وهذا ينافي العدل لكن إذا أنا أخذت وسط الطريق كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – وجعلت أضيق الطريق لذلك المشرك ولذلك الكافر قد امتثلت وأخذت بالعدل.

وإذا قال المشرك السلام عليكم كافر يهودي نصراني وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – «فقولوا وعليك» **وهذا الحديث أهل العلم له فيه نظران:**

النظر الأول: أن يأخذوا بأصل العدل، ويقول أنّ العدل أصل أمر الله جل وعلا به عامة وفي رد التحية خاصة، فقال جل وعلا (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) [النساء:86]، (فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) في المسلم أو الكافر أو لأحدهما إذا كان المسلم فأنت بالخيار تحيي بأحسن منها أو تردها ،أما إذا كان كافر ،فيقول طائفة من أهل العلم عليك أن تردها كما هي ولهذا يذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم قد فصل في هذه المسألة في كتاب "أحكام أهل الذمة" فقال: والكافر إذا قال السلام عليكم فيجب على المسلم أن يرد عليه بالعدل، فيقول وعليكم السلام، يقول إن الحديث الذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام إذا قال لكم اليهود السلام عليكم فقولوا وعليكم، قال له سبب لأن اليهود يقولون السام عليكم، المؤمن إذا قال وعليكم السلام لم يعامل بالعدل، وإنما عامل بالأحسن لأن ذلك يقول السام يعني الموت وأنت تقول عليكم السلام، فأنت أكرمته ما عاملته بالعدل، إذا قلت وعليكم عاملته بالعدل، وهذا هو ما أمر الله به، قال: فإذا تحققت من كافر أنه قال السلام –واضحة– عليكم، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى تبعا لشيخه شيخ الإسلام، يقول: تقول مجيبا بمثله وعليكم السلام، لأن هذا معاملة بالعدل.

والقول الآخر: لأكثر أهل العلم ويقولون أكثر أهل العلم ويقولون أن ظاهر الحديث وإن كانت العلة ظاهرة في السبب لكنه خرج مخرج الأمر العام؛ فيقولوا وعليكم. تكون العلة وردت لا يكون اقتصار الحكم على هذه العلة.

وهذا هو الصواب، بأنك إذا قابلك النصراني فتقول وعليكم سواء قال السلام أو قال السام.

إذن هذه المسألة لا تشكل على أصل المسألة. ومن رام إلى زيادة تفصيل فليرجع إلى كتاب "أحكام أهل الذمة" لابن القيم وقد أطنب فيها.

[المتن].(**المسألة السابعة والعشرون**) تصنيف الكتب الباطلة ونسبتها إلى الله كقوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)[البقرة:79]الآية.

(**المسألة الثامنة والعشرون**) أنهم لا يقبلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم كقوله (قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا)[البقرة:91].

(**المسألة التاسعة والعشرون**) أنهم مع ذلك لا يعلمون بما تقوله طائفتهم، كما نبه الله تعالى عليه بقوله (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)[البقرة:91].

(**الثلاثون**) وهي من عجائب آيات الله أنهم لما تركوا وصية الله بالاجتماع وارتكبوا ما نهى الله عنه من الافتراق، صار كل حزب بما لديهم فرحين.

هذه المسائل أولها أنّ من ما فعله أهل الجاهلية أنهم صنفوا الكتب الباطلة ونسبوها إلى الله جل وعلا، وذلك التصنيف للكتب الباطلة كان منهم على **قسمين**:

الأول: أنهم صنفوا في المكتب المنزلة على الله جل وعلا أشياء وزادوها فيها؛ يعني جعلوا الكتب التي أنزل الله جل وعلا, التوراة, والإنجيل جعلوها مزيدة فصنفوا فيها أشياء زادوها ونسبوها إلى ذلك الكتاب المنزل, هذه الأشياء قالوا هي من التوراة ومن الإنجيل، فيصير هذا النوع داخل تحت تحريف الكتب المنزلة من عند الله جل وعلا تحريفا لفظيا, يعني بالزيادة.

القسم الثاني: أنهم صنفوا كتب ليست من الكتب المنزلة ولم يضيفوها إلى الكتب المنزلة، ولكنهم جعلوها من الله جل وعلا لأنها كالشرح لها أو كالبيان أو أضافها المصنفون إلى ما أنزل الله جل وعلا وما أخبر به رسوله، وهذا حصل في اليهود والنصارى.

أما اليهود فكما أخبر الله جل وعلا في قوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)[البقرة:79]، فاليهود من علمائهم وأحبارهم من أضاف في التوراة أشياء, فالتوراة الموجودة اليوم ليست كلها كلام الله جل وعلا، بل فيها مما هو من كلامه مما أوحاه إلى موسى، ومنها وهو الكثير ما هو من ما أضافه علمائهم وأحبارهم، فنسبوا ذلك إلى الله, هذا نوع وقع فيه اليهود.

وكذلك وقعوا في النوع الثاني أنهم صنفوا شرحا لنصوص التوراة أو لما جاء به موسى وجعلوا فيه أشياء حللوا فيها حراما وحرموا فيها حلالا وافتروا فيها على الله جل وعلا ونسبوا تلك الكتب إلى الله، وهذه موجودة اليوم عندهم بما يسمونه بالمشنة والزمارة وهي قسما التلمود، وهذا منسوب إلى الله جل وعلا عندهم؛ لأنه من صنيع علماءهم يقدسون ذلك تقديسهم للتوراة، وهذا لعله المراد بقوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)[البقرة:79]، فهم افتروا على الله جل وعلا حيث أنهم زادوا في التوارة ما ليس منها وافتروا على الله جل وعلا حيث إنهم جعلوا اجتهاداتهم التي ليس لها أصل في شريعتهم ولا في دينهم ولا في عقيدتهم، جعلوها منسوبة إلى الله جل وعلا، وهذه الخصلة عند اليهود والنصارى، لم تكن عند العرب عند مشركي العرب ذلك؛ لأن مشركي

العرب أميون ليسوا ممن اعتنوا بالكتابة والقراءة وإنما يسمعون الأخبار، فهذه من الخصال التي وقعوا فيها جاهلي اليهود والنصارى.وهذه جاءت ودخلت في هذه الأمة بأوسع المداخل، فالكتب التي صنفت في هذه الأمة، وصنفها أناس من هذه الأمة كثير منها كان من القسم الثاني؛ يعني مما حرف فيه الشرع وحرفت فيه العقيدة ونسب ذلك إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بأنه دينه وأنه عقيدته وأنه ما يجب أن يلتزمه المسلم.أما القسم الأول وهو تحريف القرآن فهذا لاشك أنه لم يقع؛ لأن الله جل وعلا حفظ هذا القرآن من الزيادة والنقصان، حفظه من أن ينسب إليه شيء وتقرّ ذلك الأمة ويكون هذا بينهم، هذا حفظ القرآن عن أن ينقص منه أو أن يزاد فيه، معلوم أن عند الروافض وبعض الفرق الضالة نسخ من مصاحف لهم يجعلونها مضاهية للقرآن، إما بنسبتها للقرآن كما يسمي الروافض مصحف فاطمة بذلك، ويقولون إن المصحف الموجود اليوم هو ثلث المصحف، وتقول طائفة منهم ثلث ما أنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم –، وآخرون من هذه الأمة أيضا جعلوا لهم كتابا يضاهون به القرآن كما عند الدروز وعند النصيرية فلهم كتب يضاهون بها القرآن وقد وقفت على شيء من تلك الكتب فيها مضاهاة للقرآن وتقسيمات وآيات على حد تعبيرهم مسجوعة ونحو ذلك. لكن هذا إنما هو عند بعض تلك الطوائف ليس شائعا وهو يصدق عليه أنهم شابهوا فيه اليهود لأنهم فعلوا مثل ما فعل أولئك، لكن هذا ليس البلاء في الأمة كبيرا به.

وإنما البلاء في الأمة كان كبيرا بالقسم الثاني وهو تصنيف الكتب الباطلة كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى ونسبة تلك الكتب إلى الله جل وعلا، فإذا تأملت وجدتَ أنه لما ظهر زمن الابتداع وعلا مناره وقويت شوكته فصنفوا كتبا كثيرة، كان السلف الصالح يأنفون من التصنيف ويبتعدون عن التصنيف قدر الإمكان رغبة في أن يبقى العلم في الصدور، حتى ابتدؤوا في التصنيف بما نقل عن السلف؛ بما نقل عن النبي – صلى الله عليه وسلم –، بما نقل عن الصحابة، بما نقل عن التابعين، وكانوا يقتصرون على ذلك رغبة في إبقاء صلة الأمة بما كان عليه سلفها في كلامهم وفي هديهم وفي دلّهم وسمتهم ونحو ذلك، فكان علماء الأمة يصنفون التصانيف بالأسانيد التي تنقل الأخبار والآثار عن الصحابة أو عن التابعين أو عن تبع التابعين، وكان منهم طائفة يعني من سلف هذه الأمة من كان يكره التصنيف كالإمام أحمد ونحوه، بل إن منهم من دفن كتبه رغبة في بقاء الصلة لما كان عليه الصحابة أقوالهم وهديهم واجتهاداتهم ونحو ذلك.

المسألة التي تليها وهي (أنهم لا يقبلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم كقوله (قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) [البقرة:91].) هذه قالها اليهود.

(أنهم لا يقبلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم)، قال تعالى (قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) يعني اليهود قالوا (نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ) [البقرة:91]، اليهود قالوا لا نؤمن إلا بما أنزل علينا، كانت هذه حجتهم، وكان ذلك برهانا، (نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) أما ما وراءه فلا نؤمن به، فلما كان أمرهم كذلك، كان مما يحتج به عليهم أنه قد جاء في التوراة وصف النبي عليه الصلاة

والسلام، هذا هو الذي أنزل عليهم، لذلك سيأتي في المسألة التي تليها أنهم كانوا لا يعلمون ما تقوله طائفتهم؛ يعني أكثرهم لا يعلم ما في كتبهم، يقولون لا نؤمن إلا بما أنزل على طائفتنا ومع ذلك لا يعلمون ما عندهم, فالنبي – صلى الله عليه وسلم – وصف وصفا تاما في التوراة وفي الإنجيل، فحرفوا ذلك الوصف وقالوا لا نؤمن إلا بما أنزل علينا, صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – موجودة، فآمنوا بما أنزل عليكم، فلم يؤمنوا بذلك.

كذلك النصارى بشروا, بشرهم عيسى عليه السلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، بشرهم بنبي يأتي اسمه أحمد وهو منصوص على ذلك في انجيل بَرنابا الموجود المطبوع الآن وهي نسخة نفيسة من الإنجيل ،والنصارى لا يقرون بنسبة ذلك الإنجيل إليهم، وكان قد وجده الشيخ محمد رشيد رضا في أحد المكاتب في إيطاليا ، وجد نسخة منه بلغة أخرى لاتينية، فترجمه إلى العربية وطبعه ،فيه البشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام، لم يؤمنوا بذلك مع أنهم يقولون (نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا).

هؤلاء شاركهم طوائف من هذه الأمة كثيرة، فتجد أنّ عوام أهل المذاهب الفقهية مثلا يقولون لا نؤمن إلا بما جاء في مذهبنا، وهذا كثر في هذه الأمة خاصة في العصور المتأخرة, فتجد أن السائل إذا سأل مفتيا يقول أفتني على مذهب الشافعي, أفتني على مذهب الإمام أحمد, أفتني على مذهب الإمام أبي حنيفة، لم؟ قال: لأني على هذا المذهب. وهذا تجدونه كثيرا في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يأتيه من يسأله، فيقول أفتنا على مذهب الشافعي, أفتنا على مذهب كذا.ولأجل أن هذا كثر في الناس كان في وقت الشيخ رحمه الله بعض المفتين يحفظون كتبا في المذاهب الأربعة فيأتيهم السائل فيقول: أفتنا على المذهب الشافعي. فيفتيهم، يأتي آخر فيقول أفتني على مذهب أبي حنيفة فيفتيه, وهكذا، فكان بعض المفتين في وقت الشيخ وقبله يفتون على المذاهب الأربعة ويعدون أن هذا مفخرة, لم؟ لأن كل طائفة لا تؤمن إلا بما عندها أما عند الآخرين يقولون لا نؤمن به, وهذا لاشك أنه باطل؛ لأن الواجب على المفتي أن يكون في فتواه مفتيا بما يعتقد أنه الحق, بما يعتقد أنه ينجيه بين يدي الله جل وعلا، مثل ما ذكر منصور البهوتي؛ الشيخ منصور رحمه الله تعالى المصنف للروض المربع وشرح المنتهى ولكشاف القناع ولكتب كثيرة فإنه أُستفتي في مسألة فأفتى فيها بفتوى فقيل له إن هذه الفتوى مخالفة لما ذكرته في كتابك كشاف القناع، فقال: ذاك ذكرنا فيه المذهب، وأما ما أفتيت به فهذا ما أعتقده. وهذا هو الواجب، التصنيف تبين المسائل بأدلتها على مذهب معين للتعليم لتصوير المسائل، هذا هو الطريقة العلمية الصحيحة، أما المفتي فإنه يفتي بما يعلم أنه الحق .

أهل البدع كذلك تجد أن الخارجي مثلا؛ الاباضي مثلا إذا سألته، يقول لك أنا لا أومن إلا بما عليه مشايخنا، حتى إن كانوا على باطل؟

في وقت إمام الدعوة رحمه الله لما قام بالدعوة –يعني سبب ذكر هذه المسألة– ، واجهه هؤلاء، واجهه فقهاء الشافعية مثلا رحمهم الله تعالى بأن قالوا إن متأخري الشافعية قالوا كذا وكذا –مثلا من جواز بعض

المسائل التي كان ينهى عنها والتسمح في بعض البدع التي كان ينهى عنها ونحو ذلك- بعض المسائل يقول هو إنها حرام يقولون نص علماؤنا على الكراهة ونحو ذلك، فعارضه كل ذي مذهب بما عليه مذهب أصحابه فكان رحمه الله تعالى يناقش كلاً بأمرين:

الأول: أنه يذكر ما عليه طائفته -كما سيأتي- أن من كلام الشافعية مثلا من كلام الحنفية، من كلام المالكية، ما هو فيه بيان الحق للمسألة، لكنهم لا يعلمون بما كانت عليه طائفتهم، لا يعلمون بما يقوله أهل مذهبهم.

الثاني: أن يبين المقصود من كلام العلماء إنما هو إفهام الأدلة، فإذا عارض كلام أهل العلم الأدلة فإنه لا يسوغ أن نأخذ بكلامهم ونترك الأدلة الواضحة.

ولهذا ذكر الشيخ في المسألة التي بعدها قال (التاسعة والعشرون أنهم مع ذلك -يعني أنهم لا يقبلون من الحق إلا ما كان عليه طائفتهم- لا يعلمون بما تقوله الطائفة)، هذا الذي حصل فرد عليه طوائف ممن العلماء وهم لا يعلمون ما عليه أقوال أهل مذهبهم، ولهذا اعتنى علماء الدعوة رحمهم الله تعالى في كتبهم بنقل مذاهب العلماء في مسائل التوحيد، بنقل كلام أهل العلم في مسائل التوحيد ،ولهذا تجد أن كتب علماء هذه الدعوة مشحونة بالنقل عن كتب أولئك، لبيان أن أولئك قالوا بمثل ما قاله الشيخ رحمه الله لكن هؤلاء لم يطالعوا أو خفي عليهم، وإنما عقلوا وقبلوا ما عليه متأخروهم، وهذا من المسائل المهمة التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها؛ لأنه قد يأتي بعضهم وينقل نقولا عن بعض أئمة أهل المذهب، مثلا يأتي بعضهم يضاد مسائل العقيدة الصحيحة والتوحيد والنهي عن البدع بكلام بعض الشافعية، بكلام بعض المالكية، بكلام بعض الحنفية، بكلام بعض الحنابلة، طالب العلم أول ما يسمع بهذا الاحتجاج يذهب ويبحث في كتب القوم في كتب الحنابلة في كتب الشافعية في كتب المالكية إلى آخره، المتقدمة، حتى يثبت لهذا الذي احتج بكلام أهل طائفته أن من أهل طائفته من لم يقل بهذا القول وإذا كان أهل الطائفة المخصوصة هذه قد وقعوا في الاختلاف فإذن الحجة في كلام السلف، هذا برهان ضروري يُحتج به أينما ذهبت كن منه على ذكر وبينة.ومن ذلك الاحتجاج على الأشاعرة القبورية بكلام الامام ابو الحسن الأشعري فى كتابه الإبانة ،فهو يخالف ماعليه الأشاعرة اليوم من تأويل للصفات ودعاء الأموات

فإذا نقل لك ناقل عن بعض أهل العلم في تجويز بعض الأشياء التي هي من قبيل البدع، إذا بحث الباحث وجد أنه كتم نقولا كثيرة في النهي عن هذه الأمور فهو نقل عن بعض أهل العلم في تحسين هذه البدع، وكتم نقولا كثيرة، فيها بيان الصواب والحق في هذه المسألة. فى كل مذهب

فإذن إذا أورد عليك مورد وقال أنا لا أقبل إلا بكلام أهل مذهبي، فقل نعم كلام إمام مذهبك واضح فى المسألة وسأنقله لك بتمامه فى موضعه من كتب إمام المذهب ،و بهذا الكلام ستجد من كلام أئمة أهل مذهبه المعين ما يرد به عليهم؛ لأن الحق واضح، وكل مذهب وكل أتباع إمام عندهم من أهل العلم كثير

ممن يقولون في المسائل بما تدل عليه الدلائل من الكتاب والسنة وكلام الأئمة أئمة السلف هذا أولا.

الثاني تناقشه هل الواجب أن لا تقبل إلا ما قالته طائفتك، أم الواجب أن تبحث فيما دل عليه الكتاب والسنة، الجواب: الواجب أن نبحث فيما تُعُبِّدْنَا به وهو الكتاب والسنة، ونفهم الكتاب والسنة بإفهام العلماء لنا؛ لأن العلماء إنما هم واسطة لفهم الكتاب والسنة؛ لأنهم تخصصوا وبذلوا أعمارهم ليلهم ونهارهم وجهدهم في فهم الأدلة من الكتاب والسنة، فوظيفة أهل العلم ليست استقلالية، إنما هي تبعية بإفهام الأدلة من الكتاب والسنة، وهذا الذي فعله الشيخ رحمه الله تعالى مع مخالفيه وأثمر ثمرات يانعة.

إذن هذه المسألة التاسعة والعشرون هي أنهم مع ذلك لا يعلمون بما تقوله الطائفة كما نبه الله عليه بقوله (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)[البقرة:91]. متصلة بما قبلها لأن اليهود كانوا يحتجون بشيء وهم لا يعلمون بما عندهم.

كذلك من ورثهم في هذه الأمة وشابههم يحتجون بما عليه الطائفة وهم يجهلون أن من أهل مذهبهم من بخلاف تلك الأقوال.

المسألة العجيبة (الثلاثون) قال الشيخ رحمه الله (وهي من عجائب آيات الله أنهم لما تركوا وصية الله بالاجتماع وارتكبوا ما نهى الله عنه من الافتراق صار كل حزب بما لديهم فرحين.)

الجماعة جماعة أي رسولٍ كانت واحدة، ثم يبدأ التفرق بعد ذلك، أمر الله جل وعلا كل أتباع رسول بأن يجتمعوا على رسولهم، أما في اليهود والنصارى فظاهر كما قال جل وعلا (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ)[البينة:4]، قال جل وعلا في الآية الأخرى (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)[الشورى:14]، وقال جل وعلا (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)[البقرة:176] وقال جل وعلا (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)[البقرة:213]، وقال جل وعلا (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[آل عمران:105]، وغير ذلك من الآيات والله جل وعلا أمر العباد بالاجتماع، والاجتماع يكون على أساس العلم فكل من أخذ بالعلم الذي ورِثه من الرسول الذي أرسل إليه فإنه يهديه ذلك العلم إلى الاجتماع وترك الاختلاف والتفرق.

هذه المسألة مهمة للغاية لأن الجماعة والاجتماع دائما ترحم به الأمة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أنّ نتيجة الجماعة والاجتماع هو رضا الله جل وعلا ونصره وتأييده ومغفرته وتوفيقه للمجتمعين، ونتيجة الفرقة والاختلاف غضب الله ومقته وضرب قلوب بعضهم ببعض ولعنته وسخطه، هذا نتيجة الجماعة ونتيجة الفرقة.

كل رسول كانت جماعته الأولى مجتمعة ثم بدأ التفرق وهذا ظاهر في الأمم من قبل، قال جل وعلا في بيان حال الأمم السابقة (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)، لم؟ لأنهم تركوا الاجتماع الذي أمروا به وأخذوا

بالتفرق والاختلاف، ما سبب ذلك التفرق و الاختلاف الذي حدث بعد الجماعة الأولى؟ هو ما أخبر الله جل وعلا به قال (فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[المائدة:14]، وقال جل وعلا في الآية الأخرى (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)[الشورى:14].

قال شيخ الإسلام رحمه الله وغيره إن سبب الفرقة اثنان:

الأول: هو ترك العلم وترك حظ ما أمر العباد به.

الثاني: هو البغي.

إذا ترك طائفة العلم الذي أمرت به ونسيت، يعني تركت حظا مما ذكرت به حصل التفرق والبعد عن الجماعة الأولى.

الثاني أن يكون هناك بغي وعدوان من طائفة من هذه الطوائف المفترقة المخالفة عن الجماعة الأولى المجتمعة على الحق والهدى.

بعد ذلك إذا حصل هذان الأمران وهذان السببان وهو **ترك العلم ونسيان حظ ما ذُكِّر به العباد** والثاني هو **البغي بين العباد** يحصل التفرق والاختلاف، وإذا حصل التفرق والاختلاف كان كما أخبر الله جل وعلا بقوله (فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ) نتيجة التفرق والاختلاف العداوة والبغضاء، وهذا كما قال الشيخ رحمه الله: وهي من عجائب آيات الله أنهم لما تركوا وصية الله بالاجتماع وارتكبوا ما نهى الله عنه من الافتراق، صار كل حزب بما لديهم فرحين.

فإذن فرح كل حزب بما لديه نعمة أو عذاب ؟هو عذاب لأنه لم يجعلهم الله جل وعلا فرحين بما هم عليه إلا لما خالفوا وصية الله جل وعلا بالاجتماع وارتكبوا ما نهى الله عنه من الافتراق.

فهذه عقوبة، إذا وجدت الفرق والطوائف كل فرقة فرحة بما عندها ممن خالفوا وتركوا الجماعة الأولى تعلم أن هذا من العذاب الذي عذبوا به لأنهم تركوا وصية الله بالاجتماع وأخذوا بالتفرق والاختلاف.

هذا حاصل في هذه الأمة من أول ما ظهرت الخوارج وهم لما خالفوا وصية الله بالاجتماع، وأخذوا بالتفرق والاختلاف ونسو حظا مما ذكروا به وتركوا العلم الذي أنزل عليهم، صاروا فرحين بما عندهم حتى إن الخارجي يكون أشجع الناس؛ يعني أشجع الناس في وقته وأقواهم مدافعة عما هو عليه من الباطل، لم؟ لأنه فرح به أشد الفرح، خالفوا الصحابة وقاتلوا الصحابة، وذلك لأنهم فرحون بما هم عليه وأصل ضلالهم كما هو معلوم مسألة تحكيم القرآن يعني الأخذ بظاهر قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ)[المائدة44] فكفروا الصحابة وتركوا العلم الذي كان عند الصحابة واعتزوا بآرائهم فصاروا فرحين بما عندهم.

كذلك المرجئة أول ما ظهرت كان لها رأي ثم بعد ذلك صارت فرحة بما عندها لأنها تركت ما أمر الله به من الاجتماع، وأخذت بالقول الذي ليس عليه الجماعة الأولى.

ولهذا من أراد النجاة فإنما السبيل بالأخذ بوصية الله بالاجتماع، وهذه ذكرها الشيخ رحمه الله في أول الكلام في المسألة الثانية والثالثة، وهنا يريد أن عقوبة الافتراق أن يكون المرء فرحا بما هو عليه من الباطل، هذا من عقوبة الافتراق، فأول ما يخالف يكون عنده تردد ويكون عنده نوع من عدم الثبات ما هو عليه، حتى يستمرئ المخالفة ويستمرئ التفرق، **فيعاقبه الله جل وعلا بفرحه بما عليه** حتى يكون من أهل التفرق والاختلاف والعياذ بالله، وهذه المسألة كما ذكر الشيخ رحمه الله أنها من عجائب آيات الله؛ لأنها عقوبة لا يشعر بها إلا المتيقنون. اسأل الله جل وعلا أن يبصرني بالحق والهدى،

الْحَادِيَةُ وَالثَّلاثُونَ – وَهِيَ مِنْ عَجَائِبِ اللهِ أَيْضًا – مُعَادَاتُهُمُ الدِّين، الَّذِي التَسَبُوا إِلَيْهِ، غَايَةَ الْعَدَاوَةِ، وَمَحَبَّتُهُمْ دِينَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عَادَوْهُمْ وَعَادَوْا نَبِيَّهُمْ وَفِيْتَهُمْ غَايَةَ الْمَحَبَّةِ، كَمَا فَعَلُوا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا أَتَاهُمْ بِدِينِ مُوسَى، وَاتَّبَعُوا كُتُبَ السَّحْرِ، وَهِيَ مِنْ دِينِ آلِ فِرْعَوْنَ. وكذلك من جاهليتهم **تنْزِيهُ المَخْلوقِ عمَّا نَسَبوه لِلخالِقِ مثل**: تَنزيهِ أحبارِهِم عَنِ الوَلَدِ والزوجة لأنهم يَقولونَ: إنَّ الرَّاغِبينَ في استحصالِ الكَمالاتِ كالرُّهبانِ وأضْرابِهِم يَترفَّعونَ عَن أنْ يَتَدَنَّسوا بِدَناءَةِ التَّمتُّعِ بِالنِّساءِ، اقتِداءً بِالمسيحِ عليه السلام، فانْظُرْ إلى سَخافةِ العُقولِ وما قادَهُم إليه ضَلالُهُم حَتىَّ اعترضوا على سَيِّدنا ومولانا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم في زَواجِهِ. وما أحْسَنَ ما قالَ الفاروقِيُّ (عبد الباقي العمري من شعراء العراق في القرن الثالث عشر الهجري.) ردا على بعضِ أحبارِ النَّصارَى بقوله:

قل لِلفرِسْنَلِ قُدْوَةِ الرُّهبانِ ...الجائليق البِتْرِكِ الرَّبَّاني

أنتَ الذي زَعَمَ الزَّواجَ نَقيصةً ...مِمَّنْ حَماهُ الله عَنْ نُقْصانِ

ونَسيت تَزْويجَ الإلهِ بِمَرْيَم ...في زَعْمِ كُلِّ مُثَلِّثٍ نَصْراني

ومَن جَعَلَ منَ العَرَبِ الملائكةَ بناتِ الله، كانَ يأْنَفُ مِنْهُنَّ، وسَنَّ وَأْدَهُنَّ وَقَتْلَهُنَّ، وَنَسَبوا لِلَّهِ ما يَكرهونَ. والمقصودُ أنَّ هذهِ المقالاتِ وأشباهَها مَنْشَؤها الجهلُ بِما جاءَت بِهِ الرُّسُلُ، وَعَدَمُ تَحْكيمِ العَقْلِ، وإلا فأهلُ البصائرِ لا يَتَطَرَّقُ إليهم هذا الخَلَلُ، والله المَوَفِّقُ

ومن الجاهلية نسْبَة النَّقائصِ إليه سبحانَه كالولَدِ والحاجَةِ. فإنَّ النَّصارى قالوا: المَسِيحُ ابنُ الله، وطائفة مِن العَرَب قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وقوم مِن الفَلاسِفَةِ قالوا بِتوليدِ العُقولِ، وقوم مِن اليَهودَ قالوا: العُزَيْرُ ابنُ الله، إلى غيرِ ذلِكَ.

وقد نَزهَ الله نَفْسَه عن كُل ذلِكَ ونَفاه عنه بقوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ – اللَّهُ الصَّمَدُ – لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ – وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1 – 4] وبقوله [الصافات: 151- 152] : {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ

إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ – وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الصافات: 151 – 152] وقوله [الأنعام: 100-101] : {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ – بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام: 100 – 101] وهذا يَعُمُّ جميعَ الأنواعِ التي تُذْكَرُ في هذا البابِ عن بعضِ الأمَمِ، كما أنَّ ما نفاه من اتِّخاذِ الوَلَدِ يَعُمُّ أيْضًا جميعَ أنواعِ الاتِّخاذاتِ، لا اصطفاؤُه. كما قال تعالى [المائدة: 18] : {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة: 18] قالَ السُّدِّيُّ: قالوا: إنَّ الله تعالى أوْحى إلى إسرائيلَ إنّ وَلَدَكَ بِكْرِي مِن الوَلَدِ فَأُدْخِلُهُمُ النَّارَ، فَيَكونونَ فيها أربعينَ يومًا حَتَّى تُطَهِّرَهم وتأكلَ خطاياهم، ثم ينادي منادي: أخْرِجوا كلَّ مَخْتونٍ مِن بني إسرائيل.
وقدْ قال الله تَعالى [المؤمنون: 91] : {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ} [المؤمنون: 91] وقال [الإسراء: 111] : {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ} [الإسراء: 111] وقال تَعالى [الفرقان: 1- 2] : {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا – الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 1 – 2] {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ – لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ – يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ – وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: 26 – 29] وقال سبحانه وتعالى [النحل: 51-57] {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ – وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا} [النحل: 51 – 52] إلى قوله {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا} [النحل: 56] إلى قوله: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} [النحل: 57]

وقال الله تَعالى [الإسراء: 39-42] : {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا – أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا – وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا – قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} [الإسراء: 39 – 42]

وقال [الصافات: 149-163] {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ – أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ – أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ – وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ – أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ – مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ – أَفَلَا تَذَكَّرُونَ – أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ – فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ – وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ – سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ – إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ

الْمُخْلَصِينَ – فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ – مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ – إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} [الصافات: 149 – 163] وقال [النجم: 19 –27]{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى – وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى – أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى – تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى – إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: 19 – 23] إلى قوله: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى} [النجم: 27] وقال تعالى [الزخرف: 15] {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} [الزخرف: 15] قال بعضُ المفسِّرينَ: (جُزءًا) ، أيْ: نَصيبًا وبعضًا. وقال بعضُهم: جعلوا لِلَّهِ نصيبًا من الولدِ. وعن قَتادةَ ومقاتل: عدلاً. وكلا القولين صحيح، فإنَّهم يَجْعَلون له وَلَدًا، والولَدُ يُشْبِهُ أباهُ.ولهذا قال [الزخرف: 17] {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا} [الزخرف: 17] وَهُوَ كَظِيمٌ أيْ البَنات، كما قالَ في الآيَة الأخرى [النحل: 58] {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [النحل: 58] فَقَد جَعَلوها لِلرَّحْمنِ مَثَلا، وَجَعَلوا لَهُ مِن عِبادِهِ جُزْءًا، فَإِنَّ الولدَ جُزء مِنَ الوالِدِ، قالَ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّما فاطِمَةُ بضعَةٌ مِنّي. »وقولُهُ [الأنعام: 100] : {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 100] قالَ الكَلْبِيُّ: "نَزَلَتْ في الزَّنادِقَة، قالوا: إنَّ الله وإبليسَ شَريكانِ، فالله خالقُ النُّورِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ، وإبليسُ خالقُ الظلْمَةِ والسِّباعِ والحَيَّاتِ والعَقارِبِ. وَأمَّا قولُه: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [الصافات: 158] فَقيلَ: هو قولُهُمْ: الملائكةُ بناتُ الله، وسمى الملائكة جِنًّا؛ لاختِفائِهِم عَن الأبصارِ، وهو قولُ مُجاهِدٍ وقتادة.وقيل: قالوا لِحَيٍّ مِن الملائكةِ يُقالُ لهم: الجِنُّ، ومنهم إبليسُ: هم بناتُ الله. وَقالَ الكَلْبِيُّ: قالوا لَعَنهمُ الله: بَلْ بُذور يَخْرُجُ مِنها الملائكةُ. وقولُهُ: {وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 100] قالَ بعضُ المفسِّرينَ: هُم كُفَّارُ العَرَبِ، قالوا: الملائكةُ والأصنامُ بَناتُ الله، واليَهودُ قالوا: عُزير ابنُ الله، والذين كانوا يقولونَ مِن العَرَبِ: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وَمَا نُقِلَ عَنهم مِن أنَّه صاهَرَ الجِنَّ، فوَلَدَتْ له الملائكةَ، فَقَد نَفاه عنه بامْتِناعِ الصَّاحِبَةِ، وبامتناعِ أنْ يكونَ منه جُزْءٌ، فإنّه صَمَدٌ. وقولُه: {وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ} [الأنعام: 101] وَهذَا لأنَّ الولادةَ لا تكونُ إلا مِن أصْلَين، سَواءٌ في ذلِكَ تولُّدُ الأعيانِ – التي تُسَمَّى الجواهِرَ– وتولد الأعراض والصِّفاتِ، بَلْ وَلَا يَكونُ تولُّد الأعْيانِ إلا بانفصال جُزْءٍ مِن الولِدِ، فإذا امتنعَ أنْ تكونَ لَه صاحِبةٌ، امْتنعَ أنْ يَكونَ لَه وَلَدٌ، وقد عَلِموا كُلُّهُم أنْ لا صاحِبَةَ له لا مِن الملائكةِ، ولا مِن الجِنّ، ولا مِنَ الإِنْسِ، فلم يَقُلْ أحَدٌ مِنْهُم إنَّ له صاحِبَةً؛ فَلِهذا احْتجَّ بِذلِكَ عَلَيهم.

وما حُكِيَ عَن بعضِ كُفَّارِ العَرَبِ أنَهُ صاهَرَ الجِنَّ، فهذا فيه نَظَرٌ. وذلِكَ إنْ كانَ قَدْ قيلَ فهوَ مِمَّا يُعْلَمُ انْتِفاؤهُ مِن وُجوهٍ كَثيرةٍ، وكذلك ما قالَتْهُ النَّصارى مِن أنَّ المسيحَ ابنُ الله وما قالَه طائفةٌ مِنَ اليهودِ أنَّ العُزَيْرَ ابنُ الله، فإنَّه قد نَفاه سُبحانه بِهذا وَهذا. وتَمامُ الكَلامِ في هذا المقامِ في كتابِ (الجَوابِ الصَّحيحِ

لِمَنْ بَدَّل دِيْنَ المسيح) و (تَفْسير سورةِ الإخلاص) وَغيرِها مِن كُتُبِ شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ قدس الله روحه.

الثَّانِيَةُ وَالثَّلاثُونَ: كُفْرُهُمْ بِالْحَقِّ إِذَا كَانَ مَعَ مَنْ لَا يَهْوَوْنَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النصارى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكتب﴾ (البقرة: ١١٣).

أَنَّ هذه المسائل، مَسائِلُ مُهِمَّةٌ، وذلك لأنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم خالَفَ فيها أهلَ الجَاهِلِيَّةِ، فكانَ هَديه مُخالِفًا لهدي أهل الجاهلية، كانَ هَديه وطريقته وسياسته مُخالِفةً ومباينَةٌ لِما كان عليه أهل الجاهلية، وما كان عليه هو الدِّينُ الَّذي يَجِبُ الأخذُ به، وما كان عليه أهل الجاهلية هو الذي يَجِبُ أنْ يُرَدُّ ويُرفَضَ.

وقد بين عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أنَّ هذه الأمة تدخُلُ فيها سُنَنُ أهل الجاهلية، وتدخُلُ فِيها طَرائِقُ أهل الجاهلية، وذلك في قوله فيما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَينِ»: «لتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قالوا: يا رَسولَ اللهِ: اليَهُودُ والنَّصارى؟!؛ قَالَ: «نعم» وفي لفظ، قالوا: يا رسولَ اللهِ: فَارِسُ والرُّوم!؟ قَالَ: «فَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ». واليهود والنصارى عندهم أنواع من الجاهِلِيَّاتِ، وقد ذَكَرَ الشَّيخُ رحمه الله تعالى في هذه المسائل: مَسائل كَثيرَةً خالف فيها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم اليهود والنصارى.

وأعم منه حديث ابن عباس الذي رواه البخارِيُّ فِي الصَّحِيحِ وَرَوَاهُ غَيْرُهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ : وَذَكَرَ مِنهم: «وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، الَّذِي يَبْتَغِي في الإسلامِ سُنَّةَ الجاهلية بأن يُدخل في أهل الإسلامِ سُنَنا وأمورًا مِمَّا كان عليه أهلُ الجَاهِلِيَّةِ، مُجَانِبًا بذلك الهَديَ الكامل والدِّينَ الَّذي ليس فيه نقص الذي جاء به النَّبِيُّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، فَإِنَّ هَذَا مِن أَبغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ، أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ ، وذَكَرَ مِنهم: «وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ». فَمَن أَدخَلَ فِي الإسلام برأيه أو بهواه أو بِكَيْدِهِ شيئًا مِن سُنَنِ الجاهِلِيَّةِ ونَشَرَها في المسلمين فهو من أبغض الرجال عند الله جل وعلا، وهذا لا شَكَّ يُفيدُ التَّحذير الشَّديد من هذا الأمر، وأنَّ على المَرْءِ أَنْ يَكُونَ حَرِيصًا أَشَدَّ الحرص على صَد بابِ دُخولِ سُنَنِ الجاهِلِيَّةِ فِي المسلِمينَ؛ سَواءٌ بِعَمَلِه، أو رأى مَن يُدخِلُ ذلك في المسلِمينَ فإنَّه ينهى عن ذلك، أو رَأى مَن يَعْمَلُ بتلكَ الأُمورِ فَإِنَّه ينهى عن ذلك.

هذه مُقدَّمَةٌ وقد أُوضحت فِي مُقَدِّمَةِ الكِتابِ حينما شرحنا ذلك، ولكنْ بَيَانُها فِي هَذَا المقامِ مُهِم حَتَّى يلحظ طَالِبُ العِلمِ أهمية هذه المسائل، ويَلْحَظَ عُلُو قَدرِها وَسُموقَ مَكَانَتِها.

المَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالثَّلاثُونَ)، ذَكَرَ فيها أنَّ أهل الجاهِليَّةِ كرهوا الدِّينَ أو أنكروا الدِّينَ الَّذِي هم أحرى به، وقبلوا دينَ الَّذين يُعادونَهم وهم أهل الشرك والكفر، ويعني بذلك أهل الكِتابِ ويَخُصُّ مِنهم اليهود.

ونَصُّه يَقُولُ: المِسَأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالثَّلاثُونَ وَهِيَ مِنْ عَجَائِبِ اللهِ أَيْضًا)، يعني مِن عَجَائِبِ آيَاتِ اللَّهِ التي عاقَبَ بها أولئك الذين لم يستجيبوا لما جاءَ به رَسولُهم؛ بل تنكبوا وأَعرَضوا عن بَعضِ الحَقِّ الَّذِي جاءَ به رسولهم، والذي يُعرِضُ عن الحَقِّ بعد مَعرِفَتِهِ فَإِنَّه يُعاقب، كما قالَ جَلَّ وعلا: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَت أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِهِمْ عَن سَبِيلِ أم وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوْا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَلَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) النساء)ومِثلُها قوله تعالى في سورة المائدة»: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [المائدة: ١٤].فكانت الفُرقَةُ فيهم عقابًا على ما تركوا – فَنَسُوا) بمعنى التَّرْكِ – مِن أَمرِ اللَّهِ جَلَّ وعلا. قال هنا: (مُعَادَاتُهُمُ الدِّينَ)، المِسأَلَةُ **الْحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: مُعَادَاتُهُمُ الدِّينَ، الَّذِي انتسبوا إِلَيْهِ، غَايَةَ الْعَدَاوَةِ، وَمَحَبَّتُهُمْ دِينَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عَادَوْهُمْ وَعَادُوا نَبِيَّهُمْ كَمَا فَعَلُوا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا أَتَاهُمْ بِدِينِ مُوسَى، وَاتَّبَعُوا كُتُبَ السِّحْرِ، وَهِيَ مِنْ دِينِ آلِ فِرْعَوْنَ)** هذه المسألة في اليهود، وهي أنَّ اليهودَ لما جاءَ هم النبي عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِالدِّينِ الَّذِي جَاءَ به موسى؛ لأنَّ كُلَّ الأنبياءِ يَأْتُونَ بدين واحد وهو الإسلام؛ يعني الإسلام العام، تَختَلِفُ الشَّرائعُ ولكن الدين العام واحِدٌ وهو الإسلام؛ الاستسلام الله بالتوحيد والانقياد له بالطَّاعَةِ والبَراءَةُ مِن الشَّركِ وأهل ،هذا الإسلام جاء به موسى لليهود، وأخذوه، وتبعوا موسى عليه، ولما جاءَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَدعوهم إلى ما دَعاهُم إليه موسى نبذوا ذلك وعادَوْا هذا الدِّينَ الَّذي هو دين الإسلام الذي جاء به النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام؛ وهو الذي جاء به موسى عليه السَّلام، وهو الذي جاء به عيسى، وهو الذي جاءَ به إبراهيم وهو الَّذِي جَاءَ به نوحٌ، كُلُّ المرسَلينَ أَتَوْا بهذا الدين، كما قال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الخَسِرِينَ ((0)]آل عمران.[

لما أتاهُم النَّبِيُّ عليه الصلاة والسَّلامُ بِمِثلِ ما جاءَهم به موسى من التوحيدِ وَنَبذِ الشِّركِ والإقرارِ اللهِ بالوحدانية، عادوا هذا الدِّينَ غاية العداوة، عادوا النبي ، وعادوا دين الإسلام غايَةِ العَداوَةِ، ومعلوم مكرُ اليهود بالنبي عليه الصلاة والسَّلامُ وتظاهرُهم مع المشركين في ذلك، وقد قال جل وعلا في وَصفِ حالهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة: ٨٢]، فاجتمع المشركونَ مع اليَهُودِ فِي بُغضِ وَعَداوَةِ دينِ الإسلامِ وَبغضِ المؤمنينَ.

هذا عَجَبٌ إِذْ أَنَّهُم مُنتَسبونَ إلى موسى ومع هذا عادوا النَّبي الذي هو أخٌ لموسى جاءَ بمثل ما جاء به موسى ومِن العَجَائِبِ أيضًا أَنَّهم أَحَبُّوا دينَ الكُفَّارِ الَّذِينَ عَادَوْهِم وَعادَوْا نَبِيَّهم.اليهودُ أحبوا دين فرعون، وأحبوا دين أتباع فرعونَ ، ومحبّتهم لذلك هو أخذهم بالسحر، فإنَّهم في زَمَنِ النَّبي صلى الله عليه وسلم كانوا يَتَّبِعونَ ما تتلو الشَّياطين من كتب السحر، ونحو ذلكَ مِمَّا يُخْبِرُ بِهِ الكَهَنَةُ، وَمَا حرفوه من دين الله، كما قال جل وعلا في وصفهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَن وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السحر ﴾ [البقرة: ١٠٢].والسِّحرُ هُوَ الَّذِي كَانَ عِندَ فِرعَونَ، فَفِرعَونُ كان دينه السحر، وكانَ السَّحَرَةُ حَولَهُ، وَكَانَ إِنَّمَا يَأْتَمِرُ بأمرهم، ويَأْخُذُ بما يقولون، بل كانوا هم جنده وكانوا هم قوته. فاليهودُ يَعلَمونَ أَنَّ فِرْعَونَ وجُندَه إنَّما كانوا هم السَّحَرَةَ، قُوَّةُ فِرعَونَ ودينُ فِرْعَونَ السَّحر، وكذلك جند فرعون هم السَّحَرَةُ، وقد بيّن جلّ وعلا أنَّ جُندَ فِرعَونَ هم السَّحَرَةُ ، وأتى هو وجنوده ليغلبوا موسى ومن معه. فألقى الله جل وعلا القُوَّةَ على موسى بما آتاه من المعجِزَةِ والآيَةِ والقُرآنِ والبُرهانِ وأَضْعَفَ أولئكَ لأنهم كانوا على باطل. اليهودُ اتَّبعوا السحر وهو دين أعدائهم؛ دينُ فِرعَونَ الَّذي أخرجهم من ديارهم وأضَرَّ بهم وفتنهم، يُقتل أبناءهم ويستحيي نِساءَهم، ومع ذلكَ آلَ الزَّمَنُ وآل الأمر بهم حَتَّى أَخَذوا هذا الدِّينَ. لما جَاءَ النَّبِيُّ ، يَقولُ: (مِن العَجائِبِ، مِن عَجائِبِ العُقوبات أو مِن عَجائِبِ الانتكاسات أنَّهم تركوا الدِّينَ الذي جاء به نبيهم وهو دين الإسلام العام: التَّوحيد ونبذّ الشِّركِ وإفراد الله جل وعلا بالعبادة، وأخذوا بما قال به أعداؤهم ودانوا بما دان به أعداؤهم؛ وهُم فِرْعَونُ وَجُندُ فِرْعَونَ.
ولهذا قال الشيخ: (كَمَا فَعَلُوا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا أَتَاهُمْ بِدِينِ مُوسَىٰ فَإِنَّهُم عادوا النبي عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أشدَّ العَداوَةِ، (وَاتَّبَعُوا كُتُبَ السَّحْرِ، وَهِيَ مِنْ دِينِ آلِ فِرْعَوْنَ)، وهذا ظَاهِرُ، هذه المسألة مبينة في الكتاب وفي السُّنَّةِ وفي السَّيرَةِ، بما فعل اليهودُ وبما آل بهم الأمرُ. وهذه الخصلة من خصال أهل الجاهلية من الكتابينَ دَخلَت في هذه الأُمَّةِ بعد حينٍ، بعد قرونٍ، فَمِن العَجَبِ أنَّ هذه الأُمَّةَ مع أنَّ أهلها، مع أنَّ أفراد هذه الأمة، ومع أنَّ المنتَسِبِينَ إِلَى العِلمِ مِن هذه الأُمَّةِ يَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم خَالَفَ المشركِين، وخالف اليهود، وخالَفَ النَّصارى، وخالف الأديان التي كانت في زمنه، من دين اليونان وهو الفَلسَفَةُ والوَثَنِيَّة، وخالَفَ دينَ أهلِ المشْرِقِ وأنواع الفَلسَفَاتِ الَّتِي فِي شَرقِ الأرض، وكذلك أنواعُ الفَلسَفَةِ الَّتِي فِي الغَربِ. وكُلُّ هذه مبنية على تحكيم العقول، وعَدَم الاستسلام للوحي، عُلَمَاءُ هذه الأُمَّةِ يَعْلَمُونَ هذا؛ ولكن دَخَلَ في هذه الأُمَّةِ مِثْلَ مَا دَخَلَ على اليهود؛ بل إئتسوا باليهود في هذه الخَصْلَةِ الجَاهِلِيَّةِ وهي أَنَّهم أخذوا الدِّينَ الَّذِي كَانَ نَبِيُّهم وهو مُحَمَّدٌ يُخالِفُ أهله ويُضلل أهله، فصار في هذه الأُمَّةِ أَجناس من الأديانِ التي خالفها النبي صلى الله عليه وسلم فإذا نظرت إلى أصل الأصول وهو التَّوحيد؛ توحيد العِبادَةِ؛ توحيد الألوهِيَّةِ وَجَدتَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَتى بالدَّعوَةِ إِلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ جَلَّ وعلا في أنواع العِبادَةِ، في أن لا يُدعى إلَّا اللَّهُ جَلَّ وعلا دُعَاءَ المسأَلَةِ، بِأَنْ لا يُعبَدَ بأي نوع من أنواع العِبادَةِ إلَّا اللهُ جَلَّ وعلا.النبي أتى المشركين وهم متفرّقون في دينهم يَعبُدونَ

آلِهَةً مُخْتَلِفَةً، أتاهم بكَلِمَةِ التَّوحيد (لا إلهَ إلَّا اللهُ) يعني لا مَعبود بحَقٍّ إلَّا اللهُ جَلَّ وعلا، فبين لهم التوحيد توحيد الإلَهِيَّةِ، وبَيَّنَ لَهُم أَنَّ مَن خَالَفَ ذلكَ وسَلَكَ غَيرَ سَبيل توحيد الله جل وعلا بالعِبادَةِ أَنَّه مُشرِك. في هذه الأُمَّةِ قالوا: إنَّ هذا التَّوحيد لا يلزمُ، وإنَّما الَّذي يَلزَمُ هو توحيد الله جل وعلا بأفعاله، يعني توحيد الربوبية، فقالوا: إنَّ العبدَ يَصِلُ إلى الإيمان إذا نَظَرَ في الملكوت أو قَصَدَ النَّظَرَ، فَإِذَا نَظَرَ وَاسْتَدَلَّ بهذا الملكوت على أنَّ الله جل وعلا هو المختَرِعُ لهذا الكون وهو المبدع له وهو الخَالِقُ له، فثبت له الإيمان ومَن قَالَ بما سَبَقَ وهو أنَّ الابتلاء إنَّما حَصَلَ في توحيد الإلَهِيَّةِ فقد عاداهُ أولئكَ أَشَدَّ المعاداة، فما أشبه تلك اللَّيْلَةَ بما قبلها من الليالي، مِن جِنسِ مَا حَصَلَ مِن اليَهُودِ. فالفَلَاسِفَةُ وعُلَماءُ الكَلامِ نبذوا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مِن توحيدِ الإلَهِيَّةِ وقالوا: إنَّ التَّوحيد المطلوب هو توحيد الربوبية، وأنَّ فِعل المكلَّف إذا بَلَغَ يَدخُلُ في الإسلام بأنْ يَعْمدَ إِلَى النَّظَرِ، أَو يَنظُرَ فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ والأَرض فيستَدِلَّ بذلك على الوحدانية فيصيرُ مُوحْدًا شَاهِدًا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَن قَالَ بِخِلافِ هَذا القَولِ رَمَوْهُ وَعَادَوْهُ وَاعتَبَرُوهُ مُخَالِفًا لذلك. كذلك في علم توحيد الأسماء والصفاتِ جَعَلُوا الدِّينَ الحَقِّ الذي التزموه هو دينَ المشْرِكِينَ، الَّذِينَ يُنكِرونَ أَسماء الله جل وعلا، المشرِكونَ الَّذِين عادوا نَبِيَّهم ، فمُشرِكو الجاهلية كانوا يُلحدون في أسماء الله، كما قال جل وعلا في سورة [الأعراف: 180] : {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: 180] تَفسيرُ هذِهِ الآية: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الأعراف: 180] تنبيه للمُؤمنين على كَيْفِيَّةِ ذِكْرِهِ تَعَالى، وَكَيْفِيّة المعامَلَةِ مَعَ المخِلّينَ بذلِكَ الغافِلينَ عَنه سُبحانَه، وَعَمَّا يَليقُ بِشأنِه، إثْرَ بَيانِ غَفْلَتِهِمُ التَّامَّة، وَضَلالَتِهمُ الطَّامَّة.

{فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: 180] إمَّا مِنَ الدَّعْوَةِ بِمَعْنى التّسمِيَةِ، كَقَولِهِم: دَعَوْتُهُ زَيدًا، أوْ يزيد أيْ: سَمَّيْتُهُ، أو الدُّعاءِ بِمَعْنى النِّداءِ، كَقَولِهِم: دَعْوتُ زيدًا، أيْ: نادَيْتُهُ.

{وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف: 180] أيْ يَميلونَ وَيَنْحَرِفون فيها عَنِ الحَقِّ إلى الباطِلِ، يُقال: أَلْحَدَ، إذا مال عَنِ القَصْدِ والاستِقامَةِ، ومنه لَحْدُ القَبْرِ لِكَونِهِ في جانِبِهِ بِخلافِ الضَّريحِ، فإنَّهُ في وَسَطِهِ.

والإلحادُ في أسمائِهِ سبحانَه أنْ يُسَمَّى بِلا تَوْقيفٍ فيه، أوْ بما يُوهِمُ مَعنًى فاسِدًا، كما في قولِ أهلِ البَدْوِ: يا أبا المكارِمِ، يا أبيضَ الوجْهِ، يا سَخِيُّ، ونحو ذلك، فالمرادُ بِتَرْكِ المأمورِ بِهِ الاجتنابُ عن ذلك، وأسمائِهِ ما أَطْلَقوهُ عَلَيه تَعالى وَسَمَّوهُ به على زَعَمِهِم، لا أسماؤه تعالى حَقيقَةً، وعلى ذلك يَحْمَل تَرْكُ الإضمارِ، بأنْ يُقالَ: يُلحِدون بِها. وَقالَ تَعالى: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [الرعد: 30] وهذِهِ الآيةُ في سورةِ [الرعد: 30] عن قَتادَةَ وابنِ جُرَيْجٍ ومُقاتِلٍ أنَّ الآية نَزَلَتْ في مُشْرِكي مَكَّةَ

لَمَّا رَأوا كِتابَ الصُّلْحِ يومَ الحُدَيْبِيَةِ وقد كَتَبَ فيه عَليٌّ رضي الله عنه: " بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "، فَقالَ سُهيلُ بنُ عَمْرٍو: ما نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إلا مُسَيْلِمَةَ.

ومِنهم مَن قال: سَمِعَ أبو جَهْلٍ قَولَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا الله يا رحمن» ، فقال: إنَّ محمَّدًا يَنهانا عَن عبادةِ الآلهةِ وهو يَدعو إلهينِ، فَنَزَلَتْ وَعَن بعضِهِم أنَّه لَمَّا قِيلَ لِكُفَّارِ قُرِيشٍ: اسجدوا للرحمن قالوا: وَمَا الرَّحمَنُ، فَنَزَلَتْ، وقيلَ غَيْرُ ذلِكَ مِمَّا يَطولُ. وَقَالَ تَعالى: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ - وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: 21 - 23] من سورة حم [السجدة: 21-23] ، وفي هذِهِ الآية إخبارٌ أنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ كانوا يُلْحِدونَ في صِفاتِهِ، كما كانوا يُلحِدونَ في أسمائِهِ تَعالى. أخرَجَ أحمدُ والبُخاريُّ ومُسلِم والتِرمذيُّ والنَّسائيُّ وجَماعةٌ عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: كُنتُ مُسْتَنِدًا بأستارِ الكعبةِ، فجاءَ ثلاثةُ نَفَرٍ- قُرَشيٌّ وثَقَفيَّانِ، أو ثَقَفِي وقُرَشيانِ- كثيرٌ لحمُ بُطونِهم؛ قَليلٌ عفة قُلوبِهِم، فَتكَلَّموا بكلامٍ لَمْ أسْمَعْهُ، فقال أحَدُهُم: أتَرَونَ الله يَسمعُ كلامَنا هذا؟ فَقَال الآخَرُ: إذا رَفَعْنا أصْواتَنا يَسْمَعُهُ، وإذا لم نَرْفعْ لم يَسْمَعْ، فقال الآخَرُ: إنْ سَمِعَ منه شَيئًا سَمِعَهُ كُلَّهُ. قال: فَذَكَرْتُ ذلِكَ للنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَأنْزَلَ الله تَعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ - وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: 22 - 23] فهذا هو الإلحادُ في الصِّفاتِ. وأنتَ تَعْلَمُ أنَّ ما عَلَيْهِ أكثرُ المتكَلِّمينَ المسلِمينَ مِنَ الإلحادِ في الأسماءِ والصِّفاتِ فَوْقَ ما كانَ عَلَيه أهل الجاهِلِيَّةِ، فَسَمَّو الله بأسماءٍ ما أنزلَ الله بِها مِن سُلطانٍ، ومِنهمِ مَن قالَ: لَيْسَ لِلَّهِ صفات قامتْ بِهِ، ومِنهم مَن قالَ: صِفاتُه لَيسَتْ عَيْنَ ذاتِهِ ولا غيرَهُ، ومِنهم مَن قالَ: إنَّ صفاتِه غيرُهُ، ومِنهم مَن قال: إنَّ الله لم يَتكَلَّمْ بالكُتُبِ التي أنْزَلَها، وَأثْبَتوا لَه الكَلامَ النَّفسيَّ، وأنَه لم يُكَلِّمْ أحدًا مِن رُسُلِهِ، إلى غير ذلك من الإلحادِ الذي حَشَوا به كُتبهُمْ ملؤها مِن الهَذَيانِ، وظَنُّوا أنَّ الآية مُخْتَصَّةٌ بِأهلِ الجاهِلِيَّةِ، وَمَا دَروا أنَّهُمُ الفَرْدُ الكامِلُ لعُمومِها.

ومَن بَصَّرَه وَنَوَّرَ قَلْبَه، أعْرَضَ عَن أخْذِ عَقائِدِهِ مِن كُتُبِ هؤلاءِ الطوائِفِ، وتَلَقَّى مَعْرِفَةَ إلهِهِ مِن كُتُبِ السَّلَفِ المشْتَمِلَةِ على نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ. (وَلِلَّهِ الأَسماء الحسنى فادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَئِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَئِهِ) بأن يُسَمُّوا اللهَ جَلَّ وعلا بغَيرِ اسمِه، أو بأن يُحَرِّفُوا هذه الأسماء ويُحرفوها ويعدلوا به عن الحَقِّ إلى غيرِهِ، سَلَكوا هذا المسْلَكَ فَنفوْا الصِّفاتِ، ونَفَوْا أسماء الله جل وعلا - أعني بعض الأسماء - وذلكَ مِنهم مُشابَهَةٌ لأولئكَ الَّذِينَ عَادَوْا فالمشركونَ عادوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم الذي أتى بتوحيد الأسماء والصفاتِ الَّذِي أَتَى بَيَانِ مَا يَسْتَحِقُ اللَّهُ جَلَّ وعلا من الأسماء الحسنى والصفاتِ العُلى وأتى الفلاسِفَةُ وأهل الكلام في هذه الأمة، وأخذوا بالإلحاد في أسماء

الله وبتحريف أَسماء الله جل وعلا وصفاته، وبتحريف الكلم عن مواضعه وهو فعلُ المشْرِكِينَ الَّذِينَ عَادَوْا نَبِيَّهم . فَانظُرْ كيفَ أَنَّهُم عَادَوُا الدِّينَ الذي جاء به نبيهم ، وأَحَبُّوا دينَ أهل الجاهلية دينَ المشْرِكِينَ وهو الإلحاد في أسماء الله جل وعلا وتحريفُ الكَلِم عن مواضعه، دين من عادَوا نَبِيَّهم، وهذا مِن جِنسِ فِعل وما حَصَلَ لليهود. كذلك إذا نظرت إلى أهلِ التَّعَبدِ التَّعَبدِ بِالرَّأيِ مِن المتَصَوِّفَةِ وأشباههم، وَجَدَتَ أَنَّهم أخذوا بأصل الإشراكِ الَّذي كان عندَ فَلاسِفَةِ الإسكندرية كما هو معلوم، أفلوطين ومن تبعه، فهؤلاء أَخَذوا بإكمال النَّفْسِ مِن جِهَةِ الفَلسَفَةِ، وإكمال النَّفْسِ مِن جِهَةِ الفَلسَفَةِ بالعقل، وبما يَظُنُّهُ السَّالِكُ لهَذَا السَّبِيلِ مُصلِحًا للنفس، أولئكَ سَلكوا هذا السَّبِيلَ.والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لما أتى بهذه الرسالة العظيمة بدين الإسلام وبهذه الشَّرِيعَةِ كَانَ مِنها السُّبُلُ الَّتِي بها إصلاح النَّفْسِ، وهذا فيه مُخَالَفَةٌ لِما كان عليه أهل الأرضِ جَمِيعًا مِن سُبُلِ إصلاح النَّفْسِ، فأتى طائِفَةٌ في هذه الأمة، وهم الَّذِينَ يُسَمَّونَ بِالمتَصَوِّفَةِ وهم درجاتٌ فأخذوا بسُبُلِ إصلاح النَّفْسِ الَّتِي كانت عندَ فَلاسِفَةِ الاسكندرية؛ من أهل الإشراق، ونبذوا السُّنَّةَ الَّتي فيها إصلاح النَّفْسِ الَّتِي جَاءَ بها النَّبِيُّ ؛ بل وأعظَمُ من ذلك – وهي مِن عَجائِبِ آيَاتِ اللهِ – أَنَّهم جَعَلُوا مَن لم يَسلُك هذا السَّبِيلَ أنَّه ليس من أهل الطريقَةِ المحمودَةِ، فمن لم يَسلُكْ سَبِيلَ التَّصَوُّف عندهم أنَّه لم يُصحح نفسه ؛ بل لاموه وعابوه، وهذا من جنس أفعل أولئك، فهم أَحَبُّوا دينَ المشركِين من الفلاسفة الإشراقيين وعادوا دينَ مُحَمَّدٍ ، عادوا السُّنَّةَ، فَتَجِدُ أَنَّ المتَصَوِّفَةَ يُرمَونَ بالكَلامِ على أهلِ السُّنَّةِ؛ يعني الَّذِينَ يَجْعَلُونَ صَلاحَ النَّفْسِ بالالتزامِ بِالزُّهْدِ المشروع، بإصلاح النَّفْسِ المشروع الذي جاء في الكِتابِ والسُّنَّةِ. وكذلك طائفة أخرى في هذه الأمة دخلت عليهم هذه الخصلَةُ الجَاهِلِيَّةِ، وهم المقَلَّدَةُ، الَّذِينَ لَا يَعرِفُونَ مِنَ الدِّينِ إِلَّا ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، وهم يعلمون أنَّ نَبِيَّهم صلى الله عليه وسلم قال للمُشركِينَ: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوَلَدُكُم مُخبِرًا ومُبلغا لهم قول الله جل وعلا: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾ [سبأ: ٣٧]، وكذلك خبر الله جل وعلا في سورة الزخرف أنَّ المشْرِكِينَ يَرفُضُونَ الحَقَّ الَّذِي جاءت به الرُّسُلُ ويَقولون: إنَّ الحَقِّ مع آباءنا، (إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى أثارِهِم مُقْتَدُونَ) وفِي الآية الأخرى مُهتَدُونَ ، و إنا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ يعني على دينِ وَمِلَّةٍ وَإِنَّا عَلَى أثَارِهِم مقْتَدُونَ. فهذه جاء النبي صلى الله عليه وسلم بإبطالها، وبيان أنَّها من الباطِلِ الَّذي يَجِبُ صَدُّه، ويَجِبُ وَصَدَّ أبوابه، ومع ذلك أتى في هذه الأُمَّةِ مِن العَجائِبِ أنَّ أولئكَ المقَلَّدَةَ إذا أتوا بالحَقِّ، إذا أتوا بالسُّنَّةِ، إذا أُتوا بنصوص القُرآنِ قالوا: ﴿وَإِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى أَثَرِهِم مُقْتَدُونَ) وقد نظر لهم الشوكاني في كتابه «فَتحُ القَديرُ» في التفسير عند هذه الآيةِ بِكَلامٍ مَتِينٍ، نَظَرَ مُشَابَهَةً المقلدة في هذه الأمة بالمشركين، وهذا مِن العَجَبِ.ومِن العَجَبِ الَّذِي يَزِيدُ على ما سَبَقَ أَنهم جَعَلُوا مَن وافَقَ النبي صلى الله عليه وسلم في إنكار الاقتداء بالآباء والأجداد على غَيرِ بَيِّنَةٍ وبُرهان جَعَلُوا ذلك باطلا، وجَعَلُوا ما عليه هم الحَقَّ، وَالَّذِي اعتقدوه وهو أنْ يُتابعوا الآبَاءَ والأجداد دونَ بَيِّنَةٍ ولا بُرهان، هو دين المشْرِكِينَ الَّذِينَ عَادَوا نَبِيَّهم. فترَى أَنَّ المقَلَّدَةَ الَّذِينَ يَأخُذُونَ بما عليه أسلافهم

دون دليل ولا بُرهان تراهم يُعادونَ مَن تَبِعَ السُّنَّةَ، بل يَشُدُّونَ عليه النكير، كما حَصَلَ للمُقلَّدَةِ مع الشَّيخِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ رحمه الله تَعَالَى فَإِنَّهُم زَعَمُوا أَنَّه يَدَّعي النُّبُوَّةَ، أو يَدعي الاجتهاد، حتَّى قال قائلهم وهو الصَّاوي : إنَّ الأَخَذَ بِظَوَاهِرِ الكِتابِ والسُّنَّةِ مِن أُصولِ الكفر والضَّلال – والعياذ بالله، وقال: أن باب الاجتهادِ أُغلِقَ وليسَ ثَمَّ إلَّا الأخذُ عن العُلَماءِ السابقين، وعن الآباء والأجداد، دونَ نَظر إلى ما دَلَّت عليه نصوص الكتاب والسُّنَّةِ، وهذا بعينه مثل ما قاله أهل الجاهليةِ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) ، يعني على دين ومِلَّةِ، وَإِنَّا عَلَى أَثَرِهِم مُقْتَدُونَ) والله جل وعلا قال لهم: ﴿قلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءابَاءَكُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٤]. فمِن العَجَبِ أَنَّ هؤلاء المقَلَّدَةَ عادوا الدِّينَ الَّذي جاء به النَّبِيُّ ، وهو أنْ لا يُؤْخَذَ دينٌ إلَّا ببيِّنَةٍ وبرهان، وأَحَبُّوا دينَ المشركِين وهو مُتابَعَةُ الآباء والأجدادِ دونَ بَيِّنَةٍ ولا بُرهان، هذا مِن مَظَاهِرِ دُخول هذه الخصلَةِ مِن خِصال أهل الجاهلية في هذه الأمة، وهكذا في أصناف شتَّى. وإذا نَظَرتُ إلى هَذا الزَّمَنِ في عصرنا هذا وجدت أيضًا العَجَبَ العُجَابَ، فَإِنَّ دينَ الكِتابِينَ المحرَّفَ أعني اليهود، أنهم يَأخُذونَ بالربا، قال جل وعلا في وصفهم: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ [النساء: ١٦١] فاليهود معروفون بأنهم هم سادة أهل الربا، والنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أتى بمعاداةِ أُولئِكَ، وَأَنَّ ما هم عليه في هذه المسألة وغيرها أنَّ ذلك مِمَّا هو مُحَارَبَةٌ لله جل وعلا ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، قال جل وعلا في المرابينَ(فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوَا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كل كفار أثيم ﴾ [البقرة. أتى في هذا الزَّمَنِ أُناسٌ يَجعَلُونَ أَخذَ الربا والتعامل به، ونحو ذلكَ يَجعَلُونَ ذلكَ مِن الأُمورِ الجائِزَةِ، كما يُفتي به بَعضُ الضُّلَّالِ المنتَسِبينَ إلى العِلم، أو يَجعَلونَ أنواع الرِّبا مِمَّا هو ضَرورةٌ في هذا العَصرِ، وَأَنَّ الأمة محتاجة إلى ذلك، ونحو ذلك. ويُحِبُّونَ في هذه المسألة اليهود لأنَّهم أهل المال، ويُحِبُّونَ المصارِفَ والبنوكَ الَّتِي تَنتَشِرُ في العَالَمِ التي عمادها على اقتصادِ اليهود، وعلى ما يُسيره اليهود. والنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عاب اليهود وأبطل هذا الأمر، وأتى في هذه الأُمَّةِ مَن يَعكِسُ ذلكَ، فَيَجْعَلُ مَسَائِلَ الرِّبَا مِن المسائل التي يَجِبُ الأخذ بها، أو أنه لا اقتصاد بدونها، ولا فَلاحَ ولا مال في الأُمَّةِ إلَّا بها، ويُكرهون من يفتي أو يُحَرِّمُ الربا، يكرهونَ مَن يُنكِرُ الرِّبا بأنواعه. فهم يُحِبُّونَ مَن عَادَى نَبِيِّهم صلى الله عليه وسلم ،يعني أهل المال الربوي وهم مُعادونَ للنبي صلى الله عليه وسلم، ويكرهون ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معاداة لأهل الربا. وكذلك في أمور كثيرة إذ نظرت، مثلَ أُمورِ النِّساءِ، وأُمورِ الفَسَادِ بأنواعه. فكُلُّ مَن أَحَبَّ خَصْلَة مِن خِصال أهل الجاهلية، من اليهود والنصارى وَكَرِهَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في هذه المسائل فهو مُشابه لأهل الجاهلية،

(الثَّانِيَةُ وَالثَّلاثُونَ: كُفْرُهُمْ بِالْحَقِّ إِذَا كَانَ مَعَ مَنْ لَا يَهْوَوْنَهُ) يعني: مع مَن لا يُحِبُّونَه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْستِ النَّصَرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَرَى لَيْستِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتب ﴾ [البقرة: ١١٣] اليهود والنصارى بمُقابَلَةِ كُلِّ واحِدَةٍ بالأخرى، مع النصارى بَعضُ حَقٌّ، ومع اليَهُودِ

بَعضُ حَقٌّ، مِن الحَقِّ الذي مع النصارى الإقرار بنبوة عيسى عليه السَّلام، واليهودُ يُعادون عيسى عليه السَّلامُ ولا يُحِبُّونَه، فاليهود قالت: (لَيْسَتِ النَّصَرَى عَلَى شَيْءٍ) أنكَرَت جَميعَ ما عليه النَّصارى مع أن النصارى معهم بَعضُ حَقٌّ، والنَّصارى أيضًا أنكَرَتْ بَعضَ الحَقِّ الذي عند اليهود في بعض التشريعاتِ، وَقَالَتِ النصارى ليسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ، ما السَّبَبُ؟ السَّبَبُ : أَنَّ اليهود لا تُحِبُّ النَّصارى، والنَّصارى لا تُحِبُّ اليهود، فهم رفضوا بَعضَ حَقٌّ مع النصارى لأنَّهم لا يُحِبُّونَهم، وقالوا هذه الكَلِمَةَ العَامَّةَ الَّتِي أَخبَرَ اللَّهُ جل وعلا بها عن قولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النصارى عَلَى شَيْءٍ ، يعني ليسوا على شَيْءٍ مِن الخَيرِ والاهتداء أبدا، وكذلك قال النّصارى: ﴿وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْ) يعني على شَيءٍ مِن الهدى أبدا، والسَّبَبُ عَدَمُ المحبَّةِ، عَدَمُ مَحَبَّةِ هؤلاء لهؤلاء وهؤلاء لهؤلاء، وهذا من جراء الكبر، والكبر بطرُ الحَقِّ، رَفضُ الحَقِ. ومن أسبابه الهوى في النفس.ومِن أسبابِه عَدَمُ مَحَبَّةِ الحَقِّ،ومن أسبابه حُبُّ الدُّنيا، وحب زينتها، وحُبُّ زُخرفها وحُبُّ الرِّئاسةِ فيها. وهذه الخصلة لا شَكٍّ أنَّها سارت في المسلِمينَ كُلَّ مَسيرٍ؛ وذلك لأنَّ مبعتها لهذه الأمور، وهذه الأمور تأتي على البَشَرِ، وقَلَّ من يتخلَّص منها، فالكبرُ عارِضٌ يَعرِضُ على كُلِّ أَحَدٍ، كذلك الإعجاب بما عند الطَّائِفَةِ.كذلكَ حُبُّ الدُّنيا وحُبُّ زِينَتِها والتَّرَفعِ فِيهَا وَزُخرُفِ الدُّنْيا وَالرِّئَاسَةِ فيها. كل هذا كانَ في هذه الأمة، فإذا نَظَرتَ إلى الطَّوَائِفِ المختَلِفَة في هذه الأُمَّةِ سَتَجِدُ أَنَّ الطَّائِفَةَ أَو أَنَّ المذهَبَ أو أنَّ الفِئَةَ الواحِدَةً لا تَقبَلُ الحَقَّ الَّذِي مع الفِئَةِ الأُخرى.فَإِذَا نَظَرْتَ مَثَلًا إلى المعْتَزِلَةِ والأَشاعِرَةِ: المعتَزِلَةُ تُضَلِّلُ الأَشاعِرَةَ مُطلَقًا، والأَشاعِرَةُ تُضَلِّلُ المعْتَزِلَةَ مُطلَقًا، مع أنَّ مع المعتَزِلَةِ فِي بَعضِ المسائِلِ حَقٌّ، ومع أنَّ الأَشاعِرَةَ فِي بَعضِ المسائِلِ معها حَقٌّ. مثال ذلك مثلا: رُؤيَةُ الله جل وعلا بالأبصارِ يَومَ القِيامَةِ، ينفيها المعتَزِلَةُ ويقولونَ: إنَّه ليسَ ثَمَّ رُؤيَةٌ إلَّا إلَى جِهَةٍ، ولهذا تنفي الرُّؤيَةَ. ويأتي الأَشاعِرَةُ ويقولونَ: مُمكن أن تكونَ الرُّؤْيَةُ إِلَى غَيْرِ جِهَةٍ، فلذلكَ يُثبتونَ الرُّؤيَةَ إِلَى غَيرِ جِهَةٍ، ويقولونَ: يُرى في غَيرِ جِهَةٍ. وهل يُرى بالأبصار؟ لا، عندهم يُرى بإدراك يَجعَلُه الله جل وعلا في القُلوبِ. قاعِدَةُ المعْتَزِلَةِ أَنَّه لا تُمكِنُ الرُّؤيَةُ إِلَّا إِلى جِهَةٍ هذه صحيحة، وهي قَضِيَّةٌ عَقلِيَّةٌ صَحِيحَةٌ، وَالأَشاعِرَةُ رفضوا ذلك، والأَشاعرَةُ قالوا: ما دامَ في القُرآنِ إثباتُ الرُّؤيَةِ فلا بُدَّ أن تكونَ الرُّؤيَةُ بالأبصار، فمعهم حق وهؤلاء معهم حَقٌّ، فهؤلاء ضَلَّلوا هؤلاء مُطلَقًا وهؤلاء ضَلَّلوا هؤلاءِ مُطلَقًا. وأهلُ السُّنَّةِ وَسَط دائما بين هؤلاء وهؤلاء ففي هذه المسألة أثبتوا رُؤيَةً بالأبصارِ إلى جهةٍ، فمع المعتزلة بعض صواب، ومع الأشاعِرَة بَعضُ صَوابِ.

والصَّوابُ مع هذا وهذا وزَيَادَةٌ، وطبعا هذا لا يعني أنَّ أهلَ السُّنَّةِ جَمَعوا، ولكنَّ المعتَزِلَةَ عندهم بَعضُ صَوابِ مِن عند أهل السُّنَّةِ، وعند الأشاعِرَةِ بَعضُ صَوابِ مِن عند أهلِ السُّنَّةِ، لكنَّهم جميعًا ليسوا على صَوابِ الأَشاعِرَةُ تُضَلِّلُ المعْتَزِلَةَ والمعْتَزِلَةُ تُضَلِّلُ الأَشاعِرَة. وهكذا تَجِدُ أَنَّ الخَوارِجَ يُضَلِّلُونَ غَيرَهم، المرجِئَةُ

تُضَلَّل الخوارج، الخَوارِجُ أَخَذوا بنصوص الوعيد، والمرجِئَةُ أَخَذوا بنصوص الوعد، وهؤلاء معهم بعضُ حَقٌّ وهؤلاء معهم بَعضُ حَقٍ، وأهل السُّنَّةِ وَسَط بين هؤلاء وهؤلاء.

وهكذا تَجِدُ أَنَّ التضليل دخلَ فِي الأُمَّةِ فِي المذاهِبِ المختلِفَةِ؛ في الفِرَقِ على أشده، مع أنَّ هؤلاء كُلُّ فِرقَةٍ معها بَعضُ حَقٌّ، ولكن لم تَصِلُ إلى الحَقّ كُلَّه بَل ضَلُّوا فِي بَعْضِ المسَائِل. تَجِدُ أَنَّه في بابِ الصِّفاتِ مثلا الأشاعرة أثبتوا بَعضَ الصِّفاتِ، فهم فيما أثبتوه من الصفاتِ السَّبْعِ المشهورَةِ هم مُصيبونَ؛ لكنهم مُبْتَدِعَةٌ ضُلال فيما نفوه، وهكذا فإنَّ المتَامِّلَ يَجِدُ أَنَّ الفِرق هذه تَجِدُ عندَ الفِرْقَةِ بَعضَ حَقٌّ.

فإذن يكون تحصيل الكلام أنَّ مِن خِصال أهل الجاهليةِ أنَّهم يُنكِرونَ بَعضَ الحَقِّ الَّذِي يَكونُ مع غَيْرِهم إذا كانوا لا يُحِبُّونَه وهذا ولا شَكٍّ دَخَلَ في هذه الأمة بسَعَةٍ، تَجِدُ المذاهِبَ الفِقهِيَّةَ المتبوعة المعروفة مَذهَبُ الحَنَفِيَّةِ والمالكيةِ والشَّافِعِيَّةِ والحنابلة والظَّاهِرِيَّةِ ونحو ذلكَ تَجِدُ أَنَّ مَذهَبَ الحنابلة مثلا عند المتَعصبينَ يُنكرونَ في مَسائِلَ كَثيرَةٍ الحَقَّ الذي مع الشافعية، والشَّافعية تُنكِرُ الحَقّ الذي مع الحنابلة؛ لأنَّ هذه طائِفَةٌ عندهم وهذه طائفة فهم لا يَهوَوْنَ هذه الطَّائِفَةَ، فلذلك لا يَأخُذُونَ بما عندها مِن الحَقِّ، وَتَجِدُ أنَّ المحَقِّقِينَ مِن أهلِ السُّنَّةِ الَّذِينَ هَدَفُهم الحَقُّ لا يَتَعَصَّبُونَ لَمذهَبٍ مُطلَقًا، فَإِذَا كَانَ الحق مع الحنابلة أخذوا به، إذا كانَ الحَقُّ مع الشَّافعيّة أخذوا به، ولم يَتَعَصَّبوا للطَّائِفَةِ ويَذَمُّوا الطَّائِفَةَ الأخرى مُطلَقًا، لذلك لا نقول: إنَّ الحق والصواب مع الحنابِلَةِ دائمًا أو مع الشَّافِعِيَّةِ دائمًا أو مع المالكية دائمًا أو مع الظَّاهِرِيَّةِ دائمًا أو مع الحنفية دائمًا؛ بل قد يكون مع هؤلاء وقد يكون مع هؤلاء في بعض المسائل، لأنَّ العُمدَة هي الدليل وصحة الاستدلال.

وهذا وَلا شَكٌّ كَثيرٌ وتأْثر الأمة بهذه الخصلة من خصال أهل الجاهِلِيَّةِ كَثيرٌ، وَهَذَا سَبَبُهُ التَّعَصُّبُ المذموم، والحُبُّ الَّذي يُعمي ويُصِمُّ، والواجِبُ على أهل الإيمان في هذه الأُمَّةِ أَنْ يَتَحَرُّوا الحَقّ أَيْنَمَا وَجَدُوهُ، وَأنْ لا يتعصبوا لطائِفَتِهم ضِدَّ الطَّائِفَةِ الأخرى دونَ مَعرِفَةٍ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَعَ الطَّائِفَةِ الأُخرى حَقٌّ لو تأملوه لوجدوه صوابا، ومع إحدى الطَّائِفَتَينِ المتضادتين حَقٌّ ليس مع الطَّائِفَةِ الأخرى وهكذا. فالواجِبُ أَنْ يُوَطِّنُ المرءُ المؤمِنُ – وخاصة طالِبُ العِلمِ نفسه على أَنْ يَكُونَ سَامِعًا للقُرآنِ والدَّليل وللحَقّ حَتَّى يَأخُذ به على فهم أهل العلم الأثريين للمسائل المختلف فيها لا على ترجيح كُلِّ طالب علم، لأنه قد لا يكون وصل إلى مَرتَبَةِ الاجتهادِ فِي المسائلِ كذلك في المجتمعات، الأمور الاجتماعِيَّةُ تَجِدُ مَثلا أنَّ في هذا المجتمَع تَجِدُ أنَّ هناكَ بَعضَ الخِصالِ يَحمَدُ أَهلُ هذا المجْتَمَع عليها، رُبَّما لم تكُن ليست على وَفِي الشَّرِع، وَتَجِدُ أَنَّهُم يَعِيبُونَ بَعضَ المجتمعات الأخرى مِن المجتَمَعاتِ الإسلامية في فعل ما ورُبَّما يَكون أقرب إلى الصواب.. وهكذا في المجتَمَعاتِ، وهذا يُسَبِّبُ الفُرقة وَيُسَبِّبُ التَّنافر ونحو ذلك. فهذه المسألة مُهِمَّةٌ

وهي أنَّ **مِن خِصال أهل الجاهِليَّةِ ، أَنَّهم يَرُدُّونَ الحَقَّ وَيَرْفُضُونَه إِذا جاءَ بِه مَن لا يَهوَوْنَه** كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النصارى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ دَم اليهودُ النَّصارى أبلَغَ ذَم بقولهم: لَيْسَتِ النصارى عَلَى شَيْءٍ ، ودَمَّ النَّصارى اليهودَ أَبْلَغَ ذَم بقولهم: لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ، وهذا لا شَكَّ مِن الاعتداء فيما بينهم، وهم في الواقع ليسوا على شيء كما أخبر الله لك في آية المائدة بأَنَّهم لم يُحكموا الكِتابَ لا لأجل هوى اليَهُودِ والنَّصارى، قالَ : ﴿ قُلْ يأهْلَ الْكِتَبِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التوراة وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨] أخبَرَ الله جل وعلا أَنَّهم ليسوا على شَيءٍ حَتَّى يُقيموا ، وهذا غَيْرُ اتهام اليهودِ للنَّصارى أَنَّهم ليسوا على شَيءٍ والنصارى لليهود أنهم ليسوا على شيء.

من فروع هذا الواقع المعاصر في يومنا هذا، إذا تأملت الواقع في اختلافِ الجماعات الإسلامية والمنتسبين إِلَى الدَّعوَةِ وَجَدتَ أنَّ هذه الخصلة تأثر بها طَوائِفُ كَثيرَةٌ مِن هذه الجماعات عند من لم يُوَطِّنْ نَفسَه عَلَى قَبولِ الحَقِّ، فَتَرى أَنَّ جَمَاعَةً مَوسومَةً بأَنَّها الجَمَاعَةُ الفُلَانِيَّةُ، وأُخرى موسومَةٌ بِأَنَّها الجماعةُ الفُلانية، ترى أن هذه تذمُّ تلك مُطلَقًا، والثانية تذمُّ الأولى مطلقا، مع أنه قد يكون عند الأولى حق؛ بل عندَها حَقٌّ، وعند الثانية بَعضُ حَقٌّ؛ ولكن لأجل أن هذه لا تهوى هذه وهذه لا تهوى هذه، تَجِدُ أَنَّ الطَّعَنَ يَأْتِي مُطلَقًا، والواجِبُ على المؤمِن أن يكون موطنا نَفسه على قبولِ الحَقِّ، ولا يُطلِقَ لِسانه فيما لا يَعلَمُ صِحتَه شَرعًا؛ فَيَذُمُّ بإطلاق أو يَمدَحُ بإطلاق، إذا كان مع مَن يُحِبُّ ويهوى مَدَحَ وإذا كان مع من لا يُحِبُّ ولا يهوى ذَمَّ بإطلاق. وهذا لا شَكٍّ مِن آثار تلك الخَصْلَةِ نَسأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ والعافية.

ولهذا تَجِدُ أَنَّ المحقِّقِينَ مِن عُلَماءنا والمدَقِّقِينَ لا تَجِدُ أنَّه يَذم بإطلاق أو يمدح بإطلاق، وهذه من المسَائِلِ المهمَّةِ الَّتِي يَجِبُ تَوطينُ النَّفْسِ عليها، وهي مِن فُروع تركِ التَّعَصُّبِ الَّذِي لم يُؤذَن بِهِ شَرعًا، أَمَّا التَّعصُّبُ للحَقِّ الَّذِي جاءَ في الكتاب والسُّنَّةِ وحمايته والذب عنه،، عنه، هذا واجب؛ لكن إذا كانَ على غَيرِ ذلك مذموم، نسأل الله جل وعلا العافية والسَّلامَةَ.

قد يكون أيضًا جَحْدُ الحَقِّ أو الكفرُ بالحَقِّ بين الأفراد، وهذا يُنتبه له في مقامِ الجِدالِ والمناظراتِ، كأَنْ يَأْتِيَ اثنان ويتناقشانِ، وَيَأْتِي وَاحِدٌ يُدلي بكَلامٍ فيه صوابٌ وفيه غلط، ويأتي الآخَرُ بكَلامٍ فيه صوابٌ وفيه خطأً، فهذا يَتَعَصَّبُ لَكَلامِه مَع أَنَّه يَحوي صوابًا وَغَلطًا، ويَرُدُّ على الأخر مع عِلم هذا المناظِرِ أن ذاك معه حَقٌّ فيما قال، هو يعلَمُ في قَرارَةِ نَفسِه أَنَّه حَقٌّ لكن لا يُرِيدُ أَنْ يُسَلِّمَ له، كذلك الردودُ الَّتي تحصل بين العلماء وبينَ بَعض طُلَّابِ العِلمِ في المسائِلِ الفقهية ونحو ذلك؛ فإنَّه يَأْتِي يَتَعَصَّبُ لمن عنده، مع أنه يعلم في قرارَةِ نَفْسِه أَنَّ مع ذلكَ المعْتَرِضِ حَقٌّ فيما قال أو بَعضُ حَقٌّ فيما قال، فتَجِدُ أَنَّه لا يُوَطِّنُ نَفسه على قبولِ ذلكَ. وهذا باب واسع وتفاصيله في الأفراد تكثر من باب التعصب ورد الحق

الثَّالِثَةُ وَالثَّلاثُونَ: إنْكَارُهُمْ مَا أَقرُوا أَنَّهُ مِنْ دِينِهِمْ، كَمَا فَعَلُوا فِي حَجِّ الْبَيْتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

لعلَّ الشَّيخَ رحمه الله تعالى يُريد أَنَّ الحَجَّ حَجُ المشاعِرِ بالوقوف في منى ومزدلفة وَعَرَفَةَ أَنَّ هَذَا كَانَ مِن الحَج الَّذِي يَعْلَمُه أَهْلُ مَكَّة، يَعلَمونَ أَنَّ مِن مَشاعِرِ الحَجُ الوُقوف بمِنى ومزدلفة وَعَرَفَةَ وَلَكِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يعني قريش كانت تُسمي نفسها (الحُمْسَ) يعني المتحمسين لدينهم، فأنكروا الوُقوفَ بِعَرَفَةَ، وَجَعَلُوا الدِّينَ أَنَّهم يقفون في مُزدَلِفَةً، وصاروا بعد حين يُنكرون على مَن يَذهَبُ إِلَىٰ عَرَفَاتٍ ثُمَّ يَرْجِعُ وَيُسَمُّونَ أنفُسَهم (الحُمْسَ) المتحمسين لدينهم. ومِن المعلومِ أَنَّ مَنَاسِكَ الحَج التي كان عليها إبراهيم عليه السَّلامُ هي الوقوف بهذه المشاعِرِ وهي التي كانت في العَرَبِ، وَكَانَ العَرَبُ يَفْعَلُونَ ذلكَ. وأهل الجاهلية قريش أنكروا هذا الدين، أنكروا بَعضَ الدِّينِ الذي ينتسبون إليه، هم يَنتَسِبُونَ إِلَى إبراهيم الخليل عليه السلام، وأنكروا من دينه الوقوف بعرَفَةَ، وقالوا: إنَّنَا الحُمْسُ المتحمسون لدينهم فلا نُفيضُ مِن مُزدَلِفَةً إلى عَرَفَةَ؛ بل نقِفُ في مُزدَلِفَة، ونَحَوا طَوائِفَ مِنَ الْعَرَبِ حَتَّى قَبِلَ كَلامَهم كَثِيرٌ مِن العرب، فصار الوقوفُ بعَرَفَة عند الأقلين.

وهذه كم قال جل وعلا: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن ملَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَةً) بَعدَ أَنْ ذَكَرَ بِنَاءَ الكَعْبَةِ وما يَجِبُ مِن اتِّباع مِلَّةِ إبراهيم عليه السّلام. قال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مَّلةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَةُ)، يعني أنَّ أولئكَ المشْرِكِينَ أهل الجاهلية قد سَفَّهوا أَنفُسَهم وأَضَلُّوها واتَّبَعُوا السَّفَهَ ولم يَتَّبِعُوا الحَزْمَ والحَقّ.

وهذا يعلمون أنَّه من دينهم لكنَّهم أنكروه وخالفوه. وهذا لا شَكِّ – أعني هذه الخصلَةُ مِن خِصال أهل الجاهِلِيَّةِ – دَخَلَت في هذهِ الأُمَّةِ في كثيرٍ مِن الصُّورِ لا تُحصى.فما مِن طَائِفَةٍ مِن طَوائِفِ المبتَدِعَةِ في هذه الأمة إلا وقد أنكروا بَعضَ الدِّينِ الَّذي جاء به النبي عليه الصَّلاة والسلام. فهؤلاءِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ كَما ذَكَرتُ لكم تفسير التَّوحيد: توحيد الإِلَهِيَّةِ بِتَوحيد الربوبِيَّةِ هؤلاء يُخالِفُونَ ما جاء به النَّبِيُّ ؛ بل يُنكرونَ أنَّه من الدِّينِ، جَعَلَ أَوَّلَ واجب وهو الشَّهادَةُ لِلهِ بِالتَّوحيد وللنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بالرِّسالَةِ، خالفوا ذلكَ وأنكَرُوهُ وَجَعَلُوا أَوَّلَ وَاجِبِ النَّظَرَ أَو قَصدَ النَّظَرِ. كذلك في تفاريع أبواب الصَّفاتِ، في القَدَرِ، في الإيمان.. ونحو ذلك، كُلُّ فِرْقَةٍ ضَالَّةٍ أَنكَرَت بَعضَ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم . المتصوفة بفرقهم كذلك في سلوكياتهم أنكروا بعض ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم: فمنهم من ترك الجمعة والجماعات، وقد جاء بها النبي عليه الصَّلاة والسلام، وأكثر ما جاءَ في أُمورِ العبادات العَمَلِيَّةِ الصَّلاةِ والجهاد. وهم أنكروا الجماعة، وأخذوا بالعِبادَةِ على انفراد في زواياهم المعروفة.

كذلك العلماء الذين أصلوا أصولا إما في أصول الفقه أو في أصولِ التَّوحيد، أصلُوا أُصولا باطِلةً هؤلاء أنكروا شَيْئًا مِمَّا جَاءَ به النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ، شَيْئًا مِن الدِّينِ الَّذي ينتسبون إليه، وَكُلُّ هَذهِ

الطَّوَائِفِ يَصِحُ أَنْ نقول عنها: إن هؤلاء تركوا بعضَ الدِّينِ الذي جاء به نَبِيُّهم. ونقول لهم: وَمَن يَرغَبُ عن مِلَّةِ مُحَمَّدٍ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ، وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سفه نَفْسَه قصد بها أهل الجاهلية الذين أنكروا بعض الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام، كذلكَ مَن أنكرَ بَعضَ الدِّينِ الَّذي جاء به نبينا فإنَّه قد سَفه نفسه أَبلَغَ التَّسفِيهِ وأشنع المخالَفةِ، فيُقَالُ له: وَمَن يَرغَبُ عَن مِلَّةِ مُحَمَّدٍ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ. في هذا العَصرِ بخُصُوصه عَظُمَت المخالفات مع العلم، فالعلم بما جاءَ بِه النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بالسُّنَّةِ كَثيرٌ في هذا العصر عند المنتسبين للإيمان والعلم، ولكنْ تَجِدُ أَنَّ الدَّوافِعَ وَالصَّوارِفَ الَّتِي تصرفهم عن الالتزام بما جاء به النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم كثيرة. وهذا إذا جئتَ في مَجالِ الدَّعَوَةِ وَجَدَتَ أَنَّهُ كَثيرٌ، فمثلًا في مَجالِ الدَّعَوَةِ، دَعَوَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَاضِحَةٌ بَيْنَةٌ، قال عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لمعاذِ بنِ جَبَلٍ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ إِلَى أَنْ يُوحدوا الله كما في (كتابِ التَّوحيد) من صحيح البخاري»، أو كما في الروايَةِ المشهورَةِ: إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فهذا أَوَّلُ ما يُدعى إليه النَّاسُ بِوَصِيَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم هو هذا، هو التَّوحيدُ، فَخُولِفَ هذا وجُعِلَ أَوَّلُ ما يُدعى إليه النَّاسُ أَشْيَاءَ أُخَرَ. بَعضُهم يجعَلُ أَوَّلَ ما يُدعى إليه النَّاسُ هو الاهتمام بالشيخ الفلاني قبلَ أَنْ يَدعُوهُم إِلَى التَّوحِيدِ إِلَى أَنَّ فُلانًا من المشايخ -كما عند الصوفية ونحوهم- أزكى وأَنفَعُ وَاتِّبَاعُهُ أَعظَمُ مِن فُلانٍ. أو تركوا الدعوة إلى ما جَعَلَ النَّبِيُّ الدَّعَوَةَ إليه أول واجب إلى الدَّعَوَةِ إلى أُمورٍ أُخَرَ، إلى أُمورٍ سياسية، أو إلى أمورٍ سلوكية كما عند بعض الفئات، ونحو ذلك، ودَعوَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَاضِحَةٌ فِي أَنَّه يُدعى أولا إلى التوحيد. تُرِك بَعضُ هَذا الحَقّ وَرُغِبَ عن سُنَّةِ النَّبي ؛ بل إنه أَبْلَغُ مِن ذلكَ أنَّه أُنكِرَ ورُدَّ؛ بل وكُفِرَ به في بعض الأحيان، فكم من عالمٍ قالَ: إنَّ مِن أُصولِ الدَّعَوَةِ أنْ يُدعى إلى توحيدِ اللهِ جَلَّ وعلا أَوَّلا، وَأَنكَرَ ذلك عند أصحاب الطوائف وقيل لا ؟ المصالِحُ والمفاسِدُ يَجِبُ أنْ تُرعَيْ، وَتَجميعُ النَّاسِ يَجِبُ أَنْ يُرعى ونحو ذلك، فالدعوة إلى التوحيد تكونُ مُتَأَخِّرَة لا مُتَقَدِّمَةً، وهذا مُخَالَفَةٌ وَاضِحَةٌ صَرِيحَةٌ لِهَدِي النبي صلى الله عليه وسلم فِي الدَّعَوَةِ الَّتِي وصى بها مُعاذا. إذا كانَ مُعَاذ قائِدَ المؤْمِنِينَ في اليَمنِ، وقائد الدعوة في اليمن فهذه دعوتُه في اليَمَنِ كانت ابتداء

بالتَّوحيدِ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوا إِلَى ذَلِكَ أَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.« المسلِمونَ اليَومَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عن إسلامهم أعظم ما ابتلوا به الشركُ، فَإِذَا وُجِدَ الشِّركُ فِي بَلَدٍ فَأَعظَمُ ما يُنهى عنه الشرك. كذلك الذين يدعون إلى الزهد مع أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم في مَكَّةَ ما دعا إلى الزهد؛ بل هناك أنواع من المحرَّماتِ ما حُرِّمَت إِلَّا في المدينة؛ بل دعاهم إلى أن تُعمَرَ القُلوبُ بِمَحبَّةِ اللهِ وتعظيمه بالتَّوحيد، ومع ظهورِ هذه الحُجَّةِ وطَرِيقَةِ النَّبي في الدعوةِ كَفَرَ بها مَن كَفَرَ وتَرَكَها مَن تَرَكَ، ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾

الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُون: أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ تَدْعِي أَنَّهَا النَّاجِيَة، فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كنتُمْ صَدِقِينَ ﴾ ، ثُمَّ بَيَّنَ الصَّوَابَ بِقَوْلِهِ(بَلَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) الآية [البقرة: ١١٢].

الْخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُون: التَّعَبُدُ بِكَشْفِ الْعَوْرَاتِ كَقَوْلِهِ : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ [الأعراف: ٢٨.]

السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: التَّعَبُدُ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، كَمَا تَعْبُدُوا بِالشِّرْكِ.

كُلُّ فِرقَةٍ مِن الفِرَقِ الَّتِي تَتَعبَّدُ الله جل وعلا تَدْعِي أنها هي التي على الحَقّ وَأَنَّ غَيرها على الباطِلِ، وأنَّ الجَنَّةَ لها وأنَّ النَّارَ لغَيرها، قد بَيْنَ ذلك جلَّ وعلا في قوله: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرهَانكُمْ إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحسن) الآية، في «سورة البقرة.» وبين أنَّ أولئكَ يَقولونَ: إِنَّ النَّارَ إِنْ مَسَّتهُم إِنَّما سَتَمَسُّهم مُدَّةً قَليلَةً، قال جل وعلا: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النارُ إِلَّا أَيامًا معْدُودَةً قُلْ أَتَخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَه أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة]. وقال جل وعلا في آية آل عِمران (قالُوا لَن تمسنا النَّارُ إلا أَيَّاما معْدُودَات ﴾ [آل عمران : ٢٤].فهم يَزعُمُونَ أَنَّهم ناجون، وأنَّهم هم أهل الجنَّةِ، اليهودُ يَزعُمُونَ أَنَّهم أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالنَّصارى يَزعُمُونَ أنهم أهل الجنَّةِ، ومَن عاداهم على ضَلالَةٍ. هذا معنى قولِ الشَّيخِ أَنَّ كُلَّ فِرقَةِ تَدعي أَنَّهَا النَّاجِيَةُ، حَتَّى مُشركو العَرَبِ يَزعُمُونَ أَنَّهم أهلُ القُربِ مِنَ اللهِ جَلَّ وعلا وأَنَّهُم إِنَّمَا اتَّخذوا الآلِهَةَ للازدلافِ إلى الله جل وعلا، كما قال سبحانه عنهم:(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونِه أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: 3]، وبينوا أنهم يدعونَهم على مِلَّةِ ابراهيم عليه السلام، وهذه كُلُّها دَعاوِى، وهذه كُلُّها أماني، والحَقُّ ليس بالادّعاءِ، إنَّما الحق بموافقة أمر الله جل وعلا.

ولهذا قال من قالَ من السَّلَفِ: ليسَ الشأن أَنْ تُحِبُّ ولكنَّ الشأن أَنْ تُحَبَّ. وذلكَ أَنَّ النَّصَارَى ادَّعَوْا مَحَبَّتهم لله جل وعلا، وأن معنى محبتهم للهِ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وعلا يُحِبُّهم، فقالَ جل وعلا في سورة آل عمران» وهي التي نَزَلَ صَدرُها لمناسَبَةِ مجيءٍ وَفدِ نَصَارَى نَجْرَانَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ جل وعلا في بيان حالهم: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يحببكم اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] إن كُنتُم تُحِبُّونَ الله فَاتَّبعوني فهم يزعمون أنهم يُحِبُّونَ الله، وبالتالي فإنَّ اللهَ يُحِبُّهم كما قالوا(نحن أَبْنَاء اللَّهِ وأحباؤه ﴾ [المائدة:١٨] وهذه كُلُّها دعاوي. جاء النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لإبطال الدعاوي التي ليس عليها بُرهان، أمر الله جل وعلا نَبِيَّهُ أَنْ يُخَاطِبَ أولئكَ أَجْمَعِينَ بِقَولِه: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ) هاتوا البرهان على أنكم فِي الجنَّةِ، وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) قالت اليهود: لن يَدخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا اليهود، وقالت النَّصاري: لن يَدخُل الجَنَّةَ إِلَّا النَّصارى، قال سبحانه: ﴿تِلْكَ أَمَانِيهُمْ ﴾ يَعْنِي أَنَّهَا أَمَانِيّ وَأُمنِيَاتٌ ليس عليها برهان واضح، وليس لهم عليها دليل.

ثُمَّ أعقب ذلك بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ) يعني إن كُنتُم صادِقِينَ في هذه المقالة فهاتوا البرهان، والبرهانُ إنَّما يَكونُ من الله جل وعلا؛ لأنَّه هو الذي عنده الوزنُ القِسط كما قالَ: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوْزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وهو الَّذِي جَلَّ وعلا جَعَلَ فرقةً واحِدَةً مِن فِرَقِ اليهود الإحدى وسبعينَ: فِرقَةٌ على الحَقِّ وَكُلُّها على الباطِلِ، وهو الَّذِي جَعَلَ فِرقَةً من فِرَقِ النَّصارى على الحَقِّ وَكُلُّها على الباطل؛ وهم الذين تمسكوا بما كان عليه موسى دون تحريف، والَّذِينَ تمسكوا بما كان عليه عيسى عليه السلام دون تحريف.

وقال: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) إنما يكون البرهان الموافق عليه، البُرْهانُ الَّذِي يُقَرِّرُهُ اللَّهُ جِلْ وعلا، ثُمَّ بَيَّنَ الصَّواب كما قال الشَّيخُ، بيَّنَ بُرهانَ أَحَقِّيَّةِ تلك الفِرقِ بِالنَّجَاةِ مِن عَدَمَ أَحَقِّيَّتِها بِالنَّجَاةِ بقوله: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) يعني أنَّه لن يَنجُو مِن الفِرَقِ أَصحابُ الدَّعاوي، إنَّما ينجو من أَسلَّمَ، بَلَى) يعني سيدخُلُ الجَنَّةَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ، مَن أَسلَّمَ وَجَهَهُ لِلَّهِ بالتوحيد، إسلامُ الوَجهِ للهِ مَعناهُ أَنَّه يتوجه بوجهه وذاته وقلبه إلى الله جل وعلا قصدًا وإرادَةً وَطَلَبًا، وهو متوجّه إلى اللهِ وَحدَهُ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ خَلصَ قَلبه ووجهه في توجهه مِن غَيرِ الله جل وعلا، وخلص للهِ وَحدَهُ فهو إِنَّمَا يَعبُدُ اللَّهَ وَحدَهُ.

قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنُ) ، يعني أنه في عَمَلِهِ مُحسِنٌ مُصيبٌ قد تابع هذا الرسول كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]. إذن ليست المسألة أيُّها اليهود، وليست المسألة أيُّها النَّصارى بالدعاوي أنكم ستدخُلونَ الجَنَّةَ؛ بل إنَّما الدعوى تكون صحيحة إذا كانَ ثَمَّ بُرهان عليها، فهاتوا برهانكم. والبرهان أنَّه لن يَدخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَسلَمَ وَجهَهُ للهِ وهو مُحْسِنٌ، وهذا برهَانٌ مِن الله جل وعلا، فهل اليهود قد أقاموا هذا البرهان؟ لا، فإنَّهم قالوا: عُزير ابنُ اللهِ هل النصارى أقامت هذا البرهانَ؟ لا، لم تُسلِمَ وَجهَها الله، وإنَّما أَلَهَت المسيحَ عليه السَّلامُ وذلكَ كما في قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أَتَّخِذُونِي وَأُمِيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة: ١١٦]، فهم اتخذوا عيسى واتَّخَذُوا أُمَّهُ عليهما السّلامُ اتَّخَذُوهُما آلِهَةً مِن دونِ اللَّهِ، وَهُذه كُلُّها ناقِضَةٌ لقوله في هذا البرهان: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ). فتَقَرَّرَ أَنَّ أهل الجاهلية من خصالهم أنهم يتَمَنَّونَ أَنْ يكونوا هم النَّاجِينَ، يَدَّعُونَ أَنَّهم أهلُ النَّجَاةِ، وأنَّهم أهل الخُلوص مِنَ النَّارِ، وأنَّهم أهل الجَنَّةِ، كما ادعاه اليهود، وكما ادَّعَتَهُ النَّصارى، وكما ادعى ذلك مُشركو العرب.فكُلُّ مَن ادَّعى دعوى إنَّما هي من الأماني من هذه الأمة ليس له عليه بُرهان مِن كِتابِ اللهِ أو مِن سُنَّةِ رسوله ، بزعمِه أَنَّه ناج ومَن عَدَاء غَيْرُ ناجٍ، فَإِنَّه قد شابَهَ أولئك. ولهذا الخُلوص مِن مُشابهة أهل الجاهلية في ذلك أنْ لا يَدَّعِي المرء دعوى بِالنَّجَاةِ إِلَّا بَعدَ أَنْ يُحَكِّم هذا البرهانَ الَّذي ذَكرَهُ اللهُ في قوله:(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَه لِلَّهِ) يعني بالتوحيدِ ﴿وَهُوَ مُحْسِنُ) في عَمَلِهِ بِمُتابَعَةِ النَّبي ، فهذا برهان النَّجاةِ ،مَن أَخلَصَ قَلْبَهُ، وَوَجهَهُ للَّهِ واتَّبَعَ

سُنَّةَ النَّبي ، فهذا هو الناجي، وَمَن عَدَاهُ فَإِنَّهُ مُتَوَعَدٌ بِغَيْرِ النَّجَاةِ، ولهذا قال جل وعلا في آيات التعليل في خلق الموت والحياة قال مَثَلًا فِي سُورةِ الملك (تَبَارَكَ الَّذِي خَلَقَ الموت والحيوة لبلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك:٢] فالنَّاسُ مخلوقون للابتلاء بحُسنِ العَمَلِ. وقد جاء تفسيره عن الفضيل بن عياض رحمه الله وعن غيره أنَّ إحسانَ العَمَلِ بِأَنْ يَكُونَ خَالِصًا صَوابًا، وقَالَ غَيْرُه : إِنَّ إحسانِ العمل بمتابعةِ السُّنَّةِ، وهذا كله صحيح؛ فإنَّ العَمَلَ لا يَقبَلُهُ اللهُ حَتَّى يَكونَ خَالِصًا وحتَّى يَكُونَ وفقَ السُّنَّةِ، وأَمَّا إذا كانَ ليسَ بخالِص كانَ مُشركًا فيه إمَّا برياءٍ وَإِمَّا بِسُمِعَةٍ أَو بَقصدِ غَيْرِ اللَّهِ، فهذا باطل مردود على صاحبه كما جاء في «صحيح مسلم من حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». وجاءَ في السُّنَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدُّه)رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُه، وفي الروايَةِ المتَّفَقِ عليها «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) يَعني أنَّ البرهان المذكور الذي هو بُرهانُ النَّجاةِ الَّذي وُعِدَ أصحابه بالنَّجاة هو ما جَمَعَ فيه صاحبه **الاعتقاد الصحيح والأتباع**. وهذا هو في الحقيقةِ مدلولُ الشَّهَادَتَينِ شَهادَةِ أَنْ لا إله إلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، **فَإِنَّ مَدلُولَ شَهادَةِ أن لا إلَهَ إِلَّا اللهُ أَنْ يَخلُصَ المرَءُ بقلبه وتوجهه للهِ وَحدَهُ دونَ ما سواه، ومدلولُ الشَّهَادَةِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ أنْ يُحَكِّمَ رَسولُ اللهِ ، وأنْ يُطَاعَ وأَنْ لا يُعبَدَ اللهُ إِلَّا بما شَرَعَ.**

إذا نظرت إلى هذا التقرير وتأملت ما دَخَلَ في هذه الأمة من مُشابهة أهل الجاهلية وجدت أن هذه الأمة وقد افترقت على ثلاث وسبعينَ فِرقَةً أَنَّها كما أخبر النبي عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ مَن هي؟ قَالَ: «هِيَ الْجَمَاعَةُ»، وقالَ: هِيَ مَا كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي، وَقَالَ فِي رِوايَةٍ ثَالِثَةٍ: «هِيَ مَا كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمِ وَأَصْحَابِي، وهذا يُحَدِّدُ أَنَّ الفِرقَةَ النَّاجِيَةَ يَعْنِي الموعَودَةَ بأنها ناجِيةٌ مِن عَذَابِ اللَّهِ، مِن حَيثُ هي فِرقَةٌ، لا مِن حَيثُ خُصوص كُلِّ فَرِدِ مِن أفرادها، فإنَّها هي من كانَ على مثل ما كان عليه رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم. أَمَّا غَيْرُهم فهُم مِن الفِرقِ الضَّالَّةِ الاثنتين والسبعين هم مُتوعَدُونَ بِعَدَمِ النَّجَاةِ، مُتوَعدُونَ بِالنَّارِ، كُلُّها في النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ. فإذن صارَتِ الدَّعاوي التي تَقومُ بين هذه الفِرَقِ إِنَّما هي مُشابِهَةٌ لدعاوى اليَهُودِ والنَّصارى. الخَوارِجُ تَقرَّبوا إلى الله جل وعلا بقتال الصحابة وهم يَدعونَ أَنَّهم بذلك يتَقَرَّبُونَ إلى اللهِ، وَأَنَّهم هم النَّاجونَ، وأنَّ الصَّحابَةَ الَّذين قاتلوهُم أَنَّهم في النَّارِ، وكانَ الصَّحابَةُ يَحقِرُ أَحدُهم عَمَلَه مَع عَمَلِ الرَّجُلِ من الخوارج، ومع ذلك فإنَّهم كاذبون في دعواهم، أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ الْخَوَارِجِ كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ مع عِظَمِ دَعاويهم وتقربهم إلى الله تعالى، مثل ما حَصَلَ من اليهود، مثل ما حَصَلَ مِن النَّصارى، فإنَّهم يدعونَ أَنَّهم أبناءُ اللهِ وأحِبَّاؤُه، وأنهم من أهل الجنَّة، وأنهم ليسوا من أهلِ النَّارِ ومع ذلكَ الدَّعوى كاذِبَةٌ. وكذلكَ الفِرَقُ جَمِيعُها، المرجِئَةُ تَرى أنها هي على الصّواب، وَأَنَّ غيرها على باطِل كذلك المعتَزلَةُ تَرى أَنَّهَا هي الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ ومَن عداها فهو من أهلِ النَّارِ وَيحكُمُونَ عَلَى النَّاسِ بالنَّارِ يَومَ القِيامَةِ، وأمَّا في الدُّنيا

فهم في منزلَةِ بينَ المنزلَتين، أعني المنتَسِبينَ إلى القبلة عندهم. كُلُّ فِرقَةٍ تَدَّعِي أَنَّهَا النَّاجِيَةُ فهل العبرة بهذه الدعوى أم العبرةُ بالاتِّبَاعِ؟ هذه مَسَأَلَةٌ عَظِيمَةٌ لَا شَكٍّ؛ لأَنَّ كُل مُتَعَبدِ اللَّهِ مِن جَمِيع الفرق والفئات والطوائِفِ كُلِّ يُرِيدُ وَصَلا بالله جلَّ وعلا، كُلِّ يُرِيدُ وَصَلَا بِالجِنَّةِ، كُل يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مِن أهل الجَنَّةِ؛ لكن هل ادعاؤُهم ذلك على صوابٍ أَم عَلَى خَطَا؟ لا بُدَّ مِن بُرهان، والله جل وعلا أقام البرهان في كتابه بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَدِقِين (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) يعني مَن كانَ مِن أهْلِ التَّوحيد وأهل الاتباع. وهذه قاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ تُرِيحُ قَلبَ المؤمِنِ فِي خِضَمِّ الخلافات والإشكالات بينَ الفِرقِ وبين الطوائف وفي نَفْسِهِ إذا عَلِمَ طَرِيقَه وأَنَّهُ تَحَرَّى الحَقِّ الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأخلص في قصدِه وتَرَكَ المتَشَابِهَاتِ الَّتِي رُبَّمَا يَكونُ مع الوقوع فيها الوقوع في الحرام، فإنه بذلك يطمئن على دينه، والله جل وعلا بيَّنَ أَنَّ الفرقة الناجية هم الجماعة، وهم مَن كانَ على مثل ما كان عليه رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

الصُّوفيَّةُ يَدعونَ أَنَّهم أقرب إلى الله جل وعلا أو أنَّهم هم أهل مَحبَّةِ اللهِ، وهل هم مصيبون في دَعوَاهُم؟ لا، لأنَّ تَحكِيم السُّنَّةِ عليهم يَدلُّ على أَنَّهم مُبْتَدِعُونَ فِي دِينِ اللهِ.

إذا نظرت إلى أهل الكلام ونحوهم فإنَّهم يَدَّعونَ أَنَّهم مُنزهونَ اللَّهِ، وَأَنَّهم بهذا التَّنزيهِ للَّهِ فِي نَفي الصفاتِ أَنهم يُقرَّبُونَ بذلك إلى الله، وأنهم يُنزهون الله عما لا يليق به، وهم كاذبون في دعواهم، ولو ادعوا ذلك فليسَتِ المسألة بالدعوى؛ بل هي بالبرهانِ والبُرهانُ التَّوحيد والاتباع. وخُذ هذا في جَميعِ ما ظَهَرَ في هذه الأمة من الفرق والفئات، فكما قالَ الشَّيخُ هنا: (أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ) مِن فِرَقِ أَهلِ الجَاهِلِيَّةِ تَدَّعِي أَنَّهَا النَّاجِيَة، فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صدقين ﴾ [البقرة)، ثُمَّ بَيَّنَ الصَّوَاب بِقَوْلِهِ :(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ الآية [البقرة: ١١٢]) فيا له من بيان ما أوضَحَهُ، ويا لها من مسألة ما أعظَمَها، ويا لها مِن قَضِيَّةٍ ذَاتِ خَطَرٍ وذَاتِ شَأْنٍ عَظِيمٍ، فَطُوبى لمن أخذ بها بحزم وجد، فإنَّ المسألةَ عَظِيمَةٌ، فالمسألة ليست بالأهواءِ والأقوال، إنَّما بالاتِّبَاعِ، ولو خالف المرء من خالَفَ؛ لكن المسألة هي بمسألةِ اتِّبَاعِ الدِّينِ الواضح البَيْنِ الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

مَن الَّذِي يَوصِلُ إلى هذا البرهان، الذي يوصل إلى هذا البرهان هم أهل العِلم الحَقِّ؛ لأَنَّهم هم الذين يعرفون هذا البرهان والدليل وكيف يُحكمونه.

ولهذا نقول: إنَّ الشَّيخرحمه الله تعالى وأجزل له المثوبَةَ قَد بَيْنَ هَذَا بَيَانًا وَاضِحًا. وإذا تأملتَ وَجَدتَ أَنَّ البلوى بهذا عامَّةٌ، فَكُلُّ أَحَدٍ يَدَّعي أنه مُصيبٌ وَأَنَّ غَيْرَه مُخطِيِّ، أَنَّهُ نَاجٍ وَغيرُه ليس بناج؛ بل هو كذا وكذا، وهذه كُلُّها دعاوى، والبرهان هو الْحَكَمُ واللَّهُ المستَعانُ.

الْخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ: التَّعَبُدُ بِكَشْفِ الْعَوْرَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)) اليَهُودُ والنَّصارى لا أَعلَمُ أَنَّهم كانوا يَتَعَبَّدُونَ بكَشفِ العورات، وإنما الذي كان يتعبَّدُ بكَشفِ العورات هم مشركو العَرَبِ مِن أهل مكة، فكانوا يُجبرونَ العَرَبَ الَّذِينَ يَحُبُّونَ أَنْ لا يَدخُلُوا الحَرَمَ بثيابهم التي لبسوها في الحل، فيخلعونَ ثِيابهم التي لبسوها في الحل عند أوَّلِ الحَرَمِ ويُعطيهم أهلُ مَكَّةَ ثِيابًا خاصَّةً بِالحَرَمِ، فَرُبَّما ضاقَتِ الثيَابُ عَدَدًا ولم تَكفِ عَددَ الَّذين يقدمون مِن الحِلِّ، فَبَقِيَ بَعضُ القَادِمِينَ إِلَى مَكَّةَ حُجَّاجًا فتعبدوا الله بكشفهم للعورات، هذا تقرير حالهم، وهم الَّذِينَ نَزَلَ فيهم قَولُ اللهِ جَلَّ وعلا: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا)، قَالَ جَلَّ وعلا: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مسجد ﴾ [الأعراف] ولهذا أمرت الآيةُ بَعدَها يَابَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُل مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١]. وأجمع العلماء في التفسير على أن الزينة في هذه الآية هي ستر العورَةِ، وَأُولئِكَ تَعبُدوا بِكَشفِ العورات، فأمر الله جل وعلا بأنْ تُستر العورات، وأن أولئك كانوا على فاحِشةٍ، فقال: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا)، وهذا يَدخُلُ في جنسِ الفَواحش والموبقات وهي الفعلاتُ العظيمات المخالفاتُ لِما أَمَرَ اللهُ جَلَّ وعلا به. كانوا يتعبدون ويتقربون إلى الله جل وعلا بفعل تلك الفَوَاحِشِ الَّتِي مِنهَا كَشَفُ العَورَاتِ. هذه الخصلة من خصال أهل الجاهِلِيَّةِ العَجَبُ أنَّها سَرَت في هذه الأُمَّةِ عندَ الصُّوفية أكثرَ ما يَكونُ هو أنَّهم تعبدوا الله جل وعلا بالفَواحِشِ، تَعبَّدُوا الله جل وعلا بالموبقاتِ، تَعبدوا اللهَ جَلَّ وعلا بِكَشفِ العوراتِ، فَتَجِدُ أَنَّ طَائِفَةً مِنهم رُبَّمَا كَشفَ عَورَتَه المريد، ورُبَّما - والعِياذُ باللهِ - نام مع مُريدِه يَزعُمُونَ أَنَّ في هذا تربية له وإصلاحًا له، ومنهم مَن تَكشِفُ له المرأةُ عَورَتَها ثقة به، والقِصَصُ في هذا تطولُ؛ لكنَّ هذه ليست خاصة بزمن معين، ولكنها موجودَةٌ إِلَى اليَومَ. فقد قال أحد المريدين لأحد الأشياخ - لأحَدِ أشياخ الصُّوفية في المدِينةِ النَّبَوِيَّةِ - قَالَ أَحَدُ المريدِينَ لأحد الأشياخ قد بالغ وعظم ذلك الشيخ الذي يُريدُه؛ يعني الذي هو مُريد له؛ تلميذ له، حَتَّى تَزَوَّجَ ذلكَ الفتى، قال: فَأَمَرَه شَيخه أنْ يُسافِرَ إلى مَكانٍ، يَقولُ: هو كما حدَّثني بَعضُ طَلَبَةِ العِلمِ فِي المدِينَةِ وقد ترك الصوفية بهذه المناسَبَةِ، فَيَقُولُ: لَمَّا أَمَرَنِي بذلك شَكَكْتُ بَعضَ الشَّيء، فَتَعَاقَلَتُ مُدَّةٌ مِن الزَّمَنِ لساعاتٍ فِي يَومٍ، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى الشَّيخ فإذا هو قد استدعى زوجته، قد استدعى زوجتي وهو معها في حال سيئ، فيقولُ: فَأَخَذَتني الغَيرَةُ فَتَكلَّمتُ عليه، فقال: يا فلانُ أتَشك فيَّ؟ إنَّما هذا لإصلاحها؛ يعني أَنَّهُ يَفْعَلُ هذه الفاحشة يتعبدُ ، يَقولُ: أنا أُصلِحُها، وهذا كثير. ولهذا تَجِدُ عندهم والعِياذُ باللهِ مِن مُخالَطَةِ المردانِ ومِن مُخالَطَةِ النِّساءِ، وَمِن قَبولِ رَقص النِّسَاءِ، والتَّعبد بذلك الشَّيء الكثير، وإذا نظرت إلى موالدهم الموالِدُ الَّتِي تُقام في العالم الإسلامي مِن قَديم فتَجِدُ أَنَّ رَقص النِّساءِ والاختلاط وحصول الموبقات في المواسِمِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا مَوَاسِمُ عِبادَاتٍ مِن ذلكَ الشَّيء الكثير، ومن رأى كِتابَ المدخَل لابن الحاج وإنكاره عليهم وجَدَ مِن ذلكَ شَيْئًا مِمَّا يَشيب له شَعرُ الغُرَابِ، ولهذا أكثر من تأثر بأهل الجاهلية، وسرت فيه هذه الخصلة مِن خِصال أهل الجاهلية في

هذه الأمة، أصحابُ الطُّرُقِ الصُّوفيَّةِ الذين تعبدوا الله جل وعلا بالفَواحِشِ، تَعبدوا اللهَ بكَشفِ العَورَة، تَعبدوا الله والعياذ بالله بمُخالَطَةِ النِّساءِ، بمُخالَطَةِ المردانِ، تَعبدوا الله جل وعلا، بأنواع من الموبقات، نسأل الله جل وعلا السَّلامة والعافية. وهذا قد يأْتِي على بَعض النفوس ولو لم يكن من الصوفية، يَأْتِي عَلَىٰ بَعضِ النُّفُوسِ أَنَّهُ يَتَسَاهَلُ فِي بعض وسائل الموبقات أو في بعض الموبقاتِ زَعمًا منه أنَّ في ذلك إصلاحًا، وهذا كُلُّه مِن التأثُّرِ بتلبيس الشَّيطانِ على النفوس، والواجب على المؤمِنِ أَنْ يَكونَ قَوِيًّا مع نَفْسِهِ وَأَنْ لَا يَكونَ مُهمِلًا، فَوَسَائِلُ الفَوَاحِشِ كُلُّهَا مُحَرَّمَةٌ، ، والأعظَمُ رُبَّما أَنْ يَتعبد بذلك، كما أفتى بَعضُ مشايخ بعض الأمصار في هذا الزَّمَنِ أنه يجوز للرَّجُل أن يرى النساء في الأجهزةِ المختلِفَةِ في وَسَائِلِ الإعلام المختلفة المسموعة، المطبوعة أو المرئية، يعني المجلات أو التلفزيون أو الأفلام أو نحو ذلك، يقول إذا كان قصده التعجبُ مِن خَلقِ الله جل وعلا، فهو يُؤجر بذلك، وهذا لا تعجبون فقد سرى في هذه الأمة وأفتى به من أفتى وقد اطلعت على هذه الفتاوى، وهي موجودَةٌ، مُدَوَّنَةٌ، وهذا لا شَكٍّ أَنَّه مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ.» فليسَ ثَمَّ مِن خَصلة عند أهل الجاهلية إلا وقد دخلت في هذه الأمةِ حَتَّى الأَشياءُ الَّتِي كَانَ يَنفِرُ مِنها ذو الفطرة السليمة، ينفر منها المؤمِنُ، تَجِدُ أَنَّهَا دَخَلَت مِن مِثل الكلامِ المؤذي، نسأل الله جل وعلا، للجميع الهداية والسداد.

السَّادسة والثلاثون: التَّعبدُ بتحريم الحَلالِ، كما تُعبد بالشِّرِكِ، التَّعبدُ بتحريمِ الحَلالِ كما تُعبَدَ اللهُ جَلَّ وعلا بتحريم الشرك، اليهود والنصارى حَرَّموا على أنفُسِهم أشياء، قد أحَلَّها الله جل وعلا لهم وكان تحريمهم لذلك ابتداعًا ابتدعوه كما قال جل وعلا:(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتبناهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعايتهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] تَعبدوا الله جل وعلا بتحريم أنواع من الحلال، وتعبدوا الله جل وعلا بتحليل أيضًا أنواع من الحَرامِ وعاقبهم الله جل وعلا بتحريم أنواع مِن الطَّيِّبَاتِ عليهم، لأنهم فعلوا ذلك كما قال سبحانه: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ اللَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَةٍ أُحِلَّتْ لهم ﴾ [النساء : ١٦٠] وعاقبهم الله جل وعلا على تلك الأفعال التي هي تحريمُ الحَلالِ عليهم بأنْ حَرَّمَ عليهم أشياء، إمَّا تحريمًا كونيًّا أو تحريمًا شَرعِيًّا، أمَّا التحريمُ الشَّرعي فقد جاءَ عيسى عليه السَّلامُ ليُحِلَّ لهم بعض ما حُرِّمِ عليهم، كما جاء في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) فاليهود والنصارى وكذلك مشركو العَرَبِ حَرَّموا على أنفُسِهم أنواعًا مِن الحَلالِ والطَّيِّبَاتِ، وهذا التحريم ليس لأنه لا يوافقهم، ولكن يتقربون بذلك إلى اللهِ جَلَّ وعلا، ولهذا قال الشيخ هنا: (التَّعبد بتحريم الحلالِ)، فإنَّه يُحَرِّمُ الحَلالَ وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بتحريم ذلك، ومَن حَلَّلَ حَرامًا ومَن حَرَّمَ حَلالا كان كمن أحلَّ حَرَامًا والجَميع كُفر، فليس لأحد أن يُحرِّمَ ما أَحَلَّه الله جل وعلا إذا كانَ الدَّليل على إباحتِه واضحا، وليسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحِلَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِذَا كَانَ دَليلُ تَحريمه واضحًا، فَمَن أَحَلَّ حَرَامًا مُجمعًا على تحريمه فهو كافِرٌ وَمَن حَرَّمَ حَلَالًا مُجْمَعًا عَلَى تحليله فهو كافر.

وهذا قد سرى في هذه الأمة، ولا شَكٍّ في أنحاء شَتَّى وأكثرهم الَّذِينَ تَأثروا بِالنَّصارى، وأصل ذلكَ أَنَّ النصارى كانت لهم أديرة، وكانت هذه الأديرة في الشَّامِ وفي العراق، وكانوا في أديرَتِهِم يُحَرِّمُونَ على أنفُسِهم أنواعًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ لأنَّها لا تُناسِبُ الخُلَّصَ مِن عِبادِ اللهِ كما يزعمونَ، فَدَخَلَهم بَعضُ المتَنَسِّكَةِ مِن المسلمين، وأخذوا يختلطون بهم، وذلك لا لأجل التأثر بهم ولكن لأجل أنَّ هذه الأديرة قائمَةٌ خارجَ البلد، يعني خارج بغداد، خارج الكوفة، خارج دمشق ونحو ذلك، وهي أديرَةٌ مُنعَزِلَةٌ فَيَتعبد النصراني بعبادَتِهِ ويَتَعَبَّدُ المسلمُ بعِبادَتِهِ خاليا، حتَّى تأثر طائِفَةٌ مِن المنتسبينَ إلى الإسلام، يعني طائِفَةٌ مِن المسلمينَ مِمَّن خالطوا النَّصارى، تأثروا بهم في تلك الأديرة، كما أوضَحَ ذلكَ مُفصَّلًا أو بِجَلاءٍ، أبو الحسن علي بن محمد، المعروف بالشابشتي (ت ٣٨٨هـ) في كتابه: (الديارات)المقصود أنهم أوضحوا أنهم تأثروا بهم ودَخَلَ التأثر بهم في أنهم حَرَّموا عَلَى أَنفُسِهِم حَلَالًا أَحَلَّهُ اللَّهُ جل وعلا، فمنهم مَن حَرَّمَ على نَفْسِه، فمنهم مَن حَرَّمَ مُطلَقًا، يعني على نفسه مطلقا، مُتعبدا بذلك، لا لأجلِ عَدَمِ مُناسَبَتِهِ له مُتعبدًا بهذا القيد، حَرَّمَ أنواعًا مِن الطَّيِّبَاتِ، فَحَرَّمُوا عَلَى أَنفُسِهِم مَا أَباحَ اللَّهُ مِن اللباس اللَّيْنِ، وأخذوا يلبسونَ اللبَاسَ الخَشِنَ وحَرَّموا ما أحَلَّ الله جل وعلا لهم مِن شُرب الماء البارد، وقالوا: هذا من النعيم، فشربوا الماء الذي رُبَّما لا يُشرَبُ مِن الكدورة ونحو ذلك، حَرَّموا على أنفُسِهِم أنواعًا مِن المآكِلِ، حَرَّموا على أنفُسِهم الزَّواج، فلم يَتزَوَّج كثيرٌ مِن المتَصَوَّفَةِ انقِطَاعًا للهِ جل وعلا، يتعبدون بذلك. ولا شك أنَّ هذا كُلَّه مِن التَّأثر لأولئك.فالتَّعبد بتحريم الحَلالِ هذا كانَ مِن خصال أهل الجاهلية، وصار في هذه الأُمَّةِ وأكثرُ مَن يُوصَفُ به المتصوفة والشَّيخُ رحمه الله يُرَكِّز كثيرًا على خصال أهل الجاهلية التي يراها قد سَرَت فيما حَولَه في حَياةِ المسلمين، يُرَكَّز على ذلكَ وَكَأَنَّه تَأَمَّلَ حَياتهم حَياةَ المسلمين في وقته واستَخْرَجَ مِن الأَدلَّةِ مَا يُبَيِّنُ حُكمَ تِلكَ الأحوالِ، ثُمَّ جَمعَ هذه الرسالةِ، رِسالَةِ مَسائِلُ الجاهِلِيَّةِ» لأنَّها تَجمَعُ النَّهي عن هذا كُلَّه، تَجمَعُ النَّهيَ عن كُلِّ التَّصَرُّفاتِ الَّتي كان أولئك عليها، ولو تأمل المتأملونَ لوجدوا أنَّ مُشابَهَةَ المسلِمِ لأهل الجاهلية أنه عار عليه كيف وقد خالَفَ النَّبِيُّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ أهل الجاهلية؟كيف يُشابِه أهل الجاهلية وهو يَعلَمُ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد خالف أهل الجاهلية ؟ فَلا شَكٍّ أَنَّ هَذَا فِيهِ تَناقُضَ ظَاهِرٌ.

السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ التَّعبُدُ بِاتِّخَاذِ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ

الثَّامِنَةُ وَالثَّلاثُونَ: الْإِلْحَادُ فِي الصِّفَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ

التَّاسِعَةُ وَالثَّلاثُونَ الْإِلْحَادُ فِي الأَسْمَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ (الرعد: ٣٠)

الأَرْبَعُونَ التَّعْطِيلُ كَقَوْلِ آلِ فِرْعَوْنَ

الْحَادِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: نِسْبَةُ النَّقَائِصِ إِلَيْهِ، سُبْحَانَهُ كَالْوَلَدِ وَالْحَاجَةِ وَالتَّعَبِ مَعَ تَنْزِيهِ رُهْبَانِهِمْ عَنْه

الْمَسْأَلَةُ (السَّابِعَةُ وَالثَّلاثُونَ التَّعَبُدُ بِاتِّخَاذِ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)، وهذه الخَصْلَةُ هي الَّتي ذَكَرَها الله جل وعلا عن أهل الكتاب بقوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١] والأحبارُ جمعُ حَبر أو جمع حِبر، وهم علماء اليهود، والرهبانُ جَمعُ راهِبِ وهم عُبَّادُ النَّصارى، وأيضًا عُلَماؤُهم، والله جل وعلا، بيَّنَ أنَّ أهلَ الكِتابِ اتَّخَذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا مِن دونِ اللهِ، يعني مع الله جل وعلا فقوله: ﴿وَمِن دُونِ اللَّهِ) يعني مع الله جل وعلا، ويُعبر عن (مع) بـ مِن دونِ) لإفادَةِ أنَّ هذا الذي أُشرِكَ مع الله جل وعلا في ذلكَ أَنَّه دونَ اللهِ جَلَّ وعلا حقيقةً وحُكمًا.

فقال هنا: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ وَوَجْهُ هذا الاتِّخاذ ما أَخبَرَ به النبي عليه الصَّلاة والسَّلامُ لعَدي بن حاتم، فإنْ عَدِيًّا أتى النبي عليه الصَّلاة والسَّلامُ وهو يتلو هذه الآية فقالَ عَدِيٌّ بن حاتم، وكانَ نَصرانيا فأسلم، قالَ يا رَسولَ اللهِ ما عَبَدوهم قَالَ: «أَلَمْ يُحَرِّمُوا عَلَيْهُمُ الْحَلَالُ فَحَرَّمُوهُ»، قال: بلى، قالَ: «أَلَمْ يُحِلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَأَحَلُّوهُ»، قَالَ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». فإِذَن يَكونُ مَعنى قولِه تَعَالَى: ﴿ أَتَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا) معنى الأرباب في هذه الآية أي المعبودين، وذلك أنَّ الأربابَ جَمعُ رَبِّ، وقد قالَ الشَّيخُ رحمه الله تعالى – أعني المصنِّفَ الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب في بَعض رسائله : إنَّ لَفظَ الرَّبِّ والإلهِ تَدخُلُ في الأَلفاظ الَّتِي تَختَلِفُ معانيها مع الجمع والتفريق، يعني إذا اجتمعت تفرقت، وإذا تَفَرَّقَت اجتمعت؛ يعني أنه إذا أُطلِقَ لَفظُ الرَّبِّ فَإِنَّه يُرادُ منه المعبود، كما يُرادُ بلفظ الإله، ويُحدِّدُ ذلك السياق، وإذا أُطلِقَ لَفظُ الْإِلَهِ فَإِنَّهُ يُرَادُ مِنه مَعنى الرَّبِّ وذلك يُحَدِّدُه السياق، وقد يُرادُ مِنه المعنى الأصلي، ولا شَكِّ أنَّ لفظ الإِلَهِ وَلَفظَ الرَّبِّ بَيْنَهُمَا اختِلافٌ مِن جِهَةِ اللُّغَةِ وأيضًا بَينَهُما تَلازُمٌ ، فإنَّ الإِلَهَ لا يَصيرُ إِلَهًا حَقًّا حَتَّى يَكونَ رَبًّا، وَالرَّبُّ يَكُونُ رَبًّا وَيَلزَمُ مِن ربوبيته أنه يستحقُ العِبادَةَ، ولهذا كان توحيد الإِلَهِيَّةِ مُتَضَمَّنا لتوحيد الربوبية، وصارَ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

فإذن قوله هنا: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) يعني معبودين، وهذا هو المرَادُ بِسُؤالِ القَبرِ حيثُ يُسأَلُ الميْتُ: مَن رَبُّكَ؟ يعني من معبودك؟، وَسَبَبُ هذا أَنَّه يعني، سَبَبُ جَعَلِ المعنى للربوبية الإلهية في هذا، أنَّ الابتلاء لم يقع في معنى الربوبية الذي هو الإقرار للهِ جَلَّ وعلا بتوحيده بأفعاله، وإنَّما وَقَعَ الابتلاء في العِبادَةِ، ولهذا في السؤال: مَن رَبُّكَ ؟ يعني مَن مَعبودك؟ كما مَرَّ معنا مُفَصَّلا في شرح ثَلاثَةِ الأُصولِ»، وكذلك هنا أربابا، يعني معبودين، وهذا من مِثلِ قَولِهِ فِي آيَةِ آلِ عِمرانَ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الملائكة وَالنَّبِيين أَرْبَابًا أَيَا مُركُم بِالْكُفْرِ بَعدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)

فإذن أهل الكتابِ اتَّخَذوا الأحبار والرهبان يعني اتَّخَذ اليهودُ عُلَماءهم واتَّخَذَتِ النَّصارى عُلَمَاءَها مطاعينَ مع اللهِ جَلَّ وعلا، يَأخُذون التشريع والتحليل والتحريم مِن اللّهِ، وَيَأْخُذُونَهُ مِن عُلَمائهم، وإذا حلل لهم العلماء الحَرَامَ أَحَلُّوه وتَقَرَّبُوا إلى الله جل وعلا بالتحليل، اعتقدوا حِلَّه، وهذا معنى كونهم تعبدوا الله جل وعلا به، فقال هنا: ((السَّابِعَةُ وَالثَّلاثُونَ: التَّعَبدُ بِاتِّخَاذِ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ أَرْبَابًا))، يَعْنِي أَنَّهم يعتقدون أن ما قالوه من تحريم الحَلالِ أنه هو الصواب، ومعنى هذا أَنَّهُم جَعَلُوهُم شُرَكَاءَ مَعَ اللّهِ جل وعلا حَرَّمَ شَيْئًا وَهَؤلاء أَحَلُّوهُ، فأطاعوا الأحبار والرهبان، ولم يُطيعوا الله جل وعلا في ذلك، فتعبدوا باتخاذهم أربابًا مِن دونِ الله جل وعلا. هذا الوضع الذي كان عند اليهود وعند النَّصارى كانَ أيضًا عندَ مُشرِكي العَرَبِ، فَإِنَّ مُشْرِكِي العَرَبِ كانوا يرجعون إلى اليَهُودِ والنَّصارى في كثيرٍ مِن أُمورهم. فهذه الخصلة كانت عند اليهود والنصارى وكانت عندَ مُشرِكي العَرَبِ بالنظر إلى سؤالهم للأحبار والرهبان، هذه الآية عظيمة، وهي قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١] ويُبيِّنُ أنَّهم أرادوا بذلك التَّعبد، ما قاله الله جل وعلا بعد ذلك حيثُ قَالَ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَحِدَاً ﴾ [التوبة: ٣١] فدل على أنَّ ما فعلوه عِبادَةٌ وتعبد، وذلك أَنهم تَلَقَّوْا التحليل والتحريمَ مُقِرّينَ، مُعتقدين لذلك، مُتَقَرِّبِينَ بِهِ إِلَى اللَّهِ، فهم إذا ما فَعَلُوا الحرام طاعَة للعلماء مع اعتقادهم للعصيان، ولكن فَعَلُوهُ مُتَعَبدين الله جل وعلا بذلك، وهذا والعباد بالله هو الَّذِي وَقَعَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ فِي طَوَائِفَ. المقصود أن علماء أهل الكتابِ حَرَّموا على أتباعهم الحلالَ وأَحَلُّوا لهم الحَرَامَ، وَهُذًا وَجهُ كَونهم اتَّخَذوهم أربابًا، حَيثُ بَيْنَ النَّبِيُّ أنَّ الربوبية هنا هي الطَّاعَةُ، وذلكَ أيضًا مُستَلزِمٌ للعِبادَةِ، لأنَّ مِن أنواع العِبادَةِ الطَّاعَةُ.

هذه الخصلة من خصال أهل الجاهلية، والله جل وعلا أرادَ من هذهِ الأُمَّةِ، بل قرَّرَ ذلكَ فِي القُرآنِ وَبَيَّنَه كَثِيرًا أَنْ يَستَسلِموا لله وللرسول، وأن لا يقبلوا بحكم غَيرِ حُكمهما، وَأَنْ يَتَعَبَّدُوا اللهَ جَلَّ وعلا بتحليل الحلال الذي أحَلَّه وتحريم الحرام الذي حَرَّمَه، وبَيَّنَ صِفَةَ المشركِينَ في ذلك بقوله: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفْتِرَاهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الأنعام: ١٤٠] كما وَضَحَ فِي المسألَةِ الَّتِي قَبْلَها مَن تعبد المشركِينَ بتحريم الحَلالِ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاء عَلَى اللهِ. بينَ أنَّ المنافِقِينَ أيضًا هذه حالهم، وأنهم يرفضونَ حُكم الله وحُكمَ رَسولِهِ إِلَى حُكم من سواهما كما جاءَ رَجُلٌ وأراد أن يتحاكم إلى كعب بن الأشرف، ونحو ذلك، ولم يُرِدْ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلى اللهِ جَلَّ وعلا وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم هذا دَخَلَ في هذهِ الأُمَّةِ في مَيادِينَ شَتَّىٰ مَا بَيْنَ مُكثِرٍ وَمَا بينَ مُقِلٌ. وبوب له الشيخ رحمه الله في كِتابُ التَّوحيد»، بقوله: باب مَن أطاعَ العُلَماء والأُمْراءَ فِي تَحريم ما أَحَلَّ الله أو تحليل ما حَرَّمَ اللهُ فقد اتَّخَذَهم أربابًا مِن دونِ اللهِ، **والمُرادُ بالطَّاعَةِ أَنْ يُطِيعَهم مُصَوّبًا مَا فَعَلُوا. أَمَّا إذا كانت الطَّاعَةُ مع اعتقادِ البطلان، فهذا لا يَصيرُ كَافِرًا**، لأنَّ الطَّاعَةَ الظَّاهِرَةَ مع اعتقادِ البُطلانِ في القلب فإنَّ هذا فيه تفصيل، لا يَكونُ كُفرًا باطراد، بل ثَمَّ أحوال له.

دَخَلَت طَاعَةُ غَيرِ اللهِ وَطاعَةً غَيرِ رسوله صلى الله عليه وسلم ، في هذه الأمة شيئًا فشيئًا، لكن ما

وَصلَت إِلَى دَرَجَةٍ المعارَضَةِ لحكم الله ولحكمِ رَسولِه بمثل ما فعل أولئكَ إلَّا في الأزمِنَةِ المتَأَخْرَة، نعم بَزَغَ التَّقْلِيدُ وظَهَرَ شَيئًا فشيئًا، لكن ما وصل إلى هذه المسائلِ العَظيمَةِ الَّتي يُحَرَّمُ فيها الحَلالُ الواضِحُ، وَيُحَلُّ فيها الحَرَامُ الواضح كما حصل فيما بعد، أوَّلُ ما دَخلَ في هذا على طائفة من هذه الأُمَّةِ تَبِعُوا مَذَاهِبَ طَوَائِفَ مِن الفرس الذين يُحِلُّونَ البَناتِ والأخوات والأمهات ونحو ذلك، تبعوهم في هذا وحَصَلَ وَظَهَرَ ذلكَ وَكَثُرَ كَلامُ العُلَماء في هؤلاء، فقالوا: إنَّه لا فرق، نسأل الله العافية، بين الأم والزَّوجَةِ، لا فَرقَ بينَ الأُختِ والزَّوجَةِ وَأَحَلُّوا مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَتَعَبَّدوا بذلك، يعني اعتقدوا أنَّ ما فعلوه أنَّه هو الصَّوابُ، وَدَخَلَ في هذا بعد حينٍ طَائِفَةٌ مِن غُلاةِ المتَصَوَّفَةِ كما ذُكِرَ عن بَعض رُؤسائهم أنَّه قال: لولا فُرِّق ما بين الأُختِ والأم لم أجد فَرقا بينَ الزَّوجَةِ والأم، والأُختِ والزَّوجَةِ لَم أَجِدْ فَرقًا بَيْنَا بَينَهما. وهذا تبعه عليهم طائفةٌ فصارَ في غُلاةِ المتَصَوِّفَةِ مَن يَتَعَبَّدون بذلك وأطيعوا، وصارَ منهم مَن يُهدي - نسأل الله جل وعلا العافية، اتباعًا لهذا القَولِ بَناتِه لهؤلاء المشايخ الذين أُطيعوا في تحليل الحرام وفي تحريم الحلال. ثُمَّ ظَهَرَت فِي القَرْنِ السَّابع والثامن الهجريَّين، ظَهَرَت القوانينُ الَّتي قَدِمَت إِلَى الْأُمَّةِ مَعَ مَجيء التتار، وكتب في ذلك شيخ الإسلام رحمه الله، ما كتب، وكذلك ابن كثير في « إلياسق التتارِ وقانون جنكيز خان»، ونحو ذلكَ مِمَّا فِيهِ بَيَانُ أَنَّ عَدَمَ تَحكيمِ الشَّرعِ أنه من خصالِ المنافِقِينَ، وَمَن أَخَذَ بِتَلكَ القَوَانِينِ نابذا الشرع واستَبَدَلَ شَرِيعَةً بِشَرِيعَتِه، فإنَّه يَكونُ كَافِرًا لأن الله جل وعلا وصَفَ المنافِقِينَ بِقَولِه: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُم بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنهُم مُّعْرِضُونَ (3) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الحقُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (2) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ أرتابوا أم يخافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أَوَلَيكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)) [النور. ثُمَّ بين حالَ المؤْمِنِينَ فقال جل وعلا: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لِيَحْكُرَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١] وهذه حال أهل الإيمانِ، (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولُ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حملَ وَعَلَيْكُم مَّا حَمِلْتُ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)النُّور. تَطوَّرَ الأمرُ حَتَّى صَارَ هذا في جِهَتَينِ مِن النَّاسِ في هذه الأمة:

الجهة الأولى جهة المحكّمين للقوانين مِثلَ ما هو ظاهِرٌ في هذا الزَّمانِ.

والجهة الثانية في الذين تابعوا العلماء في تحريم بعض الحلالِ أو في تحليل بعض الحرام ويُطيعونهم في ذلك مُعتَقِدِينَ أَنَّ كَلامَ العُلَماءِ صَوَابٌ. فأما الجهة الأولى وهي جهة القوانين فقد كثرت مع الاستعمار(الاحتلال) في هذه الأُمَّةِ، فَهُناكَ بِلَادٌ كَثِيرَةٌ استبدلت بها الشَّرِيعَةُ، شَرِيعة الإسلام بشَرِيعَةِ أولئكَ الكَفَرَةِ مِن قانون فرنسي أو قانون بريطاني أو قانون أمريكي أو نحو ذلك، فصارَ الشَّرعُ لا يُحكم به إلَّا في مَسائِلِ؛ يعني أَنَّ الأصل تحكيمُ القانون، وأَمَّا الشرع فلا يُحكم به في تلكَ الدِّيارِ إِلَّا فِي مَسائِلِ. وهذا استبدال لشريعة بشريعة، وهو كُفر أكبر، والعياذ بالله ،وَصَارَ النَّاسُ يَعتَقِدُونَ أَنَّ ما تقولُه القوانين

وأن ما يقوله القانونِيُّونَ أَنَّه صَوَابٌ، وَأَنَّ الزَّمَنَ يفرِضُ هذا وأن الحاجة إليه داعية، وأصبحت شريعة الله جل وعلا في الحكم بها نسيا منسيا بين العالمين، إلا فيما يتعلق ببعض الأحوال الشرعية من النكاح والطلاقِ والوَقفِ والهبة والإرث ونحو ذلك.

والحكم بالقانون، تحكيمُ القوانين:

إذا كانَ المحَكِّمُ لَهَا يَعتَقِدُ أَنَّهَا أَصَحُ وأصوَبُ مِن الحكم بالشَّرعِ، فَإِنَّ هذا كُفر بالله جل وعلا مِن جِنسِ الَّذِينَ اتَّخَذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا مِن دونِ اللهِ. وكذلك إذا اعتقد المساواة؛ أنَّ الحكم بالإسلامِ يُساوي الحكم بالقانون، الحكم بالقوانين، أو تَحكُمُ بالشريعة أنت مُخَيَّر، وهذا أيضًا كُفَرٌ أكبر.

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ أَنْ يَعتقد أنَّ الحكم بالقوانين جائز وأنَّ الحكم بالإسلامِ جَائِزٌ وهذه كُلُّها كُفْرٌ اعتقادِي، كفر أكبر. وإن اعتقد أنَّه يَجِبُ الحكم بالإسلام والأخذ به في الحكم فَرضُ، ولكن تحكيم القوانين هذه إنَّما يكون بحسب الحاجة إليها، فهذا يُنظر في حاله، فإن كان يعني فيه تفصيل، يعني اعتَقَدَ أَنَّ الإسلامَ أَحَقُّ وهو الأوجب ولكن يَقولُ : نَأْخُذُ بالحكم بالقوانينِ في بَعض الأشياء، فهذا فيه تفصيل:

فإن كانت هذه الأشياء التي يَقولُها غالبةً على حكم الإسلام بحيثُ يَكونُ الحُكمُ بِالقانونِ ظَاهِرًا غالبًا فإنَّه يَكون ذلكَ كُفْرًا؛ لأنَّ الغَلَبَةَ تَكونُ لَغَيرِ الإسلام للقوانين، يعني اعتَقَدَ أَنَّ الإسلامَ وَاجِبٌ، لكن تحكُمُ بِغَيرِهِ لأنَّنا نحتاج إلى ذلك، وصارَ حُكمُه بِغَيرِ الإسلام غالبًا كَثيرًا ظَاهِرًا، فَإِنَّ هَذَا أَيْضًا مِن تحكيم القوانين الذي هو كفر في حقه.

والحالة الثانية أن يَكونُ تَحكيمه للقوانين واعتقاده لوجوب الحكم بالإسلام أنَّه ليس بالظَّاهِرِ الغَالِبِ ولكن إما تأوَّلَ في الحكم ببعض المستجدات بالقانونِ لضَعفِ إدراكه أَنَّ الشَّرعَ يَحوي هذه الأحكام جميعًا، وإمَّا لأن لديه شبهة في هذا الأمر، وعنده أنَّ الحكم الواجب هو الشَّرعُ، وَيَجِبُ أنْ يكونَ الحُكمُ بالشرع غالبًا ظاهرًا، فإنَّ هذا ليس بمُكَفِّرِ الكُفْرَ الأكبر، بل هو مَعصِيَةٌ مِن جنسِ المعاصي، لِمَ؟ لأنه اعتقد أن الحكم بالإسلام هو الواجب، وأن **ظهور حكم الإسلام** والحكم بالشرع وبالكتاب والسُّنَّةِ هذا هو الواجب، **ولم يَستبدِل** شَريعَةً بِشَرِيعَةِ. وأيضًا هنا فَرقٌ بَينَ مَقَامَين، بَينَ ما إذا أُنشِئَتِ القوانين إنشاء، أَصْلَتْ أَصْلًا وَبَيْنَمَا إذَا وَفَدَت شَيْئًا فَشَيئًا، فَإِنَّ وُفودَها شَيْئًا فَشَيئًا هذا يُقَوِّي أَنَّ ثَمَّ تَأْوِيلًا في المسألة. ولهذا يأخُذُ العُلَماء بهذا الأصل المهم، وهو أنَّ الذي يعتقد بحكم القوانين هذا يَعتَقِدُ بوجوبها أو جوازها أو مساواتها للشرع أنَّ هذا كَافِرُ الكُفر الأكبر. **وإمَّا إذا قالَ:** إنَّ حُكم الشرع هو الواجِبُ والحُكم بالإسلام بالكتاب والسُّنَّةِ هذا هو الفرضُ، وقد يُؤْخَذُ بِغَيْرِهِ إمَّا قَولًا أو عَمَلًا لَشَيءٍ مِن التَّأويل أو الشُّبهة أو للحاجة أو نحو ذلكَ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَكونُ كُفَرًا سيما إذا كَانَ يَأْتِي شَيْئًا فَشَيئًا، لأنَّ هذا يُقَوِّي جَانِبَ التَّأويل. وهذا هو الَّذِي فَصَّلَه الشَّيخُ مُحمَّد بن إبراهيم رحمه الله تعالى في رسالة: «تحكيمُ

القوانين»، وكذلك في فتاويه في مواضع كثيرةٍ مَن جَمَعَها ظَهرَ له هذا التفصيل، وهو الموافِقُ لَقولِ عَامَّةِ العُلَماء.

الجهة الثانية، جهةُ العُلَماءِ الَّذِينَ أَفتَوا أتباعهم بتحريم الحَلالِ أو بتحليل الحرام فأطاعوهم، وهم غُلاةُ المِقَلَّدَةِ، غُلاةُ المِقَلَّدَةِ الَّذين يقول لهم عُلَماءُ مَذهَبهم أو يَجِدُ فِي كِتَابٍ مِن كُتُبِ مَذْهَبِهِ أَنَّ هَذا الشَّيءَ مُبَاحٌ ويَجِدُ فِي النَّص الشرعي أنه حرام، وقد قامت الحجة عليه وانقَطَعَت مَعذِرَتُهُ، وَتَقرَّبَ إلَىٰ الله جل وعلا بهذا الفعلِ يعني بأنَّ هذا الَّذِي حَرَّمَه الشَّرعُ أَنَّه حَلالٌ فَيَكُونُ مِن جِنسِ مَن اتَّخَذَ العُلَمَاءَ أربابا من دون الله وهذا يَكثُرُ فِي غُلاةِ المِقَلَّدَةِ، نسأل الله جل وعلا العافية حتَّى إِنَّ مِنهم مَن رَفَضَ الحُجَجَ الشَّرعية بتحريم بعض ما أحَلُّوه أو تحليل بعض ما حَرَّموه بناءً على أنَّ الذي قالها عَالِمٌ كَبِيرٌ وحَبْرٌ إِمَامٌ مُجْتَهِد في تلك المسائل. إذا ثَبَتَ النَّص وصارَت دَلالته قطعيَّة ليس لأحَدٍ العُذْرُ في أن يجعَلَ مَا حَرَّمَهُ الشَّارِعُ حَلالا، لكنَّ هذا بشروط، وأعظمها أن تكون دلالته قطعية، وأن يكونَ ثُبوته قطعيًّا أو شبيها بالقطعِي، ونعني بالقطعِي ثبوته مِثلَ القُرآنِ أو شَبيها بالقَطعِي ،الأحاديثُ المتَواتِرَةُ أو التي تلقيت بِالقَبولِ؛ تَلَقَّتها الأُمَّةُ بِالقَبولِ فَإِنَّ هذا مِن جِنسِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ العُلَماء أرباباً مِن دونِ اللَّهِ، إذن فصارَ غُلاةُ المِقَلَّدينَ يَدخُلُونَ في هذا، وهؤلاء واجَهَهم الشَّيخُ رحمه الله حينما قامَ بالدَّعوَةِ، وَجَدَهم، وأعظَمُ ما أَحَلُّوه من الحرام الشرك، وأعظَمُ ما حَرَّموهُ مِن الواجباتِ التَّوحيد، كما قال الله تعالى عن أشباههم: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هم يستبشرون) [الزمر نسأل الله العافية. قالت لهم عُلَماؤُهم إنَّ هذا التوحيد لا يَصلُحُ، لابد أن تتَّخِذوا وَسَائِطَ، فَتَعبُدوا اللَّهَ جَلَّ وعلا بِاتِّخَاذِ الوَسَائِطِ، قالوا: إنَّ الشِّرِكَ، ويُسَمُّونَه التَّوَسُّلَ ،إنَّه لابُدَّ مِنه، كيفَ تَصِلُ إلى اللهِ؟ أنت صاحِبُ مَعْصِيَّةٍ أَلا تستحي أن تَرفَعَ يديكَ إلى اللهِ وأنتَ قد كَبَّلت يديك بالمعاصي وقلبكَ بالشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، فهل مِثْلُكَ يُفتح له الباب؟ ، يجب أن تتوسل إلى الله ببعض الصَّالحِينَ مِن عِبادِهِ، مِمَّن لهم مِن المِقامَاتِ العَالِيَةِ من الأولياء الأمواتِ، فَذَهَبوا إلى قبورهم فأعلموهم أنَّ الَّذي حَرَّمه الله وهو الشِّرِكُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام: ١٥١] أنَّه واجبٌ أَو مُستَحَبٌّ، فَتَعَبَّدُوا اللهَ بذلك، وكذلك أعلموهم أنَّ التَّوحيد هذا الَّذي أمر الله جلَّ وعلا به وأوجَبَه أَنَّه ليس بواجب؛ بل لكَ أَنْ تَتَّخِذَ الوسائط في ذلك، كذلك في مسائل العباداتِ المختَلِفَة.وهذا كَثِيرٌ فِي المقَلّدَةِ الغُلَاةِ، الَّذِينَ حَرَّموا بَعضَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ جَلَّ وعلا.وهذا نسأل الله جل وعلا العافية يكون باعتبارِ الطَّائِفَةِ ويكون أيضًا باعتبارِ الشَّخص في نَفْسِهِ مِنَ اتِّخَاذِ العلماء أو الأحبار والرهبانِ أرباباً مِن دونِ اللهِ.

فالواجب على المسلِمِ أَنْ يَكونَ مُتَحرِّيا للحَقِ، حَريصًا على الحَقِّ، باحثًا عنه، وأنَّه إذا سَأَلَ أَهْلَ العِلمِ أو سَمِعَ قَولًا أو سَمِعَ رَأيًا، أن ينظر هل هذا فيه نصوص في الكِتابِ والسُّنَّةِ به أم لا؟ فَإِنْ كَانَتِ المِسأَلَةُ اجتهادِيَّةً فَإِنَّه يَأخُذُ بِقَولِ العالم ويعتقده دينا لأنه لا نَصَّ فيها، وإن كانت المسألة فيها نص فيسألُ مِن أهل العلم من عنده علم بفقهِ النُّصوص.

كذلكَ يَجِبُ على المسلِمِ أَنْ لا يُشرِكَ أولئك في أعمالهم؛ أعني الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الأَقوال دونَ بَيْنَةٍ، ودونَ حُجَّةٍ ودونَ بُرهان، خاصةً في المسائل العامَّةِ الَّتي يَتَعَرَّضُ لها المسلِمُ في حَياتِه في سلوكه في نفسه وسلوكه في مُجتَمَعِه؛ بل وسلوكه في الأمة جميعا، يَجِبُ عليه أن يتبيَّن له، وأنْ لا يَأْخُذَ بالأقوالِ والآراء مُجرَّدةً عن أدِلَّتِها، لأنَّه يَكونُ إمَّا واقعا في التقليد، وإمَّا مُتعبدًا والعِياذُ باللهِ بما حَرَّمَهُ اللهُ جَلَّ وعلا.

المسأَلَةُ (الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ الْإِلْحَادُ فِي الصِّفَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ) [فصلت] الإلحاد في الصِّفاتِ معناه، يعني أصل الإلحادِ الميلُ، مَيل عن القَصدِ، مَيل عن الصِّراطِ السَّوِي، ميل عن الاستقامةِ الحَدَ في كذا يعني مال، ومنه سُمِّي اللحد في القبر لحدا، لأنَّه مائل عن جهة سمتِ الحفر، يكون مائلا في جهة، فالإلحاد في الصفاتِ أَنْ يُعَدَلَ فيها عن الحَقِّ اللَّائِقِ بها

ويُذهَبَ إلى غيره:

إما بنفي للصفة.

وإما بتأويلها عن معناها الظَّاهِرِ.

وإِمَّا بحملها على مَحامِلَ بَعيدَةٍ لا صلة لها باللفظ.

الإلحاد في الصفات وقع فيه المشرِكونَ، حَيثُ اجتمعوا مَرَّةً اجْتَمَعَ مِنْهم طَائِفَةٌ كما يُروى عندَ الكعبة، فقال قائل: إنَّ الله جل وعلا لا يَسْمَعُ كَلامنا، لأنَّنا نتكلَّمُ سِرًّا، وَإِذَا فَعَلْنَا الشَّيءَ سِرًّا فَإِنَّه لا يَعلَمُ بذلك ولا يَسْمَعُ دَقيقَ الكلام، ونحو ذلك، فنفوا عن الله جل وعلا بَعضَ صِفاتِه، واعتقدوا فيها الباطل، وهذا معنى الإلحاد، قال جل وعلا مُبيِّنًا بعض اعتقاداتهم قال: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أرداكُمْ ﴾ [فصلت: ٢٣]، وهذا الظَّنُّ هو أنهم كانوا يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ لَا يَعلَمُ كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. كما قال جل وعلا هنا في الآية التي ساقها الشَّيخُ رحمه الله تعالى: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ) ظَنَنتُم يعني اعتقدتُم وهو مُوافِق لبعض أقوالِ الفَلاسِفَةِ المتَقَدِّمِينَ فِي أَنَّ اللهَ جَلَّ وعلا إنَّما يَعلَمُ الكُلْياتِ دونَ الجزئيات، ويَعلَمُ العُموماتِ دونَ التفاصيل، أو موافق لبعض أقوال الفرس ونحوهم مِن أنَّ العِلمَ لا يَكونُ إلَّا بعد الوقوع، فلا يُمكِنُ للشَّيء أنْ يُعْلَمَ إلَّا بَعدَ أَنْ يَكُونَ وَاقِعًا موجودًا، فعندهم أنَّ الوُجودَ له مرتبةٌ وَاحِدَةٌ، وهي الوجودُ الفعلي، أما الوجودُ العِلمِيُّ قبل أن يوجَدَ فِعلا فليس كذلك. هذا الحاد في الصفاتِ، لِمَ؟ لأنَّهم سلبوا عن الله جل وعلا صِفَةً مِن صِفاتِه أو بَعضَ الصِّفَةِ، قالَ: ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا) يعني اعتقدوا أنَّ اللهَ يَعلَمُ بعضًا ولا يعلمُ بَعضًا، وهذا أيضًا كان عند اليهود، حيث قالوا:(يدُ اللهِ مَغْلُولَةً ﴾ [المائدة: ٦٤] هذا الحاد في الصِّفاتِ، وَوَقَعَ أيضًا عندَ النَّصارى حيث جعلوا الله

جل وعلا ثالث ثلاثة. هذا كُلُّه مِن الميل في الصفاتِ عمَّا يَجِبُ لها، وهذا الذي حَصَلَ كما تَعْلَمُونَ، وَرِثْتُهُ هذه الأُمَّةُ وَصارَ عندَ المبتَدِعَةِ فِي الصِّفاتِ على أوسع أبوابه:

فالجهمية مثلًا جَعَلُوا الصِّفاتِ جَمِيعًا مَنفِيَّة، وكذلك الأسماء جميعًا منفية، وأثبتوا له صِفَةً وَاحِدَةً أتوا بها من عندِ أَنفُسِهم، وهي صِفَةُ الوُجودِ.
المُعتَزِلَةُ نَفَوْا كُلَّ الصِّفاتِ وأثبتوا ثلاثَ صِفاتٍ فَقَط.

الأشاعِرَةُ أثبتوا سبعًا ونفوا وتَأولوْا البَقِيَّة. **فلم** يثبتوا من الصفات التي هي معاني وجودية تقوم بالله تعالى : إلا سبعة.وقد أدخلوا تحت ما أثبتوه من الصفات: أمورا باطلة ، كإدخالهم تحت "المخالفة للحوادث" : نفي علو ومباينته لخلقه. لا يثبت الأشاعرة الصفات الخبرية كالوجه واليد والقدم، ولا الأفعال الاختيارية كالاستواء والمجيء والنزول، ونحوها ، ويتأولون ذلك أو يفوضونه.
ومنهج السلف الصالح : إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تأويل ولا تعطيل، ولا تشبيه ولا تمثيل.**الماتريدية** أثبتوا ثمانية صفاتٍ ونَفَوا البقية وتأولوها ، وهكذا.

فإِذَا نَفِي الصِّفاتِ الَّذِي كَانَ عِندَ مُشرِكِي العَرَبِ وَرِثَتهُ هذه الأمة كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام:(لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، فكُلُّ باطِلٍ وضَلالٍ صارَ فِي هذه الأمة سواء فِي مَسائِلِ العَقائد، أو في المسائِلِ العَمَلِيَّةِ، فَإِنَّهُ موروث عن أهل الجاهلية، ذكرنا أنَّ الإلحاد بمعنى النَّفِيِ كَنفِي مَثَلًا صِفَةِ الاستواء أصلا، نفي عُلُو الذَّاتِ أصلا، وقد يكون بمعنى التَّأويل الباطِلِ الَّذِي لَا يَدُلُّ عَليه دَليلٌ ، بِحَملِ الصِّفَةِ على غير ظاهر كتفسيرهم استوى باستولى، أو تفسيرهم للنزول بنُزولِ رَحمتِه، أو تفسيرهم الغَضَبَ بإرادة الانتقام، ونحو ذلك.وقد يكون، وهو **الحالة الثالثة** بابتِداعِ صِفَةٍ مِن جَديد؛ يعني ينفون عن اللهِ صِفَاتِهِ وَيَبْتَدِعُونَ صِفَاتٍ جديدة لم يَأْتِ بها النَّص لا في الكتاب ولا في السنة؛ بل هي من أصلها باطِلَةٌ وهذه هي الَّتِي يُسَمُّونَهَا الصفاتِ السَّلبِيَّة يَقولونَ مِن صِفاتِ اللهِ أنَّه لا داخل العالم ولا خارِجَهُ وليس بعدَمٍ ولا أبعاض ولا أجزاء وليس له جِهَةٌ، ليس فوق وليسَ تَحتَ وليس عن يمين وليس عن شمال، ولا في الشمال ولا في الشرق ولا في الجنوب ونحو ذلك هذه يَعُدُّونَهَا صِفاتِ، صِفات سلبِيَّةٌ مَسلُوبَةٌ، وهي كُلُّها بَاطِلَةٌ، لأنَّها لم تَرِد فَنفَوا عن الله جل وعلا الصفاتِ الحَقَّة، وجَعَلوا له صفاتٍ سَلبِيَّةٌ لَم يَأْتِ بِها دَليلٌ، بل هذا الَّذِي فَعَلُوهُ أَعظَمُ الإلحاد.ولهذا قال من قال من أهل العلم، قال: ليس إلحادُ المشركين وإلحاد اليهود والنصارى فِي الصفاتِ بشَيْءٍ عند الحادِ مُتَكَلَّمَة هذه الأُمَّةِ لأَنهم نَفَوا الصفاتِ، ونَسَبوا الظَّاهِرَ إِلَى التشبيه والنَّقْصِ، وأثبتوا أشياء وصفات من عند أنفسهم بعقولهم، وهذا والعياذ باللهِ ضلالٌ مُبِينٌ، فَوقَ ضَلالٍ أُولَئِكَ. دَخَلَ فِي هَذا أيضًا الفَلَاسِفَةُ الذين نُسبوا لهذه الأُمَّةِ كالفَلاسِفَةِ الذين يُسَمُّونَهم فَلَاسِفَة

الإسلام، مِثلَ الفارابي والكندي وابن سينا وجماعاتٍ من هؤلاء، أيضًا جَعَلوا صِفاتِ اللهِ جَلَّ وعلا مَنفِيَّةً عنه فألحدوا فيها نسأل الله جل وعلا العافية والسَّلامة.

المسألَةُ (التَّاسِعَةُ وَالثَّلاثُونَ: الإِلْحَادُ فِي الأَسْمَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمنِ ﴾ [الرعد: ٣٠])

الإلحاد في الأسماء مأخوذ من قوله جل وعلا في سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الحسنى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وقوله هنا: (يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائه) معناهُ يُعدلون بأسماء الله جل وعلا عن الحَقِّ الثَّابِتِ فيها إلى غيره من الباطل، والإلحاد هنا في هذه الآية، قال: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، قَالَ : يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائه) مع أنَّ أصل الإلحادِ يَكونُ إلحادا بها، ألحد بالاسم، يعني مال بالاسم عن وَجهِهِ اللَّائِقِ والحَقِّ الثَّابِتِ فيه إلى غيره، وهنا قَالَ: يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَيِهِ) وذلك لسَبَبٍ مُهم، وهو أنَّ إلحادهم كان في أسمائه جل وعلا، يعني في معاني الأسماء، فإنَّ إلحادهم كان من جهات

الجهة الأولى: في الألفاظ في الأسماءِ مِن حَيثُ هي.

الجهة الثانية: في معانيها.

قال هنا تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) هنا استعمل بها فَأَدْعُوهُ بِهَا ، والدُّعَاءُ هنا، دُعاءُ اللَّهِ **جل وعلا بأسمائه على قسمين: المعنى الأَوَّلُ**: دُعاؤُه يَعني التَّسْمِيَةُ، أدعوا فُلانًا كذا، يعني سَمَّهِ بكذا أتاني مولودٌ فَدَعَوتُه بكذا، يعني سميته بكذا، وَلِلَّهِ الأَسماء المنسي فَادْعُوهُ بِهَا) يعني سموه بها.

المعنى الثاني: أدعوه بها، أي اسألوه بها من الدُّعاء، يعني اجعَلُوا سُؤالكم لله جل وعلا متوسلا فيه

بالأسماء.وقوله: ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ ليس فيها مِن شَيءٍ مِن جهة المعنى، وهذا هو المأمور به العبد، أن يُسمِّيَ الله جل وعلا بالأسماء أنْ يَدعوه بها، يعني أنْ يُسَمِّيَهُ جَلَّ وعلا بأسمائه وتَسمِيتُه بها تَتَضَمَّنُ التَّسْمِيَةَ واعتقاد ما في الاسم من المعنى مِن الصِّفَةِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائه) يعني اتركوا الَّذِينَ يُلحدون، يميلون في أسمائه عن الحَقِّ، ولهذا كَانَ مَيلُهم مِن جِهَةِ تَسْمِيَةِ غَيرِ الله بأسمائه وأيضًا ميلهم فيها بإنكار بعضها الحد بالاسم، يعني مال به، لكن الحد فيه أعَمُّ مِن كونه مالَ بالاسم نفسه وهو يَدخُلُ فيه إنكارُ بَعضِ الأسماءِ وَيَدخُلُ فيه إنكار المعاني والصفاتِ الَّتي في الأسماء. ولهذا قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ متابِ)، وهم يَكْفُرُونَ بِالرَّحمنِ، لما قال لهم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قال

للكِاتبِ: اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، قال: اكتب باسمك اللهم، وهذه كانت تسمية الجاهليةِ، فَإِنَّنَا لَا نعرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَانَ اليمامة، فأنكروا الاسم، ولما سَمِعوا النبي صلى الله عليه وسلم يَقولُ: «يَا اللهُ، يَا رَحْمَانُ»، قالوا: انظروا إلى مُحَمَّدٍ يَقولُ لنا: لا تسألوا الهَيَن أو آلِهَةً، وهو يَسأَلُ الهَيَن، تَسْمَعُونَه يَقولُ : يا الله، يا رحمان. إذن فِي القِصَّةِ الأولى في غَزْوَةِ الحُدَيبِيَّةِ هم أنكروا الاسم ، وهنا جَعَلُوا الاسم دالا على أَنَّ ثَمَّ ذاتا ثانية، يعني أنكروا الاسم في الأولى، وفي الثَّانِيَةِ استَدَلُّوا بأنَّه ليس هو المتَّصِفُ الأَوَّلُ الَّذِي هو اللَّهُ، جَعَلُوا الله غير الرَّحمنِ؛ لأنهم اسمان، فلم يجعلوا أنَّ الله جل وعلا له أسماءٌ كَثيرةٌ، وَهُذَا مِن حَيثُ هو وَقَعَ فِي هذه الأمة.

المُعتَزِلَةُ أصل شُبهتهم في إنكار الأسماء يعني في إنكار الصفاتِ، قالوا: إثباتُ الصِّفاتِ يَستَلزِمُ تَعَدُّدَ القُدَمَاءِ، تَعَدُّدَ الآلِهَةِ، لأنَّكَ إذا قُلتَ الله الرحمنُ السَّمِيعُ البَصِيرُ الرَّحِيمُ، الحَيُّ القَيُّومُ... إلى آخره، كان الله ذاتا والرَّحمن ذاتا والرَّحِيمُ ذاتا والسَّمِيعُ ذاتا ... إلى آخره. فالمعتزلة ألحدوا في الأسماء مثل إلحادِ أهل الجاهلية، كما ذكرنا، كذلكَ كُلُّ مَن مالَ في أَسماءِ اللَّهِ جل وعلا عن الحَقّ الذي دلت عليه هذا يُعتبرُ مائِلا عن ما جَعَلَه الله جل وعلا فيها من المعاني، وكذلك ما أثبته الله جل وعلا في كتابه أو جاءت به السُّنَّةُ مِن إثباتِ الأسماء.

قالَ الشَّيخُ هنا: (الْإِلْحَادُ فِي الْأَسْمَاءِ يَعنِي المِيلُ بها عن حقائقها اللَّائِقَةِ بها وإثباتُ مَعَانِي أُخَرَ لَهَا أو نفيها أصلا من أصلها، يعني نفيها أصلا فلا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ جَلَّ وعلا الاسم المعَيَّنَ.

المَسأَلَةُ (الأَرْبَعُونَ: التَّعْطِيلُ كَقَوْلِ آلِ فِرْعَوْنَ، التَّعطيلُ دَرَجَاتٌ مِنه، من التعطيل، تعطيل المصنوع عن صانعه، وهذا هو الذي كانَ عندَ فِرعُونَ وَآلِ فِرْعَونَ. قــال جــل وعــلا مُخبِرًا عن قول فِرعَونَ:(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غيري ﴾ [القصص:٣٨]، وقال:(أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات]، فلمَّا بَيَّنَ له موسى عليه السَّلامُ أَنَّ الله جل وعلا في السَّماءِ قال: ﴿يَهَمَنُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلَى أَبْلُغُ الأسباب (٣) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) [غافر : ٣٧]، وقال في الآية الأخرى: (فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِينِ فَاجْعَل فِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ ﴾ [القصص:٣٨،**والتَّعطيلُ**: إنكارُ أنْ يكونَ لِلعالَمِ صانِع، كما قال فرعونُ لِقومِهِ [القصص: 38] {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: 38] ونحو ذلكَ، ولم يَخْلُ العالَمُ عن مثلِ هذهِ الجَهالاتِ في كُلِّ عَصرٍ مِنَ العُصورِ، وأبناءُ هذا الزَّمانِ إلا النَّادِرَ على هذه العَقيدةِ الباطِلة، ولو نَظَروا بعينِ الإنصافِ والتَّدَبُّرِ، لَعَلِموا أنَّ كُلَّ مَوجودٍ في العالَمِ يَدُلُّ على خالِقهِ وبارِئه:وفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ...تدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ ومِن أينَ لِلطَّبيعَةِ إيجادُ مِثل هذِهِ الدَّقائِقِ التي نَجِدُها فِي الآفاقِ والأَنْفُسِ، وهي عَديمَةُ الشُّعُورِ لا عِلْمَ لَهَا وَلا فهْمَ تَعَالَى الله عَمَّا يَقولونَ عُلوًّا كَبيرًا.

فإذن أنكَرَ أَنَّ المخلوقات لها خالق، وهذا هو التعطيل، وأصل التَّعطِيلِ فِي اللُّغَةِ مَعْنَاهُ الإِعْلَاءُ، عَطَلَ الشَّيء عن الشَّيء يعني أخلاهُ، تَقولُ : هذا مُعطّل عن كذا، يعني مُخلا عن كذا، وفُلانٌ عاطِلٌ أَي خَالِ، **تقولُ العَرَبُ** : جيدٌ عاطل مِن الحِليةِ، إذا كان خاليا من الحلية. فَإِذًا أصل التعطيل الإخلاء، تعطيل المصنوعات عن صانعها كقولِ آلِ فِرعَونَ، هذا معناه أخلوا المخلوقات عن خالق لها، هذا واحِدٌ.

التعطيلُ الثَّاني: أنَّهم عطلوا الخالِقَ عن ما يَستَحِقُّ من الأسماء والصفات فلم يثبتوا الأسماء ولا الصفاتِ لله جل وعلا. هذه حال المشركين وكذلك حال من شابههم من هذه الأمة.

القِسم الثَّالث: تعطيل الأسماء والصفاتِ عن حقائقها، ومعانيها اللَّائِقَةِ بِاللهِ جل وعلا، كفعل طائِفَةٍ حَيثُ يَقولونَ اللهُ، الرَّحْمَنُ السَّمِيعُ البَصِيرُ دَلالتها واحِدَةً، كُلُّ هذه دَلَالَتُهَا وَاحِدَةٌ، ليسَ دَلَالَةُ السَّمِيع غَيْرُ دَلالةِ البَصيرِ فَكُلُّها واحِدَةٌ، استوى، يقولون: لا نعرف معنى استوى، استوى هذا هو معنى نَزَل؟ هو معنى غَضِبَ ؟ هو معنى رَضِيَ ؟ ونحو ذلك. إذا عطلوا صِفاتِ اللهِ وعَطَّلوا أسماء الله عن ما تَشتَمِلُ عليه من المعاني

القِسمُ الرَّابع: تعطيل الله جل وعلا عن حقه، وهو عبادته وحده لا شريك له وطاعته فيما أَمَرَ وَنَهَى، وهذا تعطيل العبادة.

إذن الأول: تعطيل اعتقاد، وهذا **تعطيلُ عِبادَةٍ**، وهذا كصنيع المشْرِكِينَ فَإِنَّهُم عَطَّلُوا اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا عَمَّا يَستَحِقُّ، فَجَعَلُوا اللهَ لا يَسْتَحِقُ العِبادَةَ وحده، بل لابد معه من شريك، وهذه صارت في المشركِينَ مِن هذه الأمة.أمَّا مَسألة الإلحادِ، يعني تعطيل المخلوقِ عن الخالق، فهذه لم تزل طَوَائِفُ مِن الأُمَّةِ تَقولُ بذلك، مع أَنَّهَا كانت فِي العَرَب قَليلَةً جِدًّا، مِثل ما قال الشهرستاني في كتابه الملل والنَّحَلُ: وَأَمَّا تعطيل المخلوق عن الخالِقِ فَإِنَّه لم يَقُل به إِلَّا شِرذِمَةٌ قَليلونَ - يَعني مِن العَرَبِ ، لا تَصِحُ أَنْ تُنسَبَ لهم مَقالَةٌ لأفرادٍ قليل. ولكن ظَهَرَ فِي الأُمَّةِ مَن يَقولُ بهذا، من تعطيل المخلوق عن خالقه وأَوَّلُهم الفَلَاسِفَةُ، الَّذِينَ قَالُوا بِقِدَمِ العالمِ، وأن العالم ليس له خالِقٌ يَخلُقُه، كذلك الذين قالوا بالإلحاد مثل طائِفَة، أو قالوا بوحدة الوجودِ مثل الغُلاةِ المتَصوّفَةِ.

وأَمَّا فِي هذا العَصرِ فَإِنَّ الَّذِينَ يَقولونَ بالإلحاد في هذا المعنى، يعني بتعطيل المخلوق عن خالقه بنفي أَنَّ للعَالَمِ صانعا خَالِقا رَبًّا مُدَبِّرًا سَيْدًا مُتَصرِّفًا، قَالَ: كَثيرون في هذا الزَّمَنَ جِدًّا وقد يَقولونَه بألسنتهم وقد يُخفونه في صدورهم.

نسْبة النَّقائصِ إليه سبحانَه كالولَدِ والحاجَةِ. فإِنَّ النَّصارى قالوا: المسِيحُ ابنُ الله، وطائفة مِن العَرَب قالوا: الملائكَةُ بناتُ الله، وقوم مِن الفَلاسِفَةِ قالوا بِتوليدِ العُقولِ، وقوم مِن اليَهودَ قالوا: العُزَيْرُ ابنُ الله، إلى غيرِ ذلِكَ.

وقد نَزهَ الله نَفْسَه عن كُل ذلِكَ ونفاه عنه بقوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ - اللَّهُ الصَّمَدُ - لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ - وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1 - 4] وبقوله [الصافات: 151- 152] : {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ - وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الصافات: 151 - 152] وقوله [الأنعام: 100- 101] : {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ - بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام: 100 - 101] وهذا يَعُمُّ جميعَ الأنواعِ التي تُذْكَرُ في هذا البابِ عن بعضِ الأمَمِ، كما أنَّ ما نفاه من اتِّخاذِ الوَلَدِ يَعُمُّ أيْضًا جميعَ أنواعِ الاتِّخاذاتِ،. كما قال تَعالى [المائدة: 18] : {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة: 18] قالَ السُّدِّيُّ: قالوا: إنَّ الله تَعالى أوْحى إلى إسرائيلَ إنّ وَلَدَكَ بِكْرِي مِن الوَلَدِ فَأُدْخِلُهُمُ النَّارَ، فَيَكونونَ فيها أربعينَ يومًا حَتَّى تُطَهِّرَهم وتأْكلَ خطاياهم، ثم ينادي منادي: أَخْرِجوا كلَّ مَخْتونٍ مِن بني إسرائيل. وقدْ قال الله تَعالى [المؤمنون: 91] : {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ} [المؤمنون: 91] وقال [الإسراء: 111] : {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ} [الإسراء: 111] وقال تعالى [الفرقان: 1- 2] : {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا - الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 1 - 2] {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ - لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ - يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ - وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: 26 - 29] وقال سبحانه وتعالى [النحل: 51-57] {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ - وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا} [النحل: 51 - 52] إلى قوله {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا} [النحل: 56] إلى قوله: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} [النحل: 57] وقالَ الله تعالى [الإسراء: 39-42] : {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا - أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا - وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا - قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} [الإسراء: 39 - 42] وقال [الصافات: 149-163] {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ - أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ - أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ - وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ - أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ - مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ - أَفَلَا تَذَكَّرُونَ - أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ - فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ - سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ - إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ - فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ - مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ

بِفَاتِنِينَ - إلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} [الصافات: 149 - 163] وقال [النجم: 19 -27] {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى - وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى - أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى - تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى - إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: 19 - 23] إلى قوله: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى} [النجم: 27] وقالَ تعالى [الزخرف: 15] {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} [الزخرف: 15] قال بعضُ المفسِّرينَ: (جُزءًا) ، أيْ: نَصيبًا وبعضًا. وقال بعضُهم: جعلوا لِلَّهِ نصيبًا من الولدِ. وعن قتادةَ ومقاتل: عدلا. وكلا القولين صحيح، فإنَّهم يَجْعَلون له وَلَدًا، والولَدُ يُشْبِهُ أباهُ. ولهذا قال [الزخرف: 17] {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا} [الزخرف: 17] وَهُوَ كَظِيمٌ أيْ البَنات، كما قالَ في الآيَة الأخرى [النحل: 58] {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [النحل: 58] فقَد جَعَلوها لِلرَّحْمنِ مَثَلا، وَجَعَلوا لَهُ مِن عِبادِه جُزْءًا، فَإِنَّ الولدَ جُزء مِنَ الوالِدِ، قالَ صلى الله عليه وسلم: «إنَّما فاطِمَةُ بضعَةٌ مِنِّيَ. »وقولُهُ [الأنعام: 100] : {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 100] قالَ الكَلْبِيُّ: "نَزَلَتْ في الزَّنادِقَة، قالوا: إنَّ الله وإبليسَ شَريكانِ، فاللهُ خالقُ النُّورِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ، وإبليسُ خالقُ الظلْمَةِ والسِّباعِ والحَيَّاتِ والعَقارِبِ. وَأمَّا قولُه: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا} [الصافات: 158] فقيلَ: هو قولُهُم: الملائكةُ بناتُ الله، وسمى الملائكة جِنًّا؛ لاختِفائِهم عَنِ الأبصارِ، وهو قولُ مُجاهِدٍ وقتادة. وقيل: قالوا لِحَيٍّ مِن الملائكةِ يُقالُ لهم: الجِنُّ، ومنهم إبليسُ: هم بناتُ الله. وَقالَ الكَلْبِيُّ: قالوا لَعَنَهمُ اللهُ: بَلْ بُذور يَخْرُجُ منها الملائكةُ. وقولهُ: {وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 100] قالَ بعضُ المفسِّرينَ: هُم كُفَّارُ العَرَبِ، قالوا: الملائكةُ والأصنامُ بَناتُ الله، واليَهودُ قالوا: عُزير ابنُ الله، والذين كانوا يَقولونَ مِن العَرَبِ: إنَّ الملائكة بناتُ الله، وَمَا نُقِلَ عَنهم مِن أنَّه صاهَرَ الجِنَّ، فوَلَدَتْ له الملائكة، فَقَد نَفاه عنه بامْتِناعِ الصَّاحِبَةِ، وبامتناعِ أنْ يكونَ منه جُزْءٌ، فإنّه صَمَدٌ. وقولُه: {وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ} [الأنعام: 101] وهذَا لأنَّ الولادةَ لا تكونُ إلا مِن أصْلَين، سَواءٌ في ذلِكَ تولُدُ الأعيانِ - التي تُسَمَّى الجواهِرَ- وتولد الأعراض والصِّفاتِ، بَلْ وَلَا يَكونُ تولُد الأعْيانِ إلا بانفصال جُزْءٍ مِن الولدِ، فإذا امتنعَ أنْ تكونَ لَه صاحِبةٌ، امْتنعَ أنْ يَكونَ لَه وَلَدٌ، وقد عَلِموا كُلُّهُم أنْ لا صاحِبَةَ له لا مِن الملائكةِ، ولا مِن الجِنّ، ولا مِنَ الإِنْسِ، فلم يَقُلْ أحَدٌ مِنْهُم إنَّ له صاحِبَةً؛ فَلِهذا احْتجَّ بِذلِكَ عَلَيهم. وما حُكِيَ عَن بعضِ كُفَّارِ العَرَبِ أنَهُ صاهَرَ الجِنَّ، فهذا فيه نَظَرٌ. وذلكَ إنْ كانَ قَدْ قيلَ فهوَ مِمَّا يُعْلَمُ انْتِفاؤهُ مِن وُجوهٍ كَثيرةٍ، وكذلك ما قالَتْهُ النَّصارى مِن أنَّ المسيحَ ابنُ الله وما قالَه طائفةٌ مِنَ اليهودِ أنَّ العُزَيْرَ ابنُ الله، فإنَّه قد نَفاه سُبحانه بِهذا وَهذا. وتَمامُ الكَلامِ في هذا المقامِ في كتابِ (الجَوابِ الصَّحيحِ لِمَنْ بَدَّل دِيْنَ المسيح) و (تَفْسير سورةِ الإِخلاص) وَغيرِهما مِن كُتُبِ شيخِ الإِسلامِ تقيِّ الدِّينِ قدس الله روحه.

وهذه المعتَقَدَاتُ في أنَّ الله جل وعلا ليس بذي كَمال تارَةً تكون عن اعتقاد منهم أنه على هذه الحال، وأنَّ الله له وَلَدٌ على الحقيقَةِ، وله صاحِبَةٌ على الحقيقة، وله شَريكٌ على الحَقيقَةِ، وَأَنَّه يَحتاجُ إلى بعض خَلْقِه في تصريف الأمور وفي إنفاذ ما يُرِيدُ في خَليفَتِه، أو أنه ليس بذي غنّى تام ونحو ذلكَ مِن أنواع النَّقائص التي تُنسَبُ ويَعتقدونها على ظاهِرِها.

وهذا كثيرٌ فيما ذَكَرتُ، إلَّا في مسألة وهي اعتقادُ الصَّاحِبَةِ وهذه اختلفوا فيها، هل هناكَ طَائِفَةٌ تَعْتَقِدُ أَنَّ الله جل وعلا له صاحِبَةٌ مِن الملائِكَةِ أو مِن الجِنّ أو من البَشَرِ ؟ أو أنَّه لم يَكُنْ أَحَدٌ يَقولُ بهذا القَولِ؟ على قولين معروفين، الأكثر والأشهر أن هذه المقالة لم يَقُلها أحَدٌ لا من الجاهليين من أهل الكتاب ولامن النصارى أو غيرهم، بأنَّهم يعتقدونَ أنَّ له صَاحِبَةَ اتَّخَذَهَا عَلَىٰ هُذَا النَّحْوِ. ومنهم مَن يَقولُ له هناكَ مَن يَعتَقِدُ هذا الاعتقادَ مِن كُفَّارِ العَرَبِ، حيثُ اعْتَقَدَ بَعضُهم أَنَّهُ اتَّخَذَ مِن الملائِكَةِ صاحِبَةً أو اتَّخَذَ مِن الجِنّ صاحِبَةً، وهذا قول طائِفَةٍ مَرذولةٍ عند مَن نَسَبَ إليها هذا القول. والأَظْهَرُ مِن هَذَينِ أَنَّهُ لا تَصِحُ نِسبَةُ الصَّاحِبَةِ إلى اللهِ في مَقالَةٍ مشهورة عندَ العَرَبِ، وأمَّا عندَ النَّصار فمنهم مَن يَعتَقِدُ ذلك وأنَّ الصُّحبَةَ كانت في أُمَّ عيسى مَرْيَمَ البَتول. فإذا ما ذَكَره هنا هو على جِهَةِ التمثيل والأدلة على كَمالِ الله جل جلاله في ذاته وأسمائه وصفاته وفيما يَستَحِقُّ، أكثرُ مِن أنْ تُحصَرَ في كِتابِ الله جل وعلا بخاصة وفي السُّنَّةِ أيضًا. فمِمَّا جَاءَ فِي القُرآنِ مِن ذَلِكَ قَولُ الله جل جلاله في سورة الإخلاص بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ: قل هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، وكذلك في قوله جل وعلا: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيا مريم] لكماله جل وعلا ولجلاله، وكذلك في قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢٧] قال جل جَلالُه: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَد وَمَاكَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه إِذا تَذْهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) المؤمنون، وكذلك قوله جَلَّ وعلا: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتِ بِغَيْرِ علم ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ونحو ذلك من الآياتِ التي فيها أنَّه ادعِي له وَلَدٌ أو صاحِبَةٌ، وَفِي الملائِكَةِ قَالَ جِلْ وعلا: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) [الصافات] فُسْرَت الجِنَّةُ هنا بأنهم الملائِكَةُ، وفُسْرَت أيضًا بأنها، بأنهم الجن فاعتقد في هؤلاء وفي هؤلاء أنَّ الله جل وعلا اتَّخَذَ وَلَدًا منهم وهذا نوع مِن نِسبةِ النَّقائص إليه. ونسبة الحاجة إليه أيضًا جاءت في عدد من المواضع كقوله جَلَّ وعلا: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وفي نحو اعتقادِ بَعضهم أَنَّهُ يَحتاجُ إلى شَفيع جلَّ وعلا، يَشْفَعُ إليه بحاجاتِ خَلقِهِ. وإذا تَبَيَّنَ هذا الأصل العام، يعني في نِسبَةِ النَّقائِصِ إلى الله جل وعلا عندَ العَرَبِ وَعِندَ طَوائِفَ مِن النصارى؛ **فالفِرَقُ أو الطوائف التي اعتقدت في الله جل وعلا النقص أو الحاجة أنواع:**

النوع الأول: مِنها مُشرِكَةُ العَرَبِ وهم يَعتَقِدُونَ النَّقص في اللهِ جَلَّ وعلا من جهات: الجِهَةُ الأُولَى: أَنَّهُ اتَّخَذَ مِن المَلائِكَةِ البَناتِ، قال جل وعلا: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُم بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ). [الزخرف) وهذا النوع من الاعتقادات، ولهذا كانَ بَعضُ العَرَبِ تُشْرِكُ بِالمَلائِكَةِ، يَطلُبُونَ مِن المَلائِكَةِ، ويَدعونَ المَلائِكَةَ، وَيَسْأَلُونَ المَلائِكَةَ ، وإذا حُشِرَ يَومَ القِيامَةِ النَّاسُ سَأَلَ الله جل وعلا المَلائِكَةَ هل هؤلاء كانوا يعبدونكم؟ وكانوا يَعبُدونَ المَلائِكَة لأجل التوسطِ، لَظَنَّهم أنَّ الله جل وعلا اتَّخَذَ مِنهم البَناتِ وقَرَّبَهم إليه جل وعلا، قال سبحانه في آخِرِ سُورَةِ سبأ: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائكَةِ أَهؤُلاء إياكم كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سبحانك أَنتَ وَلِينَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) [سبأ]. وهذا قول طَائِفَةٍ مِنهم بأنَّ المَلائِكَةَ بنات، وأنَّ الله جل وعلا اتَّخَذَ البَنَاتِ وَاتَّخَذَ المَلَائِكَةَ لَحَاجَتِهِ إليهم، لأنَّ اللهَ مُحتاج للمَلائِكَةِ، يُصَرِّفونَ الأمر ويرفعون إليه بحاجاتِ خَلقه، وأنَّه لا يكون وحيدًا واتِّخاذه وخَلقه للمَلائِكَةِ لحاجته إليهم، ولهذا كانوا يعبدونهم ويتقربون إليهم وهم في الحَقيقَةِ إنَّما يَعبُدونَ الجِنَّ.

النوع الثاني: مَن كانَ يُنسِبُ الجِنَّ إلى الله جل وعلا، يعني أنَّه ثَمَّ نَسَبٌ وَصِلَةٌ مَا بينَ كِرَامِ الجِنِّ وَبَينَ الله جل جلاله، وهذا كما جاء في قوله جل وعلا: (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لمحضُرُونَ ﴾ [الصَّافات] وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بينه وبين الجنَّةِ نَسَباً) اختلف العلماء هنا في تفسير الجِنَّةِ: **القَولُ الأَوَّلُ**: فَقَالَت طَائِفَةٌ: الجِنَّةُ هنا هم المَلائِكَةُ، لأن نسبة البَنَاتِ مِن المَلائِكَةِ إِلَى اللهِ هي المعروفة، وأمَّا نِسبَةُ إضَافَةِ الجِنِّ، والنَّسَبُ ما بين الجِنِّ وما بين الله ليس هذا بمعروف في النُّصوص ولا هم في الواقع، ولهذا يُفَسِّرُ بأنَّ الجِنَّةَ هنا هم المَلائِكَةُ، قالوا: ويَدلُّ عليه آخِرُ السِّياق في الآياتِ.
القول الثاني: إنَّ الجِنَّة هنا هم الجِنُّ، وإنَّما سُمِّيت المَلائِكَة جِنَّة لاختفائهم وعَدَمِ ظهورهم، والجن المقصودونَ بالجِنَّةِ، ولهذا قال في آية سورَةِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) الجِنَّةُ هنا المقصود بها الجن، قالوا: ويُؤيد ذلك، قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ يَعْنِي يَومَ القِيامَةِ للحِساب، لأنَّهم مُكَلَّفون، ومِن العَرَبِ مَن اعتقدت أنَّ مِن الجِنَّ مَن قُرِّبَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وعلا وبينه وبينهم نسب لاتخاذه مِنهم مَن قَرَّبَه ومَن جَعَلَه على هيئةِ الوَلَدِ أو على هَيئَةِ البَناتِ له جل وعلا، وأنَّه جَعَلَ لهم بَعضَ تصريف الأمور.

النوع الثالث: مِمَّن نَسَبوا النقَائِصَ، أو النَّوعُ الثَّالِثُ مِن نِسبَةِ النَّقَائِص إليه جل وعلا، أنهم لم يعتقدوا في الله جل وعلا استحقاقية العِبادَةِ وَحدَه دون ما سواه، بل جعلوا العبادة له ولغيره، والعبادة لغيره هذه تفاصيلها معروفةٌ عندَ العَرَبِ، وقد مَرَّت معنا في مَسائِلَ وسَبَقَتْ.
النوع الرابع: من لم يجعلوا له جلّ وعلا الكمال في الأسماء والصفاتِ فَنَفَوا بَعضَ الصِّفاتِ وقالوا، نَفَوْا بَعضَ الأسماء وبعض الصفاتِ اللهِ جل وعلا، وقالوا: إن الله جل وعلا عن قولهم – إنَّه ليس بمُتَّصِفِ

بِكُلِّ كَمَالٍ بل يُمكنُ أنْ يكونَ له سَمِيٌّ وأن يكون له شريك في أسمائه وفي صفاته، ولهذا اشتَقُّوا العُزَّى مِن العزيز، واشتقُّوا اللَّات مِن الإله، واسْتَقُّوا مَناةَ مِن المنانِ ونَحوَ ذلكَ مِمَّا الحدوا فيه في الأسماء والصفاتِ، فَعَدَمُ اعتقادِ الكَمالِ ووحدانيَّةِ الرَّبِّ جلّ وعلا في الأسماء والصفاتِ جَعَلَهم يُلحدون فيها ويَسْتَقُّونَ لآلهتهم من أسماء الله جل وعلا؛ لأنهم لا يَعتَقِدُونَ وَحدَانيَّةَ اللهِ في ذلك، وهذا ولا شَكٍّ نَوعٌ مِن النَّقْصِ، ولهذا جَعَلَ الله جل وعلا النَّفي عاما في أنه لا مثيل له ولا سَمِيَّ له، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ له كفوا أحد، وقال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سيُجزَونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

النوع الخامس: عَدَمُ اعتقادِهم كَمالَ عَدلِ الله جل وعلا، فنسبوا الله جل وعلا النقص في قَدَرِه ، وأنَّ الأمور تجري بدونِ تقدير سابق، وأنه سبحانه ليس بالحكيم بل المنايا مَثَلًا خَبطُ عَشواءَ، هذا تُصيبه وهذا لا تُصيبه، وأنَّ المرضَ والصحة والغنى والفقر... إلى آخره. أنَّ هَذه ليست بِمُقَدَّرَةٍ وَأَنَّ مَا يَفْعَلُونَه إذا كانَ مَرضِيًّا لله جل وعلا، فإذا كان قد وقع بإذنه تعالى فإنَّه مَرضِي، وإذا كانَ وَقَعَ بِغَيْرِ إِذْنِه جل وعلا فإنَّه لا علاقة له بما يفعله الإنسان. وهذا سَيَأْتينا في مسألة القَدَرِ وهي تأتي لاحقًا إنْ شَاءَ اللهُ.

النَّوعُ السَّادِسُ: أيضًا منهم ما هو موجود عند أهل الكتاب، وأهل الكتاب في نِسبتهم للنَّقائِصِ للَّهِ جَلَّ وعلا نسبةٌ مُتَنوعةٌ، فمِنها نِسبَةٌ في الربوبية ومنها نسبة في الألوهية، ومنها نسبة في الأسماء والصفاتِ، ومنها نسبةٌ في القَدَرِ، وأيضًا في الكِتابِ المنزَّلِ.

النوع السابع: ما هو موجود من نسبة النقائص لله جل وعلا في الفَلَاسِفَةِ والصَّابِئَةِ وعُبَّادِ الكواكب، ونحو ذلكَ مِن الفِئاتِ الخارجَةِ عن فئاتِ المشركِينَ، مُشركِي العَرَبِ، وأهل الكتاب وهم الموجودون في اليونان مِن الفَلاسِفَةِ، وعَبَدَةِ الكَواكِبِ في شمالِ العِراقِ، وَنَحوِ ذلكَ مِنَ الَّذِينَ اعْتَقَدَوا أَنَّ الله جل وعلا مُحتاج إلى شَيْءٍ أولئك قالوا: مُحتاج إلى وَلَدٍ، مُحتاج إلى صاحبة، وهؤلاء قالوا: محتاج إلى عقل عنه تفيضُ الأشياء، ومنهم مَن يَجعَلُ الله جل وعلا: العقل المطلَق، وَمِنهم مَن يَجْعَلُ اللَّهَ جَلَّ وعلا هو العقل الفعال، وقالوا: إنَّ الأشياء تصدرُ عن عَقل، وهذا العقلُ تَنطَبعُ الأشياءُ فِي أَثَرِه، تارَةً يَكونُ هذا الأثر في الكَواكِبِ فَتَنتَظِمُ بها الأمور، وتارَةً يَكون هذا العقلُ تَنطَبِعُ الأشياء في الملكوتِ فَيَحصُلُ بها أشياء، يعني أن الفعل فعلُ العَقلِ الأصلي أو فعل العقلِ المطلَقِ أَنَّهُ لَيسَ هُوَ الَّذِي يُحدِثُ الأشياء، وإنَّما يَحتاجُ إلى وسيط حتى تكون الأشياء على أثر فعله.

وعَبَدَةُ الكَواكِب قالوا: إنَّ الفَيضَ جَاءَ لهذه الكواكِبِ فصارت الكَواكِبُ تُؤَثِرُ بما فيها من روحانية تؤثر في الملكوت، فتُسأل ويُطلب منها فهي التي تَفعَلُ، هي التي تُؤثر في الأمطار، هي التي تُؤثر في الخَلقِ في الإيجاد، هي التي تُؤثر في حَرَكَةِ الأشياء في الرَّخاءِ في الخَصبِ في القَحطِ ونحو ذلك.

وإذا تأملت قول الصوفية الشركية عباد القبور ،الذين يعتقدون فى أصحاب القبور والأموات من الأولياء وغيرهم ، ويتخذونهم واسطة ويدعونهم من دون الله ويطلبون منهم ،لا يفعلون كل ذلك إلا لاعتقادهم أن هؤلاء يتصرفون فى الكون فهم بمثابة الوكلاء عن الله فى تدبير أمور الكون والناس ،ويزيدون الشرك تلبيساً

على العوام فيقولون عن الأقطاب والأولياء أنهم يتصرفون بإذن الله ، يضاهؤون تماما قول الكفار مشركى قريش أهل الجاهلية فى تلبيتهم (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) فدين الأشعرية المعاصرة الأن هو دين كفار قريش الذين كفرهم الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقتلهم واستحلال دمائهم وأموالهم، لهذا يَجمَعُ هؤلاء جميعًا أَنَّهم قالوا: إنَّ اللهَ لا يَستَطيعُ أَنْ يَفعَلَ بنفسه؛ بل هو محتاج إلى غَيرِه تعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلُوًّا كَبيرًا. المقصودُ أَنَّ هَذه أقوال مُختَلِفَةٌ في نسبة النَّقائص إليه فيما يتصل بالربوبية أو الإلَهِيَّةِ، وَأَنَّه على حَدِّ قولهم محتاج.

جاءَ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلامُ وجاءَ دين الإسلام بكُلِّ كمالِ للهِ جَلَّ وعلا فخالَفَ هَؤلاء جَميعًا، ولذلك مَن أُضِلَّ في هذه الأمة مِمَّن وَرِثَ شَيْئًا مِن تلك الأقوال، وكانت في اعتقاده في طائِفَةٍ أو في فرد. وإذا تَأَمَّلت لم يَخلُ قَولٌ مِن هذه الأقوالِ مِن وُجوده في أمة الإسلام بعد ذلك، لذلك فإن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى دين الإسلام وإلى توحيد الله جل وعلا، النَّاسُ مُحتاجون إليها أَعظَمَ حَاجَةٍ لأَنَّ نِسبَةَ النَّقَائِصِ موجودَةٌ اليَومَ في جَمِيعِ الفِئاتِ حَتَّى في المسلِمينَ المنتسبين للإسلام **يوجَدُ مِنهم** مَن يَعْتَقِدُ بِأَنَّ هناكَ مَن يُصَرِّفُ الكَونَ أربَعَةَ أَقطاب أو أوتاد أو أبدال.**وفيهم مَن يَعْتَقِدُ** بِأَنَّ بَعضَ الأَولياءِ يَبْلُغُ دَرجةً تَرتَفِعُ من كُلِّ دَرجَةٍ حَتَّى يُفَوِّضَ الله إليهم أمر العالم في تصريفه. **وفيهم من يَعتَقِدُ** أَنَّه لا يُمكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَصِلَ إلى الله جل وعلا إِلَّا بِطَرِيقِ أَحَدٍ مِن خَلقِهِ. **وفيهم مَن يَعتَقِدُ** بأَنَّ الله جل وعلا يَحِلُّ في بعض مخلوقاته.. إلى آخِرِهِ مِنَ الْأَقوالِ المختَلِفَةِ الَّتِي تعلمون تفاصيل النسبة فيها إلى مَذاهِبِ النَّاسِ، والعياذ بالله ولهذا ما من قول عند أهل الجاهلية – وهذا هو الذي أراد به المؤلِّفُ رحمه الله تعالى، ما مِن قَولٍ عند أهل الجاهليةِ سَواءٌ مِنَ الْأُمِّيِّينَ أو من الأميينَ العَرَبِ أو من أهل الكتاب أو مِن الفَلَاسِفَةِ والوَثَنِيِّينَ، ما مِن قَولٍ إِلَّا وقد وَرِثَه هذه الأمة، كُلُّ الأقوالِ مَوجودَةٌ لكن على اختلاف في التصريف، ويقول صاحِبُ البُردَةِ مَثَلًا فِي حَقِّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمُ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِم يعني أنَّه لا تقل عن مُحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام: إنه ابنُ اللهِ، ثُمَّ بعد ذلكَ قُلْ ما شِئتَ مِن المدحِ، فلذلك اعتَقَدَ في النَّبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه يَمْلِكُ شَيْئًا مِن تصريف الأمور، وأنَّ بيده الدُّنيا وَبَيَدِهِ الآخِرَةُ كما قال في قصيدته نفسها: فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللوْحِ وَالْقَلَم ،وَضَرَّتُها يَعني الآخِرَةُ هي من جود النبي ، وهذا ولا شَكٍّ مِمَّا وَرِثوه عن النَّصارى لأَنَّهم يَعتَقِدُونَ في عيسى وفي أنبيائهم أنهم كانوا مُطلقين في التصرُّف في هذا الملكوت. أَمَّا الفِرَقُ في هذه الأمة فإنَّها نُسِبَت النَّقائِصُ إلى الله جل وعلا على أنواع نذكُرُها باختصار.

الأَوَّلُ: نَسبُ النَّقص إلى الله جل وعلا في الأسماء والصفاتِ بأنَّه سُلِبَ عن اللهِ جَلَّ وعلا بَعضُ ما سَمَّى به نَفسه أو وصف به نفسه جل وعلا، وهذا السَّلب تارة يكون بإنكارِ الصِّفَةِ كَمَا فَعَلَته الجَهمِيَّةُ ومن نحا نحوهم، أو كان بتأويل الصِّفَةِ إلى معنى آخَرَ وحَقيقَتُه نَفي الصفة الأولى، أو كان وهو الأخير بجعل

الصفاتِ لا معاني لها؛ وأنَّ الأسماء مُتَرَادِفَةٌ ليس الله جل وعلا صِفات معلومةٌ.

الثاني: في القَدَرِ نُسِبَ النَّقصُ الله جل وعلا في فئاتٍ فيمَن اعتقد أنَّ الأمر مستأنف ليسَ بِقَدَرٍ سابق ممن أنكروا العلم والكتاب، أو فيمن أنكروا عُموم مَشيئَةِ اللهِ جلَّ وعلا وعُمُومَ خَلقِهِ كَالمُعْتَزِلَةِ وَالقَدَرِيَّةِ أو فيمن غلا أيضًا وقال: إنَّ الإنسان مجبورٌ على فِعَلِهِ، فَنَسَبوا الظُّلْمَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وعلا.ولهذا فَرَّتِ المُعْتَزِلَةُ والقَدَرِيَّةُ مِنَ الظُّلْمِ فَجَعَلُوا الفِعَلَ فِعَلَ العَبْدِ. وهؤلاء فَرُّوا مِن اعتقادِ أَنَّ الإنسان يفعل ما يشاء، فقالوا: إنَّه مُجبر على أفعاله، ولهذا نَفَوا الحِكمَةَ في خلق الله جل وعلا وهذا نوع مِن النَّقص الَّذِي نَسَبوه إلى الرَّبِّ جَلَّ وعلا. فقالوا: إنَّ الأشياء لا حكمة فيها وأن خلق الله جل وعلا لا حكمة فيه بل هو موجود بمحض الإرادة ولا لحكم وأسباب وعِلل غائية منوطة بما خلق الله جل وعلا، بل هكذا بمحض الإرادة قد يكون فيه ماهو شَرٌّ مَحضٌ وقد يكون فيه ما هو خَيرٌ مَحضٌ، وهذا فيه نِسبَةُ النَّقص الله جل وعلا مِن جِهَةِ عَدَمِ تقديره للأشياء على وفق حكمَةٍ يَعلَمُها.ومعلوم أن الحكمة صادِرَةٌ من كَمالِ العِلمِ وكَمالِ القُدرَةِ، فإذا كَمُلَ العِلمُ وَكَمُلَت القُدرَةُ كَانَ الأَمرُ على الحكمة العالية من الأشياء. يعني نسبةُ النَّقائص في أقوال أهل الفِرَقِ مُتَنَوِّعَةٌ؛ فالإمام رحمه الله، فيما يقرّره في هذا الكتاب ،هو يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُستَنهِضًا للهمم، هِمَمِ العلماء في أنَّ هذه الأقوال هي التي حاربها الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعلن الجهاد على من قالها أو على من اعتقدها، وإذا كان الأمر كذلك فما أشبَهَ اللَّيلة بالبارِحَةِ، فواجب على أهل العلم وأهل الإيمانِ والذين يتحرونَ الحَقّ ويطلبون الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَرِ ووراثَةً ما كان عليه النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يكونَ عَمَلُهم كَعَمَلِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ في جهاد هؤلاء. وإذا كانت هذه الأقوال موروثة في هذه الأمة، فإذا واجب العلم، وواجب الجهاد وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَرِ، لأَنَّ هَذَا مِن أَعظَمِ شَرَائِعِ الدِّين.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ الشَّرْكُ فِي الْمُلْكِ، كَقَوْلِ المَجُوسِ

الشركَةُ في المِلْكِ، كما تَقولهُ المجوسُ، والمجوسُ أُمَّة تُعظِّمُ الأنوارَ والنِّيرانَ والماءَ والأرضَ، ويُقِرُّونَ بنُبُوَّةِ زرادِشْتَ، وَلَهُم شَرائعُ يَصيرونَ إليها. وهم فِرق شَتى: مِنهم المزْدَكِيَّةُ أصحابُ مَزْدَكَ الموْبَذ، والموْبَذُ عندهم العالِمُ القُدوةُ، وهؤلاءِ يَرونَ الاشتِراكَ في النِّساءِ والمكاسِبِ كما يشترَكُ في الهَواءِ والطُرُقِ وغيرها.

ومِنهم الخُرَّمِيّة أصحابُ بابكَ الخرمي. وهم شَرُّ طوائِفِهم، لا يُقِرُّون بِصانِعٍ ولا مَعادٍ ولا نبوَّةٍ ولا حَلالٍ ولا حَرامٍ، وعلى مذهبِهِم طوائِفُ القرامطة والإسماعيلية والنصيرية والكيسانية والزرارية والحكمية وسائر العبيدية الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهَبُ، ويتَفاوَتونَ في التَّفصيلِ، فالمجوسُ شُيوخُ هؤلاءِ كلِّهِم، وأئمتُهم وقُدوتُهم، وإن كانَ المجوسُ قد يَتَقَيَّدونَ بأصلِ دِينهم وشَرائِعِهم، وهؤلاءِ لا يَتقَيَّدونَ بدينٍ مِنْ دياناتَ العالم ولا بِشَريعَةٍ مِن الشرائع.

هذه المسألةُ يُقَرِّرُ بها شَيخ الإسلام رحمه الله، أنَّ طائِفَةٌ مِن أهل الجاهلية وهم المجوس، اعتقدوا أنَّ الملك ملك الله جل وعلا فيه اشتراك. والمجوس طوائِفُ مُختلِفَةٌ:

منهم من اعتقد وُجودَ الإلهين، إلَهَ الخَيرِ، وَإِلَهَ الشَّر. ومنهم من اعتقد وُجودَ الهَين هم الظُّلمَةُ والنُّورُ.

ومنهم من اعتَقَدَ حُلولَ الإِلَهِ فِي كُلِّ شَيءٍ وبالتالي إباحة كُلِّ شَيءٍ له، فأباحوا الأموال على شكل عام، وأباحوا الفُروج، وأباحوا العلاقات، ولم يُحَرِّموا شَيئًا ولم يُحِلُّوا شَيئًا يَعني بانتِفاءِ، وَإِنَّمَا الكُلُّ حَلالٌ. وهؤلاء يَجمَعُهُم أَنَّهم لم يَجْعَلُوا الرَّبَّ جلّ وعلا هو الواحِدَ في ملكه، بل جَعَلُوا الملكَ يُصَرِّفُه اثنَانِ، الخَيْرُ يُصَرِّفُهُ إِلهُ الخَيرِ، وَالشَّرُّ يَعني ما يحدثُ مِن شُرورٍ يُصَرِّفه إلهُ الشَّرِّ، وَأَنَّ اللهَ جَلَّ وعلا فاضَ عنه أو خَلَقَ كُلَّ ما هو مُسعِدٌ ويَؤول بالإنسانِ إلى التنعم والتَّلَذُّذِ مِن أنواع الطَّيِّبات، وأنواع المسعِدات وأنواع النَّعيم، وأنَّ ما سوى ذلكَ مِن المؤذِياتِ أو المهْلِكاتِ أنَّ هذه فاضَت عن إِلَهِ الشَّر، وهذا الاعتقادُ مِن حيثُ هو آل ببعض تلك الفئاتِ، يعني طَوائِفَ المجوس كالخُرَّامِيَّةِ آلَ بهم إلى القَولِ بالاتحادِ، وَأَنَّه يتَّحِدُ إِلَهُ الخَيْرِ ببعض المخلوقاتِ، ويَتَّحِدُ الهُ الشَّر ببعض المخلوقات، فصار عندهم إبليس رمزا لإِلَهِ الشَّرِّ وصار عندهم نَبِيُّهم إزرادشتُ أنَّه رَمز لإله الخير لحلوله فيه، أو كما نُسب إليهم من مقالات. هذا يَعُمُّهُ ما ذَكَرَه الشَّيخُ رحمه الله في أنَّهم اعتقدوا الاشتراك في الملكِ وَأَنَّ هَذَا الملكوتَ يُدَبِّرُه رَبَّانِ يُدَبِّره الهان ،إذا تبين ذلك فهذا القَولُ فِي الحَقيقةِ وَرِثَ فِي هذه الأُمَّةِ فِي طَوائِفَ: **الطَّائِفَةُ الأولى: هم الباطنية،** وهم أتباع أو نَقولُ إذا صح الإسماعيلية بشكل عام، والباطنية، وَيَدخُلُ فيهم القَرامِطَةُ، وَيَدخُلُ فيهم الدروز والنصيرِيَّةُ والفِرَقُ الَّتي نَشَأت مِن الدُّولَةِ الَّتِي تُسَمَّى الفاطمية، وهي الدولة العبيدِيَّةُ المعروفة.هؤلاء أكثر من تمثل فيهم قَولُ الخُرَّامِيَّةِ، حَتَّى إِنَّ كَثيرًا مِمَّن كَتب فِي الفِرقِ قالوا: إِنَّ أَقوال المجوس في كثيرٍ مِنها تَفَد إلى هؤلاء الباطنية، وأمَّا فِي نسبةِ التَّدبير والشَّرِكَةِ فِي الملكِ فإنَّهم قالوا: إِنَّ الإله حَلَّ فِي بَعض مُعَظَّميهم، فيرونَ أَنَّ الإلَهَ حَلَ فِي أوليائهم أو فِي بعض أئِمَّةِ أهلِ البَيتِ عندهم، أو عند الدروز مثلا في الحاكم العبيدي الحاكم بأمر الله العبيدي، أو فِي النصيرِيَّةِ أنَّه حَلَّ فِي عَلِيِّ له أو في بعض أبنائه أو فِي بَعض مُعظَّميهم، ولهذا صار ما يفيضُ مِن أعمالِ الخَيرِ هي عن طريق هؤلاء. وهذا الاشتراك في الربوبية هم يُقِرُّونَ به، وقد لا يُقِرُّونَ، لكنَّ حَقيقَةَ المذهَبِ وَحَقيقة تلك الأقوالِ أَنَّه يَؤول إلى القَولِ بِإِمَّا حَقِيقَةً أو باللَّازِمِ إِلى القَولِ بِأَنَّهُ اعْتِقَادُ لِلشَّرِكَةِ فِي الرُّبوبِيَّةِ. **الطَّائِفَةُ الثانية: غُلاةُ الصُّوفِيَّةِ،** الذين قالوا: بِأَنَّ الأرضَ لها أربعة أقطاب تُدَبِّرُ أمرها، وفَوَّضَ اللَّهُ أَمَرَ الأرض إلى هؤلاء الأربعة من الأولياء، على حد زعمهم، فالمتصوفة يؤمنون بتلك القدرات، ويزعمون بأن الأقطاب الأربعة (وهم :أحمد الرفاعي من الشام، وعبد القادر الجيلاني من العراق، وأحمد البدوي من المغرب، وإبراهيم الدسوقي من مصر، كانوا من أهل الخطوة، ويرفضون أنها مجرد خرافة، المقصود يَقولونَ: بأنَّ هؤلاء الأربَعَةَ هم الَّذِينَ يَتَصَرَّفونَ بِالكَونِ وإلى اليوم ثُمَّ بَعضُ الطُّرُقِ

الصُّوفيَّةِ تُرَبِّي على هذا الاعتقاد، حتَّى بَعضُ الكِبار المشهود لهم اليوم يعتقدونَ مِثلَ هذا الاعتقادِ البغيض الكُفْرِي. ولهذا في الحقيقة هو اعتقاد من مثل ما ذَكَرَ الشَّيخُ تخلفه عن المجوس أَنَّهم اعتقدوا الشركة في، والاشتراك في التدبير الذي هو الملكُ، إذا كان فوَّضَ له بعض الأرض يُدَبِّرُها مَثَلًا أَهلُ مِصرَ عِندَ فُلانٍ، وأهل المغرب عندَ فُلانٍ، وأهل العراق عند عبد القادر ... إلى آخِرِهِ، فَإِنَّ هذا معناه أَنَّ اللهَ ليس هو الواحدُ في تَصَرُّفه في ملكوته في تدبيره.

الصِّنف الثَّالِثُ: مِمَّن اعتقدوا الشَّرِكَةَ في المِلكِ الَّذين غَلَوْا فعبدوا غير الله جل وعلا، فعبدوا بعض الأنبياء أو بعض الأولياء، وهذه العِبادَةُ في الحَقيقَةِ تَؤول إلى أو يَلزَمُ مِنْهَا أَنَّه أَو مُتَضَمَّنَةٌ **لاعتقادِهِم** أَنَّ هذا له تَصَرُّفٌ في بعض الملكوتِ، ولو لم يذكره لأنه **في باطنه يعتقد** أنَّ هذا ينفعه مع كونه ميتاً !لكنه لما اعتقد فيه جلب النفع ودفع الضر **تعلق** به **واتخذه** وسيطاً بينه وبين الله ، فالاعتقاد والتعلق والاتخاذ للمخلوقين ثلاثية الكفر والشرك كما فصلناها فى شرح كشف الشبهات فى التوحيد، قد يَصِلُ بِغُلاةُ المشْرِكِينَ، يَصِلُ بهم الأمر إلى أنْ يَعتقدوا أنَّ هذا يُعطي بنفسه ويَمْنَعُ بنفسه ويشفي المرضَ بنفسه، لأَنَّهم هم على عِدَّةِ اعتقادات **ومنهم** مَن يَقولُ: إنَّ هذا الميت أو الولي أو النبي يُعطي بنفسه ويمنعُ بِنَفْسِهِ ويُشفي المرضَ بِنَفْسِه.**ومِنهم** مَن يَعتَقِدُ أَنَّه يَشْفَعُ عندَ اللهِ جَلَّ وعلا ويكونُ وَاسِطَة.والَّذِينَ يَقولونَ إنَّه يعتقد بنفسه، هؤلاء يعتقدون الشركة في الملكِ.

الفِئَةُ الرَّابِعَةُ: والأخيرَةُ، مِمَّن اعتقدوا الشَّرِكَةَ في الملكِ الَّذين ألحدوا فَآمَنوا بِاللهِ وُجودًا لكنَّهم آمنوا بأنفسهم تصريفا لهذه الأرض، وهم الماديون وغُلاة العلمانيين الذين قد يُؤْمِنونَ بِوُجودِ اللهِ كوجودٍ ولكنهم يعتقدون أنهم قادرون ومالكونَ لهذه الأرض، يتصرفون فيها وفق أهوائهم، وهذا قد يُؤَوِّلُ هذا الاعتقاد بالفاعِلِ أو بِمَن يَراهُ إلى أنَّه يَعتَقِدُ أنَّ أهل المادَّةِ وأنَّ الدول الكبرى وأنَّ الكُفَّارَ وَأنَّ أهلَ القُوى العظمى في العالم أنهم هم القادرون على التصريف، وأَنَّهم يفعلون ما يَشاءُونَ ويتركونَ مَا لا يَشاءُونَ وأَنَّهم هم الَّذِينَ يُدَبِّرُونَ هذا الأمر كما وَصَفَ اللهُ جَلَّ وعلا النَّاسَ في آخِرِ الزَّمَانِ بِقَولِهِ:(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قادرون عَلَيْهَا أَتاها أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْس كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢) وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَمِ ﴾ [يونس] ويَصِلُ الأمر بأنه يعتقد أنه هو المدَبِّرُ هو الذي يتَصَرَّفُ وأنه قد يأتيه بَلاءٌ من الطبيعة، لكنَّه يُضادُّ ذلك، وأنَّه يَمْلِكُ القدرة على تصريف الأرض وعلى التدبير فيها على صُنع الأشياء فيها، ودون اعتقاد كامل في الله جل وعلا فيصل بهم الأمرُ أنَّهم شُرَكَاءُ في القرار في الأرضِ، شُرَكاءُ في الإرادَةِ، شُرَكَاءُ فِي التَّقْدِيرِ، شُرَكَاءُ في التدبير.وهذا والعياذ بالله موجود ولكنه أيضًا كما أنه في الماديين وفلاسفة المادة لكنه قد يوجَدُ في بَعض المسلِمِينَ اعتقادًا في تلك القوى العظمى أو في تلك القُدْراتِ الكَبيرَةِ الموجودَةِ، فقد يَصِلُ الأمرُ بأنَّه ما

يُريدونه يحصل، وهذا يُخطئ فيه مَن يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ يَحصُلُ بأنَّه مِن تدبير القوى العظمى، وهذه المسأَلَةُ يَنبَغِي أَنْ يُنَبَّه عليها وأنْ يُنتبه لها في أنَّه لا يَجوزُ شَرعًا أن يُقالَ فِي كُلِّ مَا يَحصُلُ أَنَّهُ مِن تَدبِيرِ القوى العظمى، من تدبير أمريكا، وهذا من تدبير اليهود في كُلِّ شَيءٍ يَحصُلُ يُقالُ هَذَا مِن تدبير أولاء، وهؤلاء لا يُدَبِّرُونَ كُل شَيء. وإنَّما يُدَبِّرُونَ أشياء، والله جل وعلا له الحكمة البالغة في أشياء تحصل ويستفيدون منها، لكنَّ كَونَهم يُدَبِّرُونَ كُلَّ شَيءٍ هذا لا يجوز اعتقاده لأنَّ الَّذِي يُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ هو اللَّهُ جَلَّ جَلالُه. ولهذا هذه المقالة قد تؤول بصاحبها إلى البَأْسِ، وهي عَدَمُ اعتقادِ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وعلا هو الَّذِي يُعِزُّ مِن دينِهِ، وَيُعِزُّ مَن يَشَاءُ وَأنَّه له الحكمة البالغة فيما يفعل. لهذا للماديين وغُلاةِ العِلمانِيِّينَ الَّذِينَ يَعتَقِدُونَ أنَّهم قادِرُونَ مُدَبَّرُونَ في هذه الأرضِ لهم نَصِيبٌ مِنَ الشُّبَهِ مِن أولئكَ.

فإذا كانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خالَفَ أهل الجاهلية في الاعتقادِ والعَمَل وجاهَدَ تلك الفئات ومنهم المجوس الذين اعتقدوا الشَّرِكَةَ مع الله جل وعلا أو اعتقاد إلهينِ أو اعتقاد رَبَّينِ، فَإِنَّ مُجَاهَدَةَ مَن نَحَا نَحوَهُم مِن أَهْلِ هَذا الزَّمَانِ أَنَّ هَذَا وَاجِبٌ لأنَّ هذا مِن الوِراثَةِ الحَقَّة لدينِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم وَلَمَا عَمِلَه نَبِيُّنَا عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلامُ، فَكُلُّ مَن له شَبَةٌ مِن أهل الجاهلية من أهل الاعتقاداتِ الكُفْرِيَّةِ هذه الَّتِي ذَكَرنَا فَإِنَّه وَاجِبٌ جهاده، جهادُ السِّنانِ مع القُدرَةِ وتحقيق المصلَحَةِ، وجهاد البيان واجبٌ في كُلِّ زمانٍ ومكان وعلى كُلِّ من عنده علم بما عليه أهل الباطل.

إذا احتج المُبْتَدِعُ على قصده لآثارِ الصَّالِحِينَ للتبرك بفعل ابن عُمَرَ له في قصدِه آثار النبي صلى الله عليه وسلم، هل يصح احتجاجه بأن له أصلا من فعل الصَّحَابَةِ؟

الجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم إذا اختلفوا في قول أو في فعل وَجَبَ الرَّدُّ إلى النُّصوص، لأنَّ الله جل وعلا يقول للصحابة: ﴿فَإِن تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء:٥٩] والرَّدُّ إلى اللهِ، يَعني إلى كتابه وإلى الرَّسولِ، يعني في حياته عليه الصَّلاة والسَّلامُ وبعد وفاته عليه الصلاة والسَّلامُ إلى سُنتِه. فإذا اختَلَفَ الصَّحابَةُ وَجَبَ الرَّدُّ إلى الكِتابِ والسُّنَّةِ، ثُمَّ إنَّه ا إذا اختَلَفَ الصَّحَابَةُ بِأَنَّهُ إِذَا الخُلَفَاءُ الأربَعَةُ وعامَّةُ الصَّحابَةِ والعَشَرَةُ المبَشَّرُونَ بالجَنَّةِ وَفُقَهَاءُ الصَّحَابَةِ على قولٍ، ثُمَّ وَاحِدٌ مِن الصَّحابَةِ اختار قولا آخَرَ، لا شَكَّ أنَّ الصَّواب مع عامَّةِ الصَّحابة ومع جمهورِ الصَّحابَةِ، وأَنَّ الصَّحابِي الَّذِي اختار شَيئًا من الأقوالِ أَنَّه يُنسَبُ إليه ولكن لا يُتَّبَعُ فيه، لأنَّ الأتباع يَكونُ للسواد الأعظم مِن الصَّحَابَةِ رِضوانُ اللهِ عليهم.

الوَجهُ الثَّانِي: أَنَّ فِعَلَ ابْنِ عُمَرَ **ليس هو قصدًا للآثار**، ابن عُمر **لم يَكُنْ يَقصِدُ الْآثَارَ**، وَإِنَّمَا كَانَ **يَقصِدُ اتِّباعَ السُّنَّةِ**، فهو عليه رِضوان الله كانَ شَديدا على نَفْسِه في اتِّباع سُنَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم في الأفعال وفي الحَضَرِ وفي السَّفَرِ، فَإِذَا سَافَرَ سَفَرًا فَإِنَّه يَقصِدُ الأماكن هذه لا لتعظيمها أو للتبرك بها التَّمَسُّحِ وَنَحوِ ذلكَ، وَإِنَّمَا لأَنَّ النَّبِيَّ صلَّى في هذا المكان أو لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مَرَّ على هذا المكان، ومَعلومٌ أَنَّ النِّيَّةَ تُفَرِّقُ بَينَ الأَعْمالِ، فَإِذَا كَانَ العَبدُ يَعْمَلُ عَمَلًا صورَتُهُ مُتَشَابِهَةٌ مع صورَةِ فِعلٍ آخَرَ فَالَّذي يُخَالِفُ بِينَ الفِعَلَينِ النِّيَّةُ الَّذِي يُخَالِفُ بين الفعلين القصد.

فمَثَلًا هذا ذَبَحَ، وهذا ذَبَحَ هل كُلٌّ منهما مَوَحْدٌ؟ لا حتَّى نَعلَمَ ما القَصْدُ، هَذَا ذَبَحَ مُتَقَرِّبًا للهِ، وَذَاكَ ذَبَحَ مُتَقَرِّبًا إِلَى إِلَهٍ آخَرَ كذلكَ الصَّلاةُ، صلَّى فُلانٌ، وصلى فُلانٌ، هَذَا صَلاتُه قُبِلَتْ وَهَذَا صَلاتُه رُدَّتْ لأَنَّها كانت رياءً وسُمْعَةً، صورَةُ العَمَلِ الظَّاهِرِ كانت واحِدَةً؛ لكنَّ حَقيقَةَ العَمَلِ القَصْدُ مِنه والباعِثُ مُختلِفَةٌ، فهذا أُجِرَ وذَاكَ رُدَّتْ عليه صلاته وكانَ مُشرِكًا في صَلاتِه، لأَنَّه مُراءٍ، هل يَستَوِي فِي هَذَا فِعلِ ابنِ عُمر مع فعل الذين يتبرّكون بالآثار ويتمسحون بها ويقصدونَها ويَرحَلُونَ إليها لغَرَضِ التَّبَرُّكِ؟ لا يَستَوِي، فابنُ عُمَرَ له مع أنَّ الصَّحابة لم يُوافقوه على قصدِ على أَنَّ هَذَا مِنَ السُّنَّةِ أَنَّهُ يَذْهَبُ يَتَتَبَّعُ فعل النبي صلى الله عليه وسلم لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مَا فَعَلَ، مَا مَرَّ بهذا المكان ولا صَلَّى في هذا المكانِ عَن قَصدٍ، وَإِنَّمَا كَانَ يعني عن تَعَبدٍ إِنَّمَا كَانَ وَافَقَهُ هذا الفعل، فما كان فعله عليه الصَّلاة والسَّلامُ على سَبِيلِ الموافَقَةِ، فَإِنَّه يكون من الأمور الطبيعية التي جرت لا للتعبد، وهذا لا يُقتدى فيها، ليست مجال اقتداء، لذلك فهم جميع الصحابة ما عدا ابنِ عُمَرَ أَنْ لا تُقصد هذه الأماكِنُ؛ لأَنَّها إِنَّما فَعَلَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَا عَلَى قَصدِ التَّعَبدِ. ولهذا نقولُ فِي الوَجهِ الثَّانِي أَنَّ صورة الفعل ولو اتفقت فإِنَّ القصد والباعث عليه يَخْتَلِفُ، فهذا يَكونُ مَأْجُورًا لقصدِ وهذا يَكونُ مَأزورًا لقصد، فابنُ عُمَرَ قَصده الاتِّباعُ لظنه أنَّ هذا الفعل هو اتباع. فَإِذَا يُوجَرُ ابْنُ عُمَرَ ، على أنه فَهِمَ أَنَّ فِعله هذا هو الاتِّباعُ وَكَمال الاقتداء بالنَّبي ، لكن عامة الصَّحابَةِ قالوا: إِنَّ هذا ليسَ مِمَّا يَكون فيه الاقتداء، فلهذا يكون مع عامَّةِ الصَّحابَةِ هو الصَّوابُ فِي أَنَّ الاقتداء ليس في هذا السبيل. **الوجه الثالث والأخيرُ** أنَّ قولَ السَّائِلِ هنا هل تُبَدِّعُ ابنَ عُمَرَ الكَلامُ هذا ليسَ مِن جِهَةِ البِدْعَةِ، البدعَةُ مَعلومٌ تَعريفها وَكَلامُ العُلَماء فِي ضَوابطها ومن أحسَنِ تعاريفها **أنَّ البدعة هي ما أُحدِثَ على غَيرِ أصل شَرعِي على وجه الاختصار وقُصِدَ به التَّقَرُّبُ إلى الله جل وعلا** مثلًا، وفعل ابن عُمرَ عنده وفيما قصده هو أن يفعل كما فَعَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وكونه يفعل كما فَعَلَ ليس بدعة، ولكنَّه تَتَبَّعَ الآثار للتبرك بها هذا لم يَكُنْ قَصَدَ ابنِ عُمَرَ ولذلكَ لا يَكون بدعةً مِنه وحاشاه، رضى الله عنه وأرضاه.

﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة] كلمة الحكم والأصل فيه أن تقول: الحكم بغيرِ مَا أَنزَلَ اللهُ.هنا قَضِيَّةٌ كُليَّةٌ إِذَا أَنزلَتَها على الواقع، فَإِنَّه يَكونُ عندك حاكمًا بِغَيرِ ما أَنزَلَ اللهُ.

فَستَجِدُ **حَاكِمًا** بِغَيْرِ مَا أَنزَلَ اللهُ.

وستجد **مُتحَاكِمًا** إِلَى غَيْرِ مَا أَنزَلَ اللهُ.

وسَتَجِدُ **مُشَرِّعًا** للقوانينِ، نَفْسَ الْمُشَرّع

وسَتَجِدُ **مُستَورِدًا** للقوانين.

وسَتَجِدُ **دَولَةً** تَحكُمُ.

هذه خَمْسَةُ أنواع، لكنَّ نفس الحكمِ إذا نَزَّلته للواقع وجاءَكَ هذا التفصيل.

فلهذا مَن جَاءَ وتكلّم فِي هذه المسألة على **الحكم** بغير ما أنزل الله لابُدَّ أَن يَقَعَ فِي خَلَلٍ ويكون عنده بَعضُ الصَّوابِ، ويكون عنده بَعضُ الخطأ، لكنَّه إذا فَصَّلَ هذا التفصيل الوارِدَ فِي النُّصوص فَإِنَّه تَستَبِينُ له المسألَةُ ويَستَبِينُ له كَلامُ أهلِ العِلمِ فيها مِن السَّلَفِ ومِن المتَأَخِّرِينَ.

ولهذا كَلامُ الشَّيخِ مُحَمَّد بن إبراهيم هو الكَلامُ الَّذِي عليه أئمَّةُ الدَّعوَةِ رَحِمَهُم الله، الكَلامُ الَّذِي قَرَّرَه إِمَامُ الدَّعوَةِ الشَّيخُ مُحَمَّد بن عبد الوهاب، وهو الكَلامُ الَّذِي عليه أئمةُ الدَّعوَةِ فِي شرحهم لكتاب التوحيد فالواجب على طَلَبَةِ العِلمِ أن يبحثوا المسائِلَ لا على وجه التقليد، نبحَثُ بَرَدُّها إلى النصوص، وهذا هو منهج أهل الحديث ومنهج أهلِ السُّنَّةِ.

فإذا نظرت **للمُتحَاكِمِ**، وَجَدتَ أنَّ فيه آيةً وهي قوله تعالى فِي سورةِ النِّسَاءِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٦٠] فالمتَحَاكِمُ، جاءَت مسألة الإرادة وهي الرَّغبَةُ، يُرِيدُ أن يتحاكم، له رغبةٌ وله مَحَبَّةٌ، فهو يختارُ هذا الشَّيء ويُرِيدُه، فهذا حكم آخر.

المُبَدِّلُ، المُشرع جاء فيه قول الله جل وعلا: (اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١] وحديثُ عَدِي بن حاتم المعروف، قال: يا رسولَ اللهِ، ما عَبَدناهم، قالَ: «أَلَمْ يُحِلُّوا لَكُمُ الْحَرَامَ فَأَحْلَلْتُمُوهُ، ألم يُحِلُّوا لكم الحرام يعني شَرَّعوا، أَلَمْ يُحَرِّمُوا عَلَيْكُمُ الْحَلَالَ فَحَرَّمْتُمُوهُ، قال: بلى يا

رسولَ اللهِ قالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» هذا تشريع، ولذلكَ جَاءَ ذِكرُ الربوبية، أربابًا، لأَنَّهُم شرعوا والمشَرِّعُ مَن هو ؟ المشَرِّعُ الرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ وَالَّذِي رَزَقَ وَالَّذِي يُعطي، هو الَّذِي يُشَرِّعُ فِي خَلقِهِ مَا يَشَاءُ.

هذا هنا المشَرِّعُ له حكم، لكنَّ هذه الآية هل فيها الكلام عن المشَرِّعِ أَصالَةً وَلا الكَلامُ فيها عن مُتَّبِعِ المشَرِّع؟ فهنا الكَلامُ على المشَرِّع ، بأنَّه رَبٌّ، لأنَّه شَرعَ فأطيعَ وأمَّا أولئك ففيهم أيضًا تفصيل ذَكَرَه الشيخ سليمان رحمه الله، في شرح التّيسير، يعني مطيعُ المشَرِّع هل يَكفُرُ مُطلَقًا أو فيه تَفصيل ؟ وذَكَرَ فيه التفصيلُ المناسِب.

هنا المسألة الرابعة أو الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ الحاكِمُ، يعني رئيس، أو المستَورِدُ لهذا، مُستَورِدُ القوانين، فيه قوانين موجودة هو استوردها، هل استيراد القانون هنا، هل هو كُفْرٌ مُطلَقًا، ولا فيه تفصيل ؟ هذا الكلام هو الذي جاءَ في رِسالَةِ الشَّيخِ مُحمَّد بن إبراهيم رحمه الله، في استيراد القوانين، لذلك رسالة تحكيم القوانينِ، فَمَن جَعَلَها مُعارِضَةً لكَلامِ المشايخ، هذا ما فَهِم أَصل المسأَلَةِ، كُلُّهم مِن مَدرَسَةٍ واحِدَةٍ، وهي مدرسة أهل الحديث، ومَدرَسَةُ أتباع السَّلَفِ، لكنَّ الصُّوَرَ مُختَلِفَةُ الشَّيخُ مُحمدٌ،رحمه الله كانَ يَتَكَلَّمُ عن صورَةِ تحكيم القانون باستيراد القوانين الوضعية للحكم بها، ولذلك في صدرِ الرِّسالَةِ، قالَ، رحمه الله : (إنَّ مِن الكُفْرِ الأكبرِ المستَبِينِ تَنزِيلُ القانونِ اللَّعينِ مَنزِلَة ما نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ على قَلبِ سَيِّدِ المرسَلينَ، مُنازَعَةً ومُحادَّة.. إلى آخِرِ ما قال.الكلام على تنزيل القانونِ مَنزِلَةَ الشَّريعَةِ، هذا ما في أحَدٍ يَقولُ : إنَّه إسلام ولا إيمان ولا إنَّه فسق هذا كُفَرٌ تَنزِيلُ القانونِ مَنزِلَةَ الشَّرِيعَةِ كُفْرٌ أكبر باتفاق أهل العلم، تنزيل القانونِ مَنزِلَةَ الشَّرِيعَةِ، يَقولُ: هذه الشَّرِيعَةُ لا تُرِيدُها، نُرِيدُ القانونَ يَحكُمُ لا نُرِيدُ الشَّريعَةَ، القانون هو الذي يَحكُمُ، لا يَجْعَلُونَ له محَاكِم وقُضاةً وأمرًا وَنَهيًا وملفات وسجلات، مثل ما ذَكَرَ الشَّيخُ في رسالتِه، وَيَقُولُونَ لِلنَّاسِ: اتَّجهوا إلى هذه المحاكم لتحكم بينكم ولا حُكم للشَّرِيعَةِ، هذا هو التنزيل الذي يتكَلَّمُ عنه الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ إبراهيم لكن نأتِي للحاكِمِ رَئِيس الدولة، هل هو ينطبق عليه أنَّه مُستَورِدٌ، أو هنا ينطبق عليه الرّضا مِن عَدَمِهِ ؟ هنا يَتَكَلَّمُ المشايخ، هل هو راض أو غير راض .... إلى آخره.

الدولةُ نَفسُها التي فيها الحكم بغير ما أنزلَ الله، هل هي تَكفُرُ مُطلَقًا أو إِذَا كَانَ الحُكمُ بِغَيْرِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ فاشيا غالبًا، أو فيه تفصيل؟ هذا أيضا فيه تفصيل وأنت تأمل المسألة على هذا النحو، واجْمَعْ كَلامَ أَهلِ العِلمِ، فَإِنَّكَ سَتَفْهَمُ كَلامَ أهلِ العِلمِ، وستنزلُ كُلَّ مَسألة وَكُلَّ صورَةٍ في أحكامها الشرعيَّةِ مِن جِهَةِ الدَّلِيلِ وَمِن جِهَةِ تَفصيل العُلَماءِ، وَسَتَجِدُ أَنَّ المسأَلَةَ مُتَّسِقَةٌ على وفق الدليل، فتَخْرُجُ فيها مِن غُلُو العَالِينَ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ مُطلَقًا، و مِن جَفاءِ المتَسَاهِلِينَ الَّذِين لا يعتبرون هذه المسألة مسألة تكفير، كُلُّهَا كُفَرٌ أَصْغَرُ، كُلُّها مُتَسَاهِلُونَ فيها، فَسَتَجِدُ أَنَّ المسأَلَة مُنضَبِطَةٌ على طَرِيقَةِ أهل العِلمِ الرَّاسِخينَ فِي ذلكَ، جَعَلَنَا اللهُ وإيَّاكُم مِمَّن يَتَّبِعُ سبيلهم آمين.

قالَ شَيخُ الإِسلامِ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنَّاتِه:

الْمَسْأَلَة الثَّالِثَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: جحودُ القَدَرِ، والاحْتِجاجُ بِهِ على الله تَعالى ومعارَضَةُ شرعِ الله بِقَدَرِ الله. وهذهِ المسألَةُ مِن غَوامِض مَسائلِ الدِّينِ، والوُقوفُ عَلى سِرِّها عَسِر إلا على من وَفَّقَه الله تَعالى. ولابنِ القيِّمِ كِتاب جَلِيْلٌ في هذا البابِ سمَّاه (شِفاءَ العَليل في القَضاءِ والقَدَرِ والحِكْمَةِ والتَّعْليل) .

وقد أَبْطَلَ الله سُبحانَه هذه العَقيدَةَ الجاهلية بقولِهِ تَعالى في آخر سورة [الأنعام: 148-149] :

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ - قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: 148 - 149] تفسيرُ هذه الآية: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) : حِكاية لفَنٍّ آخَرَ مِن أباطيلِهم. {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا} [الأنعام: 148] لَمْ يُريدوا بِهذا الكَلامِ الاعتذار عَنِ ارْتِكابِ القَبيحِ، إذْ لم يَعْتقِدوا قُبحَ أفعالِهِم، بل هُم كما نَطَقَتْ بِهِ الآيات يحسَبُونَ أَنَّهُمْ يحسِنوُنَ صُنعًا، وأنهم إنَّما يَعْبُدونَ الأصنامَ لِيُقَرِّبوهُم إلى الله زلْفى، وأنَّ التَّحريمَ إنما كانَ مِن الله عز وجل، فَما مرادهُم بذلِكَ إلا الاحتجاجُ على أنَّ ما ارْتكَبوهُ حَقٌّ ومَشروع وَمرضيٌّ عند الله تَعالى على أنَّ المشيئةَ والإِرادةَ تُساوي الأمرَ، وتَسْتَلْزِمُ الرِّضى، كما زَعَمَتِ المعْتَزِلَةُ، فَيَكونُ حاصِلُ كلامِهِم أنَّ ما نَرتكِبُهُ مِنَ الشِّرْكِ والتَّحريمِ وغيرِهما تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشيئَة الله تعالى وإرادَتُه، وكل ما تَعَلَّقَتْ بِه مَشيئَته سبحانه وإرادَتُه فَهو مَشروعٌ ومَرْضِيٌّ عندَ الله تَعالى.

وبَعْدَ أنْ حَكى سبحانه وتعالى ذلِكَ عَنهم، رَدَّ عَلَيْهِم بِقولِهِ عَزَّ مِنْ قائِلٍ {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الأنعام: 148] وهم أسلافُهُم المشركونَ. وحاصِلُهُ أنَّ كلامَهم يَتَضَمَّنُ تكذيبَ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَقَدْ دَلَّتِ المعْجِزَةُ على صِدْقِهِم.أو نَقولُ حاصِلُهُ أنَّ ما شاءَ الله يَجِبُ، وما لم يَشَأْ يمْتَنِعُ، وكلُّ ما هذا شأنُه فلا تكليفَ بِهِ لِكونِهِ مَشروطًا بالاسْتِطاعة، فَيَنْتُجُ أنَّ ما ارْتكَبَهُ مِن الشِّرْكِ وغيرِهِ، لَم يتكَلَّفْ بِتَرْكِهِ ولمْ يُبْعَثْ لَهُ نَبِيّ. فَرَدَّ الله تَعالى عَلَيهم بأنَّ هَذِهِ كَلِمَةُ صِدْقٍ أُريدَ بِها باطِلٌ، لأَنَّهم أرادوا بِها أن الرُّسُلَ عليهم السلام في دَعْواهُمُ البِعْثَةُ والتكليفَ كاذِبونَ. وَقَدْ ثَبَتَ صِدْقُهُم بِالدَّلائِلِ القَطْعِيّةِ، ولِكَوْنِه صِدْقًا أُريدَ بِهِ باطِلٌ، ذَمَّهُمُ الله تَعالى بِالتكْذيبِ. وَوجوبُ وُقوعِ مُتَعَلَّقِ المشيئَةِ لا يُنافي صِدقَ دَعْوى البِعثَةِ والتكليفِ؛ لأَنَّهما لإِظهارِ المحَجَّةِ وإبلاغِ الحُجَّةِ {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} [الأنعام: 148] أي نالوا عَذابَنا الذي أنْزَلْناهُ عَلَيْهِم بتكْذيبهم،وفيه إيماءٌ إلى أنَّ لهم عَذابًا مُدَّخَرًا عِندَ الله تَعالى؛ لأنَّ الذَّوقَ أوَّلُ إدْراكِ الشَّيْءِ {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} [الأنعام: 148] أي هل لَكُمْ مِنْ عِلمٍ بأنّ الإِشراكَ وسائِرَ ما أنتُم عَلَيه مَرْضيٌّ عند اللَّهِ تَعالى فَتُظْهِروهُ لَنَا بِالبُرْهانِ؟ وهذا دَليلٌ على أنَّ المشركينَ أُمَم اسْتَوجَبوا التَّوبيخَ على قولهم ذلك؛ لأَنَّهم كانوا يَهْزَءونَ بالدِّين، ويَبْغونَ رَدَّ دَعْوةِ الأنبياء عليهم السلام، حَيثُ قرع مسامعهم من شَرائِعِ الرسُلِ عليهم السلام تَفْويضُ الأمورِ إلَيْهِ سبحانه وتعالى، فَحينَ طالبوهُم

بالإسلامِ، والتِزامِ الأحكامِ، احْتَجُّوا عَلَيْهِم بِما أخَذوه مِن كَلامِهِم مُسْتَهْزِئينَ بِهِم عليهم الصلاة والسَّلامُ، ولَم يَكُنْ غَرَضُهُمْ ذِكْرَ ما يَنْطَوي عَلَيْهِ عِقْدُهُم، كَيفَ لا والإيمانُ بصفاتِ الله تعالى فَرْعُ الإيمانِ بِهِ عَزَّ شَأْنُهُ .{إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: 148] أيْ تكْذِبونَ على الله تَعالى {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149] أي البينةُ الواضِحَةُ التي بَلَغَتْ غايَةَ المتانَةِ والقُوَّةِ على الإثباتِ، والمرادُ بِها في المشهورِ: الكتابُ والرَّسولُ والبيانُ. {فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: 149] بِالتَّوفيقِ لَها، والحَمْلِ عَليها، وَلَكِنْ شاءَ هِدايَةَ البَعْضِ الصَّارِفِينَ اختيارَهُم إلى سُلوكِ طَريقِ الحَقّ، وضَلالَ آخَرينَ صَرَفوه إلى خِلافِ ذَلِكَ. ومِنَ النَّاسِ مَنْ ذَكَرَ وَجْهًا آخَرَ في توجيهِ ما في الآية، وهو أنَّ الرَّدَّ عَليهم إنَّما كانَ لاعْتِقادِهِم أنَّهم مُسَلِّمونَ اختيارَهم وقُدْرتهم، وأنَّ إشراكَهم إنَّما صَدَرَ مِنهم على وجْهِ الاضْطرارِ وَزَعَموا أنَّهم يُقيمونَ الحُجَّةَ على الله تَعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بِذَلِكَ، فَرَدَّ الله تعالى قَولَهم في دَعْواهُم عَدَمَ الاخْتيارِ لأنفسِهِم، وَشَبَّهَهُمْ بِمَنِ اغْتَرَّ قَبْلَهُم بِهذا الخَيال، فَكَذَّبَ الرُّسُلَ، وَأشْرَكَ بِاللهِ عز وجل، واعْتَمَدَ على أنَّه إنَّما يَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَشِيْئَةِ اللهِ تعالى وَرامَ إفْحامَ الرُّسُلِ بِهذِهِ الشُّبْهَةِ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّهم لا حُجَّةَ لَهم في ذَلِكَ، وأنَّ الحُجَّةَ البالِغَةَ لَه تَعالى لا لَهم، ثُمَّ أوْضَحَ سُبحانَه أنَّ كُلَّ واقعٍ واقع بِمشيْئَتِهِ، وأنَّه لَم يَشَأْ مِنهمْ إلا ما صدَرَ عَنهم، وأنّه تعالى لَو شاءَ مِنهمُ الهِدايةَ لاهْتَدَوا أجْمَعينَ. والمقصودُ أنْ يَتَمَحَّضَ وجهُ الرَّدِّ عَليهم، وَتَتَخَلَّصَ عَقيدةُ نُفوذِ السنة وعموم تغلغلها بكُلِّ كائن عنِ الرَّدِّ، ويَنْصَرِفَ الرَّدُّ إلى دَعواهُم سَلْبَ الاخْتيار لأنفُسهم، وأنّ إقامتهم الحجة بِذلِكَ خاصَّة. وإذا تَدَبَّرْتَ الآية وَجَدْتَ صَدرَها دَافِعًا لِصُدورِ الجَبْرِية، وعَجُزَها مُعْجِزًا للمُعْتزلة، إذِ الأوَّلُ مُثبتٌ أنَّ لِلْعَبْدِ اختيارًا وقُدْرةً على وجْهٍ يَقْطَعُ حُجَّتَه وعُذْرَهُ في المخالَفةِ والعِصْيانِ، والثَّاني مُثِبتٌ نُفوذَ مَشيئَةِ الله تَعالى في العبدِ، وأنَّ جَميعَ أفعالِه على وَفْقِ المشيئة الإلهيةِ، وبذلكَ تَقومُ الحُجَّةُ البالغة لأهلِ السُّنَّةِ على المعتزلةِ، والحمدُ لِلَّهِ ربِّ العالَمِينَ.

ومِنهم مَن وجَّهَ الآية بأنَّ مرادَهم رَدُّ دعوةِ الأنبياء عليهم السلام على مَعنى أنَّ الله تعالى شاءَ شِرْكَنا، وَأرادَهُ مِنَّا، وَأنْتُم تُخالِفونَ إرادَتَه، حَيثُ تَدعونا إلى الإيمانِ، فَوَبَّخَهُم سبحانه وتعالى بوُجوه عِدَّة: منها قولُه سُبحانَه: {فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149] فإنه بتقدير الشَّرطِ، أي إذا كانَ الأمرُ كما زَعَمْتُم {فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149] وقولُه سُبحانَه: {فَلَوْ شَاءَ} [الأنعام: 149] بَدَلَ منه على سَبيلِ البَيانِ، أي لَو شاءَ لَدَلَّ كُلاًّ منكم ومِنْ مُخالِفيكم على دينه، لَو كانَ الأمرُ كَما تَزْعُمونَ، لَكان الإسلامُ أيْضًا بِالمشيئةِ، فَيَجِبُ أنْ لا تَمْنَعوا المسلِمينَ من الإسلامِ، كما وَجَبَ بِزعمكم ألا يمنَعَكُم الأنبياءُ عن الشِّركِ. فَيَلْزَمُكُم أنْ لا يكونَ بَيْنَكم وبَيْنَ المسْلِمينَ مُخالَفَة ومُعاداةٌ، بَلْ موافَقَة وموالاة.

وحاصِلُه أنَّ ما خالَفَ مَذْهَبَكم مِنَ النِّحَلِ يَجِبُ أنْ يَكونَ عِندكم حَقًّا؛ لأنه بمشيئة الله تَعالى، فَيَلْزَمُ تَصحيحُ الأديانِ المتناقِضَة. وَفِي سورةِ [النَّحْل: 35] {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل: 35] الكلامُ عَلى هذه الآية كالكَلام على الآية السَّابقةِ، وَلا تَراهُمْ يَتَشَبَّثونَ

بِالمشيئةِ إلا عِنْدَ انخِذالِ الحُجَّةِ. ألا تَرَى كيفَ خَتَمَ بِنَحوِ آخر مجادلاتهم في سورة الأنعام في الآية السابقة، وكذلك في سورة [الزخرف: 19–22] : وهو قولُه تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ – وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ – أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ – بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف: 19 – 22] ويكفي في الانقلاب ما يشير إليه قوله سبحانه: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149] والمرادُ بِما حَرَّموهُ السَّوائِبُ والبَحائرُ وغَيْرُها. وَفي تَخْصيصِ الاشْتِراكِ والتَّحْريمِ بالنَّفي؛ لأَنَّهُما أعْظَمُ وأشْهَرُ ما هُمْ عَلَيْهِ. وَغَرَضُهُم مِنْ ذَلِكَ تكْذيبُ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام والطَّعْنُ في الرِّسالةِ رَأْسًا، فَإِنَّ حاصِلَهُ أيْ ما شاءَ الله يَجِبُ، وما لَمْ يَشَأْ يَمْتَنِعُ، فَلَوْ أَنَّهُ سبحانه وتعالى شاءَ أنْ نُوَحِّدَهُ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَنُحَلِّلَ ما أحَلَّهُ، ولا نُحَرِّمَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمْنا كَما تَقولُ الرُّسُلُ وَيَنْقُلونَه مِنْ جِهَتِهِ تعالى لَكانَ الأمرُ كَما شاءَ مِنَ التَّوحيدِ ونَفْيِ الإِشراكِ، وَتَحْليلِ ما أحَلَّهُ، وَعَدَمِ تَحْريمِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَحَيْثُ لَمْ يَكُنْ كَذلِكَ، ثَبَتَ أنه لَمْ يَشَأْ شَيْئًا مِن ذَلِكَ بَلْ شاءَ ما نحنُ عَلَيْهِ. وتَحَقَّقَ أنَّ ما يَقولُهُ الرُّسُلُ عليهم السلام مِن تِلْقاءِ أنْفُسِهِمْ. فَرَدَّ الله تَعَالى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ {كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [النحل: 33] مِن الأمَمِ، أيْ: أشْرَكوا باللهِ تَعالى، وَحَرَّموا مِنْ دونِهِ ما حَرَّموا، وجادَلُوا رُسُلَهُمْ بِالباطِلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الحَقَّ {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل: 35] أيْ: ليستْ وَظيفَتُهُمْ إلا البَلاغِ للرِّسالَةِ، المُوَضِّحَ طَريق الحَق والمظْهِر أحْكامَ الوحْيِ التي مِنها تَعَلُّقُ مَشيْئَتِهِ تَعالى باهْتِداءِ مَنْ صرفَ قُدْرتَهُ واخْتِيارَهُ إلى تَحْصيلِ الحَقِّ؛ لقولِهِ تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: 69] وأمَّا إلْجاؤهمْ إلى ذَلِكَ، وتنفيذُ قَوْلهم عليهِ شاءوا أوْ أبَوْا كما هو مُقْتَضى اسْتِدْلالِهِم فليسَ ذَلِكَ مِن وَظيفَتِهِم، ولا مِن الحِكْمَةِ التي يَتوَقَّفُ عَلَيْها التكليفُ، حَتّى يُسْتَدَلَّ بعدمِ ظُهورِ آثارِهِ على عدمِ حَقيقةِ الرسلِ عليهم السلام أو على عدمِ تَعَلُّقِ مَشَيْئَتِهِ تعالى بذَلِكَ، فإِنَّ ما يَتَرَتَّبُ عليه الثوَّابُ والعِقابُ مِن الأفْعالِ لا بُدَّ في تَعَلُّقِ مَشيئتِهِ تَعالى بِوقوعِهِ مِن مُباشَرَتِهِم الاخْتِيارِيّة، وَصَرْفِ اخْتِيارِهِم الجُزْئِيِّ إلى تَحْصيلِهِ، وإلا لَكانَ الثوَّابُ والعِقابُ اضطِرارِيين، والكلامُ على هذهِ الآية ونحوِها مُسْتوفىً في تفسير (رُوحِ المعاني) وغيرِه. فجُحودُ القَدَرِ والاحتجاجُ بِه على الله ومُعارَضَةُ شرعِ الله بِقَدَرِهِ، كُلُّ ذَلِكَ مِن ضلالاتِ الجاهِلِيَّةِ.والمقْصودُ أنَّهُ لا جَبْرَ وَلا تَفْويضَ، ولكنْ أمْر بَيْنَ أمْرَيْنِ، فمَنْ زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنْ هَذِهِ الجادَّةِ كانَ على ما كانَ عليهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ، وهِيَ الطَّرِيقَةُ التي رَدَّ عَلَيْهَا الله سبحانَه ورَسُولهُ صلى الله عليه وسلم.

ومن مسائل الجاهلية إنكارُ النُّبُوَّاتِ. وَكانوا يَقولون: ما حَكى الله عنهم بقوله في [الأنعام: 90–91] : {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ – وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ

مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: 90 - 91] تفْسيرُ هذه الآية: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ} [الأنعام: 91] شُروع في تَقْرِيرِ أمْرِ النُّبُوَّةِ، بَعْدَ ما حَكى الله سبحانَه عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه ذَكَرَ دَليلَ التوَحيدِ وإبطالِ الشِّرْكِ، وَقَرَّرَ سبحانَه ذلكَ بأفصح الدَّليلِ بأوْضَحِ وَجهٍ. {حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام: 91] أيْ: حَقَّ مَعْرِفتِهِ وعن بعضِهِم: ما عَظَّموا الله حَقَّ تَعْظِيمِه إذْ قَالُوا منْكرينَ لبعثةِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، كافِريْنَ بنعمةِ الله الجَليلةِ فيهما: {مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 91] أيْ: شَيئًا مِن الأشياءِ. واختُلِفَ في قائِلِ ذلكَ القَولِ الشَّنيع: فَعَن مُجاهِدٍ أَنَّهم مُشركو قُريشٍ، والجمهورُ على أَنهمُ اليَهودُ، ومُرادُهُم مِن ذَلِكَ الطَّعْنُ في رِسالتِهِ صلى الله عليه وسلم على سَبِيلِ المبالَغَةِ. فقيلَ لَهم على سبيلِ الإلزامِ: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى} [الأنعام: 91] فإنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أنْزَلَ التَّوراةَ على موسى عليه السلام وَلَا سَبيلَ لَكم إلى إنكارِ ذلِكَ، فَلِمَ لا تُجَوِّزونَ إنزالَ القُرآنِ على مُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.؟ والكلامُ في إثْباتِ النُّبُوَّةِ مُفَصَّلٌ في غيرِ هذا الموضِع، والمقصودُ أنَّ إنكارَها مِن سَنَنِ الجاهِلِيَّةِ، وفي النَّاسِ كَثيرٌ مِمَّن هو على شاكِلَتِهِم ومُعْوَجِّ طَرِيقهِم.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: جحودُ القَدَرِ ، والاحْتِجاجُ بِهِ على الله تَعالى ومعارَضَةُ شرعِ الله بِقَدَرِ الله. وهذهِ المسألَةُ مِن غَوامِض مَسائلِ الدّينِ، والوُقوفُ عَلى سِرّها عَسِر إلا على من وَفَّقَه الله تَعالى. ولابنِ القيّمِ كِتاب جَلِيْلٌ في هذا البابِ سمَّاه (شِفاءَ العَليل في القَضاءِ والقَدَرِ والحِكْمَةِ والتَّعْليل) . وقد أبْطَلَ الله سُبحانَه هذه العَقيدةَ الجاهلية بقولِهِ تَعالى في آخر سورة [الأنعام: 148-149] : {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ - قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: 148 - 149] تفسيرُ هذه الآية: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) : حِكاية لفَنٍّ آخَرَ مِن أباطيلِهم. {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا} [الأنعام: 148] لَمْ يُريدوا بِهذا الكَلامِ الاعتذار عَنِ ارْتكابِ القَبيحِ، إذْ لم يَعْتقِدوا قُبحَ أفعالِهم، بل هُم كما نَطَقَتْ بِهِ الآيات يحسَبُونَ أَنَّهُمْ يحسِنوُنَ صُنعًا، وأنهم إنَّما يَعْبُدونَ الأصنامَ لِيُقَرِّبوهُم إلى الله زلْفى، وأنَّ التَّحريمَ إنما كانَ مِن الله عز وجل، فَما مرادهُم بذلِكَ إلا الاحتجاجُ على أنَّ ما ارْتكَبوهُ حَقٌّ ومَشروع وَمرضيٌّ عند الله تَعالى على أنَّ المشيئةَ والإرادةَ تُساوي الأمرَ، وتَسْتَلْزِمُ الرِّضى، كما زَعَمَتِ المعْتَزِلَةُ، فَيَكونُ حاصِلُ كلامِهِم أنَّ ما نَرتكِبُهُ مِنَ الشِّرْكِ والتَّحريمِ وغيرِهما تَعَلَّقَتْ بِه مَشيئَةَ الله تعالى وإرادَتُه، وكل ما تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشيئَته سبحانه وإرادَتُه فَهو مَشروعٌ ومَرْضِيٌّ عندَ الله تَعالى. وبَعْدَ أنْ حَكى سبحانه وتعالى ذِلكَ عَنهم، رَدَّ عَلَيْهِم بِقولِهِ عَزَّ مِنْ قائِلٍ {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الأنعام: 148] وهم أسلافُهُم المشركونَ. وحاصِلُهُ أنَّ كلامَهم يَتَضَمَّنُ تكذيبَ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَقَدْ دَلَّتِ المعْجِزَةُ على صِدْقِهِم.

أو نَقولُ حاصِلُهُ أنَّ ما شاءَ الله يَجِبُ، وما لم يَشَأْ يمْتَنِعُ، وكلُّ ما هذا شأنُه فلا تكليفَ بِهِ لِكونهِ مَشروطًا بالاسْتِطاعة، فَيَنْتُجُ أنَّ ما ارْتَكَبَهُ مِن الشِّرك وغيرِهِ، لَم يتكلَّفْ بِتَرْكِهِ ولمْ يُبْعَثْ لَهُ نَبِيّ. فَرَدَّ الله تعالى عَلَيهم بأنَّ هَذِهِ كَلِمَةُ صِدْقٍ أُريدَ بِها باطِلٌ، لأنَّهم أرادوا بِها أن الرُّسُلَ عليهم السلام في دَعْواهُمُ البِعْثَةَ والتكليفَ كاذِبونَ. وَقَدْ ثَبتَ صِدْقُهُم بِالدَّلائِلِ القَطْعِيّةِ، ولِكَوْنهِ صِدْقًا أُريدَ بِهِ باطِلٌ، ذَمَّهُمُ الله تَعالى بِالتكْذيبِ. وَوجوبُ وُقوعِ مُتَعَلَّقِ المشيئَةِ لا يُنافي صِدقَ دَعْوى البِعثةِ والتكليفِ؛ لأنَّهما لإظهارِ المحَجَّةِ وإبلاغ الحُجَّةِ {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} [الأنعام: 148] أي نالوا عَذابَنا الذي أنْزَلْناهُ عَلَيْهم بتكْذيبِهم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ لهم عَذابًا مُدَّخَرًا عِندَ الله تعالى؛ لأنَّ الذَّوقَ أوَّلُ إدْراكَ الشَّيْءِ {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} [الأنعام: 148] أي هلْ لَكُمْ مِنْ عِلمٍ بأنّ الإشراكَ وسائِرَ ما أنتُم عَلَيه مَرْضيٌّ عند اللهِ تَعالى فَتُظْهِروهُ لَنا بِالبُرْهانِ؟ وهذا دَليلٌ على أنَّ المشركِينَ أُمَم اسْتَوجَبوا التَّوبيخَ على قولهم ذلك؛ لأنَّهم كانوا يَهْزَءونَ بالدِّين، ويَبْغونَ رَدَّ دَعْوَةِ الأنبياء عليهم السلام، حَيثُ قرع مسامعهم من شَرائِعِ الرسُلِ عليهم السلام تَفْويضُ الأمورِ إلَيْهِ سبحانه وتعالى، فَحينَ طالبوهُم بالإسلامِ، والتِزام الأحكامِ، احْتَجُّوا عَلَيْهِم بِما أخَذوه مِن كَلامِهم مُسْتَهْزئينَ بِهِم عليهم الصلاة والسَّلامُ، ولَم يَكُنْ غَرَضُهُمْ ذِكْرَ ما يَنْطَوي عَلَيْهِ عِقْدُهُم، كَيفَ لا والإيمانُ بصفاتِ الله تَعالى فَرْعُ الإيمانِ بِهِ عَزَّ شَأْنُهُ. {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: 148] أيْ تكْذِبونَ على الله تعالى {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149] أي البينَةُ الواضِحَةُ التي بَلَغَتْ غايَةَ المتانَةِ والقُوَّةِ على الإثباتِ، والمرادُ بِها في المشهورِ: الكتابُ والرَّسولُ والبَيانُ. {فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: 149] بِالتَّوفيقِ لَها، والحَمْلِ عَليها، وَلَكِنْ شاءَ هِدايَةَ البَعْضِ الصَّارِفينَ اختِيارَهُم إلى سُلوكِ طَريقِ الحَقّ، وضَلال آخَرينَ صَرَفوه إلى خِلافِ ذَلِكَ. ومِنَ النَّاسِ مَنْ ذَكَرَ وَجْهًا آخَرَ في توجيهِ ما في الآية، وهو أنَّ الرَّدَّ عَليهم إنَّما كانَ لاعْتِقادِهِم أنَّهم مُسَلِّمونَ اختِيارَهم وقُدْرتَهم، وأنَّ إشراكَهم إنَّما صَدَرَ مِنهم على وجهِ الاضْطرارِ وَزَعَموا أنَّهُم يُقيمونَ الحُجَّةَ على الله تَعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بِذَلِكَ، فَرَدَّ الله تَعالى قَولَهم في دَعْواهُم عَدَمَ الاخْتيارِ لأنفسِهم، وَشَبَّهَهُمْ بِمَنِ اغْتَرَّ قَبْلَهُم بِهذا الخَيال، فَكَذَّبَ الرُّسُلَ، وَأَشْرَكَ بِاللهِ عز وجل، واعْتَمَدَ على أنَّه إنَّما يَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَشِيْئَةِ اللهِ تعالى وَرامَ إفْحامَ الرُّسُلِ بِهذِهِ الشُّبْهَةِ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّهم لا حُجَّةَ لَهم في ذَلِكَ، وأنَّ الحُجَّةَ البالِغَةَ لَه تَعالى لا لَهم، ثُمَّ أوْضَحَ سُبحانَه أنَّ كُلَّ واقعٍ واقع بِمَشيْئَتِهِ، وأنَّه لم يَشَأْ مِنهمْ إلَا ما صدَرَ عَنهم، وأنّه تَعالى لَو شاءَ مِنهمُ الهداية لاهْتَدَوا أجْمَعينَ. والمقصودُ أنْ يَتَمَحَّضَ وجهُ الرَّدِّ عَليهم، وَتَتَخَلَّصَ عَقيدةُ نُفوذِ السنة وعموم تغلغلها بكُلِّ كائن عنِ الرَّدِّ، ويَنْصَرِفَ الرَّدُّ إلى دَعواهُم سَلْبَ الاخْتيار لأنفُسهم، وأنّ إقامتهم الحجة بِذلِكَ خاصَّة. وإذا تَدَبَّرْتَ الآية وَجَدْتَ صَدرَها دَافِعًا لِصُدورِ الجَبْرية، وعَجُزَها مُعْجزًا للمُعْتزلة، إذِ الأوَّلُ مُثبتٌ أنَّ لِلْعَبْدِ اختيارًا وقُدْرةً على وجْهٍ يَقْطعُ حُجَّتَه وعُذْرَهُ في المخالَفَةِ والعِصْيانِ، والثّاني مُثِبتٌ نُفوذَ مَشيئَةِ الله تَعالى في العبدِ، وأنَّ جَميعَ أفعالِه على وَفْقِ المشيئة الإلهيةِ، وبذلكَ تَقومُ الحُجَّةُ البالغة لأهلِ السُّنَّةِ على المعتزلةِ، والحمدُ لِلَّهِ ربِّ العالَمِينَ. ومِنهم مَن وجَّهَ

الآية بأنَّ مرادَهم رَدُّ دعوةِ الأنبياء عليهم السلام على مَعنى أنَّ الله تَعالى شاءَ شِرْكَنا، وَأرادَهُ مِنَّا، وَأنْتُم تُخالِفونَ إرادَتَه، حَيثُ تَدعونا إلى الإيمانِ، فَوَبَّخَهُم سبحانه وتعالى بوُجوه عِدَّة: منها قولُه سُبحانَه: {فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149] فإنه بتقدير الشَّرطِ، أي إذا كانَ الأمرُ كما زَعَمْتُم {فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149] وقولُه سُبحانَه: {فَلَوْ شَاءَ} [الأنعام: 149] بَدَل منه على سَبيلِ البَيانِ، أي لَو شاءَ لَدَلَّ كُلاًّ منكم ومِنْ مُخالِفيكم على دينه، لَو كانَ الأمرُ كَما تَزْعُمونَ، لَكان الإسلامُ أيْضًا بِالمشيئةِ، فَيَجِبُ أنْ لا تَمْنَعوا المسلِمينَ من الإسلامِ، كما وَجَبَ بِزعمكم ألا يمنَعَكُم الأنبياءُ عن الشِّركِ. فَيَلْزَمُكُم أنْ لا يكونَ بَيْنَكم وبَيْنَ المسْلِمينَ مُخالَفَة ومُعاداةٌ، بَلْ موافَقَة وموالاة. وحاصِلُه أنَّ ما خالَفَ مَذْهَبَكم مِنَ النِّحَلِ يَجِبُ أنْ يَكونَ عِندَكم حَقًّا؛ لأنه بِمشيئة الله تَعالى، فَيَلْزَمُ تَصحيحُ الأديانِ المتناقِضَة. وَفِي سورة [النَّحْل: 35] {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل: 35] الكلامُ عَلى هذه الآية كالكَلام على الآية السَّابقةِ، وَلا تَراهُمْ يَتَشَبَّثونَ بالمشيئةِ إلا عِنْدَ انخِذالِ الحُجَّةِ. ألا تَرَى كيفَ خَتَمَ بِنَحوِ آخر مجادلاتهم في سورة الأنعام في الآية السابقة، وكذلك في سورة [الزخرف: 19-22] : وهو قولُه تَعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ – وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ – أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ – بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف: 19 – 22] ويكفي في الانقلاب ما يشير إليه قوله سبحانه: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: 149] والمرادُ بما حَرَّموهُ السَّوائِبُ والبَحائرُ وغَيْرُها. وَفِي تَخْصيصِ الاشْتِراكِ والتَّحْريمِ بالنَّفيِ؛ لأنَّهما أعْظَمُ وأشْهَرُ ما هُمْ عَلَيْهِ. وَغَرَضُهُم مِنْ ذَلِكَ تكْذيبُ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام والطَّعْنُ فِي الرِّسالةِ رَأْسًا، فَإنَّ حاصِلَهُ أيْ ما شاءَ الله يَجِبُ، وما لَمْ يَشَأْ يَمْتَنِعُ، فَلَوْ أنَّهُ سبحانه وتعالى شاءَ أنْ نُوَحِّدَهُ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئا، وَنُحَلِّلَ ما أحَلَّهُ، ولا نُحَرِّمَ شَيْئا مِمَّا حَرَّمْنا كَما تَقولُ الرُّسُلُ وَيَنْقُلونَه مِنْ جِهَتِهِ تَعالى لَكانَ الأمرُ كَما شاءَ مِنَ التَّوحيدِ ونَفْي الإشراكِ، وَتَحْليلِ ما أحَلَّهُ، وَعَدَمِ تَحْريمِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَحَيْثُ لَمْ يَكُنْ كَذلِكَ، ثَبَتَ أنه لَم يَشَأْ شَيْئًا مِن ذَلِكَ بَلْ شاءَ ما نحنُ عَلَيْهِ. وتَحَقَّقَ أنَّ ما يَقولُهُ الرُّسُلُ عليهم السلام مِن تِلْقاءِ أنْفُسِهِم. فَرَدَّ الله تَعالى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ {كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [النحل: 33] مِن الأمَمِ، أيْ: أشْرَكوا باللهِ تَعالى، وَحَرَّموا مِنْ دونِهِ ما حَرَّموا، وجادَلُوا رُسُلَهُمْ بِالباطِلِ لِيُدْحضوا بِهِ الحَقَّ {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل: 35] أيْ: ليستْ وَظيفَتُهُمْ إلا البَلاغ للرِّسالَةِ، الموَضِّحَ طَريقَ الحَق والمظْهر أحْكامَ الوحْيِ التي مِنها تَعَلُّقُ مَشيْئَتِهِ تَعالى باهْتِداءِ مَنْ صرفَ قُدْرَتَهُ واخْتِيارَهُ إلى تَحْصَيلِ الحَقِّ؛ لقولِهِ تَعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: 69] وأمَّا إلْجاؤهُمْ إلى ذَلِكَ، وتنفيذُ قَوْلِهم عليهِ شاءوا أوْ أبَوْا كما هو مُقْتَضى اسْتِدْلالِهم فليسَ ذَلِكَ مِن وَظيفَتِهم، ولا مِن الحِكْمَةِ التي يَتوَقَّفُ عَلَيْها التكليفُ، حَتّىٰ يُسْتَدَلَّ بعدمِ ظُهورِ آثارِهِ على عدمِ حَقيقةِ الرسلِ

عليهم السلام أو على عدمِ تَعَلُّقِ مَشَيْئَتِهِ تَعالى بذَلِكَ، فإِنَّ ما يَتَرَتَّبُ عليه الثوَّابُ والعِقابُ مِن الأفْعالِ لا بُدَّ في تَعَلُّقِ مَشيئتِهِ تَعالى بِوقوعِهِ مِن مُباشَرَتِهِم الاخْتِيارِيّة، وَصَرْفِ اخْتِيارِهِم الجُزْئِيِّ إلى تَحْصيلِهِ، وإلا لَكانَ الثوَّابُ والعِقابُ اضطِرارِيين، والكلامُ على هذهِ الآية ونحوِها مُسْتوفىً في تفسير (رُوحِ المعاني) وغيرِهِ. فجُحودُ القَدَرِ والاحتجاجُ بِهِ على اللهِ ومُعارَضَةُ شرعِ الله بِقَدَرِهِ، كُلُّ ذَلِكَ مِن ضلالاتِ الجاهِلِيَّةِ. والمقْصودُ أنَّهُ لا جَبْرَ وَلا تَفْويضَ، ولكنْ أمرٌ بَيْنَ أمْرَيْنِ، فمَنْ زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنْ هَذِهِ الجادَّةِ كانَ على ما كانَ عليهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ، وهِيَ الطَّرِيقَةُ التي رَدَّ عَلَيْهَا اللهُ سبحانَه ورَسُولهُ صلى الله عليه وسلم.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: مُعَارَضَةُ شَرْعِ اللَّهِ بِقَدَرِهِ

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: مسبَّة الدَّهْرِ: كقولهِم في سورةِ [الجاثيةِ: 24] {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: 24] وذلك أنَّ الله تعالى أرادَ بيَانَ أحْكامِ ضلالِهِم والخَتْمِ على سَمْعِهِم وقُلوبِهِم وجعلِ غِشاوة على أبصارِهِم، فَحَكى عنهم ما صدَرَ عَنهم بقوله سبحانه وتعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الجاثية: 24] التي نَحْنُ فيها {نَمُوتُ وَنَحْيَا} [الجاثية: 24] أيْ تَموتُ طائِفَة، وَتَحْيا طائِفةٌ، ولا حَشْرَ أصلا. ومِنهم مَن قالَ: إِنَّ كَثيرًا مِن عُبَّادِ الأصنامِ كانَ يقول بِالتَّناسُخِ، وَعَلَيْهِ فالمراد بالحياة: إعادةُ الرُّوحِ لِبَدَنٍ آخَرَ {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: 24] أيْ طول الزَّمانِ. وإسنادُهُمُ الإهلاكَ إلى الدهرِ مثل قول قائلهم: أشاب الصغير وأفنى الكبير ...كر الغداة ومر العشي

ومثل قول الآخر: منع البقاء تقلب الشمس ...وطلوعها من حيث لا تمسي

وقول الآخر: رماني الدهر بالأرزاء حتى ...فؤادي في غشاء من نبال

وكنت إذا أصابتني سهام ...تكسرت النصال على النصال

إنكار مِنهم لِمَلَكِ الموتِ وقَبْضِهِ الأرواحَ بِأمرِ اللهِ تَعالى، وكانوا يُسْنِدونَ الحوادِثَ مُطْلَقًا إِلَيْهِ؛ لِجَهْلِهم أنَّها مُقَدَّرة مِن عندِ اللهِ تَعالى، وَأشْعارُهُم لِذَلِكَ مَملوءة مِن شَكْوى الدَّهْر وهؤلاءِ مُعْترِفون بوجودِ اللهِ تَعالى، فَهُمْ غَيْرُ الدَّهْرِيَّة. فإِنَّهم مَعَ إسنادِهِمُ الحوادِثَ إلى الدَّهْرِ لا يَقولونَ بِوُجوده سُبْحانَه وَتَعالى عَمَّا يَقولونَ عُلوّا كَبيرا والكُلُّ يَقولُ بِاسْتِقْلالِ الدَّهْرِ بِالتأثيرِ.وقَد جاءَ النَّهيُ عَنْ سبِّ الدَّهْرِ، أخرَجَ مُسْلِمٌ: «لا يَسُبّ أحَدُكُم الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هو الدَّهْرُ» وفي رِوَايَةٍ لأبي داودَ والحاكِم "قالَ اللهُ عز وجل: «يُؤذيني ابنُ آدمَ يقولُ: يا خيبةَ الدَّهرِ، فلا يَقُلْ أحَدُكُم يا خيبةَ الدَّهرِ، فإنِّي أنا الدَّهرُ، أقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهارَهُ» وَرَوى الحاكِمُ أيْضًا: «يقولُ اللهُ عز وجل: اسْتَقْرَضتُ عَبدْي فلم يُقْرِضْني، وَشَتَمَني عبدي وهو لا يَدْرِي، يقولُ: وادَهْراهُ! وَأنا الدَّهرُ» . وَرَوَى البَيْهَقِيُّ: «لا تَسُبوا الدَّهرَ، قال اللهُ عز وجل: أنا الأيّامُ والليالِي، أجَدِّدُها وأبلْيها، وآتي بِمُلوكٍ بعدَ مُلوكٍ» . ومَعْنى ذَلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى هو الآتي بالحوادِثِ، فَإِذا سَبَبْتُمُ الدَّهرَ على أنَّهُ فاعِل، وَقَعَ السَّبُّ عَلى اللهِ عز وجل. {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} [الجاثية: 24] أيْ: لَيسَ لَهم بِما ذُكِرَ مِنْ قَصْرِ الحياةِ على ما في الدُّنيا وَنسْبَة الإهلاكِ إلى الدَّهرِ عِلم مُسْتَنِد إلى عَقْلٍ أو

نَقْلٍ {إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [الجاثية: 24] أيْ ما هُم إلا قَوم قُصارَى أمرِهِم الظَّنُّ والتقليدُ مِنْ غَيْرِ أنْ يَكونَ لَهُم ما يَصِحُّ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهِ فِي الجُمْلَة. وقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هذا المَوْضِع ما يَتَعَلَّقُ بالدَّهْرِيينَ، والمقصودُ أنَّ يقول بِإِسنادِ الحوادِثِ إلى غيرِ الله تَعالى كالدَّهرِ، فَذلك ليسَ لَهُ مستندٌ عقلَيّ وَلَا نَقْلِيٌّ، بَل هو مَحْضُ جَهْلٍ، وقائِلُهُ جاهلٌ فِي أيِّ عَصْرٍ كانَ. ولأهل زماننا حظ وافر من هذا الاعتقاد الباطل. والله المستعان.

من مسائل الجاهِليَّةِ الَّتي خالف فيها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أهل الجَاهِلِيَّةِ مِن الأُمِّيّينَ والكتابيين، مسألةُ القَدَرِ، والقَدَرُ هو سر الله جل وعلا في خَلقه، وكان للمُشرِكِينَ وَالكُفَّارِ اعتقادات مُختلِفَةٌ فِي القَدَرِ، فمنهم مَن يَجْحَدُ القَدَرَ أصلًا وينفيه. ولهذا ذَكَرَ إمام الدعوة رحمه الله، المسألة الثالثة والأربعين فقال: **(جُحُودُ الْقَدَرِ)**، لأنَّ مِن أهل الجاهلية من ينفي القَدَرَ أصلا، ويقولون: إنَّما يُهلِكُنا الدهر، ومنهم مَن يُؤْمِنُ بالقَدَرِ تارة، وينفيه تارةً، وإذا آمن به أو يعني صَدَّقَ وأَقَرَّ بالقَدْرِ فَإِنَّه يَحتَجُ بِقَدَرِ اللهِ علَى اللهِ فِي مَسائل، ومنهم مَن يُعارِضُ شَرعَ اللَّهِ الَّذِي أَنزَلَه بقَدَرِهِ الذي أمضاه في خلقه. وهذه الفئات الثلاث موجودَةٌ، وقد أخبر الله جل وعلا عن أهلها في كتابه الكريم، فقالَ فِي حَقّ النفاة الَّذِينَ يَنفونَ وُجودَ القَدَرِ أصلا: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر)، وقال جل وعلا: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (الجالية: ٤٢٤، يعني أنه ليسَ ثُمَّ شَيْءٌ بِقَدَرِ اللهِ جَلَّ وعلا، بهذا صارت أشعارهم الكَثِيرَةُ المختلِفَةُ، ومنهم من ينفي أصل التقدير، أو ينفي تَعَلَّقَ القَدَرِ بِبَعْضٍ مَخلوقاتِ الله جل وعلا، كحالِ الفَلاسِفَةِ الَّذين كانوا في غَيرِ العَرَبِ مِن أهل الجاهِلِيَّاتِ المختلِفَةِ قالوا: إنَّ اللهَ جَلَّ وعلا لم يُقَدِّر إلَّا الكُليَّاتِ، وأمَّا الجزئيات فهم ينفونَ تَقدِيرَ اللهِ جَلَّ وعلا لها. وهذه الفِئاتُ الثَّلاثُ ذَكَرَها ابنُ تَيمِيَّةَ فِي «تائِيَتِهِ القَدْرِيَّةِ المعروفة، وجَعَلَهُم جَمِيعًا يَدخُلونَ فِي اسمِ القَدَرِيَّةِ النفَاةِ الَّذِينَ يَنفونَ القَدَرَ

إذا تبين ذلك، فهذه الفئات متنوعةٌ نَبدَؤُهم بالفِئَةِ الأولى: وهم نُفَاةُ القَدَرِ والجاحدون له، هؤلاء موجودونَ مِن أَوَّلِ ما وقع الانحرافُ في بني الإنسان فإنَّ مِن أَوَّلِ ما وقع فيه الانحرافُ النَّظَرُ فِي القَدَرِ، لأنَّ أصل الاعتداء على حَقِّ الله جل وعلا في العِبادَةِ مِن أسبابه النظر في التقديرِ والضَّلَالُ فيهِ، ثُمَّ تَنَمَّى فِي النَّاسِ حَتَّى وَقَعَ نَفِي القَدَرِ وجُحودُ القَدَرِ وجُحودُ خَلق الله جل وعلا للمَوتِ وللحياة كحال الدُّهرِيَّةِ الَّذِينَ نَفَوْا أَصلَ الخَلقِ وتَعَلَّقوا بما يَرُونَ مِن الحَياةِ والموتِ.

هؤلاء في التاريخ أصناف يعني فيما قبل الإسلام الفئة الأولى من الَّذِينَ نَفَوا القَدَرَ كُلِّيًا هم الطَّائِفَةُ الذين قالوا: إنَّ اللهَ لَم يَخلُقْ شيئًا، وإنَّما يَخلُقُ ويُفني الدهر، وهم المسَمَّونَ أو المَلَقَّبُونَ بِالدُّهرِيَّةِ نِسبَةً غَيْرَ قِياسِيَّةٌ إِلَى الدَّهْرِ ، لأَنَّ مَن نَفَى خَلَقَ اللَّهِ للأشياء فَإِنَّه ينفي قَدَرَ اللهِ جَلَّ وعلا مِن بَابِ أَولى، لهذا جَمَعَ اللهُ بينهما فِي سورةِ الفُرقانِ» فقال جل وعلا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شيئ فَقَدَّرَهُ تقدِيرًا)، لأَنَّ الخَلَقَ يَسْبِقُ التقدير مِن حَيثُ الأَهَمِّيَّةُ والشمول.

فَمَن نَفَى خَلَقَ الله جل وعلا للأشياء فإنَّه ينفي قَدَرَه جلَّ وعلا للأشياء من باب أولى. وهذه الفِئَةُ مَوجودَةٌ في العَرَبِ وموجودة في الأمم الأخرى، لكن ليست فِئَةٌ كَبِيرَةً، حَتَّى قال فيهم الشهرستاني في الملل والنحل في الدُّهرِيَّةِ: إنَّهم لم يكونوا معروفين كفِئَةٍ أو كَفِرقَةٍ فِي العَرَبِ، وَإِنَّما هم شرذِمَةٌ قَليلونَ لا يَصِح أن تُنسب إليهم مَقالَةٌ أو يُعزى إليهم قول.

ومِنَ الَّذِينَ جَحَدُوا القَدَرَ ونَفَوهُ قبل الإسلام من العَرَبِ الأُمِّيِّينَ وَمِن غَيْرِهِم مَن نَفىٰ مَرتَبَةٌ مِن مَرَاتِبِ القَدَرِ، فنفي عِلمِ اللهِ جَلَّ وعلا الشَّامِل مَثلا؛ كحالِ الفَلاسِفَةِ أو طائِفَةٍ مِن الفَلَاسِفَةِ اليونانيين، وكحال الذين اعترضوا على وُجودِ القَدَرِ بوجودِ الشَّرِّ، وهما فِئَتانِ معروفتانِ عندَ فَلاسِفَةِ اليونان فقالوا: إنَّه لا تقدير تفصيلي، وإنَّما يَعلَمُ اللهُ الكُلِّيَّاتِ، وأمَّا الجُزئِيَّاتِ فإنَّها أَحقَرُ مِن أنْ يَأْبَهَ اللَّهُ جَلَّ وعلا بها. فلذلك نَفَوا قَدَرَ اللهِ جَلَّ وعلا وتقديره لكثيرٍ مِن خَلقه ومِمَّا خَلَقَ وربُّنا جَلَّ وعلا يَقولُ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شيئ فَقَدَّرَهُ تقْدِيرًا ﴾ وَكَلَمَةُ (شيئ) هي عِبارَةٌ من كُلِّ شَيءٍ يَصِحُ عِلمه، وهذا يشمَلُ ما عَظُمَ وهي الكليات، وما صَغُرَ وهي الجزئيات. ومنهم فِئَةٌ قالوا: إنَّ الشَّرَّ لا يُنسَبُ خَلقُه ولا تقديره إلى الله، كوقوع القتل ووُقوع الظلم ووُقوع المصائِبِ، وهذه مَدرَسَةٌ اخْتَلَفَ فيها من الفَلاسِفَةِ أرسطو ومَن شايعه وكانوا مِن الملاحِدَةِ، وأفلاطون ومَن شَايَعَهُ وكانوا مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِوُجودِ اللهِ جَلَّ وعلا ويُثبتونَ القَدَرَ.

حتَّى أنَّ أحدهم هو أفلاطونُ سُئِلَ لِمَا أثبَتَ القَدَرَ قيل له: وهل الشَّرُّ مِن إلهِ الخَيرِ؟ وهل الشَّرُّ الَّذِي يَقَعُ مِن إلهِ الخَيرِ؟ قال: نعم، قالوا له: فلِمَا وَقَعُ الشَّرُّ؟ قال: أوقَعَهُ فِداءً للخَيْرِ، وَلِكَيْ يُعرَفَ الخَيْرُ به، وهذا إدراك من جاهِلِي وَثَني لهذه الحقيقةِ الَّتِي تَتَّفِقُ مع النَّظَرَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

وهذا مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ الشَّرعَ والنقل الصَّحيحَ لا يُخالِفُ العَقَلَ الصَّرِيحَ إذا كَانَ صَرِيحًا. ومنهم فئَةٌ وهذا موجودٌ في العَرَبِ، نَفوا القَدَرَ بنفي بعض مراتبه القضائية، كنفيهم لعمومِ المشيئَةِ؛ مشيئة الله جل وعلا. فَإنَّ مِنهم مَن يَقولُ: مَا شِئنَاهِ وَقَعَ باعتبار أنَّ الإنسان إذا شاءَ شَيئًا أوقَعَه وهذه الفِئَةُ رَدَّ عليهم اللهُ جلْ وعلا وأبطل مقالتهم بقوله في غَيرِ آيَةٍ كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا تشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حكيمًا [الإنسان] وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَلَمِينَ ﴾ [التكوير]. وأَمَّا نُفَاةُ القَدَرِ، وهم الذين يَدخُلُونَ تَحتَ الْمَسْأَلَةِ الثَّالِثَةِ وَالأَرْبَعِينَ) في هذهِ الأُمَّةِ، فهم الموسومونَ بالقَدَرِيَّةِ، وتلك الصفاتُ الجاهِلِيَّة التي هي سابِقَةٌ في الأُمِّيّينَ أو الكِتابِينَ أو الوثنيين أو الفلاسفة جاءت في هذه الأمة ووَرِثَتها هذه الأمة. فنفي القَدَرِ أصلا في طَوائِفٌ في هذه الأمةِ مِمَّن يَنفونَ وُجودَ الله أصلا، كطائِفَةِ السُّمَنِيَّةِ والدُّهرِيَّةِ

والزَّنادِقَةِ والملاحِدَةِ وأشباه هؤلاء

ومنهم من أثبتوا القَدَرَ، لَكُنْ نَفَوْا بَعضَ مَرَاتِبِهِ:

فنفوا العِلم السَّابِق كغُلاةِ القَدَرِيَّةِ الَّذين يَقولونَ: إنَّ الأمرَ أُنُفٌ وأَنَّ اللّهَ لَم يَعلَم بالأشياءِ إلَّا بَعدَ وقوعها، وأنَّ قَدَرَه مَعناه يعني الذي في النُّصوص معناه القضاءُ، يَعني قَدَّرَ الشَّيءَ، بمعنى أَنَّهُ الَّذِي يقتضيه، يعني يخلقه حينَ يَقَعُ، أمَّا قَبلَ ذلك فعلمه بالأشياء وكتابته لها فَهُم ينفون ذلك، وهؤلاءِ النفَاةُ مَرَّ معنا في تفاصيل شُروحِ العقيدة، أنَّهم كُفَّارٌ؛ لأنَّهم نفوْا عِلمَ اللهِ جَلَّ وعلا بِالأَشياء أصلًا، وَنَفَوْا عُموم قَدَرِ الله جل وعلا، وهم الذين قال فيهم الشَّافِعِي رحمه الله : ناظروا القَدَرِيَّةِ بالعِلم فإن هم أقروا به خصموا، وإن أنكروه كَفَرُوا، يعني عِلم الله جل وعلا، وأخبارهم عند الصحابة أخبارهم عند ابن عُمَرَ وابن عباس وجماعاتِ الصَّحابَةِ كَثِيرَةٌ وَمَعروفَةٌ لا تُطِيلُ بِذِكرِها. **والفِئَةُ الثانية المعروفة** مِمَّن نَفَوا القَدَرَ في هذه الأمة، الذين وسموا بالمُعْتَزِلَةِ، ووصفوا بالمعتزلة وهم الذين اعتزلوا حَلَقَةَ الحَسَنِ البَصرِي لما تَكلَّموا في بعض المسائل، وهؤلاء آل بهم الأمرُ إلى نفي قَدَرِ الله جل وعلا، يعني نفي عُموم خَلقه جلَّ وعلا للأشياء، وعُموم مَشِيئَتِهِ لَمَا خَلَقَ. ولهذا مِنهم مَن يَقولُ: إنَّ الله جل وعلا لم يخلق إلَّا الأشياء، ولم يَخْلُقَ كُلَّ شَيءٍ، فَبَعضُ الأشياء خَلَقَها وبعضُ الأشياء لم يخلفها، فما كانَ مِن قبيل الخَيرِ خَلَقَه، وما كانَ مِن قبيل الشَّرِّ فإنَّه لم يخلقه، وجعَلُوا الخَلَقَ والتقدير متلازما للرضا والمحَبَّةِ فأخطأوا في هذا البابِ خَطأً بَيْنًا كما مَرَّ معنا في شُروحِ الاعتقاد. وهؤلاء يُسَمَّونَ بالقَدَرِيَّةِ، وهم الذين نفوا القَدَرَ أو نَفَوا مَرتَبَةً مِن مراتبه وفي عصرنا الحاضر أيضا شابه فئام أهل الجاهليةِ والقَدَرِيَّةِ في جميع تلك الأقوال، فنَجِدُ اليَومَ مَن يَقولُ: إنَّ الله جل وعلا كيف يَهتَمُّ بالجُزئيَّاتِ والتفاصيل ؟ بل إنَّما يهتم بالكليات والأمور، لأنَّه هو أرفَعُ مِن ذلك، وقد يأتِي هذا الهاجِسُ الشَّيطانِيُّ لبعض النُّفوسِ المؤمِنَةِ والله جل وعلا هو الذي خَلَقَ وَعِلمُه بِكُلِّ شَيْءٍ تَفصيلي، فتَقديره يكون تفصيليًا لكُلِّ شَيءٍ، فهو لا يخْلُقُ نَفْسًا حتَّى يَكتُبَ رِزقها وأَجَلَهَا وخَلْقَها، ويَكتُبَ ما هي عليه من السَّعادَةِ والشَّقاوَةِ، وَعِلمه جل وعلا يَكونُ بكُلِّ شَيءٍ، كما قال جل وعلا: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر) وما في البر عُموم ، والبَحرِ عُموم، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا) حتَّى الوَرَقَةُ يَعلَمُها ، وَلَا حَبَّة في ظلمات الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كتب مبين) [الأنعام] فربط جلَّ وعلا في هذه الآية ما بين علمه التفصيلي وما بينَ قَدَرِهِ التَّفصيلي بالأشياء. وممَّن ضَلَّ أيضًا وخاضَ خَوضَ الجاهلية في هذه المسائل من أهل العَصرِ فِئةٌ كَثِيرَةٌ نَحَوا منحى إحدى الفِرقِ السَّابِقَةِ فيمَن قال بأنَّ قَدَرَ الله جل وعلا لا يعني انه خالق لكُلِّ شَيْءٍ أَو أَنَّ مَشِيئَتَه جل وعلا لكُلِّ شَيءٍ، أو كانَ جَليلا وما لم يكن كذلك فلا يملكه، وما من نخلة كانت] إلَّا وقد

بقيت في هذه الأُمَّةِ، وَكُلُّ شَيءٍ له وُراث وَكُلُّ قَول له قائل، ولهذا تَجِدُ في القُرآنِ العَظيمِ تفصيلًا لتلك الأقوال المختلِفَةِ، وتقريرًا لها لأنَّه ما من قوم سبقوا إلَّا ولهم وُراث لمقالَتِهم وأقوالهم، قَلَّ ذلك الوارِث .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ): ذكرنا بعض الكلام عليها، في أنَّهم احتجوا على اللَّهِ بِقَدَرِ اللَّهِ جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شيئ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وهذا منهم احتجاج على ما نُهُوا عنه وهو الشِّرْكُ بِاللهِ جَلَّ وعلا، بِأَنَّ اللهَ لو شاءَ لما أَشْرَكْنَا، وإثباتُ المشيئَةِ إثباتُ للقَدَرِ أو لمرتبة مِن مَراتِبِ القَدَرِ، وَكَونُهُم يُثْبِتُونَ وَيَحْتَجُّونَ عَلَى اللَّهِ بقَدَرِهِ هذا صِفةٌ مِن الصِّفاتِ الذَّميمَةِ الَّتِي ذَمَّهم الله جل وعلا بها. وهذا القول وهو الاحتجاج على الله جل وعلا بقدره أصلاً وُجِدَ في إبليس الذي أمره الله جل وعلا بالسجود لآدَمَ فقال: ﴿أَرَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى لَئِنْ أَخَرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيِّمَةِ لَأَحْتَنِكُنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء] وعارَضَ أمر الله جل وعلا بالخَلقِ فَقَالَ: (ءأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينَا) [الإسراء]، وقال: (خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِين) [الأعراف] وعنده أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ وأعلى وأنَّ الطِّينَ أَوضَعُ وأَحَطُّ، فقال: لما كرمتني بالخَلقِ الَّذي هو مِن القَدَرِ مِنَ العَينِ، فَعَارَضَه بذلكَ عَارَضَ الأمرَ الشَّرعِيَّ بذلك كما فعل مَن أطاعوه بقولهم:(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ابَاؤُنَا من قبل وَلَا حَرَّمْنَا مِن شيئ) فهم أَشْرَكوا بالله جلَّ وعلا ما لم يُنزل به سُلطانًا وأشرَكَ آباؤهم مِن قَبْلُ وَحَرَّموا أشياء لم يُحَرِّمُها أمر الله جل وعلا، حرَّموا أشياء لم يُحَرِّمُها الله جلَّ وعلا، وأباحوا أشياء أيضًا حَرَّمَها الله جل وعلا، لكن فيما حَرَّموا لما قيل لهم : لِمَ حَرَّمْتُم وَلِمَ أَبَحْتُم؟ فقالوا محتجين في ذلكَ بِالقَدَرِ: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا وَآبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيئ.وهذا الاحتجاج على الله بِقَدَرِهِ يَكونُ في النفوسِ الضَّعِيفَةِ مِن جِهَةِ اعتقادِهَا في عُمُومِ حِكمَةِ اللَّهِ جَلَّ وعلا، فإنَّ الَّذي يُسيء الظَّنَّ بالله جل وعلا، يأتيه هذا الأمر وهو أنَّه يَحتَجُ عَلَى اللهِ بِقَدْرِ اللهِ، ولذلك يَدخُلُ في هذه الفِئَةِ الَّذِين يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السُّوءِ مِن أهل الجاهلية ومِمَّن بعدهم، وقد قال جل وعلا في أهل الجاهلية: (الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنْهُمْ ﴾ [الفتح: ٦] الآية، وقال أيضا جل وعلا فيهم لما ذَكَرَ حَالَ المنافِقِينَ بعدَ غَزْوَةِ أُحَدٍ: (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الجاهلية) [آل عمران : ١٥٤] ظَنُّ الجاهلية في هذا هو أنَّهم يعتَرِضونَ على قَدْرِ اللهِ جَلَّ وعلا بأنواع من الاعتراض والمعاذير.

فالمقصودُ مِن ذلكَ أَنَّ المحتجِّينَ على اللهِ بِقَدَرِهِ يَشمَلُهم فيما سَبَقَ فِئَاتُ الَّذِينَ يُعَارِضونَ القَدَرَ أَصلا بِخَلقِ اللهِ جَلَّ وعلا أو بما شاء الله جلَّ وعلا أو بمَشيئَتِه أو الَّذِينَ يُعارِضونَ بَعضَ مَا قَدَّرَ اللهُ جَلَّ وعلا أو بعض ما أمر الله جل وعلا به القَدَرَ، أو الذين يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحَقِّ، فهم لأجل عدم إيمانهم بحكمةِ اللهِ

جل وعلا وبعلمه وعموم مشيئته وخلقه، فإنَّهم يَظنُّونَ باللهِ غَيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ: (الظَّانينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائرَةُ السَّوءِ) .. وهذه الأقوال وهذه الآراء أيضا وجدت في هذه الأمة بتفصيلها، فمنهم من يحتج دائمًا على القَدَرِ أو على ما خَلَقَ اللهُ بالقَدَرِ، ومنهم من يحتج أحيانًا، ومنهم مَن يُعارِضُ الشَّرعَ بِالقَدَرِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي المسَأَلَةِ الَّتِي بعدها ومنهم الَّذِي يَظُنُّ ظَنَّ السَّوءِ، وكُلٌّ له نَصيبٌ من الاحتجاج على الله جل وعلا بِقَدَرِه، ومِن أعظَمِ ما يَنبَغِي للعبدِ أنْ يُفَتِّشَ نَفسَه فيه أنَّه يُحاسِبُ نفسه هل هو يأتيه الشَّيطانُ في الاحتجاج على الله بقدره؟ وما مِن أحَدٍ يَسلَمُ مِن ذلكَ إلَّا مَن قَوَّى الله جل وعلا قلبه وإيمانه. ولَمَّا ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله مَسَأَلَةَ الظَّنِّ السَّوءِ بالله جل وعلا، ويَدخُلُ فيه الظَّنَّ بأنَّ الله جل وعلا لا يَنصُرُ رسوله عليه الصَّلاة والسَّلامُ أو لا يَنصُرُ المؤمِنِينَ أو أنه ينظر إلى القُوَّةِ العَالِيَةِ مِن أهل الكُفْرِ والشِّركِ، ويَظُنُّ أنَّهم هم الذين يغلبون، وهذا كُلُّه ظَنُّ سَوءٍ بِاللهِ، وظَنُّ سَوءٍ بما وَعَدَ الله جل وعلا أولياءه، وبما خَلَقَ مُوافِقًا لحكمتِه وقَدَرِه من إدالَةِ الأمر أحيانًا للمُشركين على أهل الإسلامِ، فَيَظُنُّ ظَنَّ السَّوءِ، ويَدخُلُ في قلبه ما يَدخُلُه مِن الظُّنون، وهذا قلَّ ما يَسلَمُ مِنه أحد، وكذلكَ قَلَّمَا يَسلَمُ أَحَدٌ مِن أَنَّه إذا وَقَعَ به شَيءٌ مَرَضٌ أو نقص في المال أو عَدَمُ وُجودِ رِزقٍ أو باب من أبواب الدنيا أو أنه أصابته أحزان فإنَّه يَعْتَرِضُ عَلَى القَدَرِ بِبَعض وعلى الشَّرعِ يَحتَجُّ على الله بما قَدَّرَ أو على ما قَدَّرَ بِمَا خَلَقَ وبِبَعض مَا خَلَقَ، تَجِدُ أنَّ عنده اعتراضات وعنده شُكوكًا وعنده شُبُهاتٍ، ولما ساق ابنُ القَيِّمِ الله هذه الصُّوَرَ قَالَ فِي آخرها : **ففتش نفسك هل أنتَ سالمٌ؟**

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا أَخَالُكَ نَاجِيا وهذا حَقٌّ، لأن الاحتجاج على الله جل وعلا قَلَّ مَن يَسلَمُ منه سَواءٌ في بعض الأمور الصغيرة أو في بعض الأُمورِ الكَبِيرَةِ، وبابه أنْ يَقولُ: لماذا ولما حَصَلَ كذا، ويعقد مُقارنات وهذا كذا وهذا الَّذِي حَصَلَ كذا، أو في أمورٍ لا تَخُصُّ الأمة، أو أمورٍ تَخُصُّه هو أو تَخُصُّ من حوله، فإذا احتج على اللهِ فِي بَعض سلوكِيَّاتِه التي لا تستقيم، احتج على الله في قَدَرِه فإنَّه شابه أهل الجاهليةِ الَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يَتَخَلَّصَ المرءُ من مشابهتهم في صغير الأمور أو في كبيرها.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالأَرْبَعُونَ (مُعَارَضَةُ شَرْعِ اللهِ بِقَدَرِهِ)، الذين أباحوا بعض المحرَّماتِ، واحتجوا بالقَدْرِ أو عارضوا التَّحريم بقدَرِ الله جل وعلا، فمنهم من أباح الميتة، ومنهم من أباح الشرك وهو أعظم، ومنهم من أباحَ قَتلَ مَن يُقتَلُ بأي نوع من الأنواعِ والمحَرَّمَاتِ الموبِقَةِ الَّتِي نَهَى الله جل وعلا عنها، فيُعارِضونَ شَرعِ الله بما أوجَبَ أو بما حَرَّمَ بِقَدَرِ اللَّهِ الكَونِي، فَيَجْعَلُونَ قَدَرَ اللَّهِ الكَونِي مُعارِضًا لأمرِ اللَّهِ الشَّرعِي. وهذا كما ذَكَرتُ لكَ كَثيرًا فِي الكُفَّارِ على جميع أصنافهم إذا أُمِرُوا أَو نُهُوا فَإِذَا جَاءَتْهُم الرُّسُلُ فَإِنَّ أقرب حُجَّةٍ احتجوا بها أنْ يَقولوا: الله لو أنَّه لا يُريدُ هذا الأمرَ لَمَا جَعَلَه يقعُ فِي مُلكِه، ولو كانَ اللهُ لا يُرِيدُ الشِّرْكَ لَمَا أوقعه، ولو كانَ اللهُ لا يُريدُ أنْ يَأْتِي أحدٌ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ لما أذِنَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، لو كانَ مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ مُحِقًّا لَمَا كانَ اتَّبَعَه فُلانٌ وفُلانٌ لو كان لو كان... وهكذا، فَيَحتَجُونَ

فيُعارِضون شرع الله جل وعلا، وما أمر به مِن التَّوحيد وما نهى عنه مِن الشِّرك وَمَا أَمَرَ به مِن المطَاعِمِ والمشارِبِ الزَّكِيَّةِ، وما حَرَّمَ جَلَّ وعلا من الخَبَائِثِ والميتة وأشباه ذلكَ، يُعارِضونَ شَرعَ اللّهِ بِأَنَّ اللَّهَ هو الَّذِي أَمَاتَ المِيتَةَ وهو الَّذِي أَذِنَ بِالشِّرك وهو الَّذِي فَعَلَ كذا وكذا. وهذا الأصلُ يجمَعُه أَنَّهم يُعارِضونَ أَمَرَ اللهِ الشَّرعِي بِقَدَرِهِ الكوني، وهذا الأصل العام في المعارَضَةِ كما ذَكَرَ الإمام في هذه المسألة، هذا الأصل العام في المعارَضَةِ جاء في هذه الأُمَّةِ وَكَثُرَ فيها بالاعتراض على الأمرِ الشَّرعِيِّ بالقَدَرِ الكَونِي، والواجِبُ كما ذَكَرتُ مُفصَّلا في غير هذا المكان ،الواجِبُ أنْ يكون هناك تفصيل ظاهِرٌ بَين عندَ كُلِّ أحَدٍ في الفَرقِ ما بَينَ ما يَأْذَنُ الله جل وعلا به كونًا ويُقَدِّرُه قَدْرًا قد يَكونُ خيرًا وقد لا يكونُ خَيْرًا، يَكون شَرًّا وما بينما أمر به جل وعلا فما أمر به وشَرَعَ هذا يُحِبُّه ويرضاه، وما نهى عنه جلَّ وعلا فهذا يكرَهُه جلَّ وعلا ويأباه، أمَّا كُونُه ومَلَكُوتُه وما يُجريه في خلقه وما يَخلُقُه في ملكوته وما يَأْذَنُ قَدَرًا هذا قد يكون محبوبا له، وقد لا يكون محبوبًا له، فَمَن عَارَضَ الشَّرعَ بالقدر فإنَّه يُعارِضُ شَيئًا بشيء آخَرَ ولهذا يجمعُ أصناف الذين قالوا بهذه المقالة في هذه الأمة مِن الفِرقِ، مَن جَمَعَ صِفاتٍ أو مَن جَمَعَ صفة من الصفاتِ التالية:

الأولى: أنَّهم يُفَرِّقُونَ فِي قَدَرِ اللهِ مَا بينَ الخَيْرِ والشَّرِّ، فكُلُّ مَن فرَّقَ فِي قَدَرِ اللَّهِ مَا بين الخَيْرِ وَالشَّرُ، فجَعَل الخَيْرَ مِن اللهِ قَدَرًا والشَّرِّ ليسَ مِن الله قدرًا، وإنَّما هو من المخلوقِ خَلقا وإيجادًا فقد عارضوا شَرعَ اللَّهِ بِقَدَرِهِ؛ لأَنَّ حَقيقَةَ البَاعِثِ على ذلك هو أنَّهم يقولونَ: إنَّ الإنسانَ إِذَا فَعَلَ المحرَّمَ ثُمَّ حَوسِبَ عليه وهو إذا قلنا: إن الله هو الذي يخلقه، فإنَّه يكون حينَئِذٍ ثَمَّ ظُلم على العبدِ، فَيَجِبُ عندهم أَنْ يُفَضِّل ما بينَ مَسالَةِ الشَّرع ومَسالَةِ القَدْرِ وهذا في الحَقيقَةِ هو مُعارَضَةُ شَرع الله بِقَدْرِ اللهِ في أصل التنظيرِ وأصل التقعيد دون التطبيق. فالتطبيق، ظَاهِرُهم أَنَّهم يتقون هذا الأصل ويُريدون تنزيه الله جل وعلا عن أَنْ **يُعَارَضُ شَرعُه بِقَدَرِه**،لكن في حقيقَةِ الأمرِ الشُّبهة التي قامت في أَنفُسِهِم، إنَّمَا هِي **مُعارَضَةٌ شَرعِ اللَّهِ بِقَدَرِ اللَّهِ** ،أيضًا يَدخُلُ فِي ذلكَ مَن وُصِفَ بأنَّه يُدخِلُ القوانين العقلية في المسائلِ القَدَرِيَّةِ، مِثل أَنْ يَقُولُ: ما يحسنُ بنا مِن العَدلِ وعَدَمِ الظُّلم ومِن الحِكمَةِ، فإنَّه يَحسنُ لله، وَمَا يَقبُحُ بِنَا مِنَ الصِّفَاتِ فَإِنَّهُ يَقبُحُ بِاللَّهِ، وهي ا المسَمَّاةُ بالتَّحسينِ والتقبيحِ الَّذي يَقولُ به أهل الاعتزال وطَوائِفُ مِن المتَكَلِّمِينَ.
والصِّفةُ الثَّالثةُ فِي مَن يَذْهَبُ هذه المقالة الذين نفَوا حكمَةَ الله جل وعلا للأشياء، وقالوا: إنَّ حِكمَةً الله جل وعلا غير موجودَةٍ، بل الله جل وعلا يَفعَلُ ما يَشاءُ دونَ حِكمَةٍ، وهؤلاء يُقابِلُونَ القَدَرِيَّةَ وهم نُفَاةُ الأسباب، ويُنسبون إلى الخبر، وهؤلاء يَقولونَ: إنَّ قَدَرَ اللهِ غيرُ مُعلَّل وأفعال اللهِ لا يَدخُلُها التعليل ولا تكون وفق المصالح والمفاسد، بل شاء الله كذا فيكون كذا وحَقيقَةُ الأمر في هؤلاء أَنَّهُم يُعارِضونَ بِالقَدَرِ ما شرع الله جل وعلا؛ لأنَّ عَدَمَ الإيمان بأنَّ الحِكمة هي مناط الشرع وهي مناط قدر اللهِ جَلَّ وعلا؛ يَجعلُه في أنفُسِهِم أَنَّ هناكَ تَعارُضًا ما بينَ الشَّرعِ والقَدَرِ، ولذلكَ لما وُجِدَ هَذَا التَّعارُضُ مَا بينَ الشرع

والقَدَرِ فِي أَنفُسِهم، فإنَّهم نفوا الحِكمَةَ مُقابَلَةً بِقَولِ المُعْتَزِلَةِ وَنَفَوا العِلَّةَ فِي أَفعالِ اللَّهِ جَلَّ وعلا ونَفَوا أَنْ يَكونَ أمرٌ شَرعِيٌّ وأمرٌ قَدَرِي، بل جَعَلُوا الباب واحِدًا. ولهذا يَجمَعُ هؤلاء أَنَّهُم يَقولونَ: إنَّه لا فَرقَ بينَ الأمرِ الشَّرعِي والأمر الكوني في هذه المسائل، هذا كُله من العجيب أن يكون موجودًا في الجاهِلِيَّةِ وأنْ يَكونَ باقِيًا ومُستَمِرا في هذه الأُمَّةِ، وهو دَليلٌ أَنَّ الشَّيطان هو الذي سلّط على النفوس هذه المسائِلَ مِن نَفيِ القَدَرِ ومن الاحتجاج على الله به، ومن مُعَارَضَةِ شَرعِ اللَّهِ بِقَدَرِهِ فالشَّيطانُ هو الذي زَيَّنَ لهم وأملى لهم ولذلكَ وَرِثوها وإلا فإنَّ الحُجَّةَ العقلية الصحيحة ليست مع أصحاب هذه الأقوال، لكنَّ لَكُلِّ قَولٍ وارِثا في ذلكَ والله أعلم.

هل ما يُسَمَّى بالمَدرَسَةِ العقلانية والتي يتبَعُها بَعضُ المفَكِّرينَ المعاصِرينَ، هل هي وجه آخَرُ للمُعتَزِلَةِ؟

الجواب: ليست من المعتزلة، **العقلانية أكبرُ**، المعْتَزِلَةُ طَائِفَةٌ مِن طَوائِفِ العَقَلانِيّينَ لأَنَّهُم يُقَدِّمُونَ العقل، والمتَكَلِّمُونَ طائِفَةٌ مِن طوائف العقلانيين، والفَلاسِفَةُ طائِفَةٌ مِن طَوائِفِ العقلانيينَ، وَثَمَّ جماعاتٌ وفِرَقٌ وآراء أخرى تَدخُلُ وأشخاص يدخلون في العقلانيين ولو كانوا ليسوا مِن المعتَزِلَةِ أو الفلاسفة لكن قد يكونون من هؤلاء وهؤلاء. فالعَقَلانِيُونَ اسمٌ يَجْمَعُ كُلَّ مَن احتج بالعقل وجَعَلَه قاضيا ومُحَكَمًا ولم يُرجع إلى الشرع في تقديمه،في تقديم الشرع على العقل، وهذا هو منهج الجهمِيَّةُ والمتكلمين، ومَنهَجُ المعْتَزِلَةِ وَفِئاتٍ كَثيرَةٍ مِمَّن قدَّموا العقل وجَعَلوه هو القاضي المحَكَمَ.

بَعضُهم يَقولُ: **لِماذا نَدرُسُ الفَرقَ وهي غَيْرُ مَوجودة الآن**، بل مُنقرِضَةٌ، فنشغَلُ أَنفُسَنَا بهذه الفِرْقِ الَّتي لم يعد لها ذكرٌ أو خَبَرٌ؟

الجواب : صحيح **لم يعد لها ذكر أو خَبَرٌ عند الغافِلِ**، أما الذي يعلَمُ الحَقَائِقَ فَكُلُّها موجودَةٌ، ولو قَسَّمتَ العالمَ الإسلامي أو الذي سافروا وذَهَبوا ما مِن قَولٍ إِلَّا تَجِدُه، وما مِن فِرقَةٍ إِلَّا تَجِدُها عندَكَ الآن المعتَزِلَةُ موجودَةٌ، لأنَّ المعتَزِلَةَ مِن حَيثُ العقائد موجودَةٌ عندَ الزَّيدِيَّةِ وموجودَةٌ عند الخوارج الإباضية وغيرهم، وموجودة عند الشِّيعَةِ على اختلاف طبقاتهم أو على اختلافِ فِرَقِهم، والخَوارجُ أقوالهم موجودَةٌ وهم موجودون الآن في عددٍ من البلاد في الجَزيرَةِ يعني في بَعضِ أنحاء الجزيرة وفي ليبيا وفي تونس وفي الجزائر وغير ذلك، والشِّيعَةُ والرَّافِضَةُ مَعلوم انتشارُ مَذاهبهم والزَّيدِيَّةُ مَعلومةٌ والصُّوفِيَّةٌ غُلاةٌ الصوفية معلومة والقَدْرِيَّة والفَلاسِفَةُ بأنواعهم موجودون بل أكثر أصحاب الأقلام اليَومَ يُمكِنُ أَنْ يَنتَموا إلى مَدارِسِ الفَلَاسِفَةِ بِشَكلِ أو بآخَرَ، وَالمتَكَلِّمُونَ فِي مدارسهم عند الأشاعرة وعند الماتريدية، وهم اليوم الأكثر في العالم الإسلامي، فلذلكَ مَن يَعرِفُ الحقيقة فما مِن قَولٍ إِلَّا تَجِدُه اليَومَ قَليل من الأقوالِ الَّتي لا تَجِدُ لها قائِلًا أو مُندَثِرَةٌ ؛ لكنَّ عُموم وُجودِ الفرق ومذاهبِ الفِرَقِ تَجِدُها في أمَاكِنَ شَتَّى.

أليس من شروط الشَّفاعة: الرضا عن المشفوع، فكيف نوفق بين هذا وبين شفاعة النبي لأهل الموقف مع أن منهم الكفار والمنافقين وذلك أن مراد هذه الشفاعة إراحة الخلق من هذا الموقف وسرعة الحساب ؟

الجواب: هذه الشَّفَاعَةُ العظمى شَفَاعَةٌ لأهل الإيمان أنَّ يُعَجِّلَ اللَّهُ حِسابهم ليرتاحوا مِن هول ومن تعب الموقف وطول المقامِ، وأمَّا الكُفَّارُ والمنافِقُونَ فَإِنَّ الشَّفاعَةَ تَعجيل الحِسابِ وهو الأقبح لهم، لأنهم ينتقِلونَ مِن شَيء أدنى إلى العَذابِ السَّرمَدِي فِي النَّارِ فهم في الحقيقة ليس مشفوعا لهم وإنَّما الشَّفاعة لأهل الإيمانِ فِي أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ حِسابهم لذلكَ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى آدَمَ، وإلى نوح عليه السلام، وإلى إبراهيم الخليل عليه السلام، وإلى موسى وعيسى عليهمُ السَّلامُ، ثُمَّ إِلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، فرسل الله عليهم الصَّلاة والسلام هم أهل الإيمان ليسوا هم أهل الكفر والنفاق، هم أهل الإيمان، يذهبون يَرجونَ التعجيل بالشَّفاعَةِ فيكون ذلك التعجيل وذلكَ الحِسابُ رَحمَةٌ فِي حَقٍّ أهل الإيمانِ بانتقالهم من الموقِفِ إلى دارِ الكَرَمِ، وَأَمَّا غَيرُهم من أهلِ الكُفْرِ والنِّفاقِ فإنَّهم ينتقِلونَ من عَرَصَاتِ القِيَامَةِ إلى النَّارِ فالشفاعة نعمة ورحمة لأهل الإيمان فى الموقف ،ولا يدخل فى ذلك المنافقون والكفار لأن ما ينتظرهم بعد الحساب فى الموقف عذاب أشد من هول الموقف فلا راحة لهم ،نسأل الله السلامة والعافية وحسن الخاتمة ،فاللهم علمنا ما يَنفَعُنا، وانفعنا بما علمتنا، و وزدنا عِلمًا وعَمَلا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، رَبَّنَا لا تَكِلْنا لأنفُسِنا طَرفَةَ عَيْنٍ واغفر لنا ولوالدينا، ولمشايخنا ولمن له حَقٌّ علينا إنَّكَ على كُلِّ شَيءٍ قدير،اللهم أمين .

السَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: إِضَافَةُ نِعَمِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ ينكرونها ﴾ [النحل: وقدْ عَدَّدَ الله تعالى نِعَمَهُ على عِباده في هذهِ السُّورةِ [78: 80] إلى أنْ قالَ {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ – فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ – يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [النحل: 81 – 83] فقوله {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ} [النحل: 83] إلخ اسْتِئناف لِبيانِ أنَّ تولي المشركِينَ وإعراضَهم عن الإِسلامِ لَيْسَ لِعَدَمِ مَعْرِفتِهم نِعمةَ الله سبحانه وتعالى أصلا، فإنَّهم يَعرِفون أنَّها مِن الله تَعالى، ثُمَّ يُنْكِرونَها بأفعالِهم، حيثُ لم يُفْردوا مُنْعِمَها بالعِبادةِ، فَكَأَنَّهم لمْ يَعْبُدوه سبحانه وتعالى أصْلا، وذَلِكَ كُفْران مُنَزَّل مَنْزِلَةَ الإِنكارَ. وأخرجَ ابنُ جريرٍ وغيرُهُ عَنْ مُجاهِدٍ أنه قَالَ: إنكارُهُم إيَّاها قولُهم: وَرِثْناها مِن آبائِنا وأخرجَ هو وغيرُهُ أيْضًا عن عونِ بنِ عبدِ اللهِ أنه قالَ: إنكارُهم إيَّاها أنْ يقولَ الرَّجُلُ: لَوْلا فلانٌ أصابَنِي كَذَا وَكَذَا، وَلَوْلا فلانٌ لم أُصِبْ كَذَا وَكَذَا. وَفِي لَفظٍ: إنكارُها: إضافتُها إلى الأسبابِ، وبعضُهُم يقولُ: إنكارُهُم: قولُهُم: هي بشفاعة آلهتهم عند الله تَعالى. وَمِنهم مَن قال: النِّعمةُ هنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم أيْ: يَعْرِفونَ أنَّه–عليه الصلاة والسلام نَبِيّ بِالمعْجِزاتِ، ثُمَّ يُنكِرون ذَلِكَ، وَيَجْحَدونَه عِنادًا {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [النحل:

[83] أيْ المنكِرون بِقُلوبِهِم، غيرُ المعْترَفين بما ذُكِرَ. والتَّعبيرُ بالأكثرِ إمَّا لأنَّ بعضهم لم يَعْرفِ الحَقَّ لِنُقصانِ عقلِه وعدمِ اهتدائِهِ إليهِ، أو لِعدمِ نَظَرِهِ في الأدلَّة نَظَرًا يُؤدّي إلى المطْلوبِ، أو لأنَّه لمْ تَقُمْ عليهِ الحُجَّةُ؛ لِكونهِ لم يَصِلْ إلى حَدِّ المكَلَّفينَ لِصغرٍ ونحوه، وإمَّا لأنَّه يُقامُ مقامَ الكُلِّ، فإسنادُ المعرفةِ والإنكارِ المتفرّع عَلَيْها إلى ضَميرِ المشركِينَ على الإطلاقِ مِن باب إسناد حالِ البعضِ إلى الكلِّ.

وَمِمَّا يَجْرِي هذا المجْرى قولُهُ تَعالى في سورةِ [الواقِعةِ: 81-82] {أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ - وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [الواقعة: 81 - 82] أيْ: تَقولونَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا وكَذا.

رَوَى مُسْلِم وغيرُهُ عن ابنِ عبَّاس قالَ: «مُطِرَ النَّاسُ على عَهْدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَقَال عليه الصلاة والسلام" أصْبَحَ مِنَ الناسِ شاكِرٌ، ومِنهم كافِرٌ، قالوا: هذهِ رحمة وضَعَها الله" وقالَ بعضُهم: لَقَد صَدَقَ نَوْءُ كَذا، فَنَزَلَتْ هَذه الآية {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} [الواقعة: 75] حَتَّى بَلَغَ {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [الواقعة: 82] » إِلَى غيرِ ذَلِكَ مِنَ الآثارِ. والمقصود أن إسناد النعم إلى غير منعمها الحقيقي كفران لها. وَقَدْ ذَكَرْنا مَذهبَ العربِ في الأنواءِ في غيرِ هذا الموضِع، وَفَصَّلْناه تفْصيلا، وَذَكَرْنا شِعْرَهُمُ الدَّال على مَذهَبِهم هذا.

التَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ :الْكُفْرُ بِآيَاتِ اللهِ. والنصوصُ الدالَّةُ على ذلك في القرآنِ كثيرة: مِنها قولُهُ تَعالى في [الكَهْفِ: 105- 106] : {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا - ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف: 105 - 106] بَعْدَ قولِهِ سُبحانَه [الكهف: 103- 104] : {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا - الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103 - 104] فقولُه (أُوْلئكَ) كلام مُسْتَأنَفٌ منهُ مَسوق لتكْميلِ تعريفِ الأخسَرينَ، وتَبيينِ خُسرانِهِم وضَلالِ سعْيِهم وتَعْيينهم، بِحيثُ يَنْطَبِقُ التَّعريفُ على المخاطَبينَ. أيْ أولئكَ المنْعوتونَ بما ذُكِرَ من ضَلالِ السَّعْيِ والحُسْبانِ المذكورِ {الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} [الكهف: 105] بِدلائِلِهِ سُبحانَه الدَّاعِيَة إلى التَّوحيدِ الشَّامِلة للسَّمعيَّةِ والعقليّةِ {وَلِقَائِهِ} [الكهف: 105] هو كِنايةٌ عن البعثِ والحَشْرِ وما يَتْبَعُ ذلك من أُمورِ الآخِرَةِ، أي لم يؤمِنوا بِذَلِكَ على ما هو عَلَيه {فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: 105] أيْ: فَنَزْدَري بهم، وَنَحْتَقِرُهُم. ومِنَ النُّصوصِ ما يَدُلُّ على أنَّ مِنهم مَن كان يُنْكِرُ بَعضَ الآياتِ، ومنهم مَن كانَ مُعْرِضًا عَنْها وهاجِرًا لها، ولَا يَخْفى عليك أنَّ مِنَ النَّاسِ اليومَ مَن هُوَ أدْهى وأمَرُّ مِمَّا كانَ عَلَيْهِ أهلُ الجاهِلِيَّة فِي هَذَا البابِ.

التَّاسِعَةُ وَالأَرْبَعُونَ جَحْدُ بَعْضِهَا.

الخَمْسُونَ: قَوْلُهُمْ: مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيئ) (الأنعام:٩١.

هذه المسْألَةُ (السَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ) مِن المسائِلِ الَّتِي خالَفَ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلَ الجَاهِلِيَّةِ مِن الأميين، والكتابيين. وقد سبق لك في شرح هذه المسائلِ فيما مضى، أنَّ الإمامَ المؤلف رحمه الله تَعَالَى يَجْمَعُ مَا وَجَدَ فِي كِتَابِ الله جل وعلا أو في السُّنَّةِ، أو ما ذَكَرَه المفَسِّرُونَ أو شُرَّاحُ الحَديثِ من المسائل أو الأفعال أو الأقوال الَّتي كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُخَالِفُ فيها أهل الجاهلية، إما في أصل الاعتقادِ أو في قول أو في عبادة، أو في الأعمال المختلِفَة في أمورِ الحَياةِ، ومَرَّ معنا الشيء الكثيرُ مِن ذلك، فيما مضى. ومعلوم أنَّ مُخالفة أهل الجاهلية من الكتابيين والأمِّيّنَ مَقصودَةُ للشَّارِعِ مَقصودَةٌ في هذهِ الشَّرِيعَةِ ومطلوبة طلب إيجاب أو طلب استحباب بحَسَبِ ما دَلَّ عليه الدَّلِيلُ وَأَعْظَمُهَا مَا كَانَ مُتَّصِلًا بِمَسَائِلِ الإيمان والاعتقادِ أو ومسائل التوحيد أو الشركِ أو وسائل الشرك، فما كان من ذلك الباب فإنَّ العناية به علما ومُخَالَفَةً مِن أَعظَمِ مقاصِدِ هذه الشَّرِيعَةِ. لأنَّ أهل الجاهلية من الأميين والكتابينَ سُمُّوا بذلك لما هم عليه من الجهل؛ الجهل الذي هو ضِدُّ العلم، وضِدُّ المعرِفَةِ بحق الله جل وعلا، وحَقِّ رُسُلِهِ عَليهم صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُه.

وهذه المسَألَةُ (السَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ)، عَنوَنَهَا بِقُولِهِ: (إضافة نِعَمِ اللَّهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا)وإضافَةُ نِعَمِ اللهِ إلى غيره جهل، إذا كانت الإضافة لأجل الإيجادِ، أَو كَانَتِ السَّبَبَ في ذلكَ فَإِنَّ غير الله جل وعلا لا يَستَقِل بإيجاد ولا يَستَقِلُّ أيضًا بكَمال الأسبابِ المنتجَةِ للنِّعَمِ؛ بل قد يوجد بحَسَبِ ما أقدره الله جل وعلا عليه بإرادته ، وقد يعملُ السَّبَب، ولكن لا يكون إيجاده حقيقيًّا كَامِلا، لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا هو الذي خَلَقَ هذه النعمة، وهو الذي أعان عليها، وهو الذي أفاضها في الحقيقة، وكذلك السبب.

فإنَّ العبدَ أو إنَّ الخَلَقَ إذا عَمِلُوا سَبَبًا أو إنَّ غَيْرَ الله جل وعلا إذَا عَمِلَ سَبَبًا، فَإِنَّ السَّبَب لَا يَستَقِلُ بإحداث النعمة، بل تحتاجُ النِّعمة أو يَحتاجُ الإنعام، أو ما يَسُرُّ العبد، أو دَفعُ المصيبَةِ يَحتاجُ إلى سَبَبٍ وأسباب فمنها السَّبَبُ المباشر، ومنها دفعُ الضَّد، ومنها أنْ يَصلُحَ المحَلَّ لإعمالِ هذا السَّبَب والانتفاع به، وسَيَأْتِي بَيَانُ بَعض هذه الجُمَل. ونِعَمُ اللهِ لا تُحصى ولا تُعَدُّ؛ بل في الحقيقة ما مِن شَيْءٍ يَحدثُ للعَبدِ مِن خَير أو دفع شَرٌّ إِلَّا وهو نِعمَةٌ مِن الله جل وعلا. فإذا أضافَ شَيْئًا مِن ذلك على الاستقلال، إما استقلال إيجاد أو الاستقلال سَبَبٌ لغَيرِ الله جل وعلا، فقد أشرَكَ، وهذا هو صنيعُ أهل الجاهلية، وصنيعُ الأُمَمِ الَّتي لم تُبعَثْ فِيهَا الرُّسُلُ، لأجلِ غَلَبَةِ الجَهْلِ عندهم بحق الله جل وعلا، وما يستحقه سبحانه، قال جل وعلا: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ لله ﴾ [النحل : ٥٣)، وهذه الآية دلت على أنَّ جَميعَ النِّعَمِ وَاحِدًا واحِدًا دون استثناء هي مِن اللهِ جَلَّ وعلا، دون غيره. وَجهُ الدِّلَالَةِ أَنَّه أتى بالنَّفي،

الَّذِي تَبِعَته نَكِرَةٌ، وَسَبَقَ النّكَرَةَ حَرفُ الجَرِّ المفِيد للتنصيص الصريح في العموم، قال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِعْمَةٍ فَمِنَ الله)، فالنفي مع النكرة، ومجيء (من) يُفيدُ التنصيص الصريح في العموم، بحيثُ لا يَخْرُجُ شَيءٌ من هذا العموم عن أن يكون كذلك، وهذا هو الواقع، لأنَّ حصول الشَّيء في هذا الملكوتِ، لا يَكونُ إلَّا بخَلقِ الله جل وعلا، هو الذي يَخلُقُ جَميعَ الأشياء، وما يَشاؤُه العبد هو داخل في مَشيئَةِ الله جل وعلا، فما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأ لم يَكُنْ. فحياة العبد إذا فَعَلَ أو المخلوق إذا فَعَلَ أو قال أو أسدى نِعمةً فإنَّه جلَّ وعلا هو الَّذِي أَسدى النِّعْمَةَ بتمامها، لأنَّه هو الذي جَعَلَها توجد وأعانَ عليها وسَخَّرَ السَّبَبَ لها إلى آخِرِه.

فإذا دلت الآية على أنَّ النِّعَمَ جَميعًا مِن الله جل وعلا، دونَ غيره: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِعْمَةٍ فَمِنَ الله، يعني لا يَخْرُجُ شَيءٌ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي تَنعَمونَ بها أو الشَّرِّ الَّذِي يُصْرَفُ عنكم إلَّا مِنَ اللَّهِ جَلَّ وعلا، كُل الأشياء منه سبحانه وحده دونما سواه. ولهذا قال بعدها: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل، لأنَّ العَبدَ يَعلَمُ أَنَّه إذا جاءَه الضُّر، فلا أحد يُنجيه من ذلك إلا الذي على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ؛ ولكن إذا جاءَتِ النِّعَمُ فقد يَلتَفِتُ قَلبه عن الله جل وعلا إلى غيره. إذا تبيَّنَ ذلك فإنَّ استهلال الإمام، رحمه الله تعالى، هنا بقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ظاهِرٌ في أنَّ مِن صنيع أهل الجاهِليَّةِ، أنَّهم يعرفونَ النِّعْمَ ثُمَّ يُنكرونها، ويُخالِفونَ في شُكرِ المنعِمِ جلَّ وعلا ،وهنا قولان لأهل التفسير، الأكثر على أن المقصود بـ (يَعرِفُونَ ﴾، أَنَّهُم المشْرِكُونَ مِنَ العَرَبِ، والأُمِّيِّينَ ومَن شابهم، فإنَّهم يعرفون أنَّ هذه النعم من الله، لكنهم يُنكرونها بأنواع من الإنكار، سيأتي بيانها.ومنهم، يعني من أهل التفسير من قالَ: إنَّها مِن أقوال أهل الكتاب، لنسبتهم النِّعَمَ إِلَى مُعَظَّميهم، أو إلى الهتهم.ولهذا صحيح في الواقع، مع أنَّ الآيَةَ مَكِّيَّةٌ في سورَةِ النَّحل، وسورَةُ النَّحْلِ تُسَمَّى: سورَةَ النِّعَمِ؛ لأَنَّ اللَّهَ جل وعلا ذكر فيها جميع النعم بأصولها، وتفاصيل كثير منها، وابتدأها بذكرِ النِّعَمِ، نِعْمَةِ الوحي: (أتى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون) النَّحل.، ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَةَ الوَحيِ، وَنِعْمَةَ المرَاكِبِ، وذكرها أيضًا في سورةِ البَقَرَةِ، وفي سورة الأنعام" بأنهم يعرفونه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٦]. وهذا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ أَكثَرَ أو ما وَرَدَ في القُرآنِ مِن ذِكرِ المعرِفَةِ، أنه يتبعها إنكار، قال بعضُ أهل العلم: فصار المحمودَ العِلمُ لا المعرِفَةُ من هذا الجانب، لكنَّ هذا فيه نظر، لأنَّه تُستَعْمَلُ المعرِفَةُ بما هو أقل من العلم. العِلمُ مَرتبَةٌ أعلى مِن مُجَرَّدِ المعرِفَةِ والمعرِفَةُ يَحصُلُ بها مقصود ولكنَّ العِلم هو أعلى مَتَعَلَّقًا، وأعلى أثرا. ولهذا جاء في (صحيح مسلم»، وقد يكونُ مِن تَصَرُّفِ بعض الرُّواةِ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا أَرسَلَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَعْرِفُوا اللَّهَ، فَإِنْ هُمْ عَرَفُوا الله ..... إلى آخر الحديث. وهذا يَدلُّ على استعمالِ المعرِفَةِ في العِلم، بالتَّوحيد، لكنَّ

مَخْرَجَ الحَدِيثِ وَاحِدٌ، وَيَحتاجُ إلى نَظرٍ في معنى هذه الكَلِمَةِ. وقد يُقالُ إنَّ الأَلفاظ يُفَسِّرُ بَعضُها بعضا أو الأحاديث والرواياتُ يُفَسِّرُ بَعضُهَا بَعضًا، فتكونُ المعِرفَةُ هنا هي العلم بالشهادتين.

إنكارُ النَّعَم على أنواع:

الأول منها: إنكار إيجاد الله جل وعلا لها.

والثاني: يعني أصلا، إنكارُ تَفَرُّدِ اللهِ جَلَّ وعلا بها.

والثَّالِثُ نِسبتها إلى غيره، إمَّا على سبيل الجمع أو على سبيل الاستقلال. وهذا كُلُّه كان موجودًا عند أهل الكتاب، وعند المشركين من العَرَبِ، وَنِعَمُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا كَثِيرَةٌ

متنوعةٌ، وتعودُ إلى أصلين:

الأصل الأول: النَّعَمُ الدِّينِيَّة.

والأصل الثاني: النعم الدُّنْيَوِيَّة.﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٌ ﴾ [الأنعام: ٩١]. والمساكِنِ، وَنِعْمَةَ المآكِلِ، نِعْمَةَ إرسال الرُّسُلِ، وَنِعمَةَ الجَنَّةِ، نِعْمَةَ النَّجَاةِ.... إلى آخره، فكُلُّ ما فيها نعم ،وفي آخِرها ذَكَرَ اللهُ جَلَّ وعلا قِصَّةَ إبراهيم عليه السَّلام، ولم تُذكر فيها قِصَّةُ نَبِيّ أو لم يُذكَرُ فيها اسم نَبِي إلَّا اسم إبراهيم عليه السَّلامُ، كما أنها لم يُذكر فيها ذكرُ قَرِيَةٍ مِن القُرَى الَّتِي كَذَّبَت الرُّسُلَ إلَّا قَرْيَةً واحِدَةً بِسَبَبِ كُفْرِ النَّعَمِ وذكر إبراهيم الخليل عليه السَّلام، في آخِرِها، دال على أنَّ المقصودَ مِن ذِكرِهِ هو أَنَّه عليه السَّلامُ كَانَ شَكَارًا لنعم الله جل وعلا، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾ [النَّحل]. وَصَفَه بأنه من أهل التوحيد الخالص وحالته وهو مُوَحّدٌ التَّوحيد الخالص أنه شاكر لأنعم الله شَاكِرًا لِأَنعمِهِ.

والثَّمَرَةُ أَو الثوابُ على شكره للنَّعَمِ (اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم) النَّحل]، وَهَذَا يَدلُّ على

أَنَّ مَن ذَكَرَ في هذه السُّورَةِ مِن شُكرِ النَّعَمِ، والمطالبة به أو من إنكارِ النَّعَمِ، مِمَّن أَنكَرَها بعدَ مَعرِفَتِها. هذا يَدلُّ على أنَّه مُخاطَبٌ به من ينتسبون إلى إبراهيم الخليل عليه السَّلامُ وهم الأميونَ مِن العَرَبِ، وكذا المشرِكونَ، وكذلكَ كُفَّارُ أهل الكِتابِ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًا وَلَا نَصْرَانِيًا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [آل عمران)، لأنَّ هاتين الطَّائِفَتَينِ الأُمِّيِّينَ وَأَهلِ الكِتابِ ادَّعَوْا نِسبتهم إلى إبراهيم الخليل عليه السلام. فَإِذَا الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ، وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ فَظَاهِرٌ أن يكون المقصود كما قالَ جَمعٌ مِن المفَسِّرِينَ أَنْ يَكُونَ المقصود بذلك هم العَرَبُ مِن الأُمِّيِّينَ، وَيَدخُلُ فيهم أو يَدخُلُ في الإنكار من أنكر من أهل

الكتاب، لدلالة ما ذكرنا، يعني هذا توجيه للخلاف في الآية للخلافِ في تفسيرها، أو ليست لهؤلاء وهؤلاء. قوله جل وعلا: ﴿ يَعْرِفُونَ نعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا) استَدَلَّ به بَعضُ أهل العلم على أَنَّ الْمَعْرِفَةِ ليست بمحمودة، لأنه غالبا ما تكون المعرفة معها الإنكار، أو معها الإعراضُ، وهذه ذَكَرَ اللهُ جل وعلا في هذه السورة: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرونها)وسورة «النَّحل» التي هي، سورة النعم، وفيها هذه الآية، ذكرت فيها النِّعَمُ الدِّينِيَّة، والنِّعَمُ الدُّنْيَوِيَّةُ، وذُكِرَ فيها أَنَّ القَرْيَةَ الَّتِي كَفَرَت بأنعم اللهِ، أَنَّهَا كَفَرَت بالنِّعْمَتَينِ: الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، قال جل وعلا: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ امِنَةً مطمئنة يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١١٢]، وهذا ظاهِرٌ أَنَّهُ مُتجِةٌ إِلَى مَا سَبَقَ، وَهُوَ النِّعَمُ فِي الدُّنيا. فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل] ثُمَّ ذَكَرَ النِّعْمَةَ الدِّينِيَّةَ بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ هُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظالمون) [النَّحل.(فَبَيَّنَ جل وعلا أَنَّهم كَفَرُوا بِالنِّعَمِ الدِّينِيَّةِ، فقابَلَ الله جل وعلا كفرهم بالنِّعَمِ الدِّينِيَّةِ بِعَذَابٍ دُنْيَوِيٍّ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، يعني مِن كُفرِ النِّعَمِ، وَعَدَمِ إضافتها، واستعمالها في ما لا يُحِبُّ الله جل وعلا، ويرضى.وذكر النعمة الدينية، بإرسال الرسول، وأنهم قابلوها بالتكذيب، وجازاهم بأن أرسل عليهم العَذابَ، فَأَخَذَهُمُ وهُم ظالمون(إذا كان كذلك فإنَّ النِّعَمَ الدِّينِيَّة أُضيفت إلى غيرِ الله جل وعلا عند الجاهليين بأنواعهم، وتوضيح ذلكَ أَنَّ النِّعَمَ الدِّينِيَّة نَسَبها الكِتابِيُّونَ إلى مَن يُعَظِّمونَ مِن رُسُلِهِم الذينَ جَعَلُوهم آلِهَةً مِثلَ مَا عُمِلَ مع العزيرِ أو مع عيسى أو مع مريم أو نحو ذلكَ، فَجَعَلُوا هذه النعم منسوبة إلى مَن يُعَلِّمُونَهُم النِّعَمُ الدِّينية مِن رُسُلٍ، عيسى مثلا أو الأنبياء أنبياء بني إسرائيل الذين آمنوا بهم وأشباه ذلك، فنسبوا تفاصيل ذلك إلى هؤلاء؛ بل زادوا حتَّى نَسبوا تفاصيل النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ إلى أحبارهم، ورهبانهم، ونَسُوا فَضلَ اللَّهِ جَلَّ وعلا ،هذا كما يحدث أيضًا عندَ مَن يَجهَلُ في كُلِّ زمانٍ، وفي كُلِّ مَكان بالالتفاتِ عن فَضلِ اللهِ جَلَّ وعلا وإضافته للنعم الدينية على عِبادِهِ فالقُلوبُ بينَ أُصبعين من أصابع الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُها كيفَ يَشاءُ، وَالبَشَرُ مِمَّن مَنَّ الله جل وعلا عليهم برسالة، أو بعلم، أو بهدى، أو نحو ذلكَ، إِنَّما هم أدلاء يُبَشِّرُونَ وَيُنذِرُونَ، لكنَّ المِنةَ بالفضل، والهداية والنعم في الاستقامة فإنَّما هي من الله جل وعلا: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ١٧٢]، (وانك لتهدى إِلَى صِرَ ط مُسْتَقِيمٍ) [الشورى، يعني تدل عليه وتُرشِدُ إليه، ثم قال: ﴿ صِراطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)الشورى. فما مِن أَحَدٍ يَهتدي إلا بإذنه تعالى، وما من أحَدٍ يتَعَلَّمُ إلا بإذنه، ولا أُمِرَ بالمعروفِ، ونُهِيَ عن المنكَرِ إلَّا بِفَضلِه جَلَّ وعلا، ونعمتِه، ولا صُرِفَ الشَّرُّ، شَرُّ الدِّينِ إِلَّا بِفَضلِه جل وعلا، ، ويَمُنُّ الله على مَن يَشَاءُ مِن عِبادِه، بأن يجعلهم وَسائِلَ في ذلك. وهذا كان عند الكتابيين، وكذلك عند الأميين كانوا ينسبون كثيرًا مِن النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ الَّتي هم فيها إلى آلِهَتِهِم المختَلِفَةِ، إِمَّا لأَنَّهَا تَشفَعُ لهم فتبقي لهم النِّعَمَ الدينية من مثل سدانة البيت، وإكرام الحجيج، و أشباه ذلك وإما بأَنَّهم يتصرفونَ، ويُعطونهم، ويفيضون عليهم من إقبال النَّاسِ عليهم وتعظيمهم لهذا البيت، وللمناسك.

أمَّا النَّعَمُ الدُّنْيَوِيَّةُ فَكَثيرةٌ، وهي الأكثر ظهورًا، لتعلقها بعموم الخلق من جميع الفئات، بل لا يكادُ يَسلَمُ مِن إضافةِ النِّعَمِ إلى غَيْرِ الله جل وعلا، لا يَكادُ يَسلَمُ مِن هذا أَحَدٌ لا فِي الزَّمَنِ الماضي، ولا في الزَّمَنِ الحاضر. فمُقِلٌ ومُستَكثِر، لأنَّه مِن طَبيعَةِ البَشَرِ، أَنَّهم ينظرون إلى القريب من الأسباب، ولا ينظرون إلى الحقائق، وهذا نوع عُقوبَةٍ تَكونُ فِي النَّاسِ بِأَنَّهم تَتعَلَّقُ قُلوبُهم بِغَيْرِ اللهِ جَلَّ وعلا بِأَيِّ نَوعٍ مِن التَّعَلُّق.

وانظر إلى قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السَّلام، وما فيها من العِبَر، فإنَّه لما دَخَلَ السِّجنَ ومَكَثَ في السجن ما مكث، وقصت عليه الرُّؤيا، ففَسَّرَ ما فسر(.وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾، قال جل وعلا: ﴿فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِهِ فَلَبِث فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف]. هذا قد لا يَسلَمُ مِنها أَحَدٌ، ولهذا يَنبَغِي للعبدِ أَنْ يَتَفَقَّدَ نَفسَه كَثيرًا. فَإِنْ تَنْجُ مِنها تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيا وهذا يكثر في الأمور اليومية، كما سيأتي في آخِرِ الحَدِيثِ إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى. مِمَّا كَانَ يَعْمَلُهُ العَرَبُ بِالجَاهِليَّةِ مِن نِسبَةِ بَعض النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ إلى الكَواكِبِ، كما في حديث زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنِي المعروفِ. أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم صَلَّى على أثرِ سَماءٍ كانت بلَيلٍ، ثُمَّ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا فَهَذَا كَافِرٌ بِي ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَهَذَا مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكِبِ»، وهذا كَثيرٌ في مثل الأشياء المباشِرَةِ الَّتي قد تُنسَبُ إِلَى غَيرِ الله جل وعلا. فإذا نظرت إلى صنيع الجاهلية في أنَّهم يقولون: لولا فلان لم يَكُن كذا لولا الكلب لم يأْتِنا اللصوص، لولا مالي لصار لي كذا وكذا، ولولا قوتي لحَصَلَ لي كذا وكذا، وأشباه ذلكَ، مِمَّا يُشعِرُ **بالتفاتِ القَلبِ** إلى بعض الأسبابِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَعَدَمِ توحيد النَّافِعِ، والضَّار، ومُسبب الأسبابِ جَلَّ جَلالُه، وتَقَدَّسَت أسماءه. الأمثلة عند الجاهليين في هذه الأنواع من إضافةِ النِّعَمِ لَغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ كَثِيرَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ. أَمَّا فِي هَذِهِ الأُمَّةِ فَإِنَّ البَلاءَ طَمَّ وَكَثُرَ لما فَشِي فيهم ما فَشِيَ في أهل الجاهلية مِن حُبِّ الدُّنيا، والرَّغَبِ فيها ورؤية أهل الدنيا. ومن الغلو في الأولياء، والصَّالِحِينَ والأنبياء، والغُلُو فِي أَهْلِ القُبُورِ وأشباه ذلكَ. فدَلَّهم هذا وأداهم إلى تَعَلُّقِ القُلوبِ بِغَيرِ الله جل وعلا في إيجادِ النِّعَمِ وَفِي دَفعِ المضَارُ، فَتَعَلَّقَت قُلوبُ كثيرين في أزمنة الإسلام، بعد ضعفِ العِلمِ، وفشو الجهل، وَكَثَرَةِ حُبُّ الدُّنيا في تحصيلِ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ بالسلطان أو بالملوكِ، أو بالأمراء، بأنهم هم الذين يُعطون، وهم الذين يمنعونَ فَتَعَلَّقَت القُلوبُ بهم عند كثيرين، حتَّى التفتوا عن مَن يُعطي على الحقيقة ويمنعُ على الحَقِيقَةِ، النَّافِعُ الضَّارُّ جَلَّ جَلالُه، وتقدست أسمائه. وهذا قد يكون قدحًا أيضًا في التّوكّل كما أنه قدح في العلم بالله جل وعلا عُظْمَ أَثَرُ الملوكِ، والأُمَراءِ حتَّى نُسب إليهم أفراد وتفاصيل ، ما يكون فيه النَّاسِ مِن نِعم، وكثر هذا في الأشعار في زَمَنٍ فِي آخِرِ عَهدِ الأمويين وعند العَبَّاسِيِّينَ، وفِي الدويلاتِ حتَّى كَثرَ وَكَثُرَ إلى أن وَصَلَ إلى وَقتِنا الحاضر بأكثرَ مِمَّا يوصف. كذلكَ النَّظَرُ فيما يَصنَعُهُ النَّاسُ بَعضُهم مع بعض، فإذا شَفَعَ أَحَدٌ لأَحَدٍ وتحقَّقَت نَسَبَ الفَضْلَ إليه، أو إذا استشفى عندَ طَبيبٍ ثُمَّ عُوفِيَ نَسَب الفضل إليه، أو إذا اندفعت عنه نقمَةٌ نَسَبَ الفَضلَ إِلَى البَشَرِ، والبشر قد يكونون أسبابًا نافعة، ولكنهم لا يَستَقِلُونَ بذلك، وهذا أكثرُ ما

يَكُونُ مِن التفاتِ القَلبِ، الالتفات إلى المعَظَّمين أو إلى من بيدهم القُوَّةُ من البَشَرِ أو إلَى مَن يَعْمَلُ السَّبَبَ فِي النِّعْمَةِ.ولذلك ينبغي هنا أنْ تَعلَمَ أنَّه لا أحَدَ مِن البَشَرِ يَستَطيعُ أن يوجِدَ كُلَّ شَيْءٍ أَو أَنْ يَمنَعَ كُلَّ شَيءٍ، بل هو يَفعَلُ بَعضَ الأشياءِ مِمَّا يَدخُلُ فِي قُدرتِه، وأمَّا إتمام الأمر وفعله، فهو من الله جل وعلا لا أحَدَ يَستَطِيعُ ذلك إلا هو؛ لأنه سبحانه هو الذي على كُلِّ شَيءٍ قَدِير(وإن اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْ ءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة]، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُل شئ مُقْتَدِرًا ﴾ [الكهف] أمَّا المخلوق فليسَ مُقتَدِرًا على كُلِّ شَيْءٍ مَهما عَلَت قُوَّتُه، ومهما علت منزلتُه ، فهو يَقدِرُ على بعض دونَ بَعض. فإذًا إضافَةُ النِّعْمَةِ يَجِبُ أنْ تَكونَ على الحَقيقَةِ والتَّمام لمن هو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لأَنَّ هَذا يَعْمَلُ شيئًا، ولكنه لا يستطيعُ أنْ يَعمَلَ كُلَّ شَيءٍ؛ **بل أصلُ صَرفِ قَلبٍ مَن عَمِلَ النِّعْمَةَ** إِلَى أَنْ يَعْمَلَ هَذَا مِنَ اللَّهِ جل وعلا استقلالا، فقد يكون هذا المنعِمُ بالنِّعْمَةِ سُلطانًا أو تاجِرًا أو مَن شَفَعَ أو قَوِيًّا أو ساعَدَك فِي شَيءٍ قد يَلْتَفِتُ عنك، وقد يَقبَلُ مِنَ الَّذِي وَجْهَهُ بِأَنْ يَقبَلَ أو يلتفت ، هو اللهُ جَلَّ جَلالُهُ لا أَحَدٌ سِواه.مَن الَّذِي سَدَّدَهم فِي طبهم هو الله جل وعلا، مَن الَّذِي سَخَّرَهم لك للالتفات هو الله جل وعلا. فإِذَا حَقيقَةُ الإضافة، إضافَةِ النِّعْمَةِ هي من الله جل وعلا، ابتداءً وانتهاءً وقد ضَلَّ مَن أَضَافَهَا إِلَى غَيْرِه، **والتَفَتَ قَلبه** عن الرَّبِّ جَلَّ جَلالُه وتَقَدَّسَت أسمائه، لكنَّ المخلوق يَعمَلُ شيئًا وَيَستَحِقُّ الشُّكر على ما عَمِلَ لأَنَّهُ عَمِلَ خَيْرًا وَمَن عَمِلَ خَيْرًا يُشكَرُ، قال جل وعلا:(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان:١٤]. وقال سبحانه: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون ﴾ [البقرة]، فَجَعَلَ شكره مع شُكرِ مَن عَمِلَ مَعروفًا، فالشكر هو عَلامَةٌ لِمَن عَمِلَ، لكنَّ إضافة النعمة على التَّمامِ، هذا ليس إلا لله جل وعلا.

. **وحَقيقَةُ المُوَحْدُ لا يَتَعَلَّقُ إِلَّا بِاللَّهِ جَلَّ وعلا**.وكثير من الناس تعلقوا بالأسباب أو بغير الله تعالى ،وهذا سار فِي النَّاسِ مَسيرًا كَثيرًا، تَأثرًا بصنيع أهل الجاهلية، ولأَنَّ الشَّيْطَانَ يَنفُخُ فِي النُّفُوسِ، هذه لأنَّه من آثارِ هؤلاء، أو لأنَّه يُفضي إلى نَوعِ الشِّرِكِ، وَكُفْرٍ بِنِعْمَةِ اللَّهِ . مِمَّا انتَشَرَ أيضًا التَّعَلُّق بالأولياء، والصَّالِحِينَ، أو الأنبياء فِي أنَّ النِّعَمَ لا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِهِم، وأنَّ الله لا يُعطي النَّاسَ إِلَّا لأجل هؤلاء.وهذه وُجِدَت فِي الأُمَّةِ لَمَّا انتَشَرَ الغلو فِي هؤلاء بالتأثر بالنَّصارى والرهبانِ ومَن شابههم، فآل الأمرُ إلى أنَّه يُعتَقَدُ أنَّ ما يحصل لأهل مصر هو ببَرَكَةِ، أو من البدوي، أو مِن الحُسين عليه السَّلام، وأنَّ ما يحصل لأهل الجزيرة وهو ببَرَكَةِ أو لأجل دفنِ النَّبي صلى الله عليه وسلم أو ما يحصلُ مِن كذا، وكذا فإنَّه بَبَرَكَةِ فُلانٍ، وفلان ومِمَّا يُذكَرُ فِي ذلك قول البوصيري فِي شعره المشهور: فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضُرَّتَهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللوح وَالْقَلَم ، ضَرَّتُها، يعني الآخِرَةَ، يَقولُ: إِنَّ مِن جودِكَ، يعني مِن كَرَمِكَ يا مُحَمَّدُ عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَمِن نعائِمِكَ، ومِن النَّعَمِ الَّتِي جُدْتَ بها وتَفَضَّلت بها الدُّنيا جميعًا، بل والآخِرُة أيضًا فِي نَجَاةٍ مَن نَجا، إِنَّما هو من النبي صلى الله عليه وسلم وهذا ولا شَكٍّ غُلُو مَقِيتٌ أَدَّى إلى نسبةِ النِّعَمِ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم

وابنُ عَرَبِيٍّ الصُّوفِيُّ، فيما نُقِلَ عنه يَزعُمُ فِي كتابه الفتوحات المكية، يقولُ: مِنَ الصَّالِحِينَ مَن يُحفَظ به المشرِقُ، ومنهم مَن يُحفَظ بها به المغرِبُ، ومنهم من يُحفظ به الجنوب، ومِنهم مَن يُحفَظ به الشمال، يعني الأرض، ومنهم من تُحفظ به البروجُ، وعندهم اعتقادات أنَّ الأرضَ يَحكُمُها أربعة أولياء أقطاب وهؤلاء الأقطاب هم الذين يفيضون، ويُعطون، بل هناك فِي بعض البِلادِ أربعينَ، يَجْعَلُونَ أربعينَ مِن الإبدال لتتعلَّق الدُّنيا بهم، والنَّعَمُ واندفاع النقم، ونحو ذلك. فَهذا كثير، وَالعِياذُ باللهِ مِمَّا انتَشَرَ فِي هذه الأُمَّةِ، ثُمَّ نَصِلُ إلى العصر الحاضِرِ، فَنَجِدُ أَنَّ المسأَلَةَ زادَت، وزادَت بطغيانِ المادية، وبطغيانِ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، وَعَدَمِ العِلمِ بِاللهِ جَلَّ وعلا.أَمَّا الماديُّونَ فَإِنَّهُم أَغْرَوا النَّاسَ بوَسائِلِهم المختلِفَةِ على أنَّ كُلَّ شَيْءٍ هو مادِي، بَحتُ، فالأُمورُ تحصل بطبيعتها، ولهذا إضافة الأشياء إلى الطبيعة، وهي إضافة أيضًا إلى مخلوقٍ خَلَقَه الله جل وعلا، وأجرى سنته فيه على ما يَشاءُ جَلَّ جَلالُه وتَقَدَّسَت أسماؤه. فَتَجِدُ اليَومَ أَنَّ حصول النَّعَمِ يُنسَبُ ويُضافُ إلى القوى المادية أو إلى العُقولِ حَتَّى ضَعُفَ التَّعَلُّق بِاللَّهِ جل وعلا ، فضلا عن نسبة الأشياء على الحَقيقَةِ إليه جَلَّ جَلالُه ، وتَقَدَّسَت أسماؤه. وانتشار المادية في أهل الكتاب، وفي الغَرب، والشرق أدى إلى تأثيرها على أهل الإسلام في أَنَّهم ضَعُفَ عندهم، التَّعلق بالله في حصولِ النِّعَمِ، واندفاع النقم إلى شَيْءٍ كَبِيرٍ ،أكبر حَتَّىٰ مِمَّا كَانَ عِندَ أهل الجاهلية الأوائل. وذلك في أنهم صاروا لا يذكرونَ الشَّيء إلا بذكر أسبابه الدُّنْيَويَّةِ الماديَّةِ الَّتِي حَصَلَت به. فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى سَلامَةٍ فِي المواصَلاتِ تَجِدُ أَنَّهَا تُعزى إلى كذا وكذا. إذا نَظَرْتُ إِلَى الثَّرَواتِ الموجودَةِ الثَّرَواتِ الزراعِيَّةِ أو الثَّرَواتِ الحَيَوَانِيَّةِ أو ... تُعزى إلى الخِطَطِ، وإلى ما يُعمَلُ، ونحو ذلك. ولو منعهم الله جل وعلا المطر، وأصابهم الجفافُ، لم ينفعهم شَيءٌ مِن ذلكَ البَتْه، وهم يُصِرُّونَ على نِسبَة ذلك إلى أعمالهم، وماديَّاتِهم. وإذا نَظَرتُ إلى مَجالِ الأطباء والصحة، أصبَحَ يُنظَرُ إلى صِحَّةِ الأبدان اليوم، وإلى الوعي، وما أشبه ذلك إلى أنَّه من صنيع هذه الماديَّاتِ وأشباه ذلك. وهذه كُلُّها أسباب، ولا يعدو السَّبَبُ عن أن يكونَ سَبَبًا، عَمِلُوا؛ بَعضُ الأسبابِ مُؤَثِرَةٌ، وهذه الَّتِي ذكرنا مُؤَثْرَةٌ، لكن لا تَستَقِل بإيجادِ السَّلامَةِ لا تَستَقِل بإيجادِ الزّهَدِ والخير، والله جل وعلا يبلو عِباده بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ (وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف].

والحَسَناتُ الخَصبُ والخَيرُ ، والسَّيِّئات والجدب والجفاف والفقر، وما يحصل من ذلك، والمؤمِنُ إذا حَصل له المقصودُ مِمَّا عَمِلَ يطأطِئ رَأْسَه ذِلَّةٌ لله جل وعلا وخُضعانًا، وتبتلا إليه سبحانه، مِن أنْ يَلتَفتَ قَلبه إلى غَيرِ الله جل وعلا فيُصاب، وهذا يوسف عليه السَّلامُ التَفَتَ قَلِيلًا فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضع سنين، **فلم نَصِل إلى ما نُرِيدُ إلَّا إذا حَقَّقنا التَّوحيد تاما في أمورنا**، ومِنها أَنَّنا لا نفْتَخِرُ بأعمالنا ذلك الافتخار. ولكن نذكُرُها على سبيل التشجيع نذكُرُها على سبيل البيان، لكن أن تُنسَبَ الأشياء إلى فعل فَرِدِ عالم أو غيره أو إلى جماعة، أو نحو ذلك، هذا ليس من صنيع أهل الإيمانِ ولا أهلِ المعرِفَةِ باللهِ جَلَّ وعلا وقد يدخُلُ هؤلاء فِي قوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل : ٨٣]. وكذلكَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي إضافَةِ النَّعَمِ إلى غَيرِ اللهِ جَلَّ وعلا، ما يُشيعه الإعلام اليوم من أنواع ما يُشيعُ مِن نِسبَةِ كُلِّ الأشياء

التي تحصل من الخير في بِلادِ اللهِ الواسِعَةِ إلى الدُّوَلِ الَّتِي يَكونُ فيها ذلكَ الخَيْرُ والإعلام في كُلِّ دَولَةٍ يَنشُرُ، وكأَنَّ ما يحصل إنَّما هو بسَبَبِ الحكومة، أو بِسَبَبِ الرَّئيس، أو المِلكِ، أو بسبب الأمراء، أو بسَبَبِ الوزراء، أو بسَبَبِ الخُطَطِ، ونحو ذلك، وهذا كُلَّه يَدخُلُ في هَذا البَابِ، لأنَّ هذه الأشياء واجبٌ عَمَلُها، وهي أسباب.وَمَن عَمِلَ السَّبَبَ يُشكَرُ، وَيُثنى عليه به، إذا عَمِلَ سَبَبًا نافِعًا فيه امتثال لأمر الله، وفيه تحقيق للخير، لكن أن يُنسى الله جل وعلا، وأن تُضافَ النِّعَمُ إلى غَيْرِ اللهِ جَلَّ وعلا ويُمَجَّدَ المخلوق أكثَرَ مِن تَمجِيدِ الله جل وعلا في النِّعَمِ واندفاع النقم هذا لا شك أنه نسيان لله جل وعلا، ومُؤذِنٌ بَنَوعٍ مِن السَّلبِ، أو العقوبَةِ إنْ لم يَتَدارَك الله جل وعلا عِباده بالعفو، والرَّحمَةِ.ولهذا قال سبحانه لما ذَكَرَ القَرْيَةَ، قال: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل : ١١٢].وهذا مِمَّا يُخِيفُ العَبدَ المؤمِنَ أَنْ يَكُونَ مِمَّن عَرَّضَ نفسه أو غيره لسلبِ نِعَمِ اللهِ جَلَّ وعلا عليه، وهذا كثير. فتأمل هذا الأمر ، والواجِبُ على العِبادِ أنْ يُكثروا من الثناء على الله جل وعلا في هذه الأمور، وأَنْ يَعرِفُوا أَنَّهُ مَا حَصَلَت نِعْمَةٌ إلَّا بفضل الله جل وعلا، وما اندَفَعَت نقمَةً إلَّا بِفَضلِ اللهِ جَلَّ وعلا، والعِبادُ يَعْمَلُونَ السَّبَب، ويُشكَرُ مَن عَمِلَ سَبَبًا نَافِعًا.

الثَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ الْكُفْرُ بِآيَاتِ اللَّهِ والنصوصُ الدالَّةُ على ذلك في القرآنِ كثيرة: مِنها قولُهُ تعالى في [الكَهْفِ: 105- 106] : {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا - ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف: 105 - 106] بَعْدَ قولِهِ سُبحانَه [الكهف: 103- 104] : {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا - الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103 - 104] فقولُه (أُولئكَ) كلام مُسْتَأْنَفٌ منهُ مَسوق لتكْميلِ تعريفِ الأخسَرينَ، وتَبيينِ خُسرانِهِم وضَلالِ سعْيِهِم وتَعْيينِهم، بحيثُ يَنْطَبِقُ التَّعريفُ على المخاطَبينَ. أيْ أولئكَ المنْعوتونَ بما ذُكِرَ من ضَلالِ السَّعْيِ والحُسْبانِ المذكورِ {الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} [الكهف: 105] بدلائِلِهِ سُبحانَه الدَّاعِيَة إلى التَّوحيدِ الشَّامِلة للسَّمعيَّةِ والعقليّةِ {وَلِقَائِهِ} [الكهف: 105] هو كِنايةٌ عن البعثِ والحَشْرِ وما يَتْبَعُ ذلك من أُمورِ الآخِرَةِ، أي لم يؤمنوا بِذَلِكَ على ما هو عَلَيه {فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: 105] أيْ: فَنَزْدَري بهم، وَنَحْتَقِرُهُم. ومِنَ النُّصوصِ ما يَدُلُّ على أنَّ مِنهم مَن كان يُنْكِرُ بَعضَ الآياتِ، ومنهم مَن كانَ مُعْرِضًا عَنْها وهاجرًا لها، ولَا يَخْفى عليك أنَّ مِنَ النَّاسِ اليومَ مَن هُوَ أدْهى وأمَرُّ مِمَّا كانَ عَلَيْهِ أهلُ الجاهِلِيَّة في هَذَا البابِ.

التَّاسِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ: جَحْدُ بَعْضِهَا.

هاتان المسألَتَانِ، الكُفْرُ بِآيَاتِ اللهِ وجَحَدُ بعضها، من صفاتِ، ونُعوتِ أهل الجاهلية، فهم يَكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ المقروءة المتلوة، والمنظورة. الآيات الكونية، والآياتُ الشَّرعِيَّةُ، وَيَجحَدُونَ بَعضَها، كما ذَكَرَ الله جل وعلا في كتابه.فأهلُ الكِتابِ كَفَرُوا بِآيَاتٍ كَثِيرَةٍ، لأنهم لم يُريدوا الإيمان بها، لمخالفتها لأهوائهم، وكذلك جَحَدوا بعضها.وأهلُ الجَاهِلِيَّةِ فَعلوا ذلكَ فَهُم يَعرِفونَ الآيَةَ، ويعرفون حقيقتها، ولكنْ يَكفُرُونَ أَو يَجحَدُونَ، وَالكُفْرُ والجحد، بينهما فَرقٌ.

الكفر هو الستر والتغطية ،والكفر ضد الإيمان، والكفر جحود النعمة، وهو نقيض الشكر.
الكفر هو الاعتقاد والقول والعمل المنافي للإيمان، وهو على شعب، ومراتب متفاوتة.

وأَمَّا الجَحَدُ فَالعُلماء اختلفوا في تفسير الجحد لكن أقرب ما يُقالُ في الجَحِدِ، أَنَّه إنكارُ الشَّيءِ ظَاهِرًا مع معرِفَتِه باطِنا، فيكونُ نُوعًا مِن الكُفْرِ. قالَ جَلَّ وعلا: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُم ظلما وعلوا ﴾ [النمل: ١٤] فدلت الآية على أَنَّ الجَحدَ يجتمع مع المِعرِفَةِ، والاستيقان، لكن ليس معه إيمان فهو جَحدٌ في الظاهِرِ بالكُفْرِ بها ظاهِرًا أو بَرَدها ظاهرا.

وهناك ألفاظ لا نُريد أن ندخل فيها هنا؛ لأنَّها مُتَّصِلَةٌ ببحث التكفير، والإيمانُ في مَسأَلَةِ: الكُفْرِ، ويُقابله الإيمان والجحد ويُقابله القبول، والالتزام ويُقابله الامتناع، ونحو ذلكَ، أَلفاظ مُسْتَعْمَلَةٌ عِندَ الفقهاء في أبواب الردة. قوله: (الْكُفْرُ بِآيَاتِ اللهِ)، ذَكَرَ الله جل وعلا أنَّ أهلَ الكِتابِ والمشْرِكِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ جَلَّ وعلا. وهنا المقصود بآياتِ الله جل وعلا، ما يَشمَلُ الآيَاتِ الكَونِيَّةَ، وَيَشمَلُ الآيَاتِ الشَّرعِيَّة. وتارَةً يَكونُ الكُفْرُ بِآيَاتِ اللهِ الكَونَيَّةِ، المقصود بها الآيات التي فيها دِلالَةٌ على نُبُوَّةِ النَّبِي، وَنُبُوَّة الأنبياء مرتبطة بآيات وبراهين، يعني جَعَلَ الله جلَّ وعلا مع كُلِّ نَبِيَّ آيَاتٌ وَبَرَاهِينُ تَدُلُّ عَلَى صِدقِهِ. هذه الآياتُ تُضاف إلى الله جل وعلا، لأنه هو الذي أيد بها هذا الرسول؛ ولكن هي تُضافُ إلى الرَّسولِ، لأنَّه، يعني آيَةً موسى، آيَةُ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، آية عيسى، تُضاف إليه، إضافة تخصيص، لأنَّه هو الذي خُصَّصَ بها مِثلَ مَا يُقَالُ غُلامُ زَيد، لأنَّه يُضافُ إليه، وولَدُ فُلانٍ؛ لأنَّه يُضافُ إليه تخصيصا، يعني هي آيات الله جل وعلا، وهي آيات للأنبياء، وهذه الآياتُ كَفَرَ بها مَن كَفَرَ مِن الجَاهِلِيّينَ مِن الأمين، ومن غيرهم مِمَّن أُرسلت إليهم رُسُلٌ، وبخصوص أهل الكِتابِ فَإنَّهُم كَفَرُوا بِبَعض الآياتِ، وآمنوا ببعض الآياتِ كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. أَمَّا الجَحَدُ فَإِنَّه لا يُمكِنُ أَنْ يَكونَ الجَحد للكل، بخلاف الإيمان بالآيَةِ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ إيمَانًا، وَإِمَّا أن يَكُونَ غَيرَ إيمان. فجحد بعض الآيات لأنها قد تناسبهم، وقد لا تُناسبهم، وقد توافق أهواءهم وقد لا توافق أهواءهم، فمنهم من يقول

هذا، ومِنهم مَن يَفعَلُ هذا. والكُفرُ بِآيَاتِ اللهِ جَلَّ وعلا جميعًا، إذا اتَّجَهَ إلى الآياتِ الشَّرعِيَّةِ – كما ذَكَرنَا – فَإِنَّه يَشمَلُ الأُمِّيّينَ والكتابيين. وإذا اتجه إلى الآياتِ الكَونيَّةِ، فَإِنَّ هؤلاء، يعني الأميين لم يجحدوا كُلَّ الآياتِ أو لم يكفروا بجميع الآيات، وإنما كَفَروا ببعضها، مثلا قال الله جل وعلا: (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَونَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِأياتنا كُلها فَأَخَذْناهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (القمر)، قال:(مَهمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) الأعراف. فدل ذلك على أنَّ الآياتِ، هذه لم يُؤْمِنْ بها مَن خُوطِبَ برسالة موسى عليه السلام، بل كَذَّبوا بجميع هذه الآياتِ. وهذه الآيات المقصود بها الآيات التي هي مُعجزات للنبي، وبراهين على صدقه، وصدق رسالتِهِ. وأيضًا بعد الإيمانِ كَمَنْ آمَنَ بموسى عليه السّلامُ ومَن آمن بعيسى عليه السلام، فإنَّهم تأتيهم آيات فقد يُؤمِنونَ بها، وقد لا يُؤْمِنونَ.ولهذا كَانَ اليَهُودَ قَتَلَةٌ للأَنبياءِ، لِمَا اتَّصَفوا بِهِ مِن كُفْرٍ بآيَاتِ اللهِ جَلَّ وعلا.

الآيَةُ تُعرَّفُ بأَنَّها الدلالة الواضِحَةُ البَيّنَةُ على المرادِ، يعني في اللُّغَةِ يعني هناك دِلالَةٌ، وهناك أرفَعُ مِن الدلالة، وهي الآية هي الشَّيءُ يَدلُّ على المرادِ دونَ شَكٍّ أو دونَ رَدَّ لَقُوَّتِه ولظهورِه. يُقالُ آيَةٌ فُلانٍ كذا، إذا كان المذكورُ هو الدليل على صِفَتِهِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا، وَآيَةٌ فُلانِ الطُّولُ هذه صِفَةٌ، يعني يتميز بها، إذا رأيتَ هذه الصِّفَةَ فستعرفه من غيره، يعني الطُّولُ مُفرِطٌ ، يَكونُ أو يُقَالُ آيَةً فُلانِ الكِتابَةُ في قوم ليسوا بكتبة، آيَةٌ فُلانِ القِراءَةُ في قوم ليسوا بقراء. وهكذا فالآيَةُ دَليلٌ وَاضِحٌ بَيِّنٌ على المقصودِ، والمراد لا يختلف.وأما ما دون ذلك يُقال له دليل، والبرهان أعظمُ مِن الدليل، وشبيه بالآية. وسُمِّي البرهان، بُرهانًا من براهين الأنبياء، وآياتِ الأنبياء، ونحو ذلك لتشبيهه بضياء الشَّمس، لأنَّ الشَّمْسَ أَوَّلَ مَا تَطلُعُ، فَإِنَّهَا تَطلُعُ بنورٍ فإذا قَوِيَ نورها قيل هذا برهان، لقُوَّتِه وظُهورِه، ومُلابَسَتِه لها. لهذا جاءَ في الحَديثِ: «الصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاء، فالصبر، والصَّلاةُ، الصَّلاةُ ضِياء، والصَّدَقَةُ بُرهان، الضِّياءُ قَوِيٌّ؛ ولكنَّ البرهان فيه ظهور، وبيان واضح في ذلك، فالصَّلاة لها ضياؤها مِثلَ ضياء الشَّمس، والصَّدَقَةُ هي بُرهان، لأنَّه أقل من الضياء لكنَّه مُشَبَّه به لظهوره، وصدقه، وأنَّه قد لا بَست هذا الأمر. المقصودُ مِن أَنَّ الصَّدقَةَ سُمِّيت بُرهانا أو وُصِفَت ببُرهان، لأَنَّها ظَاهِرَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى التَّخَلُّص مِن حُبِّ الدُّنيا في ذلك مِثلَ ظُهورِ البُرهان وسطوعه.فكذلك الآياتُ تُسَمَّى بُرهانًا، إذا كانت ظاهِرَةً، بَيْنَةً فالدليل أقلُّ دَرَجَةً مِن البُرهانِ، نَقولُ الدَّليل كذا، ولكن إذا قيل البرهان كذا، يَجِبُ أن لا يكون فيه اختلاف، بُرهان فيه وضوح وظهور.إذا تأملنا ذلكَ وَجَدنا أنَّ مُشرِكِي العَرَبِ مِمَّن بُعِثَ إليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم جَحَدُوا بَعضَ آيَاتِ اللهِ جَلَّ وعلا، وأنكروا وكفروا بكثير من آيات الله جل وعلا، وما كَفَروا به أو ما جَحَدُوه هو في الحقيقة ناتج عن عدم إيمانهم بالنبي عليه الصَّلاة والسلام. إذا نظرتَ مَثَلًا إلى قِصَّةِ الإسراء، إسراء النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى معراجه هذه آيَةٌ بَيْنَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، لم يُؤمنوا بها،وكَفَروا بذلك.انشِقَاقُ القَمَرِ كَفَروا به وجَحَدوه، القُرآنُ في نفسه أيضًا جَحدوا به، وقالوا: إِنْ هَذَا إِلَّا قَولُ البَشَرِ، فَكُلُّ الآيات التي أُوتيها

العَرَبُ ليؤمنوا بهذا الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ جَحَدُوا بها.وهذا وَرِثَه طَوائِفٌ في هذه الأمة .

وكذلك من صفات أهل الجاهلية اختيار كتب الباطل، ونبذ آيات الله: اشْتِراء كُتُبِ الباطِلِ واخْتِيارُها عليها، أيْ عَلى الآيات. قالَ تَعالى [البقرة: 99-103] : {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ – أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ – وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ – وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة: 99 – 102] إلى قوله: {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ – وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: 102 – 103] وَمَعنى قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ} [البقرة: 102] أيْ اسْتبدَلَ ما تَتْلوا الشَّياطينُ بِكتابِ الله. {مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [البقرة: 102] أي: نَصيبٍ {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ} [البقرة: 102] أيْ: واللهِ لَبِئْسَ شَيْئًا شَرَوا بهِ حُظوظَ أَنْفُسِهِم، أيْ: باعوها أو شَرَوْها في زَعْمِهِم ذَلِكَ الشِّراءَ {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا} [البقرة: 103] أيْ بِالرَّسولِ أوْ بِما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنَ الآياتِ أو بِالتَّوْراةِ {وَاتَّقَوْا} [البقرة: 103] أيْ المَعاصي التي حُكِيَتْ عَنْهُمْ. {لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: 103] أيْ أنَّ ثَوابَ الله تَعالى خَيْرٌ لَهُمْ، وبِمَعْنى هذه الآيةِ قولُه تَعالى [البقرة: 78-79] {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ – فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: 78 – 79] وَهَذه الآية نَزَلَتْ في أحبارِ اليهودِ الذينَ خافُوا أنْ تَذهبَ رِياسَتُهم بِإبْقاءِ صفَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم على حالِها، فَغَيَّروها.

ما توجيه قول النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ»؟ وقولِ عمر رضى الله عنه : لولا أنا لطَلَّقَكُنَّ رَسُولُ الله ؟

الجواب:هذا لا بأس به إذا كانَ لغَرَضٍ شرعي صحيح ليس لغرض الافتخار، يعني أغراض مذمومة أو بَيَانُ الفَضلِ والأنعام، وإنَّما هو لغَرَضٍ شَرعِي صَحيح فالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَولَهُ: لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يُبَيِّنُ شَفاعَته عليه الصَّلاة والسَّلام، وشَفاعَتُه مِن حُقوقِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ الَّتي مَنَّ اللهُ جل وعلا عليه بها فهو المؤَدِّي للسَّبَب، وليسَ المتَفَضّل عليه.وكما ذَكَرنا أَنَّهَا جَائِزَةٌ بشرطين:

أَوّلًا أَنْ يَكونَ الَّذِي يَقولُ: «لَوْلا أَنَا أَنْ يَكون هو الذي عَمِلَ ، وليسَ المنعَمَ عليه هذا واحِدٌ، لأنَّ الَّذِي عَمِلَ غالبًا ما يكونُ قلبه مُتَعَلِّقًا بالآخر وإنَّما هو يَكونُ عَمَلُه.

الثاني: لا يَكونُ صَدَرَ منه ذلكَ على وَجهِ مَذموم شَرعًا كالافتخارِ المذْمَوم وأَشباه ذلك، وهذا يُحمَلُ عليه قول النبي، وقول عُمَرَ وأشياء أيضًا جاءَت عن السَّلَفِ كَثِيرَةٌ في ذلك. هذا هو الصواب في هذه المسألَةِ، خِلافًا لمن زَعَمَ أَنَّ قولَ القَائِلِ، لَولا فُلانٌ لَمَا حَصَلَ كَذَا، أَنَّ هَذا من آدابِ الألفاظ، وإنَّما يُكرَهُ

كَرَاهَةً، وليسَ مِن الشِّرْكِ استدلالا بهذا المقامِ المختَلِفِ، قَولُ فُلانٍ لَولا لكان كذا هذا مِن قَبيلِ لَولا أنا لكان كذا وكذا هذا من قبيل الإعلام بِشَيْءٍ، وَيَخْتَلِفُ بِحَسَبِ مَقصدِ المتكلم.أَمَّا المنعَمُ عليهِ الَّذِي حَصَلَت له النعمة، أو اندفعت عنه النقمة، يقولُ لَولا فُلانٌ لكان لِي كذا، لولا فلانٌ لهَلَكتُ هذا فيه **تَعَلُّقُ القَلبِ تَعلّق بمَن حَصلَت له النِّعْمَةُ مِن جَرَّائِهِ فَالمقَامُ مُختَلِفٌ**. أما الأمور الطبيعية مثلا التي ما فيها تعلق، يعني الأمور المادية فهذه لا حرج فيها، يعني مثلا يَقولُ مَثَلًا لَولا أَنَّ الشَّايِ جَيْدٌ مَا شَرِبتُهُ، أَو يَقولُ لَولا أَنَّ المِلحَ كَثِيرٌ كَانَ أَكَلْتُ.هذه الأشياء طبيعية ما فيها إضافةُ النِّعْمَةِ إلى غير الله، فليس المحظور هو استعمال كلمة لولا، لولا موجودَةٌ فِي اللُّغَةِ تُستَعمَلُ فِي بابها لو استقبلت من أمري ما استدبرتُ، ونحو ذلك، فـ(لولا) تُستَعمَلُ لكن إذا كان فيها إضافَةُ النِّعْمَةِ وحَصرها لغَيرِ الله جلَّ وعلا أو تَعَلُّق القَلبِ فيها بِغَيرِ اللهِ جَلَّ وعلا هذا هو الممنوع

كثر السؤال بينَ الشَّبابِ عن حُكمِ السَّفَرِ للصَّلاةِ على الجَنَازَة، فما هو الحكم؟

الجواب: **أولاً** السَّفَرُ للصَّلاةِ على جَنازَةٍ أو السَّفَرُ لِزِيارَةِ أخ لك فِي اللهِ أو سَفَرٌ لِصِلَةِ رَحِمٍ أَو سَفَرٌ الزيارة مريض هذه ليسَ فِي الشَّرِيعَةِ دَليلٌ يمنعها، بل هناك أصول عامَّةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذه لا بَأْسَ بها، وذلكَ أَنَّ حُقوق المسلِمِ عَلى المسلِمِ هذه ليسَت فِي التَّفصيلُ بل فِي الأَدِلَّةِ، بِأَنَّهَا تَقضي، وتُحَقِّقُ الحُقوق بحضر أو بسفر.حَقُّ المسلِمِ على المسلِمِ : إذا مَرِضَ فعُده، وإذا مات فاتَّبِعه، فهذا مِن حَقِّه هل هذا الحَقُّ يَكونُ بسَفَرٍ أو بِغَيرِ سَفَرٍ لم يَأْتِ ما يَمنعُ فالأصل أنَّ هذه الحقوق تُؤَدَّى سَواءٌ أكانَ فِي حَضَرٍ أم فِي غيره، وتَدخُلُ فِي عُموم هذه الأَحاديثِ الَّتِي فِيهَا بَيَانُ حَقٌّ المسلِمِ عَلَى المسلِمِ بِعَامَّةٍ.

الأمر الثاني، أَنَّهُ المنِعُ مِن السَّفَرِ، وشَدَّ الرحال، المنهي عنه هو إذَا كَانَ المعنى منهيًّا عنه فِي الشَّرعِ، مِثلَ السَّفَرِ، وَشَدَّ الرَّحل لبقعة للتعظيم، لحديثُ : «لا تُشَدُّ الرِّجَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدٍ..» يعني لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَى بقعَةٍ لِتُعَظَمَ إِلَّا إِلَى ثَلاثَةِ مَساجِدَ، فَالمساجِدُ المنتَشِرَةُ إذا كنت تُرِيدُ أَنْ تُسَافِرَ لتَعَظيمِ مَسجِدِ إِنَّكَ تُسافِرُ للصَّلاة فيه، لتعظيم هذه البقعة، فالبقاعُ إِنَّمَا يُعَظِّمُها الله جل وعلا، وهو الَّذِي يَأْذَنُ بها، ولم يَأْذَنْ أَنْ تسافر لتعظيم بقعَةٍ إِلَّا لهذه الثَّلاثِ المساجِدِ.ولهذا لما سافَرَ بَعضُ الصَّحابَةِ للطُّور، نُهِيَ عن ذلك لأجل هذا الحديث. السفر لتحصيل مباح في الشرع، سفر لتجارة، أو لتحصيل مندوب فِي الشرع لطلب عِلم، ونحو هذا، لا شيء فيه.فإذن السَّفَرُ وَسيلَةٌ، والوَسيلَةُ فِي القَواعِدِ الشَّرعِيَّة لها أحكام المقاصد، فإذا كانَ المقصَدُ ثَابِتا شَرعًا، وليس ثَمَّ ما يُنهى عنه فإنَّه داخِل ضمن أصولِ الشَّرِيعَةِ خاصة إذا كانَ مِثل ما ذكرنا لكَ مِن السَّبَبِ الأَوَّلِ فِي أداء حقوق كثيرة.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ الَّذِي يَدُلُّنا على أنَّ السَّفَرَ لصَلاةِ الجَنازَةِ ونحو ذلك لا بأس به، أنَّه لو مَنَعْنَا مِنه لَوَجَبَ أَيضًا أَنْ يُمنَعَ السَّفَرُ لِزِيارَةِ المريض، والسَّفَرُ للصِّلَةِ، صلة الرحم ، مَا الفَرقُ بَينَ هَذَا وَهُذَا؟ كُلُّه بَابٌ واحِدٌ وَكُونُه، يعني زِيارَةُ المرِيضِ مطلوبة، والصَّلاةُ مِن حَيثُ هي مطلوبَةٌ وصِلَةُ الرَّحِمِ مِن حَيثُ هي مطلوبَةٌ،

وفي الحَدِيثِ أَنَّ مَنْ زَارَ أَخَا لَهُ فِي اللهِ جَعَلَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ ملكًا.. »، وهذا فيه نوع سَفَرٍ . بَعضُ النَّاسِ أَعمَلَ قاعِدَةَ، أَنَّ الأصل في سَفرِ الطَّاعَةِ أَنَّه جائز، إلَّا مَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى عَدَمِهِ، وَهُذه القاعِدَةُ مُختَلَفٌ فيها، لأنَّها منظورَةٌ بالاستقراء، ولا يستقيم ذلك.

الأمرُ الرَّابعُ: إذا كانَ مَن تَرِيدُ الصَّلاة عليه له حَقٌّ عليك في دينك، وهو أعظم الحقوق، أو في دنيا، أو في مَصْلَحَةِ عَامَّةٍ لها أثرها فإنَّه حِينَئِذٍ يَكونُ الحَقُّ أعظَمَ في ذلك، وليس لأجل تعظيمه، تعظيمِ المتَوَفَّى أو تعظيمِ الميّتِ، ونحو ذلكَ، وَإِنَّمَا لأَنَّ الصَّلاةَ عليه من حقوقه، واتِّبَاعَ جَنازَتِهِ مِن حَقِّه، وهو له حَقٌّ عَظِيمٌ في ذلك. فيُعطى من أواخِرِ الحُقوقِ المتَعَلِّقَةِ بِجَنازَتِه، وهذا يُعَظَّمُ إذا كان المفقودُ مِمَّن له الأثر البالغ كعالِمٍ مِن عُلَماءِ المسلِمِينَ مِثْلَ مَا حَصَلَ مِن وَفاةِ سَماحَةِ الشَّيخ عبد العزيز بن باز تغلفه، أو سَماحَةِ الشَّيخ مُحمَّدِ بن عثيمين رحمهم الله تعالى، ورَفَعَ دَرَجاتِهِم، وأجزَلَ لهم المثوبة وجزاهم عن المسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، لأَنَّهُم بَذلُوا، وَجَاهَدُوا فِي عُمُرٍ بارك الله جل وعلا في أقوالهم، وفي أعمالهم، فلهم حَقٌّ على المسلِمينَ، عامة بالدُّعاء، ولهم حَقٌّ على الخاصَّةِ مِمَّن انتفع بهم رحمهم الله تعالى رَحمَةً واسِعَةً.ولو قال متنطعٌ منغلقٌ

وهل كانَ فِعَلُ السَّلَفِ على ذلك؟ الجواب: السَّلَف ما كانوا يُسافِرونَ، لأنَّ السَّفَرَ يُفَوِّتُ الجَنازَةَ، يعني السَّفَرُ في وقتنا سَاعَةٌ، وَتَصِلُ، أما عند السلف لو يُسافِر مِن مَكَّةَ إلى المدينةِ يحتاج لها أسبوع أو أسبوعين وهذَا حَقٌّ فاته، يعني الصَّلاةُ عليه مع المسلِمينَ فاتت، ، فعَدَمُ فِعلِ السَّلَفِ لا لعَدَمِ وُجودِه، فلا تبحث هل فعلوا أو لم يفعلوا، لكنَّه عَدَمُ فعلهم إذا كانَ، لا لعَدَمِ مشروعيته، لكنَّه يُفَوِّتُ عليهم الصلاة ، أمَّا مَثلا الذهاب لزيارَةِ القَبرِ يَختَلِفُ، الكَلامُ على الصَّلاةِ، مثلًا يَقولُ: الآنَ أذهَبُ إِلَى مَكَّةَ، لأُصلي على قبر الشيخ، هذا ممنوع، لأنَّه تَعلَّق القلب بالقبر، ، فيكفي في ذلك. ومثل ما جاءَ أو نُقِلَ الميتُ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ أيضًا مِمَّا يؤثر على جَنازَتِهِ، وَيُؤَثِّرُ عَلَى بَدَنِهِ ظهورُ الروائح أو فَسَادُ البَدَنِ أَيضًا هذا مُمتنع، وهو الَّذِي مَنَعَ منه السَّلَفُ

.ما الضَّابِط في المعاصي التي تُسَمَّى شِركًا، وَتَقدَحُ فِي التَّوحيد، وهل ثَمَّ رابط بينَ التَّوحيد والمعاصي

الجواب: هذا سؤال جَيْدٌ مِن الأسئِلَةِ التي يَجِبُ على كُلِّ طالب عِلمٍ أَنْ تَتَحَرَّر عنده هذه، أَوَّلًا لَفهمه ولعلمه، وثانِيًا لسلوكه، وعِبادَتِه لربه جل وعلا.فَمَعلومٌ أَنَّ أَوَّل وَاجِبٍ أو أوجَبَه الله جل وعلا على العِبادِ أنْ يُوحدوه ولا يُشركوا به شيئًا، وعلى هذا اجتمعت الرُّسُلُ، وأنزِلَتِ الكُتُبُ، ولهذا خَلَقَ الله جل وعلا الجَنَّةَ والنَّار.والتوحيد هو الفَرضُ فالعِبادُ خُلقوا ليُوحدوا الله جل وعلا، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات] يعني إلَّا لِيُوَحِّدونِ، وهذا التوحيد هو حَقٌّ الله جل وعلا على العبيد، التَّوحيد له مُكَمَّلات بتمامِها يَكمُلُ التَّوحيدُ وبنقصها يَنقُصُ توحيد العبد، وهذه المكَمَّلاتُ هي الفَرائِضُ الَّتِي فَرَضَ الله جل وعلا أداءها على العِبادِ والمحرَّماتُ التي نَهى الله جل وعلا العباد عنها، والمقصود بالمحَرَّماتِ المحَرَّماتُ غير الشركية. قال جل وعلا: وعلا: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَلِدَيْنِ إحسانا ﴾ [النساء : ٣٦]، وقال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا

حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) [الأنعام: ٥١]فالواجبات والمحَرَّماتُ تُذكَرُ في القُرآنِ مع توحيد الله جل وعلا.التوحيد إخلاص الدِّينِ للهِ جَلَّ وعلا، كُلَّما زادَ العَبدُ مِن الطَّاعَةِ عَظُمَ نُورُ التَّوحِيدِ فِي القَلبِ، وَكُلَّما أقبل على الذُّنوبِ والمعاصي دون استغفار ولا رُجوع، ولا توبَةٍ وَلَا نَدَمٍ كُلَّمَا ضَعُفَ التَّوحِيدُ فِي قَلْبِهِ، ولهذا فإنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ تُؤَثر، ولابد في توحيدِ العَبدِ وإخلاصه لكن هذا التأثير قد يكون في أصل التوحيد إذا كانت المعصِيَةً شِركًا أكبَر، وَقد يَكونُ التَّأْثِيرُ فِي كَمَالِ التَّوحيد الواجب، وقد يكون التأثيرُ في كَمالِ التَّوحيد الواجب، وقد يَكونُ التَّأْثِيرُ فِي كَمَالِ التَّوحِيدِ المستَحَب، بحسب الحال، بحَسَبِ وَضع العبد. **فكُلُّ طَاعَةٍ تُقَوِّي نور لا إله إلا الله في القَلب،** وَكُلُّ مَعصِيَة تُضعِفُ نورٌ لا إله إلَّا اللهُ في القَلبِ، ولهذا صارَتِ المعاصي من هذه الجهة لها مَساسٌ أو لها علاقة بالشرك، من جِهَةِ أَنَّ العَبدَ لَو كَمُل تَوحِيدُه لَمَا عَصَى اللَّهَ جَلَّ وعلا بالمعاصي المحَرَّمَةِ، لأنَّ المعاصي المحَرَّمَةَ والكَبَائِرَ هذه طَاعَةٌ للشَّيطان، وطاعة للهوى. والواجب على العبد أن ينهى النَّفْسَ عن الهَوى، وأنْ يُجاهِدَ نفسه في ذلك، فإذا أطاعَ الشَّيْطَانَ فَإِنَّ هذا نوع من التشريكِ به في الطَّاعَةِ، فلذلكَ المعصِيَةُ تُؤثر على التوحيد مِن جِهَةِ أَنَّ البَاعِثَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ كَانَ هو تشريك الشيطان أو هَوَى النَّفْسِ في هذا الفعل،وكذلك الطاعات الواجِبَةُ مِن هذا القبيل لهذا فَإِنَّنَا لا نُسَمِّي المعاصِي شِركًا. ولا أحد من أهل العلم يقول المعاصي شرك، ولكنَّ المعاصي والذُّنوبَ مِنها ما هو شرك، ومنها ما هو دون ذلك: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء :٤٨]، يعني مِن الذُّنوبِ، والمعاصي والذُّنوبُ إمَّا بترك واجب أو يفعل مُحَرَّمٍ مثل ما ذكَرتُ لكَ، لا تنتج إلا عن نوع تشريك، لكن لا يُسمي أهل العلم حصول المعصية بالشرك، بل هذا غَلط، ولكنَّ التَّعريف أو الشرح قد يَستَعمِلُونَ هذا الفظَ بِأنَّ المعْصِيَّة لا تحدثُ إلَّا بنوع تشريك أو بِطَاعَةِ غَيرِ اللهِ الَّذِي هو هَوَى النَّفْسِ أو الشيطان أو نحو ذلك. وهذا من باب البيان، لكن ليست من جهة التصنيف والتقسيم أنَّ المعاصي شرك، المعاصي هذه تُطلق على الذُّنوبِ العَمَلِيَّةِ المختلِفَة.أما إذا قيل : التَّوحيدُ والشِّركُ فيقصد به ما هو من التَّوحيد أصالة، وما هو من الشركِ أصالة. لهذا تَجِدُ أَنَّ كَلامَ ابن القيم فى المدارج والفوائد كُلُّه مُتَّفِقٌ فَقَولُه الأول: إِنَّ نور التَّوحيدِ يُبَدِّدُ ظُلُماتِ المعاصي، هذا حَقٌّ لأنَّ التَّوحيد إذا قَوِيَ فِي قَلبِ العَبدِ نَفى تشريك الهوى، والنَّفْسِ، والشَّيطان فِي الطَّاعَةِ بترك الواجب وفعل المحَرَّمِ، كُلَّما قَوِيَ نورُ التَّوحيد في القَلبِ بَدَّدَ ظُلُماتِ المعاصي، بل الإقبال عليه، والأنس به، والإقبال على نوره هذا يجعل العبد يكرَهُ الذَّنب، ويُكرَهُ المعْصِيَةَ حَتَّى ولو وَقَعَ فِيها، لو وَقَعَ فيها فإنَّه يُسْرِعُ، فَيَستَغفِرُ، فيكون أحيانًا وُقوعه في الذَّنبِ ثُمَّ استغفارُه أكمَلَ له مِن أَنَّه لو لم يَقَعْ، لأنه يكون حي بعد هذا الذَّنب أو بعد التفريق يَعرِفُ حَقَّ رَبِّهِ، ويَعرِفُ توحيده، ويُعرِفُ كيفَ أنَّه حَرَم نفسه نور التوحيد.

إذا سَبَّ الرَّجُلُ الدِّينَ، وهو لا يَعلَمُ الحكم عليه فهل يُعتبرُ كافِرًا أم لا؟

الجواب: سَبُّ الدِّينِ كُفر، إذا كانَ مِن مُسلِمٍ لأنَّ أصل الإسلام هو تعظيمُ الله جل وعلا، وتعظيم

رسوله ، وتعظيم كتابه، وتعظيم هذا الدين، والسَّبُّ يُنافِي التَّعظيم، الذي هو معنى دخوله في هذا الدِّينِ، فَسَبُّ الدِّينِ الذى هو دين الله وليس دين الشخص وطريقته وحكمه وأخلاقه ،فسب دين الإسلام كُفْرٌ لكن هل الساب للدِّينِ كَافِرُ إذا جَهِلَ هذا الأمر؟ هذا فيه تفصيل في ذلك، يعني في عِدَّةِ أقوال في ذلك: **القَولُ الأَوَّلُ** : أَنَّه يَكْفُرُ مُطلَقًا لأنَّ هذا مِمَّا يُعلَمُ بالضَّرُورَةِ، ولا يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ، هَذَا يُعتَبَرُ زَندَقَةً مِنه ولا يُستَابُ مِنه، ويَجِبُ أَنْ يؤدب. إذَا القَولُ الأَوَّلُ: أَنَّه يَكْفُرُ مُطلَقًا.

الثَّانِي: أَنَّه يُستَتَابُ مِن ذلك لأَنَّه قد يكونُ جَهِلَ، إذا كانَ النَّاسُ فِي وَقتِه يَدورُ عندَهم هذا اللَّفْظُ وَيَكونُ ينشأ على مثله، لأنه حينَئِذٍ لا يَكونُ يَعلَمُ أنَّ مِثلَ هَذا يَقدَحُ في أصل تعظيمه للدِّينِ، وهذا إذا كانَ سَبَّ دين الإسلام، هذا إذا كانَ سَبَّ أصل دين الإسلام، أمَّا إذا سَبَّ دينَ فُلانٍ، دينَ فُلانٍ مُقيَّدًا هذا لا يَكْفُرُ لأنَّه يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَقصِدُ تَدَيَّنَ هذا، تَدَيَّنَ المذكور مثلا واحِدٌ تَشاجَرَ مَع وَاحِدٍ فَسَبَّ دِينَهُ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يكون المقصودُ تَدينه أو دينه الذي هو عليه الذي أداه على مثل هذا وليس المقصود أصل دين الإسلام، ويُعذَرُ على هذا لأَنَّ هَذا جَرِيمَةٌ مِنه فلا يَجوزُ أَنْ يَسُبُّ مَن هو على دين الإسلام، ولو كان القصد تَدَيَنُه لأَنَّه يَنصَرِفُ إلى ذلك.

الْمَسْأَلَةُ الْخَمْسُونَ قَوْلُهُمْ: مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٩١]

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالْخَمْسُونَ، قَوْلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ: هَذَا قَوْلُ بَشَرٍ.وهاتان المسألتانِ مُتَّصِلتان بعضُهما البعضُ، حَيثُ أَنَّ فِي الأولى النَّفِي أَنْ يَكُونَ أُنزِلَ عَلَى مُحمد صلى الله عليه وسلم وَحَيٌّ مِنَ اللَّهِ جلَّ وعلا.والمسألة الحادية والخمسون إثباتُ أنَّ هذا الذي جاءَ به مُحَمَّدٌ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ أَنَّه قَولُ بَشَرٍ، وليس قول الله جل وعلا ولا كَلامَه المنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ. وبالكلام على المسألة الحادِيَةِ والخَمسينَ يَتَبَيَّنُ الكَلامُ على قَولِه: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شيئ [الأنعام: ٩١] و(قَوْلُهُمْ: هَذَا قَوْلُ بَشَرٍ.).

المشركون كان لهم مع القُرآنِ عِدَّةُ أقوال:

قالوا: هذا قول محمد صلى الله عليه وسلم

وقالت طائِفَةٌ مِنهم: هذا قَولُ رَجُلٍ آخَرَ كَانَ أَعْجَمِيًّا عِندَهُم فِي مَكَّة

وقالَ آخَرُونَ اجْتَمَعَ مُحَمَّدٌ وَقَوم آخرون على إنشاء هذا القُرآنِ، قال الله جل وعلا في سورَةِ المدَّثرِ : (فقال إن هَذَا إِلَّا سحر يؤثر، إن هَذَا إِلَّا قَولُ البشر ، سأصليهِ سَقَر) ، فبينَ أنَّ الوليد ابنَ المغيرةِ **يَقولُ**: إنَّ هذا قَولُ البَشَرِ، وهذه الآياتُ لها سَبَبُ نُزول، وهو أنَّ المشرِكينَ تَباحَثوا فِي شَأْنِ هَذَا القُرآنِ، فَقَالَ الوليد بن المغِيرَةِ أنا أكفيكم شَأنَ هذا القُرآنِ فَتَدَبَّر، فقال هو ليس بالشعر، وليس بالكهانة، وليس بكذا، وكذا، هذا سِحرٌ يُؤثر، وهو قول البَشَرِ، فَتَوَعَدَه اللهُ جَلَّ وعلا على هذه المقَالَةِ.

وقَالَ آخَرُونَ هَذَا عَلِمَهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِن مُجالَسَتِهِ رَجُلًا نَصرانيا كان يجلس عند الصفا أو عند المرور يُحَدِّثُه، وهو رومي، يعني ليس بذي لِسانٍ عَرَبِيٍّ، يعني رُبَّما جالسه فأخذوا هذه، **وقالوا**: إنَّه

يُجالِسُ بَعضَ مَن يَعلَمُ الكُتُبَ المتَقَدِّمَةَ، وَيَأْخُذُ مِنها. قالَ اللهُ جَلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ، بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِى مُّبِينٌ)[النحل]، قال جل وعلا:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفكٌ افتراهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمُ اخَرُونَ فَقَدْ جَاؤا ظَلْمًا وَزُورًا ، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيماً)الفرقان.فبَيَّنَ الله جل وعلا أنَّ مِنهم من قالَ: إنَّ هَذا قَولُ رَجُلٍ أَعجَمِي، كَانَ يُملي على مُحَمَّدٍ ، هم بلا شَكٍّ لم يكونوا مُقتَنِعِينَ أَنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذي أعجزهم، ولم يستطيعوا أَنْ يَأْتوا بمثله ولا بِمِثلِ عَشْرِ سُوَرٍ، ولا بمثل سورَةٍ أَنْ يَكُونَ قَولًا لَرَجُل رومي أعجمي ، لا يُفصِحُ، لكنهم يُرِيدُونَ أَنْ يَبْثُوا كَلامًا يُؤَثر في العامة حتى لا يُقبلوا على هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الكتاب. وكذلك قولهم أنَّه ليس قولَ مُحَمَّدٍ وَحدَه، ولكنه قوله، وقولُ آخَرِينَ اجْتَمَعُوا معه على إنشاء هذا القُرآنِ، كما قال جل وعلا (وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ أخَرُونَ)، يعني أنَّهم اجتمعوا على إنشاء هذا القُرآنِ. فهذه أقوال كانت عندهم رائجةً، في أنَّه قولُ البَشَرِ هَذا مَن هو ؟ على هو مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ وَالسَّلام، أم هو هذا الأعجَمِيُّ، أو جَمَاعَةٌ مِن النَّاسِ اجتمعوا على هذا النَّحو في ذلك. هذا بالنسبة للمُشرِكِينَ، مُشرِكِي العَرَبِ، أمَّا أهل الكِتابُ فإنَّهم يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الكِتابَ، وليسَ بِقَولِ محمد. قال جل وعلا:(وَالَّذِينَ آتَيْتَهُمُ الْكِتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَ هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأنعام] لا يُؤْمِنونَ به مع معرفتهم له، يعرفون لكن لا يُؤْمِنونَ ﴿ وَلَقَدْ نعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يقُولُونَ ﴾ [الحجر]، كان عليه الصَّلاة والسَّلامُ يَوَدُّ لو أنهم لا يقولون هذا، وأنَّهم يُؤْمِنونَ، لكن هيهات هيهات. **هذه الخصلة الجاهلية** كان لها الآثارُ البَعيدَةُ فِي ذلكَ الزَّمَنِ على الجاهِلِيّينَ، فَفَرقٌ كَبِيرٌ بينَ مَن يُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ شَيْئًا هو القُرآنُ، وأنَّ هذا القُرآنَ ليس بقولِ البَشَرِ، وأنَّه قَولُ اللَّهِ جَلَّ وعلا وَكَلامُه، وَتَنشَأُ عن هذا آثارٌ كَبِيرَةٌ، وهي طاعَةُ اللهِ جل وعلا بما أنزَلَ في هذا القُرآنِ وأنَّ ما في هذا القُرآنِ مِن كَلام على الغَيبِيَّاتِ حَقٌّ وَمِن كَلام على حَقٌّ الله جل وعلا، وحَقٌّ ومِن الكلام في الأخبار، والقِصَصِ حَقٌّ، وَأَنَّ ما فيه من أمرٍ ونَهي حَقٌّ، وَأَنَّ ما فيه من وعدٍ، وَوَعِيدِ حَقٌّ. فيلتزم بذلكَ وَيُطَاعُ ما جاءَ فِي هذا القُرآنِ؛ لأَنَّه كَلامُ اللهِ جَلَّ جَلاله، وتَقَدَّسَت أسماؤه فهو ليس بقول بَشَرٍ يُخطئ ويُصيب.بل هو قَولُ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ : أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك].وكانوا يَعلَمونَ أَنَّهم إذا اعتقدوا أعني أهل الإيمان – أنَّ هذا هو قَولُ اللهِ، وليسَ بِقَولِ البَشَرِ، أَنَّ هذا القُرآن هو الذي يُحكم به، فيما يختصمون فيه من أمور البيع والشراء، والنكاح، والكَفالَةِ والفُروج والعلاقات الاجتماعية، وفي أمور ما بينهم وبين أعدائهم، وما بينهم، وبين أنواعِ النَّاسِ في تَعامُلاتِهم، يُحَكِّمُ هذا القُرآنُ.فإذًا نتيجة كونه ليس بقولِ البَشَرِ، أَنَّه يُستسلم له الاستسلام الكامل، ويُؤْمَنُ به دونَ تَرَدُّد. وأمَّا المشركونَ والكِتابِيُّونَ، فإنَّهم إذ قالوا: إنَّه لَقَولُ البَشَرِ، أو قالوا: إنَّه أساطِيرُ الأَوَّلِينَ، أو قالوا: إنَّه أملي عليه، وأعانه عليه قوم آخرون. هذا ينتج منه أنَّ ما فيه مِن التَّوحيد، وإبطالِ عِبادَةِ غَيرِ اللهِ، هَذَا رَأيٌ، رَأي مُحَمَّدٍ، وَأَنَّ مَا فِيه مِن الحَلالِ والحَرَامِ هَذا رَأي مُحَمَّدِ ، بحَسَبِ كَلامِهم،

وأن ما فيه مِن بَيانِ الغَيبِ، والبعث والنشور، أنَّ هذا كَلامُ مُحَمَّدِ بن عَبدِ اللهِ القُرَشِي، وأنه... أنه....
إذًا يَنتُجُ مِن هذا النفي أن لا يطاع ما في هذا القُرآنِ وأنْ لا يُتَّبَعَ لأنَّ الفَاصِلَ ما بين الإيمان به، وعَدَمِ الإيمان به هو جَوابُ هذا السؤالِ العَظيمِ: هذا هو القُرآنُ قَولُ مَن ؟ كَلامُ مَن؟ فَإِذَا آمَنَ العَبَدُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ جلَّ وعلا، وهو قول الله جل وعلا الَّذي نَزَّلَه على عبده، فإنَّه حينَئِذٍ تَكونُ مَسَألَةٌ مُختَلِفَةٌ تمامًا، فحينَئِذٍ ليسَ ثُمَّ خَيارٌ ، هذا كَلامُ الله جَلَّ جَلاله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ: أَمْرًا أَن يَكُونَ لهمُ الخيرةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحـ زاب : ٣٦]، (أَفَحُكْمَ الْجَاهلَيةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [المائدة]، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام: ١١٥].(يس والقران الحكيم) وصف الله جل وعلا القُرآنَ بأنَّه حَكيمٌ وأَقسَمَ بِهِ لِعُلُو شَأْنِهِ صفه اللَّهِ وهو كلامه، ومعنى كَونِ القُرآنِ حَكيمًا أَنَّه أولا حَكيمٌ بمَعنى مُحكَمٌ لَو رَدَّ الإنسان، وتأمل، فإنَّه لن يجد فيه ما يُنتَقَدُ، إذا عَقَلَ الإنسانُ كَانَ ذَا عِلم: (الر كتَبُ أَحْكَتْ آياته ثُمَّ فَصَلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود].وَالْقُرْء ان الحكيم ، الحكيم هنا بمعنى حاكم، يعني أَنَّه أَنزَلَه اللَّهُ جَلَّ وعلا للحكم به، لا لِيُتَعَبَّدَ بتلاوته دون تحكيمه فهو حكيم، بمعنى حاكم، فعيل بمعنى فاعل، وهذا ما وَصفَ اللَّهُ بِهِ القُرآنَ فِي قَولِهِ تعالى في سورة المائِدَةِ: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، يعني مُهيمنا على الكُتُبِ السالفة وَالسَّابِقَةِ وحاكمًا، وأيضًا هذا القُرآنُ حاكم فيما يَختَلِفُ فيه النَّاسُ، إذا اختَلَفُ النَّاسُ فِي العَقيدَةِ فيرجعون إلى القُرآن، إذا اختَلَفَ النَّاسُ فِي الغَيبِيَّاتِ، يَرجعون إلى القُرآنِ إذا اختلفوا في الإيمان يرجعون إلى القُرآن، اختلفوا في القَدْرِ يَرجِعونَ إِلَى القُرآنِ اختلفوا فيما يَتَعَامَلُونَ بِهِ، يَرجِعونَ إِلَى القُرآنِ.ففيه الحَقُّ، والسُّنَّة بيان للقُرآنِ، لأنَّها الحِكمَةُ الَّتي أَنزَلَهَا الله جل وعلا على محمد صلى الله عليه وسلم ،المعنى الأخير، ﴿ وَالْقُرْءِ ان الحكيم) ، يعني أنَّ فيه الحِكمَةَ، حَكيمٌ مِن الحِكمَةِ لأَنه موصوفٌ بالحكمة، ولماذا صار هذا الكلامُ حَكيمًا؟ لأنَّه من عند الحكيم، وهو الله هل هو الموصوف بالحكمة، ولذلك كانَ كَلامُه حَكيمًا، هذا من أسبابٍ جَعَلَ مَسَألَةِ الحِكمَةِ، المسألَةِ الَّتِي بعد هذا؛ أنَّه مَن أنكَرَ أَنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، فَإِنَّهُ سَيُنكِرُ الحِكمَةَ، فإثباتُ الحِكمَةِ، لإثباتِ أنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ هو إثبات لحِكمَةِ اللَّهِ جل وعلا. إذا تبين لك ذلك فهذه الخصلة عند أهل الجاهِلِيَّةِ الَّتي أرادوا منها فِي نَفيِ القُرآنِ أَنْ يَنفوا الإيمان بمُحمَّد صلى الله عليه وسلم، وأرادوا منها أن ينفوا تحكيم هذا القُرآنِ وأرادوا منها أن ينفوا أَحَقِّيَّةَ هَذَا القُرآنِ بِالطَّاعَةِ، هذه الخَصْلَةُ لم تَأْتِ كامِلَةً في هذه الأمة، ولكنْ جاءَ في هذه الأمة بعض هذه الصفاتِ الَّتِي فِي المشرِكِينَ، لم يَقصِدُ أَحَدٌ في هَذهِ الأُمَّةِ أَنْ يَنفِي أنْ يَكونَ القُرآنُ مِن قَولِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بِأَنْ يَعْنِي أَنَّ مُحَمَّدًا لَيسَ بصادِقٍ، ولكنْ فَشا في هذه الأمة القول بأنَّ هذا القُرآنَ ليسَ قَولَ الله جل وعلا، ولكنه قول جبريل، أو هو مخلوقٌ سُمِّيَ كَلامَ اللَّهِ، وَسُمِّيَ القُرآنَ، فَذَهَبَت المعتَزِلَةُ إلى أنَّ القُرآنَ هَذَا الَّذي بين أيدينا هو مخلوق مُستَقِلُ، ليسَ صِفَةَ الله جل وعلا، وليس بكلامه، ويُضافُ إليه بأنه قولُ اللَّهِ، وَكَلامُ اللهِ تَشريفًا له وتمييزا له، بأنَّه لا يُضاف إلى أحد، بل هو الله جل وعلا تشريفا وتكريما هذه لها آثارُ وَخيمةٌ لكنهم لا يَلْتَزِمُونَهَا؛ لكن لها آثارٌ وَخيمةٌ

تُشبه أو فيها بعضُ ما عند أهل الجاهلية. والأَشاعِرَةُ تَبَعًا للكلابيَّة، قالوا: إنَّ القُرآنَ هو دِلالَةٌ على كَلامِ اللَّهِ، أَو حِكَايَةٌ عَن كَلامِ اللَّهِ، أَو أَنَّ القُرآنَ هو معنى، المعنى النَّفْسِي، أو المعنى القائم في النَّفْسِ أُلقِي في رَوعِ جبريل، فَجِبريلُ عَبَّر عنه، وهذا التعبير عن كلام الله وهو القرآن، أو أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم عَبَّر عنه، وصارَ هذا التعبير هو كَلامَ مُحَمَّدٍ . أو يقولُ طَائِفَةٌ مِنهم: إنَّ هذا الكلام لم يتكلم به الله جل وعلا، وإنَّما أَخَذَه جبريلُ مِن اللوح المحفوظ، فنَزَلَ به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فإذا أمره الله جل وعلا أنْ يقرأ شَيْئًا عَلَى مُحَمَّدٍ مِن هَذَا القُرآنِ فَإِنَّه ينظر فيه جبريل، فينزل بما هو مكتوبٌ. هذه كُلُّها فيها نَفي أن يكون هذا القُرآنُ هو كَلامَ الله جل وعلا، وفيها إثباتُ أَنَّ هَذَا القُرآنَ هو كَلامٌ، هو قول جبريل أو تعبير جبريل أو نحو ذلك من الأقوال. **ومن العجيب أن صَرَّحَ بعضُهم بأنَّه هناكَ قُرآنَانِ:**

أَمَّا الأَوَّلُ ما كانَ في الأزل، فهذا الكلامُ هُوَ كَلامُ اللهِ جَلَّ وعلا.وأمَّا هو في الحاضِرِ الَّذي نَزَلَ على مُحَمَّدٍ ، فَإِنَّ هذا هو قَولُ جِبريل أو عِبَارَةٌ عَن كَلامِ اللَّهِ أَخَذَهَا جبريل عليه السلام.

فِئَةٌ ثانِيَةٌ، أيضًا من أهل الإسلام والعَرَبِ تَبعوا فيها أهل الاستشراق، وَصَفوا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم بِأَنَّهُ عَبْقَري، والمستشرقون يعنون حينَ قَرَّرُوا، وأكدوا على عَبْقَرِيَّةِ مُحَمَّدٍ على أَنَّهُ أَتِي بِشَيْءٍ غَيْرَ بِهِ العَرَب، أتى هو بِشَيْءٍ غَيْرَ بِهِ العَرَب فَوَصَفوهُ بالعَبقَرِيَّةِ، ووَصَفوهُ بالذَّكاء الخارِقِ، وَوَصفوه لِيَصُدُّوا النَّاسَ أَنْ يُقالَ: إنَّ ما أتى به هو من عندِ اللهِ، وَأَنَّه رَسولُ اللَّهِ، فيجب التحذير حِينَ نَسْمَعُ مِن يغالي في وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالعَبقَرِيَّةِ، النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم هُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ خُلُقًا، وخلقا عليه السلام، وتشريفا، وهو أعطاه الله جل وعلا من الصفاتِ مَا كَمُل به، صِفاتُه البَشَرِيَّةُ بما في ذلك الذكاء والعَبقَرِيَّةُ ، وغَيْرُها من الصفات، لكن ما جاءَ به ليس ناتجا عن هذا، بل هو وحي يُوحَى (إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم)، هذا حصرٌ إن هو إلا وحي يُوحَى (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، .وإذا تبيَّنَ ذلك، فهناك كثيرون في هذا الزَّمَن لم يُصَرِّحوا بأنَّ هذا القُرآنَ أَنَّه قَولُ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم أو قول النَّاسِ معه اجتمعوا على ذلك، ولكنهم يحومون حول هذه الأقوال بعباراتٍ مُختلِفَةٍ تارَةً، يقولونَ: إنَّه عَبْقَرِيٌّ أَتى بهذا القُرآنِ، وتارَةً يَقولونَ: إنَّه استطاع أن يُنظم ما عندَ النَّصارى، واليهود والرُّومان من تشريعات وأخبار في هذا القرآن أو في التشريع الإسلامي، فى طعونات مبطنة لهدم الإسلام .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالخَمْسُونَ: القَدْحُ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ جَلَّ وعلا. مِنْ خِصالِ الجاهلية:

القَدْحُ في حِكْمَتِهِ تَعالى، وأنَّهُ لَيْسَ بحَكيمٍ في خَلقِهِ. بمعنى أنه سُبحانَه يَخْلُقُ ما لا حِكْمَةَ لَهُ فيهِ، وَيَأمُرُ وَيَنْهى بما لا حِكْمَةَ فيهِ. وقد حَكى الله تَعالى ذَلِكَ بقولهِ في سورةِ [ص: 27] : {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: 27] وَقَالَ سُبحانَه في سورةِ [المؤمنين: 115-116] : {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ - فَتَعَالَى اللَّهُ

الْمَلِكُ الْحَقُّ} [المؤمنون: 115 – 116] وفي سورةِ [الدُّخانِ: 38–39] ، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ – مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الدخان: 38 – 39] وفي سورةِ [الأنبياءِ: 16–17] ، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ – لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: 16 – 17] وفي سورةِ [الحِجْرِ: 85] {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر: 85] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ النَّاصَّةِ على أنَّ الله تَعالى لَم يَخْلُقْ شَيْئًا مِن غيرِ حِكمةٍ وَلا عِلَّة، عَلى خِلافِ ما يَعْتَقِدُهُ أهلُ الباطِلِ مِنَ الجاهِلِينَ، وَمَن نَحا نَحْوَهُمْ مِن هذِهِ الأمَّةِ مِمَّنْ نَفى الحِكمةَ عَن أفعالِهِ سبحانه وتعالى. وهَذِهِ مَسألةٌ طويلةُ الذَّيلِ، قَدْ كَثُرَ فيها الخِصامُ بَيْنَ فِرَق المسلِمينَ، والحقُّ ما كانَ عَلَيه السَّلَفُ مِن إثبات الحِكمةِ والتَّعليلِ. وقدْ أطْنَبَ الكلامَ عليها الحافِظُ ابنُ القَيِّم في كِتابِه (شِفاءِ العليلِ في مسائلِ القَضاءِ والقَدَرِ والحِكْمَة والتَّعْليلِ) وَعَقَدَ بابًا مُفَصَّلا في طُرُقِ إثباتِ حِكمة الرَّبِّ تَعالى في خَلْقِهِ وَأمْرِهِ، وإثباتِ الغاياتِ المطلوبةِ والعواقِب الحَميدَةِ الَّتي فَعَلَ وَأَمَرَ لأجلِها.ومِن جُملةِ ما قالَ في هذا البابِ: إنه سبحانه وتعالى أنكَرَ على مَن زَعَمَ أنَّه لم يخلُقِ الخَلْقَ لِغايةٍ ولا لحِكمةٍ، كَقَولِهِ: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا} [المؤمنون: 115] وَقولِهِ: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ – مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [الدخان: 38 – 39] والحَقُّ: هو الحِكَمُ والغاياتُ المحمودةُ، التي لأجلِها خَلَقَ ذَلِكَ كُلَّهُ وهو أنواعٌ كثيرةٌ **منها** أنْ يُعْرَفَ اللهُ بأسمائِهِ، وصِفاتِهِ، وأفعالِهِ، وآياتِهِ. **ومِنها**: أنْ يُحَبَّ، وَيُعْبَدَ، وَيُشْكَرَ، ويُطاعَ **ومِنها**: أنْ يأمُرَ، وَيَنْهى، وَيُشَرِّعَ الشَّرائِعَ. **ومِنها**: أنْ يُدَبِّرَ الأمرَ، ويُبْرِمَ القَضاء، وَيَتَصَرَّفَ في المَمْلَكَة بأنواعِ التَّصَرُّفاتِ. **ومِنها**: أنْ يثيبَ ويُعاقِبَ، فَيُجازِيَ المحْسِنَ بإحْسانِهِ، والمسيءَ بإساءَتِهِ، فَيَكونَ أثَرُ عَدْلِهِ وفَضْلِهِ موجودًا مُشاهَدًا، فَيُحْمَدَ على ذَلِكَ ويُشْكَرَ.

ومِنها: أنْ يُعْلِمَ خَلْقَهُ أنه لا إلهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِواهُ. **ومِنها**: أنْ يَصْدُقَ الصَّادِقُ فَيُكْرِمَهُ، وَيَكْذِبَ الكاذِبُ فَيُهينَهُ.

ومِنْها: ظُهُورُ آثارِ أسْمائِهِ وَصِفاتِهِ عَلى تنوُّعِها وكَثرتِها في الوُجودِ الذِّهْنِيَ والخارجي، فيعلم عباده ذلك علمًا مطابقًا لما في الواقع. **ومِنْها**: شَهادةُ مَخلوقاتِهِ كُلِّها بأنه وَحْدَهُ ربها وَفاطِرُها ومَليكُها، وأنه وَحْدَهُ إِلهُها ومَعْبودُها. **ومِنْها**: ظُهورُ آثارِ كَمالِهِ المقَدَّسِ، فإنَّ الخَلْقَ والصُّنْعَ لازِمُ كَمالِهِ، فإنَّه حَيٌّ قديرٌ، ومَن كانَ كَذَلِكَ لم يَكُنْ إلا فاعِلا مُختارا. ومِنها أنْ يُظْهِرَ أثَرَ حكمتِهِ في المخلوقاتِ بوضعِ كُلٍّ مِنها في مَوضِعِهِ الذي يَليقُ بِهِ، ومَجيئِهِ على الوجهِ الذي تَشْهَدُ العُقولُ والفطرُ بِحُسْنِهِ، فتشهَدَ حِكْمَتُهُ الباهِرة **ومِنها**: أنَّه سُبحانه يُحِبُّ أنْ يجودَ ويُنْعِمَ ويَعْفُوَ وَيَغْفِرَ وَيُسامِحَ، ولا بُدَّ مَن لوازِمِ ذَلِكَ خَلْقًا وشَرْعًا.

ومِنها: أنَّه يُحِبُّ أنْ يُثْنى عَلَيْهِ، ويُمْدَحَ ويُمَجَّدَ، وَيُسَبَّحَ وَيُعَظَّمَ **ومِنها**: كثرةُ شواهدِ رُبوبيتِهِ وَوَحْدانِيتِهِ وَإلهيتِه. إلى غير ذلكَ من الحِكمِ التي تَضَمَّنَها الخَلْقُ، فَخَلَقَ مَخلوقاتِهِ بِسببِ الحَقِّ. ولأجْلِ الحَقِّ، وَخَلْقُها

مُلْتَبِس بالحَقِّ، وهو في نفسِهِ حَقٌ: فَمَصْدَرُهُ حَقٌّ، وغاياتُه حَقٌّ، وهو يَتَضَمَّنُ الحَقَّ. وقَدْ أثنى على عِبادِهِ المؤمنينَ حَيْثُ نَزَّهوهُ عنْ إيجادِ الخَلْقِ، لا لِشَيْءٍ ولا لِغاية، فَقَالَ تَعالى [آل عمران: 190- 191] :

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ - الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ} [آل عمران: 190 - 191] وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا ظَنُّ أعدائِهِ، لا ظَنُّ أوليائِهِ فقال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [ص: 27] وكيفَ يَتَوَهَّمُ أنَّه عَرَفَهُ مَن يقولُ: إنَّه لم يَخلقِ لِحكمةٍ مطلوبة لَه، ولا أمَر لِحكمةٍ، ولا نَهى لِحكمةٍ، وإنَّما يَصدُرُ الخَلْقُ والأمرُ عن مشيئةٍ وقُدْرَةٍ مَحْضَةٍ، لا لِحكمةٍ ولا لِغاية مقصودةٍ. وهلْ هذا إلا إنكارٌ لحقيقة حَمْده بَل الخَلْقُ والأمرُ إنَّما قامَ بالحكمِ والغاياتِ، فَهُما مَظْهَرانِ لِحمده وحِكمتِهِ. فإنكارُ الحكمةِ إنكارٌ لِحَقيقةِ خَلْقِهِ وأمرِهِ، فإنَّ الذي أثبَتَهُ المنْكِرونَ مِن ذَلِكَ لنَزَّهُ عنه الرَّبُّ، ويَتَعالى عَن نسبتِهِ إليهِ، فإنَّهم أثْبَتوا خَلْقًا وَأمرًا لا رَحْمَةَ فيهِ ولا مَصْلَحَةَ ولا حِكمةَ، بَلْ يَجوزُ عِنْدَهُم أو يَقَعُ أنْ يَأمرَ بِما لا مَصلحةَ لِلْمُكَلَّفِ فيه ألبتة، ويَنْهى عَمَّا فيه مَصلحة، والجميعُ بالنِّسبة إليه سواءٌ ويَجوزُ عِندَهم أنْ يَأْمُرَ بِكُلِّ ما نَهى عَنه، وَيَنْهَى عن جَميعِ ما أمَرَ بِهِ، ولا فَرْقَ بَيْنَ هذا وهذَا إلا بِمُجَرَّدِ الأمْرِ والنَّهْي.

وَيَجوزُ عِندَهم أنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَم يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَينٍ، ويثيبَ مَن عصَاهُ بلْ أفْنى عُمُرَهُ في الكُفْرِ بِهِ والشِّرْكِ والظلْمِ والفُجورِ، فَلَا سَبيلَ إلى أنْ يُعْرَفَ خِلافُ ذلِكَ منه إلا بِخَبَرِ الرَّسول، وإلا فهو جائزٌ عليهِ. وَهَذَا مِن أقْبَحِ الظَّنِّ وأسوئِهِ بالرَّبِّ سُبحانَه، وَتنزيهُهُ عَنْهُ كَتنزيهِهِ عن الظلْمِ والجَوْرِ، بَلْ هذا هو عَيْنُ الظلْمِ الَّذِي يَتَعالى الله عَنْهُ. والعَجَبُ العُجابُ أنَّ كَثيرًا مِن أربابِ هَذَا المذْهَبِ ينزِّهونَه عَمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَه مِن صِفاتِ الكَمالِ ونُعوتِ الجَلالِ، ويزعمون أن إثباتَها تجسيمٌ وتشبيهٌ، ولا ينزِّهونه عن هذا الظلم والجَوْرِ، ويَزْعُمونَ أنه عَدْل وَحَقّ، وأنَّ التَّوْحيدَ عِندَهُم لا يَتِمُّ إلا بِهِ، كما لا يتِمُّ إلا بإنكارِ اسْتِوائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وعُلُوِّهِ فَوْقَ سَماواتِه، وتكَلُّمِهِ وتكليمِهِ، وصِفاتِ كمالِه فلا يَتِمُّ التَّوحيدُ عند هذهِ الطَّائِفةِ إلا بِهَذَا النَّفْيِ وذَلِكَ الإثْباتِ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ. انتهى المقصودُ من نَقْلِهِ، وتَمامُ الكلامِ في هذا البابِ من ذَلِكَ الكِتابِ (شفاء العليل لابن القيم رحمه الله) وإليه سُبحانَه المآبُ.

(الْقَدْحُ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ)، معناه عَدَمُ الإيمان بأنَّ الله جل وعلا يُجري الأمور على حِكمَةٍ، يَخْلُقُ لِحِكمَةٍ، يَكونُ أمره ونهيه لحكمة يُرْسِلُ الرُّسُلَ لِحِكمَةٍ، تَكون أفعاله لِحِكمَةٍ، فَعَدَمُ الإيمَانِ بذلك هذا قدح في الحِكمَةِ، يعني في أنَّ اللهَ لَيسَ مُتَّصِفًا بِالحِكمَةِ أصلا. **والنوع الثاني هو** أن يُقالَ يَفعَلُ، وفيه حكمةٌ لكنَّ هذه الحكمة ليست بالِغَةً، وإنَّما هي ناقصة، ليست بِجَيْدَةٍ بل هي سَيِّئَة أو نحو ذلك كما كانَ يَعتَقِدُ أهل الجاهلية. وفي القُرآنِ إثباتُ حِكمَةِ اللهِ جَلَّ وعلا بأنواعٍ كَثيرَةٍ يَضيقُ المِقامُ عَن ذِكرها ، قد عَدَّ مِنْهَا العَلَامَةُ ابْنُ القيم رحمه الله تعالى في كتابه «شفاء العليل، عدَّ مِنها اثنين وعشرينَ نَوعًا من الأَدِلَّةِ، لَيسَ

دَليلًا، نَوعًا مِن الأدِلَّةِ أَحَدُ الأنواعِ يَكونُ فيه عَشَرَةُ أَدِلَّةٍ مِن القُرآنِ أو أكثرُ وبَعضُ الأنواع فيه ثلاثونَ، أربعونَ كُلُّها في إثباتُ حِكمَةِ الله جل وعلا(كما سبق من كلامه رحمه الله)في شفاء العليل.

وإثبات الحِكمَةِ عَلَى نَوعَينِ يَعْنِي فِي الأَدِلَّةِ:

إثباتُ الحِكمَةِ في الكونيّات، يَعني في خَلقِ اللَّهِ الكَونِيَّاتِ.

والنوع الثاني: **إثباتُ الحِكمَةِ فِي الشَّرعِيَّاتِ**، يعني في كلام الله جل وعلا وكَلامِ رَسولِه، في القُرآنِ والسُّنَّةِ.فمِن الأَوَّلِ سَنَذكُرُ أُمثلَة لهَدَينِ النَّوعَينِ، والأنواع اثنان وعشرون، هذه تُراجِعونَها في كلام ابنِ القَيِّمِ رحمه الله .

النوع الأول: في الكونيَّاتِ قال الله جل وعلا: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)) [ص]، وقال جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ [الأنبياء] ما خَلَقْناهُما إلّا بالحَقّ. قال جل وعلا في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءِ وَالْأَرْضَ وَمَا بيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَن تَتَّخِذَ فَوا لَّاتَّخَذْتَهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَتَعِلِينَ) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء]. فبَيَّنَ الله جل وعلا أنَّه في الكونيَّاتِ جَعَلَ خَلَقَ السَّمَاءِ والأرضِ الَّذِي هُوَ أَعظَمُ خَلْقٍ جَعَلَهُ لحَكِمَةٍ، ثُمَّ قال في خَلقِ المكَلَّفين الجن والإنس : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] هذه هي الحكمة، هكذا فنفى عن نفسه جل وعلا الباطل، والعبث في خَلقِ السَّمَواتِ والأَرضِ أو في خَلقِ المكلفين من الجن والإنس.

النوع الثاني: في الشَّرعِيَّات. قال جل وعلا: ﴿ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء : ٢٨] ، ويُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ المشر، وقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوَةٌ يَتأُولِي الألباب ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ونحو ذلكَ فبَيَّنَ أَنَّ التشريعات في الأحكامِ مُعلَّلة، والكونيَّاتِ فيما خَلَقَ اللهُ تعالى، مُعَلَّلَةٌ، وَمَا أَنزَلَ مُعَلَّل أيضًا لحِكمَةٍ، يَعلَمُها الله

الحكمة: هي وضع الأمور في مَواضِعِها اللّائِقَةِ بها الموافِقة للغايات المحمودَةِ مِنها، فَوَضعُ اللَّهِ جَلَّ وعلا الأمور الكونية في مواضعها لتوافق الغاية المحمودة مِن خَلقها منها، هذه هي الحِكمَةُ، وَوَصَفَ اللَّهُ جل وعلا حكمته فيما خلق، وفيما شرع بأنها بالغة، قال: ﴿حِكْمَةُ بالغة فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) القمر ، وهذا يَدلُّ على أنَّ المشركِينَ فيما ظَنُّوه بأنَّ خَلَقَ الله باطِلٌ، وَأَنَّ مَا أَنزَلَ بَاطِلٌ، وَأَنَّه لاحكمة له في ذلك كله. أَنَّ ذلكَ إنَّما هو نَفي لحِكمَةِ اللهِ جَلَّ وعلا، وقدح في ذلك. ذَكَرتُ لكَ أَنَّ المشْرِكِينَ مِنهم مَن لا يُؤْمِنُ بالحكمة أصلا، ومنهم مَن يَقولُ، يُثْبِتُ الحِكمَةِ، ولكنَّ يَقدَحُ فيها، يقدح في علم اللهِ، يَقدَحُ في حِكمَةِ اللهِ يَقدَحُ فِي حُسنِ ما أراده الله جل وعلا. أمَّا في الإسلام طبعا أنواع ما قَدَحَ المشركونَ في حِكمَةِ الله جل وعلا طويلة، حِكمَةٌ مِن انتصار المشركين على المسلِمينَ، الحكمة من كون هناك أغنياء وفقراء،

الحِكمَةُ بِأَنْ يَكُونُ الرَّسُولَ مِن قُرَيشٍ، وليس من غيرهم، يعني هذه أشياء قدح فيها. والله جل وعلا أعلَمُ حَيثُ يَجْعَلُ رِسالته، تفاصيل ذلك لا يهمنا، تُطلبُ مِن مَوطِنِها هذا في هذهِ الأُمَّةِ، دَخَلَ هذا دخولا واسعًا جِدًّا لأَنَّ الشَّيطانَ يَهوى التشكيك، لأنَّ المؤمِنَ لا يُمكِنُ أَنْ يَنفِيَ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ جَلَّ وعلا، ولكن في التشكيك.

وعامَّةُ المسلِمينَ قَلَّ مِنهم مَن تَرَاهُ سالِمًا مِن القدح في حِكمَةِ اللهِ جَلَّ وعلا مِن جِهَةِ أَنَّهُ يَنظُرُ إِلَى الْغَنِيِّ في غِناه ويَنظُرُ إلى فقره هو، مريضٌ يَنظُرُ إلى حالِ الصَّحيحِ المعاف وَهَذَا مَرِيضٌ يَنظُرُ إِلَى هَذَا وُلِدَ بِعَاهَةٍ وآخرونَ وُلِدوا بغيرِ عَاهَةٍ فَيَجِدُ في نَفْسِه، فلا يَجِدُ مَخْرَجًا مِن هَذَا الَّذِي فِي نَفْسِهِ مِن تَنَوُّعِ مَا يَحصُلُ إِلَّا أن يقول: الأمورُ بِغَيرِ حِكمة، والله جل وعلا يفعل إذا كانَ مُؤمِنًا يَفعل ما له حِكمَةٌ في هذه الأشياء، وحَصَلَ هذا، وهذا تَأْذَى، وهذا لم يتَأَذَّ، والله جل وعلا بيَّنَ لنا الحكمة في هذا الأمر في قوله جلَّ وعلا في سورَةِ الفُرقانِ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان] والصبر من الدِّينِ بِمَنزِلَةِ الرَّأْسِ مِن الجَسَدِ. والإيمانُ نِصفانِ، نِصف صبر، ونصف شكر. فالصبر أساس في الديانة أساس في التَّعَبدِ، فمن لم يصبر على ما يَرَاهُ مِن أحوالٍ، فَإِنَّه حينَئِذٍ كَيفَ يَصْبِرُ على مُحَرَّمٍ؟، كيفَ يَصبِرُ على طاعَةٍ؟، كيفَ يصبر على أوامر الله جل وعلا الأخرى، فالأساس التسليم ،والاستسلام في القُلوبِ والسُّلوكِ أساسه أنْ يكونَ العَبدُ مُوقِنًا بِحِكمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُه. فَحِينَئِذٍ مَن فَتَشَ نَفسَه وَجَدَ أَنَّه قَلَّ في أهل الإسلام مَن يَسلَمُ مِن شَيءٍ في نفسه، يقول له: هذا ليس فيه حِكمَةٌ، وَتَجِدُ أَنَّ كَثِيرِينَ يَستَعمِلُونَ مِثلَ العِبارَةِ الَّتِي يَستَعمِلُها الجُهَّالُ فِي فُلانٍ مِنَ النَّاسِ أَصابَه شَيءٌ مِن عند الله جل وعلا موتٌ أو فقر أو مرضٌ يَقولونَ: والله فُلانٌ هذا ما يستحق هذا الذي حدث له ، ما يستحق، يعني ليس أهلا لهذا الذي أصابه من الذي قَدَّرَ الله عليه، هو الله جل وعلا، إذا كانَ اللهُ جَلَّ وعلا قدر عليه فهو خير له وعليه الرضا والتسليم لأقدار الله تعالى واليقين أنها خير له في دينه ودنياه وهذا معنى الايمان بالقدر والحكمة.

ما الفرق بين الحلولية وأهل الاتحادِ؟

الجواب: الحلولية شَيء، والاتحادِيَّةُ شَيءٌ آخَرُ ، وقد يكونُ مِن النَّاسِ مَن يَقولُ بالحلول والاتحادِ جميعًا، وهم متشابهون. والفَرقُ بينهما أنَّ **أهل الاتِّحادِ يَقولونَ**: إنَّ هناكَ شَيئَين مُنفَصِلينِ اتَّحَدا فصارا شَيْئًا وَاحِدًا، وَإِذا صَارَ شَيْئًا وَاحِدًا فَإِنَّه لا يقبل الانفصال، يعني اتَّحد هذا وهذا فصارًا شَيئًا وَاحِدًا؛ **أَمَّا الحُلولِيَّةُ فهو أَن يَحُلَّ شَيءٌ فِي شَيءٍ**، وإذا حَلَّ فيه صارَ يُمثله، مثاله الاتحاد يقولون: اتَّحَدَ اللاهوتُ بالنَّاسوت.اللاهوت هو أقنوم الإله، والناسوت هو العُنصُرُ الإنسِي، فإذا اتَّحد هذا بهذا صَارَ النَّاسوتُ إِلَهًا مِثلَ مَا قالوا عن عيسى عليه السلام. الحلولُ أَنْ يَحِلَّ فيه لزمَنٍ، لظرف، لشَيءٍ، ثُمَّ يَنفصل عنه، فهو حَالٌ لكنَّه قد يَنفَصِلُ عنه لسَبَبٍ مِن الأسباب، ولهذا الحلولية والاتحادِيَّةُ يَتَشابَهَانِ. والحلول حلول عام،

وحلول خاص عند أهله.والاتحاد أيضا عندهم اتحاد عام واتحاد خاص. والَّذِينَ يَقولونَ بالحلول العام هؤلاء أكثر وهو الذي يُنسب إليهم ويُؤَدِّي كَلَامُهم إِلَيْهِ مَن يَقولُ: إنَّ اللَّهَ حال في كُلِّ مكان، أو حلول خاص، حلول خاص يعني في بعض المخلوقات.

أمَّا الاتحاد فإنَّه في بعض الأزمنة والأمكنة بحسب الحال دون اتحادِ عام، وقد يكون عاما عندهم المقصود أن هؤلاء بينهم تشابه في ذلك لكنَّ الحَقيقة مُنفَصِلَةٌ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَالْخَمْسُونَ إِعْمَالُ الْحِيلِ الْخَفِيَّةِ وَالظَّاهِرَةِ فِي دَفْعِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:٥٤] وَقَوْلِهِ (﴿وَقَالَت طَّآيِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ 72﴾ (آل عمران)

وقوله تعالى : {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران: 71] وفي المرادِ أقوال: أحَدُها: أنَّ المرادَ تحريفُهُم التّورَاةَ والإنجيلَ. ثانيها: أنَّ المرادَ إظهارُهُم الإسلامَ، وإبطانُهُم النِّفاقَ. ثالِثُها: أن المرادَ الإيمانُ بِموسى وَعِيسى، والكُفرُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. وَرابعُها: أنَّ المرادَ ما يَعْلَمونَه في قُلوبِهِم مِن حَقيقةِ رِسالتِه صلى الله عليه وسلم، وما يُظْهِرونَه مِن تكْذيبِهِ.

الرَّابِعَةُ وَالْخَمْسُونَ الْإِقْرَارُ بِالْحَقِّ لِيَتَوَصلُوا بِهِ إِلَى دَفْعِهِ.

مِن المسائِلِ الَّتِي خالف فيها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية (إِعْمَالُ الْحِيلِ الْخَفِيَّةِ وَالظَّاهِرَةِ فِي دَفْعِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ)، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكتب امِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا اخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)) هذه الخَصْلَةُ والصِّفَةُ يَشتَرِكُ فيها كُلُّ مَن يُرِيدُ دَفعَ الحَقِّ ومُحارَبَتْه مِن أعداء الرُّسُلِ، ومن أعداء أتباعهم منذُ خَلَقَ الله جل وعلا هذه العَداوَةِ إلى يومنا؛ بل إلى أنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَن عليها. وذلكَ أَنَّ العَدُوَّ يُرِيدُ أَنْ يَتَوَصَّلَ إلى مبتغاه بأية طريق، بطريق ظاهِرَةٍ أو بِطَرِيقٍ خَفِيَّةٍ، فَأَيُّ وَسيلَةٍ عنده لوصوله إلى مُبْتَغاهُ فَإِنَّه يَسلُكُها، وهذا بينه جلَّ وعلا في القُرآنِ كَثِيرًا، في أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَعداءِ الرُّسل يَمْكُرُونَ، وبينَ أنَّ هذه العَداوَةَ قائِمَةٌ ومُستَمِرَّةٌ لا انفكاك منها قال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِي عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِين وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان]. وَبَيَّنَ سُبحانَه أَنَّ أَوَّلَ رَسُولٍ أُرسل، أنَّه مَكَرَ به قومه أعظم مكرٍ واعملوا معه الحيل الخَفِيَّةُ والحِيل الظَّاهِرَةَ، وهو نوحٌ عليه السَّلام، قال جل وعلا مُخبرًا عن قومه: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كبارًا)[نوح]، يعني أعظَمَ مَكرٍ ،وهذا المكرُ الكُبَّارُ الَّذِي اتصفوا به دفعهم إليه عَداوَتُهم للرَّسولِ نوحٍ عليه السلام، وهذا هو شَأْنُ مَن عادى كُلَّ رَسول، من عادى إبراهيم عليه السلام، من عادى يوسف عليه السَّلامُ، مَن عادي كُلَّ الأنبياء والرسل فإنَّهم يسلكون هذا السبيل. وموسى عليه السلام مع قومه، كيف فَعَلَ فِرْعَونُ ما فَعَلَ؟، وعيسى عليه السلام، كيفَ فَعَلَ معه اليهود ما فعلوا ؟، وذكر هنا

رحمه الله تعالى آيَةَ آلِ عِمرانَ (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران] وهي في قصة عيسى عليه السَّلام، وذلك لأنَّ اليَهُودَ سَعَوْا في قتل عيسى عليه السَّلامُ إِلَى مَلِكِ زَمانِهِم، بأنْ أَغْرُوهُ به ونَسَبوا إليه أشياء أغاظته منه، فأرادوا أن يسعى في قتلِهِ، فَأَنقَذَه اللهُ جَلَّ وعلا، وَرَفَعَ مَكانَه ومكانته عليه السَّلامُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبه لهم ﴾ [النساء: ١٥٧]، وهذا الَّذِي فَعَلوه مِن المكر، السعي بهذا النوع من المكر، قال جل وعلا: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) وفعلهم معه كثير، عيسى بخصوصه كَثير، في أنَّهم يفعلون ما به رَدُّ رِسالَتِه عليه السَّلامُ، وَعَدَمُ الإِيمَانِ به، والإيذاء له، ولِمن معه في عَداوَةٍ ظَاهِرَةٍ وعَداوَةٍ خَفِيَّةٍ.وقال جل وعلا: ﴿ وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ امِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا اخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [آل عمران]، وهذا من المكرِ الَّذي مَكَرَ أَهلُ الكِتابِ بِنَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم ، وَمَكَرُوا بأتباعه وبهذا الدين، في أنهم أعلنوا شيئًا وأخفوا شيئًا آخرَ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عن دين ال الله. وهكذا عَمِلَ الكُفَّارُ مِن مُشرِكي قريش، حيثُ قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوكَ أَوْ يقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوك وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال]. وهكذا فَعَلَ أَهْلُ النِّفاقِ، المنافِقُونَ فَعلوا الفِعلة نفسها، واليهود فعلوا الفِعلَةَ نَفسَها، أظهروا شَيئًا وأبطنوا شَيْئًا آخَرَ، وَسَعَوْا بِكُلِّ وَسيلَةٍ واجتمعوا على الصَّد عن دينِ اللهِ وَالقُعودِ بِكُلِّ صِراطِ لذلك. وهذا ظاهِرُ البَيانِ في تاريخ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ وفي سيرَةِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ظاهِرٌ في أنَّ من عادى هذه الرسالة فإنَّه أعمَلَ كُلَّ وَسيلَةٍ عنده من مكر و حيلةٍ وخَديعَةٍ وإغراء وعَداوَةٍ ظَاهِرَةٍ وَخَفِيَّةٍ لِيَصِلَ إلى الصَّدَّ عن هذا الدين، والنبي بين لصحابته هذا المكر وثَبتهم وكانوا ثابتين على الحَقِّ والهدى في مَكَّةَ لما كانوا ضُعَفَاءَ أَقِلَّةً، لما كانوا ضُعفَاءِ قَليلينَ يُسْتَذَلُّونَ وَلَمَّا أَعلَى اللَّهُ جَلَّ وعلا منارَ الإسلامِ فَضَحَ النَّبِيُّ المنافِقِينَ وبَيَّنَ ما هم عليه وعامَلَهُم بِالظَّاهِرِ وَجَعَلَ سَرائِرهم إلى اللَّهِ جل وعلا، وبَيَّنَ سُبحانَهُ في عَدَدٍ مِن السُّورِ مَكائِدَ المشركين وأهل الكتاب والمنافِقِينَ وجَميع الأعداء حول هذه الرسالة والدِّينِ الذي أذِنَ الله جل وعلا به.

قوله رحمه الله تعالى: إعمال الحيل والاستدلال بالآية: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٥٤] هذا من الاستدلالِ الحَسَنِ الجميل؛ وذلك أنَّ حَقيقَةَ المكْرِ هو إعمال الأشياءِ الخَفِيَّةِ للإيقاع بالممكور به، والله جل وعلا يمكرُ بحَقٍّ، والمكرُ في أساسه صِفَةٌ ليسَت صِفَةً كَمَالٍ، ولكنَّه يَكونُ صِفَةَ كَمَالٍ إذا كان لدفع عَدُوٍّ، أو في مُقابَلَةِ اعتداء أو كان لإظهارِ العِزَّةِ والقُوَّةِ وَصِفاتِ الكَمالِ. والمكرُ في صِفاتِ اللهِ من الصفاتِ الفعلية التي لا تُطلق إلا مُقيَّدَةً، لا تُطلق بلا تقييد، لايُقالُ مِن صِفاتِ الله المكرُ ومِن صِفاتِ الله الاستهزاء ومِن صِفاتِ اللَّهِ المخادَعَةُ أو أَنَّهُ يَخدَعُ. لا، هذا لا يُقالُ، بل يُقالُ مِن صِفاتِه أنَّه يَمكُرُ بمَن مَكَرَ بدينه، أو برسوله، أو بأوليائه، وأنَّه يَخدَعُ جلَّ وعلا من خادَعَه أو خادع نبيه أو يَسْتَهْزِئَ بِمَن استهزأ ونحو ذلك. وذلك لأنَّ هذه المقابَلَةَ تَدلُّ على كَمالٍ؛ لأنَّ الغَالِبِ أَنَّ مَن مَكَرَ وَخادَعَ أو اسْتَهْزأَ فِي الخَفَاءِ فَإِنَّه لا يُدرى عنه لأنَّه يَتَّجه للوصول إلى مقصودِهِ في الخفاء، والله جل وعلا إذا قابَلَ فِعلهم

هذا بما هو أكمل منه وهو من جنسه فإنَّه يَدلُّ على كَمالِ الرَّبِّ جَلَّ وعلا في أسمائه وصفاته في جَبَرُوتِه، وقدرته، وقهره، وعزته، وولايته، ونصرته لعِبادِهِ المؤْمِنِينَ. فالجامع في ذلك هو ما ذكَرَه الإمام بقوله: (إِعْمَالُ الْحِيلِ الْخَفِيَّةِ وَالظَّاهِرَةِ فِي دَفْعِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.)

ومَعلومٌ أَنَّهم لا يملكونَ أَنْ يَرفعوا ما جاءَتْ به الرُّسُلُ، وإنَّما يَظنُّونَ أَنَّهُ يُمكِنهم الدَّفعُ، لكنَّ هذا لا يُمكنُ، أعني يُمكنهم الدفع لكنَّ الرَّفع لا يكون لأنَّ الله جل وعلا مُؤَيِّدٌ رُسُلَهُ، لهَذَا اختارَ الشَّيخُ رحمه الله كلمة الدفع لأنها هي التي تكون في ظنهم، أمَّا الرَّفعُ فإنَّه لا يُمكِن لأَنَّ اللهَ نَاصِرٌ رَسولَه . إذَا تَبَيَّنَ هذا فأهلُ الجَاهِلِيَّةِ مِن الأُمِّيّين والكتابيين عادوا النبي صلى الله عليه وسلم بأساليب كثيرة ومكروا، وأعملوا الحيل الخَفِيَّة والظَّاهِرَةَ في أصل الدين، وأيضًا في بعض فروعه، وفي بعض ما جاء به. أما في هذه الأمة فإنَّ خِصال أهل الجاهلية موجودة فيهم؛ لأنَّ هذه مِن نوازع الإنسان إذا عادي واستحكمت العَداوَةُ والبَغضاء في قلبه، أو أرادَ نُصرَةً لنَفسه ولو لم يَكُنْ ثَمَّ بَغضاءُ أَرَادَ نُصرَةَ نَفْسِه فيما يُرِيدُ فَإِنَّه يُعمِلُ الحيلَ الخَفِيَّة والظَّاهِرَةَ في نقض ما عند الآخرين، وهذا موجودٌ مُتَفَرِّقا في هذه الأُمَّةِ في أَنَّه مَن لم يقتنع بما عندَ الآخَرينَ فَإِنَّه يسعى إليهم، يسعى فيهم بأنواع الحيل للإيقاع بهم، أو لدفع ما عندهم. والواجِبُ هنا أنْ يَتَّقِيَ العِبادُ رَبَّهم جلَّ وعلا، وأنْ لا تَأْخُذَهُم العَصَبِيَّةُ لِمَا هم عليه، والتَّبعِيَّةُ لِمَذْهَبِ أو حزب أو طائفة أو جماعة، إلى اعتقادِ أن ما عليه الآخرونَ غَلَط ويَجِبُ أنْ يُسعى ضده. وهذا هو البَلاءُ الَّذِي وَقَعَ منذ قديمِ الزَّمانِ، يَعني منذ أوائل القُرونِ من هذه البعثةِ المحمَّدِيَّةِ، فإذا نظرتَ وَجَدتَ أنَّ الفِتَنَ الَّتي حصلت ما حصلت إلا بمثل هذه الأعمال. وانظر مثلًا فِتْنَةٌ خَلقِ القُرآنِ وكيفَ سَعَى بَعض أعداء الاعتقادِ الحَقِّ، وهو أحمد بن أبي دؤادٍ ومن معه كيفَ سَعَوْا بِالحِيلِ الخَفِيَّةِ والظَّاهِرَةِ للإيقاع بالنَّاسِ، وإحداث الفتنة فيهم ونَجَّا الله جل وعلا مَن نَجا ووقع من وقع، والبَلاءُ لا يَرفَعُه إلَّا الله جل وعلا. وإذا نَظَرنا في الفتنةِ الَّتِي وَقَعَ فيها الباطِنِيتُونَ منذُ بَدَأت الحَرَكَةُ الَّتِي يُسَمُّونَهَا المهْدِيَّةَ، ثُمَّ الفَاطِمِيَّةُ، ثُمَّ القرامطة، لتجد أنَّ هذا السعيَ بَلَغَ أَشُدَّه ضِدَّ أهل الإسلام بعامة، وضِدَّ خاصة أهل الإسلام. ومَن نَظَرَ أيضًا إِلَى مَا فَعَلَهُ الفَلَاسِفَةُ المعينون لهولاكو ولمن معه من الشر كيفَ فَعَلوا بهذه الأمة وبعبادها وبالصد عن التزامِ ما فَعَلُوا، لكن يبقى أمر الله جل وعلا، وللهِ العِزَّةُ وَلرَسولِهِ وَالمؤْمِنِينَ. وهكذا يحدث أيضا في أشياء خَفِيَّةٍ أقل من ذلكَ مِمَّا قد لا تكون سجالا بينَ الكُفْرِ وَالإسلام، وإنَّما يَكونُ بين أهل الإسلامِ مِن المذاهِبِ المختلِفَةِ والآراء، فكُلُّ فِئَةٍ تَرى أنَّ ما هي عليه حَقٌّ فَيَسعُونَ ضِدَّ الآخَرِينَ، فَسَعَى منذُ زَمَانٍ سَعَى أهل الرأي ضِدَّ غَيرهم، وسعى المتَكَلِّمُونَ ضِدَّ غَيْرِهم وفَعَلُوا مَا فَعَلُوا، وهذا نَسَأَلُ اللهَ العافِيةَ، كَثِيرٌ جِدًّا.

ولهذا تَرَى أَنَّ طَائِفَةٌ مِن العُبَّادِ والصَّالِحِينَ اعتزلوا مُخالَطَةَ الملوكِ، مُخالَطَةَ الأُمَرَاءِ، مُخالَطَةَ الوُلاةِ، في زَمَنٍ كَثِيرٍ، لأجل أنَّها لا تَسلَّمُ مِن أهواء وفتن ومكرٍ وإعمال لمثل هذه الحيلِ، وما يُريدونَ، فَخَشوا أنْ يدنسوا دينهم بمثل هذه الأفعال وهذا بَلاءُ وَقَعَ، فكانَ مَن قَرَأَ التَّاريخ، ولابد لطالبِ العِلمِ أَنْ يَقرَأَ التاريخَ يَجِدُ

أنَّه لا يَسْتَقِيمُ فِي زَمَنٍ، منذُ سَنَةِ مِائَةٍ وثمانين للهجرة تقريبا ، لم يستقم حال، بل هناك فِتَن كَثيرةٌ وأقوال وابتلاءات إلى زماننا الحاضر. وأمَّا في هذا الزَّمَنِ وما قبله فإنَّه وُجد فيه من إعمال الحيل الخَفِيَّةِ وَالظَّاهِرَةِ فِي دَفع ما جاءَت به الرُّسُلُ؛ بل في دفع ما جاءَ بِهِ مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، ما لم يسبق له مثال. بل كان الأمر في إعمال الحيل وفي الرَّدِّ والعَداوَةِ، كان على نوع ما كَانَ قَوِيًّا بِالنِّسْبَةِ لِوَسَائِلِ زَمَنِهِ، لَكُنَّه كان ضعيفًا بالنسبة إلى الوسائل في الزَّمَنِ الحاضر، وهذا نراه اليومَ أَنَّ الجَاهِلِيّينَ مِن المشْرِكِينَ والكتابيين ومَن يُعاونهم من المنتسبين إلى الإسلام مِمَّن هم من بني جِلدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِلِسَانِنَا وَيَسكُنونَ في ديار الإسلام بعامة، تَجِدُ أنَّ هؤلاء سَعَوا في إعمالِ الحيلِ الخَفِيَّةِ وَالظَّاهِرَةِ فِي دَفَع هذه الرِّسالَةِ المحمدية، وإضعافِ شَأنِ دين الإسلام. وهذا لا يخفى الوَسائِلُ الكَثِيرةُ المتَنَوَّعَةُ في ذلك: منها وهو أَشَدُّها من الأعمالِ الظَّاهِرَةِ الحروبُ المستَمِرَّةُ الَّتِي بَدَأت منذ بدأ الاستعمار، وأسموه استعمارًا ونَفسُ الاسم فيه إعمالُ حِيلَةٍ خَفِيَّةٍ بإحداث مُصطلحات لتقلب الحقائق عندَ النَّاسِ، هم أتَوْا مُعتَدينَ، أتوا غاصبين، أتوا ظالِمينَ أتوا محتلين للأرض مستعبدين أهلها لأغراض كَثِيرَةٍ مِنها أَغراضُ التِّجَارَةِ، ومنها التبشير(التنصير)، ومنها الإضعافُ إضعافُ المسلِمينَ ومِنها مَعرِفَةُ ما عليه المسلِمُونَ مِن داخِلِهم، وهذا الأمر الذي هم عليه، سَمَّوا ما فعلوا، سَمَّوه استعمارًا، يعني طَلَبًا لعِمارَةِ الأرض. ﴿وَاسْتَعْمَرَكُم فيها ﴾ [هود : ٦١] يعني جَعَلَكم لكي تعمروها،(وهو احتلال وليس استعمار) هم إذا أَتَوْا إلى بلد قالوا: نَحنُ مستعمرون، يعني نريدُ عِمارة هذه الأرض والتخطيط لها، وحَقيقَةُ الأمرِ العَدَاوَةُ الظَّاهِرَةُ البَيِّنَةُ، وهذا من أوائل المصطلحاتِ الَّتِي شَنَّهَا المسْتَعْمِرُونَ على أَهْلِ الإسلام، فغَيَّرت كثيرًا من الحقائق، انطلت على الكثير، وجهَةً ما هم عليه حتَّى إن بعضهم، أعني من المسلِمينَ انخدَعوا بذلك وقالوا هم خير لنا لأنهم يُريدون لنا الرفعة في دنيانا، وأمَّا ديننا فهو لنا. وهذا من الأعمالِ الخَفِيَّةِ القَديمَةِ لهم. واذكُرُ هذا في المصطلحات التي حصلت بعد ذلك فكُلُّ مُصطَلَحٍ يَصْرِفُ من الحَقِّ هو مِن الحيلِ الخَفِيَّةِ والمصطلحاتُ كَثيرةٌ جِدًّا لا حصر لها، تَجِدُ أنَّ بين حينٍ وَآخَرَ يَظْهَرُ مُصْطَلَحٌ، وَمَعلومٌ أَنَّ المصطلحاتِ لا تَأْتِي هكذا مِن رَأيِ فَرِدٍ وإنَّما تَكونُ مِن دِرَاسَةِ هُذَا المِصْطَلَحِ فِي لَفْظِهِ وَمَا يُؤَثِّرُ به، وكيف يُنشر كيف يُداول، وكيف يَرسُخُ في المجتمعات وعند المسلِمينَ، حَتَّى يَحصل لهم ما أرادوا مِن تَغيِرِ تَدَينِ النَّاسِ ودَفع ما جاءَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ،فكانت حَربًا مُعلنة بينة وقام فيها بالجهادِ مَن قام من أهل الإسلام، فنصَرَ اللهُ جَلَّ وعلا مَن نَصَرَ وَقُبِضَ مَن قبض، ولله عاقبة الأمور.

من الأمثلة أيضًا على هذا المكر وإعمالِ الحيلِ والعَداوةِ بِوَسائِلَ خَفِيَّةٍ وَظَاهِرَةٍ مَا حَصَلَ مِن وَسَائِلِ التعليم؛ لأنَّ الاستعمار(الاحتلال) بَدَأَ مُبَكْرًا في القرنِ السَّادس عشر للميلاد، ولَمَّا رَأَى المسْتَعْمِرُونَ- المحتلون - والأَعدَاءُ، لَمَّا رَأَوْا أَنَّهم لا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ يَوم ويتركون فيه هذه البلاد - أعني بلاد الإسلامِ لجَأوا إِلَى أَنْ يُعَلِّمُوا طَائِفَةً مِن أهل الإسلام التعليم العربيَّ الخَالِصَ، فَأَخَذوا مِنهم فِئَةً كَبِيرَةً مِن الشَّامِ وَمِصرَ وَمِن شمال أفريقيا ومن غَيْرِهم ليتعلموا هناكَ حَتَّىٰ إِذَا رَجَعوا، رجعوا ونفوسهم مع الغرب ومع الأعداء

وليست نفوسهم مع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد لا يَكفُرونَ بحَسَبِ ما يَأْتون به؛ لكن النفوس تكون مائلة إلى أولئك فقد يُنفذونَ بهم، ويعملون عن طريقهم من الأعمالِ الخَفِيَّةِ والحيل ما لا يُعمَلُ مَع غَيْرِهم، وكُلُّ الإرساليَّاتِ لِلتَّعليم منذ القرن التاسع عشر، والقرن العشرينَ كُلُّها على هذا المنوال.وأثرت كما تَرَونَ تَأثيرًا كَبيرًا جدًّا في نَقلِ بِلادِ الإسلام من العقيدة الإسلامية إلى التشكيكِ وإلى أفكارٍ مُختَلِفَةٍ وآراء مُتَنَوِّعَةٍ أَضعَفَت قُوَّةَ البِلادِ الإسلامية كما فعل طه حسين ،وسعد زغلول ،وقاسم أمين وغيرهم ممن رباهم الاحتلال ليكونوا وكلاء ونواباً عنه فى الدعوة إلى التغريب والغزو الفكرى ونشر ثقافة المحتل ،ومن أفضل الكتب التى تصدت للغزو الفكرى كتابات الدكتور محمد محمد حسين، حصوننا مهددة من الداخل ، والاسلام والحضارة الغربية، و"الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر"، ،وكتاب جمال سلطان غزو من الداخل وغيرهم ممن تصدوا لدعاة التغريب فى بلاد المسلمين ، ومن ذلك أيضًا ترك تحكيم شرع الله جل وعلا إلى تحكيم غيره من القوانين الفرنسية أو البريطانية أو غيرها. وهذا لا شَكٍّ أنَّه مِن الحيلِ الظَّاهِرَةِ البَيِّنَةِ.

ومن ذلك أيضا وهو أعظمُه فيما يُشاهِدُه الآن الكثيرونَ مِنَ النَّاسِ إعمال وسائل الإعلامِ بِجَميعِ أنواعها المقروء والمسموع والمرئي في التشكيك في هذا الدين أو إضعاف الالتزام به بإثارَةِ الشُّبُهَاتِ وإثارَةِ الشَّهَوَاتِ. وهذا مِمَّا كان عليه أهل الجاهلية، لأنَّ أهل الجاهلية من الكتابين والأُمِّيّينَ سَعَوْا بِطَرِيقَتَينِ إمَّا طَرِيقِ العَداوَةِ الظَّاهِرَةِ أو الشُّبُهَاتِ أو الشَّهَوَاتِ، وهذا هو الذي يحصل في هذا الزَّمانِ عن طريق وَسَائِلِ الإعلام بأنواعها بل زادت المسألة إلى شَيءٍ عَظِيمٍ جَدًّا فصارت البيوتُ يَعيشُ أَهْلُها فيها وكأَنَّهم ليسوا في البلد التي يعيشون فيها ومعلوم أنَّه، أنَّ السَّلَفَ بل أنَّ العُلَماء نهوا عن السَّفَرِ إلى بِلادِ الكفار والمشركين، إلا لشَيء بَيْن مع إظهارِ الدِّينِ، وذلك لأنَّ مَن ذَهَبَ إلى تلك البِلادِ فلابد ولو جَلَسَ مُدَّةٌ يَسِيرَةً إِذَا كَانَ لَيسَ قويا في دينه، وليس قويًّا في علمه، وفي معرفته بما أنزل الله جل وعلا، وما عليه المشركون والأعداء فإنَّه لابد وأن يتأثر.فكيف إذا جاءَت بِلادُ المشرِكين والكُفَّارِ وجاءَت الحضاراتُ غَيرُ الإسلامية كما يُزعمونَ والمِدَنِيَّاتُ بفسادها وشُبهاتها وكفرها وإلحادِها وعَداوَتها جاءت إلى البيوتِ وصارَ الرَّجُلُ والمرأَة مِن أهل الإسلام رُبَّما خالطوا هَؤلاء عن طريق ما يَرُونَ أو ما يسمعونَ أو ما يقرؤون أكثر مِن مُخالطتهم لأهل الإسلام، وهذا له أثره البالغ في المستقبل.

ما معنى قوله تعالى: (وَلَتَجِدَنَ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نصارى) [المائدة: ٨٢] الآية فهل معناها أنَّ النصارى إخوان لنا.

الجواب: ليس الأمر كذلك؛ بل المشرِكونَ واليهود والنصارى مِمَّن لم يُؤْمِن بِرِسالَةِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم عَداوَتُهم ظَاهِرَةٌ لهذا الدِّينِ ولَنَبِيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ولهذه الأمة؛ لكن الله جل وعلا لَمَّا

ذَكَرَ عَدَاوَةَ اليَهُودِ والمشركِينَ قَالَ: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى) وذلك لأنَّ هذه الفِئَةَ مِنهم طَائِفَةٌ آمَنت وَقتَ الوَحي ولهذا قال جل وعلا بعدها وذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قسيسين وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشاهدِينَ ﴾ [المائدة] فآمنوا بالله جلَّ وعلا وبوحدانيته وآمنوا بِمُحمَّد صلى الله عليه وسلم ،فَمَنْ آمَنَ مِن النَّصارى فهو أخٌ لنا، لأنَّ الإيمان عقد بين أهله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدينَ ﴾ [التوبة: ١١]. وأما من لم يُؤمن من النصارى بل بقي على نصرانيته فعَداوَتُه ظَاهِرَةٌ، لكن مِن جِهَةِ المفاضَلَةِ هو أقرَبُ في الجُملَةِ مِن جِهَةِ العُمومِ أَقْرَبُ مِن اليهود والمشركين، وعَدَاوَتُه أَخَفُ مِن اليَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ، وعداوته أَخَفْ مِن اليهود والمشْرِكِينَ. ولذلك كانت سيرة النصارى في تاريخ الإسلامِ مِمَّن كانوا مع المسلِمِينَ ولم يُظاهروا عليهم بالعداوة، كانوا أخفَّ مِن عَداوَةِ اليَهُودِ والوثنيين.

يفرق بَعضُ النَّاسِ بينَ العالِمِ والدَّاعِيَةِ في هذا العصر، فمن هو العالم ومن هو الداعية؟

الجواب: العالم معروف، والدَّاعِيَةُ غَيْرُ العالم أيضًا معروفٌ. وبيان ذلك أن العالم هو مَن عَلِمَ أحكام الشرع جُلّ أحكام الشرع بِحَسَبِ استطاعته. وأَمَّا الدَّاعِيَةُ فهو مَن دَعَا إِلَى اللَّهِ جَلَّ وعلا بما عَلِمَ ، وقد يكون علمه ليس بالكثير، وقد لا يكون فقيها، وقد لا يكون مفسرا، وقد لا يكونُ مُحَدِّثًا، فيكون عندَه دَعوَةٌ إلى الله جل وعلا بِحَسَبِ العِلمِ الَّذِي عنده. لكن لا يكونُ عالِمًا حَتَّى يَعلم الكتاب والسُّنَّةَ ويَسلَّمَ مِن التقليد ويفقه حدودَ مَا أَنزَلَ اللهُ جَلَّ وعلا على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأكمل النَّاسِ دَعوَةً وبَيَانًا وإرشادًا للنَّاسِ وقيامًا بواجباتِ الدَّعوَةِ هم وَرَثَةُ الأنبياء العُلَماءُ؛ لأَنَّ الدَّاعِيَةَ غَيْرَ العَالِمِ، يعني يدعو إلى ما يَعلَمُه إلى الجُزئِيَّةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا يَكُونُ وَاعِظَا يَكُونُ مُبيِّنًا لمحاسن الإسلامِ حاثاً النَّاسَ على الالتزام بالشَّرعِ وطاعَةِ اللهِ جَلَّ وعلا وطاعَةِ رَسولِهِ، مُبَيِّنًا ما يُقَرِّبُ النَّاسَ إِلَى رَبِّهِم جَلَّ وعلا، هذه أحواله.
أَمَّا العَالِمُ فهو الَّذِي وَرِثَ عِلمَ النُّبُوَّةِ، فإنَّ الأنبياء لم يُورثوا دينارًا ولا درهما، وإنَّما وَرَثوا العِلمَ فَمَن أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظُ وَافِرٍ. فَالعُلَماءُ حَقِيقَةً هم الدُّعاة إلى الله جل وعلا؛ لأنَّ الله جل وعلا يَقولُ: ﴿ يأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَكَ شَهِدَا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ. وَسِرَاجًا منيرا ﴾ [الأحزاب]، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف]. فالعلماء هم الدعاة ولا يُشتَرَطَ في الدَّاعِيَةِ أَنْ لا يَدعُوَ حَتَّى يَكونَ عَالِمًا؛ لكنْ يشترط فِيهِ أَنْ لَا يَدعُوَ حتَّى يَعْلَمَ ما يَدعو إليه، فإذا أرادَ أَنْ يَدعُوَ إلى الأصولِ الثَّلاثَةِ لابُدَّ أَنْ يَعْلَمَهَا حَقَّ العِلمِ وإذا أراد أَنْ يَدعُو إِلَى الصَّلاةِ وَواجِباتِ الصَّلاةِ والالتزام بها فيعلم ذلك، إذا أرادَ أَنْ يَدعُوَ إِلَى تَقوى الله جل وعلا يَكُونُ عالِمًا بِمَا يَتَّصِلُ بهذا البَابِ.

إن من أصول الإسلامِ العِظامِ ومبانيه الكبيرةِ هَجْرُ البِدْعَةِ وَالْمُبْتَدِعَةِ، فهل هذا مُقَيَّدٌ بحصول ارتداع الْمُبتدع عن بدعتِه نرجو التوضيح ؟

الجواب : هَجْرُ المبتدع تعزيرٌ وعُقوبَةٌ، وباب **التعزير والعقوبَةِ يُقَيَّدُ بِحُصولِ المَصْلَحَةِ وَانْدِفاعِ المَفْسَدَةِ،** وذلك لأنَّ **النَّبِيَّ هَجَر بَعضَ من ارتَكَب بَعضَ المعاصي في زَمَنِهِ، وَلَمْ يَهَجُرْ بَعضًا،** فَهَجَرَ المخَلَّفِينَ الثَّلاثَةَ كَعب بن مالك ومن معه، ولم يهجر آخرين عليه الصلاةُ والسَّلامُ دَلَّ هذا عند أهل العِلم على أَنَّ الهَجرَ تَعزيرٌ وعُقوبَةٌ فهذه إذا كانت ستَنفَعُ ومَصْلَحتها أرجَحُ مِن مَفسَدَتِها فَيُؤْخَذُ بها، وإذا كانَ غَالِبُ الظَّنِّ أَنَّ الهَجرَ لا يَنفَعُ أو أنَّ مَفسَدَتَه أكبر فإنَّه حينَئِذٍ لا يسوغ أولا يَصلُحُ. وهذا بلا شَكٍّ يختلف باختلافِ الأزمنة والأمكنة وباختِلافِ ظُهورِ السُّنَّةِ وَخَفَاءِ السُّنَّةِ وباختِلافِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعلم وضده.

سؤال: رَجُلٌ أَسلَّمَ ثُمَّ تُوفِّيَ بعدها بقليل، هل هو مُسلِمٌ أو لا؟ ومَن قال بإسلامه هل يُعتَبَرُ مِن المرجئة؟

الجواب: من أسلم فقَد ثَبَتَ له حكم الإسلام، فإذا مات بعد ذلك فإنَّه يَموتُ على الإسلام. أَمَّا إذا كانَ مُتَمَكِّنَا مِن العَمَل ومضى وقت طويل بعد إسلامه، ولم يَعمَل هذا فيه تفصيل، هل هو عَلِمَ بعد الإسلام بواجبات الإسلام أو لم يعلم؟، وهل مثله يَجهَلُ أو مثله لا يَجْهَلُ ؟ وهذه تحتاجُ إِلَى مَعرِفَةِ حال المسؤول عنه،وسبق وأن فصلنا فى حالات سقوط العمل ،ومنها رجل أسلم ولم يتمكن من العمل

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْخَمْسُونَ: الْإِقْرَارُ بِالْحَقِّ لِيَتَوَصلُوا بِهِ إِلَىٰ دَفْعِهِ،

التَّعَصُّبُ لِلْمَذهَبِ، والإقرارُ بالحَقّ لِلتَّوَصُّلِ إلى دَفْعِهِ.قَال تَعالى في سورةِ [آلِ عِمرانَ: 72-74] :
{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ - وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ - يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [آل عمران: 72 - 74] قالَ الحسنُ والسُّدِّيُّ: تَواطَأَ اثنا عَشَرَ رَجُلا مِن أحبارِ يَهودِ خَيْبَرَ وقُرى عَرِينٍ، وقال بعضُهُم لِبَعْضٍ: ادْخلوا في دِينِ مُحَمَّدٍ أَوَّلَ النَّهارِ بالِّلسانِ دونَ الاعتقادِ، واكفُروا آخِرَ النَّهارِ، وقولوا: إنا نَظَرْنا في كُتُبِنا، وشاوَرْنا عُلَماءَنا، فَوَجَدْنا مُحَمَّدا ليس بذاكَ، وظَهَرَ لنا كَذِبُهُ، وبُطلانُ دِينه، فإذا فَعَلْتُم ذلك شَكَّ أصحابُه في دِينهم، وقالوَا: إِنَّهم أهلُ كِتابٍ، وهُم أعْلَمُ بِهِ، فَيَرْجِعونَ عن دِينهم إلى دينكم

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالْخَمْسُونَ: التَّعَصُّبُ لِلْمَذْهَبِ ، كَقَوْلِهِ فِيها: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُم)آل

عمران: ٧٣

السَّادِسَةُ وَالْخَمْسُونَ: تَسْمِيَةُ إِتبَاعِ الْإِسْلَامِ شِرْكا، تسْمِيتهم اتّباعِ الإسلامِ شِركًا. قَالَ تَعَالى [آل عمران: 79- 80] : {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ - وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 79 - 80] أخْرَجَ ابنُ إسحاقَ بِسَنَدِهِ: حِينَ «اجْتَمَعَتِ الأحْبارُ مِنَ اليهودِ والنَّصارى من أهلِ نَجْرانَ عِنْدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَدَعاهُم إلى الإسلامِ، [قالوا] : أتُريد يا محمدُ أنْ نَعْبُدَكَ كَما تَعْبُدُ النَّصارى عِيسى ابنَ مَرْيَمَ؟ فقالَ رَجُلٌ مِن أهلِ نَجْرانَ نَصْرانِيٌّ يُقالُ لَهُ الرَّئِيسُ: أوَ ذاكَ تريدُ مِنَّا يا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَعاذَ الله أنْ نَعْبُدَ غَيْرَ الله، أوْ نَأمُرَ بِعِبادَةِ غيرِهِ، وما بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلا بِذَلِكَ أَمَرَنِي» ، فَأَنْزَلَ الله تَعالى هذه الآية. وذكر أنَّ مِن خصالهم الإقرار بالحَقّ ظَاهِرًا ليتوصلوا بذلك إلى دفعه واستدل لذلك بقوله جل وعلا: وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَبِ وَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا اخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران]. دَلَّت الآية على أنَّ قصدهم مِن إظهار الإسلام وإظهار الإيمانِ الرَّغبَةُ فِي رِدَّةٍ مَن أَسْلَمَ وَآمَنَ مِن أَهلِ الإسلام لقوله في آخِرِ الآيَةِ: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فَتَعليلُ قَولِ تلكَ الطَّائِفَةِ (ا مِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا اخِرَهُ) العِلَّةُ مِن أَنَّهم وَصَلوا إلى هذا الرأي لدفعِ الحَقّ هو قولهم: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) يعني لَعَلَّ المسلِمِينَ ولَعَلَّ المؤمِنِينَ بمُحَمَّدٍ يَرجِعونَ عن هذا الإيمان. وهذا الفعل منهم أضافه الله جل وعلا إلى طائفة من أهل الكتاب وهم مِن النَّصَارَى الَّذِينَ ذَهَبوا إلى ذلك، وهذا أيضًا حَصَلَ مِن بَعض اليَهُودِ، وَحَصَلَ مِن أهْلِ النِّفَاقِ أكثر وأكثر. وقد يكون القصدُ في رَدَّ الحَقّ فورًا ، وقد يكونُ للتَّوَلى وردَّ الحَقّ في المستَقْبَلِ، وإلقاء الشبه على أهل الإسلام، فحَصَلَ عندنا هنا أنَّ ما فَعَلَه الأوائل من الكِتابِيِّينَ وَالمنافِقِينَ وَبَعضِ المشْرِكِينَ أَنَّ هَذَا يَنقَسِمُ إلى أقسام:

منهم من أرادَ ذلكَ لِيَكْفُرَ سَرِيعًا ليوقعَ الشُّبَة.

ومنهم من أراد الإيمان والإسلام بحسب زعمه ليكونَ مُلقِيًا للشُّبَهِ على طولِ الزَّمانِ، وهذا هو الذي حَصَلَ مِن أهل النِّفَاقِ في زَمَنِ النُّبوَّة فإنَّهم أعلنوا الإيمان وأظهروه مع أنَّهم لم يتركوا الطعن في الدِّين، والطَّعَنَ في النَّبي ، بل والَوْا أهل الكفر وأعانوهم على أهل الإسلام. وهذه الخصلة يتأثر بها ويُرجعُ بها عن دينه من لم يَذقُ حَلاوَةَ الإيمان ولا بَشاشَة الإسلام، ولهذا كان الَّذِينَ رَجعوا عن الإسلام في الأزمِنَةِ مُتأثرين بذلك رُبَّما ذُكِرَ الواحِدُ أو ذُكِرَ القَليلُ، والقليل منهم؛ لكن ليست بالفعلةِ الماضية أو بالحُجَّةِ أنَّه يُؤْمِنُ مَن يُؤْمِنُ ثُمَّ يَقولُ رَجَعَتُ عن ديني أو رجعت عن إسلامي ليوقع الالتباس في النَّاسِ، بل هذا يَضُرُّه

هو، وقليل ما يَضُرُّ النَّاسَ. لكنَّ الفِئَةَ الثانيةَ هي الَّتِي تَضُرُّ أكثر وهم من أظهروا الإسلام وأبطنوا الكُفْرَ وَاسْتَمَرُّوا على ذلكَ ليوقعوا ويقدحوا في الإسلام، وهذا وُجِدَ فِي المنافِقِينَ ووُجِدَ فِي الزَّنادِقَةِ على طول تاريخ الإسلام ووُجد أيضا فِي هذا العَصرِ وُجِدَ نوعانِ الأول والثاني.

فمنهم من أعلن إسلامه ثُمَّ بعد ذلكَ رَجَعَ عن ذلك.

ومنهم من استَمَرَّ مُدَّعِيا الإسلام ثُمَّ يُلقي الشُّبَة فِي أهل الإسلام أمثال عبد الله بن سبأ وجماعته وأشباههم.ولا شَكٍّ أَنَّ مَن يَسْتَمِرُّ على دعواه أنَّه مُسلِمٌ أخطرُ فِي القاءِ الشُّبَهِ مِمَّن يقولُ آمَنتُ ثُمَّ كَفَرْتُ أو آمَنتُ ثُمَّ رَجَعَتُ عن الإسلام، لأنَّ هذا يكونُ يَنطِقُ بِلِسانِ الأُمَّةِ، ويوقِعُ فِي قُلوبِ أَهْلِهَا الشَّبَة، هذا هو الذي حَصَلَ فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ مِن الزَّنادِقَةِ، والفَلاسِفَةِ الغالين، وطَوائِفَ مِن غُلاةِ المتَصَوِّفَةِ الملاحِدَةِ وَأَشبَاه ذلك.هؤلاء استَمرُّوا على ما هم عليه وأوقعوا في النَّاسِ الشُّبَة الكثيرة. وما جاءَت العَقلِيَّاتُ والرَّدُّ على الشَّرعِ بأشياء عَقلِيَّة واهِيَة إِلَّا مِن جِهَةِ هؤلاء، وما جاءَ القدح في أشياء كثيرة من عقيدة الإسلام ومن أحكام الإسلام إلا من هؤلاء؛ لأنَّ أهلَ الإسلامِ والإيمَانِ الَّذِينَ رَسَخَ فِيهم حُبُّ اللهِ وحُبُّ رَسولِهِ صلى الله عليه وسلم يَأنفونَ أَنْ يَطعنوا فِي الدِّينِ بِأَيِّ طَعن. لكن جاء الطعن من هؤلاء، وهؤلاء قد يكون منهم المؤَرِّخُ، ومنهم الفيلسوف وقد يكون منهم الأديب وقد يكون منهم ومنهم بأسماءٍ شَتَّى لكن يجتمعون على أنَّهم لم يَقْتَنِعوا حقيقةً بدينِ اللهِ بل في قُلوبهم ريب، قد قال الله جل وعلا: (أفِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [النُّور.] وهذا ظاهِرٌ فِي أنَّ كُلَّ هؤلاء على طولِ التَّاريخ سَواءٌ سُمُّوا الزَّنادِقَةَ أَو سُمُّوا مُنافِقِينَ أَو أَيَّ اسمٍ آخَرَ هؤلاء عندهم ريب في قلوبهم، ولذلك يأتي الطعن في الدِّينِ مِن جِهَةِ الرَّيبِ الَّذِي فِي القُلوبِ، وَالشَّكْ الَّذِي يُلازِمُ النَّفْسَ. وإذا نظرنا فِي وقتنا الحاضِرِ وَجَدنا أنَّ هذه الخَصْلَة كَثِيرَةٌ جِدًّا جِدًّا بِنَوعَيْهَا، فَكَثِيرٌ مَا نَسْمَعُ أَنَّ فُلَانًا أسلَّمَ ثُمَّ تَرَكَ الإسلام، بل كثيرًا ما نسمع في داخل الأُمَّةِ مَن يَقولُ كَانَ سُنِّيَا ثُمَّ تَشَيَّعَ، كَانَ سَلَفِيًّا ثُمَّ تَمَشعَرَ، يعني صار أشعَرِيًّا، كان كذا ثُمَّ صارٌ خارِجِيًّا، وهكذا نسأل الله السلامة والعافية، بل قد يكون مُلتزما في فَتَرَةٍ بِمَذهَبِ السَّلَفِ ثُمَّ يَذهَبُ إلى غَيرِه مِن المذاهِب أو الأحزاب أو الفِئات. وهذا مِن جَرَّاءِ الرَّيبِ وعَدَمِ العِلمِ الَّذي يكون في القلب، **ولهذا يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ نَجَاتُه فِي هذه المسألَةِ العَظيمَةِ أَنْ يَكونَ مُتَحَقِّقا بالعِلمِ النَّافِع بدين الإسلام بعامة، وبِمَذهَبِ السَّلَفِ بخاصة حَتَّى يَكون على نجاة**، لأنَّ دين الإسلام بعامَّةٍ يَقي في مُواجَهَةِ التَّيَّارات الإلحادية والمادية تياراتِ الكُفْرِ والضَّلال وأشباه ذلك.وأمَّا العِلمُ النافِذُ بِمَذهَبِ السَّلَفِ فَإِنَّه يَقي بإذن الله جل وعلا ورَحمَتِه ومِنتِه مِن الانزلاق في المذاهِبِ الرَّدِيَّةِ والأحزاب الوخيمة لأنَّ هذه قد يَستَحْسِنُها مَن يَستحسِنُها ويَكونُ مَن نَقَصَ عِلمه بما هو دين الإسلام، ومَذهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وأرضاهم. مِن الصُّورِ الَّتِي تَكونُ في هذا العصر ما تَسْمَعُ،

وما يحصل من أقوامٍ لم يعرفوا الإسلام ولم يَتَعَلَّمُوهُ، وهم يقدحون في الإسلام بثقافاتٍ مُختَلِفَةٍ فتارَةً يَقدَحونَ في عَقيدَةِ التَّوحِيدِ كما كَتَبَ بَعضُهم بِأَنَّه المقصود الوصول إلى الله جل وعلا الوصول إلى الله جل وعلا بِأَيِّ طَرِيقَة، فإذا وَصَلَ إلى اللهِ فإنَّه ابتعد عن المادية وعن الإلحادِ وهذا هو حَقيقَةُ الإيمانِ بِاللَّهِ كَما يَزعُمُونَ وَيُنشَرُ مثل هذا. ومنهم مَن يَقولُ: إنَّ اليهود والنصارى والمسلِمينَ هؤلاء كُلُّهم في الجَنَّةِ وَلا يَصلُحُ أنْ نُكَفِّرَ اليهود والنصارى لأنَّ الَّذينَ يُكَفِّرون هم أهل الشرك والوثنية، أما هؤلاء فهم على ميراث رِسالَةٍ وأشباه ذلك.

ومنهم من يطعن في الإسلام من جهةٍ تشريعاته المختلِفَةِ تشريعات في أحكامِ العُقودِ في البيع والشراء والشركات والإجارة ونحو ذلك، ومنهم مَن يَطعَنُ في أحكام الإسلام في الجنايات، ومنهم من يطعن في أحكام الإسلام في الأنكِحَةِ والطلاق ونحو ذلك والتَّعَدُّدِ، ومنهم من يطعن في أحكام الإسلام في الفرائض وقسمة المواريث بأنحاء شَتَّى، مع أنَّ هؤلاء الَّذِينَ يَطعنونَ لَم يَتَمَكَّنوا مِن العِلمِ هُنَا مِن جِهَةِ التطبيق أو مِن جِهَةِ الأحكام.أمَّا مِن جِهَةِ الأصول فطعن في الإسلام في أصولٍ مُهمَّةٍ حَتَّى في نَقلِ القُرآنِ طَعَنوا مع أَنَّ ظَاهِرَهم الانتساب إلى الإسلام، وبَعضُهم يَكونُونَ عُلَماء:

منهم مَن طَعَنَ فِي السُّنَّةِ.

ومنهم مَن طَعَنَ في نقل السُّنَّةِ.

وأساس هذا كما ذكرتُ لك هو عَدَمُ تَمامِ العِلمِ والعُجْبُ والغُرُورُ، عَدَمُ تَمَامِ العِلمِ ثُمَّ يَكُونُ عِندَه عُجَبٌ وغُرُورٌ بِقَلَمه أو بفهمه أو بكتابته أو الشهرَةِ، ونحو ذلك، فيوقعُ النَّاسَ فِي اشتباهِ عَظيمٍ والعِياذُ بالله. وهذا كَثير،ومِن المقاصِدِ عند طائِفَةٍ ما قال الله جل وعلا في وصفهم: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ). وآخَرُونَ مِمَّنْ يَسلُكُ هَذا السَّبِيلَ لا يَقصِدُ في نَفْسِه أَنْ يَرجِعَ المسلِمُونَ عن الإسلام، أو أَنْ يَشُكُوا فِي السُّنَّةِ أو في القُرآنِ؛ لكنَّه يجرى كما جَرى غَيرُه في هذهِ المسائل فيَقَعُ ويوقعُ مِن حَيثُ يَشْعُرُ أَو لَا يَشْعُرُ.ولهذا ينبغي على المسلِم، وينبغي على طالبِ العِلمِ أنْ يكونَ على بَيِّنَةٍ مِمَّا يُلقيه هؤلاء لا يَتَساهَلُ في المسْأَلَةِ لأنَّ هذا نوع من العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَرِ والحُجَّةِ والجهاد العلمي المطلوب من طالب العلم. فإِذَا مَثَلًا طُرِحَت شُبَةٌ حَولَ قِسمَةِ المَوَارِيثِ أَنْ تَعْلَمَ رَدُّها العِلمِيَّ الشَّرِعِيَّ، إِذَا طُرِحَت شُبَةٌ حَولَ زواج النبي صلى الله عليه وسلم بِعَدَدِ كذا من النِّساءِ تَعلَمُ رَدَّها العِلمِيَّ الشَّرعِي، إذا طُرِحَت شُبَةٌ حَولَ نَقلِ السُّنَّةِ تَعْلَمُ رَدُّها العِلمِيَّ حَتَّى إذا طُرحت شُبَةٌ حَولَ بَعضِ الصَّحَابَةِ أو عَدالَةِ الصَّحَابَةِ وَنَحوِ ذلك فلا يكفي أَنْ يَتَشَكَّيْ طَالِبُ العِلمِ أو يَقُولَ حَصَلَ كذا وحَصَلَ كذا، حُسنٌ منه أنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَرُدُّ على هؤلاء لأَنَّهَا مِن العلم النافع ومن الجهاد العلمي المطلوب. الَّذِي يَجِبُ علينا حِمايَةً لديننا ومُخالَفَةً لأهل الجاهِلِيَّةِ

أنْ تَتَذَكَّرَ قولَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ، مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ وَمُطَّلِبُ دَمَ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهْرِيقَ دَمَهُ، وَمُبْتَغٍي فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ». إِذَا كَانَ أَحَدٌ مِن هذه الأُمَّةِ يَبتغي في الإسلام تلك الخصال الجاهِلِيَّةَ الَّتِي رُدَّ بها أو الَّتِي وُوجه بها النَّبِيُّ فهذا من أبغض الرجال بل هم مِن أبغَضِ الرِّجالِ إلى الله جل وعلا، فَلْيَحذَرِ المسلِمُ أَنْ يَتَساهَلَ بالشُّبَهِ أَنْ تَعرِضَ على قلبه أو أنْ يَتَحَدَّثَ بها، أو أنْ يَتَساهَلَ في تَلَقُّفِها وَقِراءَتِهَا لأَنَّهَا قد تَتَمَكَّنُ مِنه وهو لا يَشعُرُ، والسَّماعُ جُزءٌ مِن مُشابَهة أهل الجاهلية كما قال جل وعلا: ﴿ وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا اخِرَهُ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران]. معنى ذلكَ أَنَّ مِن أهل الإِيمَانِ مَن يَظُنُّ أولئك أنهم سيسمعون له الأصل في التأثير هو السَّماعُ، إذا كان فيه سماع فيه قراءة وفيه اطلاع على هذا النحو، فإنَّ هذا مِن الوَسائِلِ الَّتِي تُعرِّضُ المسلِمَ لخطَرٍ في دينه

المسألة التي تليها وهي التَّعَصُّبِ للمَذهَبِ والإقرار بالحَقِّ لِيُتَوَصَّل به إلى دَفعه هاتانِ المسأَلَتَانِ كالحالاتِ والتفصيل للمسأَلَةِ الَّتِي قَبلَها لأنَّ التَّعَصُّبَ وَسيلَةٌ مِن وَسائل الاحتيال على رَدِّ الحَقِّ، مَرَّ معنا الكَلامُ بالتفصيل

.**أَمَّا المَسَأَلَةُ (السَّادِسَةَ وَالْخَمْسُونَ)**: فهي تَسْمِيَةُ إِتِّبَاعِ الإِسْلَامِ شِركًا)، وهذا يعني أَنَّ أَهْلَ الجَاهِلِيَّةِ لَمَزُوا المسلِمِينَ بِأَنَّ دينهم فيه إشراك، وأنهم ليسوا منزهين عن الشرك بالله جل وعلا، وهذه في الحقيقةِ تَرجِعُ إِلَى مَسأَلَةٍ كَبِيرَةٍ وهي التأثير على النَّاسِ بالمصطلحات التي تَقلِبُ الحَقَائِق، وهذه كانَ أَهْلُ الجاهلية من الأمين والكتابيين كانوا يعتنون بها، وكانَ كُلُّ أعداءِ الرُّسُلِ يَعتَنِي بهذه الصَّفَةِ وهي قَذفُ مُصطلحاتٍ جَديدَةٍ فِي النَّاسِ لِيُتَوَصَّل بهذه المصطلحات إلى التنفيرِ مِن الدِّينِ، والتنفيرِ مِن الحَقِّ. فَأَهلُ الزَّمَنِ الأَوَّلِ، يَعني زَمَنَ الجَاهِلِيَّةِ، سَمَّوا اتِّباعَ الإسلامِ شِركًا وَسَمَّوا أو وَصَفوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بِأَنَّه ساحِرٌ، أو بأَنَّه كاهِنٌ أو بأَنَّه شَاعِرٌ ووَصَفوه أيضًا بأَنَّه في ضَلالٍ، وأنه صابِئٌ ونحو ذلكَ، ، وهذه المصطلحات تُؤثر على النفوسِ تَأْثِيرًا بالِغَا لأَنَّهَا تَصْرِفُ القَلبَ مِن تَأمل الحَقِّ إلى العناية بهذه الكَلِمَةِ، وليسَ كُلُّ النَّاسِ يَعتني بالدليل، ويعتني بالبرهان، ويعتني بالحُجَّةِ لكن يُؤَثر عليهم هذا المصْطَلَحُ، وهي وَسيلَةٌ ماضِيَةٌ في النَّاسِ حَتَّى فِي زَمَنِ الإسلامِ دَخَلَت هذه الوسيلة في أهل الإسلام. قالَ بَعضُ غُلاةِ المتَصَوِّفَةِ كابن سبعين أو ابنِ عَرَبِيِّ : إِنَّ القُرآنَ مَملوءٌ مِن الشِّركِ، وذلكَ يَعني أَنَّ القَولَ بِتَعَدُّدِ الأَشياء أَنَّهُ مَصِيرُ إِلَى الشِّركِ، وأَنَّه لا نجاةَ مِن ذلك إلا بالقَولِ بِوحدَةِ الوُجودِ الَّتِي يَدعونَ إليها. وأَمَّا الزَّنادِقَةُ فَإِنَّهم سَمَّوا أهل الإسلام فِي القرنِ الثاني والثَّالِثِ والرَّابِعِ بِتَسْمِياتٍ مُختَلِفَةٍ سَمَّوا أَهلَ الإسلام، يعني أهل التوحيد، أو أهلَ السُّنَّةِ سَمَّوهُم حَشَوِيَّةٌ، أو سَمَّاهم الجَهمِيَّةُ بذلك أو سَمَّوهُم يَعني هم بألقاب مُختَلِفَةٍ متنوعةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وذلكَ كُلُّه للتنفيرِ مِن الحَقِّ. ولأجل التفريق في المسائِل بين العمل والعِلم أحدثوا مصطلحاتٍ جَديدَةً فجاءوا مَثَلًا في التَّوحِيدِ بالأصول في مسائل التوحيد، جاءوا بالأصول، وغَيرِ الأُصولِ، وبخَبَرِ الأَحادِ وبِخَبْرِ المتواتِرِ،

وبالحُجَّةِ القطعية، وبالحُجَّةِ الفنية، وبالنقل القطعي، وبالنقل الفنّي، وأتوا باسم المجاز أيضًا، وأتوا باسم التأويل وأشياء من ذلكَ تَوَصلوا بها مِن حَيثُ لا يَشْعُرُونَ أو مِن حَيثُ يَشْعُرُونَ تَوَصَّلوا بها إلى دَفعِ الحَقّ، وَدَفعِ ما دل عليه كِتابُ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِهِ. وهذا كَثِيرٌ، كَثيرٌ جِدًّا في الأُمَّةِ حَتَّى إنَّ مَن يُحِبُّ صَحابَةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم سَمَّوه نَاصبيًّا، سَمَّوْا مَن يُحِبُّ الصَّحابَة نَاصِبيًّا، وسَمَّوا مَن يُحِبُّ آل مُحمَّد صلى الله عليه وسلم رافضيا ويعنون به هذه تَسمِيَّةَ النَّواصِبِ لأهلِ السُّنَّةِ، فالنواصب قالوا لأهل السُّنَّةِ إنَّكم رَوافِضُ، وقالَ الشَّيعَةُ أو الرَّافِضَةُ قالوا عن أهل السُّنَّةِ أَنَّهم نَوَاصِبُ، وأهل السُّنَّةِ ليسوا بالنَّواصِبِ وليسوا بالروافض.وكذلك في المصطلحاتِ كَثيرةٌ مِثلَ مُصطَلَحِ التَّجسيم، مُصطَلَحُ التَّشبِيهِ فَإِذَا أَرَادَ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنْ يُثبتوا الصفاتِ قالوا هذا تجسيم، وأنتُم مُجَسَّمونَ فَسَمَّوا إثبات الصفاتِ تَجسيمًا كَمَا سَمَّى الأَوائِلُ اتِّبَاعَ الإسلام شِركًا، يعني مِن جِهَةِ الرَّدْ عن الحَقّ بإحداثِ مُصطلحات. وهكذا في كُلِّ زَمَانٍ ومَكانٍ تَأتِي مُصطلحاتٌ كَثيرةٌ، وَمُتَنَوَّعَةٌ للرَّدْ عن الحَقّ.وأَمَّا في هذا الزَّمَنِ الحاضِرِ فإنَّ المصطلحاتِ اعتنى بها أعداء الإسلام أكبر عِنايَةٍ، وذلك لنفوذها وتأثيرها على النَّاسِ، وتأثيرُ المصطَلَحِ عَلَى النَّاسِ مِن جِهَاتِ عَدِيدَةٍ:

الجهة الأولى: أنَّه لفظ مُختَصَر، واللفظ المختَصَرُ يبقى في الأذهان أكثرَ مِن الشَّرحِ المطَوَّلِ.

الثَّاني: أَنَّ اللَّفظَ الجَدِيدَ يُجدِّدُ مَعناهُ مَن أتى بخِلافِ الألفاظ المتَداوَلَةِ فَإِنَّهُ لَو أَرادَ أَنْ يُغَيِّرَ مَعَنَاهَا لَمَا استطاع لأن معناها قد أُصل قبل ذلك فيأتي بمصطلح جديد ليكونَ هَذَا المصْطَلَحُ مع معناه الجَدِيدِ مُنفِرًا للنَّاس أو مُبعِدًا للنَّاسِ عن الحقيقة.

الثَّالِثُ: من الأسباب أنَّ المصطلحات تبقى، والمعاني تَذهَبُ فقد يَكونُ أَوَّلَ مَا يَنشَأُ المصْطَلَحُ يَكونُ المعنى مرفوضًا لكنَّه يَستَمِرُّ، وَيَسْتَمِرُّ فيبقى المصْطَلَحُ، وتذهَبُ المعاني، لكنهم لاحظوا أَنَّ المصْطَلَحَ إذا كانَ في طَيِّهِ وفي لفظه ما يُضادُّ الدِّينَ في نَفسِه أو ما يَقدَحُ في أتباع الدِّينِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ سَيُرفَضُ لَكنْ إذَا كَانَ موهِمًا فَإِنَّه يَكونُ أدعى لسَرَيانِه. وهذا له أمثلة كثيرة ليسَ مِن جِهَةِ الإسلام فقط بل حتَّى ومن جهتهم هم، فمثلًا لفظ **الأُصولية** أُتِيَ في فرنسا، يعني أَوَّلَ ما أُطلِق في فرنسا على الَّذِينَ أرادوا إعادة سُلطان الكنيسةِ للسيْطَرَةِ عَلَى حَيَاةِ النَّاسِ، لأنه بعد أن قامت اللُّوثَرِيَّة كما هو معروفٌ بدفع سُلطان الكنيسة والاستقلالِ بِفَهم الكِتابِ المقَدَّسِ عندهم، والخروج عن سيطرَةِ الكنيسة في كُلِّ التَّفسيرات والتَّحَكُّمِ في العِلمِ، وَالتَّحَكُّم في المدِينَةِ، أَتى أناس يُطالبون بالعودة فهؤلاء سموهم **الأصوليين**، وهذه التسمية يعني أَنَّ هذه الفِئَةَ تُرِيدُ الرُّجوع إلى عَصرِ الظُّلامِ بالنِّسبة لهم، وهو عَصْرُ سُلطانِ الكَنِيسَةِ الَّذي كانت الكنيسة تُحَرِّم عليهم أشياء من أولى الأَوليات في الحياة.

ثُمَّ بعد ذلكَ دَخَلَ هذا المِصْطَلَحُ أو نُقل إلى المسلِمينَ للربط فيما بينَ الطَّلَبِ وَرُجُوعِ النَّاسِ إِلَى الكتاب والسنة، وإلى ما كان عليه المسلمون الأوائل بأنَّ هذه أصولية يعني سَتَرُدُّكم إلى عصور ليست بمُدَيَّنَةٍ، وإلى عُصورٍ فيها تَحَكُّمُ المتَدَيْنِ، وَتَحَكُمُ الدِّينِ.. إلى آخِرِهِ. وهذا أمرٌ مُختَلِفٌ كَبِيرٌ في الحقيقة **الأصولية في الإسلام معناها الرجوع إلى الأصول، وهو الكتاب والسُّنَّة، والإجماع وما كان عليه سَلَفُ هذه الأمة**، وهذا أمر مطلوب، وليس مرفوضا بل هذا هو المطلوب، وهو المتَعَيِّنُ.

مَثَلًا مُصطلح آخَرُ أَتَوْا بِلَفظ **التطرف**، لفظ **الإرهاب**، لفظ الإرهابِ كَلِمَةٌ بِمَعناها المستَعمِل، يعني وَضَعوا هذا اللَّفْظَ ثُمَّ جَعَلُوا له معنى الإرهابِ شَيْءٌ يَرفُضُه النَّاسُ.وأطلقوا على كل متمسك بالسنة حنبلى ،أصولى ، ملتزم ،وحرفوها إلى متزمت (يعنى متشدد متطرف)وأطلقوا على تطبيق الشريعة الإسلام السياسى ،وسموا من يطالب بتحكيم الشريعة إسلامى واسلاميون وسنيون ،والمتشدد والظلامى والرجعى!

والإرهاب بمعنى التخويف، تخويف مَن لا يَستَحِقُّ، التخويف لكنهم سَمَّوا كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي التَّاريخ سموه إرهابًا، معلوم أنَّ هذا المِصْطَلَحَ سَموا به الأعمال العبادية كالجهاد في سبيل الله في بعض الأماكن التي يكون فيها الجهادُ بحَقّ، ومُستوف لشروطه الشَّرْعِيَّةِ المعتَبَرَةِ سموه إرهابًا والإرهاب المذموم في الشَّرِيعَةِ هو تَروِيعُ الْآمِنِ أَوِ المؤَمَّنِ. أمَّا الإرهابُ الَّذي تخويف الأعداء بالجهاد في سبيل الله فهذا نَصَّ الله جل وعلا عليه في كتابه فقال جل وعلا (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فإرهاب العدو بالجهاد في سبيل الله هذا أمر مطلوب، لكنَّ إرهابَ الآمِنِ تَخويفَ الْآمِنِ أَوِ المستَأْمَنِ أو المعاهَدِ أو الذمي هذا أمر مرفوض في الشَّرِيعَةِ، فَخَلَطوا هذا بهذا حَتَّىٰ يَكُونَ كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ يَدخُلُ ضمن هذا الَّذِي تَنفِرُ مِنه قُلوبُ الأكثرينَ أَو قُلوبُ النَّاسِ. وكذلكَ لَفظُ التَّطَرُّفِ، فَإِنَّ التَّطَرُّفَ لا يُفيدُ شَيئًا لأنَّ التَّطَرُّفَ معناه أن تكونَ في طَرَف، لكن قد يكون النَّاسُ جَمِيعًا ليسوا على حَقٍّ، ويكون التسمية بأنَّ هذا مُتَطَرِّفٌ أنَّ هذا غلط، فيكونُ النَّاسُ هم الذين تَطَرَّفوا وذَهَبوا ذات اليَمينِ وذَاتَ الشِّمالِ، وهؤلاء القِلَّةُ هم الذين على الحَقِّ كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النَّحل: ١٢٠].

فَإِذَا التَّطَرُّفُ كَلِمَةٌ مُصطلح يطوي في داخله معاني تنفر من الالتزام بالدين والاعتماد على أحكامه وعقيدته بينما اللفظ الشَّرعِيُّ المنضَبِط الذي جاء في هذا المعنى هو الغُلُو. الغُلُوُّ مَذموم وهو الزيادَةُ عن ما أَذِنَ الله جل وعلا به في كتابه أو في سُنَّةِ رَسولِهِ صلى الله عليه وسلم زِيادَةٌ في أمورِ الاعتقادِ أو الزيادة في أمور الشَّرِيعَةِ أو الزيادة في أمورِ السُّلوكِ فكلُّ هذا غُلُو، والغُلُوُّ مَذموم حتَّى أَنَّ النَّبِيَّ لَمَّا مَسَكَ الجِمارَ قَالَ:(بِمِثْلِ هَذِهِ فَارْمُوا وَإِيَّاكُمْ وَالغُلُو».

الشَّيخُ مُحمَّد بن عبد الوهاب قامَ ضِدَّه في بِدَايَةِ دَعوَتِهِ بَعضُ عُلَماءِ نَجدِ الحَنابِلَةِ، ما سبب ذلك مع أنهم على عَقِيدَةٍ سَلَفِيَّةٍ صَحِيحَةٍ؟

الجواب: أَوَّلًا نجد وما حولها كانَ يَشيعُ فيها المذاهِبُ جَمِيعًا، وإنْ كانَ يَكْثُرُ فِيهَا المذهَبُ الحَنبلِيُّ.لأنه في القرن التاسع الهجري تقريبًا، رَحَلَ بَعضُ طَلَبَةِ العِلمِ إلى الشَّامِ وَأَخَذُوا عن مشايخ الحَنابِلَةِ هناكَ ثُمَّ أَتَوْا ونَقَلُوا المذهَبَ الحَنبَلِيَّ إلى نَجدِ لأنَّهم دَرَسوا على مَشايخِهِ فِي دِمَشقَ والشَّامِ، وبعد ذلكَ لَمَّا رَجَعوا درسوا تلك الكتب، فانتَشَرَ المذهَبُ الحَنبلِيُّ في ضمن ما انتَشَرَ. كانَ يَوجَدُ المذهَبُ الشَّافِعِيُّ، ويوجد الحنفي، ويوجد المالكي، وتوجَدُ الطُّرُقُ الصُّوفِيَّةُ أيضًا، ولهذا كانَ في بَعض التراجم تَجِدُ أنَّه يُقالُ فُلانٌ يَعني مِن عُلَماءِ نَجدِ في ذلكَ الزَّمانِ، كَانَ يُفتي على المذاهِبِ الأَربَعَةِ يَعْنِي مِثلَ مَا نَقَدَهم الشَّيخُ مُحمَّد بن عبد الوهاب في رسالة له، رحمه الله كانَ يُفتي على المذاهِبِ الأربَعَةِ، يَأْتِي السَّائِلُ العالِمِ أو الشَّيخَ يَقولُ له سُؤاله وبعد ذلك يسأله الشَّيخُ، يَقُولُ: مَا مَذهَبُكَ، فَإِذَا قَالَ مَذهَبِي شافِعِي أَجابَ بما نَصَّ عليه الشافعية في متونهم، لأنَّه يَحفَظُ مَتنَا هَنَا مَتنَا مِن كُلِّ كِتَابٍ، فَيُجِيبُ على حَسَبِ ذلك.

عُلَماءُ نَجدِ الحَنابِلَةُ، لا شَكَّ أنَّهم كانوا أسلَمَ مِن جِهَةِ العَقيدَةِ العامَّةِ، التي هي الإيمانُ باللهِ ومَلائِكَتِه، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر.العقيدة العامة، كانوا أسلَمَ مِن غَيرِهم لأجل أنَّهم اتَّبعوا ما كَتَبَه مُتَأَخِّرُوا الحَنابِلَةِ في هذه المسَائِلِ، لكن مُتَأَخِّرُوا الحَنابِلَةِ، كانوا رُبَّما وُجِدَ عندهم اشتباه في مسألَةِ الصِّفاتِ بين الإثباتِ، والتفويض فكان يَكثُرُ عندهم تفويض المعنى، ويَظُنُّونَه هو المقصود بمَذهَبِ أحمدَ، وَمَذهَبُ الإمَامِ أَحْمَدَ،رحمه الله تَمَامًا هو مذهَبُ أهل الحديثِ، والمتَّبِعين للسَّلَفِ هو تفويضُ الكَيفية وإثباتُ المعنى، معنى الصِّفَةِ للهِ جَلَّ وعلا، لأن المقصود من إجراء الصفات على ظاهرها، إثبات ما اشْتَمَلَت عليه من الصفاتِ. وهذا وقع فيه عَدَدٌ مِن المتَأَخرينَ مِنهم السفاريني في منظومته، وفي شرحه، ومنهم الشَّيخُ مَرعي الحنبلي، ومنهم الشيخ منصور البهوتي ومنهم بعض مشايخ نجد الحنابلة، كعثمان بن قايد، وجَمَاعَةِ المقصود من ذلكَ أَنَّهُم رُبَّمَا، وَقَعوا فِي التَّفويض في ذلك. لكن العقيدة العامة سليمة. أمَّا الجهة الثانية التي خالفوا فيها إمام الدعوة، رحمه الله، فهي مسألة توحيد العِبادَةِ، توحيد العِبادَةِ غَيرُ مسألة العقيدة العامة، توحيد العِبادَةِ خاص بالدَّعَوَةِ إلى أنَّ العِبادَةِ هي حَقٌّ اللَّهِ جَلَّ وعلا، لا يَصِحُ التَّوَجُهُ لأحَدٍ بِشَيْءٍ مِن العِبادَةِ، لا نَبِيٍّ، ولا مَلَكٌ، ولا إنسان صالح، ولا غَيرُ ذلك.لما دعا الشيخ، وافقه كَثيرٌ منهم في أصل التَّوحيد قالوا: هذا صحيح، لكنْ لَمَّا جَاءَ إلى الحكم على القبورِيّينَ على عَبَدَةِ القبورِ مِمَّن يَعبُدونَها، ويتوجهون إليها، خالفوه، ولهذا قالَ الشَّيخُ،رحمه الله، في كتاب له في رسالة، قال: وعَرَضتُ ما عِندي على عُلماء الأمصار ، ليس فقط ، نجد بل على عَدَدٍ من علماء الأمصار فوافقوني في التوحيد، وخالفوني في التكفير. وذلك أنَّه كَانَ يَظُنُّ أولئك العُلَماءُ، أَنَّ المسلِمَ كما ذَكَرَ الشَّيخُ في كَشفِ

الشُّبُهَاتِ، أَنَّ المسلِمَ الَّذِي يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ لا يُمكنُ أنْ يَكونَ مُرتَدا حتَّى لو عَبَدَ غَيرَ اللهِ أو ذَبَحَ لَقَبرٍ، أو ادعى في إنسان أنه له من صفات الألوهية، أو دعاه، واستغاث به، وأَنزَلَ حَاجَتَه بهذا الميّتِ أنَّه لا يُمكِنُ أَنْ يَكْفُرَ، وَإِنَّما هذه إمَّا شِركاً أصغر، وإمَّا أَنَّهَا مُحَرَّمات، وذُنوبٌ أَو أَنَّ بَعضُهم زادَ فَقَالَ: إنَّ هذه تُستَحسَنُ، لأنَّهم وسائط عند الله جل وعلا، والعياذ بالله، وهذا كُلَّه أعظمُ مِن الكلام في العقيدة. صحيحٌ أَنَّ عُلَماءَ الحَنابِلَةِ، وافقوا في العقيدة العامة، لكنهم خالفوا في هذا الأصلِ العَظيمِ، وهو توحيد العبادة، ولهذا توحيد العِبادَةِ أمرُه شَديدٌ، تَجِدُ مِن النَّاسِ مَن هو على عَقيدَةٍ عامة، يعني في الصفاتِ، وفي الإيمان بالله واليَومِ الآخِرِ والملائِكَةِ ، والكتب، والقَدَرِ تَجِدُه في الجُملَةِ مُستَقِيمًا. لكن إذا أتى توحيدُ العِبادَةِ، اختَلَفَ لذلك لا يُحكَمُ على الرَّجُلِ بِسَلامَةِ مُعْتَقَدِهِ، بِمُجَرَّدِ مَا تَرَى أَنَّهُ لَه كَلامٌ حَسَنٌ في العَقِيدَةِ العَامَّةِ، يَعني من أهل ذلكَ الوَقتِ مِن عُلَماءِ الحَنابِلَةِ، لأنهم قد يكون عنده اشتباه. **الفرق بين الصنم والوثن**

الجواب: **الصَّنَمُ** اسم للتمثالِ الَّذي صُوِّرَ على شكل صورَةٍ، سَواءٌ كانت صورة آدَمِيٌّ أو غَيرِ آدمي هذا يَختَلِفُ عن الوَثَنِ، **الوَثَنُ هو** كُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ، سَواءٌ أكانَ إنسَانًا أَم قَبرًا أَم شَجرًا أَم حَجرًا أم صليبًا، كُلُّ هَذا أوثان، لهذا النبي ، لما رَأى على عَدِيِ الصَّليب في صَدرِهِ، قَالَ: «أَلْقِ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنُ»، لأَنَّه يُعبَدُ. فالصَّنَمُ إذَا، وَالوَثَنُ يَشتَرِكانِ في أَنَّهما يُعبَدانِ، ويَختَلِفُ الصَّنَمُ عن الوَثَنِ، بِأَنَّ الصَّنَمَ مَا جُعِلَ مِن التَّماثيل على هَيئَةِ صورَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وأَمَّا الوَثَنُ فما كان ليس على صورة، والتمثال هي الصُّورَةُ بإجمال، تمثال صورة، بإجمالٍ سَواءٌ عُبِدَت أم لم تُعبد، أمَّا الأصنام فإنَّ **النبي صلى الله عليه وسلم كَسَرَ الأَصنام بعدَ القُدرَةِ عليها كما هو معلوم**، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام في الحديثِ الصَّحِيحِ : بُعِثْتُ لِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، أَوْ وَهَدْمِ الْأَوْثَانِ ولما خاطبته ثقيف قالت: نُرِيدُ تَأْخِيرَ هَدمُ اللَّاتِ سَنَةٌ، فأبى، قالوا: شهرا، فأبى، قالوا أسبوعا، فأبى، وأَرسَلَ إليها النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَن هَدَمَها هَدَمَ اللَّاتَ، وهكذا العُزَّى وَمَناه. هذا هو الفرق ما بينَ الصَّنَمِ والوَثَنِ، والتمثال، والبحث في هذا يَطولُ عن هذا الجَوابِ الْمُخْتَصَرِ.

ما هو تفسير الهم في هذه الآية (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَن رأى بُرْهَنَ ربه) [يوسف: ٢٤]؟

الجواب: الهم هنا ما يَقَعُ في النَّفْسِ مِن الخَواطر، وقد يتبعه فِعل قد يَتبَعُ الهَمَّ النَّفْسِي الفعل. والهَمُّ هو ما يجري في النَّفْسِ مِن أُمورٍ يَرغَبُ أَنْ يَفْعَلَهَا، وَيَتَوَجَّهُ لِفِعْلِها يَعني هناك حديث نفس، وهناك هم، وهناكَ عَزم ،وامْرَأَةُ العَزيزِ هَمَّتْ نَفْسًا، وفعلا، امرَأَةُ العَزيزِ هَمَّت بيوسفَ نَفْسًا، وفعلا، وأنا يوسف عليه السلام فلم يقع مِنه هَم أصلا، وهذا هو ما دلت عليه الآية في أصحُ التفاسير ، وسَبكُ الْآيَةِ تَقدِيرُه، ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ به ، ولولا أَنْ رَأَى برهانَ رَبِّهِ لَهَمَّ بها**، يعني أن الله جل وعلا من عليه منذ البداية أنْ لا يَقعَ في

نفسه شَيءٌ مِن الهم والرَّغْبَةِ فيها، لأنَّه رأى هذا البرهان والبرهان أصح الأقوال فيه هو ما قام في قلبه من الإخلاص، والتوحيد والرغبة فيما عند الله، والإنابة إليه.وهذا هو ما أخبر الله به في التعليل لذلك: كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف]، والمخلَص هو المخلِص الذي أخلص لمن أخلص له، وهكذا كان يوسف عليه السلام. وهذا هو أصح الأقوال في تفسير الآية. ومِن أَهلِ العِلمِ مَن يَقولُ إنَّه هَمَّ بها نَفْسًا، ولم يَهُم بها فعلا، لأنَّه رَأى البرهان، وهذا ليسَ بِقَوِيٌّ في التحقيق.إذًا يَكُونُ مَعنى الآيَةِ، ولَقَد همَّت به نفسًا وفعلا، ولولا أن رأى برهانَ رَبِّه، وهو توحيده والإخلاص له والخَوفُ مِنه ورَجَاؤُه لهم بها.إذا هو رأى البرهان ولذلك لرؤيته البرهان، وهو إخلاصه وتوحيده لم يَقَعْ مِنه، يعني، وهو كمال إخلاصه وتوحيده لم يقع منه ذلك الهم، وهذا هو الذي ينبغي أن يُسار إليه في تفسير الآية، وهو ما رَجَّحَه عَدَدٌ مِن المحَقِّقِينَ مِن أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، ومِن المتَأَخْرِينَ العَلامَةُ مُحمَّد أمين الشنقيطي في تفسيره، وجماعة.

سؤال : هل صحتِ الرواية عن الإمام أحمد،رحمه الله تَعَالَى، وَالَّتِي ذَكَرَها شَيخُ الإسلام في مجموع الفتاوى في جواز الحلف بالنبي وكيفَ يَبحَثُ طالب العِلمِ في صِحَّةِ مِثل هذه المقولات عن عُلَماءِ السَّلَفِ عاملة وعن الإمام أحمد خاصَّةً؟

الجواب: أَوَّلَا يَنبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أنَّ كُلَّ عالِمٍ لابُدَّ أن يوجد في أقواله ما لا يُتابَعُ عليه لا يوجد عالِمٌ في الأمة البتة أقواله كُلُّها صَوَابٌ مُطلَقٌ، لا يُتعَقَّبُ عليه أو يُتابع في كُلِّ ما قاله، وذلكَ لأَنَّ العِصمَةَ مِن الغَلَطِ في تبليغ الدِّينِ، إنَّما هي للأنبياء، قد سُئِلَ بَعضُ أهل العِلمِ عن غَلَطِ بَعضِ العُلَماءِ الكِبَارِ فِي بَعض مَسائِلٍ لا يُظَنُّ أَنَّهم يُخطئون فيها.

فقَالَ حَتَّى يَظْهَرَ الفَرقُ ما بينَ النَّبي، وما بين العالم لأنه لو كانَ كل مَا يَقولُه الإمام أو العَالِمُ صَوابٌ لاشتبه النَّبي بالعالم أو اشتبه العالِمِ بالنَّبي مِن حَيثُ الاتِّبَاعُ، يُقالُ يُتبَعُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كُلِّ شَيءٍ، يُتبَعُ الإمامُ الشَّافِعِيُّ في كُلِّ شَيء، ولكنَّ هؤلاء الأئمة تَجِدُ أقوالهم على الصَّوابِ، والسَّدَادِ إلَّا فيما نَدَرَ تحقيقا لعلمهم ودفعا لتشبيههم، وتشبههم بالأنبياء.وهذه حكمَةٌ مِن الله جل وعلا، سَواءٌ كانَ ذلك في بعض المسائل في الأصول أو كان في بعض المسائل في الفروع مِمَّا قد يَختَلِفُ فيه أهلُ العِلمِ وهذه الكَلِمَةُ الَّتي نُقِلَتْ عن الإمامِ أحمدَ هَذا صَحِيحٌ رَواهُ المروذي في منسكه، وهي معروفة عند الأصحاب.

والصحيحُ في المذهب، وعند أهل العلم المحققين، وعند أهل الحديثِ أنه لا يَجوزُ الحَلِفُ بِغَيرِ اللَّهِ جل وعلا لعموم قوله : «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ

كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»، والإمام أحمد لم يَنظُرُ إلى هذهِ المسْأَلَةِ على هذه الروايَةِ مِن جِهَةِ جَوازِ الحَلِفِ مُطلَقًا، ولكنْ قالَ: الشَّهادَةُ للنَّبِي مُحمَّد صلى الله عليه وسلم بالرِّسالَةِ قَرِينَةُ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ بالوَحدَانيَّةِ فَتَعظِيمُ الشَّهادَةِ له بالرسالة تعظيم واجب، والحلِفُ بِمُعَظَّمٍ مِمَّا قُرِنَ حَقُّه بِحَقِّ اللَّهِ فِي الشهادة هذا جائز فنظر إلى جهَةِ التَّعظِيم الواجب للنبي صلى الله عليه وسلم وإلى جهة اقتران اسمِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم ، والشَّهَادَةِ له بالرِّسالَةِ بالشَّهادةِ للهِ جَلَّ وعلا بالوحدانية، أشهَدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، والعُلَماءُ مِن الحنابلة، وغَيْرِهم كما حَقَّقَ شَيخُ الإسلام ابن تيمية فِي كِتابِ التَّوَسُّلُ، وَالوَسيلَةُ، وَفِي غَيرِهِ نقدوا هذا، وقالوا: لا تلازم بين الاقتران، وما بين الشَّهادَةِ، الاقترانِ بالشَّهادَةِ، وما بينَ الحَلِفِ. الحَلِفُ مَسأَلَةٌ، والتَّعظيم مسألةٌ أُخرى، وهذا ظاهِرُ أنَّه لا اقتران بينهم، ولذلك الروايَةُ الثَّانية عن الإمامِ أحمدَ أنَّه لا يُحلَفُ إلَّا بالله، وهي أصح الروايتين في ذلك، وليسَ مَذهَبَ الإمامِ أحمدَ، هو هذا وبَعضُ مَسائل الإمام أحمد يكون لها منشأ لا يُدرى ما هو منشأ، السُّؤالِ مَنشَأُ الإثارَةِ قد يَكونُ فِي جَوابِ علَى أَحَدِ المتنقصينَ لَمَقامِ الرِّسالَةِ، وقد يكون لا ندري عن أسبابه. **ولذلك نَقولُ هنا الروايَةُ الثَّانيَةُ هي المُعْتَمَدَةُ، وهي المَذهَبُ**، وهي التي تُوافِقُ ظَاهِرَ السُّنَّةِ، وهي التي توافق ما دعا إليه الإمام أحمد بأنَّه لا تتجاوز القرآن والحديث في هذه المسائل أصلية، ، وكيف يبحث طالب العلم في صِحَّةِ هذه المقولات عن عُلَماءِ السَّلَفِ عامة، وعن الإمامِ أحمدَ خَاصَّةً: أَوَّلَا لَيُعلَمُ أنَّ الاشتباه، والمشتَبِهاتِ أو المتَشابِهات قد تَقَعُ فِي كَلامِ أَهْلِ العِلمِ، قد يَقَعُ مِثلُ ما ذَكَرتُ لك بعد عن الصواب في مسألة أو مسألتين أو نحو ذلك فتكون عامة أجوبتهم على السَّدادِ أو بَعضُ أفعالهم ليست على السَّدادِ ويكون باقيها على السَّدادِ، وقد يَقَعُ اشتباهٌ فِي بَعْضِ الكَلامِ، فَإِذَا وَقَعَ فِي كَلامِ أَحَدِ العُلَماءِ شَيءٌ مِن المتَشَابِهاتِ فِي الكَلامِ فَإِنَّه يَجِبُ رَدُّه إلى النصوص، ويُفَسِّرُ كَلامُ العُلَماءِ خاصةً أهل الحديث بما يتفق مع النصوص لأنه لا يُظَنُّ بأحدهم أنَّه يُخالِفُ النَّصَّ مِن كِتابِ اللهِ جَلَّ وعلا، ومِن سُنة رسوله. أو ما كان عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ، وإذا وقعت المتَشابهات أيضًا فتنظُرُ إِلَى هَذَا المتَشَابِهِ وَتَرُدُّه إلى المحكَمِ مِن كَلامِه، ومِن مَذهَبِه، لهذا نرى أن عددًا من أهل العلم يَشتَبِهُ كَلامُه فِي مَوضِعٍ ويَتَّضِحُ بَرَده إلى الموضع الْآخَرِ مثلا قولُ الشَّافِعِي،رحمه الله تعالى في مسألة الاستحسانِ في أَنَّهُ قَالَ: يَعني أَنكَرَ الاستحسان ورده، وشنع فيه، وهو استَحسَنَ رحمه الله تعالى فِي أربَعَةِ مَواضِعَ مَعروفةٍ فِي كِتَابِ الأمْ، وَذَكَرَها ابنُ القَيِّمِ، رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد»، ونقلها الشَّافِعِيَّةُ، وجَمَاعَةٌ. إذا فيكون الاستحسانُ الَّذِي أَنكَرَه غَيْرَ الاستحسانِ الَّذِي أثبته، **فيُرَدُّ المُتَشَابِه مِن كَلامِهِ إِلَى المُحكَمِ وهكذا** في كلام ابن تيمية، وكلام ابن القيم، وَكَلامِ الأَئِمَّةِ، قد تَقَعُ لفظةٌ غَيْرُ وَاضِحَةٍ أو أَرَادَ أَنْ يَشرَحَ شَيئًا فاستعجل فلم يُفَصِّلُ فيه، فلا يُستدل بشَيءٍ مُشتَبِهِ ليس هو مَذهَبُ الإمام على أنَّه هو الكَلامُ. وهذا مِمَّا يَفتَرِقُ فيه طالِبُ العِلمِ المتَمَكِّنُ مِن طالب العلم القاري، الذي يَقرَأُ ويَستَنتِجُ مِن القِراءَةِ السَّرِيعَةِ، فَيَنظُرُ إِلَى كَلامِهِ ثُمَّ يَتَبَنَّاه، وهو لا يعرفُ مَذهَبَ العالِم، يعني مثلًا يَأْخُذُ كَلِمَةً لَشيخ الإسلام ابن تيمِيَّةَ وأهلُ العِلمِ بكَلامِهِ يَقولونَ:

لا ليس هذا بِمَذهَبِهِ، مَذهَبُه هو كذا. فَيَجِبُ عليه أن ينظر لهذه الكَلِمَةِ، ويَرُدُّها إلى مَواضِعِها المختَلِفَةِ الَّتِي يَحصُلُ بها إيضاحُ ذلكَ.

سؤال : هل الخلاف في كَونِ كُفر الحاكم بغير ما أنزَلَ اللهُ فِي وَاقِعَةٍ مُعَيَّنَةٍ كُفَرٌ أَكبَرُ أَو أَصْغَرُ، خلاف بين أهل السُّنَّةِ أنفسهم أو هو خلاف بين أهل السُّنَّةِ والخوارج ؟

الجواب: أهل السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ لم يختلفوا في هذه المسألة، بل هم مجمعونَ على أنَّ الحاكم المسلم إذا حَكَمَ بِغَيرِ ما أَنزَلَ اللهُ في واقِعَةٍ معينة مع التزامه بتحكيم الشرع ، فَإِنَّ كُفرَهُ، كُفرُ عَمَلٍ، كُفَرٌ أَصْغَرُ لَا يُخْرِجُه مِن المِلَّةِ. هذا هو الَّذِي صَح عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفِرُونَ [المائدة]، قال: ليس الكفر الذي تَذهَبون إليه، هو كُفر دون كفر، وسُئِلَ بن مَسعودٍ رضى الله عنه عن هذه الآية قال: هي الرِّشْوَةُ في الحكم، يعني أَنْ يَرشِيَ أَحَدُ المتَداعِبَينِ القاضي، فيَحكُمَ له بِخِلَافِ الحَقِّ حُكمًا بِغَيْرِ مَا أَنزَلَ اللهُ في ذلك. وهذا أعظمُ مِن الكَبائِرِ الأُخرى، الكبائر العَمَلِيَّةِ مِثلَ الزِّنا، والسَّرِقَةِ وَالرَّشْوَةِ، لأَنَّ مَعْصِيَةً سَمَّاها الله جلَّ وعلا كُفرًا لا شَكِّ تَكون أكبر من معصية لم يُسمها الله جل وعلا كُفرًا، ولا نَبيُّه عليه الصَّلاةُ والسلام. فأهل السُّنَّةِ مُتَّفقونَ بلا خلاف بينهم على أنَّ مَن حَكَمَ بِغَيرِ ما أَنزَلَ اللهُ لشَهْوَةٍ فِي حَادِثَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَرَدَت عليه قاضي حكم، وحاف في الحُكمِ عَرَفَ الحَقِّ، وحَكَمَ بخلافه، فإنَّه من أصحابِ الذُّنوبِ والوَعِيدِ، ولا يَخْرُجُ مِن المِلَّةِ.

سؤال : قَرَأْتُ في أحدِ الكُتُبِ أَنَّ الكُفر الاعتقادِيَّ هو المخْرِجُ مِن المِلَّةِ، أَمَّا العَمَلِيُّ فَغَيرُ مخرج مِن المِلَّةِ؟

الجواب: هذا تعبير غير صحيح، الكُفر الاعتقادِيُّ والكُفرُ العَمَلِيُّ، تَقسِيمٌ لَنوعِي الكُفْرِ، وليسَ تَفْسِيمًا لدرجة الكفر. يعني لأنَّ الكُفر قد يكون مصدره الاعتقاد، فيُسَمَّى كُفَرًا اعتقادِيًّا، وقد يكونُ مَصْدَرُهُ العَمَلُ فَيُسَمَّى كُفرًا عَمَلِيًّا. فالسجود للصنم، كُفْرٌ مِن جِهَةِ النَّظَرِ إليه، إنَّه كُفرٌ عَمَلِيٌّ، بمعنى أَنَّهُ كُفَرٌ لَعَمَلٍ عَمِلَهَ، سَواءٌ كَانَ اعْتَقَدَه أو لم يعتقد. فصورَةُ هذا الَّذِي فَعَلَه أَنَّهُ عَمَلٌ كُفْرِيٌّ، لهذا يُسَمَّى كُفَرًا عَمَلِيًّا، وتَركُ الصَّلاةِ عند القائِلِينَ بأَنَّهُ كُفْرٌ هو كُفَرٌ عَمَلِيٌّ، مِن جِهَةِ التَّقسيم، وقِتال المسلِم للمُسلم هذا كُفر عَمَلِيٌّ، وإتيانُ الحَائِضِ أَيضًا كُفَرٌ عَمَلِيٌّ وهكذا. وهذا الكُفْرُ العَمَلِيُّ قد يكون أكبر، وقد يكون أصغَرَ ، ومَن ظَنَّ أنَّ الكُفْرَ الاعْتِقَادِي، وَالْعَمَلِيَّ يُساوي الكفر الأكبر، والأصغَرَ فهو غَلَطٌ بَيْنٌ فِي هَذا المقامِ. لكنَّ الكُفْرَ العَمَلِيَّ يَنقَسِمُ إلى كُفرٍ أكبر، وإلى كُفر أصغَرَ، كَلامُ ابنِ القَيِّمِ، لو رَجَعْتُم إليه في أَوَّلِ كِتابه الصَّلاةُ، فَإِنَّه قَسمَ الكُفَرَ إلى اعتقادِي، وعَمَلِي وذَكَرَ أمِثْلَةَ الاعتقادِي، وَذَكَرَ أَمْثَلَةَ العَمَلِيَّ بما فيه مِن الكفر الأكبر والكفر الأصغَرِ، فيُنتبه لهذا لأَنَّهُ مُهِم في هذا الباب.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالْخَمْسُونَ: تَحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

قَالَ تعالى في سورةِ [آل عِمران: 78] : {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 78] رُوِيَ أنَّ الآية نَزَلَتْ في اليهودِ والنصارى جَميعا، وَذلِكَ أنَّهم حَرَّفوا التَّوراةَ والإِنْجيلَ، وَأَلْحَقوا بِكِتابِ الله تَعالى ما لَيْسَ مِنْهُ. واخْتَلَفَ النَّاسُ في أنَّ المحرَّفَ هَلْ كان يُكْتَبُ في التَّوراةِ أمْ لا؟ فَذَهبَ جَمْعٌ إلى أنه لَيْس في التَّوراةِ سِوى كلامِ الله تَعالى، وأنَّ تَحْريفَ اليهودِ لم يَكُنْ إلا تَغْييرا وَقْتَ القِراءَةِ، وتأويلا باطِلا للنُّصوصِ، وأمَّا أنَّهم يَكْتُبون ما يَرومونَ في التَّوراةِ على تَعدُّدِ نُسَخِها فَلا. واحْتَجُّوا لِذَلِكَ بمَا رُوِيَ أنَّ التَّوراةَ والإِنجيلَ كما أنْزَلَهما الله تَعالى لم يُغَيَّرْ منهما حَرْفٌ، وَلَكِنَّهُم يُضِلُّونَ بِالتَّحْريفِ والتَّأويلِ وَكُتُبٍ كانوا يَكْتُبونَها مِن عِندِ أنْفُسِهِم، ويَقولونَ: إنَّ ذَلِكَ مِنْ عِندِ الله، وما هو مِنْ عِندِ الله، فأمَّا كُتُبُ الله تَعالى فإنَّها مَحْفوظَةٌ لا تحوَّل. وبأنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كانَ يَقولُ لِليهودِ إلزامًا لهم: «ائتوا بِالتَّوراةِ فَاتْلوها إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» ، وهم يَمْتَنِعونَ عن ذَلِكَ، فَلَو كانَت مُغَيَّرَةً إلى ما يُوافِقُ مَرامَهُمْ ما امْتنعوا، بَلْ وَمَا كانَ يقولُ لَهُم ذَلِكَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم لأَنَّهُ يَعودُ على مَطلَبِهِ الشَّريفِ بالإِبطالِ. وَذَهَبَ آخَرُونَ إلى أنَّهُم بَدَّلوا، وَكَتموا ذَلِكَ في نَفْسِ كِتابِهِم، واحْتَجُّوا على ذلك بكثيرٍ مِنَ الظَّواهِرِ . ولا يَمْنَعُ مِن ذَلِكَ تَعَدُّدُ النُّسَخِ؛ لاحْتِمالِ التَّوَاطُؤِ، أو فُعِلَ ذَلِكَ في البَعْضِ دُونَ البَعْضِ، وَكَذَلِكَ لا يَمْنَعُ مِنْه قَولُ الرَّسولِ لَهُمْ ذَلِكَ؛ لاحْتِمالِ عِلْمِهِ بِبقاءِ بَعضِ ما يَفي بغرَضِهِ سالِما عَنِ التَّغْييرِ، إمَّا لِجَهلِهِم بوجْهِ دِلالَتِهِ، أو لِصَرْفِ الله تَعالى إياهُم عن تغْييرِهِ. وتَمامُ الكَلامِ في تفسيرِ الجَدِّ(يقصد به تفسير روح المعانى للألوسى الجد) عندَ الكلام على هَذه الآية، وكذا في (الجَواب الصَّحيح) لشَيخِ الإسلامِ. وكثيرٌ مِنَ الأمَّة المحمَّدِيّة سَلَكوا مَسْلَكَ الكِتابِيّينَ في التَّحريفِ، والتّأويلِ، واتِّباعِ شَهَواتِهِم. وقَالَ تَعالى في سورةِ [النِّساءِ: 46] :{مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: 46] والكلامُ عَلَى هَذه الآية- أيضا- مستوفى في التفسير

الْمَسْأَلَة الثَّامِنَةُ وَالْخَمْسُونَ: لَيَّ الأَلْسِنَةِ بِالْكِتَابِ.والأدلة في الكِتابِ والسُّنَّةِ على حصولِ هذا من أهل الكِتابِ ظَاهِرَةٌ بَيْنَةٌ فَأَهلُ الكِتابِ جَمَعوا في مواقفهم مِن كِتابهم المنزَّلِ مِن عند الله جل وعلا على رسولهم، جمعوا بين تحريفِ الكَلِمِ عن مواضعه، وبين لي الألسِنَةِ بالكِتابِ حينَ تِلاوَتِه. وتحريفُ الكَلِم عن مواضعه، الذي وصفوا به هذا كَثيرٌ عندهم حتَّى صَارَ كِتابُهُم مُحَرَّفًا،

وَإِذا تَلَوْا مِنه ما ليس بمُحَرَّفٍ، فَجَعَلُوا ألسنتهم تميلُ وتُغَيِّرُ بَعضَ الألفاظ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِن الكتب ﴾ [آل عمران: ٧٨] ومسألة التحريف "تحريف الكَلِم عن مواضعه - هذا في حالِ مَن قَبلَنَا كَانَ أَكْبَرَ مَا عُمِلَ تِجَاهَ التَّوراةِ والإنجيل. فإِنَّ أهلَ الكِتابِ مِن اليهود والنصارى، حَرَّفوا كتبهم، خاصة اليهود وهذا التحريف، وهو التبديل والتغيير، هل وقع تحريفًا للألفاظ؟ أو وَقَعَ تَحريفًا للمعاني ؟ اختَلَفَ أَهلُ العِلمِ في ذلكَ على ثَلاثَةِ أقوال:

فمنهم من قالَ: إِنَّ أهل الكتاب، حَرَّفوا ألفاظ كتابهم، وغَيَّروها، وبدلوها إلى غيرِها فَحَذَفوا بعضًا، وأبقوا بعضًا وزادوا، وهذا هو معنى التَّحريف المذكور في القُرآنِ في وَصفِهِم أَنَّهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مواضِعِهِ ﴾ [النساء:٤٦] وفي الآية الأخرى يُحَرِّفُونَ الكَلِم مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ٤١].

والمقصود بالكلم هو الكِتابُ الَّذي أُنزِلَ عليهم، وهذا ذَهَبَ إِليه جَمعٌ كَثيرٌ مِن أهْلِ العِلمِ.

وقال آخرون: إِنَّ تَحريف الكلم عن مواضعه تحريفُ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، هو تحريفُ مَعنى لا تَحرِيفُ لفظ، ومِمَّن ذَهَبَ إلى ذلك الإمام أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري في صحيحه»، حيث استدل على ذلكَ، بِقِصَّةِ آيَةِ الرَّجِمِ، وَأَنَّهم لما زَنى المحصَنُ مِن اليهود، قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «ائْتُونِي بِالتَّوْرَاةِ، فَأَتَوْا بها ليقرؤوها، فَوَضَعَ أَحَدُ أحبارهم يَدَه أو أصبُعَه على موضع الرَّجمِ، قَالَ عبد الله بن سلام: مُرْهُ فَليَرفَعْ يده فإنَّ الحُجَّةَ ثَمَّ أو إن الآيَةَ ثَمَّ، فَأَمَرَه برفعها، فوجدت. فاستدل بذلك على أنهم لو أرادوا تحريف اللفظ لغَيَّروه، وأنَّ التَّحريفَ إِنَّمَا وَقَعَ في تأويلهم، وإيقاعهم للألفاظ على غير معانيها، التي أرادها الله تعالى منها.

والقَولُ الثَّالِثُ: وهو اختيارُ المحَقِّقِينَ من أهل العِلمِ مِن السَّلَفِ والمتَأَخِّرينَ كشَيخ الإسلام ابن تيمِيَّةَ وابن القيم وجماعة، وهو الظَّاهِرُ مِن حَيْثُ الأدِلَّة، وأقوال المفَسِّرِينَ، إِنَّ التَّحْرِيفَ وَقَعَ فِي الْأَلْفاظِ، ووقع في المعاني جميعًا، فزادوا في الألفاظ، ونقصوا، وحَذَفوا، وغَيَّروا وأيضًا في المعاني فَسَّروها، وأوقعوها على غير تأويلها، ويضعونها على غير معانيها.

ومن تحريف المعاني والألفاظ : لَيُّ الألسِنَةِ بالكِتابِ أيضًا، فإنَّه يَقَعُ بِلَيِّ اللِّسَانِ، تَحريفُ اللَّفْظِ، وتحريف المعنى، وهذا هو الصحيحُ المصارُ إليه وأنَّ كُتب أهل الكتاب الموجودة بين أيدينا وبين أيديهم وقع فيها تحريفُ الألفاظ، وتحريف المعاني. وهذا منَعَ اللهُ جَلَّ وعلا القُرآنَ أنْ يكون فيه تحريف للألفاظ أو لي الألسِنَةِ بِاللَّفظِ، تحريفًا للفظ، وإيقاعا للألفاظ على غَيرِ ما أُنزِلَتْ، وذلك لحفظ الله جل وعلا لهذا القُرآنِ بِقَولِهِ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر) ولو أرادَ أَحَدٌ أَنْ يُغَيْرَ لَفظًا مِن القُرآنِ، لصاح به صِبيانُ المسلِمِينَ فَضلا عن عُلَمائِهِم، وعُقَلائهم لأجل أنَّ حِفظ القُرآنِ مِن الزَّوالِ ومِن التغيير مِمَّا اشتركت فيه الأمة جيلا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وزمانًا بعدَ زَمَانٍ بِحَيثُ اجْتَمَعَت على حفظها كتابها، بل إنها حفظت شكل الأداء، كيف يُؤَدَّى وكيف يُقرأ، لأنَّ الله جل وعلا قالَ لنَبِيِّهِ: فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءانَهُ ثم إِنَّ

عَلَيْنَا بَيَانَهُ)) (القيامة)، فاتَّبعَ النَّبِيُّ القِراءَةَ ونقلها للصَّحابَةِ، ونَقَلَها الصَّحابَةُ إلى من بعدهم، حتَّى تَواتَرَت قِراءاتٌ هي الحُجَّةُ في ذلك.

ولكن شابهت هذه الأمة أهل الكتاب في تحريف المعاني، وأنهم يوقعونَ مَعَانِي القُرْآنِ عَلَى غَيْرِ مَا أَرَادَ الله جل وعلا لها، وعلى غير ما أُنزِلَت، وهذا كثيرٌ في أَنَّهُم فَسَّروا القُرآنَ بِغَيْرِ مَا أُنزِلَ له. وأوَّل انحراف في ذلك، انحراف الخوارج في حَمْلهم لبعض الآياتِ عَلَى غَيْرِ مَعَانيها، ثُمَّ سَائِرُ الفِرَقِ الضَّالَّةِ، حَتَّى أتى الجَهمِيَّةُ، فأنزلوا القُرآنَ على غَيْرِ مَعانيه، فَجَعَلُوا مَثَلًا كُلَّ اسم من أسماء الله جل وعلا في القُرآنِ يُنَزَّلُ معناه على مخلوقٍ مُتفصِلٍ مِن المخلوقات، فيُفَسِّرُ الرَّحِيمُ بِالمرحومِ، وَالقَدِيرُ بِأَنَّهُ مَا قُدِرَ عليه، والمقدور عليه والخالق بالمخلوق، ونحو ذلك من التفسيراتِ الَّتِي هي تحريف للكلم عن معناه الذي أريد به.

وهكذا وَقَعَ فيها غُلاةُ المتَصَوِّفَةِ، والباطنيَّةِ الَّذِينَ أَنزلوا القُرآنَ على غير معناه بالإجماع، كما جعلوا مثلا الجبت والطاغوت ناسا من الصَّحابَةِ مِن عِلِيَةِ الصَّحابة رضوان الله عليهم، وجَعَلُوا الشَّجَرَةَ الملعونة هي : ، شَجَرَةَ كذا مثلا هي شجرَةَ بني أمية، أو أنَّها آل بكر، أو آل عُمَرَ ونحو ذلك. وفَسَّروا بعض الألفاظ، وأنزلوها على غير منهاجها، فأتوا مثلا بالحاجِزِ الَّذِي بِينَ البَحْرَينِ فَفَسَّروه بكذا من التفسيرات الباطنية المعروفة، وهذا كُلَّه من تأويل الكَلِم، وتحريفِ الكَلِم عن مواضعه. وهذا أيضًا وَقَعَ فِيهِ مَن خَالَفَ اللفظ والآيَ الَّتِي دَلَّتْ السُّنَّة أو استعمال القُرآنِ على معناها خالفوها إلى معنى لا دليل عليه مِثلَ مَن خالَفَ في الاستواء، مثلا أو في عُلُو الله جل وعلا، وهو أعظمُ مِن مسألة الاستواء، في عُلُو اللَّهِ جَلَّ جَلاله، عُلُو الذَّاتِ والقَدرِ، والقهر للجَبَّارِ جَلَّ جَلالُه، وتَقَدَّسَت أسماؤه. فخالفوا في ذلك، فجَعَلُوا العُلُو الَّذِي في القُرآن هو عُلُو قدرٍ ، وقَهْرٍ وَسَلَبُوا أَحَدَ المعَانِي في ذلك مع أَنَّ الآيات التي تدل على ذلك كَثيرَةٌ جِدًّا.

وكذلك في مسألة الصفاتِ، كَصِفَةِ الرَّحمَةِ، وصفة الاستواء، وصفاتٍ أُخرى ذاتِيَّةٍ فِعلِيَّةٍ للجَبَّارِ جَلَّ جلاله. وهكذا أيضًا في مسائل الإيمانِ، حَصَلَ تَحريفٌ فيأتي مَن يَقولُ عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) [التوبة]، وفي قوله في سورة الأنفالِ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ايَاتُهُ، زَادَتْهُمْ إيمانا ﴾ [الأنفال: ٢]، وفي قوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى وَاتاهُمْ تَقْواهم ﴾ [محمد]، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف]، مِمَّا يَدلُّ على زيادَةِ الإِيمَانِ. فيأتي مَن يَقولُ: إِنَّ هذه الآياتِ ليست في زيادَةِ الإيمان، وإنَّما زِيادَةُ الكَلَامِ مِن البحوثِ الكَلامِيَّةِ، الَّتِي لا يحسن الدخول فيها، مع ظهورِ القُرآنِ في ذلك، وكذلكَ الحُجَّةُ فِي عَدالَةِ الصَّحَابَةِ، بَنَصُّ القُرآنِ، فيُصرَفُ ذلك – كما تَفعَلُ طَوائِفُ مِن الشَّيعَةِ، والرَّافِضَةِ – إلى غير ذلكَ مَعَناها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]،

فيقولونَ: رَضِيَ عن بعضهم، وَيقُولُونَ:(مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بينهم ﴾ [الفتح: ٢٩]، يَقولونَ: والذين معه، يعني بَعضَ الَّذِينَ معه، وهكذا، وفي قوله جل وعلا في تَزكِيَّةِ أُمَّهَاتِ المؤمِنِينَ:(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيت ويطهركم تطهيرا [الأحزاب، بأنَّ هذا ليسَ كُلَّ آلِ البَيتِ، وَإِنَّما هم خُصوص أهلِ الكِساءِ، ونحو ذلك مما قد يكون فيه إذهاب للفظ عن معناه إلى تأويل آخر ليسَ عليه دَليلٌ.

وهكذا في مسائل التكفير والإيمان وَقَعَ خَبطٌ كَثيرٌ ، فَنَزَلَ القُرآنُ على غَيرِ تأويله، وهذه الصفَةُ، صِفَةٌ شائِعَةٌ في كُلِّ أصحاب الهوى، فإنَّهم لابد وأنْ يَقعَ منهم تحريفٌ للكتاب عن مواضعه، وللسُّنَّةِ عن مواضعها ،والواجب على أهل الإيمان أنهم كما حافظوا على ألفاظ القُرآنِ وعلَى آيهِ أَنْ يُحافظوا على مَا فَهِمَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ، رضوان الله عليهم من آي القُرآنِ سَواءٌ في أبواب العقائد، والتَّوحيد، أو في أبواب السُّلوكِ، وَالعَمَلِ لأَنَّنا نرى أنَّه استدل بالقُرآنِ على البِدَعِ المختَلِفَةِ، مِثلَ مَا اسْتَدَلَّ بَعضُ أَصحابِ الطُّرُقِ الصوفية على جواز ذكرِ الله جل وعلا بالاسم المفرَدِ (الله) لأنهم يَرُونَ أَنَّ أَفضَلَ الذِّكرِ هو، قول: الله، الله، الله، وتكرير ذلك دونَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أو نحو ذلك.ويَستَدِلُونَ لذلك بآيَتَينِ مِن القُرآنِ مِنها قول الله جل وعلا: ﴿وَقُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) في سورة الأنعام، وكذلك قوله في أوَّلِ السُّورَةِ(قُلْ أَى شيئ أَكْبَرُ شَهَادَةٌ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَى هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بلغ ﴾ [الأنعام:١٩]، فاستَدَلُّوا بذكر هذا الجَوابِ عَلَى أَنَّ هَذا مَشروع، وهو مِن غَرائب اتِّباع الهوى في الاستدلال على مثل هذه المسائل.

ومن مِثلِهِ مَا وَقعَ من بَعضِ مَن يَزعُمُ أنَّه يُحْسِنُ النَّظَرَ في الفقه أو أنَّه يتَكَلَّمُ مِن جَهَلَةِ المعاصِرِينَ، بِأَنَّ الحج ينبغي أن يكون مسموحا به في أشهر الحج كُلّها، لقوله تعالى: (الحَج أَشْهُرٌ مَّعْلُومَتٌ فَمَن فَرَضَ فيهن الحج)، قالوا: وتحديدُ الحَجَّ بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ، يَومٍ عَرَفَةِ، ويَومِ النَّحْرِ، وَيَومِ الحَادِي عَشَرَ، وَبَعْضِ الثَّانِي عَشَرَ، هَذَا إِنَّما هو للأفضلية، لكن ينبغي أن يُفتح له في جَميعِ الشَّهرِ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج) وهذا بلا شَكٍّ مِن تحريف الكتاب عن معناه، وعن مواضعه، لأَنَّ الأُمَّةَ مِن وَقتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى هذا الزَّمانِ لم يَفهَمْ أَحَدٌ مِنها هذا الفهم، فإجماعُها في فهم القُرآنِ حُجَّةٌ مَاضِيَةٌ؛ إِذْ لَا يَسوغُ لأحَدٍ أَنْ يَزعُمَ أَنَّه قضى قَرنٌ مِن القُرونِ، ولم يفهم حُجَّةَ اللهِ جَلَّ وعلا في القُرآنِ، فِي العَقِيدَةِ، أو في المناسِكِ العامة، في الصَّلاةِ والعِبادَةِ. ومِن مِثل مَن استَدَلَّ بالقُرآنِ على أنَّ الصَّلَواتِ ثَلَاثَةٌ، وَهَذَا فِيهِ أَشيَاءُ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ كما ذكرتُ لك تنوع أيضًا استدلالهم بالكِتابِ مُحَرَّفًا ومن أغرب، وآخر الاستدلالات من استدل مِمَّن يَنتَسِبُ إلى العِلمِ بجواز التماثيل المصَوَّرَةِ، بأنَّ الممنوع هو التماثيل التي تُعبَدُ، أَمَّا

التماثيل المصَوَّرَةُ الَّتِي لا تُعبَدُ، فَإِنَّه لا بأس بها، ويَستَدِلُّ على ذلك بقوله تعالى في سورَةِ سَبَا: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَايَشَاءُ مِن محاريبَ وَتَمْاثيلَ وَجفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقدُورٍ رَاسِيَات أَعْمَلُوا الَ دَاوُدَ شُكراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قالوا : إنَّه يُعمَل له هذه التّماثيل، وهذه التماثيل التي تُعمَلُ له عَامَّةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَأَنَّهَا تَمَاثِيلُ. لكنَّ هذا الاستدلال لا شَكٍّ أنَّه من تحريفِ الكَلِمِ ومِن الجُرأَةِ على كِتابِ اللهِ؛ لأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وعلا قالَ: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ ، وهو النَّبِيُّ، فَجَعَلَ صنعَةَ التَّماثيل ما يُوافِقُ شَرِيعَةَ هَذا النَّبِيِّ؛ فلم يَرجِعُ ذلك إلى ما يُريدونه هم، وما يشاءونه، وإنَّما ما يَأْذَنُ به هو، وهذا يعني أَنَّه مَرجُوعٌ فِي إِذْنِ مَا يُعْمَلُ مِن التماثيل إلى شَرِيعَةِ النَّبي عليه السلام. وجاءت شريعتنا بنسخ ذلك كما قال عليُّ لأبي الهياج الأسدي: (أَلَا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع صورَةً إِلَّا طَمَستَها، ولا قبرا مشرفا إلَّا سَوَّيْتَه)، رواه مُسلِمٌ فِي الصَّحِيحِ». وفي رواية للإمام أحمد في «المسند»: (ولكنْ أنْ لا تَدَعَ تمثالا إلَّا طَمَستَه) وَهُذَا ظَاهِرٌ؛ لأنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ بيته ووَجَدَ مُعلَّقًا سِتراً عليه صُوَرٌ فَقالَ: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذِّبُونَ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيوا مَا خَلَقْتُمْ، وَأَبِي أَنْ يَدخُلَ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ حَتَّى قُطَّعَ.

وفي روايةٍ أُخرى قالَ: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ التمَاثيلُ يُعَذِّبُونَ»، وإنْ كانَ الأَظْهَرُ هو قوله: «إِنَّ أَصْحَابَ هذِهِ الصُّورِ». وهذا من نوع الإفهام الجديدةِ المتَنَوّعَةِ فِي القُرآنِ دونَ النَّظر إلى ما أجمع عليه، وإلى تفاسير السَّلَفِ، فصار هناك عند أهل العصر عقلانية زائِدَةٌ واعتداد بالأفهام والفهوم **دونَ رُجوعٍ إلى ما كان عليه فَهْمُ السَّلَفِ، وفَهمُ العُلَماء، وفَهمُ أهلِ التَّأويل، وهذه الأُمَّةُ العِلمُ فِيهَا مُتَلَقَّى مُتَّصِل ببعضه**. فإذا جاءَ أَحَدٌ بفهم ليس له عليه دليل أو حُجَّةٌ أو سابق في فهمه ذلكَ فَإِنَّهُ يُرَدُّ عليه، لأنَّ الفَهم فيما ذَكَرَ الله جل وعلا في كتابه، وينبني عليه عَقِيدَةٌ أو شَرِيعَةٌ فإنَّه محفوظ في هذه الأمة، ومعروفٌ لدى عُلَمائِها. وهكذا اليَومَ فِي مَسائِلَ أُخَرَ تُعَدُّ من تحريفِ الكَلِمِ عن مواضعه بالمعنى، نعم هذه الأُمَّةُ مَنَّ الله عليها بحفظ كتابه مِن التَّحريفِ والزِّيَادَةِ والنقصان في الفاظه ولكنْ جَنى مَن جَنَىَ بِتَأْوِيلِه عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِه وفي وضع آيةِ عَلَى غَيرِ مَواضِعها. نسأل الله السَّلامَةَ والعافية، فشابَهوا أهل الجاهلية من الكتابين، والأُمِّيِّينَ.

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ وَالْخَمْسُونَ، تَلْقِيبُ أَهْلِ الْهُدَى بِالصَّابِئةِ وَالْحَشَوِيَّةِ.

تَلْقيبُ أهلِ الهدى بالصَّابِئةِ والحَشويَّةِ. فَقَدْ كانَ أهلُ الجاهلية يُلَقِّبونَ مَن خَرَجَ عن دينهم بالصَّابِيء، كما كانوا يُسَمُّون رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم بِذَلِكَ، كما وَرَدَ فِي عِدَّةِ أحاديث مِن صحيح البخاري ومسلم وغيرهما تنفيرا للناسِ عنِ اتِّباعِ غيرِ سبيلِهِم وهَكذا تَجِدُ كَثيرا مِن

هذِهِ الأمَّةِ يُطْلِقونَ على مَن خالَفَهُمْ فِي بِدَعِهِم وَأهْوائِهِم أسْماءً مكروهةً للناسِ. والصابئةُ أمة قديمةٌ على مذاهِبَ مختلفَةٍ، قَدْ تكَلَّمَ عَلَيْهَا أهلُ المقالاتِ بِما لا مَزيدَ عَلَيْهِ. وَأمَّا الحَشويَّةُ، فَهُمْ قَومٌ كانوا يَقولونَ بِجَوازِ وُرودِ ما لا مَعْنى لَهُ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ كالحُروفِ فِي أوائِلِ السُّوَرِ، وَكذا قَالَ بَعْضُهُمْ، وهُمُ الذينَ قالَ فيهِمُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ لَمَّا وَجَدَ قَوْلَهُمْ ساقِطا، وَكانوا يَجْلِسونَ فِي حَلْقَتِهِ أمامَهُ: "رُدُّوا هَؤلاءِ إلى حَشا الحَلْقَةِ"، أيْ: جانِبِها. وخُصومُ السَلَفيّينَ يَرْمونَهُمْ بِهَذَا الاسْمِ؛ تنفيرا للنَّاس عَن اتِّباعِهِمْ والأخْذِ بِأقوالِهِمْ، حَيْثُ يَقولونَ فِي المتَشابِهِ: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: 7] وَقَدْ أخْطَأت أسْتُهُمُ الحُفْرَةَ، فَالسَّلَفُ لا يَقولونَ بِوُرودِ ما لا مَعْنى لَهُ لا فِي الكِتابِ ولا فِي السُّنَّةِ، بَلْ يَقولونَ فِي الاسْتِواءِ مَثَلا: "الاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقولٍ، والإِقْرارُ بِهِ إيْمانٌ، والجُحودُ بِهِ كُفْرٌ. وَقَدْ أطالَ الكَلامَ فِي هذه المسْألَة شَيْخُ الإِسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ فِي كَثيرٍ مِنْ كُتُبِهِ، وَلَخَّصَ ذَلِكَ فِي كِتابِهِ (جَوابُ أهْلِ الإِيمانِ) فِي التفاضُلِ بَيْنَ آياتِ القُرْآنِ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَذْهَبِ السَّلفِ وَمَذْهَبِ الحَشويَّة، بأنَّ مَذْهَبَ الحَشْوِيَّةِ وُرودُ ما يَتَعَذَّرُ التّوصُّلُ إلى مَعْناهُ المرادُ مُطْلَقًا، فالاسْتِواءُ- مَثلا- عِنْدَهُمْ لَهُ مَعْنًى يَتَوصَّلُ إِلَيْهِ بِمُجَرَّدِ سَماعِهِ كُلُّ مَنْ يَعْرِفُ الموْضوعاتِ اللُّغَوِيَّةَ، إلا أنَّهُ غَيْرُ مُرادٍ؛ لأنه خِلافُ ما يَقْتَضيهِ دَليلُ العَقْلِ والنَّقْلِ، ومَعْنًى آخَرُ يَليقُ بِهِ- تَعالَى- لا يَعْلَمه إلا هو عز وجل. وَكَيْفَ يَكونُ مَذْهَبُ السَّلَفِ هو مَذْهَب الحَشْوِيَّة، وَقَدْ رَأى الحَسَنُ البَصريّ الَّذي هو مِنْ أكابِرِ السَّلَفِ سُقوطَ قَوْلِ الحَشْوِيَّة، وَلَمْ يَرْضَ أنْ يَقْعُدَ قائلُهُ تُجاهَهُ؟! والمقْصودُ أنَّ أهْلَ الباطِلِ مِنْ المبْتَدِعَة رَموا أهْلَ السنَّةِ والحَديثِ بِمثِلِ هَذا اللَّقَبِ الخَبيثِ. قال أبو مُحَمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ قُتَيْبَةَ فِي "تأويلِ مُخْتَلِفِ الأحاديث ": "إنَّ أصْحابَ البِدَعِ سَمَّوا أهْلَ الحَديثِ بِالحَشوِيّة، والنَّابِتة، والمتَجبرِّةِ، والجبرية، وسَمَّوهُم الغثاءَ، وهذه كُلُّها أنباز لم يأتِ بِها خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم كما أتى فِي القَدَرِيَّة أنَّهُمْ «مَجوسُ هَذِهِ الأمَّةِ، فإنْ مَرِضوا فَلا تَعودوهُمْ، وإنْ ماتوا فَلا تَشْهَدوا جَنائزَهُمْ» . وفِي الرَّافِضَةِ: «يَكونُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمانِ يُسَمَّوْنَ الرَّافِضة، يَرْفُضونَ الإسلامَ وَيَلْفُظونَهُ، فاقتلوهم، فإنهم مشركون» وفِي المرجئة: «صِنْفانِ مِنْ أُمَّتي لا تَنالُهُم شَفاعتي، لُعِنوا على لِسانِ سَبْعينَ نَبِيًّا: المرْجِئَةُ والقَدَرِيّة» . وفِي الخوارج: «يَمْرُقونَ مِنَ الإِسلامِ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيّةِ» ، و «كِلابُ أهْلِ النّارِ» . هذه أسماء مِنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتِلْكَ أسْماءٌ مَصنوعَةٌ انتهى.

وفِي "الغُنْيَةِ" (للشيخ عبد القادر الجيلاني) أنَّ الباطِنِيَّةَ تُسَمّي أهلَ الحديثِ "حَشْوِية" لِقولهم بالأخبارِ وتَعَلُّقهم بِالآثار. وفِي كِتابِ "حُجَّة الله البالِغة" (لشاه ولي الله الدهلوي) "واسْتطالَ هؤلاءِ الخائِضونَ عَلى مَعْشَرِ أهْلِ الحديثِ، وسَمَّوْهُمْ مُجَسِّمَةً، ومُشَبِّهَةً، وقالوا: هُمُ المتَسَتِّرونَ بِالبَلْكَفَة (من كلمة "بلا كيف.") وَقَدْ وَضَحَ لَدَيَّ وُضوحًا بَيِّنًا أنَّ اسْتِطالَتَهُمْ هَذِهِ ليستْ بِشَيْءٍ، وأنَّهم مُخْطِئونَ فِي مَقالَتِهِم رِواية وَدِرايةً، وخاطِئونَ فِي طَعْنِهِمْ أئمَّةَ الهُدى انتهى.

وَقَدْ قَالَ العَلاّمَةُ ابنُ القَيّمِ في "كافِيَتِهِ الشَّافِيَةِ": "فَصْل في تَلْقيبِهِم أهلَ السُّنَّةِ بِالحَشْوِيّة، وبيان مَنْ أوْلى بِالوصفِ المذمومِ في هذا اللَّقَبِ مِنَ الطَّائفتَيْنِ، وَذِكْرِ أوَّلِ مَنْ لقب بِهِ أهْلَ السُّنَّةِ مِنْ أهْلِ البِدَعِ:

وَمِنَ العَجائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنِ اقْتَدى ...بالوَحْيِ منْ أثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

حَشْوِيَّة يَعْنونَ حَشْوا في الوُجو ...د وفَضْلَةً في أمَّةِ الإنْسانِ

وَيَظُنُّ جاهِلُهمْ بِأنَّهُمْ حَشوا ...رَبّ العِبادِ بداخلِ الأكْوان

إذْ قَوْلُهُمْ فَوْقَ العِبادِ وَفي السَّما ...ء الرَّبُّ ذُو المَلَكوتِ والسُّلْطانِ

ظَنَّ الحَمِيْرُ بأنَّ "في" لِلظَّرْفِ وال ...رحمنُ مَحْوِيّ بِظَرْفِ مَكانِ

وَاللهِ لَمْ يُسْمَعْ بذَا من فرْقَةٍ ...قَالَتْهُ في زَمَنٍ مِنَ الأزْمانِ

لا تَبْهَتوا أهْلَ الحديثِ بِهِ فَما ...ذَا قَوْلهم تَبًّا لِذي البُهْتانِ

بَلْ قَوْلُهُم: إنَّ السَّماواتِ العُلا ...في كَفِّ خالقِ هَذِهِ الأكْوانِ

حَقّا كَخَرْدَلَةٍ تُرى في كَفِّ ...ممسِكِها تَعالى الله ذُو السُّلْطانِ

أَتُرَوْنَهُ المحْصورَ بَعْدُ أم السّما؟ ...يا قَوْمَنا ارْتَدِعوا عَنِ العُدْوانِ

كَمْ ذَا مُشَبِّهَة وَذا حَشْوِيَّة ...صرف بلا جحد ولا كتمان

تدْرونَ مَنْ سَمَّتْ شُيوخكمُ ...بِهذا الاسم في الماضي مِنَ الأزْمانِ

سمى بِهِ عمرو لعَبد اللهِ ذا ...ك ابن الخَليفةِ طارِدِ الشيطانِ

فوَرِثتم عَمروا كما وَرِثوا لِعَبد الله ...أنَّى يسْتوي الإرثانِ

تَدْرونَ مَنْ أَولى بِهَذَا الاسمِ ...وَهو مُناسِبٌ أحواله بِوزانِ

مَنْ قَدْ حَشا الأوراقَ والأذْهانَ مِنْ ...بِدَعٍ تُخالِفُ مقتضى القرآن

هَذَا هو الحشويُّ لا أهلُ الحَديثِ ...أئمَّةُ الإسْلامِ والإيْمانِ

ورَدوا عذَاب مَناهل السّنَنِ التي ...لَيْسَتْ زبالَةُ هَذِهِ الأذهانِ

ووَرَدتُمُ القَلُّوطَ (القلوط وتسمية العامة قليط: مجرى ماء في دمشق؛ تنحدر إليه مياه المطابخ والحمامات والمراحيض) مُجْرى كُلِّ ذِي ال ...أوساخ والأقذارِ والأنْتانِ

وَكسلْتم أنْ تَصْعدوا لِلورْدِ من ...أثر الشرائع خَيْبَةَ الكَسلانِ

وحاصِلُ هَذِهِ الأبياتِ أنَّ أعْداءَ الحَقِّ وخُصومَ السُّنَّةِ وأضْدادَ الكِتابِ والسنَّةِ يُلقِّبونَ سَلَفَ الأمَّةِ المتَمَسِّكينَ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ بلَقَبِ "الحَشْوِيَّةِ" فالخَواصُّ مِنْهُم يَقْصِدونَ بهَذَا الاسْمِ أن المسَمَّى بِهِ حَشْوٌ فِي الوُجودِ وفَضلَةٌ فِي النَّاسِ، لا يُعْبأ بِهِمْ، ولا يُقامُ لَهُمْ وَزْنٌ؛ إذ لَمْ يَتَّبِعوا آراءَهُمُ الكاسِدَةَ، وأفكارَهُمُ الفاسِدَةَ. وأمَّا العَوامُّ مِنْهمْ فَيَظُنّونَ أنَّ تَسْمِيَةَ السَّلفِ بِالحَشْوِيّة لِقَوْلهِمْ بِالفَوْقِيةِ، وَكَوْن الإلهِ فِي السَّماءِ، بِمَعْنى أنَهُمْ اعْتَقَدوا– وحاشاهُم– أن الله تَعالى حَشْوُ هَذَا الوُجودِ، وأنه داخِلَ الكوْنِ تَعالى الله عَمَّا يَقولُ الظَّالِمونَ عُلُوّا كَبِيرا. وهذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ عَلى أهْلِ الحَدِيْثِ. عَلى أنَّ هذا القولَ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَد. وأعداءُ الحَقِّ فِي عَصْرِنا هَذَا عَلَى هذا المسْلَكِ الجاهِلِيِّ، فَتَرَاهُمْ يَرْمونَ كُلَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِالكِتابِ والسنةِ بِكُلِّ لَقَبٍ مَذْمومٍ بَيْنَ المسْلِمين، واللهُ المسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفونَ.

وهذه المسألة فيها غورٌ كبيرٌ وعَظيمٌ على حَقيقَةِ أَثَرِ الأَلْقابِ فِي الصَّدِّ عن سبيل الله جل وعلا، فأهل الكُفْرِ مِمَّن بُعِثَ إليهم الأنبياء أو أهل البدع من أتباع الأنبياء استخدموا الألقاب المنَفّرَةَ عن ما لا يَرُونَ أنَّه حَقٌّ، استخدموا الألفاظ المنفّرَةَ عن الهدى والدين والإسلام ليُغْرُوا النَّاسَ بالكُفْرِ ومُلازَمَتِه، واستخدَمَ أهل البدع أيضًا الألفاظ المنفّرَة عَنِ السُّنَّةِ لِيُغْرُوا العَوامِ، وَجَهَلَةَ المتَعَلِّمِينَ بمُلازَمَةِ البِدَعِ، وَتَركِ السُّنَنِ إمَّا عن قصد أو عن تأويل، والصُّباةُ جَمْعُ صابي كقضاةٍ جَمْعُ قاضي، وتُجْمَعُ على جمع سالم بالصَّابِئِينَ كما جاءَ فِي القُرآنِ لكنَّ جَمْعَ الصَّابِي الصّبَاةُ صَحِيحٌ، وتُجْمَعُ أيضًا على الصَّابِئِينَ كما جاءَ فِي غَيرِ مَا آيَةٍ. وأَمَّا الحَشْوِيَّةُ فَإِنَّهَا تُنطَقُ بسكونِ الشّينَ، ويُقالُ أيضًا بفتحها تكونُ حَشَوِيَّةٌ، وَتَكُونُ حَشَوِيَّةٌ. أمَّا إذا نطقت بسكونِ الشَّينِ فهي ظاهِرَةُ النّسبَةِ مِن أنَّ نسبتها إلى الحَشْوِ، وهو ما لا قيمة له. ولذلك قال قائلهم فِي وصف أهلِ السُّنَّةِ يَقولُ : إن هؤلاء هم حَشْوُ الخَلقِ أَو حَشْرُ الوُجودِ، واسْتَعْمَلَها ابنُ القَيِّمِ أَيضًا فِي بَيتٍ فِي قوله: (وَلَكِنَّهُمْ حَشْوُ الْوُجُودِ) إِلَى آخرِه. فاستعمال لفظِ الحَشْوِيَّةِ على أهل السُّنَّةِ بأنَّ هؤلاء لا قيمة لهم، ولا قيمة لهم لأنَّهم لا يستعملون عقولهم، فهم يُلمزونَ دائما بأنهم مُتَأَخُرُونَ، لا يفهمون، لا يُعملونَ عُقولهم، يُريدونَ القَديمَ لَا يَهْتَمُّونَ بالتفكير الحديث.. إلى آخِرِ ما يُلمزونَ به منذُ شاعَتِ البِدَعُ، وَظَهَرَ نَجمُ التَّجَهُم والاعتزال. وأَمَّا الحَشَوِيَّةُ بفتح الشين فهي مُشكِلَةٌ مِن جِهَةِ النِّسبةِ، ولكن قد يُقالُ: نِسبَةٌ أيضًا إلى الحَشْوِ أو إلى الحَشَا، ويُنسب إليه الحَشَوِيَّة.بمعنى أنَّهم حَشْو لا قيمة لهم كما زَعَمَ أولئكَ قَبَّحهم الله ويُريدُ إمام الدعوة رحمه الله بهذا البَيانِ أَنَّ مَسألة الألقاب في الصَّدِّ عن الحَقِّ

قَديمَةٌ، وأهل الهدى لايَهتَمُّونَ بماذا لقبهم به أعداؤُهم، قد يُلقبونَهم بألقاب مُختلِفَة بل الأنبياء وصفوا بأوصاف بَشِعَةٍ مِن الجُنونِ والسِّحرِ والكِهانَةِ مِن أشياء أخرى في ذلكَ مِمَّا يُنَفِّرُ بِهِ عَن رِسالَةِ الأَنبياء. هذا في الحَقيقَةِ كَثيرٌ فِي القُرآنِ في تبيين استعمالِ الكُفّارِ للألقاب المختَلِفَةِ، فَمَثَّلَ رحمه الله تعالى بِهَذَينِ المثالين ليَدُلُّ عَلى ما مَضَى قَبْلَ بِعثَةِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم وفِي بعثَتِه أيضًا بتسمية مَن اتَّبَعَهُ بِأَنَّهُم صَابِئَةٌ، وَبِمَا بَقِيَ فِي الأمة من تسمية أهل السُّنَّةِ بالحَشَوِيَّةِ أو الحَشْوِيةِ.أَمَّا التَّسْمِيَةُ بِالصَّابِئَةِ فَإِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا خَرَجَ برسالته، وأعلن بعثته وما أَرسَلَه الله جل وعلا به للنَّاسِ، قالَ المشركونَ صَبَأَ.وكانَ عَمُّه أبو لَهَبٍ يَتَّبِعُه في الأمكِنَةِ الَّتي يَذهَبُ إليها ويقول: إنَّه صابِئٌ كَذَّابٌ، وَيُرِيدُ أَنْ يَنسِبَهُ إِلَى الصَّابِئَةِ، وهنا ما معنى أنه صابي أو صَبأَ أو هؤلاء صابئون فيما اتهم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أو فيما اتهم صحابته، للعلماء في التفسير والحديث لهم وجهان في ذلك:

الوجه الأَوَّلُ: أَنَّهم يُنسبون إلى الخُروج عَمَّا عليه دين أولئكَ فمَن خَرَجَ عَن شَيْءٍ قِيلَ لَهُ صَبَا، بِمَعنى خرج عن دين هؤلاء. وقال آخرون: إنَّ الصَّابِئَةَ عند العرب هم الذين يُوَحْدونَ الله جل وعلا، ويُنسبونَ إِلَى طَائِفَةِ الصَّابِئَةِ الذين كان أصلهم عندَ العَرَبِ أَنَّهم مُوَحْدونَ. فالصَّابِئَةُ ليسوا في الحَقيقَةِ فِرقَةً عُبَّادِ الكَواكِبِ، ولكنهم طائِفَةٌ كانوا مُوَحِدِينَ فَدَخَلَهُم الشِّرِكُ، وَبَقِيَ فيهم عَدَدٌ مِمَّن أخذوا بالتَّوحيد، وكانوا يُسمونَ الصَّابِئة. فهؤلاء نُسِبوا يعني الصَّحابَةُ نُسِبوا إلى القَولِ، قَولِ الصَّابِئَةِ الَّذي هو إنكارُ الآلِهَةِ المختلِفَةِ، والقَولُ بالوحدانية.لكن على هذا الثَّانِي لَا يَسْتَقِيمُ مِن كَونِه لَقَبًا يُذَمُّ به أولئك فكأنَّ الإمام رحمه الله تعالى في قوله تلقيب أهل الهدى بالصباةِ والحَشْوِيَّةِ يُرِيدُ منه أنَّه كانَ عَيبا، وهو أنهم خرجوا عن ما كان عليه أولئك فهو مصير إلى القولِ الأَوَّلِ وهو أنَّ الصُّباةَ هم الخارجون عن دين قومهم وعن ما عليه أهل العقل والرَّجاحَةِ مِن أقوامهم. وهناك قول ثالث أيضًا في المسألة لكن لا مجال له هنا، يُطلَبُ فِي التَّفسِيرِ وقد بَحَثه المفَسِّرون في سورة البقرة عند ذكرِهِ الصَّابِئِينَ في الآية. وما لقب به أو رُمي به الرُّسُلُ وأتباعهم من الألقاب نوعان: منها ألقاب تقدح في استقامتهم الخَلقية أو الخُلُقِيةِ.ومنها القابٌ تَقدَحُ فِي الدِّينِ نَفْسِهِ.الشَّيخُ رحمه الله أَرادَ مَا يَقدَحُ فِي الدِّينِ لا ما يَقدَحُ فِي الذُّواتِ، فلا يَدخُلُ فيه التلقيبُ أو الوصف بأنَّهم مجانين كما وُصِفَ نوح عليه السَّلامُ بأنَّه مجنون قال جل وعلا:(وَقَالُوا مجنون وازدجر ﴾ [القمر) كما قيل عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه ساحِرٌ أو مجنون أو كاهِن إلى آخره، هم يُريدونَ أَنْ يُلْقِّبُوهُ بِشَيْءٍ يَخْرُجُ به عن دين قومه، وهو الذي يُناسِبُ ذِكرَ الحَشْوِيَّة لأنَّه أيضًا متعلق بدينهم لأنَّهم خرجوا وصاروا حَشْوا عن الجماعة، ولم يلتزموا أو يقولوا بما كان عليه النَّاسُ في ذلك. والنبي صلى الله عليه وسلم في مسألة الألقاب نَهى أشَدَّ النهي عن أن تكون الألقاب في الإسلام مدعاة للتَّفَرُّقِ والعصبية عليها، فكما ذم أولئك في التسمية بالتلقيب بالصَّابِئَةِ ونحو ذلك، فأيضًا يُذَمُّ مَن لَقَّبَ فِي الإسلام لَقَبًا يَكونُ مُنَفِّرًا عن الإسلام أو يَكونُ مُفَرِّقًا لجَمَاعَةِ المسلمينَ. فهذا اسم المهاجرين واسم الأنصار مع أنهما اسمانِ شَرعِيَّانِ جاءا في القُرآنِ وفِي السُّنَّةِ، لكن إذا كان ذلكَ لَقَبًا وليس وصفًا للتمييز، ولكن لقب

يكون عليه معاداة وموالاةٌ فَإنَّه يُدم أو يكون فيه تنفير أو ترغيب فإنَّه يعني بحَسَبِ هَذا يَكونُ مَذموما؛ لأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ مِنَ التَّنابُرِ بِالْأَلْقَابِ. ولهذا تعلمونَ قِصَّة الأنصاري والمهاجرين، لما قال الأنصاريُّ: يا للأنصار، وقال المهاجِري: يا للمهاجرينَ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم :(أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟»، وغَضِبَ عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ سَبَبُ ذلكَ أَنَّهُ اسْتَغَلَّ الاسم الشَّرعِي للتفريق والدعوة إليه عَصَبِيَّةٌ حَتَّى يُضادَّ طَائِفَةٌ مِن المسلِمِينَ، وَهُذَا مِن جنس ما كان عليه أهل الجاهلية في أنَّهم يُلقبون للتغير أو للغلبة أو نحو ذلك. ولما بدأت الأمة الإسلامية في التوسع ودَخَلَتها الآراء المختَلِفَةُ المتَبَايِنَةُ، صَارَتِ الْأَلْقَابُ كَثِيرَةٌ جِدًّا لكن أكثر من لقب بالألقاب المشينة هم أهل السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ أتباعُ السَّلَفِ الصَّالِح، فيما لقبوا به تنفيرًا منهم قيل عنهم أنهم حَشْوِيَّةٌ، وقيل عنهم أنهم مُجَسِّمَةٌ، وقيل عنهم أنهم مُجْبِرَةٌ، يَعني يَقولونَ بِالجَبرِ، وقيل عنهم: إنَّهم نوابتُ، قيل عنهم : إنَّهم نَواصِبٌ، قيل عنهم: إنهم عوام، أيضًا هذا مِن الأسماء كما يَقولونَ الرَّافِضَةُ فِي السُّنَّةِ هذا من العامة، وأشياءُ كَثِيرَةٌ مِمَّا يُذَكِّرُنِي في ذلكَ. وقد ذكر بن أبي حاتم ، تعمله تعالى في رسالته «التَّوحيده أنَّ مِن صِفاتِ أَهْلِ البِدَعِ أَنَّهُم يُلَقِّبونَ أَهْلَ السنة ب..، وذكَرَ عِدَّةَ ألقاب في ذلك مِنه أنَّهم حَشْوِيَّةٌ أَو أَنَّهم نَوَاصِبُ.. إلى آخِرِه. والألقاب قد تكون مذمومة، وقد تكون مأذونا بها، فالأمة صار فيها ألقاب لكنْ لا تُذمُّ جَمِيعًا؛ إنَّمَا يُذم مِنها ما كانَ مُحدثا لموالاة عليه، ومعاداة خلافًا للموالاة والمعاداة على أصل الإسلام والسُّنَّةِ. أمَّا إذا كانت للتعريف بهم، فإنَّ لهذا، أو للوصف، فإنَّ هذا لا بأس به مثل ما يُسَمَّى تَقُولُ: هؤلاء حنابلة أو شافِعِيَّة أو مالكية أو حَنَفِيَّةٌ فهذه ألقاب ونسبةٌ إلى شَيءٍ ولكن هذه للتعريف فإذا انقلَبَ هذا التعريف إلى موالاة عليه أو معاداة أو تَعَصُّبٍ عليه أو ذَمّ الطَّائِفَةِ الأُخرى بالاسمِ فَإنَّه يَكُونُ حِينَئِذٍ تَلْقِيبًا بما يُرضى ويكونُ عَصَبِيَّةٌ جاهِلِيَّةً، وَيَكونُ مَذمُومًا مِن هذا الوجه.أمَّا وَصفُ الفِرَقِ الثنّتين وسبعينَ فِرقَةً بأسماء بناءً على ما هم عليه دونَ لَقَبٍ فَإنَّ هذا لا يُعَدُّ مِن التلقيبِ مِن الألقاب، وإنَّما هذا مِن ذِكرِ وَصفهم الَّذِي تَمَيَّرُوا به لأنَّ الجَمَاعَةَ وَالسُّنَّةَ كانت في الصَّحَابَةِ رضوان الله عليهم فمَن خَرَجَ عن الجَمَاعَةِ وُصِفَ بِوَصفِ يُناسِبُ مَا خَرَجَ بِه عنها:

فمَن خَرَجَ عن الجَمَاعَةِ بالخروج على إمامِ المسلمين وقِتالِ المسلمينَ سُمِّيَ خَارِجِيًّا لِأَنَّهُ خَرَجَ.

ومَن خَرَجَ عنهم بنفي القَدَرِ سُمِّيَ قَدَرِيًّا لأنَّه خَرَجَ بهذه الصَّفَةِ.

ومَن خَرَجَ عنهم بالاعتزال سُمِّيَ مُعتَزِلًا لأنَّه اعتزل عن الجماعة.

ومَن خَرَجَ عنهم بإرجاء أهل المعاصي مُطلَقًا وعَدَمِ إدخال أو إرجاء العَمَلِ عن الإيمانِ فإنَّه يوصَفُ بذلك إلى آخره. فهذا إذًا لَيسَ لَقَبًا لهم، تلقيبًا لهم من البداية، ولكنه وصف به خرجوا عن جَمَاعَةِ المسلمينَ، فَوُصفوا بالوصفِ الَّذِي خَرجوا به. ولذلك عامة هؤلاء يَرضُونَ بما وصفوا به، فنفاةُ القَدَرِ يَفتَخِرُونَ بأنهم قَدَرِيَّةٌ، وَالخَوارِجُ يقولونَ: نعم نحنُ خَوارِجُ والشِّيعَةُ يَقولونَ: نعم نحن شيعة، والمرجي يَقولُ: نعم أنا مُرجِيٌّ، وَالمعْتَزِلِيُّ يَفْخَرُ ويقولُ: نعم أنا مُعتَزِلي، هذا ليسَ مِن التلقيبِ الَّذِي يَجري بحثه. فأهل

السنة والجماعةِ إذا لم يُشاركوا أهل الجاهلية في هذا الوصف بينَ أهل الإسلام، وإِنَّمَا الَّذِي شارَكَهم في هذا الوَصفِ حقيقة الاعتزال أو التَّجَهُم، أو أهل البدع، لأنَّهم وصفوا أهلَ السُّنَّةِ بِصِفاتِ خارِجَةٍ عَمَّا يَتَّصِفُونَ به، فقولهم: إنَّهم حَشْرٌ أو حَشْوِيَّةٌ هذا لا علاقة له بما يدنونَ به مِن السُّنَّةِ أو بما يتصفون به من الأوصاف، إنَّما هم يقولون هؤلاء حَشْرُ الوُجودِ، يعني لا قيمة لهم.

وأَمَّا هذا العصر الحاضر فإنَّه شَهِدَ من استخدام الألقاب في التنفيرِ مِن الحَقّ ما لم يُشْهَدُ فيما قبل واستَغَلَّ الإعلام المأجور، والإعلام الكافِرُ ، ومَن يتبَعُه مِن جَهَلَةٍ مَن يَسْتَعْمِلُ الإعلام في بِلادِ المسلمين، استخدمت الألقابُ الَّتِي يُلَقَّبُ أهل الإسلام بها أعداءهم في التنفير منه. فأتوا بلفظ أو لَقَبِ الإرهابيين، وبلقب الأصوليين، وبلَقَبِ المتَطَرِّفِينَ، وَبِلَقَبِ الرَّجعِيّينَ، وَبِلَقَبِ كذا وكذا... إلى آخره، الوهابيين، وأشباه كَثيرَةٌ مِن هذه الألقاب في الحقيقة إذا جاءَت النفوسُ الضَّعِيفَةُ أو مِمَّن لا عِلمَ عِندَه مِن الجَهَلَةِ لَا شَكٍّ توقِعُ في النَّفْسِ حَرَجًا، توقع في النَّفْسِ التَّنفير مِن قَبولِ الحَقّ الَّذِي كَانَ عليه هؤلاء. بل إنَّ دَعوَةَ الإمامِ المصلح، لَمَّا انتشرت في الأمصارِ وبَدَأَ ذِكرُها لقبوا بالوَهَّابِيَّة، وخُلعت عليهم صفاتٌ مُختَرَعَةٌ حَتَّى يُنَفَّرَ منهم بأشياء كثيرة ذكرنا لكم كثيرًا منها، بل الآن في كثير من البلاد إذا سُمِعَ لَفظُ الوَهَّابِيَّةِ أَصَابَ المسلِمَ الجاهل نفورٌ مِن الاسم فقط لأجل التلقيب. واليوم أيضًا إذا قبلَ فُلانٌ إرهابي، أو فُلانٌ هَذا شكله كذا يَدلُّ على أنَّه إرهابي أو يَدلُّ على أنه أصولي رُبَّما قابَلَه بَعضُ النَّاسِ فَأَصابَه نَفرَةٌ منه لمجَرَّدِ ما يَتَذَكَّرُ مِن الأسماءِ، يَخشَىٰ أَنْ يَكُونَ هَذا كذا وكذا مِمَّا يكون وهذه مَعرَكَةٌ قَديمَةٌ بينَ الحَقّ والباطل وبين الهدى والضَّلال كان فيها أعداء الأنبياء مِن قَبْلُ وهي اليوم في أعداءِ وَرَثَةِ الأَنْبِياءِ ومَن سَلَكَ سَبيلَهم في هذا الزَّمانِ، وصَدَقَ الله جل وعلا إِذْ يَقولُ: ﴿وَكَذَلِكَ جعَلْنَا لِكُلِّ نَبِي عَدُوا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان]. وإذا كان الله جل وعلا أقامَ أنواع العَداوَةِ وأذِنَ بها كُونًا مِن أعداء الرُّسُلِ وأعداء أتباعهم في القديمِ فَإِنَّ أهل هذا العصرِ لا شَكُّ أَنَّهم لا يُمكِنُ أَنْ يَتَخَلَّصوا من ذلك، ولهذا الواجب على الجَميعِ أَنْ لا تُستَخدَمَ الألقاب التي تَصُدُّ عن الحَقّ بشكل أو بآخر.

والثاني أن تلتزم الألقاب والألفاظ الشَّرعِيَّة، وأن لا يُحدث أشياء، لأنَّ كُلَّ لَفظٍ يُحدَثُ سَوفَ يَكونُ له رصيد في ذهن الإنسان يُفَسِّرُه بحَسَبِ ما يَتَصَوَّرُ مِن هذا اللفظ، يعني يُقالُ الإرهابِيُّونَ، هو سيكون في نفسه صورَةٌ عن ذلك تُنفرُه رُبَّمَا مِمَّن جَاءَه بالسُّنَّةِ وكانَ أَبَعَدَ النَّاسِ عَنِ الغُلُو الَّذِي يُذمُ شَرعًا. وأيضًا وَصِيَّةٌ لِكُلِّ مُلْتَزِمِ بِالحَقِّ وَمَن هَداه الله جل وعلا ولزِمَ هذا الطَّرِيقَ أَنْ يُصَابِرَ نَفْسَه وأَنْ لَا يُغنيه عن الحق أو عن الاستمساك به أو عن الدعوة إليه والدفاع عن الإسلام في كُلِّ مَكَانٍ أَنْ لَا يَصْرِفَهُ عنه ما يَسْمَعُه مِن ذلكَ مِن تلك الألقاب، فالنبي ، قيل عنه: صابئ، بل تتبعه أبو لَهَبٍ ويَقولُ في كُلِّ مَكَانٍ لا تطيعوه إنَّه صابِي كَذَّابٌ، وأنا أدرى الناس به، وهكذا قيل عن الصحابة، بل قيل عنه ساحِرٌ، كاهن مجنون، إلى آخِرِهِ الَّذي تُخبِرُ عنه، وكان صابرًا مُحتَسِباً عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَأَمَرَ صَحابته بأن لا يقولوا إِلَّا ما يَحسنُ

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأمُرُ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجهلِينَ ﴾ [الأعراف]. والعاقِبَةُ لا شَكٍّ للمُتَّقِينَ، فهنا نَحْنُ مأمورونَ بالصَّبْرِ مِن جِهَةٍ وَبِالثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ وَمَأْمُورُونَ أَيضًا بالدفاع عن دين الله جل وعلا والجهاد في ذلك ما استطعنا إلى ذلك سَبِيلًا، والسُّنَّةُ مَاضِيَةٌ وَمَا أَشبَهَ اليَومَ والليلة بالبارحة، فهذه سُنَّةُ اللهِ جل وعلا في عباده.نسأل الله السَّلامة والعافية من كُلِّ شَر يحيكه أهل الشر لنا ظاهِرًا وباطنا.

الْمَسْأَلَةُ السِّتُونَ افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ، **والتَّكذيبُ بِالحَقِّ**. وَشواهِدُ هَذه المسألة مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ كثيرٌ، وهذا دَأَبُ المخالِفينَ لِلدِّينِ المبِينِ، كاليهودِ والنَّصارى، يَدَّعونَ أنَّ ما هُمْ عَلَيْهِ هو الحَقُّ، وأنَّ الله أَمَرَهُم بِالتَّمَسُّكِ بهِ، وأَنَّ الدِّينَ المبِينَ ليس بِحَقٍّ، وأنَّ الله تَعالى أمَرَهُم بِتكْذيبِهِ، كُلُّ ذَلِكَ لاتِّبَاعِ أَسْلافِهِم، لا يَنْظُرُونَ إلى الدَّليلِ، وهكذا أهلُ البدَعِ والضَّلالاتِ يَعْتَقدونَ بدَعَهُم الحَقَّ، وأنَّ الله أمَرَهُم بِها، وأنَّ ما عَلَيْه أهلُ الحَقِّ مُفْتَرىً، لا يُصَدِّقونَ بِهِ.وكُلٌّ يَدَّعي وَصلا للَيْلى ...وَلَيْلى لا تُقِرُّ لَهُمْ بِذاكا

ومن الافتراء ،**الافتراء على المؤمنين رمْيُ المُؤمنينَ بِطَلَبِ العلوِّ في الأرض**. قَالَ تَعالى في سورةِ [يُوْنُسَ: 78] : {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} [يونس: 78] هذا الكلامُ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ موسى عليه السلام أَلْقَمَهُمُ الحَجَرَ، فانْقَطَعوا عن الإِتيانِ بِكلامٍ لَهُ تَعَلُّقٌ بكلامِهِ عليه السلام فَضلا عَن الجَوابِ الصَّحيح، واضْطُرُّوا إلى التَّشَبُّثِ بِذَيْلِ التقليدِ الذي هو دَأَبُ كُلِّ عاجِزٍ مَحْجوجٍ، وَدَيْدَنُ كلِّ معالج لَجوجٍ. على أنَّه اسْتِئْناف وَقَعَ جَوابا عَمَّا قَبْلَه مِن كلامه عليه السلام على طَرِيقَةِ: قال موسى، كأنه قِيلَ: فَماذا قالوا لِموسى عليه السلام حِينَ قَالَ لَهُم ما قال؟ فقِيلَ: قالوا عاجِزينَ عن المحاجَّةِ: {أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} [يونس: 78] أيْ: الملكُ. كَما رُويَ عَنْ مجاهِدٍ، وَعَنِ الزَّجَّاجِ أنَّه سُمِّيَ الملْكُ كِبْرِياءَ، لأنَّه أكبرُ ما يُطلَبُ مِن أمرِ الدّنيا. فَكُلُّ مَن دعا إلى الحَقِّ رَماه مَن كان على المسْلَكِ الجاهليِّ أنَّ قَصْدَه مِنَ الدَّعْوةِ طَلَبُ الرِّئاسَةِ والجاهِ، مِن غَيرِ أنْ يَنْظُروا إلى ما دَعا إليه، ومَا قَامَ عَلَيْهِ مِنَ البَراهِينِ.

ومن الافتراء ،**رمي المؤمنين بالفساد في الأرض**شاهِدُ هَذِهِ المسْأَلة آياتٌ كَثيْرَة، حاصِلُها أنَّ المخالِفينَ لَهُمْ مِنَ المؤمنين مُفْسِدونَ فِي الأرضِ. انظُرْ إلى قولِهِم في أَوائِلِ سورةِ "البَقَرَةِ" الآية: 11، كَيْفَ ادَّعوا أنَّهُم هُم مُصْلِحونَ، وقد رَدَّ الله عليهم بقوله: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: 12]. وَهَكَذا من هو على شاكِلَةِ أولَئكَ، مِنَ الذينَ اسْتَحَلُّوا غَيَّهُمْ وتَمَكَّنَتْ بِدَعُهُمْ مِنْ قُلوبِهِمْ:

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ...يَجِدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالا

نسأله تعالى أَنْ يُثبتَ قُلوبنَا عَلَى دينهِ القَوِيمِ، وأقدامَنا على الصِّراطِ المستقيم.

ومنه ،**رمي المؤمنينَ بِتَبْديلِ الدِّين**. قال تعالى في سورة [غافر: 26] : {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: 26] اعتقدوا أنَّ ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلالِ هو الدِّينُ الحقُّ، وَمَنْ

أراد تَحْويلَهُمْ عَنِ اعْتِقادِهِمُ الكاسِدِ، وصَرْفَهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الغَيِّ، [فَقَدْ أرادَ] إخراجهُم من الدِّينِ، وإفسادًا في الأرْضِ. وَهَكذَا دَيْدَنُ أَعْدَاءِ الحَقِّ في كُلِّ عَصْرٍ."

ومن الافتراء أيضاً ،اتهام أهل الحق بالفساد في الأرض: كَونهُمْ إذا غُلِبوا بِالحجَّةِ، فَزِعوا إلى السَّيفِ والشَّكْوى إلى الملوكِ، وَدَعْوى احْتِقارِ السّلْطانِ، وَتَحْويلِ الرَّعِيَّةِ عَنْ دِيْنِهِ. قال تَعالى في سورةِ [الأعراف: 127] : {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} [الأعراف: 127] فانظُرْ إلى شَكْوى آلِ فِرْعونَ وَقَومِهِ إِلَيْهِ، وَتَحْريشِهِمْ إيَّاهُ عَلَى مُقاتَلَةِ موسى عليه السلام وَتَهْييجِه، وَمَا ذُكِرَ في آخِرِ الآية مِن احْتِقارِ ما كانوا عَلَيْهِ.

وهذه الخصال كلها من خصال أهل الجاهلية الأميين والكتابيين على حَدٌ سَواءٍ، وَكُلٌّ مِنهم يَشرَعُ دينا لم يأذن به الله، ويقول : إنَّ الله جل وعلا يُحِبُّ ذلكَ الدِّينَ وَيَرْضَاهُ يَنسِبُهُ إلى اللهِ جَلَّ وعلا رِضاءَ به أو تشريعا.**وافتراءُ الكَذِبِ على اللَّهِ جَلَ جَلالُهُ، يَكُونُ بأَحَدِ أَوجه:**

الوَجهُ الأَوَّلُ: أَنْ يَفْتَرِيَ بِالقَولِ بأنَّ الله جل وعلا أوحى إلي كذا وكذا أو أنَّ اللهَ أَنزَلَ كذا وكذا، وهذا لا شَكٍّ أنَّه أعظمُ الافتراء على الله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وهذا أعظم أنواع الافتراء، وهو الافتراء صريح واضح وإفك

النوعُ الثَّاني: أنْ يفترِيَ على الله جل وعلا شَيئًا كَذِبًا بأن يقول هذا دينُ اللهِ الَّذِي يَرْضَاهُ، وَيَقولونَ: إنَّ اللهَ أَمَرَ بذلكَ، مِثلَ مَا كَانَ يَفْعَلُه أهل الجاهليةِ مِن بَعض الفَواحِشِ ويَقُولُونَ: إنَّ اللَّهَ أَمَرَ بذلكَ، قَالَ جِلَ وعلا في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِي بِالْقِسط .... الآيات فهذه نسبة الله جل وعلا في أنَّه يَرضى بذلك وأمر به.

النوع الثالِثُ: أَنَّه يُقال: هذا حَلال، وهذا حرام فيُحِلُّ ما يَشاءُ، ويُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وتحليل أمرٍ أو تحريمُ أمرٍ آخَرَ مَعناهُ أَنَّ اللهَ أَحَلَّه أو أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهِ، وَهَذا أَقَلُّ دَرَجَةً مِمَّا سَبَقَ. لأنَّ هذا فيه التصريح الله أمرنا بها، وهذا أقلُّ دَرَجَةً لأنَّه قال هذا حلالٌ، وَمَعلومٌ أَنَّ الحَلالَ هو ما أحَلَّه الله، وأنَّ الحَرام هو ما حَرَّمه الله، وهذا افتراء بالكَذِبِ عَلَى اللهِ جَلَّ وعلا. ومن هذا النوعِ قولُ اللهِ جَلَّ وعلا في آخِرِ سورَةِ النَّحلِ: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)) فَجَعَلَ قَولَ القَائِلِ هذَا حَلالٌ، وَهَذَا حَرَامٌ مِن نَفْسِه بدونِ دليل، وحُجَّةٍ واضحةٍ بها ينجوا من افتراء الكَذِبِ على الله، هذا من افتراء الكذب على الله، ولهذا كان جماعة من أهل العلم، إذا لم يَكُن التحريم منصوصًا عليه في الكِتابِ أو في السُّنَّةِ الصَّحيحَةِ، فإنَّهم لا يتَجاسَرُونَ على القول بأنَّه مُحَرَّم، لهذا كانَ عِندَ الفُقَهَاءِ شَيْءٌ يُسَمُّونَه كَرَاهَةَ التَّحريم، عدلوا عن لفظ المحَرَّم إلى لفظ

الكَراهَةِ لأَنَّه لا دليل ظَاهِرٌ عندهم على تحريمه، لكنَّ القَوَاعِدَ تَقتضي أنَّه مُحَرَّمٌ فَعَدَلُوا عن ذلك على قولهم: هذا أكرهه، ونَكرَهُه إلى آخِرِه. بل إنَّ طائِفَةٌ مِن أهل العلم لا يستعملون فيما هو منهي عنه أو فيما يُرِيدُ أَنْ يَنهى عنه، لا يَسْتَعْمِلُونَ لَفَظَ هذا مُحَرَّم بل يَستَعمِلُونَ هذا لا يصلح، لا تفعل هذا ممنوع، ونحو ذلكَ مِمَّا يَكونُ فيه بَرَاءَةٌ للذِّمَّةِ، تَخَلصًا مِن أَنْ يَجْزِمَ فِي شَيْءٍ وَيَدخُلَ فِي افْتِرَاءِ الكَذِبِ. وهذا مِمَّا يَجِبُ العِنايَةُ به وأن لا يلجأ طالب العلم أو العالِم إلى أن يقول في شَيءٍ جَزمًا، هذا مُحَرَّم، إلَّا ما كَانَ التَّحْرِيمُ فيه نَصٌ وَاضِحٌ بَيْن، وما كان فيه مِن مَسائل الاجتهاد فليس له أنْ يَنسب للشريعة ما لم يعلمه بيقين، لأنه حينَئِذٍ يَخشى أن يَكُونَ تَجَرّأً عَلَى اللهِ جَلَّ جَلالُه.لهذا الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا يتدافعون الفتوى لذلك.

النَّوعُ الرَّابعُ مِن افْتِرَاءِ الكَذِبِ على الله، فيما جاء في الكتاب والسُّنَّةِ، أَنَّه يَفعَلُ العبدُ ما يَفعَلُ مِن عِبادَتِهِ أو ينتهي عن ما ينتهي أو يستبيحُ شَيئًا أو يُحَرِّمُ على نَفْسِه شَيئًا بفعله، فيكون الفعل دالا على إضافية هذا العَمَلَ أو الفعل للدِّينِ فإذا انضَمَّ معه مَن يُسَقِّهُ غَيْرَه ويَعتَقِدُ أنَّ هذا هو الدِّينُ الحَقُّ، صارَ افتراء على الله جل وعلا، وهذا له أمثلَةٌ كَثِيرَةٌ في القُرآنِ والسُّنَّةِ وبينها ما جاءَ في سورة الأنعام من قوله جلَّ وعلا: (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَام وَحَرْثُ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَام حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَام لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٣٨].هم لا يذكرون اسم الله عليها، فعل، وهذا حِجر، هذه أنعام من شأنها كذا، وهذه من شأنها كذا، لكن يَعتقدونَ أنَّ هذا دينٌ، ويَدخُلُ في ذلكَ كُلُّ ما نُسِبَ مِن الأفعال إلى دين ما، ويقولون: إنَّ هذا هو الدِّينُ الَّذِي يَرضاهُ اللهُ، فَيَكونُ حينَئِذٍ مِن افتراءِ الكَذِبِ عَلَى اللهِ جَلَّ وعلا. وهذا كان عليه الأميونَ مِن مُشرِكي العَرَبِ، وفي سورة الأنعام عِدَّةُ آيَاتٍ فيها ذِكرُ الافتراء على اللَّهِ جَلْ وعلا ، في صِفاتٍ وأنواعٍ مُختلِفَةٍ.

النوع الخامس: افتراء أهل الكتاب على الله جل وعلا في نسبةٍ عيسى عليه السلام إلى الله جل وعلا بنوة، أو نِسبَةُ العَزيرِ إلى الله جل وعلا بُنوَّةً ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة: ٣٠]. وهذا من الافتراء على الله جل وعلا الذي هو من أعظم الافتراء على الله. ويَدخُلُ في ما افتروهُ على الله جل وعلا من تفاصيل ديانتهم وتشريعاتهم وتعظيماتهم لعلمائهم أو لأشخاصهم ومُعَظَّميهم، كُلُّ هذا داخِل في ذلك. **النَّوعُ السَّادِسُ والأخير** : ما فُعِلَ في هذه الأمة من أنواع الانحراف في العقيدة أو في التشريع أو في السُّلوكِ واعتقاد ذلكَ دِينًا يُحِبُّه الله جلَّ وعلا ويرضاه منهم، بل دَعوَةُ النَّاسِ إليه، بل تسفيه وسَبُّ مَن لم يَأخُذ به، فعِبادَة الطواغيت، وعِبادَةُ القُبور ، وعِبادة الأوثان، وعبادة الأضرحة، وعِبادَةُ الأنبياء والصَّالِحِينَ، كُلُّ هذه استدل لها بأن الله يرضاها ، بل حُببت، بل كَانَ عُلَمَاءُ ضَلَالَةٍ يُرشِدُونَ النَّاسَ إِلَى أَنَّه

لا طريق إلى اللهِ إلَّا مِن هذا الطريق، ولا وسيلة إلى اللهِ إلَّا من هذه الوَسيلَةِ، بل مَن تَرَكَ هؤلاءِ عَدُّوه خارجا عن الدِّينِ. فقدر أنَّه لا يَذهَبُ إلى القبر أو لا يَدخُلُ، يُعَدُّ قد فَعَلَ عَظيمَةً مِن العَظائم. وقد حَدَّثَني بَعضُ المشايخ أنه مَرَّةً كَانَ مَعَ مجموعةٍ مِن عُلَمَاءِ بَلَدٍ ما فأرادوا أنْ يَدخُلُوا – ضمنَ زِيارَةٍ لهم أو شَيءٍ – أرادوا أنْ يَدخُلوا أحَدَ الأَضرِحَةِ، بأن يُفتَحَ لهم الباب ويَدخُلونَ في الدَّاخِلِ لِيُصَلُّوا فيه، وغَيرُ ذلكَ مِن أنواعِ البِدَعِ والخُرافاتِ أو الشِّرْكِيَّاتِ الَّتي قد تُعمَلُ، فأبى أنْ يَدخُلَ في ذلك، فشُنِّعَ عليه جدا من أجل ذلك، لأنَّ هذا، كيف هذا هو الطريق، وهذا الذي قاله فلان وقاله فُلانٌ، فنسبوا هذا إلى دينا الله جل وعلا واستَحسَنوه وعابوا من خالفه ولم يَجْعَلُوا المسأَلَةَ اختيارية أو مُباحَةً، بل جعلوا هذا هو الدين ومن لم يفعلهُ كانَ مَلومًا، فَعَكَسوا دين الله جل وعلا في الحقيقة، فهذه حقيقة الافتراء على الله جل وعلا مِن هذا النوع. فمَن عَبَدَ غَيْرَ اللهِ جل وعلا من هذه الأشياء أو عَبَدَ الصَّالِحِينَ وَتَوَجَّهَ لهم وَعَظَمَهم بتعظيمٍ، غَيْرِ مأذون فيه، غَيرِ التَّعظيمِ الشَّرعِي الَّذي يَليقُ بهم مِن الدُّعاء لهم ومن الاقتداء فيما وافقوا فيه السُّنَّةَ ونَحوِ ذلك. فهذا قد شرع دينا لم يأذن به الله، لهذا الله جل وعلا سَمَّاهم شُرَكَاءَ، قَالَ سُبحانه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَوا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]. وإذا شُرِعَ مِن الدِّينِ ما لم يَأْذَن به الله وأُضيف إلى اللهِ ورُدَّ غَيْرُه، صارَ افتراء على الله جل وعلا لأنَّهم يَقولونَ للنَّاسِ هَذا دينُ اللهِ الَّذي يَرضاه،ألا ترى وتسمع مايقوله دعاة الشرك من الصوفية الشركية والأشعرية القبورية عن دعاة التوحيد والسنة عندما ينكرون عليهم الاستغاثة بالأموات والطلب من الأموات ودعاء الأموات واتخاذهم واسطة إلى الله ويتركون دعاء الله الواحد الأحد ،يرموهم بالوهابية والحنبلية والارهابيون والمتطرفون والمتشددون والأصوليون كل هذا الافتراء من أجل دعوتهم إلى التوحيد الذى أمر الله به رسله وأنزل به كتبه ،وهكذا في مَسائلِ العَقائدِ بما حَدَثَ في هذه الأُمَّةِ لكُلِّ فِرقَةٍ ضَالَّةٍ نَصِيبٌ مِن الافتراء على الله وكذلك في مَسائلِ التشريع، مَن جَعَلَ أحكامًا بمحض هَواهُ وجَعَلَها هي الشريعة، أو جَعَلَ هذا هو الفقة وأنَّ هذا هو الدين وهي بمحض هَواهُ لا دليل عليها من الكتاب والسُّنَّةِ، وَسَفَه غَيرَه ورَدَّ عليه، هذا أيضًا يُخشَى أَنْ يَكُونَ مِمَّن دَخَلَ في الافتراء على الله بقوله: هذا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ، دونَ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ. وكذلك من اخترع تشريعاتٍ مُناهِضَة للتشريعاتِ الشَّرعِيَّة وجَعَلَها منسوبَةً للدِّينِ، لَمُوافَقَتِها لقوانين شرقية أو غربية، فهذا أيضًا افتراء على الله جل وعلا. وهكذا في أنحاء شَتَّى، وكذلك السُّلوك، فمَن شَرَعَ طَرِيقَة في السُّلوكِ إلى اللهِ جَلَّ وعلا أو تَربِيَةِ القَلْبِ أو إصلاح القلب بما لم يكن عليه هدي النبي صلى الله عليه وسلم ولا هَدي صحابَتِه، وَجَعَلَ ذلكَ طَرِيقًا قَوِيمًا، أو جَعلَه صِرَاطًا إِلَى اللهِ مُسْتَقِيمًا، فلا شَكٍّ أنَّه أيضًا افترى على الدِّينِ ما لم يأذن به الله وأحدَثَ شَيْئًا وَقَالَ: إنَّ هذا هو المحدِثُ هو الدِّينُ الذي يرضاه الله جل وعلا كما يفعله أصحابُ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ المختَلِفَةِ، فهؤلاء لهم نصيب من افتراء الكَذِبِ على دين الله جل وعلا بفعلهم، ولو لم يَقُولُوا أَو لم يَعتَرِفُوا أَنَّ هَذَا كَذِبٌ، فنفس الفعل فيه كَذِبٌ.

نسأل الله جل وعلا أنْ يُرِيَنا الحَقَّ حَقًّا وَأَنْ يُرِينَا البَاطِلَ بِاطِلًا. والمسألة عظيمة اليوم فيما يَحصُلُ مِن نِسبةِ أشياء إلى الشرع وهي خارِجَةٌ عن الشرع. وكَثِيرُ اليَومَ مِمَّا تَسْمَعُون مِن فَتاوى وآراء وأشياء مختلفة، بل حُسنَت عِبادَةُ أو حُسْنَ بَقَاءُ الأوثان والأصنام ونُسِبَ ذلك إلى الشَّرِيعَةِ، هذا مِن طَوام الأمورِ ومِمَّا يَدخُلُ في افتراء الكَذِبِ فِي دِينِ اللهِ، نسألُ الله السلامة والعافية

ومن افتراء الكذب المعاصر ،الافتراء على العلماء! يَقولونَ: إنَّ العُلَماء الكبار كُفَّارٌ – لا حول ولا قُوَّةَ إلَّا بالله – لأنهم يُظاهرونَ المشركِينَ ويُوالونهم ويُعَلِّمُونَ هذا لصغارِ السِّنِّ ويُرَبُّونَهم عليه،جهلاً وغلواً

الجواب: أولا: الواجب على كُلِّ مُؤْمِنٍ بالله جل وعلا، يرجو لقاءه، وَيَخشَىٰ لِقَاءَهُ أَنْ يَحذَرَ أَتَمَّ الحَذَرِ مِن أَنْ يَقُولَ بلا عِلم، وأنْ يَجْتَرِئ على ما ليس له به حُجَّةٌ، سيما في مسائل الاعتقاد، ومَسائِلِ الإيمانِ والتكفير، ومَسائلِ الحَلالِ والحَرامِ.وإذا كان في الحلال والحرام قال الله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ متاع قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النحل)، هذا فيما يقولُه بَعضُ مَن ليس له حُجَّةٌ بلفظ : هذا حلال – وليس عنده بَيْنَةٌ ، وهذا حرام – وليس عنده بَيْنَةٌ ، وجَميعُ مَسائِلِ القَولِ على الله بلا عِلمٍ في مَسائِلِ العَمَلِيَّاتِ، والفقهيَّاتِ، ومَسائل العقيدة، وهي أشَدُّ، تَدخُلُ في هذا السَّبِيلِ؛ ولهذا حَرَّمَ الله جل وعلا بِنَهيِهِ أَنْ يَقْفُوَ المرْءُ مَا لَيسَ بِهِ عِلمٍ، وأن يقول ما ليس له به علم، كما قال جل وعلا: ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة]، وقال: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء]، وفي الحَدِيثِ الصحيح الذى رواه الامام أحمد فى المسند وابو داود وابن ماجة في السنن عن أبي هريرة رضى الله عنه : «مَنْ أُفْتِيَ بِفُتيَا غَيْرِ ثَبَتٍ، فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ). ومن أعظم ما وَقَعَ في الأمة من الانحراف عن الحق، وتكفيرِ المسلِمِ الَّذِي ثَبَتَ إسلامه، وعَدَمِ الاستبيان منه، وهذا كان له بوادِرُ في زَمَنِ الصَّحَابَةِ فِي زَمَنِ النَّبِي ، فَعَلَّمَنَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم كيفَ تُعالج هذه البوادر، وكيفَ يُنظر إلى هذا الأمر. فهذا عُمَرُ ، قال في شأن حاطب : (يا رسولَ اللهِ دَعني أضرِبْ عُنُقَ هَذَا المنافِقِ)، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَا عُمَرُ أَرْسِلْهُ ثُمَّ التَفَتَ إلى حاطب، فقال: يَا حَاطِبُ، مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَذَا ؟ فَأَجَابَ بِجَوابِهِ المعروفِ، وأسامَةُ بنُ زَيدِ لَمَّا حَصَلَ، وخالِدُ بنُ الوَلِيدِ أَنْ قَتَلَ رَجُلًا، بل رَجُلَينِ، يَقُولان: لا إلهَ إلَّا اللهُ فقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لخالِدُ : أَقْتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله ؟، قال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوذا)، فَقَالَ: «فَمَا تَفْعَلُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ !». ولهذا فيه النَّكِيرُ على عدم قبولِ خالد، ، إسلام الرَّجُلِ بقول: لا إله إلا الله ،واعتَرَضَ مُعتَرِضٌ على النبي صلى الله عليه وسلم في قسمته للمال، فقال: (يا رسولَ اللَّهِ، اعدِلُ)، لَمَّا قَسَمَ المال، بعد إحدى الغزوات، فقالَ: «وَيحَكَ، مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، فأعطاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَالًا كَثِيرًا، ثُمَّ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنْ ضِئضِي هَذَا أَقْوَامٌ، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، وهم الخَوارِجُ.

وفي عهد عثمان رضى الله عنه ، ، ظهر هؤلاء الخوارج، وكان أساس انحرافهم، هو نَظَرُهم في أنَّ الوالي، أو أمير المؤْمِنِينَ عُثمانَ ، لم يقم بما أوجَبَ اللهُ عليه، فمنهم مَن كَفَّرَه، وَمِنهم مَن أُوجَبَ قَتلَهُ، حَتَّىٰ قُتِلَ، بِسَبَبِ تَصَرُّفَاتِهِ فيما يَزعُمُونَ، وَكَفَّروا طائِفَةً أيضًا في ذلكَ الزّمانِ، حَتَّى قَامَ عَلِيٌّ ، وَحصَلَ مِنه ما حصل بالنسبة لهم ، ثُمَّ كَفَّروه وسار إليهم ابنُ عَبَّاس، وكانوا نحوا مِن مِائَةٍ وعِشرين ألفا، ووَعَظَهم وحاجهم،

وكان أساس كلامهم في مسألتين:

في **مسألَةِ الحكم** بما أنزَلَ الله، وتحكيمِ الرِّجالِ في كِتابِ الله جل وعلا.

و في **مسألة التكفير**، تكفير من ارتكب المعصية. ومنهم مَن رَجَعَ بعد نقاش ابنِ عَبَّاسٍ لهم وإقامته الحُجَّةَ عليهم، ومنهم من لم يرجع، واستمر ذلك في الأمةِ، فَعُثمَانُ كُفْرَ، وَعَلِيَّ كُفْرَ ، وهكذا سادات الأمةِ كَفَرَهم مُعارِضوهم بِسَبَبٍ أو بآخر. والتكفير : معناه الحكم بالخروج من الدِّينِ الحكم بالرِّدةِ، والحكمُ بِالرَّدَّةِ عَلَى مُسلِمٍ ثَبَتَ إسلامه لا يجوز، إلا بدليل شرعي يقيني، بمثل اليقينِ الَّذِي حَصَلَ بدخوله في الإيمان. كما يقول شيخ الاسلام رحمه الله وكما شرحناه وفصلناه فى شرح مقدمة التوحيد ،والمسائل والفوائد ،وشرح السنة ،**أن من ثبت له الإسلام بيقين لا يزول إلا بيقين مثله أو أكبر منه** والأصل في ذلك قول الله جل وعلا في سورة براءة، في ذكرِ المنافِقِينَ: (قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إيمانكم ﴾ [التوبة: ٦٦] وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَفَرُوا بَعدَ إسْلَامهم ﴾ [التوبة: ٧٤]. هما آيتان: (قَدْ كَفَرْتُم بعد إيمانكم)، (وَكَفَرُوا بَعْدَ إسْلَامهم).وفي آية سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَنِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ [آل عمران: ٩٠]. ونَحْوُ ذلك في أنَّ المؤمِنَ، أو من أسلَمَ أو آمَنْ قد يَخْرُجُ مِن الدِّينِ.لكنْ ضَبَطَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ هذه المسائِل بضوابط كَثيرَةٍ مَعلومةٍ شرحناها فى ضوابط التكفير ،وتكفير المعين ، وكفر العاذر ومن لم يكفر الكافر ،والعذر بالجهل أسماء وأحكام ،واسم مرتكب الشرك الأكبر، ثُمَّ أَهْلُ السُّنَّةِ يُفَرِّقُونَ مَا بَيْنَ الكلام على الفعل والقولِ والعَمَل بأنَّه كُفر، وقيام هذا العمل والفعل بِمُكَلَّفٍ، هل يَخْرُجُ به مِن الدِّينِ أم لا؛ لأنَّ المكَلَّفَ قد يكون جاهلا بعضَ المسائل، وقد يكون متأولا ، وقد يَكونُ لَم تَبْلُغَهُ الحُجَّةُ الَّتِي يصير بها قد قامت عليه الحُجَّةُ، وقد يكون معذورًا، وقد لا يكون. وهذه تحتاج إلى إقامة شروط وانتفاء موانع، فأهلُ السُّنَّةِ وَسَط في هذا البَابِ مَا بينَ الخَوارِجِ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بِالذَّنب، ويُكَفِّرُونَ بمُطلق الحكم بغير ما أنزل الله، وبمطلق مُوالاةِ الكُفَّارِ، وَنَحوِ ذلكَ، وأشباه هذا، وما بينَ المرجِئةِ الَّذِينَ لا يَرُونَ مَن ثَبَتَ إِيمَانُه أنَّه يَخْرُجُ – يعني غُلاةُ المرجِئةِ – أَنَّهُ يَخْرُجُ مِن الإِيمَانِ بفعل أو بقول أو باعتقاد. وأهل السُنَّةِ بين هذا وهذا، فهم يقولون : إنَّ مَن ثَبَتَ إيمَانُه بِيَقِينِ لا يَجوزُ أَنْ يُخرج من هذا الإيمانِ إلَّا بِحُجَّةِ وظُهورِ الشروط وانتِفاءِ الموانِع،لابد من الثبوت ،ثبوت الكفر بيقين قطعى لا ظن فيه ولا تأويل ولا احتمال ، وإذا كان كذلكَ فَإِنَّ الَّذِي يُقيمُ الحُجَّةَ ويَنظُرُ في الشروط والموانع هو المؤَهَّلُ لَهَا شرعًا، وهم القُضَاةُ الَّذِينَ عندهم مَعرِفَةٌ بما فيه التأويل وما ليس فيه التأويل، وما يكون من أحوالِ النَّاسِ. وبَعضُ طَلَبَةِ العِلمِ قد لا يَحسُنُ منه الدخول في هذا لعَدَم مَعرِفَتِه بوسائل الإثباتِ والبَيّنات، وما يحصل به إثباتُ الشَّيء مِن عَدَمِهِ شَرعًا،

ومَسائِلُ القَضاءِ هي التي تترتب عليها الأحكام. وهذه يُحتاجُ فيها إلى حكم قاض يثبت به الكفرُ على المعَيَّنِ؛ لأنَّه إذا ثَبتَ الكُفْرُ عَلَى مُعَيَّنٍ فَإِنَّهَا ستترتب آثارُ الرِّدَّةِ عليه، وهي كَثِيرَةٌ فصلناها فى حكم المرتد إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَإِنَّ أَعظَمَ مَن يُحَذِّرُ مِن النَّيلِ مِن إيمانِه، والنيل من صحة إسلامه وصحة اعتقاده هم عُلَماءُ أهلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ القائمون بأمر الله جل وعلا، بل عُلَماء المسلِمِينَ عُمُومًا؛ وذلكَ لأَنَّ هؤلاء هم القائمون بأمر الديانة، وهم الَّذِينَ يُؤْخَذُ عنهم الدين، وهم الذينَ يُبَصِّرُونَ النَّاسَ بِالحَقِّ مِن غَيرِه . ومَن تَوَجَّهَ إليهم بالتكفير، فأوَّلُ ما يَتَّجه له قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا » ولا بُدَّ إِمَّا أَنْ يَبوء بها العالِم وإما أن يبوءَ بها الآخَرُ ، وهذا خَطَرٌ عَظِيمٌ على قائل تلكَ الكَلِمَةِ، خَطَرٌ عَظِيمٌ جدا على دينه؛ لأنَّه إما أن يكونَ الآخَرُ كما قال وإمَّا أن ترجع عليه بهذا الحكم.

وهذا يوجِبُ الحَذَرَ الشَّديد من مثل هذه الكلمة. والعلماء لا شك أنَّ عندهم مِن البَصَرِ بالشَّرِيعَةِ والبَصَرِ بالكتاب والسُّنَّةِ والدَّلائِلِ الشَّرعِيَّة، ما يَجعَلُهم يَنظُرُونَ في المسائل نَظَرًا واسعًا، والمسائِلُ الشَّرعِيَّةُ فِي فِقهِهَا مَبنِيَّةٌ عَلَى مُقَدِّمَتَينِ:

أَما المُقَدِّمَةُ الأولى: فهي ورود الدليل، وهو مَحَلُّ الاستدلال، ورودُ الدَّليلِ مِن الكِتابِ أو مِن السُّنَّةِ، على المسأَلَةِ الَّتِي فِيها تَنازُع، ثُمَّ فَهم هذا الدليل، يعني هذه في المقَدِّمَةِ الأولى، ووُرودُ الدَّليل وفهم الدليل مِن قِبْلِهِم فَهما يَجعَلُ عندهم ظهورًا بأن معنى هذه الآية هي كذا، ومعنى هذا الحديث هو كذا.

والمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: هي أن يكون هناك تحقيق للمناط في تنزيل هذا الحكم على هذا الدليل، أو في إلحاق هذه المسألة بالدليل ليُؤخَذَ منه الحُكمُ.

وتنقيحُ المَناطِ، صنعة اجتهادية كما قَرَّرَه الشاطبي، رحمه الله في كتابه «الموافَقَاتُ»، وأهلُ العِلمِ يَخْتَلِفُونَ عن سَائِرِ القُرَّاءِ، أو طَلَبَةِ العِلمِ، أو من عندهم قراءَةٌ، في قيام الفتوى عندهم على هاتينِ الْمُقَدِّمَتَينِ، وَكَثِيرٌ من طلبة العلم، قد يَعلَمُ الأولى، ولكن لا يَعلَمُ الثَّانية، **وهي فِقهُ تَنزِيلِ النَّازِلَةِ عَلَى وَجهِ الدَّلِيل** لِيُنظَرَ فِيهَا بالحكم.وهذا يقتضي أنْ يَقي طالِبُ العِلمِ نَفسَه، في أنَّه يَنظُرُ إلى تبرِيَّةِ ذِمَّتِهِ بِأَنْ يَجْعَلَ كَلَامَ أَهْلِ العِلمِ الَّذِينَ اجتمعوا على قول ما، أنْ يَجعَلَه مانعا له مِن أنْ يخوض في المسأَلَةِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ لأَنَّ المرَء يَنظُرُ إِلَى أَنَّه إذا خالفه واحِدٌ مِمَّنْ هو أعلَمُ مِنه، فإنَّه قد يَسكُ في ما اتَّجَهَ إليه، فكيفَ إِذَا كَانَ جَمْعًا كَبِيرًا مِن عُلَماءِ المسلِمِينَ، أو من العلماء الربانينَ يَنظُرُونَ إلى هذا الأمر، فيُخالِفونَ أو يقولون فيه بقول. لهذا القَولُ بِقَولِهِم: (إنَّ العُلماء الكبار كُفَّارٌ ؛ لأنهم يُظَاهِرُونَ المشرِكِينَ)، هذا مِن الخطر العظيم، في أنْ يَقُولَ قَائِلٌ بمثل هذه الكَلِمَةِ: **أَوَّلا**: لأَنَّ العُلَماء الكبار يُبَيِّنونَ الحَقّ، كما كانَ الصَّحابَةُ رِضوانُ اللهِ عليهم فِي زَمَنِ الخَوَارِجِ يُبَيِّنُونَ الحَقّ، وإذا أَتَهمهم أَحَدٌ أو رماهم أحَدٌ بالكفر؛ لأجل تبيينهم الحَقَّ فلا يعني أَنَّ رَمَيَ هَذَا الرَّامِي أَنَّه موافق للصواب، بل جنايته على نفسه، ويَجِبُ أنْ يُؤخَذَ على يده، وأنْ يُعَذِّرَ تعزيرًا بَلِيغا مِن قِبَلِ القُضَاةِ بما يحجزه عن ذلك، حتى لا ينشر هؤلاء الغلاة قالة السوء هذه فى المجتمع فينتشر الغلو

في التكفير ويتجرأ الشباب على تكفير العلماء سلفاً وخلفاً على حسب أهوائهم ونظرهم القاصر وينتشر الشر والفساد في البلاد ،فلابد من تعزير هؤلاء والأخذ على يديهم ، ولما فَاتَ التَّعزِيرُ الشَّرعِيُّ في مثل هذه المسائلِ،كَثرَ القولُ ، وكَثرَ الخَوضُ فيها، وقد كانَ القُضاة فيما مَضَى يُعَزِّرُونَ في قَولِ المسلِمِ لأخيه يا كلب، أو يا كذا، مما فيه انتقاص له، فكيف إذا كان فيه رمي المسلم هذا الرمي العظيمِ الَّذي لا يجوز لمسلِمٍ يَخشى الله جل وعلا على أَنْ يَتَفَوَّهَ بِهِ، فَضلًا عَلَى أَنَّهُ يَعْتَقِدُه.

ثُمَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِمُظَاهَرَةِ المُشرِكِينَ وَتَوَلِّي الكُفَّارِ ، فَإِنَّ هذه المسأَلَةَ بحثناها في عِدَّةِ مَجالِسَ ، وفي عِدَّةِ شُروحٍ ، وبَيَّنَّا فيها أنَّ عقد الإيمانِ، يَقتضي مُولاةَ الإيمانِ والبَرَاءَةَ مِن الكُفْرِ، لِقَولِ اللهِ جَلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَلِبُونَ ﴾ [المائدة]، وعقد الإيمان يقتضي البراءة من المعبودات، والآلِهَةِ المختلفة ومِن عِبادَتِهِم، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِين وَجَعَلَهَا كَلِمَةٌ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الزخرف، أساس الولاء والبراء هو الولاء للإيمان، والبراءة من الكُفْرِ ، وعِبادَةِ غَيرِ اللهِ جَلَّ وعلا، ويَتَضَمَّنُ ذَلكَ موالاة أهل الإيمان، والبراءة من أهل الكُفْرِ على اختِلافِ مِلَلِهم. وهذه الموالاة منها ما يكون للدُّنيا، ومنها ما يكون للدِّينِ.فإذا كانت للدُّنيا فليست بمُخرِجَةٍ مِن الدِّينِ، ومِمَّا قد يكون في بعض الأنواعِ مِن الموالاةِ للدُّنيا، مِن الإكرام أو البَشاشَةِ أو الدعوة أو المخالَطَةِ، ما قد يكونُ مَأذونا به، إذا لم يَكُنْ فِي الْقَلْبِ مَوَدَّةٌ، لهذا الأمر مِن مثل ما يَفعَلُ الرَّجُلُ مع زَوجَتِهِ النَّصرانية، ومِن مِثل ما يفعله الابن مع أبيه غَيْرِ المسلِم، ونحو ذلك، ممَّا فيه إكرام وعَمَلٌ في الظَّاهِرِ طَيِّبٌ، ولكن مع عَدَمِ المودَّةِ الدِّينِيَّةِ فِي البَاطِنِ. فإذا كانت الموالاة للدُّنيا فإنَّها مُحَرَّمَةٌ، غَيْرُ جَائِزَةٍ إِلَّا فيما استثني من الحالات، كما ذكرنا في حال الزوجة مع الزَّوجِ، والابن مع أبيه، ممَّا يقتضي مُعامَلَةً وبرًّا وَسُكونًا، ونحو ذلك. أَمَّا القِسمُ الثَّاني، فأَن تكونَ الموالاة للدُّنيا، ولكن ليست لجهة قرابَةٍ، وَإِنَّمَا لِجِهَةِ مَصلَحَةٍ بَحتِةٍ لهذا في أمر دنياه، وإنْ فَرَّطَ في أمر دينه، وهذه مُوالاةٌ غَيْرُ مُكَفِّرَة؛ لأنَّها في أمرِ الدُّنيا،فهي موالاة وليست تولي، وهذه هي الَّتِي نَزَلَ فيها قَولُ الله جل وعلا: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الحق ﴾ [الممتحنة: ١] وهنا أثبت أنهم ألقوا بالموَدَّةِ، وناداهم باسم الإيمان، قال جمعٌ مِن أهل العلم: مناداة من ألقى المودة باسم الإيمانِ، دَلَّ على أَن فِعله لم يُخْرِجهُ اسم الإيمان، وهذا هو مقتضى استفصال النبي صلى الله عليه وسلم من حاطب حيث قال له في القِصَّةِ المعروفة: «يَا حَاطِبُ، مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَذَا ؟ يَعْنِي أن أفشى سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ، فَبَيَّنَ أَنَّه حَمَلَه عليه الدُّنيا، وليسَ الدِّينُ.

القسم الثاني: مُوالاة المشرِك لدينه، موالاة الكافر لدينه، يُواليه ويُحِبُّه ويَوَدُّه وَيَنصُرُه؛ لأجل ما عليه

من الشرك، من الوثنية، ونحو ذلك، يعني مَحبَّة لدينه، فهذا مثله، هذه موالاةٌ مُكفِّرَةٌ؛ لأجل ذلك.

والإيمانُ الكامِلُ يَنتفي مع مُطلَقِ مُوالاةِ غَيرِ المؤمِن؛ لأنَّ موالاة غَيرِ المؤْمِنِ بِمَوَدَّتِهِ وَمَحبَّتِه ونَحوِ ذلك، هذه منافية للإيمان الواجب، لقول الله جل وعلا:(لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية. أَمَّا مُظاهِرَةُ المشْرِكِينَ، وإعانتهم على المسلِمينَ، هذا من نواقض الإسلام، كما هو مُقَرَّرٌ في كُتُب فقه الحَنابِلَةِ، وذَكَرَه العلماءُ ومنهم شَيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّابِ، رحمه الله، في «النَّواقِضُ العَشرُ» في الناقض الثامن، **وهذا النَّاقِضُ مبني على أمرين الأول: هو المُظَاهَرَةُ، والثاني: الإعانة.**قالَ:

(مُظاهِرَةُ المُشرِكين وإعانتهم على المُسلِمينَ)، والمُظاهِرَةُ: أَنْ يَتَّخِذَ أَو أَنْ يَجْعَلَ طَائِفَةٌ مِن المسلِمينَ، أَنْ يَجعَلُوا أَنفُسَهم ظهرًا للكافِرِينَ يَحموهُم فيما لو أراد طائِفَةٌ مِن المؤْمِنِينَ أَنْ يَقعوا فيهم، يحموهُم وينصرونَهم، ويحمون ظهورهم، ويحمونَ بَيضَتَهم، وهذا مُظَاهَرَةٌ، بمعنى أَنَّهُ صَارَ ظَهرًا لهم، فقُولُ الشَّيخ، رحمه الله

(مُظَاهَرَةُ المُشرِكين وإعانتهم على المُسلِمينَ مُرَكَّبَةٌ مِن الأَمَرينِ، النَّاقِضُ مُرَكَّبٌ من الأمرين:

المُظَاهَرَةُ : بأَنْ يَكُونَ ظَهرًا له، بأي عَمَلٍ، يَكونُ ظَهِرًا يَدفَعُ عنه، ويَقفُ معهم، ويُضرِبُ المسلِمينَ لأجل حماية هؤلاء.

أما الثاني: فالإعانة، إعانة المشرِك على المسلِم، فالإعانة ضابطها أَنْ يُعِينَ قاصِدًا ظهور الكُفْرِ عَلَى الإسلام؛ لأنَّ مُطلق الإعانَةِ غَيْرُ مُكَفِّرٍ؛ لأنَّ حاطبًا حَصَلَ منه إعانة لهم، إعانةٌ للمُشرِكِينَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بنوع من العمل، والإعانة بكتابة بسر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسيره إليهم، لكنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم استفصل مِنه فَدَلَّ على أنَّ الإعانة تحتاج إلى استفصال والله جل وعلا قال في مُطلق العَمَلِ هذا: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (الممتحنة)، ولكن ليس بمُكَفِّرٍ إلا بقصدٍ، فَلَمَّا أَجَابَ حَاطِبٌ بأنَّه لم يَكُنْ قصده ظهور الكفر على الإسلام، قال: (يا رسول الله، واللهِ مَا فَعَلْتُ هذا رَغْبَةً فِي الكُفْرِ بعد الإسلام، ولكن ما من أحد من أصحابك إلا وله يَدٌ، يَدفَعُ بها عن أهله وماله، وليس لي يَد في مَكَّةَ، فأردت أن يكون بذلك لي يَد)، فقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ . **وحاطِبٌ فَعَلَ أمرين:**

الأمر الأول: ما استفصل فيه، وهي مسألة هل فَعَله قاصدًا ظهور الكُفْرِ عَلَى الإسلامِ؟ وَمَحبَّةَ لِلْكُفْرِ على الإسلام؟ لو فَعَلَ ذلكَ كَانَ مُكَفِّرًا، ولم يَكُنْ حُضوره لأهلِ بَدرٍ غافِرًا لذَنْبِهِ؛ لأنَّه يَكونُ خَارِجًا مِن أمر الدين. **الأمر الثاني:** أَنَّه حَصَلَ مِنه نوع إعانة لهم، وهذه فعلَةٌ فيها ضَلال، وفيها ذنب، والله جل وعلا قالَ: (تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ) إلى قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءُ السبيل) إلى قوله: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ) – يعني وفي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الممتحنة:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) [الأحزاب:٢١]. وهذا يَدلُّ على أنَّ الاستفصال في هذه المسألة ظاهر، **فالإعانة فيها استفصالٌ**، أَمَّا **المُظَاهَرَةُ** بِأَنْ يَكُونَ ظهرا لهم، يدفع عنهم، ويدرأ عنهم ما يأتيهم، ويَدخُلُ معهم ضد المسلِمِينَ في حال حربهم لهم في الحرب، **فهذا من نواقض الإسلامِ الَّتِي بَيْنَهَا أَهْلُ العِلمِ**.فلابد من **التفريق الدقيق بين الاعانة والمظاهرة** ،

فهذه المسائل، اقتضى إطالَةَ الجَوابِ فيها لعموم البلوى بها فى زماننا هذا من تكفير علماء الإسلام قديما وحديثاً نَخشى أن يكون المنهج التكفيري انتشر في النَّاسِ والعِياذُ باللهِ ،الواجب علينا جميعًا أَنْ نَحذَرَ، وأن نتنبه إلى الحَقِّ، وأن نتواصى به، وأن نكونَ حافِظين لألسنتنا من الوقوع في وَرَثَةِ الأنبياء، وهم العلماء، ولقد أحسَنَ ابن عساكر رحمه الله إذ قَالَ فِي فَاتِحَةِ كِتَابِهِ تَبيينُ كَذِبِ المفتري قال: (**ولحومُ العُلَماءِ مسمومةٌ، وعادَةُ الله في مُنتَقِصهم معلومةٌ**) وَهَذَا ظَاهِرٌ بَيْنٌ، وَالتَّجْرُبَةُ تَدُلُّ عليه، ورُؤيَةُ الواقع تدلُّ عليه.وقانا الله وإيَّاكُم مِن زَلَلِ الأقوال، وزَلَلِ الأعمال، وسوء المعتقَداتِ، وهَدَى ضَالَّ المسلِمِينَ، وَبَصَّرَنا وإيَّاهم بالحق.

وبالمناسَبَةِ نَحتاج إلى أنْ نَفَقَه كيفَ يُرَدُّ على من خالَفَ في مثل هذه المسائل، والمخَالِفونَ بالتكفير أو التضليل، أو بذكر الأمور على غير ما هي عليه، يَجِبُ:

أولا: أن لا يُرَدَّ الباطل، بباطل؛ لأنَّ الباطِلَ يُرَدُّ بِحَقٍّ، مَن كَفَرَنا لم نُكَفِّرْه مِن أجل تكفيره لنا، ومن بَدَّعَنا لم نُبَدِّعَهُ لأجل تبديعه لنا، وإنَّما هذه مَسائِلُ تحتاجُ إلى رَدَّ البَاطِلِ بِالحَقِّ، هذا هو مَنهَجُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، منهج أئِمَّةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ في ذلك.

الثانية: أنْ يُحرَصَ على هِدايَةِ هؤلاء، وأن يُنظر إليهم في الهداية بما يُناسبهم، إذا كانوا يحتاجون إلى نَصيحَةٍ يُنصحون، إلى إجابة للشُّبُهَاتِ يُجاب عليهم، فقد يهدي الله جل وعلا بعض أولئك، كما هدى طائفة من الخوارج مع ابنِ عَبَّاسٍ وقد فصلنا ذلك فى فقه الدعوة للتوحيد. ثُمَّ الدُّعاءُ، في مثل الأزمات والفِتَنِ والمصائِبِ الَّتِي تَقَعُ، ليس للمَرْءِ مَنجًى وَلَا مَلْجَأَ إلَّا بِرَبِّهِ جَلَّ جَلالُه، فَمَن تَرَكَ الصَّلَةَ بينه وبينَ رَبِّه بالدُّعاءِ، وبسؤال الإعانة والبصيرَةِ، فَإِنَّه يُوتى، وإذا كانَ نَبِيُّنا صلى الله عليه وسلم ، وهو المؤَيَّدُ مِن الله جل وعلا، وهو صاحِبُ الشَّريعَةِ، وهو المهدي بالوحي من الله جل وعلا للحَقِّ، يَقولُ في دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِمَا اختلفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)فكيف بحالنا، وحال أمثالنا؟ لا شَكَّ أَنَّنا أحوج إلى السؤالِ والدُّعاءِ في ذلكَ، الدُّعاء لأَنفُسِنا، والدُّعاءُ أيضًا لمن تعلَمُه قد خالف الحق في ذلك، وإذا خالَفَ وَكَفَرَ وضَل، واعتدى حتَّى على الإنسان في دينه أو في عرضه أو تَكَلَّمَ فيه، لا يعني ذلك أن تُقابِل إساءته بمثلها، بل تصبر عليه، تدعو له؛ لأنَّ طالب العلم همه إصلاح الخلق، قد يستجيبون وقد لا يستجيبونَ (لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) [البقرة: ٢٧٢].

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالسَّتُونَ: التَّكْذِيبُ بِالْحَقِّ.

الثَّانِيَةُ وَالسِّتّونَ: كَوْنُهُمْ إِذَا غُلِبُوا بِالْحُجَّةِ، فَزَعُوا إِلَى الشَّكْوَى لِلْمُلُوكِ، كَمَا قَالُوا: (أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

الثَّالِثَةُ وَالسَّتّونَ رَمْيُهُمْ إِيَّاهُمْ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ كَمَا فِي الْآيَةِ.

الرَّابِعَةُ وَالسِّتُونَ رَمْيُهُمْ إِيَّاهُمْ بِانْتِقَاصِ دِينِ الملِكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَذَرَكَ وَالِهَتَكَ ﴾

[الأعراف: ١٢٧]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ [غافر : ٢٦) الآية.

الْخَامِسَةُ وَالسَّتُونَ: رَمْيُهُمْ إِيَّاهُمْ بِانْتِقَاصِ آلِهَةِ الملِكِ كَمَا فِي الْآيَةِ.

السَّادِسَةُ وَالسِّتُونَ رَمْيُهُمْ إِيَّاهُمْ بِتَبْدِيلِ الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظهر فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ).

السَّابِعَةُ وَالسِّتُونَ رَمْيُهُمْ إِيَّاهُمْ بِانْتِقَاصِ الْمَلِكِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ).
هذه المسائل مُتَرَابِطَةٌ، وَمُتَشَابِهَةٌ، ومتشابكة وقد مرت معنا مختصرة ،ويجمعها التكذيب بالحَقّ، وهو الأساس؛ لأنَّ أهل الجاهلية سَواءٌ من المشركِينَ والوَثَنِيِّينَ، أم مِن الكُفَّارِ من اليهود والنصارى والضلالِ، صفتهم الجامعة لهم أنهم يُكَذِّبُونَ بالحَقِّ، قال جل وعلا: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) [ق]، وقال جل وعلا أيضًا: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوا ﴾ [النمل: ١٤]، وقال أيضًا جَلَّ جلاله :(الَّذِينَ اتَيْناهُمُ الْكِتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)) [البقرة)، وقال أيضا في الآية الأخرى في سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ اتَيْنَاهُمُ الْكِتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وانظر إلى تناقضُ مَذهَبِهِمْ لَمَّا تَرَكوا الحق. قال تعالى في سورةِ [ق: 4-5] : {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ - بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} [ق: 4 - 5] فَقولُهُ: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقّ} [ق: 5] إلخ، إضراب أُتْبعَ الإِضرابَ الأَوَّل للدِّلالة على أنَّهم جاءوا بما هو أفْظَع من تَعَجُّبِهِمْ، وهو التكذيبُ بالحَقّ، الذي هو النُّبُوَّةُ الثَّابتة بالمعْجِزاتِ، في أوَّل وَهْلَةٍ، مِن غير تَفَكُّرٍ ولا تَدَبُّرٍ، {فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} [ق: 5] مُضْطَرِب، وَذَلِكَ بسببِ نَفْيِهِمُ النُّبُوَّةَ عنِ البَشَرِ بالكُلِيَّة تارةً، وَزَعمِهِمْ أَنَّ اللاَّئِقَ بها أهلُ الجاه والمالِ كما ينبئ عَنْهُ قولُهُم: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: 31] تارةً أُخرى، وَزَعْمِهِمْ أنَّ النُّبُوَّةَ سِحْرٌ مرَّةً أُخرى، وأنَّها كهانَةٌ أخرى، حيثُ قالوا في النبيِّ صلى الله عليه وسلم مَرَّةً:

ساحر، ومَرَّةً: كاهِنٌ، أوْ هو اخْتِلافُ حالِهِم ما بَيْنَ تَعَجُّبٍ مِنَ البَعْثِ واستبعاد لَهُ، وتكذيبٍ وَتَرَدُّدٍ فيه، أو قولُهم في القرآن: هو شِعْر تارةً، وَهُو سِحْرٌ أخرى. وقال تَعالى في سورةِ [الذَّارياتِ: 7–11] : {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ – إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ – يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ – قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ – الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [الذاريات: 7 – 11] الْحُبُكِ: جمع حَبيكَة، كَطَرِيقَةٍ، أوْ حِباك، كَمِثال وَمثل، والمرادُ بها إمَّا الطُرُقُ المحسوسةُ التي تَسيرُ فيها الكَواكبُ، أو المعقولةُ التي تُدْرَكُ بالبَصيرةِ، وهي ما يدلُّ على وَحْدَةِ الصَّانعِ وقُدْرتهِ وعِلْمِهِ وحِكمتِهِ إذا تأمَّلَها النَّاظرُ. وقوله: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} [الذاريات: 8] أي: مُتَخالِفٍ، مُتَناقِضٍ في أمرِ الله عز وجل، حيث تقولون: إنَّه جلَّ شأنُهُ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وَتَقولونَ بصحَّةِ عبادةِ الأصنامِ مَعَهُ سُبحانَه، وفي أمْرِ الرَّسول صلى الله عليه وسلم فَتَقولونَ تارةً: إنَّه مَجْنونٌ، وأُخْرى: إنه ساحر، ولا يَكونُ الساحِرُ إلا عاقلا، وفي أمْرِ الحَشْرِ، فَتَقولونَ تارةً: لا حشر ولا حياة بَعْد الموتِ أصلا، وتَزْعمونَ أُخرى أنَّ أصنامَكم شُفعاؤُكم عِندَ الله تَعالى يومَ القيامةِ، إلى غير ذلك من الأقوالِ المتخالفةِ فيما كُلفوا بالإيمانِ به. وقولُهُ: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات: 9] أيْ: يُصْرَفُ عَنِ الإيمانِ بما كَلِّفوا الإيمانَ به. {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [الذاريات: 10] أيْ: الكذَّابونَ مِنْ أصحابِ القولِ المخْتَلِفِ. {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [الذاريات: 11] الغَمرةُ: الجَهلُ العظيمُ يَغْمرُهُم وَيَشْمَلهُم شمولَ الماءِ الغامرِ لِما فِيْهِ، والسَّهو: الغَفْلَةُ. وقال تَعالى في أواخر سورةِ [الأنعام: 159] : {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: 159] هذه الآية استئنافٌ لبيانِ أحوالِ أهلِ الكتابَيْنِ إثْرَ بيانِ حال المشركين، بناءً على ما رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ وقتادةَ: أنَّ الآية نَزَلَت في اليهودِ والنَّصارى. أيْ: بَدَّدوا دِينَهم، وبعَّضوه، فتمسَّكَ بِكُلِّ بعضٍ منه فرقةٌ منهم. {وَكَانُوا شِيَعًا} [الأنعام: 159] أيْ: فِرَقا تُشايعُ كُلُّ فِرْقَة إماما، وَتَتْبَعُهُ، أيْ: تُقَوّيهِ، وَتُظْهِرُ أمْرَهُ. أخرجَ أبو داودَ والتِّرْمِذيُّ عن أبي هُرَيْرَةَ قال، قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «افْتَرَقَتِ اليهودُ على إحْدى وسَبْعينَ فِرْقَةً، كُلّهم في الهاوِيَةِ إلا واحدةً، وافْتَرَقَتِ النصَّارى على ثِنتيْنِ وسَبْعينَ فِرْقَةً، كُلُّهُم في الهاويةِ إلا واحدةً، وَسَتَفْتَرِقُ أمَّتي على ثَلاثٍ وَسَبْعينَ فِرْقةً، كُلُّهُم في الهاوِيَةِ إلا واحدةً» . واستثناءُ الواحدةِ مِن فِرَقِ كُلٍّ مِن أهلِ الكِتابَيْنِ إنَّما هو بالنَّظَرِ إلى العَصْرِ الماضي قَبْلَ النَّسْخِ، وأمَّا بَعْدَهُ؛ فالكُل في الهاوِيَة، وإنِ اختلَفَتْ أسبابُ دُخولهم. {لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: 159] أيْ: مِنَ السُّؤالِ عَنهم، والبَحثِ عَن تفرُّقِهِمْ، أو من عِقابِهِمْ، أَو أَنتَ بَرِيء مِنْهم. {إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ} [الأنعام: 159] تَعْليلٌ للنَّفي المذكورِ، أيْ: هو يَتَولَّى وَحْدَهُ أمرهم: أُولاهُمْ وأُخْراهُمْ، وَيُدَبِّرُهُ حَسْبَما تَقْتَضيهِ الحِكْمَةُ. ومِنَ النَّاسِ مَنْ قَال: المفَرِّقونَ: أَهْلُ البِدَعِ مِنْ هذه الأمَّة: فقد أخرج الحَكيمُ الترمِذِيُّ وابنُ جَريرٍ والطَّبَرانيُّ وغيرُهم عن أبي هُرَيرةَ عَن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله سُبْحانه: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا} [الأنعام: 159] إلخ: «هُمْ أهلُ البِدَعِ والأهْواءِ من هذِهِ الأمَّة» فَيكونُ

الكلامُ– حِيْنَئِذٍ – استِئْنافا لِبَيان حال المبْتَدِعينَ، إثْرَ بَيانِ حالِ المشْرِكينَ، إشارةً إلى أنّهم ليسوا مِنْهم بِبَعيدٍ.

والمقصودُ أنَّ أهلَ الجاهلية سواء كانوا أُمِّيّينَ أوْ كِتابِيّينَ قد فَرَّقوا دينَهم، وتَغايَروا في الاعتقادِ، فكانَ عُبَّادُ الأصنامِ كُلُّ قَومٍ لَهُم صَنَمٌ يَدينونَ لَهُ، وَلَهُمْ شرائعُ مُخْتَلِفَةٌ في عِبادتِها، وَمِنهم مَنْ كان يَعْبُدُ كَوْكَبا، ومِنهم مَنْ كانَ يَعْبُدُ الشمسَ، ومنهم، ومِنهم، وكَذَلِكَ الكِتابِيُّونَ على ما بَينا. فالافْتِراقُ ناشئ عن الجَهْلِ، وإلا فالشَّريعةُ الحَقَّةُ في كُلِّ زمان لا تَعَدُّدَ فيها ولا اختِلافَ، ولذلك تَرى القُرآنَ يُوَحِّدُ الحَقَّ وَيُعَدِّدُ الباطِلَ: قال تَعَالَى [البقرة: 257] : {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [البقرة: 257] فانظُرْ كَيفَ أفْرَدَ النُّورَ الَّذي هو الحَقُّ، وَجَمَعَ الظلُماتِ التي هِيَ الباطِلُ والزَّيغُ، فَتَفْرِقَةُ الآراءِ، والاخْتِلافُ في الاعتقادِ مِنْ خِصال الجاهِلِيَّةِ وما كان عَلَيهِ أهلُ الباطِلِ، والاتفاقُ على العَقيدةِ الحَقَّةِ هو مِنْ دَأبِ أتْباعِ الرُّسُلِ والمتُمَسِّكينَ بِما شَرَعَهُ الله تَعالى.

والشواهد على ذلكَ كَثيرةٌ في بَيانِ أَنَّ الصَّفَةَ الجامعة لمن ضادَّ رِسالة مُحمَّد صلى الله عليه وسلم من أهل الجاهلية هي: **التكذيب بالحَقّ بدونِ حُجَّة**، ورَدُّ الحَقّ بعدَ مَعرفَةٍ، والجحد مع الاستيقان. هذه صِفَةٌ جامِعَةٌ لهم، ولهذا كانَ ذكر هذه الخَصلَةِ مِن خِصال أهل الجاهِلِيَّةِ الَّتِي خَالَفَها رَسولُ اللهِ في أهل مِلَّتِه، يعني في أمته، فعلمهم أن يقبلوا الحَقّ مِنْ مَنْ جاءَ به، وأن لا يُرَدَّ الحَقُّ، وَأَنْ يُؤْخَذَ الصَّوابُ مِنْ مَنْ جاءَ به، وذلك لأنَّ الحَقَّ هو المقصود، قالَ نَفَر من اليهود، لجمع مِن الصَّحابَةِ: (إِنَّكم لأنتم القومُ لولا أَنَّكُم تُنَدّدونَ، تَقولونَ: ما شاء الله وشاءَ مُحَمَّدٌ) فلمَّا بَلَغَ هذا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ». فَالَّذِينَ انتقدوا الصَّحابة في قولهم من اليهود، ولأجل أنَّ هذه الأمة هي أمة الحَقِّ، فلا يسوغ لها أَنْ تَرُدَّ الحَقِّ، لأجلِ أَنَّ الَّذي جاء به أو قاله أو أرشَدَ إليه ضِدٌّ لها أو مُعادٍ لها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ.« وكذلك قصة أبي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه مع الشَّيطانِ في الأَيَّامِ، أو في الليالي الثَّلَاثَةِ الَّتِي كَانَ يَحْرُسُ فِيهَا الصَّدَقَةَ، فَعَلَّمَه الشَّيطانُ أنْ يَقرَأَ إذا أوى إلى فراشه آية الكرسي، فقال النبي له : صَدَقَكُمْ، وَهُوَ كَذُوبٌ، فَأَخَذنا هذه بإقرارِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِمَا عَلَّمَه الشَّيطانُ لأبي هُرَيرَةَ؛ لأنَّه جَاءَ بِالحَقّ، فلا يُرَدُّ الحَقّ لأجل مَن جَاءَ هذه الخصلة – وهي قبولُ الحَقّ مِنْ مَنْ جاءَ به – كانت هي سِمَةَ الصَّحابَةِ، رِضوان الله عليهم، فقد كانوا يَأْخُذُونَه من الصَّغيرِ ومِن الكَبيرِ ، إذا كانَ الَّذي جاءَ به حَقٌّ، والعِلمُ قد يَأْتِي به الأدنى ويَفوتُ على الأعلى، قد يكون عند الأدنى عِلم وليس عند من هو أعلَمُ منه، وذلك ظاهِرٌ فِي قِصَّةِ الهُدهُدِ مع سُلَيْمَانَ عليه السَّلامُ، حَيثُ قال الهدهد – وهو الهدهد – لنبي الله سليمانَ: (أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ. وَجِئتُكَ مِن سبأ بنبأ يقين إنى وجدتُ امْرأَة

تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النَّمل] الآياتُ، ثُمَّ قال سليمان عليه السّلامُ، قَالَ: (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَذِبِينَ أذهب بكتابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النَّمل] الحَقُّ هنا الظَّاهِرُ بَين أنَّه لم يُرَدَّ لأجل من جاء به، فسمة الأنبياء وسِمَةً نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَصِفَتُهُ، وَخَصْلَةٌ هذه الأمة أنها هي الأحَقُّ بِالحَقِّ؛ لأنَّها أُنزِلَ عليها الحَقُّ ، وربُّها جلّ وعلا هو الحَقُّ المبِينُ، فهي أولى بقبول الحَقِّ مِنْ مَنْ جاءَ به، وهذه الصِّفَةُ تَمَسَّكَ بها أهلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، أتباعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وأهل الحديث في خُصومهم، في خُصوماتهم مع من ضادهم في ذلك، يعني غالبهم، غالب أهل الحديث، وأهل السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ إِلَّا مَن نَدَرَ مِمَّن خَالَفَ ذلك، فهم يتمسكونَ بقَبولِ الحَقِّ، ولا يُحمِلُهم سوء عِبارَةِ مَن تَكَلَّمَ إِلَى أَنَّهُم يَقُولُونَ فِي شَأْنِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. والله جل وعلا أنزلَ الكِتابَ بالحَقِّ والميزان، (اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانُ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) [الشورى]. هذا الحَقُّ والميزانُ، هو الذي يجب الاستمساك به، وهو الذي يجب على أهل العلم، على طلبة العلم أن يقبلوا الحَقِّ، وأن يكونَ دَيدَنُهم الحَقُّ، وأن لا يُرفعوا أنفسهم فَوقَ الحَقِّ؛ لأَنَّهُم إِنْ رَفَعَ نَفْسَهُ فَوقَ الحَقِّ مِمَّن جاءَ به، فإنَّه ليس على توحيد كامل؛ لأنَّه يَكون قد قدَّمَ نَفسه على دين الله جل وعلا، وعلى الحَقِّ مِن حَيثُ جَاءَ. وتَمَسَّكَ أهل العلم بهذه الصِّفَةِ، والذي خالَفَها فوَرِثَ الجاهِلِيُّونَ فِي رَدِّ بَعضِ الحَقِّ، أو فِي رَدَّ الحَقِّ كُلِّه، هو من شابههم من أهل الفِرقِ على اختلافِ أنواعها، تأتيهم الآية، أو يأتيهم الحَديثُ، فَيَرُدُّونَه بأنواع من الردود والتأويلات، ولا يَأخُذونَ بالحَقُّ مِن حَيثُ هو ، بل يَنظُرُونَ إِلَى مَن جَاءَ بِهِ، هل الَّذِي جَاءَ به من جماعتهم، ومن أصحابهم، ومن مذهبهم، فإنَّهم حينَئِذٍ يقبلونه، وإذا جاءَ به من غيرهم، فإنَّهم يَرُدُّونَه، بل لا يسمعونه، ولهذا أهل الباطل من الفِرق، يكتبونَ ما لهم فقط، يَكتُبُونَ ما لهم في المسائل، في مُصَنَّفَاتِهِم تَجِدُ أَنَّهم يَذكُرُونَ الَّذي لهم، ولا يذكرونَ الَّذي عليهم، وهذه مِن صِفَةِ الَّذِي لا يَحرِص على الحَقِّ، أَمَّا الَّذِي يَحرِص على الحَقِّ فَيَنظُرُ فِي الحُجَّةِ، مِن حَيثُ الذي له، ومن حيثُ الذي عليه، فيَأْخُذُ الذي له، وينظرُ في الذي عليه، هل هو صوابٌ أم ليس بصواب؟ فَيَرُدُّ المجْمَلَ إِلَى المحكَمِ، وَيَرُدُّ المجمَلَ إلى المبَيَّنِ، ويَرُدُّ المتَشابة إلى المحكّم، ويَرُدُّ العام إلى الخاص، وهكذا حتَّى تَظهَرَ له الأمور. وإذا نظرت في الفِرَقِ على اختلافها، وَجَدتَ أنَّ مَن خَالَفَ الحَقِّ الذي دل عليه الكتاب والسنة، وعليه عَمَلُ جُمهور الأئمةِ والعُلَماءِ، فَإِنَّكَ تَجِدُ أنَّ له نَصيبا مِن رَدَّ الحَقِّ، أو رَدَّ بَعضه، وهذه الخَصْلَةُ يَجِبُ على الجميع الحَذَرُ منها، والخَوفُ مِنها؛ لأنَّ هذا ليسَ مِن صِفَةِ مَن ذَلَّ قَلبه، وذل إلى بارِئِهِ جَلَّ جَلالُه، وتَقَدَّسَت أسماؤه. وإذا نظرنا فِي الزَّمَنِ المعاصِرِ في وقتنا هذا، وَجَدنا أنَّه كَثرَ رَدُّ الحَقِّ؛ لأجلِ عَدَمِ مُنَاسَبَتِه للأهواء، اليَومَ المعلومةُ كَثُرَت، وصار من السهل الوصول إلى البينات والحجج، لكن اشتبه على النَّاسِ الأمر، فلم يَعُدْ عند كثيرين دراية بالحَقِّ مِن غيره؛ لأنَّ كُلَّا يَستَدِلُّ بأدِلَّةٍ، وهذه مسألَةٌ كَبِيرَةٌ فِي مَنهَجِ التَّلَقِّي؛ لأَنَّ جَمِيعَ الفِرَقِ المختَلِفَةِ كُلَّ يَستَدِلُّ بالدليل، فكيف المخرج لطالب الحَقِّ، ولهذه الأُمَّةِ فِي تَلَقِّي هذه الأدِلَّةِ، وَجَبَ

أن يكون هناك منهج واحِدٌ للتلقي حتَّى يَكونَ الحَقُّ بَيْنَا ظَاهِرًا لا لبس فيه. **ومَنهَجُ التَّلَقِّي يَجِبُ أنْ يَكُونَ مُؤَصَّلًا على أربع مَسَائِل:**

١ –الكتاب.

٢ – والسنة.

والإجماع. بفهم الصحابة رضى الله عنهم

٤ –وعلى عَمَلِ جُمهورِ السَّلَفِ الصالح.

وهذا هو الذي ينبغي المصير إليه. لا تَعدِمُ لِكُلِّ قَولٍ أَنْ تَجِدَ دَليلاً له، هؤلاء النَّصارى استدلُّوا فِي بَعض كُتُبِهِم الَّتِي رَدُّوا بها على المسلِمينَ، استَدَلُّوا بِالقُرآنِ، على خصوصيَّةِ بِعَثَةِ النَّبي صلى الله عليه وسلم لِلعَرَبِ، بِقُولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤، وبقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين (الشعراء) ونحو ذلك، وهذا أخذ بحَقٌّ، وتَرَكُ حَقٌّ آخَرَ مِن الأَدِلَّةِ.

وهذا هو الذي صنعته الطَّوَائِفُ المختَلِفَةُ الخَوارِجُ اسْتَدَلُّوا بِبَعْضِ الأَدِلَّةِ، لكنَّها لَيسَت كَامِلَةً في الباب، والمعتَزِلَةُ اسْتَدَلُّوا بَعض الأدِلَّةِ، ولكنهم قدَّموا العقل على النقل، ولم يُكملوا النَّظَرَ فِي الأَدِلَّةِ، وهكذا المرجِئَةُ والقَدْرِيَّة والشيعَةُ والفِئاتُ جَميعًا، والزَّيدِيَّةُ على اختلاف أنواع الفِرَق في هذه الأُمَّةِ. فإكمال النظر في الدليل، وقبول الحَقّ مِنْ مَنْ جاءَ به، والنظر إذا اشتبهت الأمور في فهم جمهورٍ السَّلَفِ، فَإِنَّ هذا يُقَوّي مَعرِفَةَ الحَقّ والأخذ به.

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالسِّتُونَ) قال: (كَوْنُهُمْ إِذَا غُلِبُوا بِالحُجَّةِ، فَزَعُوا إِلَى الشَّكْوَى لِلْمُلُوكِ، كَمَا قَالُوا: أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]). وهذا ظاهِرُ أَيضًا مِن صِفَةِ مَن خَالَفَ الحَقَّ فِي أنَّه إذا كان عنده وَسيلَةٌ للغَلَبَةِ على مَن يُخالِفُه فإنَّه سيفعل، ولو كانَ بغَيرِ حُجَّةٍ ولا بَيِّنَةٍ، وَإِنَّمَا بِالرَّفْعِ إِلَى الملوكِ ومَن شابهم، يعني في الزَّمَنِ الماضي، وحتّى في الزَّمَنِ الحاضر، وهذا الأمر فيه تفصيل؛ لأنَّ الملوك، والولاة بشكل عام:

إِمَّا أَن يكونوا ولاةَ حَقٌّ.

وإِمَّا أَنْ يَكونوا ولاةَ بَاطِلٍ

وإذا كانوا ولاة باطل، مثل مُلوكِ المشركين، ومُلوكِ أهل الملل، الذين ضادُّوا الأنبياء، وضادُّوا الرسالات، فهؤلاء لا شَكٍّ أنَّ استنصارهم على الحَقِّ الذي جاءت به النُّبُوَّاتُ، أَنَّهم منطبق عليه هذه الصفة البينة. أما ولاة الحق في الإسلام، فإنَّهم لابد من الاستفزاع بهم إذا كان هناك بَاطِلٌ يُخْشَىٰ أَنْ يَنتَشِرَ فِي النَّاسِ، فإنَّهم هم الَّذِينَ يُصلِحُ الله جل وعلا بهم النَّاسَ، إذا صلحوا، وهم الَّذِينَ يُفْسِدُونَ إذَا فَسَدَوا. فالمسألة هنا مدارُها على وُجودِ الحَقِّ مِن حَيثُ هو ، فإذا كانَ الحَقُّ ظَاهِرًا بِالدَّلِيلِ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ أو الإجماع، وعَمَلِ السَّلَفِ والأئمةِ، فَإِنَّ المخالِفَ له إذا كانَ يُخشى تَعَدِّي ضَرَرِهِ على الآخَرِينَ، فَإِنَّه لابدَّ مِن رَفع أمره إلى ولاة أمرِ الحَقِّ، وهذا ليس هو المقصود من خصال أهل الجاهلية؛ لأنَّهم والخَصْلَةُ هذه كَونُهم إذا غُلِبُوا بِالحُجَّةِ، يعني الحُجَّةِ الصَّحيحَةِ، أما إذا كانَ الآخَرُ كُلُّ مَن عِندَه حُجَّةٌ يَقولُ : أنا سأبقى، ولا يَصلُحُ أن أبقى بدون يعني أن يبقى المجال مفتوحًا لكُلِّ صَاحِبِ رَأيٍ، حَتَّى ولو كانَ رَأيه يُفْسِدُ فِي الأُمَّةِ فَسَادًا ظَاهِرًا بَيِّنًا، ويَتَعَدَّى ضَرَرُه فِي الدِّيانَةِ، فَإِنَّ هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ. فَمَدَارُ هذه الخَصْلَةِ الَّتِي لا يَجوزُ مُشابَهَةُ الجاهلين فيها، فِي أَنَّهُ **إذَا عُرِفَ الحَقُّ لَا يَجوزُ رَدُّه**، وَإذَا عُرِفَ الحَقُّ فلا يجوز للمغلوبِ الَّذي غُلِبَ بالحَقِّ والحُجَّةِ أنْ يَنتَصِرٌ لَنَفْسِهِ بِرَفْعِ إِلَى مَن بَسَطَ اللَّهُ يَدَه، من الملوكِ وأشباههم فِي الرد على هؤلاء.

المَسَألَةُ (الثَّالِثَةُ وَالسِّتونَ) قَالَ: رَمْيُهُمْ إيَّاهُمْ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ كَمَا فِي الْآيَةِ) وهي قوله جل وعلا: أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ هَذا ظَاهِرٌ بَيْنٌ فِي أنَّ كُلَّ مَن خَالَفَ الحَقِّ، يَعْتَقِدُ أَنَّ إِيْمَانَ مَن يُخَالِفُه سَيُفْسِدُ عليه أمر دينه، وأمر دنياه، حَصَلَ هذا مع فرعونَ، حَيثُ قَالَ لَهُ الْمُقَرَّبُونَ مِنه: (أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيذرَكَ وَالِهَتَكَ) فأخذته العزة بالإثم فقال: ﴿ سَنُقَتِلُ أَبْنَاءَهُم وَنَسْتَحْي. نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ))[الأعراف]، وهذه هي صفةٌ بَنِي إسرائيلَ الَّذِينَ نَزَلَ فيهم هذه الآيات، لما بُعِثَت فيهم الأنبياء، وجاءتهم أنبياء بخلافِ ما يشتهون، فإنَّهم رفعوا أمرهم إلى من عندهم مِن الملوكِ والولاةِ، فَقَتَلُوا الأنبياء، لهذا كانت أعظمُ مَخازيهم أنَّهم يقتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيرِ الحَقِّ، وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغَيرِ حَقٌّ، والعياذ باللهِ، فَلَمَّا جاءَهم عيسى عليه السلام، كما هو معروف، وجاءهم بما فيه صلاحهم، وما فيه تكميل لرسالة موسى عليه السّلام، إليهم رَدُّوا ذلك عليه أَشَدَّ الرَّدْ، حَتَّى بَلَغَ بهم الأمرُ إلى أن قتلوه، كما يَظُنُّونَ، والله جل وعلا جَعَلَ الشَّبه مكانه، ورفعه إلى السَّماءِ وعندهم أنَّهم قتلوه وصلبوه، والعِياذُ باللهِ، وسَبَبُ ذلك أنه خالَفَ الحَقِّ الذي يعتقدونه، وهو قد جاءهم بالحق المبين ،فخالفوه بدعْوَاهُم العَمَلَ بِالْحَقِّ الَّذي عِنْدهمْ. كَما قَالَ تَعَالَى فِي سورةِ [البَقَرَة: 91] : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: 91] أي: نستمر على الإيمان بالتوراة وما في حكمها مما أنزل لتقرير حكمها، ومُرادُهُم بِضَميرِ المتكَلّمِ إمَّا أنبياءُ بني إسرائيلَ– وهو الظَّاهر، وفيه إيماء إلى أنَّ عَدَمَ

إيمانِهم بالقرآنِ كان بَغْيا وَحَسَدا على نُزولِهِ على مَنْ ليس منهم– وإمَّا أَنْفُسُهُمْ، ومعنى الإنزال عليهم: تكليفُهُم بِما فِي المنَزَّلِ مِنَ الأَحكامِ، وَذُمُّوا على هذِهِ المقالةِ لِما فيها مِنَ الشرعي بشأنِ القرآنِ، ودسائسُ اليهودِ مشهورةٌ، وتمامُ الكَلامِ في التفسيرِ. وهذا أيضًا في المشركين من أهل الجاهِليَّةِ، ما الذي فعلوه بعَمَّارٍ ؟ وما الَّذِي فَعَلُوهُ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وبأصحابه لما – حصروهم عام الشعب سنة عشر، وما الذي فعلوه،مع ضَعَفَةِ المؤْمِنِينَ والمسلِمِينَ؟ فَعَلُوا ذلك استنصارًا بالقُوَّةِ على هؤلاء الضعفاء. وهذا حَصَلَ أيضًا في أُمَّةِ الإسلامِ تَشَبُّهَا مِن طَائِفَةٍ مِنَ الأُمَّةِ، بفعل أولئك الجاهليين: هذا أَحمدُ بنُ أَبِي دُوَادٍ لَمَّا دعا هو ومن معه مِن المعتَزِلَةِ الجَهمِيَّةِ إِلَى مَا دَعَوْا إليه مِن ابْتِلاءِ النَّاسِ بخَلقِ القُرآنِ، استنصروا في هذه النِحَلَةِ البغيضة، والعقيدة الفاسدة اسْتَنصَرُوا بِالمأْمونِ، ثُمَّ بِمَن بعد المأمون، وهكذا لأجل نصرتهم، حتَّى حُبِسَ في ذلكَ سَيِّدُ المسلمينَ فِي زَمَانِهِ وَإِمَامُ الأُمَّةِ أَحْمَدُ ابْنُ حنبل رحمه الله تعالى، ورَفَعَ دَرَجَته، ومات هناك طائِفَةٌ تَحتَ السياط، وفِي العذاب؛ لأجل استنصار هؤلاء على أولئك في مثل هذا. ثُمَّ إِنَّهم يرمونَ الجَميع، بأن لو تُرِكَ أولئكَ لَفَسَدَ النَّاسُ، ولصار هناك إفساد في الأرض، فهم إذا رفعوا أمرهم رموهم بالإفساد في الأرض، لماذا يَسْتَعْدُونَ عليهم السلاطين ؟ لأنهم يقولون: هؤلاء سيفسدون في الأرض.وهذه الكَلِمَةُ قد يَقولُها مَنْ يَقولُها بِحَسَب ظَنه واعتقاده، ويَظُنُّ أنَّ الفَسَادَ فِي الأَرضِ بِحَسَبِ ما يَقولُ، وهذا العبرة فيه بالحَقِّ مِن حيثُ هو، ولما كانَت دَعوَةُ التَّجديد في عهدِ الإمامِ المصلِحِ الشَّيخ مُحمَّدِ بنِ عبد الوهاب،رحمه الله، وكان في العيينة، طرِدَ مِن العيينة لأجل خشية الإفساد في الأرض، ولأجل خَشيَةٍ أَنْ تذهب عليهم دنياهم التي يأملون في ذلك.هذا أمر قديم، واليوم في كثير مِن البِلادِ، نَجِدُ أَنَّ النَّاسَ يَستَعدِي بَعضُهم بَعْضًا؛ لأجل مُخَالَفتِهِم الحَقّ ، وهذا لا ينبغي، بل يَجِبُ على المسلِمِينَ أَنْ يتحاوروا فيما بينهم، وأَنْ يَتَجادَلُوا بالحق فيما بينهم، وأن يكونَ دَيدَنُهم الحرص على الحَقّ، وعَدَمَ رَدَّه، وأن لا يسعوا بالوشايات، وينقل الكلام الذي يُوغِرُ الصُّدور، ورُبَّما ابتلي بعضُ المسلِمِينَ بما لا يَسْتَحِقُّونَه في ذلك. والنَّصِيحَةُ في دينِ اللهِ وَاجِبٌ، إذا كان أولئك أصحابُ الضَّلالِ يَرمون أهل الحَقّ بالفسادِ في الأرض، فَإِنَّ أهلَ الحَقّ إذا خَالَفَهم مُخالِفٌ يَنظُرُونَ في الأمور بقدرِها، ويُنزلونها مَنازِلَها بحكم، بِحَسَبِ الحُكمِ الشَّرعِي، والوَجهِ الشَّرعِي فِي ذلكَ.هذه مسألَةٌ تحتاج إلى التَّخَلُّص فيها مِن مُشابَهَةِ أهلِ الجَاهِلِيَّةِ، وَالوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَاوَنوا فيما بينهم، وأن لا يجعلوا الخلافات فيما بينهم، أنَّها تُرفَعُ إلى دُوَلِ غَيرِ مُسْلِمَةٍ، أَو إِلَىٰ قَاضٍ كَافِرٍ يَحْكُمُ بالقانون، ونحو ذلك، وأنهم يُرجعون أمورهم إلى شرع الله جل وعلا، وإذا اختَلَفُوا فَلْيُحَكِّموا بينَهم مَن يَرضُونَ دِينَه وأَمَانَتَه مِن عُلَماءِ المسلِمينَ المأمونينَ، سَواءٌ في المسائل العِلمِيَّةِ، أو في المسائلِ العَمَلِيَّةِ، وهذا أولى لاجتماعِ القُلوبِ، وعَدَمِ نَفرَتِها، والتَّخَلُصُ مِن مُشَابَهَةِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ فِي صِفاتِهم.

المَسْأَلَةُ (الرَّابِعَةُ وَالسِّتُّونَ): قالَ: رَمْيُهُمْ إِيَّاهُمْ بِانْتِقَاصِ دِينِ المِلِكِ هذه وَسِيلَةٌ مِن الوَسَائِلِ للمُغالبة، فإنَّه قد لا يَقتَنِعُ الحَاكِمُ بأن هؤلاء تَجِبُ عُقوبَتُهم، أو يَجِبُ إيقافهم أو نحو ذلكَ، إلَّا إِذَا دَخَلَ

الدَّاخِلُ مِن جِهَةٍ يَنظُرُ فيها إلى ما يهم الملك، وما يَهُمُ الدَّولَةَ، وَمَا يَهُمُ الرَّئِيس، أو نحو ذلك. فيما قد يأتون عليه أن يقول: هذا يَنتَقِصُ الهتكم، هذا حصل –كما هو معلوم – في قصة أصحاب الكهف – وحَصَلَ في النبي ، في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل الجاهلية فِي زَمَنِهِ، حَيْثُ قالوا: إِنَّه صَبا، وقالوا: سفة أحلامكم، وسَبَّ الهتكم، وأشباه ذلك. وهذه تحرك النفوس العصبية بالحَمِيَّة لدينها الباطل، أو الحمية لملكها، أو إلى قبيلتها، هذه من خصال أهل الجاهلية. وأهل الإيمان لا يُشابهون أهل الجاهلية في هذه الخصلة، بل يَجعَلُونَ دَيدَنَهم الحق في هذا، وأن يُحرَصَ على الدليل، الَّذِي يُبَيِّنُ الحَقَّ وَيُظهِرُه، ولا يَستَفزعُ بوَجِهِ غَيْرِ شرعِي، أو يُبدي حَمِيَّة؛ لأجل الانتصار لنفسه، أو إلى قوله ومقالته، وهو ليس هناك حُجَّةً واضِحَةٌ، وَهُذَه كَثِيرَةٌ فِي النَّاسِ، ففي الاستفزاع بالملوكِ لأجل انتقاص الدِّينِ.

وفي وقتِ الدَّعَواتِ الإصلاحية، في أي مكان في العالم، أوّل ما تُرمى به الدعوة الإصلاحِيَّةُ الَّتِي تكون، أنها فيها انتقاص لدين هؤلاء، وانتقاص لفُلانٍ، وتبديل للدِّينِ، وَأَسْبَاءِ ذلكَ مِمَّا يَبْعَثُ الملوكَ والرؤساء وأهل الأمر، أن تَأخُذهم الحَمِيَّةُ بالباطل في ذلك، ثُمَّ يَتلون أو يُؤذونَ مَن هم يُريدونَ الخَيرَ

وهذه الخصال مُتَرَابِطٌ بَعضُها مع بعض في أنَّ الَّذين كَذَّبوا بالحَقِّ يَنتَصِرونَ بِالملوكِ على ما هم عليه من الباطل في أشياءَ شَتَّى، تارةً يقولون: هذا لا يُرِيدُكَ، يُسبكم، وتارَةً يَقُولُونَ: يَسُبُّ دينكم، تارَةً يَقُولُونَ: هؤلاء يُريدونَ كذا وكذا من الأقوالِ الباطِلَةِ الَّتِي يَهْدِعُونَ مِنهَا إِلَى رَدَّ الحَقِّ.

فالواجب علينا الحَذَرُ مِن مُشابَهَةِ المشركين، والكُفَّارِ فِي هذه الخصالِ، وَأَنْ يَكُونَ المرءُ يَنطَلِقُ لَا مِن حَمِيَّةٍ بِاطِلَةٍ، وَإِنَّمَا مِن وَجهِ شَرعِي يقتضيه الحكم القضائي، أو الحُكمُ الشَّرعِيُّ الَّذِي لَه دَليلُه مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ، أو من كلام أهل العلم، حَتَّى إِنَّه يُذكَرُ فِي ذلكَ أَنَّ ابنَ تَيمِيَّة لَعَلَّهُ تَعَالَى، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ أَحَدَ أَكَبَرِ أعدائه، مِمَّن أفتى بقتله أنَّه مات، وأظنُّه القاضي المالكي، قالَ ابنُ القَيِّمِ: (أَتَيْتُه مُبَشِّرًا له، بِمَوتِ أَحَدِ أَكبَرِ أعدائه)، فقال: (لا تَقُل هذا)، في وجهه واستَرجَعَ، وقال: **(إِنَّ هؤلاء ما يصلحون به في أمرِ الدِّينِ أعظَمُ مِمَّا نالني منهم).**

وهذه نَظرَةٌ تَجرُّدِيَّةٌ عالية جدا، وقَلَّ مَن يَصيرُ على مثل ذلك إِلَّا مَن تَخَلَّصَ مِن هوى نفسه. نسأل الله جل وعلا أنْ يُلهمنا وإياكم الهدى والسَّداد، وأنْ يُجَنِّبَنَا مُشابهة أهل الجاهلية في خصالهم،

أو فِي خَلَةٍ مِن خصالهم، إنَّه سُبحانَه جَوادٌ كَرِيمٌ، وصلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ والستون: دَعْوَاهُمُ الْعَمَلَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، كَقَوْلِهِمْ: نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ

علينا) [البقرة: ٩١] مَعَ تَرْكِهِمْ إِيَّاهُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالستُّونَ الزِّيَادَةُ فِي الْعِبَادَةِ كَفِعْلِهِمْ يَوْمَ عَاشُورَاءَ.

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ وَالسَّتُّونَ: نَقْصِهِمْ مِنْهَا، كَتَرْكِهِمُ الْوُقُوفَ بِعَرَفَاتٍ.

المسألة السَّبْعُونَ: تَرْكِهُمُ الْوَاجِبَ وَرَعًا.

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالسَّبْعُونَ: تَعَبدِهِمْ بِتَرْكِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ.

المَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالسِّتُّونَ: مِن المسائل التي خالف فيها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية من اليهود والنصارى والمشركين، هي دعواهُم العمل بما عندهم من الحَقّ، كقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] مع تركِهِم إيَّاهُ، وهذه الخَصْلَةُ وَالشُّعبَةُ مِن شُعَبِ الجاهِلِيَّةِ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ فِي كُلِّ مَن رَدَّ الحَقّ، فذكر هذه المسألَةِ مُناسِبٌ لِمَا قَبلَهَا مِن المسَائِلِ، لِمَا-بَينَ رَدَّ الحَقّ مَعَ اتِّبَاعِ غَيرِه مِن الاتصال الوثيق، فالغالب على المنتسِينَ إلى الأديانِ والمِلَلِ وَالنِّحَلِ أَنَّهم إذا رَدُّوا شَيْئًا، قالوا: إنَّ الحَقّ خِلافُه، وإذا عملوا بشَيءٍ قالوا: إن هذا هو الحَقُّ، وذلك تارَةً يَكونُ مِن قبيل الشُّبهة عندهم، وتارَةً يَكونُ مِن قبيل مَعرفَةِ الحَقّ، ثُمَّ يُنكِرُونَهُ وَيُحَرِّفُونَهُ.

وقَولُ اللهِ جَلَّ وعلا: نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) فيه رَدٌّ للدَّلائِلِ والبَيِّنَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ عليه الصَّلاة والسَّلامُ النَّبِي جاء على فترةٍ مِن الرُّسُل، وجاءَ مُصَدِّقًا لِرِسالَةِ الرُّسُلِ مِن قَبْلِهِ، فَالرُّسُلُ جميعًا جاءوا بشيء واحد ودين واحد، وهو الإسلام الله جلَّ وعلا وطاعَةُ الرَّسُولِ، وَلَكِنَّ شَرائِعَهم شَتَّى فِي العبادات والمعَامَلاتِ الشَّرائِعُ شَتَّى تَخْتَلِفُ باختلاف الرسولِ، وما أُنزِلَ عليه في كتابه. ولكنَّ الدِّينَ الَّذي هو حَقٌّ الله جل وعلا من الإخلاص له، وعِبادَتِه وحده لا شريك له، والبَرَاءَةِ مِن الكفر بأنواعه، ومن الشركِ بأنواعه، وإنزال الحاجة في الله جل وعلا، وطاعَةِ الرَّسولِ الَّذي جاء بهذه الرسالة، هذا هو الإسلام الذي جاءت به الرُّسُلُ جَميعًا، وهو الَّذِي عَرَّفَهُ بَعضُ أَهْلِ العِلمِ: بِأَنَّ الإسلام هو الاستسلام لله بالتَّوحيد، والانقياد له بالطاعَةِ، والبراءة من الشرك وأهله، وهذا هو الذي اجتمعت عليه الرُّسُلُ جَمِيعًا، فدين الله جل وعلا واحِدٌ كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَمِ ﴾ [آل عمران]، وَكُلُّ رَسول جاءَ بهذا الإسلام الواحد الذي لا خِلافَ فِيهِ مِن جِهَةِ حَقِّ اللَّهِ جَلَّ وعلا في توحيده، وما يجب له ، في عبادته وحده دون ما سواه، والبَرَاءَةِ والبعد عن الشرك والكُفْرِ، وكُلُّهم كانوا على ذلك، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ)) [آل عمران]، وقال أيضًا جلَّ وعلا: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) إن أَولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾

[آل عمران] يعني الذين آمنوا من جميع أتباع الأنبياء، آمنوا برسولهم هم على مِلَّةِ إبراهيمَ الخَليل عليه السَّلام، ولكنَّ الَّذِينَ حَرَّفوا دينَ اللهِ جَلَّ وعلا أتوا بما لم يأذن به الله جل وعلا، وهذا كما جاءَ النَّبِيُّ : الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاتِ الدِّينُ وَاحِدٌ وَالشَّرَائِعُ شَتَّى.

إذا كان كذلك، كان واجبًا أَنْ يَكونَ التَّوحيدُ ~~حق~~ الله جل وعلا، وطاعَةُ الرَّسولِ هَذَا مِن الدِّينِ الظَّاهِرِ المتَوَاتِرِ الَّذِي يَلْزَمُ الجَميعَ أَنْ يَقبل به، وإذا قامت الحجة والدليل على صدقِ مُحَمَّد بن عبد الله عليه الصَّلاة والسَّلام، وعلى أنَّ ما جاءَ به من عند الله، وعلى أنَّ القُرآنَ حَقٌّ، فَإِنَّه يَجِبُ عَلَى الجَميعِ، جَميع- أهل الملل والنحل والديانات، أنْ يَتَّبعوا هذا الرَّسُولَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، فَلَمَّا جَاءَهم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم جَاءَ المشركين وجاءَ أهل الكتاب بأدِلَّةٍ ظاهِرَةٍ بَيِّنَةٍ على أنَّه رَسول، ومُرسَلٌ مِن عندِ اللهِ جَلَّ وعلا لم يُؤْمِنوا به مع ظهورِ الحَقِّ وبيانه، وقالوا: نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ) فهم قد رَدُّوا الحَقَّ وَكَفَرُوا به وآمَنوا، كما يَزعُمُونَ بما أُنزِلَ عليهم، وفي الحقيقة فإنَّ الَّذِي أُنزِلَ عليهم لم يفهموه، ولو فَهموا ما أُنزِلَ عليهم لوجدوا فيه اتِّباعَ النَّبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا ظَاهِرٌ بَيْن في اليهود والنصارى، وكذلك ظاهِرٌ بَيْن في المشركينَ أَهْلِ الأَوثَانِ مِنَ العَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ النبي صلى الله عليه وسلم إليهم. فإذا كان كذلك، فإنَّ هذه الخصلة ظاهِرَةٌ في رَدّهم التوحيد، وفي إبطالهم صحة رسالةِ النَّبي ، وفي تكذيبهم للقرآنِ، وبأن ما فيه حَقٌّ، وفي تكذيبهم ببعض ما أمر الله جل وعلا به من الإيمان، فهم إذا جاءَهم بما لا يَهوَوْنَ كَذَّبوه، كما قال جل وعلا أفكلما جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة.]

ولا شَكٍّ أنَّه في أمور العبادات هذا ظاهِرٌ أيضًا في أحوالهم، فإنَّهم يتعَبَّدُونَ سَواءٌ في الصَّلاةِ، أو في الحج، والطُّوافِ، أو في الأخلاق، ونحو ذلك، يتعبدونَ بأشياء لم يُنزِلِ اللهُ جَلَّ وعلا بها سُلطَانًا، وَيَرُدُّونَ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الأفضَلُ هَديا والأكملُ هَديًا، عليه الصَّلاة والسَّلامُ، هَذا ظَاهِرٌ في أمور العِبادَةِ من جهةِ الصَّلاةِ، ومن جهَةِ الحَجّ والعُمرَةِ، ونحو ذلك فيما هو بين من أعمالهم. كذلك في تحليل الحَلال، وتحريم الحرام، تجد أنهم يُخالِفونَ مَا أَنزَلَ الله جل وعلا، فهؤلاء المشركونَ يَتَقَرَّبُونَ الله جل وعلا بعبادَةِ التصفيق، وهم يدعون الله أو يَطُوفُونَ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وعلا بأكل لحم الميتة، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا أفضل وأطيب، ويتقربونَ بالطَّوافِ عُراة، وكذلكَ بِتَركِ بَعضِ مناسك الحج، وكذلك بالاستقسامِ بالأزلام، وأشياء من ذلكَ كَثِيرَةٍ. وأهل الكتاب عندهم من المخالفات في هذا الأمرِ الشَّيءُ الكَثِيرُ مع أنهم لم يُطبقوا، ولم يعملوا ما جاءَهم في كتابهم على الحقيقة كما كان في قصة الرجم في قِصَّةِ عبد الله بن سلام مع الحبر اليهودي حَيثُ وَضَعَ إِصْبَعَه على كَلِمَةِ الرجم، أو على آية الرجم)، فقالَ: (مُرْهُ فَلْيَرفَعْها) فَلَمَّا رَفَعَهَا وَجَدوا ~~ذلك، وهذا ظاهر في حال هذه الطوائف، أو أتباع هذه الملل.~~

كذلك في عهدِ النَّبي صلى الله عليه وسلم شابههم المنافِقُونَ في ذلك، فهم لا يُؤْمِنونَ إِلَّا ظَاهِرًا، ولكنَّهُم فِي الحَقِيقَةِ يميلون، بل يَتَّبِعونَ المشركين وأهل الكتاب.

هذه الخصلة جماعُها أنَّ هؤلاء يَرُدُّونَ الحَقَّ الظَّاهِرَ البَيِّنَ، ويقولونَ: نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) ولو كان هذا الَّذي عندهم، عند التحقيق باطل، فيَرُدُّونَ الحَقِّ مع علمهم به، أو يَرُدُّونَ الحَقّ لِعَدَمِ رَغْبَتِهِم- فيه-وهذه الشُّعبةُ مِن شُعَبِ وخصال أهل الجاهِلِيَّةِ يَشتَرِكُ فيها كُلُّ الفِتَاتِ المختَلِفَةِ الَّتي خَالَفَت الكِتابَ والسُّنَّةَ وهَديَ سَلَفِ الأُمَّةِ في المسائلِ المتَنازَع فيها، خاصةً في مَسائل الاعتقادِ والتَّوحيد، وفي أصل-الأتباع

فإذا نظرنا مثلا في بابِ العَقيدَةِ وَجَدنا أنَّ الطُّوائِفَ الَّتي جَعَلَت العقلَ دَليلًا مُقَدَّمًا على دَلِيلِ النَّصَّ مِن الكتاب والسُّنَّةِ، جَعَلُوا ما أصلوهُ مِن الأدلة العقلية هو الحَقّ، وما خالفه من الأدِلَّةِ السَّمعِيَّةِ مُأَوَّلًا به أو مردودًا، ولهذا نرى الجهمية الغُلاةَ، أتباع جَهم بن صفوان أَوَّلَ ما نَشَؤوا لم يُؤْمِنُوا إِلَّا بِما دَلَّ عليه الدَّليلُ العقلي، ولهذا نقوا الصفاتِ والأسماء، ونقوا الغيبيات، ولم يُؤمِنوا إِلَّا بِمَا اقْتَضَاهُ الدَّليلُ العَقليُّ الَّذِي يَقولونَ، كما يَزْعُمونَ: أَنَّهُ قاطع وورِثَهم على ذلك، مع خِفَّةٍ يَسيرَةِ المعْتَزِلَةُ، ثُمَّ وَرِثَ المعْتَزِلَةَ عَلَى ذلك مع خِفَّةٍ يَسيرَةِ الكُلَّابِيَّةُ والأشاعرة والماتريدية ونحوهم في صنفٍ يَنظُرُونَ إلى الحَقِّ؛ ولكنَّهم يَجعَلُونَ دَليلًا آخَرَ، هو الدليلُ العَقلِيُّ مُقَدَّمًا على الدليل السَّمعِي، حَتَّى قَالَ بَعضُهم : إِنَّ العَقل قاطع، والنقل ظَنّي، ولا يُقَدَّمُ ظَنّي على قاطع. وهذا يُؤَسس لك معنى الحَقِّ الذي عندهم، ويُشارِ كونَ أهل الجاهلية فيه، فهنا قال الشيخ، رحمه الله تعالى : (دعواهم العمل بما عندهم من الحَقِّ)، وهم في الحَقيقَةِ يَدعونَ ذلك، ولكن ليس الأمر على ما يُريدون. فكُلُّ مَن خالف في أبواب التوحيد والاعتقادِ يُشابِه أهل الجاهِلِيَّةِ في أَنَّهُ يَرُدُّ الحَقِّ، وَيَقُولُونَ: نُؤْمِنُ بمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) يعني نُؤْمِنُ بما أصَّلَه مَشايخنا، في أبواب الاعتقادِ

والتوحيد.

طَيِّب قبلَ أَنْ يَخرُجَ هؤلاء المقَدَّمونَ عندكم، ما الذي كانَ الأمرُ عليه ؟ لم تكن هذه الأمور أصلا، وإِنَّما كانَ الأمر على التسليم في أُمورِ الغَيبِ جَميعًا، كما وَصَفَ اللهُ جَلَّ وعلا خاصَّةَ عِبَادِهِ المؤْمِنِينَ،- بقوله في أَوَّلِ آيَةٍ مِن القُرآنِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : ٣] فأول صِفَةٍ جَاءَت في هؤلاء أَنَّهُم يُؤْمِنُونَ- بالغيب.

فإذا كانوا لا يُؤْمِنونَ بالغَيبِ إِلَّا على وفق الأقيسة في الدُّنيا، فقد رَدُّوا بَعضَ الحَقِّ، وهذا أيضًا ظَاهِرٌ في مَن تَعاطى في المسائل، في مَسائِلِ التَّعَوُّدِ مِمَّن خَالَفَ الهَديَ النَّبَوِيَّ في الأتباع فيها، وعَلَا فِي مَسائِلِ التَّعبدِ، وابْتَدَعَ بِدَعا لا أصل لها، بل هي مردودةٌ بمقياس الكتاب والسُّنَّةِ، فإذا

نُهِيَ عن ذلك، قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) يعني نُؤْمِنُ بما عندنا من الدليل والحُجَّةِ، وأمَّا أنتم فلا تَأْبَهُ بِمَا تَقُولُونَ، هَذَا النَّاظِرُ فِي جَمِيعِ الطُّرُقِ الصُّوفيَّةِ يَجِدُ ذلك ظَاهِرًا بَيِّنًا؛ في أنَّ كُلَّ طَرِيقَةٍ يَتَّبِعُ أصحابُها شَيئًا يُقَدِّمُونَ أَفعال وأقوال شيخهم على نَص الكتاب والسُّنَّةِ، ويقولون: أنَّ هذا هو الحَقُّ الظَّاهِرُ. حَتَّى جَعَلُوا المرِيدَ مَع شَيخه، كما يزعمون، كالغريق مع مُنقذه، فليس له إلا أن يُطيعه، ويمشي مع ما يُرِيدُ، وَهُذَا كَثِيرٌ سَواءٌ فِي مَسائل السُّلوكِ، أو في أعمال القلوب، أو في المعاملات، في العبادات، المعامَلَاتُ يعني مع الخَلقِ، أو في العبادات التي يُتَعَبَّدُ بها-.

تَجِدُ أَنَّ طَوائِفَ الصُّوفِيَّةِ على اختلاف طبقاتهم لهم نصيبٌ مِن تَركِ الحَقِّ، ودعواهم العَمَلَ بما عندهم من الحَقِّ، فليس هناك طائِفَةٌ تَقولُ : أنا الذي عندي باطل. لا يوجَدُ أَحَدٌ يَقولُ : أنا الذي عندي باطل، وأنا مُصر على هذا الباطل، بل كُلُّ فِئَةٍ تَقولُ: إنَّ ما عندي حَقٌّ، وأنا أَتَّبِعُ هذا الحَقّ، وأنتم كذا وكذا، يعني يسيمون أهل الحق، أو أهل الدليل بما يسيمونهم به، وهذا يَحتاجُ إلى تبيين وصَبرٍ، حَتَّى يَتَبيَّن لهم الحق.

كذلك الَّذِينَ يَختَلِفونَ، اختلفوا في الأمة في مسائل الإمامَةِ والوَلايَةِ، منذُ عَهدِ عُثمانَ ، ويُزوغ الخَوَارِجِ إلى ما كانَ في الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ مِن مِثلِ فِتنة عبدِ الرَّحمنِ بنِ الأَشْعَثِ، وإلى ما كانَ في الدَّولَةِ العبَّاسِيَّةِ مِن حَرَكَةِ ذِي النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ، إلى ما كانَ مِن أشياءَ كَثيرَةٍ مِمَّا حَصَلَ فيها، مُخالَفَةٌ في باب الإمامَةِ، سواء من الخوارج والمعتزِلَةِ، أو مِمَّن شَذا من الفقهاء والمنتسبين للسُّنَّةِ في هذه المسألَةِ، فَتَجِدُ أَنَّهم يُعملون أصولاً في أبواب الإمامة، والولاية والخروج، يُخالِفونَ بها مقتضى الدليل مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ، ويقولونَ: إنَّا ما نَحنُ عليه هو الحَقُّ، وهو الذي يَجِبُ، وهو الذي فيه نُصرَةُ الإسلام، وَمَن نَظَرَ فِي كَلامِ-الشعبي رحمه الله تعالى، وقد كانَ قَدِمَ على الحجاج بعد فتنة ابن الأشعث، ورُبَّما أَدْرَكَته تلكَ الفِتْنَةُ، ثُمَّ قَدِمَ-على الحَجَّاجِ وهو يُرِيدُ الحَجَّاجُ به فتكًا، فاعترف بأمره، فاعترف بذنبه وأنَّه كذا، مع شَأْنِ الحَجَّاجِ العظيم، وهو المبيرُ ، ولكنه لما كان أميرا لعبد الملك بن مروان كان واليا وَلايَةَ حَقٌّ في ذلك، وإنْ كانَ ظالِمًا مُبيرًا سَفَّاكًا أثيمًا، لا يُثنى عليه، لكن كان له ما كانَ فصار عامِرٌ الشَّعبِيُّ الإمامُ المحَدِّثُ المعروف، اعترف بذنبه فسلم منه، وهذا كثيرٌ في أنَّه يَتَأَوَّلُ بَعضُ الصَّالِحِينَ وَبَعضُ الفُقَهَاءِ فِي مَسائِلِ الإمامَةِ والولايَةِ في مَسائل الخُروج أو في الإنكار بما لا يُوافِقُ الحَقّ مِن حَيثُ هو، ولا يدرون ما الذي تُحدِثه أفعالهم من سفك للدماء ومِن إراقة لدَمِ المسلِم، الذي هو مُحَرَّم، بل حُرمَتُه شَدِيدَةٌ مُؤَكَّدَةٌ. فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الخَوَارِجِ وَالمعتَزِلَةِ، الأمرُ فيهم ظاهِرٌ في هذه المسأَلَةِ، لَكُنْ إِذَا نَظَرتَ إِلَى المنتسبين إلى السُّنَّةِ، مِن طَوائِفَ كَثِيرَةٍ، سَواءٌ مِن بَعض الفقهاء الأقدمين، أو من في العصر الحاضر من كثير من الجماعات الإسلامية، أو من أفراد كثير لهم رغبة في نُصرَةِ الإسلام، ولا يَرُونَ نُصرَةَ للإسلامِ إلَّا

عن طريق الخروج على ولاة الأمور، والمتَأَمِّلُ البَصِيرُ يَجِدُ أنَّهم خالفوا الكتاب والسُّنَّة، وما أجمع عليه أهلُ السُّنَّةِ في عَقائِدِهم، ثُمَّ يَجِدُ أنَّهم في الواقع أنَّ ما يُفسدونَ أكثَرُ مِمَّا يُصلِحونَ، لكن إذا قُلتَ لهم فإنَّكَ، ونَهَيتَ عن ذلك، فستَجِدُ أَنَّكَ أنت المخطِئ أمامهم لماذا؟ لأنهم يقولونَ الَّذي عندنا هو الحَقُّ، لكن هل يَحتَجُونَ بِكِتَابٍ أو بسُنَّةٍ أو بقول أئمة الإسلام؟ لا، إنَّما يَحتَجُّونَ بِمَا يَزعُمُونَ أَنَّه الحَقُّ، وَالحَقُّ مخالف لما معهم. وهذا ظاهِرٌ بَين أيضًا اليَومَ في كثيرٍ مِن الضَّلالات التي تمشي في بِلادِ الإسلام، فإنَّه صارَ عندَ النَّاسِ كَلامٌ، وقيل وقال وحَدِيثٌ حَتَّى نَطَقَت الرُّوَيْبِضَةُ كما جاءَ في الحَديثِ: « إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ سِنِينَ خَاعَةٌ، يَخُونُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ ، قالوا: من الرُّويبِضَةُ ؟ قال: الرَّجُلُ التافه يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ العَامَّةِ» رواه الإمام أحمدُ وَغَيْرُه. وهذا ظَاهِر، يعني أصبَحَ مَن قَلَّ عِلمُه وقَلَّ نَظَرُه وإدراكه، أصبَحَ يَتَكَلَّمُ فِي الأُمورِ العَامَّةِ في أُمَّةِ المسلمين، وهذا مِن البَلاءِ الكَبيرِ، وَكُلُّهم يَدَّعِي أَنَّ الحَقّ معه. ولهذا كما جاء في الحديث الآخر : يَكونُ فِي آخِرِ الزَّمانِ أَنَّه يُعجَبُ كُلُّ ذِي رَأيٍ بِرَأيِه، كما جاءَ في الحَديثِ: «حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًا مُطَاعًا وَهَوَىٰ مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةٌ وَإِعْجَابَ كُلُّ ذِي رَأْيِ بِرأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ لِلعَامِلِ فِيهَا أَجْرَ خَمْسِينَ»

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالسِّتُونَ الزِّيَادَةُ فِي الْعِبَادَةِ كَفِعْلِهِمْ يَوْمَ عَاشُوراء.

الْمَسَالَةَ التَّاسِعَةُ وَالسِّتون: نَقْصُهُمْ مِنْهَا، كَتَرْكِهِمِ الْوُقُوفَ بِعَرَفَات.

هاتانِ خَصْلَتَانِ مُتَلازِمَتانِ من فعل أهل الزيادَةِ أو النقص في الدِّينِ، وَكُلُّ مِنهما يَدخُلُ فِي سِلكِ البِدَعِ، وأهل الجاهلية يفعلون أفعالا من العبادات لم يُؤمروا بها، كما قال الله جل وعلا: وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَنِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] الآية. وكما جاء في السُّنَنِ أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في شأن أهل الكِتابِ : « فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ رَهْبَانِيَّةُ ابْتَدَعُوهَا» – الحديث في السُّنَنِ، في سنن أبي داود، وكذلك في معناه الحديث الآخَرُ الَّذِي رُوِيَ مِن طَرِيقِ ابنِ المنكَدِرِ عن جابر، وهو « إِنَّ هَذَا الدِّين مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، فَإِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى وهو حَدِيثٌ حَسَنٌ بمجموع طرقه، ونحو ذلك ما جاءَ في هذا البابِ مِن حَدِيثِ الثَّلَاثَةِ الَّذِين زادوا في العبادة، وأخبروا بفعل النبي الله وعبادته، فكأنَّهم تَقَلَّلُوها الحديث المعروف.

فمن خصال أهل الجاهلية، سواء من أهل الكتاب أو من الكُفَّارِ الوَثَنِيِّينَ، أَنَّهُم يَتَعَبَّدُونَ بِزِيادَةٍ أو يُنقصون، وهذه خالفهم فيها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وشَدَّدَ وأَكَّد على هذه الأُمَّةِ

عَلَى عَدَمِ الخُروج، عن عَدَمِ الزيادة في الدين، قال الله جل وعلا: ﴿ أَمْ لَهُمْ شركاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في يوم عَرَفَةَ في حَجَّةِ الوداع، وقد نَزَلَ عَليه قَولُ اللهِ جَلَّ وعلا اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فالدين قد تم فلا مجال فيه لزيادة أو نقص. وقولُ الشَّيخِ: (الزِّيَادَةُ فِي الْعِبَادَةِ كَفَعْلِهِمْ يَوْمَ عَاشُوراء هَذَا لَعَلَّهُ يَعني بـ بذلك أن اليهود كانوا يتَّخِذُونَ هذا اليَومَ عيداً، ويتقربون فيه بزيادَةٍ، مِن الإنفاق وبما لم يَكُنْ مِن قَبْلُ، وَلَمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ ، لَمَّا سألهم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بَيَّنَ له أولئكَ أنَّ موسى عليه السلام كان يصومه، فصامه النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم شُكرًا الله جل وعلا، واليهود فعلوا ذلك صِياما واتِّخاذهم فيه عيدًا، فهم . عليه السلام صامه شُكرًا الله جل وعلا، فلم يكتفوا بذلك حتَّى جَعَلوه يَومَ عِيد، مع كونِ موسى عليه السَّلامُ لم يَتَّخِذه عيدًا. وهذا كثيرٌ أيضًا في هذه الأمة مِن جِهَةِ الزِّيَادَةِ، ومِن جِهَةِ النَّقْصِ، وَكُلُّ أَهْلِ البِدَعِ على اختلافِ أصنافهم، إمَّا أَنْ يَزيدوا وإمَّا أَنْ يَنقُصوا، وإذا كان كذلك فقد عَرَّفَ أهل العلم البدعة بعدة تعريفات،

منها: أنَّ البِدعَةَ هي طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ تُضاهى بها الطَّرِيقَةُ الشَّرعِيَّةُ، ويُقصد بالسُّلوكِ عليها التَّقَرُّبُ إلى الله جل وعلا.

وهذا حاصله أنَّ البدعة هي طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ، تُضاهى بها الطريقَةُ الشَّرعِيَّة، وهذه المضاهاة ظَاهِرُ أَنَّها في الدِّينِ، فتكونُ إمَّا بزيادَةٍ في الوصف، أو في العَدَدِ، وإما بنقص في الوَصفِ، أو في العَدَدِ، وهذا يَدخُلُ في هاتينِ الخَصْلَتَينِ، فَحَدُّ البِدَعِ داخِل فيه إمَّا أَنَّهُ زِيادَةٌ وإمَّا أَنَّهُ نَقَصٌ، بِقَصدِ التَّعَبُّدِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَىٰ الله جل وعلا.

والبدعُ الَّتي أُحدثت في هذه الأمة، كما أحدث أهل الجاهلية، من ذلكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا مَعروفَةٌ لَا حَصرَ لها، فمِنها بِدَعٌ مُتَعَلَّقَةٌ بالأزمنة، ومِنها بِدَعٌ مُتعلقة بالأمكنة، ومنها بِدَعٌ مُتَعَلِّقَةٌ بالأذكارِ، وَمِنها بِدَعْ مُتَعَلِّقَةٌ بالعبادات والصَّلاةِ والزَّكاة والصيام والحَجِّ، ونحو ذلك، ومنها بِدَعٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِأَمَاكِنِ العِبَادَةِ كَالمسَاجِدِ ونحوها، وهي كثيرة جدًّا، وحصر أو ذكر بعض الباحثينَ أنَّه أُحدِثَ لِكُلِّ يَومٍ بِدعَةٌ، فَكُلُّ يَومٍ، يَعني في جملة دراسة البدع، تَجِدُ أنَّ له بِدعَةً تَخُصُّه بشكل من الأشكال، وقد قيل: إِنَّهُ فِي الدُّولَةِ العُبَيدِيَّةِ المسَمَّاةِ بالدولة الفاطمية، جُعِلَ لِكُلِّ يَومٍ مِن أَيَّامِ السَّنَةِ الاحتفال بعيد من الأعيادِ يَجعَلُونَه، وهم الذين أحدثوا بدعة الاحتفال بيومِ المولِد وأشياءَ كَثِيرَةٍ مِن ذلك.

فإذا نظرنا إلى هذا، وَجَدنا أنَّ البدع إنَّما هي ميراثُ أهل الجاهلية، ليست ميراث مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ عليه الصلاة والسلام، وليست ميراث أبي بكر، ولا ميراث عُمَرَ، ولا ميراثُ عُثمانَ، ولا ميراثُ عَلِيَّ، أجمعين، ولا ميراث بَقِيَّةِ الصَّحابة، ولا ميراث التَّابِعِينَ، وإنَّما أَحَدَثَهَا مَنْ أَحَدَثَهَا ظَنًّا مِنه أَنَّهَا- مسألة اجتهادية، ثُمَّ تَبِعَه النَّاسُ عَلَى غَلَطه في ذلك. الواجِبُ أنَّه إذا اجتَهَدَ أَحَدٌ، حَتَّى ولو كان من أهل العلم، في شَيءٍ لا ظهور له، ولم يُوافِقْهُ بَقِيَّةُ أهل العلم عليه، فإنَّه لا يجوز اتِّباعه فيما شَذَّ فيه، خاصةً في مَسائلِ التَّعَبدِ، وَمَا أُحدِثَتِ البِدَعُ ولا زادَت إِلَّا مِن هذا الأمر، ولهذا كُلُّ من أحدَثَ بِدعَةً فجابه بأنَّ هذه مِن خِصالِ أهلِ الجَاهِلِيَّةِ، كيف؟ إمَّا أَن تَكونَ زِيادَةً، وإمَّا أَنْ يَكُونَ نَقصًا، فالزيادة ظاهِرَةٌ في فعل اليهود كيوم عاشوراء، وفعل النصارى في التَّعَبدِ والتَّخَلّي وتحريم بعض الأشياء عليهم، كما في الآية والحديث، وإمَّا أيضًا في الزِّيَادَةِ فِي فِعل قُرَيْشٍ حِينَ زادوا أشياء في طَوافِهم، فَظَنُّوا أَنَّ التَّقَرُّبَ أنْ يَطوفوا وهم عُراةٌ، حَتَّى لا يَطوفوا للهِ جَلَّ وعلا في مَلابِسَ-رُبَّمَا عَصَوا اللهَ جَلَّ وعلا فيها، وإمَّا أَنْ يَكونَ ذلك بالنقص، والنَّقْصُ كَثيرٌ جِدًّا، فإنَّهُم يَرَونَ أَنَّ مِن الدِّينِ أنْ يُنقَصَ مِن أحكامه؛ لأنَّ هذا أكمل، وهذا ظاهِرُ في تَركِ الحُمس الوُقوفَ بِعَرَفَةَ، وَظَاهِرٌ في ادعاءِ طَائِفَةٍ من هذه الأُمَّةِ أنَّ التكاليف تسقط عنهم، وأنَّ الصَّلاةَ والزَّكاة والصيامَ والحَجَّ إنَّمَا جُعِلت لإصلاح النفوس، وإذا صلحت النفوس، فلا حاجة لهذه الأشياء، والعياذ بالله، فتركوا أمر الله جل وعلا تَعَبدًا، وقالوا: نتفرغ لتصفية النفس من أدرائها على طَرِيقَةِ الخَواص. وهذه سَلَكَهَا الفَلَاسِفَةُ الإِسْلامِيُّونَ، وسلكها أيضًا غُلاةُ المتَصَوِّفَةِ، كما هو معروفٌ.

والَّذِي يَنظُرُ اليَومَ، يَجِدُ أَنَّ هاتين الخصلتين، الزيادَةُ في الدِّينِ أو النَّقْصُ مِنه تَقَرُّبا إلى اللهِ جَلَّ وعلا أنَّها مِن أكثر ما يكون انتشارًا، فكُلُّ بَلاء تجده في التوحيد، أو في العبادات، راجع إلى البدع، فالبدع لا يَجوزُ التَّساهل فيها، بل يَجِبُ صَدُّها والإرشاد إلى رَدَّها وبيانُ الحَقِّ في ذلكَ حَسَبَ حالِ البِدعَةِ، وإيضاح ما دَلَّت عليه الأدلة في هذا؛ لأنَّ البِدَعَ وَسيلَةٌ إلى تَركِ الدِّينِ، وإلى الانجراف الكبير فيه، فلم يَكُنْ فِي أَوَّلِ الأمر في الانحراف الكبير في الأمة في التَّوحيد، لم تُعبَدِ القبور، ولم تُعبَدِ المشاهِدُ، ولكنْ أَوَّلَ الأمر جاءت البدعُ بدَعُ البناء على القبور، بِدَعْ تَعظيم المشاهِدِ بِدَعُ التَّوَسُّل بالجاهِ، التَّوسُّلُ بِحُرمَةِ الشَّخص، اعتقاد أنَّ هؤلاء أقرَبُ عند الله جل وعلا فيُتَوَكَّلُ بهم، ونحو ذلك، فجاءت البدع في الاعتقادات، ثُمَّ جَاءَتِ البدع أيضًا في العَمَلِ في التَّعَبُّداتِ ، فزادوا أشياءَ فَجَعَلُوا بَعضَ الأَمَاكِنِ أَقْرَبَ إِلَى الله جل وعلا زُلفي، ثُمَّ بعد ذلكَ جَاءَت عِبَادَةُ غَيرِ اللَّهِ جَلَّ وعلا. قالبِدَعُ وَسيلَةٌ لِمَا هو أَشَدُّ، إذا كانت المعاصي بريد الشركِ بَرِيدَ الكُفر، كما قال جَمعٌ مِن السَّلَفِ: المعاصي بريدُ الكُفْرِ. فَإِنَّ البدعة هي بريد

الشرك، ولهذا قال الله جل وعلا في سورة الشورى: أم لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١] فَجَعَل تشريع الدين بما لم

يَأْذَن به اللهُ مِن صِفَةِ الشُّرَكَاء، وهذا ظاهِرٌ بَيْن في أنَّ البدعة كانت وسيلة لفتح باب الشرك في الأمة. فَانظُرْ مَثَلًا إلى أمرٍ أَخَفَّ مِن غَيرِه، من جهة ما يُؤَدِّي إليه، وهو الزيادة في الذكرِ بما لم يَكُنْ فِي السُّنَّةِ، أَدَّى إلى أن يكون هناكَ تَجَمُّع على ذكرٍ مُعَيَّنٍ ثُمَّ أدى إلى تكوين طَرِيقَةٍ تُناسِبُ هَذا الذِّكَرَ، فَجُعِلَ الذِّكرُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الفُلانية، على الطَّرِيقَةِ الفُلانية، على الطريقة الخَلْوَتِيَّة، على الطَّرِيقَةِ النَّقْشَبَندِيَّةِ الذِّكرُ، وهذا جاءَ بَعضُ ذلك، ولكن في البداية تَوَسَّعَ النَّاسُ في أشياء، ثُمَّ نَشَاتِ الطُّرُقُ الصُّوفية، والطُّرُقُ-الصوفية نشأت قبل البدع أو بعد البدع ؟ بعد البدع، لَمَّا بَدأت البِدَعُ، بَدَأَتِ الزيادات، والزيادات في الدِّينِ، حَتَّى نَشَأْت الطرق - نسأل الله جل وعلا السَّلامة والعافية من كُلِّ مَا يُخَالِفُ سُنَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَأَنْ يُلزِمَنَا كَلِمَةَ التَّقوى والسُّنَّةِ إِنَّه سُبحانَه جَوادٌ كَرِيمٌ،

بيان حكمِ السَّفَرِ لأجلِ الصَّلاةِ على المَيِّتِ إنْ كَانَ قَرِيبًا ذَا رَحِمٍ، أَو كَانَ صديقًا أو عالما من العلماء، وكذا حكم السَّفَرِ لأجل التعزِيَةِ

الجواب: هذه المسألة جَرَى البَحثُ فيها عِدَّةَ مَرَّاتٍ وكان الجواب عليها بأن نصوص الكِتابِ والسُّنَّةِ تُبَيِّنُ أنَّ بينَ المؤمِنِ والمؤمِنِ وَلايَةً ومَحَبَّةً وأَنَّ للمُؤمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حقًّا، وَأَنَّ عُلَماءَ المسلمين لهم مِن ذلكَ الحَقُّ الأوفى، والصَّلاة على المَيِّتِ مِن جُمْلَةِ الحُقوقِ، ولم يَأْتِ مَا يَمْنَعُ مِنَ السَّفَرِ لأداءِ حَقِّ المسلِمِ على المسلِم، بل عُمومُ الأدِلَّةِ يَدلُّ على أَنَّ السَّفَرَ لأجل أداءِ الحَقِّ هَذا أَنَّه مِن القُرُباتِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بها المؤمِنُ إلى رَبِّهِ جَلَّ وعلا؛ لأنَّ السَّفَرَ الأصل فيه الجَوازُ إِلَّا إذا كانَ لتعظيم بقعة من البقاع، وهذا هو الذي جاء فيه الحَديثُ : لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِدِهِ يَعْنِي إِذَا كَانَ القصد تعظيم تلك البقعة، فإنَّه لا تُعَظَّمُ بُقعة بالسَّفَرِ إليها إِلَّا الثَّلاثةُ مَسَاجِدَ فقط.

فإذا كان المقصود ليس هو البقعة، وإنَّما المقصودُ الصَّلاة على الميت وأداءُ الحَقِّ الذي له بأن كان من أهل العلم، أو كان من ذوي الرَّحِمِ، أو قريبا بأي نوع، أو مِمَّن له به صِلَةٌ مِن الأخوة الإسلامية الخاصة فإنَّ هذا ظَاهِرٌ في أنَّه لا يُمنعُ مِنه.

وبعض أهل العلم قال: إنَّه إذا كانت الصَّلاةُ في المَسجِدِ الحرامِ، أو المسجِدِ النَّبَوِيِّ فَإِنَّه ينوي بذلك السَّفَرَ المسجِدِ، ثُمَّ يُصَلِّي، ولكنَّ هذا ليسَ ثَمَّ دَليلٌ على هذا التفريق؛ لأنَّه إذا نَوَى الصَّلاةَ عَلَى المَيِّتِ

أو سافر للتَّعزِيَةِ أو ما أشبه ذلك، فإنَّه عمل هذا لأداءِ حَقٌّ المسلم عليه، أو حق العالم عليه، ولهذا الأصل فيه الجواز، بل الأدلة تدلُّ عَلَى مَشروعِيَّتِهِ مُطلَقًا دونَ تفصيل.

مشروعية وضع المحاريبِ وَالْأَهِلَّةِ عَلَى مَآذِنِ المَسَاجِدِ؟

الجواب: وُجود المحاريب في قبلَةِ المسجِدِ والمآذن هذه، يعني على المساجِدِ، هذه عُمِلَت بعدَ عَهدِ رسول الله ، بعضُها في عَهدِ عُثمانَ ، وبَعضُها بعد ذلك، وجعلت المحاريب والمآذن للحاجة إليها، والعلماء أفتوا – مِن السَّلَفِ والأئمةِ – بجواز وضع المحاريب لتَدلَّ الدَّاخِلَ المسجِدِ على القِبلَةِ، كذلك وَضعُ المناير ليكون أبلغ ، لما كَثرَ النَّاسُ في إيصالِ صَوتِ الأَذَانِ عليهم. أمَّا وَضعُ الأهِلَّةِ على المساجِدِ، فَسَبَقَ أنْ أجَبنا في مَرَّةٍ كما أذكُرُ، أو إن كان كما أذكُرُ بتَفصيل تاريخ مجيء ال ء الأهلة على منابر المساجد، وأنَّها إنَّما جاءَت في العصورِ المتَأَخِّرَةِ وهي ظاهِرَةٌ في العَهْدِ العُثماني، وأَمَّا قَبْلَ ذلكَ فكانت تُمَيَّزُ المنابِرُ بشَيءٍ يوضَعُ عليها تارة يوضَعُ عليها نَخْلَةٌ، يَعني سمُ نَخْلَةٍ صَغِيرٌ، تارَةً سَفينة، ورُبَّما وُضِعَ أشياءُ أُخَرُ بِحَسَبِ رَغْبَةِ الواضِعِ ليُمِيَّزَ مَسجِدَه بذلك، وهذا مشى دونَ نَكير؛ لأنَّه للتمييز وهو موجودٌ إِلَى الْآنَ فِي بَعضِ المسَاجِدِ القَديمَةِ فِي مِصرَ والشَّامِ، وفي غيرها. وأَمَّا الأهِلَّةُ فَإِنَّها، كما ذكرنا جاءَتْ مُتَأَخِّرَةً، والغَرَضُ مِنها أن تكونَ مُمَيَّزَةٌ للمَسَاجِدِ عن غيرها، وهذا التمييز لأجل أنه اشتبهت بعض المناير أو المساجد ببعض البنايات أو المساكِنِ العالية، ورُبَّما اشتبهت ببعض منايرِ النَّصارى، لكنائسهم، وميّز المسلِمونَ هذه من هذه بوضع الهلال، وكأنهم اختاروا الهلال؛ لأجل أن وضع الهلال، أو الهلال من حيثُ هو له صِلَةٌ ببعض الأحكام الشرعية كالصيامِ والحَج ونحوها، فاختاروه لصلته لبعض الأحكام.

ثُمَّ مَشَى تَمييزا للمُسلِمينَ بينَ أهل الهلال وهم المسلِمون، وبين أهل الصليب، ولكن ليسَ وَضعُ الهلالِ تعظيمًا له، وإنَّما هو عَلامَةٌ فقط وُضِعَت على المساجِدِ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى صَارَ عَلامَةٌ للمُسلِمِ، فقالوا: الهلال الأحمرُ ، مُقابِلَ الصَّليب الأحمر في الإسعاف والإغاثة، وقالوا، وجعلوا في بعض الأعلام الهلال كما في بَعض أعلامِ الدُّوَلِ النَّصرانِيَّةِ الصَّليب وأشباه ذلك، فَصَارَ عَلَامَةً، وَكُونُ الهِلالِ عَلَامَةً ليس فيه ما يَرُدُّه؛ لأنَّ جَعَلَه عَلامَةً ليسَ لغَرَضِ التَّعَبدِ وإنَّما لغرض التمييز، والتمييز لا ممنوع منه .

ما حكمُ شِراءِ مَيتةِ الأَدمِي لأجل التشريح؟

الجواب : الأدمِيُّ مُحترم حَيًّا وميتًا، وحرمته ميتا كحُرمتِهِ حَيًّا سَواءٌ في بَدَنِه أو في قبره، والتَّصَرُّفُ في بَدَنِ المَيّتِ لَا يَسوغ إلَّا إذا كان هو أوصى به، خاصة إذا كانَ مَيْتَةَ مُسلِمٍ فَإِنَّ هَذِهِ، فَإِنَّ المسلِمَ المَيّتَ حرمتُه مَيْتًا كَحُرُمتِهِ حَيًّا، وهذه بحثتها عدد من المجامع الفقهية، ورُبَّما صاروا إلى بعض الحصول على

ميتة الآدمِي غَيْرِ المسلِمِ بالشّراءِ لأجل أغراض التعليم، وأباحوا بعض هذه الأشياء للحاجة الملحة، أو للضَّرُورَةِ، أو النَّفْعِ المتَعَدِّي.

ما حكم شراء أو بيع الألعاب النَّارِيَّةِ للترويح عن الأطفال بها و نحوه؟

الجواب: الألعاب النَّارِيَّةُ كَثيرة الأنواع، وكثيرة، أو متعددة الأحجام ومُتَعَدِّدَةُ الأغراض، فإذا كانَ المقصودُ مِنها مَا يَسهُلُ ثَمَنُهُ بِحَسَبِ الشَّارِي، المشترِي له، ويُؤمَنُ ضَرَرُه عَلَى مُسْتَعْمِلِهِ فَإِنَّ التَّرويحَ بِهِ من جنس الترويح بغيره، لا بأس به للمُحتاج إليه، ولكن إن صاحب ذلك إسرافٌ أَو ضَرَرٌ أَو شَيءٌ مَنهِيٌّ عنه في الشَّرِيعَةِ، إمَّا ضَرَرٌ على فاعله أو على غيره، أو الترويع لبعض مَن يَروعُ بمثل هذه، فإنَّه يُمنَعُ مِنه لأجل هذا الغرض.

الْمَسْأَلَة السَّبْعُونَ تَرْكُهُمُ الْوَاجِبَ وَرَعًا.

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالسَّبْعُونَ: تَعَبدُهُمْ بِتَرْكِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالسَّبْعُونَ: تَعَبدُهُمْ بِترْكِ زِينَةَ اللَّهِ

الثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُونَ: دَعْوَتَهُمُ النَّاسِ إِلَى الضَّلَالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

الرَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ: دَعْوَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى الْكُفْرِ مَعَ العِلْمِ.

الْخَامِسَةُ وَالسَّبْعُونَ الْمَكْرُ الْكُبَّارُ، كَفِعْلِ قَوْمِ نُوحٍ.

السَّادِسَةُ وَالسَّبْعُونَ: أَنَّ أَئِمَّتَهُمْ إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَ اللَّهِ إِلَىٰ قَوْلِهِ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّا أَمَانِيَ ﴾ [البقرة: ٧٥-

فقد قال الإمام، شيخ الإسلام، مُحمَّد بن عبد الوهاب تعمله تعالى في كتابه «مَسائِلُ الجاهلية: الْمَسْأَلَةُ السَّبْعُونَ: تَرْكُهُمُ الوَاجِبَ وَرَعًا تَركُهم: يعني تَركُ أهلِ الجَاهِلِيَّةِ مِن المشْرِكِينَ وَالأُمِّيِّينَ وأهل الكتاب ما هو واجب عليهم مِمَّا ورثوه من ديانة صحيحة، من دين إبراهيم الخليل، أو من دين موسى، أو من شريعة عيسى عليهم الصَّلاة والسَّلامُ، وَرَعًا وتَقَرُّبًا إلى الله جل وعلا؛ لأنَّهم ظَنُّوا أَنَّ بَعضَ ما هو واجب عليهم ليس هو الكمال، وأنَّ الكَمال في تركه وَرَعًا. والوَرَعُ: كَلِمَةٌ لُغَوِيَّةٌ يُقصَدُ مِنها أن لا يُدخَلَ فيما، يعني مِن جِهَةِ اللُّغَةِ، أَنْ لا يُدخَلَ أو تَجَنُّبُ ما فيه إزراة أو فيه ضَرَرٌ أو نحو ذلك، وَكَلِمَةُ الوَرَعِ اسْتُعْمِلَتْ في الشَّرِيعَةِ، وَاسْتُعْمِلَ أيضًا معها كَلِمَةُ الزُّهْدِ،

وَالزُّهدُ غَيْرُ الوَرَعِ مِن جِهَةِ اللَّفظِ، ومِن جِهَةِ المعنى أيضًا في اللُّغَةِ وَفِي الشَّرعِ، ومن أحسن ما قيل في الفرق بينهما: **أن الزهد** : هو تَركُ ما لا يَنفَعُ فِي الآخِرَةِ.

الوَرَعُ : تَرَكُ ما قد يَضُرُّ فِي الدُّنْيا أو الآخِرَةِ.

فَالزُّهدُ مُتَعَلِّق بما لا يَنفَعُ، يَزْهَدُ الإنسانُ فِي الشَّيء؛ لأنَّه لا يَنفَعُه فِي الآخِرَةِ، وقد يكون هذا الَّذي لا يَنفَعُه يَضُرُّه، مثلَ زُهدِ الْمُؤْمِنَ فِي الحَرَام، وقد يكون ما لا يَنفَعُ مِمَّا هو مُبَاحٌ فَيَزْهَدُ فِيمَا أُبِيحَ، بِمَعْنِي أَنَّه يتركُ المباحَ؛ لأنَّه لا يَنفَعُهُ فِي الآخِرَةِ، ومن هذا قَولُ اللهِ جَلَّ وعلا: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَجًا منْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنفيتهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [طه]، وهذا مِن جِهَةِ الزُّهْدِ؛ لأَنَّ مَدَّ العَينِ لزَهَرَةِ الحياة عند جماهير أهل العلم ليس بمُحَرَّم، وإِنَّما تَرَكُه أَولى لأجل ما يَصحَبُه مِن ذلكَ، مِن قَسوَةِ القَلْبِ، أو ما أشبه ذلك، فتركه لأنَّه لا يَنفَعُ في الآخِرَةِ زُهَدٌ، وَتَرَكُ المحَرَّم؛ لأنَّه لا يَنفَعُ فِي الآخِرَةِ زُهَدٌ، وَتَرَكُ المنصِب؛ لأنَّه لا يَنفَعُ في الآخِرَةِ زُهدٌ، وَتَركُ بَعض العلم؛ لأنَّه لا يَنفَعُ فِي الآخِرَةِ أيضًا زُهَدٌ محمود وتركُ بَعض الصَّلاتِ والاختلاط لأنَّها لا تَنفَعُ فِي الآخِرَةِ زُهد، وهكذا. وأمَّا الوَرَعُ الوَرَعُ فهو مُتَعَلِّقٌ بما يَضُرُّ، أو بما قد يَضُرُّ، فهو يتركُه تَوَرُّعًا؛ لأنَّه قد يَضُرُّه فِي الدُّنيا، وقد يَضُرُّه في الآخِرَةِ، فلا حاجة له به، ولهذا فإنَّ الَّذي عند من يتركون الواجباتِ يَشْتَبِهُ عليهم، مِمَّن يَتَقَرَّبونَ بترك ما أمر الله جل وعلا به، يَشتبه عليهم التركُ للورع، والتّركُ للزهد فيها، وأهلُ الجَاهِلِيَّةِ، كما ذَكَرَ الإمام يتركونَ ما أَمَرَ الله جل وعلا به، ومنه الواجِبُ وَرَعًا، يعني لأجل أنَّه قد يَضُرُّهم في الآخِرَةِ، أو قد يَضُرُّهم في الدُّنيا.

فالله جل وعلا مثلًا أمر بستر العورات، وأمَرَ بالطَّهارَةِ، وأمَرَ بالنَّظافة، وأهل الجاهِلِيَّةِ مِن مُشرِكِي العَرَبِ رَأَوْا أَنَّ سَتَرَ العَورَةِ بِمَلابِسَ قد يكونُونَ غَشَوْا فيها الحرام، أو قد يكونُ لا يِسُها شَيْئًا مِن الحَرَام أو مِنَ النَّجاسَةِ، أو نحو ذلكَ مِن غَيرِ يَقين بذلك، ولكن قد يكون، أنَّ هذا الوَرَعَ تَرَكُه، فَجَعَلُوا هذا الواجِبَ من ستر العورَةِ الوَرَع بترك ما قد يَضُرُّهم في الآخِرَةِ بلبس هذه، وقد يكون فيها ما فيها من مُلامَسَةِ الحرام، أو النَّجاسَةِ ونحو ذلك، فجعلوا الطواف بالبيت وهم عُراة أقرَبَ الوَرَعِ والتَّقْوَى مِن الطَّوافِ على الهَيْئَةِ الَّتي أمر الله جل وعلا بها، وهي باللبس والستر، وهذه جاءت فيها الآيات المعروفة في سورَةِ الأعراف بما هو ظاهر.

وأهل الكتاب أيضًا تعبدوا بأنَّ الأكمل ليس هو الواجب، ولكن هو التَّوَرُّعُ عَن مُلابَسَةِ الدُّنيا، والقُربِ من زينتها، فلا يتَطَهَّرُونَ، ولا يَغْتَسِلونَ من جَنابَةٍ، ولا يُطَهِّرُونَ أبدانهم وملابسهم مِن

الحَدَثِ وَالخَبَثِ، قصدًا في الأنساخ، قصدًا في أن تكون أبدائهم ومَلابِسُهم وَسِخَةً كَرِيهَةَ المنظَرِ، أَو كَرِيهَةَ الرَّائِحَةِ؛ لأَنَّ هذا عندهم أكثرُ وَرَعًا مِن امتثال الواجب؛ لأنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى البُعدِ من زِينَةِ الدُّنيا. والله جل وعلا بما أقام من دين إبراهيم الخليل، وشرائع الأنبياء بعده لم يَأْمُرُ بما هو مُخَالِفٌ لِمَا يقتضيه الكمالُ في حَقِّ الإنسان من الشتر، ومن الطَّهَارَةِ والتنظف، ونحو ذلك، وهو يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عِباده على نحو ما أَمَرَ، لهذا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خالَفَ أهل الجاهلية في مسألةِ الطَّوافِ بالبَيتِ، وصار لباسه وهو يَطُوفُ بالبيت على أكمل حال لباس فيه التخلص من زينَةِ الدُّنيا، بهذا اللباس، وفيه أيضًا أنَّه ساتر للعورَةِ، وساتر لأعلى البَدَنِ ولأسفله، هذا مِن جِهَةِ الكَمالِ الَّذي هو مُوافِق للوَرَعِ الصَّحِيحِ؛ لأَنَّ تَرَكَ اللَّبَاسِ في هذا الحال، هو يَضُرُّ لمخالفته للأمر في الآخِرَةِ، ويَضُرُّ في الدُّنيا، فصار الوَرَعُ مُوافِقًا للواجِبِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ جل وعلا به.

وكذلك مُخَالَفَةُ النَّبي لأهل الكتابِ مِمَّن لا يَغْتَسِلون ولا يتنظفونَ، وَيَرُونَ أنَّ هذا هو الأكمل، خالفهم في الطَّهَارَةِ، وخالفهم أيضًا في البَدَنِ، وخالفهم أيضًا في الثّياب، فكان أهل الإسلام يُطلب منهم أن يكونوا نظيفي الأبدان، حتَّى نَظافَةُ بَعض الأعضاء الداخلية كداخِلِ الفَمِ بنظافَتِهِ، وَطَهَارَتِهِ، وَتَخَلُّصه من الروائح، كذلك شَرَعَ النَّظافَةَ الَّتي فيها إزالَةُ الرَّوائحِ الكَرِيهَةِ بِإِزالَةِ بَعضِ الشَّعَرِ، حَتَّىٰ يَكُونَ المرءُ أكمل بهذه الصفات. إذا تبين ذلك فإِنَّ الإنسانَ مِن حَيثُ هو قد يأتيه الشيطان في دينه بأن يُحَبِّبَ إليه الزيادَةَ على ما شَرَعَ الله جل وعلا، أو النَّقَصَ مِمَّا شَرَعَ الله جل وعلا، مِن جِهَةِ الزُّهْدِ تَارَةً، ومِن جِهَةِ الوَرَعِ تارَةً، وَكُلُّ زِيَادَةٍ في الدين أو نقص منه هذا راجع إلى عَدَمِ القَناعَةِ بما أنزَلَ الله جل وعلا، وهذا هو سَبَبُ مَا فَعَلَه المشركونَ. فالمسائِلُ الثَّلاث هذه الزيادة على الواجب، والنقص منه، وتَرِكُ الوَاجِبِ وَرَعًا، هذه مُتَماثِلَةٌ، وهي أساس الابتداع في الدِّينِ؛ لأنَّه تارَةً يَكون مِن جِهَةِ الزِّيَادَةِ، أو مِن جِهَةِ النَّقص، أو مِن جِهَةِ الزُّهْدِ والوَرْعِ كما يَزْعُمُونَ.

فَإِذَا هو سُلوكٌ وظَنٌّ يَأْتِي للنَّاسِ مِن جَميعِ الفِئاتِ ليُغريهم بذلك، وهذه الخصلَةُ جَاءَت أهل الإسلام؛ لأجل أنَّ في الإنسان مع عَدَمِ العِلمِ ما يُقَرِّبُ إليه هذه الخصلة، وهذه الصفةَ، وَمِن أَظهَرِ مَا يُذكَرُ في مَن اتَّصَفَ بهذه الصَّفَةِ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ يُظهِرُونَ خِلافَ ما يُبطنون ، بمعنى أنَّهم يُبطنون الإيمان والصدق واليقين، ويُظهرون خلافه؛ لأجلِ عَدَمِ الرِّياءِ، أو لأجلِ عَدَمِ ثَناءِ النَّاسِ عليهم، قد لا يُصَلُّونَ في الجماعات، أو قد لا يُظهِرُونَ مُوافَقَةَ الشَّرِيعَةِ؛ لأجلِ الوَرَعِ في أنْ يُظَنَّ بِهِم خَيْرًا، وَيقُولُ القَائِلُ مِنهم: يكفي بي أَنْ يَرَى اللَّهُ، ويَعْلَمَ مِنِّي خَيْرًا، وأنَّ النَّاسَ يَظُنُّونَ بي شَرًّا، ولكنَّ الإخلاص أَنْ يَعْلَمَ اللهُ مِن شَأْني الخير. ولا شَكٍّ أنَّ هذا خِلافُ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، والإخلاص فيما ظهر من الأعمال، هو

كالإخلاص فيما بَطَنَ من الأعمال والعبادات، والإخلاص ليس من شأنه أن يكون باطنا، فقد يكون ظاهِرًا بحسب الحال، نقصد بالإخلاص: يعني العَمَلَ الظَّاهِرَ الموافِق للشَّرِيعَةِ. إذا تَبَيَّنَ هذا فإنَّ الإنسان قد يأتيه هذا الأمر، وهو ترك الواجب وَرَعًا، فَيَحذَرُ مِنه المسلِمُ؛ لأجل أن لا يُشابة أهل الجاهلية.

ومن أمثلة ذلك قول بعضهم: إنَّ العَمَلَ مِن أجلِ النَّاسِ رِياءُ وَقُولُ الفُضَيلِ فِي مَقَالَتِهِ المشهورَةِ: وتَرَكُ العَمَلِ مِن أجل النَّاسِ شِراً. هذا ظَاهِرٌ؛ لأنَّه ظَهَرَ فِي وَقتِهِ القَرْنِ الثَّانِي مَن يَعْمَلُونَ مِثلَ هذه الخصلة، فقال مثل هذه الكَلِمَةِ العَظيمَةِ، لمعالجَتِها فيهم، يقولُ: (العَمَلُ مِن أجلِ النَّاسِ رِياءُ) هذا ظَاهِرٌ يَتَّفق عليه الجميع؛ لأنَّه إذا عَمِلَ عِبادَةً لأجلِ النَّاسِ فَإنَّ هذا رِياءُ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لَامْرِئٍ مَا نَوَى، ولكنَّ الخَصْلَةَ الثَّانِيَةَ، قَالَ: (وتَرَكُ العَمَلِ مِن أجل النَّاسِ شِرِكٌ) لأَنَّهُ أَعظَمُ مِن مَسْأَلَةِ يَسِيرِ الرِّياءِ، لأنَّه يترك العمل الواجب لأجل أنْ يَذُمَّه النَّاسُ، فيكونُ جَعَلَ رُؤيَةَ النَّاسِ فِي امثاله للعَمَلِ، أو عَدَمِ امتثالِهِ مُقَدَّمَةً على أمرِ الله جل وعلا، فصارَ شِركًا مِن هذه الجهَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ بَيِّنٌ فِي الطَّائِفَةِ الَّتِي أسمَتْ نَفْسَها بالمَلَامَتِيَّةِ، وهي ظَهَرَت فِي قُربِ القُرنِ الثاني الهجري، وطائِفَةٌ مِن طَوائِفِ الصُّوفية وانتَشَرَت، وَمَوجودٌ بَعضُ بَقايا منها فيما يُذكَرُ إلى الآن فِي بعض البلاد، وهذه يُظهِرُونَ، يتركون الأعمال الواجِبَةَ وَرَعًا، كفعل أهل الجاهليةِ، وَرَعًا وخوفًا مِن أيْ شَيءٍ ؟ خوفًا مِمَّا قد يَضُرُّهم فِي الآخِرَةِ، وهو أنْ يكونَ إخلاصهم مشوبًا، أو أن تكونَ نِيَّتهم مشوبة، فيُظهِرون ما لا يُبطِنونَ، يُظهِرُونَ الأعمال السَّيِّئَةَ، ويُبطِنون الأعمال الخَيْرَةَ، ورُبَّما جاهَرَ بَعضُهم، والعياذ بالله، ببعض الأعمال المشينة. لهذا تَجِدُ أَنَّ بَعض أهل الطرقِ، يَفعَلونَ بَعض الأعمال التي يُقالُ، كيفَ يَفْعَلُونَهَا !! مِن أعمالِ القِسقِ والمجون، ونحو ذلك، وبعضُهم يكون ماجنا في نفس الأمر، يعني يَكونُ فَاسِقًا مَا جِنًّا يُحِبُّ الفُحش والمنكَرَ فِي نفس الأمر، وبعضُهم يُريدُ أنْ يَظهَرَ بما ليس من حقيقة أمره، بهذا بفعل بَعضٍ مَشايخ الطُّرُقِ، اشتبة الأمر على الأتباع، فيكون بعضُ الصَّالِحِينَ مِنهم المبْتَدِعينَ الَّذِينَ تَرَكوا بَعضَ الوَاجِبِ وَرَعًا، وفَعَلُوا مَا يُذَمُّونَ بِهِ، فَعَلُوا ذلكَ بقصد سليمٍ، مِن حَيثُ القصد، لكنهم مَذمومونَ مِن جِهَةِ مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ، ومُتابَعَةِ صاحِبِ الشَّرِيعَةِ، ثُمَّ النَّاسُ اقتدوا بهم فِي أفعالهم، فصاروا يَرُونَ أَنَّ الكَمَالَ فِي عَمَلٍ مِثل ما عملوا، مع اختلافِ القصد، ولذلك شاعَ عند طائِفَةٍ منهم مُخالَطَةُ المردانِ، وَرُبَّمَا النَّومُ معهم، ورُبَّما مع النساء، وربما بأشياء كإسقاط التكاليف ونحو ذلك، فبعضهم لم يُظهِرُ عَمَلًا، يعني من صالحيهم، لم يُظهِرُ صَلاة فِي جَمَاعَةٍ، بل لم يُظهِرُ صَلاةً أصلا، ولم يُظهِرْ صِيامًا، ولم يُظهِرُ صَدَقَةً أو زَكَاةً أو نحو ذلك، وإِنَّمَا يَتَخَفَّى بذلكَ لِشِدَّةٍ، حَتَّىٰ

فَهِمَ بَعضُ أتباعهم أنَّ الكَمالَ في تَركِ هذه الأمور، فجاءت تحلَةً إسقاط التكاليف؛ لأنه أقرب وأبعدُ مِن النِّيَّةِ الفَاسِدَةِ، كما يَزْعُمُونَ.

لهذا هذه الخصلَةُ مِن أَشَدَّ الخِصالِ فَتكًا في مُتابَعَةِ السُّنَّةِ، وهو أنْ يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّهُ يَترُكُ الوَاجِبَ للورع، يترك ما أَمَرَ اللهُ جَلَّ وعلا به لِئَلَّا يُقال كذا، لِئَلَّا يُثنى عليه، ما يُرِيدُ أنْ يَعْلَمَ، لأجل لِئَلَّا يُقَالَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَو أَنَّه رَجُلٌ فيه خَيرٌ أو طالب علم أو نحو ذلك، حتَّى أن بعضهم استَحَبَّ كُتمَ العِلمِ؛ لأجلِ عَدَمِ الظُّهورِ، واستَحَبَّ عَدَمَ البَدَلِ؛ لأجلِ عَدَمِ قدح في الإخلاص، ونحو ذلكَ، وَالسَّلَفُ رِضوانُ اللَّهِ عليهم، يعني طائِفَةٌ مِن السَّلَفِ أو الأكثَرُ مِن السَّلَفِ كانوا ينتبهون لأنفُسِهم، لا يُخالِفونَ صاحِبَ الشَّرِيعَةِ، لكن إذا أعجَبَتْهُ نَفسُه عالجَها، فإذا كما كانَ عُمَرُ له يُروى عنه أنَّه يَدخُلُ السُّوقَ، وَيُخَالِطُ النَّاسَ، وَرُبَّمَا حَنَا التُّرابَ على رَأْسِهِ؛ لأجل أَنَّ نَفسَه تَعاظَمَت، كما يُقالُ إنْ صَحَ ذلك، فأرادَ أَنْ يُذِلَّهَا في اللَّهِ جَلَّ وعلا، ورُبَّما كَانَ مِنَ السَّلَفِ مَن تَرَكَ الجُلوسَ ِ للنَّاسِ إذا رأى الحَلَقَةَ عَظُمَت، وَمِنهم مَن كانَ إذا زادت عن أربعينَ فَإِنَّه يَقومُ؛ لأجل عَدَم الظهور هذه مُعالَجَةٌ ليست مُخالفة للأمر، أو ترك الواجِبِ وَرَعًا، ولكن هذه مُرتبطة بما قد يكون في النَّفس، والفرق بينهما أنَّ هذا يكون ليس على وجهِ الدَّوامِ، وَإِنَّما هو على وَجهِ أَنْ يَكونَ في وَقتِ دونَ وَقت، في حال دون حال، بحسب ما يظهرُ لَهُ مِن نَّفْسِهِ، وَهُذَا يُفَسِّرُ احْتِجَابَ بعض أهل العلم في بعض الأوقات، أو ما أشبه ذلك لأجل أن لا يكون للمرء فيه مدخل للمرءِ مَدخَلٌ للشيطان إلى نفسه. لكن في الحَقيقَةِ يُقابَلُ هذا في زَمانِنا الحاضر، وهو الأكثر عكس هذه القضية، وهو أنَّ الواجب لا يُترك وَرَعًا، ولكن يُترَكُ الواجِبُ إيش؟ عصيانًا، يُترك الواجِبُ استهانة، يُترك الواجِبُ صُدودًا عنه، وأنْ يَفعَلَ المحَرَّمَ ، وأنْ يَفعَلَ ما نهى الله جل وعلا عنه لا مبالاة به، بدون مبالاة، وهذا هو الآن الأكثر في الأمة، ففي الأزمنة الأولى شاعَ هذا؛ لأجل غَلَبَةٍ أو كَثرَةِ الخَيرِ، والآن صارت المسألة عكس ذلك لغَلَبَةِ الشَّرِّ أو كَثرَةِ الشَّرِّ، غَلَبَةُ الشَّرِّ فِي بَعضِ البِلادِ وكثرته في أكثرها، هذا تَجِدُ أَنَّ تَرَكَ الوَاجِبِ لَيسَ وَرَعًا وَإِنَّمَا استهانة به، فهؤلاء فاقهم أهل الجاهلية، لأنَّ أهل الجاهلية يتركون الواجب؛ لأن فعل الواجب قد يَضُرُّهم في الآخِرَةِ، والآن يتركون الواجب مع عليهم أنَّه يَضُرُّهم ولا مبالاة. تسأل الله جل وعلا السَّلامَةَ مِن الجَهل والفسوق والعصيان، وأن يُنَوِّرَ قُلُوبَنَا وَيُصلح ما فَسَدَ مِنهَا، إنَّه سبحانه جواد كريم.

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالسَّبْعُونَ: تَعَبدَهُمْ بِتَرْكِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ.

الثَّانِيَةُ وَالسَّبْعُونَ: تَعَبدَهُمْ بِتَرْكِ زِينَةِ اللَّهِ جَلَّ وعلا.

وهذه مُتَعَلَّقَةٌ بالزهد، وهو أنَّهم جعلوا الزُّهدَ تَعَبدا، والزُّهدُ إذا كان فيما أُمِرَ بِهِ شَرعًا فهو تَعَبُّد، وإذا كان فيما تشتهيه الأنفُسُ ولم يَأْمُرِ الله جل وعلا به فليسَ بتَعبد، فإذا كانَ التَّعَبدُ بِالزُّهْدِ تَحريما للخلال، فهذا صارَ زُهدًا مَذموما وليسَ زُهدًا مشروعًا، وكذلك إذا كانَ بتَركِ زينَةِ اللهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِن الرِّزْقِ، أيضًا هذا صار مذموما من هذه الجهة، وقد ذَكَرتُ لكم أنَّ الزُّهدَ يَخْتَلِفُ عن الوَرَعِ، وَأَنَّ الزُّهد عُرِّفَ بتعريفاتٍ كَثيرَةٍ مِن أحسَنِهَا، أَنَّ الزُّهدَ : هو تَرَكُ ما لا يَنفَعُ فِي الْآخِرَة. فالطَّيِّبَاتُ مِن الرِّزْقِ تَرَكُها قد يَكونُ زُهدًا في بعض الحالات، يعني زُهدًا مشروعًا، وقد يكونُ زُهدًا مُحَرَّمًا مَذموما.

أَمَّا كُونُه مشروعًا: فهو أَنَّه يَترَكها لا لأجل تحريمها، ولا لأجل التعبدِ بِتَركِهَا، وَإِنَّمَا لأَنَّ هذه الطَّيِّبَاتِ قد لا تَنفَعُهُ فِي الآخِرَةِ، مِثلَ كَثرَةِ الطَّعام، وجَمالِ أو نَفاسَةِ الثّيابِ، أو نفاسَةِ المساكِن، أو نفاسَةِ الأشياء الَّتي يُلابِسُها، وأشباه ذلك، فهذه طَيِّبات من الرزق، فقد يتركها؛ لأنَّها لا تَنفَعُهُ فِي الآخِرَةِ، أَو يَترُكُ بَعضَها لا على جِهَةِ أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ، ولكن لأنَّ تركها أصلح لقلبه، هذا بحَسَبِ حالِه، ويَكونُ زُهدًا محمودًا. وأَمَّا الزُّهدُ المدمومُ: فهو أن يَتَعَبَّد بترك ما أباحَ الله جل وعلا، ما معنى يَتَعَبَّدُ؟ يعني يتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ جل وعلا بترك وتحريم ما أباحَ الله جل وعلا له، فيتركه دائما، مثلا يَقولُ: اللحم هذا فيه، وفي أكله وأنَّه مِن الطَّيِّبَاتِ، وأنَّه غالي الثَّمَنِ، أنا لا أكل اللحم، إِنَّما أقتَصِرُ على الخُبزِ واللَّبَنِ والأشياء البسيرَةِ، وَيَجْعَلُ هذا دَيدَنًا له، هذا ليسَ مِن هَدي النبي صلى الله عليه وسلم بل هو بدعة مذمومة، ومُشابَهة لفعل أهل الجاهلية، النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لا يتكَلَّفُ شَيئًا لا يجده، فإذا جاءَه ما هو طَيِّبٌ تَناوَلَه وأكله ودعا لأهله وحَمِدَ الله جل وعلا وأثنى عليه، وإذا جاءَه ما هو أقل فَإِنَّهُ لا يَذُمُّه فَرُبَّما أكل اليابِسَ مِن النمر، والسَّيِّئَ مِنَ الطَّعَامِ وَلَا يَذُمُّ ذلكَ، بَل إِنْ اشتهاه أكله، وإن لم يَشتَهِهِ عليه الصَّلاة والسلام قام عنه ولم يَعِبهُ، وَإِذَا أَتَاهُ طَعَامٌ طَيِّبٌ مِنَ اللَّحْمِ أو الثريد أو ما أشبه ذلك، فإنَّه يَأْكُلُ ذلكَ مُتَنَعما بالطَّيِّبَاتِ مِن الرِّزْقِ الَّتي جَعَلَهَا اللهُ جَلَّ وعلا لعِبادِه. هذه سنة النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الجاهلية فيهم تحريم للطَّيِّبَاتِ مِن الرِّزْقِ سَواءٌ مِن أهل الشرك أو من أهل الكتاب، وهذا كثيرٌ فيهم، حَتَّى إِنَّ طَائِفَةً مِن أهلِ الكِتابِ يُحَرِّمونَ أشياء على أنفُسِهم مثل تحريم أكل اللحم أو الثياب التي فيها ليونة، أو ما أشبه ذلك؛ لأجل أَنَّ هَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ بِحَسَبِ مَا يَزعُمُونَ. ومعلوم أنَّ التحريم والتحليل هذا إلى الله جل وعلا، ليسَ إلى العِبادِ فَالعَبدُ يَجِبُ عليه أَنْ يُحِلَّ ما أحَلَّ اللهُ مِن الطَّيِّبَاتِ، مِن الرِّزْقِ ومِمَّا جَعَلَ اللهُ لعِبادِهِ مِن الزِّينَةِ في الملبَس أو في المسكن، أو نحو ذلك، ويَجِبُ عليه أنْ يُحَرِّمَ ما حَرَّمَ الله جل وعلا، وأنْ يُحِلَّ ما أحَلَّ الله جل وعلا، وإذا كانت نفسه فيها قُوَّةً في تَركِ بَعضِ الطَّعامِ تَعظيما لله جل وعلا، أو طلبا لثوابه، أو

لأنَّ فضول الطعام، أو فضول الزِّينَةِ، قد تَضُرُّه في الآخرة، أو قد لا تنفعه في الآخِرَةِ، فإنَّه يكون حينَئِذٍ مِن أصحابِ الوَرَعِ والزُّهْدِ المشروع. وأَمَّا إذا كانَ على طَرِيقَةِ أهل الكتاب، كما يفعل طائِفَةٌ مِن المتَعَدِّينَ مِنَ المتَصَوِّفَةِ وَأَشْبَاهِهِم فَإِنَّ هذا مِن سَيْءِ المقَالِ، أَصلُ كَلِمَةِ تَصَوُّف والصُّوفِيَّةِ أحد الأقوالِ فيها أنَّهم كانوا يلبسونَ الصُّوفَ؛ لأجلِ أَنَّ الملابِسَ النَّاعِمَةَ مِن القُطنِ والكتَّانِ ونحو ذلك، أو للنساء من الحرير وأشباهه، يَجْعَلُونَ أَنَّ هَذَا مِن النَّعِيمِ الَّذِي يُحَرِّمُونَه على أنفُسِهم، ومُشابَهَةُ أهلِ التَّصَوُّفِ كما ذكرنا في التاريخ، لأهل الكتاب هذا له سَبَب، قد ذكرته لكم مرَّةً، ما أدري هي قَديمَةٌ، وهي أنَّ مَنشَأَ التَّصوُّفِ كَانَ مِن جَهَلَةِ المتَعَبْدَةِ، فَإِنَّهم كانوا يذهبون مع مُتَعَبدَةِ النَّصارى في الأديرَةِ الَّتي تكون خارجَ البَلَدِ في الجِبَالِ، أو الصَّوْمَعَاتِ الَّتي يجعلونها ويتعبدون معهم، هذا يتعبد بإسلامه، وهذا يتعبد بنصر انيته أو بيهوديته أو بنحو ذلك. ثُمَّ أَخَذوا مِنهم أشياءَ مِن التَّقَلُّلِ في الدُّنيا، والنَّفْسُ إذا كانت راغِبَةً بِشِدَّةٍ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّها قد تُخطِئُ الطريق، وتَظُنُّ أنَّ الصَّلاحَ في الآخِرَةِ يَكون مبنيا على ما يَخْتَرِعُه الإنسان لنفسه، وليس عن فقه وعلم ومتابعة لصاحب الشريعة عليه الصَّلاة والسلام، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم مُحَذِّرًا للأُمَّةِ قبل مجيء هذا الاختِلاطِ : لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ، فَيُشَدِّدَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَإِنَّ قَوْم شَدَّدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ رَهْبَانِيَةُ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وهذا ظاهر بل وقعت فيه الأمة من هذه الجهة، وبهذا الاختِلاطِ حَصَلَ مِن ذلك. وهذه الخصلة تحريمُ الطَّيِّبَاتِ مِن الرِّزق، تحريمُ الزِّينَةِ، يَكونُ في المآكِلِ وفي المشارِبِ، ويكون في الملابس والمساكِنِ والمراكب، وفي ما هو مُستعمَل يَستَعمِلُهُ النَّاسُ حَتَّى فِي النِّكَاحِ والزَّواجِ خالفوا الهدي هدي الأنبياء في ذلك، وحَرَّموه على أنفُسِهم.

شَرحُ عِبارَةِ الفضيل بن عياض: **(العَمَلُ لأجل النَّاسِ رياء، وترك العمل لأجل النَّاسِ شِرك)**
والذي يروي هذه العبارة من أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام وابنُ القَيِّمِ يَقولُ: تَركُ العَمَلِ مِن أجلِ النَّاسِ رِياءُ والعَمَلُ لأجلِ النَّاسِ شِركٌ، وَرَواه البَيْهَقِيُّ فِي اشْعَبِ الإيمان»، هكذا في الإسناد، فهل العِبارَتانِ بمعنى واحد؟
الجواب: العَمَلَ لأجل النَّاسِ رِيَاءٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ، وَالرِّيَاءُ: أَنْ يُرَائِي بِعَمَلِهِ، يَعْمَلُ العَمَلَ لِيَرَاهُ النَّاسُ، وَتَركُ العَمَل لأجل النَّاسِ شِرك

قال أحَدِ الوعاظ : إذا رأيتَ امْرَأَةٌ مُتَبَرْجَةً فابصق في وجهها، وقُل لها يا عَدُوَّةَ اللهِ تَسَتَّرِي. ما حُكمُ هذا؟ وهل هو من أسلوبِ النَّصيحَةِ؟

الجواب: أنَّ هذا الأمر إذا كان قال به أحَدُ الوُعاظِ، فهو غَلَط ظاهِرٌ واعتداء، وإنكار بما لا يسوغ له الإنكار به، وذلك من جهات

الجِهَةُ الأولى: أنَّه لم يُنكِر، وإنَّما عَزَّرَ، فالبصق في الوجه، والضَّربُ أو الاعتداء على الملابِسِ، وَنَحْوُ ذلك هذا تعزير، وليس إنكارا، والتعزير ليس من الإنكار، التَّعزير لأهلِ التَّعزِيرِ مِن القُضَاةِ، أَو مَن وُكِل لهم تعزيرُ المخالف. والوَجهُ الثَّانِي: أَنَّ المرأَةَ المتَبَرْجَةَ لَا يَصلُحُ أنْ يُقالَ لها عَدُوَّةُ اللهِ؛ لأنَّ هذا بإطلاقه لا يَصلُحُ أَنْ يُقَالَ المسلِم : يا عَدُوَّ اللهِ، ورُبَّما كانَ في هذا مِن تَسليط الشَّيطانِ عليها. ولا شَكٍّ أَنَّ تَبَرُّجَ النِّسَاءِ بإبداء زِينَتِهِنَّ المحَرَّمَةِ، وإظهارِ المفاتِنِ عند الأجانب سواء كانوا في البيوت أو في الشوارع، أو في الأسواق من المنكَراتِ العَظيمَةِ الَّتِي شاعَتْ، ويَجِبُ الحَذَرُ مِنها، والتَّحذيرُ مِنها، حتَّى لا تَستَفحِلَ حَتَّى لا يَظُنَّ النَّاسُ أنَّها مِمَّا يَسوغُ أو يسهل، والمرأَةُ وَاجِبٌ عليها التَّسَتُّرُ، وواجب عليها أنْ لا تُبدي زينتها إلَّا لبعلها أو من جاءَ ذكره في الآيَةِ والتَّبَرُّجُ مُحَرَّم: وهو إبداء الزِّينَةِ للأجانب، قال الله جل وعلا لِنساءِ نَبِيّه وللنِّساءِ المؤمِناتِ: ﴿وَلَا تبرجن تبرج الْجَهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ولهذا ينبغي بل يَجِبُ على كُلِّ وَلِي أمرٍ أنْ يُلزِمَ نِساءَه، ومَن تَحتَ يَدِهِ بِالعَفَافِ والسَّتْرِ، وَأَنْ يُرَبِّي فِي أَنفُسِهِنَّ هذا الأمر؛ لأَنَّهُ مِمَّا يَجْعَلُ القَلبَ تَقِيًّا، قَلبَ المرأَةِ وأيضًا قَلبَ وَلِيِّ الأَمرِ، وَأَمَّا التَّسَاهُلُ في ذلكَ فيفضي إلى مُخَالَفَةِ أَمرِ اللهِ جَلَّ وعلا في حَقِّ ولاة الأمر على النِّساءِ، والمرْأَةُ يَجِبُ عليها أَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ جَلَّ وعلا، وأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي فَرَضَ عليها الحِجَابَ وفَرَضَ عليها الستر وحَرَّمَ عَلَيْهَا التَّبَرُّجَ بِالزِّينَةِ وَمُخَالَطَةِ الرجال الأجانب بهذه الزِّينَةِ، أَنَّ الَّذي فَرَضَ عليها ذلك هو رَبُّها وخالِقُها، وهو الذي له تَدينُ بالاستسلام والطَّاعَةِ، فواجب عليها أنْ تُطيعَ رَبَّها جَلَّ جَلالُه وتَقَدَّمت أسماؤه، وأنْ لا تَعصِيَهَ بإظهار هذه المفاتِنِ، وإظهارُ المرأَةِ مَفَاتِنَها للرّجال الأجانب يُفْسِدُ الرّجال، ويُفْسِدُ القُلوب، والرِّجالُ اليَومَ إِلَّا ما نَدَرَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ، مِن جِهَةِ الشَّهَوَاتِ، وَمِن جِهَةِ الشُّبُهَاتِ، والله جل وعلا قال لنساء نَبِيّه: ﴿فَلَا تَخضَعْنَ بِالْقَولِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فإذا كان هذا في الخُضعان بالقول، وهو لين القولِ فكيف بالزِّينَةِ! كيف بإظهارِ المحاسِنِ في الوَجهِ والبَدَنِ والرَّوائحِ وَالمِشْيَةِ وَأَشباه ذلكَ مِمَّا ظَهَرَ في نِساءِ المسلِمينَ وفي عامَّةِ البِلادِ.

فإذًا هذه المسأَلَةُ تعودُ إلى التربية والقوامَةِ، قوامَةِ الرَّجُل على المرأةِ ثُمَّ أيضًا إلى الإنكار المشروع، فيمَن رأى امرأة بهذه الحال له أن يُنكر عليها باليد، إذا كانَ مِن أهلِ اليَدِ لمنعها مِن التَّبَرُّجِ، وإذا

كان ليس له عليها سُلطان لو رآها في الشارع، أو رآها في السُّوقِ، أو نحو ذلكَ فيُنْكِرُ عليها بِاللِّسانِ بِأَنْ يُبَيِّنَ لَهَا أَنَّ فعلها هذا لا يجوز، وأنه لا يحل لها أن تتبرج لنهي ان الله جل وعلا عن ذلك، ولِمَا يُفضي إليه التَّبَرُّجُ مِن المفاسِدِ الكَثيرَةِ، ومَن رأى حال النِّساءِ في العالم اليوم في العالم الإسلامي اليَومَ يَرَى أَنَّ المجْتَمَعَاتِ أَوَّلَ مَا ابْتُلِيَتْ، ابتليت بخُروجِ المرأَةِ عن العفافِ والحَياءِ والسَّترِ والتَّسَتُّرِ، إذَا خَرَجَتِ الرَّجُلُ ضَعُفَ، ثُمَّ بعد ذلك يكون هناك دخول لشُعَبِ مِن شُعَبِ النّفاقِ إلى القُلوبِ، حَتَّى يَضعُفَ الخَيْرُ في النَّاسِ. فهذا اللفظ وهذا الفعلُ مِن البَصق في الوجه، يا عَدُوَّةِ اللهِ تَسَتَّري، هذا من الاعتداء، ولا يجوز له، ولا يَحِلُّ، هَذا غَلَطٌ مِن الواعِظِ إذا كانَ ما نُقِل صحيحًا، وإنَّما الواجب هو الإنكار أو النصيحة بالأسلوب الشَّرعِي حَتَّى وإن كانت تَفعَلُ مِن المحَرَّماتِ ما يَقولُ لها مِثلَ يَعني يُعَزِّرُها، البصقُ في الوجه أو إفسادُ الملابس أو الاعتداء عليها، أو أشباه ذلك، هذا تعزير ليس له، وإنما عليه هو الإنكار، الإنكارُ الشَّرعِيُّ.

سؤال هل قصر أهل مكة في المشاعِرِ للسَّفَرِ أم للنُّسُكِ؟ وماذا لو ذَهَبَ أَحَدُهم إلى العَزيزِيَّةِ وقد دَخَلَت في مِنى وحدودها ؟

الجواب: أهلُ مَكَّةَ عند الجمهورِ إذا ذَهَبوا إلى المشاعِرِ، إذا ذَهَبوا إِلَى مِنًى وَنَحْوِ ذلكَ، فَإِنَّهم لا يَقصُرُونَ؛ لأنَّهم ليسوا على مَسافَةِ سَفَرٍ، وبعضُ أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمِيَّة وجَمَاعَةٍ مِن أهل الحديث يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُفَرِّقُ في مِنًى في صلاته، ولم يُنقل عن أحَدٍ أَنَّ أَنَاسًا أَتَمُّوا الصَّلاةَ وهم أهلُ مَكَّةَ، وَإِنَّمَا كَانَ قَولُهُ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ فَإِنَّا قَوْمٌ سَفْرٌ، إِنَّمَا كَانَ هذا لَيسَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وليس في منى، وهذا على قولِ شَيخ الإسلام ابن تيمية. أَمَّا اليَومَ فَإِنَّ الظَّاهِرَ على كلا القولين أنَّ أهلَ مَكَّةَ يُتِمُّونَ ولا يُقَصِّرونَ؛ لأنَّ القَصرَ لَيسَ للنُّسُكِ، وإنما هو للسَّفَرِ.

ما حكمُ السَّفَرِ للسياحة في بلادِ الكُفَّارِ، أو البلادِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي يَكْثُرُ فيها الفَسادُ، وهل يترخص فيها المُسافِرُ برُخص السَّفَرِ؟

الجواب: إذا كانَ السَّفَرُ، سَفَرَ طَاعَةٍ أو يَغْلُبُ على المسافِرِ أنَّه يُطيعُ، يَغْلُبُ عَلَى ظَنِّ المسَافِرِ أَنَّه يُطِيعُ الله جل وعلا فيه، ويَأْمَنُ فيه من الموبقات، فلا بَأسَ بالسَّفَرِ للبِلادِ الَّتي ذَكَرَ إِذَا كَانَ مُظهرًا لدينِهِ، وَأَمَّا الترخيص بالقصر أو رُخص السَّفَرِ، فالعُلَماءُ اختلفوا هل المسافِرُ يَتَرَخَّصُ بِرُخَصِ السَّفَرِ مُطلَقًا؟ أم أَنَّ رُخَصَ السَّفَرِ إِنَّمَا هِي لِمَن سَافَرَ سَفَرَ طَاعَةٍ، على قولين معروفين فأكثر أهلِ العِلمِ عَلَى أَنَّ مَن سَافَرَ سَفَرَ مَعصِيَةٍ فليسَ لَه أَنْ يَتَرَخَّصَ؛ لأنَّ الرخصة بالجمع وبالقصر هذه فيها تخفيف عنه، فإذا كان يعصي الله جل وعلا بأن كان قاطع طريق، أو ذَهَبَ

السَرِقَةٍ، أو لقواحِشَ، أو نحو ذلك فعندهم أَنَّ هَذَا السَّفَرَ، يعني بَيْتِهِ أَنْ يَفعَلَ هذا، فإذا قَصَرَ الصَّلاةَ أو جَمَعَ فإنه يستفيد مِن بَقِيَّةِ الوَقتِ فِي الفَواحِشِ، فعند الجمهور أنَّه ليس له أنْ يَقصُرَ ولا يُباحُ له وإنَّما السَّفَرُ رُخصَةٌ لِمَن أَطَاعَ اللَّهَ جَلَّ وعلا في سَفَرِه. والقول الثاني، وهو قول قِلَّةٍ مِن أهل العلم لكن يَدعَمُهُ الدَّليلُ فِي عَدَمِ التَّفرِيقِ مَا بينَ أنواعِ السَّفَرِ؛ لأنَّ الشَّرعَ جَعَلَ العِلَّةَ فِي القَصرِ التَّرَخُّصَ بالرخص هي السَّفَرُ، وُجودُ السَّفَرِ مِن المسلِمِ يُبيحُ له هذا، والمعصِيَةُ غَيرُ مُلازمة له، بل تكون في حال دون حال.

فهنا إذا كانَ فِعله فِي سَفَرِه، فعل مَعصِيَةٍ، فِعله مُحَرَّم ولو قَصَرَ فَإِنَّ قَصرَه لَه مُبَاحٌ، لأَنَّه يَشمَلُه اسمُ الإيمان، ويَشمَلُه اسمُ السَّفَرِ، والنُّصوص لم تُفَرِّقْ بَيَنَ المطيع وغيرِه.

قال الإمامُ العَلَّامَةُ شَيخ الإسلام، مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ،رحمه تعالى:

الثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُونَ: دُعَاؤُهُمُ النَّاسَ إِلَى الضَّلَالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

الرَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ: دُعَاؤُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى الْكُفْرِ مَعَ الْعِلْمِ.

الْخَامِسَةُ وَالسَّبْعُونَ: دَعْوَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى الْكُفْرِ مَعَ الْعِلْمِ.

السَّادِسَةُ وَالسَّبْعُونَ الْمَكْرُ الْكُبَّارُ كَفِعْلِ قَوْمِ نُوحٍ.

السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ: إِنَّ أَئِمَّتِهِمْ إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ وَمِنْهُمْ أُمِنُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَبَ إِلَّا أَمَانِي)البقرة: ٧٥-٧٨

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالسَّبْعُونَ: دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

الحمد لله، والصلاةُ والسَّلامُ على رَسولِ الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

قال رحمه الله تعالى في مسائل الجاهلية التي خالف فيها رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية: الثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُونَ: دُعَاؤُهُمُ النَّاسَ إِلَى الضَّلَالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

الرَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ: دُعَاؤُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى الْكُفْرِ مَعَ الْعِلْمِ(.

وهذه الخصلة والتي بعدها ترجع إلى صنفين من أصنافِ أهل الجاهلية من الأميين ومن أهل

الكتاب: وهي أنهم فيهم مَن يَدعو إلى الضَّلالِ بلا عِلمٍ وإنَّما لمجَرَّدِ التَّقليد، ولأنَّه أَلِفَ من قبله على ذلك، أو لأنه وَجَدَ عُلماءه عليه دونَ بَيْنَة ولا حجة.

أو أَنَّهم يعلمون فيدعون إلى غَيْرِ الحقِّ، بل رُبَّما دَعَوْا إِلَى الكُفْرِ، هذا صنف ثانٍ مِن أهل الجاهلية مع عليهم بالحق، لكنَّ لهم في ذلك أهواء وشُبهات قَصَّها الله جل وعلا في كتابه عنهم.

وهذا ظاهر بين في أهل الجاهلية من الأميين، ومن أهل الكِتابِ، فَمُشرِكو العَرَبِ فيهم الدُّعاءُ إلى الضَّلالِ بِغَيْرِ عِلمٍ ولا هدى، وكذلك هو في النصارى وفي اليهود أيضا يَدعونَ إلى ما هم عليه لمجَرَّدِ الفهم هذا الشَّيء، ولأنهم وجدوا آباءهم على أُمَّةٍ فهم على آثارهم مُهتَدونَ أو ضالُّونَ وَهُذَا ظَاهِرٌ فيما ذَكَرَ الله جل وعلا عن أهل الجاهِلِيَّةِ مِن مُشرِكِي العَرَبِ في مسألة البيع والربا، وقالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مثل الربوا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وكانوا يأكلون الربا المسَمَّى بربا الجاهلية، وهو الذي أَوَّله فَرضٌ حَسَنٌ لا زيادة فيه، ثُمَّ إذا أرادَ إذا حَلَّ الأجَلُ قالَ المقرِضُ للمدين: إمَّا أَنْ تَقضِيَ وإمَّا أَنْ تُربي. وهذا عندهم بَيِّنٌ كضَلالهم، والله جل وعلا بَيْنَ أَنَّ حُجَّتهم هذه داحِضَةٌ، بل هي دعاء إلى ضَلالَةٍ بِغَيْرِ عِلمٍ. قال الله جل وعلا: قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الربُوا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبوا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأَوَلَتبكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٧٥].

وأيضًا من ذلك ما قَصَّ الله جل وعلا في سورة الأنعام) من أنهم كانوا يَجْعَلُونَ المَيْتَةَ الَّتِي ماتت حتف أنفها أحَلَّ مِمَّا ذُبِحَ، وأنَّ ما ذُكِرَ غَيْرُ اسمِ اللهِ عليه أنَّه أعظمُ مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللَّهِ جَلَّ وعلا عليه، وهذا من الدُّعاء إلى الضَّلالَةِ، وإلى ما ليس لهم به علم، بل جادلوا بذلك.

وهذه في الحَقيقَةِ خَصلَةٌ لكُلِّ مُتَّبع للباطل بهواه، فإنَّه يُجادِلُ له وفيه، فما يوجد صاحِبُ باطِلٍ أَنَّا كَانَ إلا ويُجادِلُ، ورُبَّما وَجَدتَ عندَه حُجَجًا عَقلِيَّةً، ورُبَّما وجدت عنده بَعضَ التَّقْدِ، وهذا كثير، بل هو ثَمَّةَ لكُلِّ أصحاب الباطل، فلا يُتَصَوَّرُ أنَّ أصحاب الباطل الذين لم يعتقدوا الاعتقادَ الحَقِّ، أو لم يعملوا بالحقِّ لا يُتَصَوَّرُ أنَّهم ليس عندهم حُجَّةٌ أصلا، أو أنهم لا يستطيعونَ المجادَلَةَ، أَو أَنَّهم لا يَعلَمونَ ما يَعْمَلُونَ، وهم يَعلَمونَ أَنَّه باطِل أصلا، بل تجد ولابد أنهم تبعوا فيه شَيْئًا، وَأَنَّهُم رَدُّوا الحَقِّ لَشُبهَةٍ عندهم، فليس الشَّأنُ في عَدَمِ وُجودِ الأَدِلَّةِ، أو عَدَمِ وُجودِ الحَقِّ، فَالحَقُّ قَديمٌ مَوجودٌ، ولكنَّ الشَّأنَ فِي مَن يُدلي بهذه الحُجَّةِ الصواب ويقولُ الحَقِّ هذا قديم، ويُعلنه ويُدلي به، وهذا هو الذي قد يخفى في أزمنة، قد يخفى في أمكنة، وقد يَغْلُبُ الجَهلُ والباطِلُ في وقت ما، أو في زَمَنِ ما، أو في مكان ما، فيُصبحُ

النَّاسُ يُدعَونَ إِلَى غَيرِ الحَقِّ بِغَيْرِ عِلم، يعني هم لا يعلمونَ الصَّوابَ وَلَكِنَّهُم عَلِمُوا عِلْمًا غَيْرَ صَوَابٍ، واستَدَلُّوا بما لا دليل فيه، واحتجوا بما لا حُجَّةَ فيه، وقد ذكر الله جل وعلا من أصنافِ هؤلاء أنَّهم يُجادِلُونَ، قَالَ جَلَّ وعلا: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقّ﴾ [الكهف:٥٦]، وقال جل وعلا: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج] وقال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَبٍ منير (٥)) (الحج) في الآية التي بعدها في الحج. وهذا كَثيرٌ يَجمَعُ أَصناف النَّاسِ. فإذا ما قَصَّ الله جل وعلا عنهم فظَاهِرٌ بَيِّنٌ، والشَّيخُ تغلله قال: (دُعَاؤُهُمُ النَّاسَ إِلَى الضَّلَالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَخَذَهَا مِن قَولِ اللهِ جَلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهوايهم بغير علي ﴾ [الأنعام: ١١٩] يعني بغَيرِ علم صحيح، أو بجهل منهم.

وهذا إذا تَبَيَّتَ فَكُلُّ سُلوكِ الأميين وكُل سُلوكِ أهل الكتاب هو دَعوةٌ إِلَى الضَّلالِ إِمَّا بِغَيْرِ عِلمٍ، أو مع العلم، فهاتان صِفَتانِ فِي طَوائِفِ الضَّلالِ، إمَّا أَنْ يَعلَموا فيُخالفوا الحَقِّ، كما قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوا ﴾ [النمل:١٤] وإمَّا أن لا يعلموا فيتبعوا ما هم عليه تكبرا، فيتبعوا ما هم عليه استنادا لما ألفوا عليه النَّاس، وما عرفوا، ومن ذلك قول الله جل وعلا: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [لقمان: ٦].

ومنه أيضًا، من الصفاتِ لبسُ الحَقِّ بالباطل، كقوله جل وعلا: يتأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقِّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (ال عمران] فهم ليسوا، جَعَلُوا الحَقَّ مُشْتَبِهَا، مَع أَنَّهُم يَعْلَمُونَ، لهذا قال وهم يعلمونَ، يعني مع أنكم تعلمونَ الحَقَّ، قال في صِحَّةِ رِسالَةِ النَّبِيِّ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم وإذا تأملت حال اليهود والنصارى والأميين، وجدت فيهم من هذه الصفاتِ الشَّيء الكثير البَيِّنَ فِي أصل الدين، وفي فروعه.

أما في أصله، فتَجِدُ أَنَّ النَّصارى مثلا اختلفوا في التَّوحيد على ثَلاثِ فِرَقٍ مَشْهُورَةٍ، وَمِن كُلِّ فِرقَةٍ تَتَفَرَّعُ فِرَقٌ مِنهم، حَتَّى بَلَغُوا التَيْنِ وسَبْعِينَ فِرقَةً، أمَّا الفِرقَةُ الأساس وهم الذين وَرِثوا الدِّينَ الحَقِّ مِن عيسى عليه السَّلام فهم أهل التوحيد كانوا مُوَحدينَ ويَقولونَ بإله واحد، وأن عيسى عبد اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُه ألقاها إلى مريم وروح منه، وطائِفَةٌ منهم يقولون بتأليه النين، وطائِفَةٌ يَقولونَ بِتَالِيهِ ثَلَاثَةٍ، وَكُلُّ هذه في القُرآنِ مَوجودَةٌ، يَعني ذكرُ الطَّوَائِفِ الثَّلاثِ، ومع ذلك، مع علمهم فإنَّهم لا يذكرونَ الدِّينَ الحَقِّ الأساس وإنَّما يَدعونَ إلى الدِّينِ الباطِلِ الَّذي ضَلُّوا به؛ وهو الشرك إمَّا بِاثْنَيْنِ بِإِلْهَيْنِ اثْنَيْنِ، أَو يُشْرِكُونَ مع الله جل وعلا إلهَا آخَر.

كذلك في بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنّهم يعلمون، أو علموا أنّها الحَقُّ، ومع ذلكَ رَدُّوها، واللهُ جَلَّ وعلا قَصَّ علينا خَبَرَ النَّفَرِ الَّذين سَمِعوا القُرآنَ فقاضَتْ أعينهم مِن الدَّمعِ قَالَ جَلَّ وعلا: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نصارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ اللهَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ترَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فاكتبنا مَعَ الشَّهِدِينَ ﴾ [المائدة] الآيات، هذا في طائِفَةٍ مِن النَّصارى عَلِموا الحَقّ فلم يستكبروا ، لكنَّ فيهم وفي اليهود وفي المشْرِكِينَ، مَن يعلمونَ الحَقّ فيُخالفونه وفيهم الجهل، لكنَّ الجهل في النَّصارى وفي المشركين أكثر، والعِلم في أحبار اليهود أكثر، فأكثر عُلَماء اليهودِ يَعلَمونَ ويَضِلُّون مع عليهم، وأكثرُ النَّصارى ضالُونَ، كما قالَ اللهُ جَلَّ وعلا: غَيرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الكالين ﴾ [الفاتحة]. وكذلك في تفاصيل الشَّريعَةِ، وفي تفاصيل الأحكام، تجد عندهم الدعاءَ إِلَى غَيرِ الهُدَى بِعِلمٍ، وَبِغَيرِ عِلمٍ. ومن أعظم ذلكَ وَصْفُهم الرَّبَّ جَلَّ جَلاله بصفاتِ النقص والمِسَبَّةِ في اليهود والنصارى وفي المشركين، وهذا كُلُّهُ مِن أَعظَمِ الضَّلَالِ الَّذِي دَعَوْا إليه.

وهاتان الخصلتان في مُجْمَلِهما وُجِدَنا في هذه الأمة، بل كانت كثيرة في أهل الأهواء، وأهل الأهواء منهم حُذَاقٌ يَعلَمونَ ولكنهم لم ينتفعوا بالعلم النافع، لم ينتفعوا بالعلم الموروث عن النبي ، وعن الصحابة، بل قالوا: إن علمنا وما عندنا من القواعد والقواطع العقلية أعلم، أولئك عندهم عِلم، ولكن ما نحن عليه أكثر علما وأكثر حكمة، وهذا هو ما دعا إليه العقلانيونَ مِن الجَهمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَمَن نحا نحوهم مِن فَلاسفة الإسلام، فإنّهم يَدَّعونَ أَنَّ النُّصوص حَسَنَةٌ وحَقٌّ، وَيَجِبُ الإيمان بها، ولكن يقولون: أَنَّها غَيْرُ قاطِعَةٍ وَأَنَّ القَواطِعَ الَّتي تَقي مِن الشَّكُ هي القَواطِعُ العَقلِيَّةُ، فَدَعوا النَّاسَ إلى هذه القواطع العَقلِيَّةِ الَّتِي يَزْعُمونَ وضَلَّ النَّاسُ في ذلك، وهذا هو أكثر ما يوصف به من دعا إلى الأهواء بعلم، فهؤلاء أصناف كثيرة.

والفِئَةُ الثَّانِيَةُ مَن دَعَوا بغيرِ عِلمٍ، وهؤلاء فيهم طائِفَةٌ مِن العُبَّادِ وَالمتَزَهْدَةِ مِمَّن دَعَوا إِلَى الْأَهْوَاءِ بِغَيرِ عِلمٍ، حَتَّى إِنَّ مِن هؤلاءِ الجَهَلَةِ مَن دَخَلَ في الأهواء، ودعا إليها، بل نافَحَ عنها بروحه وبَدَنِه حَتَّى قُتِلَ فِي ذلك، وهذا مِن البَلاءِ العَظِيمِ الَّذي صار في هذه الأمة من خصال أهل الجاهِلِيَّةِ؛ لأَنَّهُم قَبِلُوا دَعْوَةَ مَن دَعا إلى غَيْرِ عِلمٍ، وَقَبِلُوا دَعْوَةَ مَن دَعا بعلم بالحَقِّ، لكنْ قالَ: إنَّ الحَقّ القديم ليس بكافٍ، وهذا كثير في الأُمَّةِ في الطوائِفِ الَّتي خالفت طَرِيقَة السَّلَفِ، ومنهج أهل السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، وَهُذَا يَشْمَلُ فِئَاتٍ كَثِيرَةٍ مِن النَّاسِ في مجال العقائد، وفي مجال السُّلوك والتَّعَبدِ.

أما في مجال العلم، يعني في الأحكام الفقهية، فإنَّ هذا يحتاج إلى تدقيق، بمعنى أنه قد يكون أناسٌ يَدعونَ إِلَى اتِّبَاعِ فُلانٍ مِنَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَقالَةٍ مِن المسائل الفقهية، وهم يَعْلَمُونَ أَنَّ الحَقِّ بِخِلَافِهِ، لكنَّ هذا لا يَصلُحُ أنْ يُنسب إلى المذاهِبِ المتبوعة في الأساس؛ لأنَّ المذاهِبَ المتبوعة كَمَذهَبِ الإمامِ أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وكذلكَ المذاهِبُ المنقَرِضَةُ كالأوزاعي ومَذْهِبِ الثَّورِيِّ وَأَبِي اللَّيثِ، و مذهب أبي جرير الطبري، وكذلكَ مَذهَبُ إسحاق بن راهوية، ومَذهَبُ دَاوُدَ الظَّاهِرِي وجَمَاعَةٍ فَإِنَّ هذه المذاهب بعامة ليس فيها من يدعو إلى ضلالة، بل هي مسائل اجتهادِيَّةٌ في هذا الأمرِ يَدعونَ إلى ما يَرُونَ أَنَّه الحَقُّ، لكن رُبَّما يوجد فيهم مَن يَعلَمُ الحَقَّ ويُخالِفُه لهوى في نفسه، ولكن ليس كقاعِدَةٍ مُطَّرِدَةٍ، فلكل من خالَفَ نَصِيبٌ مِن هذه الخَصْلَةِ الجاهلية. إذا تَبَيَّنَ ذلكَ فَإِنَّه ظَاهِرٌ بَيْنَ أَنَّ هاتين الخصلتين، أشَدُّ ما تكون في المنسِبينَ إلى العِلمِ مِمَّن ظَهَرُوا وتَرَأْسُوا للنَّاسِ، فَدَعَوا النَّاسَ إلى ضَلالَةٍ بِغَيرِ عِلم أو بعلم، يعني عندهم عِلم ناقص، أو يَعلَمونَ لكن يقولونَ العِلم هو ما نَحنُ عليه.

وهذا تجدونه اليَومَ وقَبلَ اليَومِ كَثِيرًا جِدًّا في طوائِفَ مِمَّن يَرُدُّونَ الحَقِّ لا لأجل أنَّه مُلتبِس، ولكن لأجل أنَّه لا يُوافِقُ عُقولهم، فمنهم مثلا من قالَ: إنَّ المِصْلَحَةَ هي الأساسُ، وَالنَّصُّ يَجِبُ أَنْ يُفهم على وَفِي المِصلَحَةِ، فإذا قعدنا قَوَاعِدَ عَمْلِيَّةٌ في المِصالِحِ والمِفاسِدِ، فَيَجِبُ أَنْ نَفهَمَ النُّصوص عَلَىٰ ضَوء تلك؛ لأنَّ النُّصوص نَزَلَت على مصالح في ذلكَ الزَّمانِ، زَمانِ الأعراب، وزمانِ القُرى، وزَمانِ الجَهْلِ، أو ضَعَفِ الحَضَارَةِ ونحو ذلك.

أَمَّا في وقتنا الحاضِرِ فَإِنَّ المِصالِحَ يَجِبُ أنْ تُغَيَّرَ فَهمنا للنصوص؛ فَنَقَوْا أَشياءَ فِي الشَّرِيعَةِ وَدَعوا إلى إبطالها، وقالوا: إن الربا جايز، وقالوا: إنَّ شهادَةَ المرأَةِ بنصفِ شَهادَةِ الرَّجُلِ، وميراثَ المرأَةِ الَّتِي تَرِثُ مع إخوتِها مِن مُورثهم من أبيهم أنَّها على النّصفِ مِن ميراثِ الرَّجُلِ ونَحوِ ذلكَ. أَنَّ هَذا لا يُناسِبُ، أَنَّها كانت مَصالِحُ فِي السَّابِقِ، لَمَّا كانت قوامةٌ للرَّجُل على المرأَةِ، ولكن الآنَ المرأَةُ والرَّجُلُ يَعْمَلَانِ سَوِيًّا، والجميع بحاجةٍ واحدة.

وهكذا في أقوال كثيرَةٍ وُجِدَت في العالِمِ الإسلامي، حتَّى قال بعضُ المنتَسِبينَ للعِلمِ: إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُغَيَّرَ النَّظَرُ إِلَى النُّصوص بأصولِ فِقهِ عَصرِيَّةٍ، لا نَفهَمُ النُّصوص بأصول الفقهِ الموجودَةِ الَّتِي كَانَت مَوجودَةٌ فِي عَهدِ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ، والتي أَلَّفَها العُلَماءُ؛ لأنَّ تلكَ بحَسَبِ عَصرِهِم، لكن الآنَ يَجِبُ أن تكونَ على الأصولِ العَصرِيَّةِ، فلا نقول: أنَّ الأمر الأصل فيه أنه للوجوب، ولا نقول: إنَّ النَّهي الأصل فيه أنَّه للحرمة، ولا تَقولُ أنَّ المعلوم من الدين بالضرورة أنَّه إنكاره أو استحلاله أنَّه فيه كُفر، ولا تقول ولا نقول ... إلى آخره، بل كُلُّ هذه القواعِدِ تَحتاجُ إِلَى نَظَرِ

جَدِيدٍ بِحَسَبِ حَاجَةِ العَصرِ. وهذا إضلال للنَّاس بعلم وبغيرِ عِلم بحَسَبه في المسائل العظيمة، مِن المسائِلِ الَّتِي يَعتريها البَحثُ، حَتَّى أَنَّ مِنهم مَن صَحَّحَ زَواج المسلِمَةِ بالمشْرِكِ، أو بغيرِ المسلِمِ مِن اليهود والنصارى وأشباههم، وهذا كَثيرٌ يُتسامع به. إذا ما الواجب؟ الواجِبُ الحَذَرُ والتَّحَرّي في العِلمِ، وأنه ليسَ كُلُّ مَنِ انتسَبَ للعِلمِ لابُدَّ أَنْ يَقُولَ دَائِمًا الصواب، قد يَقولُ صَوابًا، وقد يقولُ غَيْرَ الصَّوابِ، إمَّا لجهل أو لِهَوَى، وَالصَّوابُ المطلَقُ فِي السُّنَّةِ، في سُنَّةِ النَّبي ، وفي فَهم العُلَماءِ لهذه السُّنَّةِ، وَمَن رَأَى اليَومَ الحالَ وَجَدَ أَنَّ الكَلامَ كَثِيرٌ لَكُنَّ الحَقّ قَليلٌ، صَدَقَ الرَّسول إذ قال لحديقة حين سأله: وهل بعد ذلك الشَّرِّ مِن خَير يا رسول الله؟ قال: «نعم، وَفِيهِ دَخَنٌ» قال: (وما دَخَنُه ؟) فيه خَيرٌ لكن فيه دَخَنٌ ، قال : (وما دَخَنُه؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، وَيَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» فيه خَيْرٌ؛ لكنْ تَعرِفُ وتُنكِرُ، ليسَ كُلُّه عَلى الصّوابِ وعلى ما يقتضيه النظرُ الصَّحِيحُ، والعِلمُ النَّافِعُ بل تَعرِفُ وتُنكِرُ، وهذا هو الذي نراه اليوم، الخَيرُ الكَثِيرُ فِي الأُمَّةِ لكن، والَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ باسمِ الإسلام باسمِ العِلمِ كَثير، لكن تَعرِفُ مِنهم وتُنكِرُ، فَإِذَا كَانَ كَذلكَ وَجَبَ تَحَرّي العِلمِ النَّافِعِ الصحيح وأن لا تكون كأهل الجاهلية يُقال لهم الشَّيءُ بِغَيْرِ عِلمٍ ويَتَّبعُ النَّاسُ، ولابد مين البيان والإيضاح، ولو خالف الأهواء؛ لأنَّ الذي يقول ما يلذ للنَّاسِ فَإِنَّ هذا ليس بصاحِبٍ حَقٌّ، وإِنَّمَا الَّذِي يَقولُ الحَقِّ، حَتَّى ولو خالقه النَّاسُ الحَقَّ الموافق للدليل، الموافق للحُجَّةِ فَإِنَّ هذا هو الصَّوابُ، وليس معنى ذلك أنَّ الَّذِي يَشِذُّ يَكونُ هو القائِلَ بالحَقِّ، لا. الحَقُّ قَديمٌ بَيّنَ ظَاهِرٌ وله سماتٌ، وله ظهور

لهذا يَنبَغِي التَّحَرّي في هذه المسائِلِ وأن لا يكون الجَهَلَةُ أو أنصافُ العُلَماء أو القُرَّاءُ أو المتَعَلِّمُونَ هم الَّذِينَ يُوجهونَ النَّاسَ، فإذا وجهوا النَّاسَ فينبغي لهم أن ينصحوا وأَنْ يُبَيِّنَ لهم الصَّوابُ فيما يُخطئون فيه.

السَّادِسَةُ وَالسَّبْعُونَ الْمَكْرُ الْكُبَّارُ كَفِعْلِ قَوْمِ نُوحٍ.

هذه مَرَّت معنا فيما سَبَقَ فِي مَسَأَلَةٍ مَضَتْ، وتُعيدُ مِنها ما يُناسِبُ المقامَ، وهو أَنَّ أَصحابَ الضَّلالِ وأهل الجاهلية من المشركين ومن أهل الكتاب لا يكتفون بأن يقولوا أو أَنْ يَدْعُوا إِلَى غَيرِ الهُدَى؛ بل يَمكُرُونَ مَكرًا كَبيرًا جِدًّا لِيَصُدُّوا النَّاسَ عن الحَقِّ، كما قال الله في سورَةِ «نوح»: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَّارًا يعني المكر الكبير جدا مكروه، وهو إعمال الجيل الخَفِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، الحِيلُ الخَفِيَّةُ والظَّاهِرَةُ الخَفِيَّةُ أو الظَّاهِرَةُ للصَّدَّ عن الحَقّ، وهذا مِن دَيدَنِ التَّعَصُّبِ للباطِلِ؛ لأنَّه لا يوجد باطِلٌ، ولا دعوة إلى غَيرِ الهُدى إلا ويكون لها متعصبون، ويكون لها مُتَحَمُّونَ. قُرَيس كانت تُسَمَّى الحُمسَ يَعني لشِدَّةِ حَماسَتِهم لدينهم مع أنهم كانوا مخالفين لدين إبراهيم عليه

السلام في كثيرٍ مِمَّا هم عليه.

فلهذا إذا وجدوا مَن يُخالِفُهم، وليس عندهم حُجَّةٌ في رَدِّه فإنَّهم يَمكُرُونَ بِه، بإعمالِ الحِيلِ الَّتِي تَصُدُّ النَّاسَ عن سماعه، أو لإعمال الجيل للإضرار به، ومثل لها بفعل قومِ نوحٍ، وَهُذَا ظَاهِرٌ بَيْنَ فَإِنَّ نوحًا عليه السَّلامُ مَكَثَ في قومِه أَلفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمسين عاما، وبَذَلَ كُلَّ ما يَستَطيعُ عليه السلام، ولكن لم ينفع ذلك هؤلاء لشدة المكرِ المقابِل، ألفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمسين عاما ما الحَصيلَةُ؟ اثنا عَشَرَ، الحَصِيلَةُ اثنا عَشَرَ أو عشرون أو إلى سبعينَ مِمَّن كان معه في السَّفينة، لماذا لم يَستَجِبْ النَّاسُ طيلة هذه المدَّةِ؟ لأجل أنَّ هناكَ مَكرًا مُقابِلًا، مَكرًا كُبَّارًا مُقابِلًا لم يَجْعَلْ النَّاسَ يَفْتَتِنعونَ بأنَّ ما جاءَهم به نوح عليه السلام، وهو المؤَيَّدُ بالوحي أنه هو الحَقُّ، قال جل وعلا مُخبِرًا عن قولِ نوح عليه السَّلامُ: ﴿ ثُمَّ إِنْ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا) ثُمَّ لِي أَعْلَتُ لَمُ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) (نوح) ودَعاهُم سِرا وعلانية وتَوَدَّدَ لهم لكن لم يَنفَعُ لماذا؟ لأجل المقابَلَةِ، وهذا يعني أن أهل الجاهلية لا يبحثون في الأمر هل هو حَقٌّ أَم غَيْرُ حَقٌّ، وإِنَّما يبحثون في هل هو يُوافِقُ أهواءهم أم لا ؟ فإذا كانَ لا يُوافِقُ الأهواءَ، فَإِنَّهُم يَسعُونَ في المكرِ الكبير والأكبر بحسب ما يستطيعون لصد النَّاسِ عنه. وهذه الخصلة ظاهِرَةٌ بَيْنَةٌ في هذه الأمة في عَدَدٍ مِن العُهود والعُصورِ، فَتَجِدُ أَنَّ المعْتَزِلَةَ لَمَّا تَمَكَّنوا مِن الدُّولَةِ العَبَّاسِيَّةِ سَعَوا بأهل السُّنَّةِ، ومَكَرُوا مَكرًا كُبَّارًا في الصَّدَّ عن الحَقّ، وكذلكَ في عَدَدٍ مِن الدُّوَلِ كما في الدولة الفاطمية أو العبيدية، كيفَ مَكَرَت وَصَدَّتِ النَّاسَ لقَرنَينِ مِن الزَّمانِ عن الحَقِّ، وهكذا في أزمنة مختلفة متنوعة.

فالواجِبُ إِذَا أَنْ يَنظُرُ الْمُؤْمِنُ فِي أَنَّ الحَقِّ قد يكونُ خَفِيًّا لأجل المكرِ الكَبيرِ الَّذِي يَكونُ مِن أعداء الدين، أو من أعداء هذا الحَقِّ، فلا ينبغي له أنْ يَصُدَّه عن البحث عن الحَقّ ما يكون من تضليل أو مكرٍ كُبَارٍ، وَاليَومَ يُمَارَسُ هَذا في وسائل الإعلان بأكبر ما تكونُ الممارَسَةُ فَالسُّلطَةُ اليَومَ في الواقع، ليست السُّلطة لذوي السُّلطَةِ، ذَوي السُّلطَةِ لهم سُلطة في الأمر والنهي، أو فيما يُنَفَّذُ وما لا يُنَفّذ، لكنَّ السُّلطة على العُقولِ، والسلطة على النفوس التي هي السُّلطة الحقيقيَّةُ التي بها يَكونُ الوَلاءُ، وبها تكون الأفكار، وبها تكون الانتماءات، وبها تكونُ القَناعَةُ مِن عَدَمِها، وبها تكونُ التَّحَرُّكاتُ، اليَومَ السُّلطَةُ للإعلامِ بأنواعه من قنوات فضائية، ومن إذاعات، ومن صُحف، ومن أنترنت، وأشباه ذلك، السلطة الآن في تغيير النَّاسِ، عُقولِ النَّاسِ وفي تغيير أفكار النَّاسِ لهم، ولهذا ما أعظَمَ قَولَ السَّلَفِ، أو قُولِ بَعضِ السَّلَفِ : لا تُصغِ إلى ذي هَوَى بِأُذْنَيكَ، فإنَّكَ لا تدري ما يُلقي إليك، وهذا يَجِبُ الحَذَرُ مِنْه؛ لأَنَّ الإنسَانَ لَا يَأْمَنُ على دينه، لا يَأْمَنُ على عَقيدَتِه، لا يَأْمَنُ على التزامه بالحَقّ القَديمِ الَّذِي يَعْلَمُه مِن كَثرَةِ

المكْرِ الكُبَارِ الَّذِي اليَومَ تَتَغَيَّرُ فيه الحقائق، ويُغَيَّرُ فيه الدِّينُ، تتغير فيه الأمور باسم السياسةِ تارَةً، وباسم النقاش والحوار تارة، وباسم الاتجاهاتِ المختلِفَة تارةً، وباسم النقاش والأقوال.. إلى آخره، فقد لا يكون الواحد عنده قدرة على تمييز الحَقِّ من الباطل، فيأتي وهو يَظُنُّ أنَّ ما قبلَ حَقٌّ، فَيَقْتَنِعُ بِبَعض الأقوالِ دونَ بعض، حتَّى حَصَلَ مِن ذلك ما يندى له الجبين، ونسأل الله جل وعلا السَّلامة والعافية. اليَومَ المتَأَمِّلُ للهجمة العالمية الكبيرة على الإسلام، وعلى أهل الإسلام، وعلى هذه البَلَدِ بخاصة تَجِدُ أنَّه ابتداء لمكرٍ كبار في الصَّدَّ عن الدِّينِ الحَقّ، وعن تشويهه، وفي تشويهِ حَقَائِقِ الشَّرِيعَةِ وَمُسَلَّمَاتِ عَقيدَةِ الإسلام، حتَّى بَدَوُوا الآنَ يَقولونَ: إنَّ القُرآنَ ذاته فيه دَعوَةٌ إلى الإرهاب، وفيه دَعوَةٌ إلى الكُرْهِ والأحقاد والأضغان.

واليَومَ كَثيرٌ مِن النَّاسِ يَنظُرُ إلى الإسلام في عَرضِه؛ لأنَّه يَعرِضُ مَحَاسِنَ الإسلامِ، وَأَنَّ الإسلام دينُ مَحَاسِنَ، ودينُ رَحمَةٍ، ودين لين، ودين ودين..، ولا يَذكُرُ أنَّ الإسلام أيضًا دينُ حَقٌّ، وَأَنَّ الإسلام دين عدل، وأنَّ الإسلام دين يَرُدُّ الظُّلم، ويُنكِرُ على أهل المظالم بأنواعها، فَرُبَّمَا أَدَّتْ هذه الهَجَمَاتُ الإعلامية، وهذا المكرُ الكُبَّارُ إلى تحريف في فهم الدين الإسلامي في أذهانِ النَّاسِ، وفي قُلُوبِهِم، بأنَّه تُنكَرُ مُسَلَّماتُ الدِّينِ الواضِحَةُ في عقائدِ أهل الإسلام، وفي تشريعات الإسلام. حتَّى إنَّهم اليوم أو أمس قالوا: إنَّ قَتلَ ثَلاثَةٍ، كما جاءَ في بعض الصُّحُفِ الفِرَنسِيَّةِ، قَتلُ ثَلَاثَةٍ في السعودية مِمَّن عَمِلُوا على حسب تعبيرهم شذوذاً جنسيا، أظُنُّ أنَّهم قُتِلوا لفعلهم الفاحِشَةِ في غُلامٍ غَصبًا، يعني وأظُنُّ قتلوه أو شَيءٌ، يَقولُ أنَّ قتل هؤلاء يعني أنَّ هذه البَلَدَ هِي مِثْلَ طَالِبانِ إلَّا أَنَّهَا مُتَحَضْرَةٌ أو مُتَمَدِّنَةٌ، وإلَّا ما الفرقُ ؟ هي صورَةٌ مِن الصُّوَر، إذا يُقتل أناس بمثل ه هذه الأفعال اليسيرة كما يزعمون. وهذه الأفكار قد تَتَطَوَّرُ شَيئًا فشيئًا، ويكون فيها إلباس في قلوبِ المؤْمِنِينَ، حَتَّى تَكونَ بعدَ فَترَةٍ المعلومات من الدين بالضرورَةِ، والمسَلَّماتُ في الشَّرِيعَةِ فيها بحث عَقلِي، ليش كذا؟ ولماذا الزنا حرام؟ ولماذا اتخاذ الخِلانِ والخَليلاتِ ومَدَامَنَةُ الشَّرابِ حرام؟، ولماذا كذا..؟ هذه كُلُّهَا تَصَرُّفات شَخصِيَّةٌ، وهذه كُلُّها مَسائِلُ سَهْلَةٌ .. إلى آخره. فقد يَصِلُ الأمرُ على أن تكونَ شَريعة الإسلامِ بِحَسَبِ عرضهم أَنَّهَا مُوافِقَةٌ للمادية الحاضرة، والعياذ بالله.

هذا مِن البَلاءِ العَظِيمِ الَّذي يَجِبُ على أهلِ العِلم، وعلى دعاة الإسلامِ، وَعَلَى مَن بَسَطَ اللَّهُ يَدَه أَنْ يَدفَعَهُ بِقَدَرٍ مَا يَسْتَطِيعُ وَأَنْ يَتَّخِذَ الوَسائِل الكافية لرَدِّ كُل ما فيه صرفُ النَّاسِ عن الدين، أو تحريف في الشريعة.

كُنَّا نَتَحَدَّثُ عن الشَّهَوَاتِ، فإذا المسأَلَةُ اليَومَ مَسأَلَةُ مَكرٍ كُبَّارٍ في أصول الدين، وفي شريعة الإسلام، في إلقاء الشُّبُهَاتِ بأنواعها، لهذا ينبغي على أهل العلم، وإلى الدعاة إلى الله جل وعلا أن يتنبه لهذا الأمر، وأن يكون حريصًا على فهمه للشَّرِيعَةِ، ثُمَّ حَرِيصًا أن لا يُظهِرَ الشَّرِيعَةَ بغير ما هي عليه متساوقًا مع أهواء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِن أيّ فِئَةٍ كانوا، وَمِن أَي مِلَّةٍ كانوا.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ: أَنَّ أَئِمَّتَهُمْ إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَ اللَّهِ ﴾ [الْبَقَرَةُ : ٧٥] إِلَى قَوْلِهِ: وَمِنْهُمْ أُمِنُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَبَ إِلَّا أماني ﴾ [البقرة: ٧٨]

الثَّامِنَةُ وَالسَّبْعُونَ: دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

التَّاسِعَةُ وَالسَّبْعُونَ: دَعْوَاهُمْ مَحَبَّةُ اللهِ مَعَ تَرْكِهِمْ شَرْعَهُ، فَطَالَبَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله ...) [آل عمران: ٣١) الآية.

الثَّمَانُونَ: تَمَنِّيهِمُ الْأَمَانِي الْكَاذِبَةَ، كَقَوْلِهِمْ: لَن تَمَسَّنَا النارُ إلا أنها ما تَعْدُودَة (البقرة: ٢٨٠

وَقَوْلِهِمْ: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١].

قال الإمام، رحمه الله تعالى: (الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ) وفِي بَعضِ النُّسَخِ (المسأَلَةُ السَّادِسَة والسبعونَ)، فيه اختلاف في الترقيم راجع إلى الزِّيَادَةِ والنَّقْصِ فِي بَعضِ المسائلِ.

قالَ: (السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ أَنَّ أَئِمَّتِهِمْ إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: وَمِنْهُمْ أَمْنُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَبَ إِلَّا أَمَانِي) [البقرة: ٧٥-٧٨) هذه الخصلة مِن خِصال أهل الجاهِلِيَّةِ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ في أهل الكتاب، وخاصة اليهود، والنَّصارى أيضًا لهم شبه كبير في ذلك، هو أنَّ عِلمهم الذي حظي به أَئِمَّتُهم، لا يَكونُ عَلَى وَجْهِ العَمَلِ، وإنَّما عَلَى وَجهِ العِلمِ، وَالتَّرَؤُّسُ والتَّصَدُّرُ دونَ العَمَلِ به، وهم إمَّا عَالِمٌ يَعْلَمُ مَا أَنزَلَ اللَّهُ جَلَّ وعلا، ويعلمُ حُكمه، ولكنه فاجِرٌ خارج عن طاعَةِ رَبِّه، لا يُقيمُ الحُدودِهِ حُرمَةً، ولا يُقيمُ لكَلامِه قدرًا، وهذا هو صِفَةُ الَّذِينَ غَضِبَ اللهُ عليهم؛ لهذا وُصِفَ اليهودُ بأنَّهم المغضوب عليهم، وذلك لأنَّهم عَلِموا وفَجَروا والفِئَةُ الثَّانِيَةُ مِنهم: أنَّ مِنهم عُبَّادًا، ولكنهم جُهَّالٌ، وهذا يعني أنَّ مُخالَفَة أَهل الجاهِلِيَّةِ في ذلك، هي أنْ يَكونَ العِلمُ مع العمل، وأن يكونَ العالِمُ قدوة للنَّاسِ في الخَيرِ، باذِلًا نَفسَه في طاعَةِ الله جل وعلا، ليَهتَدِي به النَّاسُ في القَولِ

والعَمَل، وأن يبتعد عن كُلِّ وَصفِ فُجورٍ؛ لأَنَّ ذلك يوجِبُ أَو يَكون سَبَبًا لغَضَبِ اللهِ جَلَّ وعلا.

والصَّفَةُ الثَّانِيَةُ التي يُبتعد عنها هي الجهل، فالعبادة محمودَةٌ لكنَّها إذا كانت مع الجهل، كانت مُسرعة إليها البدع والمحدَثات، وهذا هو الذي جَعَلَ النَّصارى لأجل جهلهم مع عبادتهم، جَعَلَهم يَضِلُّونَ، وَيَبْتَدِعُونَ رَهْبانِيَّةً ما كتبها الله عليهم، وهذا هو الذي جَعَلَ أحبار اليهود، لا يرضى الله عنهم، بل غَضِبَ الله عليهم؛ لأنهم فَجروا، فاستَحَلُّوا مَحارِمَ اللهِ وأَيَّدوا قتل مَن لا يَسْتَحِقُ القَتل، بل مِنهم مَن أَيَّدَ قتل الأنبياء.

وههنا – قبل الدخول في تفصيل الكلام على ذلكَ الشَّيخُ ، رحمه الله قَالَ فِي أَوَّلِها: (أَئِمَّتَهُمْ)، (أَنَّ أَئِمَّتَهُمْ إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ). والأئمة: هم الذينَ يُقتدى بهم، الإمام: هو المتَرَتِّسُ الَّذي يُقتدى به، وليست صِفَةٌ محمودَةٌ بِمُجَرَّدِها، بل هي صِفَةٌ محمودَةٌ إذا كانت الإمامة في الحَقِّ والهدى، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يدعون إلى التكار ﴾ [القصص: ٤١]، وهذا لأنَّهم صاروا مُقَدِّمينَ مُرَأْسِينَ أَئِمَّةً، لكنَّهم ليسوا على حَقٍّ وهدى.

فتسمية فلان بالإمام، يعني من العلماء، الإمامُ فُلانٌ، والإمامُ فُلانٌ، هي على وجه الإطلاق إذا كانَ ياتم به خَلق، فهي صحيحَةٌ مِن جِهَةِ الإطلاق، لكنها ليست بصحيحة إذا كانت الإمامة المقصود منها الإمامَةُ المحمودَةُ، المخصوصة برضا الله جل وعلا عن مَن كَانَ لِلمُتَّقِينَ إِمَامًا. لهذا لا يَنبَغِي أَنْ يُقَالَ عِندَ مَن لا يَعلَمُ هذا التفصيل، وهم عامَّة النَّاسِ، وأكثرُ الجَهَلَةِ، لا يُقالُ فُلانٌ إمام، فُلانٌ إمام إِلَّا لَمَن كَانَ مَأمونَ القُدوَةِ للنَّاسِ فِي الخَيرِ.

وهذا مِن جِهَةِ الإطلاق، فلا يَصلُحُ أنْ يُغَرَّ النَّاسُ، بقولهم: الإمامُ فُلانٌ يَقول كذا، وقال الإمام، وقال الإمام، وهم ليسوا بأهل صلاح في الاقتداء مِن كُلِّ جهةٍ، قد يكونون أئمة في شَيءٍ، ولكن ليسوا بمُقتَدِ بهم من جهة الاعتقاد، أو مِن جِهَةِ العَمَل. فينبغي أن يُلاحظ هذا، وأنْ يُقتَصَرَ لَفظُ الإمامَةِ على من له الإمامَةُ فِي الشَّرعِ مِن جِهَةِ الحُكمِ الَّذِي جَاءَ فِي الأحاديثِ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَلْعَنُونَهُمْ، وَيَلْعَنُونَكُمْ»

والمقصود بالأئمة هنا: ولاة الأمر، أو الأئمة الذين يُقتدى بهم في الدِّينِ على طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤتمنون على دينهم، هذا إذا قيل فيهم الإمامُ فُلانٌ، فَلا بَأْسَ بذلكَ بِشَرطِه.

ذَكَرَ المؤلِّفُ،رحمه الله ، قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَ اللَّهِ ، هذا في قوله: وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فيه إثباتُ صِفَةِ العِلم لهم، وهو أنَّهم يسمعونَ ويَعقِلُونَ، يَسمعونَ كَلامَ اللهِ وَعَقَلُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، هذا فيه إثباتُ صِفَةِ العِلم لهم، لكن معها أثبَتَ أنَّهم حَرَّفوا، سَمِعوا وَعَقَلُوا وَعَلِموا، لكنهم حَرَّفُوا دين الله، وهذا من الفجور؛ لأنَّ الفُجور: هو الخروج عن أمر الله جل وعلا، هذا ظاهر في أنهم علموا فخرجوا أو لم يعملوا بمقتضى العلم في أصل الديانة، وفي أصل العَمَلِ.

وأمَّا جُهَّالُهم، فدليله قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِنُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَبَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ [البقرة: ٧٨] والأميُّونَ : هم الجُهَّالُ، لا يعلمون الكتابَ إلَّا أماني، الأمانِيُّ: جَمعُ أَمْنِيَّةٍ بالتشديد، وقد يُقالُ بالتَّخْفِيفِ أيضًا، وهي التلاوة كقوله تعالى في سورَةِ (الحج): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِي إِلَّا إِذَا تَمَن يَعْنِي إِذَا تَلَا وَقَرَأَ أَلْقَى الشَّيْطَنُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) يعني في تِلاوَتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَنُ ثُمَّ يُحكمُ اللهُ مَايَتِهِ ﴾ [الحج : ٥٢]، فقوله هنا : إِلَّا أَمَانِي) يعني أنَّهم يقرؤونَ ويَتلونَ القُرآنَ، أو يتلون كتابهم لكنهم جُهَّالٌ، حَريصون على الخَيرِ مُتَعبِّدونَ لكنَّهم جُهَّالٌ، وقصارى عليهم بالكتاب هو التِّلاوَةُ فقط، وهذه صِفَةٌ ذَم.

فإذن هاتان الصفتانِ في أهل الجاهلية مذمومةٌ وهي: أن يكونَ العالِمُ فَاجِرًا، أو أن يكونَ العابِدُ جاهلا، والنبي خالف أهل الجاهلية في هذه الخصالِ أَشَدَّ المخالَفَةِ، فَبَيَّنَ أَنَّ العِلمَ إِنَّمَا يَنفعُ بالعَمَلِ، بل قد قال الله جل وعلا في ذلك مُحَذِّرًا أتباع مُحمَّد صلى الله عليه وسلم من هاتين الصفتين، في سورَةِ (الحديد): ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَتَسِقُونَ (3) أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ فِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَبَيَّنَ جَلَّ وعلا أَنَّ الوَاجِبَ على أهل الإيمانِ أنْ تَخشَعَ قُلُوبُهم لذكرِ اللهِ، وما نَزَلَ مِن الحَقِّ، وأَنْ يَكونوا أهل عِلمٍ وعَمَلٍ، وأن لا يُشابِهوا أهل الكتاب في صِفاتِهم التي ذَمَّهم الله جل وعلا فيها، وهي أنهم يَعْلَمُونَ وَيَفْسُقُونَ وَيَفجُرُونَ،والعياذ بالله.

وهذا بَيْن أيضًا في قولِ اللهِ جَلَّ وعلا: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى وَآتَيْنَهُ وَايَنَيْنَا فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْتَهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَنَهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف] الآية.

وكذلك في قوله جل وعلا، في سورة (براءة): ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ الله ﴾ [التوبة: ٣١] وذلك في طاعتهم الكاملة في تحليل الحرام، وتحريم الخلال، وهذا ظَاهِرٌ بَيِّنٌ في

صفات أهل الكتاب خاصة اليهود؛ لهذا جاء في السُّنَّةِ الأحاديثُ الكَثِيرَةُ فِيهَا الحَثُّ عَلَى انْصافِ طَالِبِ العلم والعالِم بالتقوى والعمل والصَّلاح، وأنْ لا يَرْكَنَ إلى عِلمِه دونَ عَمَلٍ وطاعَةٍ لِرَبِّهِ جَلَّ وعلا. والأحاديثُ في ذلكَ كَثيرَةٌ مُتَظَاهِرَةٌ، كقوله عليه الصَّلاة والسَّلامُ: أَوَّلُ مَنْ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ، وذكر منهم رَجُلٌ قَالَ: يَا رَبِّ، قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فِيكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ قَرَأْتُ لِيُقَالَ قَارِي، فَأَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ». ولهذا قال بَعضُ أهل العلم:

وَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ مُعَذَبٌ مِنْ قَبْلِ عُبَّادِ الْوَثَنْ هذا الإطلاق فيه نَظَر، مِن جِهَةِ أَنَّهُ مُعَذَّبٌ مِن قَبل عُبَّادِ الوَثَنِ، ولكنْ عُمومًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِي خَطَرٍ شَديد؛ لأنَّ قولَه: «أَوَّلُ مَنْ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ» لا يُفهم منه أَنَّهم مِن الخَلقِ جَمِيعًا، حَتَّى أَنَّهُم يَسبِقُونَ عُبَادَ الأوثان، بل هو أوَّلُ، رُبَّمَا أَوَّلُ مَن تُسَجَّرُ بهم من الموحدين، أو مِن أتباع الرُّسُلِ.

لهذا وَجَبَ فِي الحَقيقَةِ أَنْ نَنظُرَ إلى هاتينِ الصِّفَتَينِ العَظيمتين، ألا وهي:

صِفَةُ تَرَكِ العَمَلِ والفُجور مع العلم.

والجهل مع العبادة.

وهاتان الخصلتانِ اللَّتَانِ بهما صار اليهود مغضوبًا عليهم، وصارَ النَّصارى ضالِّينَ، صارت في هذه الأُمَّةِ في أَزْمِنَةٍ مُبكِّرَةٍ، وصار هناكَ مَن يَعلَمُ، ولكنَّه يُزَيِّنُ الباطل، ويُحَرِّفُ الدِّينَ، بل رُبَّمَا يُحَرِّفُ القُرآنَ تأويلا له في أعظم ما نَزَلَ القُرآنُ في شأنه، وهو توحيد الله جل وعلا، وبَيَانُ ما له سُبحانَه مِن الحَقّ. وكذلك شاعَ العُبَّادُ الجَهَلَةُ الَّذِينَ يُكثِرُونَ التَّعَبُّد والصيامَ والصَّلاةَ، وَرُبَّمَا يَكون عندهم تِلاوَةٌ وخشوع وبكاء، لكن ليس عندهم من العِلمِ ما يَعصِمُهم مِن التَّرَدِّي في البِدَعِ والمحدَثاتِ ومُخالَفَةِ السُّنَّةِ.

فهاتان الصفتان موجودتان في الأمة إلى يومنا الحاضر، وهي موجودة في أفراد، وهي موجودة أيضًا في أئمة المذاهب والفرق؛ ولهذا وَصَفَ ابن تيميَّة بَعض هؤلاء بقوله: (أوتوا ذكاءً ولم يُؤْتَوْا زَكَاءً، وأُعطوا عُلومًا ولم يُعطَوْا فُهومًا) وهذا كَثيرٌ في أنَّ مَن عَلِمَ ولم يَعمَل، أو تعاطى عُلومًا أخرى تُقَسّي القَلبَ وتُثير الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ، فإنَّه لا يَزكو وإنْ عَلِم، وإنْ حَسُنَ كَلامُه، وَإِنْ عَلِمَ أَشْيَاءَ كَثيرَةً وَفُنونًا، وَأَلْفَ وصَنَّفَ في كذا، لكنه لا يَزكو، ولا يزال في كَلامِهِ ظُلَمَةٌ يَلْحَظُهَا مَنْ نَوَّرَ اللَّهُ قَلبَه. لهذا وُصِفَ طَائِفَةٌ مِمَّن انتسبوا إلى العلم في التاريخ بأنهم ليسوا على تَوَقٍّ جَيْدٍ، مَا حَرَّمَ اللَّهُ جَلَّ وعلا من تأويل الكتاب على غير تأويله، أو مِن تَركِ مُتابَعَةِ النَّبِيِّ صلى

الله عليه وسلم ولا يَحسُنُ بنا أن نخوض في مَن وُصِفَ بذلك في التاريخ، بذكرِ أعيانهم، تسأل الله جل وعلا أَنْ يَعفُوَ عنا وعنهم بمنه وكرمه، لكنَّ هذا فيه التشديد على خُطورَةِ هذه الصفاتِ. الواجِبُ إِذًا أَنَّ العبد إذا أعطاه الله جل وعلا نشاطًا في العِبادَةِ أنْ يَسعى في العلم، وإذا أعطاه الله جل وعلا نشاطا في العلم أنْ يَسعى في العِبادَةِ، قيمة هذه الأمة أنَّهم أهلُ عِلمٍ وَأَهْلُ عَمَلٍ، لهذا قالَ ابنُ عُمَرَ: كُنَّا لَا نُجاوِزُ عَشَرَ آيَاتٍ حَتَّى نَعلَمَ ما فيهِنَّ مِن العِلمِ والعَمَلِ)، قال: (فَتَعَلَّمنا القُرآنَ وَالعِلمَ والعَمَل جميعًا) وهي صِفَةٌ محمودة، لأنَّ العَبد الصَّالِحَ يَسعى في تطبيق والعَمَلِ بِمَا عَلِمَ بِحَسَبِ قُدرَتِهِ، وَبِحَسَبِ ما أعطاه الله جل وعلا.

وقد ذَكَرتُ لكم فيما مضى أَنَّ السَّلَفَ كانوا يتنافسون في العَمَلِ في بعض الأحاديث الَّتِي بَلَغَتهم، حتَّى إنَّ الإمام أحمد، رحمه الله تعالى قال: (ما حفظتُ سُنَّةً عن النبي صلى الله عليه وسلم إلَّا عَمِلتُ بها) يعني عَمِلَ بها لو مَرَّةً، إلَّا الاختفاء في الغار ثلاثا، قال: (فَلَمَّا وَقَعَت الفتنةُ اختبأتُ في الغارِ ثَلاثًا وَحَمِدَتُ الله تعالى). هذا مَرْكَبٌ صَعَبٌ، وَقِمَّةٌ عَالِيَةٌ يَصعُبُ على النَّاسِ أنْ يُدركوها، ولكنَّه فَضلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ، حَشَرَنا الله معهم إنَّه جَوادٌ كَرِيمٌ.

المِسأَلَةُ الَّتِي بَعدَها: (دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ) هذه الخَصْلَةُ في أهل الجاهِلِيَّةِ مُتَّصِلَةٌ بما قبلها، فإنَّهم مع كونهم عالما فاجِرًا أو عابدًا جاهلا - إِلَّا مَن رَحِمَ اللَّهُ مِنهُم فَإِنَّهُم يَدَّعُونَ أَنَّهُم أولياء الله مِن دونِ النَّاسِ، حَتَّى إنَّ اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحِبَّاؤُه، وقالوا: نَحنُ شَعَبُ اللهِ المختار الَّذِي اختاره وجعَلَه مُقَدَّمًا مَرفوعًا مِن بين الأُمَمِ، والأُمَمُ خادِمةٌ لهم؛ لأَنَّهم أَولِياءُ اللَّهِ مِن دونِ النَّاسِ.

وهذه دَعوَةٌ، فالله جل وعلا ليس بينه وبين عِبادِه حَسَبٌ ولا نَسب، ولا حبل إلَّا حَبلَ كِتابه، الذي هـ العصمة وهو وَسيلَةُ تحقيق ولاية الله جلَّ وعلا لعَبدِهِ وَوَلَايَةِ العَبدِ لَرَبِّهِ جَلَّ جَلالُه. فإذن هم على ميراث مِن النُّبُوَّةِ المشرِكونَ يَقولونَ: نحن على دين إبراهيم الخليل، ونحنُ سَدَنَةُ البَيتِ، ونَحنُ حَفَظتُه، ونَحنُ الَّذِينَ نَسقي الحجيج، ونحنُ الَّذِينَ نُقْرِي الضَّيفَ وَنُكرِمُه، ونحنُ، ونحنُ، فيَدعونَ أَنَّهم بذلكَ يَستَحِقُّونَ رِضوانَ اللهِ جَلَّ وعلا. وأهل الكتاب خاصة اليهودُ يَقولونَ: نحن أبناء الله وأحِبَّاؤُه، يعني نحنُ المنتَسِبُونَ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وعلا بأعظم نسبة، كما تكون نسبة البنوة، ويعنون بها الخدمة والعبادة له، فَيَدَّعُونَ أَنَّهُم خَاصَّةً أَولِياءِ اللَّهِ جَلَّ وعلا، مع أن هذه الدعوة ليس لها ما يدلُّ عليها، مع أنهم يقتلون الأنبياء بِغَيْرِ حَقٌّ، لكن كُونُهم اختَصُّوا بالنعم مع موسى عليه السلام، بالإنجاء من فرعون، وبإبرائهم الأرضَ المقَدَّسَةَ، وبتمكينهم فيها، وبعلبتهم على أعدائهم ذهرًا من الزَّمَنِ ، لا يعني ذلك أنهم أولياء اللهِ دَائِمًا، ولكنَّ وَلايَةَ اللَّهِ

مُرتَبِطَةٌ بأسبابها، مُرتبطة بما جَعَلَ اللهُ جَلَّ وعلا الوَلايَةَ مُتَحَقِّقَةٌ به. فإذا الدعوى ليست على الأهواء، الدعاوى لابدَّ لها مِن بَيِّنات، والله جل وعلا لا يرضى مِن عِبَادِهِ إِلَّا أن يكونوا على وَفِي مَا يُحِبُّ، مِن توحيده جل وعلا، واتباع رسوله.

وحَقيقَةُ الوَلايَةِ اللهِ جَلَّ وعلا أَنَّها تَجمَعُ أربع خصال، اجتمعت عليها الأنبياء جميعًا ودعت إليها، فمن تحقق بها فهو وَلِيُّ اللَّهِ بِحَسَبِ ما عنده من تحقيقها.

أما الخصلة الأولى: فهي عِبادَتُه سُبحانَه وَحدَه، لا شريك له.

.والثانية: هي طاعَةُ رَسولِه الذي أُرسل إليه.

والثالثة: هي التقوى تقوى الله جل وعلا والخَوفُ مِنه.

والرابعة: هي الاستغفارُ لما يَزِلُّ فيه العبد ومن التقصير.

ولهذه الأربع خصال كما قال أهل العلم اجتمعت عليها الرُّسُلُ، فالرُّسُلُ جَمِيعًا دَعَوْا بِلا خِلَاقٍ

بينهم إلى هذه الأربع، وهذه كَثيرَةٌ فِي القُرآنِ، كقوله: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا راف : ٥٩]، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَى

لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥]، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَى غيره ﴾ [الأعراف: ٧٣]، (الر كتَاب أَحْكِمتْ اياته ثم فصلت مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ ﴾ [هود] وطاعَةُ الرَّسولِ الَّذِي أُرسل إلى هؤلاء القوم، هذا اجتمعت عليه الرُّسُلُ جَمِيعًا، كُلُّ رَسولٍ يَأْتِي للأمرِ بعبادة الله وحده لا شريك له، وبطاعَةِ الرَّسولِ الَّذي جاءَ بالرِّسالَةِ، وهذا ظَاهِرٌ فِي آياتِ سورَةِ (الشُّعَرَاءِ): رإِنِي لَكُمْ رَسُولُ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (3) فَجَمَعَ هنا بين التقوى والطَّاعَةِ، والتقوى هي الصفة الثالثة، فالرُّسُلُ جَميعاً جاءت بهذه الثلاث صفات. أَمَّا الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: فهي الاستغفارُ، كُلُّ رَسول جاءَ بالأمر بالاستغفار، والحظ عليه، والتحذير من تركه، كما في قوله سبحانه، مثلا في قصة نوح عليه السَّلام، وهو أَوَّلُ الرُّسُلِ: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّارًا [نوح] فأمرهم بالاستغفار، وقال جل وعلا لنبيه، عليه الصَّلاةُ وَالسَّلام، فِي أَوَّلِ سورَةِ هودٍ: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُر يَنهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُر ثم تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فَأَمَرَ بالاستغفار، وقال فِي قِصَّة موسى عليه السَّلامُ: وَإِنِي لَغَفَّارٌ

لِمَن تَابَ وَمَا مَنَ وَعَمِلَ صَلِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [طه] وكذلك عيسى عليه السلام، وكذلك إبراهيم عليه السَّلامُ وَمَا كَان استغفارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة : ١١٤].

المقصود من ذلك: أنَّ هذه الصفاتِ الأربع التي اجتمعت عليها الرُّسُلُ، وهي الدِّينُ الواحد، ودين الإسلام العالم، هذه الصفاتُ مَنْ تَحَقَّقَ بها فَإِنَّهُ وَلِيُّ اللهِ جَلَّ وعلا، بِحَسَبِ مَقامِهِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنها، فمن كان أكثر توحيدًا لله جل وعلا في تفاصيل التَّوحيد، كانَ أكثرَ وَلايَةً للهِ، وَمَن كَانَ أَكثَرَ طَاعَةَ الرَّسول صلى الله عليه وسلم كانَ أَكثَرَ وَلايَةً لِلَّهِ، وَمَن كَانَ أحرص على التقوى، وأكثر تحصيلا للتّقوى، كان أكثر في تحصيل الوَلايَةِ، ومن كان أقعد وأحَقَّ وأكثر في الاستغفار لله جل وعلا فَإِنَّه أكثر في تحقيق الوَلايَةِ. فإذن إذا نظرنا إلى دعوى هؤلاء أنَّهم أولياء للهِ مِن دونِ النَّاسِ، وَنَظَرنا في هذه الأَربَعِ، وَجَدَنا أَنَّهم يُخالفونها جميعًا:

فمِن جِهَةِ التَّوحيد: عبدوا غير الله جل وعلا، واليهودُ عَبَدوا عُزيرا، وعبدوا آلِهَةً مُختَلِفَةً، بل أسرع إليهم الشَّيطانُ في الشرك في مَغيب موسى عنهم، حينَ اتَّخَذوا العجل إلها. ومِن جِهَةِ طَاعَةِ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، يعني طاعَةَ رَسولِهِم، فإنهم لم يُطيعوه، بل عاندوه وخالفوه في حَياتِه، ووَجَدَ مِنهم مَشَقَّةٌ عَظيمَةٌ - أعني موسى عليه السَّلامُ - قالوا : ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ [المائدة : ٢٢]، ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَأَذهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِّلَا إِنَّا هَهُنَا قَعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَأَفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة]، وهذا ظاهر أيضًا في كثير؛ بل في الأكثر من أتباع موسى عليه السلام، وأتباع عيسى عليه السلام فالواجب حينئذ أن يُنظر في الدعوى، دعوى الولاية، هل هم مُنصِفُونَ بها؟ وما نَصيبهم من التَّقوى؟ مِنهم مَن حَلَّلَ قَتَلَ بَعض الأنبياء، بل أليس اليهودُ بأحبارهم ورهبانهم، هم الَّذِينَ أَفتَوْا بِقَتل عيسى عليه السلام، فألقى الله جل وعلا الشَّبَهَ ورَفَعَ عيسى إليه وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَم ﴾ [النساء: ١٥٧]، والله جل وعلا قال عنهم إنَّهم يقتلون الأنبياء، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِينَ بِغَيْرِ حق ﴾ [آل عمران: ٢١]، وهذا ظاهر بين فيهم، فكيف يكون هؤلاء أولياء الله جل وعلا مِن دونِ النَّاسِ، وهذه صفتهم ؟!

ثُمَّ لأجل القلوب القاسية هم أقلُّ النَّاسِ بل ليسوا بأهل استغفار صحيح، لهذا غَضِبَ اللهُ عليهم، فكيف يكونُ وَلِيًّا لله جل وعلا من غَضِبَ الله عليه ؟! وأخبر جلَّ وعلا بأنهم هم المغضوب عليهم، وقال: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القردة والخنازير وعَبَدَ الطَّغُونَ ﴾ [المائدة: ٦٠] ولعنهم جلَّ وعلا: ولين الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَةً ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يعتدونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة] الآيات. وهذه

الصفاتُ لا شك أنها هي الأساس في أنَّهم ليسوا بأولياء الله جل وعلا، وهذه كذلك في المشركِينَ العَرَبِ ادْعُوا أَنَّهم أولياءُ اللهِ، وأنهم أولياء البيت، وبأنهم الأحق بميرات دين إبراهيم الخليل عليه السلام، لكن هل لهم نصيبٌ من ذلك ؟ ليس لهم نصيبٌ مِن ذلكَ إلَّا الدعوى فقط.

قال جل وعلا في (سورة الأنفال) مبينا ما هم عليهم، في البيت: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤] رَدًّا مِنه جلَّ وعلا على دعواهم، وما كانوا أولياءه، ليسوا بأولياء لله، ولا بأولياء للبيتِ، كيفَ يَكونُ مَن عَبَدَ آلِهَةً أُخرى، ورَدَّ رِسالَةَ الرَّسولِ، ولم يَكُنْ بِصاحِبِ تَقوىٰ، كيفَ يَكُونُ وَلِيًّا الله جل وعلا؟ لكنَّ الدعوى جَعَلَت أمرهم رائِجًا، فصارَ جَهَلَتُهم يعتقدون فيهم أَنَّهم أولياء للهِ، وَأَنَّهم هم خاصَّةُ الله، وأَنَّهم أبناء اللَّهِ، وَأَنَّهم أحباؤُه، وهذا من أثر التضليل بالإعلام، أو بالدعوى، أو بنشر الصفاتِ التي كانوا عليها، كما يزعمونَ.

ولهذا جاءَت شريعة الإسلامِ مُخالِفَة لأهل الجاهلية بهذه الصِّفَةِ، مُخالِفَةٌ لأَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ في أَنْ يَنسِبَ أَحَدٌ نَفسَه إلى وَلايَةِ اللهِ جَلَّ وعلا، فلا أحد من الصحابة رضوان الله عليهم قال: أنا من أولياء الله، ولا أثنى على نفسه بذلك، ولا من سادَةِ التَّابِعِينَ، ولا من أئمة الإسلام؛ لأَنَّ الجَميعَ يَعْلَمُ أَنَّ وَلَايَةَ اللَّهِ جَلْ وعلا، وأن العبد يكون من أولياء الله بصفاتٍ يَرجو كُلُّ مُسلِمٍ أن يكونَ وَلِيًّا لِلَّهِ، بِحَسَبِ حالِهِ، إِذَا لَا زَمَ هذه الأربع، وهي:

أن يَكونَ مِن أهل التوحيد.

وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

.وأنْ يَكونَ مِن أهلِ التَّقوى.

ومن أهل الاستغفار.

فإذا كان عنده قدر من هذه، ولم يَأْتِ بما يَنقُضُ الإسلام فله نصيبٌ مِن وَلَايَةِ اللهِ جَلَّ وعلا، لكنَّ التخصيص بأنَّ هذا وَلِيُّ الله جل وعلا، هذه صِفَةٌ أو حصلَةٌ لم يَجعَلُها أَحَدٌ مِن أئِمَّةِ الإسلام في نَفْسِه، لهذا خالَفَ أهل الإسلام من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة الإسلام، خالفوا أهل الجاهِلِيَّةِ في أَنَّ أحَدًا مِنهم لم يَنسِبْ نَفسَه إلى الولاية، ولم يَدْعُ النَّاسَ إلى ذلك، لم يَدْعُها، لكن رُبَّما يُثنى عليه بخصالٍ تدلُّ على أَنَّهُ مِن أَولِياءِ اللَّهِ جَلَّ وعلا.

ووُجود الأولياء هذا حَقٌّ، أولياء والولاية الخاصة، هذا حَقٌّ ولا شَكٍّ ونَحنُ نُؤْمِنُ بِأَنَّ مِن النَّاسِ مَن هو وَلِيٌّ للهِ جَلَّ وعلا – كما قال الله جل وعلا في القُرآنِ والنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في السُّنَّةِ وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ أَكْرَمَ بَعضَ عِبادِهِ بكرامات، لكنَّ الدعوى ليست من صفتِنا، ولا من صفة أهل الإسلامِ الحَقّ، ولا مِن صِفَةِ أهل العِلم، أنْ يَتَجَبَّرَ الإنسان، أو يتعاظم، فيُنسِبَ نَفسَه تصريحًا أو تلميحًا للولاية، ليُصرِفَ وُجوهَ النَّاسِ إليه. فإذن نَقولُ : أَهلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، وأئِمَّةُ الإسلام، وأئِمَّةُ السَّلَفِ كانوا أَشَدَّ النَّاسِ حِرصًا على ما فيه صَلاحُ قُلوبِهم، ومُخالَفَةٌ لأهل الجاهلية من الكتابيين أو من الأميّينَ وَالمشْرِكِينَ الَّذِينَ يَنسِبُونَ أَنفُسَهُم إلى الولاية، وليسوا كذلك.

إذا تبين هذا فنقول: إنَّ هذه الصفة كثرت في الأمة، سيما مع كثرَةِ الفجور في العلماءِ، وَكَثرَةِ الجَهل في العُبَّادِ، ولهذا جَعَلَ الشَّيخُ، تعملته هذه المسألة بعد قوله في المسألةِ التي قَبْلَهَا: (أَنَّ أَئِمَّتِهِمْ إِمَّا عَالِمٌ فَاجِرٌ، وَإِمَّا عَابِدٌ جَاهِلٌ) لشِدَّةِ الصَّلَةِ بينهما، مَن الَّذي يَدَّعي أنَّه وَلِيٌّ اللَّهِ؟ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَالِمًا فَاجِرًا، وَإِمَّا أَنْ يكون عابدًا جاهلا، وهذا هو الواقع في هذه الأمة، ولهذا تَجِدُ مَن عُظْمَ مَن فَجَرَةِ العُلَماءِ بِأَنَّهُ مِن أَولِياءِ اللهِ، وَمَن عُظْمَ مِن جَهَلَةِ العُبَّادِ بِأَنَّهُ مَن جَعَلَ نَفْسَهُ مِن أَولِياءِ اللَّهِ ومَن رأى التراجم، وما فيها مِن قِصَصِ المعَظَّمين أو المقَدَّمِينَ في الطَّرُقِ الصُّوفِيَّة بخصوصها، أو الطرق الكلامية، أو السلوكية، أو الفَلسَفِية، وَجَدَ مِن ذلكَ الشَّيءَ الكَثِيرَ، حَتَّىٰ إِنَّ مِنهُم مَن جَعَلَ الوَلَايَةَ، وهم بَعضُ الفَلَاسِفَةِ مِنهم، وبَعضُ غُلاةِ الصُّوفِيَّةِ، مَن جَعَلَ الوَلِي فَوقَ مَرتَبَةِ النَّبِيّ، وَمِنهم مَن جَعَلَ نَفسَه نَبِيًّا بِأنْ يكونَ أَعظَمَ مِن أنْ يَكونَ وَلِيًّا، فَجَعَلُوا التَّنُبُّوَةَ إِنَّما هي الحكمة والعِلم، قالوا: هذه تحصل بدون وحي، نسأل الله جل وعلا السَّلامَةَ مِن ذلكَ.

وهذه الصفة – كما ذكرنا لك – قد تكون بالتصريح، وقد تكون بالتضمين والتلميح، يعني يَدَّعي الإنسانُ أنَّه من أولياء الله، إمَّا أَنْ يَذكُرَ أشياء له وَقَعَت له خُفيَةً، كما يَحصُلُ مِن بَعض الجماعاتِ الإسلامية المنتَسِبَةِ، كَبَعض الأفراد في جَمَاعَةِ التبليغ مَثَلًا، يَذكرون عن أنفُسِهم أشياء ليُغروا الجاهل، بأن هذا من أولياء الله، وهذا من أولياء الله، حتَّى أن بعضهم يَصِفُ صاحبه بأوصاف مضمون هذا الوصف، أنَّ النتيجةَ أَنَّه من أولياء الله، والآخر أيضًا يَصِفُ صاحِبَهُ بالصَّفاتِ نَفْسِها، وهذا أيضًا يكون في بَعض مَن ليسَ مُهتما بالعِبادَةِ، وإنَّما يهتم بالجهادِ مَثَلًا، يعني العِبادَةُ تَعَبُّد – كحالِ جَمَاعَةِ التَّبليغ وغيرهم وإنَّما أيضًا بالجهاد، فيجعل نفسه في مصاف هؤلاء الأئمة أو الأولياء أو نحو ذلك، تضمينا أو تلميحا أو تصريحًا في بعض الحالاتِ؛ لأجل ما وَقَعَ له. والواجِبُ أنْ يَخشَى العَبدُ عَلَى نَفْسِهِ مِن أَنْ يُزِيغَ الله قلبه، وأنَّ الولاية هي أمر عند الله جل وعلا، وإنما العبد يسعى جهده، بأن يستقيم على أمرِ اللهِ حَتَّى يتَوَفَّاهُ اللهُ على ذلك،

ويا فَرحَةَ ويا عِظَمَ حَظٍّ مَن رُزِقَ كَفَافًا فألهمه الله جل وعلا عِبَادَتَه وحده دون ما سواه، والإخلاص له، وطاعَةَ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلامُ فيما أمكنه، أو فيما يَسَّرَ له مِن ذلكَ، وَعَدَم مُخالَفَةِ أمرِهِ، ولزوم السُّنَّةِ، ولزوم أهلها، والحرص على تقوى الله جل وعلا، وَاسْتَغْفَرَ إنْ انتَقَصَ مِن ذلكَ، مَن كانَ على ذلك، فهو الحَرِيُّ بالفضل، وهو الحَرِيُّ بالخَيرِ.

أمَّا مَسألة الولاية والاهتمام بها، ووصفُ النَّاسِ، فأصبَحَ بَعضُهم يَمدَحُ بَعضًا، وهذا إمام، وهذا وَلِيٌّ، وهذا كذا، حَتَّى أصبَحَ ذلكَ مِمَّا يَستهجنه أهل البصيرة؛ لأنَّ النَّاسَ صاروا بَعضُهم يَرْفَعُ بَعضًا بالألقاب، وَكُلُّ فِئَةٍ تَرفَعُ صَاحِبَها.

وهذا لم يَكُنْ فِي عَهدِ السَّلَفِ، وإنَّما كانَ السَّلَفُ أهلَ تَواضُع أهلَ خَشيَةٍ، وَالعَمَلُ الَّذِي يُقتدى به يُدَلُّ النَّاسُ عليه، أَمَّا التضخيم بالألقاب، وتضخيمُ النَّاس بأفعالهم، حتَّى يَقتَنِعَ النَّاسُ بهم، هذا له أهداف أخرى.

والواجِبُ أنْ نكونَ مُرَبِّينَ للنَّاسِ بِالتَّواضُع، ومَعرِفَةِ عَيبِ النَّفْسِ، وَعَدَمِ التَّمَادُحِ بما لا يُحمد. وتسأل الله جل وعلا لنا جميعًا أَنْ يُصلِحَ بَواطِنَ قُلوبنا، وأن يقينا العُثارَ والزَّلَل، في القَولِ والعَمَل والاعتقاد، وأنْ يَمُنَّ علينا بِمَغْفِرَةٍ مِنه وفَضلٍ، منه وتَكَرمًا، وَإِلَّا فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ مِن – مِن حَقيقَةِ نَفْسِه أَنَّه إن لم يلطف الله جل وعلا به فإنَّه على شفا هَلَكَةٍ، كيف لا ؟ والنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَالَ اللَّهُ لَه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح] وهو النبي عليه الصَّلاة والسلام، وقال النبي صلى الله عليه وسلم الأفضل الخَلق بعده، وهو أبو بكر: قُلْ: يَا رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». فمَن لم يَكُن على هذه الخصالِ مِن مَعرِفَةِ عَيْبِ النَّفْسِ، والسعي فيما يُحِبُّ الله جل وعلا ويَرضى،مع التواضع لله جل وعلا، فيُخشى عليه، تسأل الله أن يعفو عنَّا بِمَنّه وَكَرَمِه.

مقدمة (الزوائد على مسائل الجاهلية)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهديه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد / فإنه من مسائل العقيدة التي يجب على المسلم أن يتحلى بها مخالفة الكفرة على اختلاف مللهم ونحلهم فمشابهتهم والتحلي بها محرمة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من تشبه بقوم فهو منهم» . قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط: التشبه في الظاهر يوجب المحبة في الباطن) ولذلك دأب علماء السلف رحمة الله عليهم في تبيين أحوال هذه المشابهة فمِنْ مؤلف في إيضاح البدع والنهي عنها وتمييز ذلك، ومن أجدر ما كتب في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتاب الاقتضاء وغير ذلك من كتب قد أكثر في البحث والاستطراد، ثم تلاه من تخرج في مدرسته إمام هذه الدعوة السلفية الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه مسائل الجاهلية حيث أنه ذكر رحمه الله تعالى في كتابه ذلك ما يناسب عصره في هذه المسائل، وقد شرحها العلامة الألوسي رحمه الله تعالى في أوضح عبارة وأسهل إشارة ثم درج على هذا المنوال، وسلك سبيله في هذا الكتاب الشيخ عبد الله بن محمد الدويش رحمه الله تعالى في الزوائد على مسائل الجاهلية، والتي يبلغ عددها (211) مسألة، وحيث أن هذه المسائل تحتوي على أبواب كثيرة من الأبواب العلمية، قمنا بتنسيقها في الفهارس إلى قسمين قسم يشمل العقائد، والآخر يحتوي على المسألة العلمية في الأبواب الفقهية فقد اشتملت على فوائد كثيرة لا يستغني عنها الطالب المبتدئ والراغب المنتهي، وقد وضعت بعض التعاليق التي تشير إلى استنباط المؤلف رحمه الله ودقة فهمه في استخراج المسائل مع الإشارة إلى أرقام الآيات وأسماء السور ومصادر الحديث في كتب السنة وفي بعض الأحوال أنقل الحديث بكامله. فنفع الله بها كما نفع بأصلها وهي مسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ووفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه وغفر لله لمؤلفها وجميع المسلمين وصلى الله وسلم على رسول الله. عبد العزيز أحمد المشيقح

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الذي بين لأمته طرق الجاهلية العمياء، ونهاهم عن سلوكها، وتركهم على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

أما بعد: فإنا نهينا عن التشبه بأهل الجاهلية كما قال تعالى {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى} وثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن » ...الحديث. إذا عرف هذا وأن ما عليه أهل الجاهلية مذموم إلا ما وافق الشرع، فالواجب على كل مسلم معرفه ذلك لئلا يقع فيه وهو لا يشعر، وقد جمعت أشياء من ذلك وهي عامة لأهل لجاهلية من أهل الكتاب وغيرهم، فإن قيل ألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مسائل الجاهلية فما فائدة ما جمعته؟ فالجواب: أن هذه ما ذكرها الشيخ ثم ليعلم أن هذا ليس استدركًا عليه لأنه لم يذكر أنه جمع كل ما عليه أهل الجاهلية، وإنما ذكر أمورًا خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يدع المحصر حتى يقال إن هذا استدراك عليه.

والله المسئول أن يجعل علمنا خالصًا صوابًا إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

1- إتيان الذكور وترك إتيان الإناث كفعل قوم لوط.

2-توعدهم أنبيائهم بالإخراج من بين أظهرهم.

3-نقص المكيال والميزان كفعل أصحاب الأيكة.

4-نسبة الأنبياء إلى الكذب كقول أصحاب الأيكة وغيرهم.

5-استعجالهم العذاب كقوله تعالى عنهم {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} وقوله عن قوم لوط {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

6-ترك العمل بالحق وجحده مع العلم به، كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ}.

7-السجود للشمس من دون الله، كقوله تعالى: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ} الآية. وكذلك القمر لقوله تعالى {لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ}.

8-تأمير النساء لقوله في الحديث الصحيح عند البخارى لما بلغه أن أهل فارس ملّكوا عليهم ابنة ملكهم: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة. «

9-التشاؤم بالرسل وأتباعهم، كقول قوم صالح {قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ} ...الآية.

10-إعمال المكر في قتل الأنبياء، كقوله تعالى عنهم: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ} الآية.

11-الشك في الدار الآخرة، وقد تقدم في كلام الشيخ أنهم مكذبون بيوم القيامة وبلقاء الله، وأما هذه المسألة فهي في الشك ولا يخفى ما بينهما من الفرق.

12-تقتيل الأبناء واستحياء النساء، كما ذكر الله عن فرعون وآله.

13-تبرج النساء، لقوله تعالى: {وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى}.

14-إتباع السادة والكبراء فيما خالف الحق، وقد ذكر الشيخ اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا ولعل هذه المسألة المذكورة هنا أعم.

15-إيذاء الأنبياء، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى} آية.

16-نسبتهم إلى الجنون، كقول فرعون {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} ، وقوله تعالى: {أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ}.

- 17الاستهزاء بالرسل وأتباعهم.

18-قولهم في النبي صلى الله عليه وسلم إنه شاعر.

- 19التحريق لمن دعاهم إلى الحق، كما فعلوا مع إبراهيم فأنجاه الله عز وجل، وكما في قصة أصحاب الأخدود.

- 20نسبة الصحابة إليه تعالى عن ذلك وتنزه.

21- أنهم يخوفون من دعائهم إلى الله بمعبوداتهم، كما قال تعالى: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ} آية.

22- اشمئزاز قلوبهم إذا ذكر الله وحده.

23- استبشارهم إذا ذكر الذين من دونه.

24- سؤالهم أمور دنياهم دون آخرتهم كما قال تعالى: {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ}.

25- البطر والفرح إذا أذاقهم الله رحمة منه، كما قال تعالى: {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا ...الإِنسَانَ} . الآية.

26- الكآبة والقنوط إذا أصابتهم شدة، كما قال: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}.

27- ظهور الكراهة عليهم إذا بشروا بالإناث، كما قال تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ}.

28- قتل أولادهم كما قال تعالى: {أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ} الآية.

وقوله: {وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إمْلَاقٍ}.

29- إنهم يعاهدون على أن يؤمنوا فإذا كُشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم.

30- إلقاء العداوة بين المسلمين فأنزل الله فيه {إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} والآيات بعدها.

31- زخرفه المساجد، كما قال ابن عباس: (لتزخرفنها كما زخرفت اليهود ...والنصارى) .
وفي الحديث: ((ما أمرت بتشييد المساجد» . ((ما أمرت بتشييد المساجد» . أخرجه أبو داود (برقم 448) ، وهي من علامات الساعة المباهاة فيه والزيادة على المشروع، ووضع فيها ما لا يلزم وضعه للحديث الوارد عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أشراط الساعة أن يتباهي الناس في المساجد» . رواه النسائي (برقم 689).

– 32الاختصار في الصلاة فورد النهي عنه وقالت عائشة: (إنه من فعل اليهود في صلاتهم).

أخرج البخاري رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تكره أن يجعل يده في خاصرته وتقول: (إن اليهود تفعله) وفي لفظ آخر: نهى أن يصلي الرجل مختصرًا. الأول أخرجه البخاري (برقم 3458) ، والثاني (برقم 1219) ، . (1220)

– 33أنهم زادوا في صيامهم فورد الشرع بالنهي عن تقدم رمضان وصيام عيد الفطر لئلا نشابههم. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا أن يكون رجل كان يصوم صومًا فليصم ذلك اليوم» . أخرجه البخاري (برقم 1914) ، ومسلم (برقم 1082).

– 34أنهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم.

– 35أنهم يجمعون الكناسة بأفنيتهم فأمر بالنظافة مخالفة لهم.

– 36أنهم لا يصبغون فأمر بمخالفتهم.

– 37الاعتماد على اليد حال القعود في الصلاةِ.

– 38جعل اليد اليسرى خلف الظهر حال الجلوس والاتكاء على راحتها كما في حديث الشريد بن سويد، رواه أبو داود.

– 39العدوى مطلقًا فرد ذلك وبين أنها لا تكون إلا بقدر الله.

– 40التشاؤم بشهر صفر فرده بقول: ((لا صفر)).

–41التشاؤم بالبومة فرده بقوله: ((لا هامة)).

–42ترك الختان كفعل النصارى.

–43ترك الإسلام خوفًا على الملك، كما فيه قصة هرقل.

–44اعتقادهم أن الغول تضلهم مطلقًا، فنفاه بقوله: ((ولا غول)) ، أي أنها لا تضل أحدًا مع ذكر الله لا نفي وجودها مطلقًا.

–45جعلهم في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية.

– 46قولهم لمن أسلم: شرنا وابن شرنا. كما قالوه لعبد الله بن سلام.

–47أمرهم الناس بالخير ونسيان أنفسهم.

– 48العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم واعتمر فيها.

– 49الذبح بالسن والظهر، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه.

– 50معاقرة الأعراب وهو التفاخر بكثرة الذبح فنهى عنه .إشارة إلى الحديث الوارد في سنن أبي داود (رقم 2820) بلفظ (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الأعراب) . والمعاقرة أن يتبارى الرجلان ويتفاخران في عقر الإبل ويتكاثران.

– 51إتباع وترك المحكم.

–52حلق القفا لغير الحجامة.

–53القول بقدم العالم، وأنه ليس بحادث.

–54قولهم إن الكسوف لموت عظيم أو ولادته، فرده بقوله: «ولكن الله يخوف بهما عباده. »

– 55قولهم إذا رمي بنجم إنه يولد عظيم أو يموت عظيم، فرد ذلك ثم بين حكمة ذلك.

–56اعتقاد معرفة علم الغيب بالنظر في النجوم فورد الشرع بخلافه والنهي عن تعاطيه.

– 57عقد لحاهم في الحرب تكبيرًا وعجبًا.

–58تقليد الأوتار وغيرها دفعًا للعين ونحوها.

– 59تحريم بعض أنواع السمك، كالجري كما تفعله اليهود. الجري بفتح الجيم وقال ابن التين وفي نسخة بكسرها وهو ضبط الصحاح وكسر الراء الثقيلة ويقال له الجريت، وهو ما لا قشر له. الجريت نوع من السمك يشبه الحيات وقيل سمك لا قشر له، ويقال أيضًا المرماهي، والسلور مثله، وقيل نوع عريض الوسط دقيق الطرفين، وقد سئل ابن عباس عنه فقال: لا بأس به إنما تحرمه اليهود ونحن نأكله. وهذا على شرط الصحيح أ. هـ من أضواء البيان (جـ 1 ص 99).

-60التحليل والتحريم بمجرد الرأي، فنهي عنه بقوله: {وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ} الآية.

-61المشي تكبيرًا.

- 62إرخاء الإزار كذلك، كما في قصة الذي خسف به.

- 63تفضيل بعض الرسل على بعض بمجرد التشهي.

-64السجود لعظائمهم فنهى عنه، كما في حديث معاذ وغيره.

- 65التبرك بالأشجار والأحجار، كما دل عليه حديث أبي واقد الليثي.

-66ضربهم المثل مع علمهم ببطلان قولهم جدلاً.

(66)كما في سورة الزخرف (آية 56).

-67عبادة الله على حرف أي طرف وجانب.

-68نكاح الاستبضاع، كما دل عليه حديث عائشة.

-69نكاح البغايا، كما في الحديث السابق وكذا المسألة التي بعدها.

-70نكاح المرأة العدد الكثير من الرجال وإلحاق الولد بواحد منهم.

-71التوعد بسجن من خالفهم ولو كان محقًا، كقول فرعون {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}.

-72بناء اتخاذ ما لا يحتاجون إليه من المصانع عبثًا لقوله {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ} آية.

- 73الشعراء الذين يقون ما لا يفعلون.

(70 - 69) (68)عن عائشة رضي الله عنها ...) قالت: ونكاح آخر كان يقول الرجل لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان (فاستبضعي) منه ويعتزلها زوجها ولا يمسسها

حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستضبع منه إذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن (البغايا) كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن وضعت حملها جمعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يردن فالتاطته به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم) . أخرجه البخاري برقم (5127

-74استمالة القلوب بالهدية، كما في قصه النجاشي لما أرسلت إليه قريش هدايا ليرد المسلمين، وجاء الشرع بالنهي عن الرشوة.

-75الاستهزاء في صورة المدح، كقول قوم شعيب {إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}.

- 76تعظيم الأسلاف والأكابر زيادة على المشروع لقولهم أترغب عن ملة عبد المطلب.

-77معارضة الحق بها، كما في القصة.

- 78جعلهم إتباع الهدى سببًا لاستيلاء العدو عليهم فرد الله عليهم.

-79السفر للحج وغيره بغير زاد بزعم التوكل على فرد الله عليهم بقوله: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}.

-80الأمر بالباطل وتحمل ما فيه من العقوبة، كقولهم {اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ ...خَطَايَاكُمْ} الآية.

- 81جعلهم الملائكة من الجن، فذكر في الحديث: أنهم خلقوا من نور.

– 82أنهم عجلت لهم طيباتهم في الدنيا، كما قال في آنية الذهب والفضة لما نهي عن الأكل والشرب فيها: ((فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)) ، وكما في قصة عمر مع ...النبي صلى الله عليه وسلم.

–83حلقهم لحاهم وتوفيرهم شواربهم فأمرنا بمخالفتهم.

–84إن تسليمهم بالإشارة فأمرنا بمخالفتهم.

– 85إنهم يظنون بالله ظن السوء.

–86إنهم يجعلون من دم العقيقة على رأس المولود فأمرنا بمخالفتهم.

– 87استعمال البوق كفعل اليهود.

–88الضرب بالناقوس كفعل النصارى.

– 89التعبد بترك الكلام مطلقًا فقال: ((تكلمي فإن هذا من فعل الجاهلية)).

–90إنهم لا يدفعون من مزدلفة حتى تطلع الشمس فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم.

– 91وصل الشعر كما في حديث معاوية.

– 92الصلاة إلى المشرق.

–93شد الوسط بالزنار.

–94تأخير المغرب حتى تشتبك النجوم.

–95أنهم لا يتسحرون إذا صاموا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر)).

–96إخراجهم باعوثا وشعانين مشبهين بالمسيح.

–97الخروج بالمشاعل مع المرأة إذا زفت إلى زوجها، كما ذكر عبد الله بن قرط الشمالي أشار إليه في فتح الباري في كتاب النكاح وقواه جـ 9 ص 334.

98-عبادة النار كفعل المجوس.

99-اتخاذ أعياد مبتدعة، فقال: ((قد أبدلكم الله بهما خيرًا منهما عيد الفطر والنحر)).

100-اعتمادهم على الحساب في معرفة شهورهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب)) . وفي الحديث الآخر: ((صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته)) . فبين أن اعتماد المسلمين على الرؤية لا على العدد والحساب.

- 101 فعل الزمزمة حال الأكل كفعل المجوس، فكتب عمر إلى المسلمين أن ينهوهم ...عنها.

- 102 السجود عند طلوع الشمس وغروبها، فنهي عن الصلاة حينئذ إلا ما أخرجه الدليل.

103-لبس المعصفر لقوله: ((إنهما من لباس الكفار فلا تلبسهما)).

104-قولهم إن العزل هو الموؤدة الصغرى، فقال: ((كذبت اليهود)).

- 105 تعبدهم مع التلبس بالنجاسة كفعل النصارى.

- 106 عدم تقيدهم فيما يأكلونه من طعام، كما أشار إلى ذلك في أعلام الموقعين لما ذكر حديث الرجل الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يختلجن في نفسك طعام ضارعت فيه النصرانية» . (ج 4 ص 384).

- 107 اختيار الشق على اللحد فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ((اللحد لنا والشق لغيرنا)).

108-تعليق الأجراس على الدواب فأمر بقطعها.

- 109 تغيير خلق الله تعالى.

110-تبتيك آذان الأنعام.

111-اتحاد المخلوق بالخالق، كما تقوله النصارى فرده الله بقوله: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} وما بعدها.

112- أنهم حملوا العلم فلم يحملوه، فشبهوا بالحمار يحمل أسفارًا.

113- تصوير أنبيائهم وصالحيهم، فحذر عنه أشد التحذير.

114- اتخاذ الكنائس والصوامع والبيع.

115- التعبد على جهل كفعل الضالين.

116- إفسادهم في الأرض وتسميته صلاحًا.

117- تبديلهم قولاُ غير الذي قيل لهم.

118- استبدالهم الذي هو أذنى بالذي هو خير.

119- تعنتهم في السؤال كما في قصة البقرة.

120- الحسد كما ذكر الله عن اليهود.

121- عبادتهم العجل.

122- قولهم سمعنا وعصينا.

123- الحرص على الحياة بسبب ما قدمت أيدهم.

124- عداوة بعض الملائكة كجبريل.

125- إنكار النسخ كما حكى الله عن اليهود.

126- اقتراح الآيات مع عدم الإيمان بها.

127- منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها.

128- كونهم إذا حجوا أو اعتمروا لم يدخلوا البيوت من أبوابها.

129- الاستقسام بالأزلام.

130 - عدم مؤاكلة الحائض ومشاربتها.

131- قولهم إذا أتى الرجل امرأته في قبلها في دبرها كان الولد أحول فرد الله ذلك قوله {فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}.

132 - استحلال الربا وتشبيه بالبيع فرد الله عليهم.

133 - قلب الدين على المعسر فأمر الله بانظاره.

134- عدم اعتبارهم بما يمرون عليه من الآيات، كما قال تعالى {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}.

135- التعبير بقلة البيان لقوله {وَلا يَكَادُ يُبِينُ}.

136- عبادتهم الكواكب فأنكر الله عليهم ذلك بقوله تعالى {وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى. {

137- استبدالهم الغناء عن سماع القرآن كما أشار إليه في قوله تعالى: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ}.

138- نسبة الأنبياء إلى الضلال، كقولهم لنوح {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ}.

139- نسبتهم إياهم إلي السفاهة، كقولهم لهود {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ}.

140- التكذيب بالنار كما قال تعالى: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}.

141- أنهم طال عليهم الأمد فقست قلوبهم فأخبر الله أن أهل الإيمان ليسوا كذلك فقال: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} الآية.

142 - أنهم يبخلون.

143- أنهم يأمرون بالبخل.

144 - ابتداعهم الرهبانية.

145- وصفهم بالجبن لقوله: {لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ} الآية.

146- شدة بأسهم بينهم، كما في الآية.

147- أنهم نسوا الله فنسيهم.

148- النهي عن الصلاة لقوله: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى}.

149- استحلال البيت الحرام، كفعل أصحاب الفيل.

150 - عدم العمل بالعلم، كما وصف الله به المغضوب عليهم.

151- قولهم ليس عينا في الأميين سبيل.

152- محبتهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

153- استئثار الرجل موليته لنفسه إذا كانت كثيرة المال ومنعها من غيره من غير أن يقسط لها في صداقها.

154- عدم الرغبة فيها إذا كانت قليلة المال والجمال.

155 - توريث الرجال دون النساء.

156- وراثة النساء كرهًا.

157 - استحلال نكاح ذوات المحارم كما يفعل المجوس.

158- إقامة الحدود على الضعيف دون الشريف.

159 - قولهم (إن الله ثالث ثلاثة) فرد الله عليه ذلك.

160- استحلالهم لحم الخنزير.

161 - نكولهم عن القتال وقولهم اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.

162- قبول الحق إذا وافق أهواءهم فقط لقوله: {إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ}.

– 163تركهم الرجم واستبدالهم به غيره، فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم فرجم الزانيين منهما.

–164تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

– 165تفضيلهم الميتة على المذكاة لقولهم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله. فذكر الله فيه ما ذكر.

–166قطع الطريق كفعل قوم شعيب لقوله: {وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ}.

– 167الأمن من مكر الله.

–168الإلحاد في أسماء الله، لقوله تعالى {وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ} الآية.

–169تعبيد الاسم لغير الله.

– 170الاستعاذة بالجن من دون الله.

– 171قولهم لما تلي عليهم القرآن {لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا}.

–172قولهم فيه {إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}.

– 173إنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله.

–174خروجهم للقتال بطرًا ورئاء الناس وصدًا عن سبيل الله.

–175افتخارهم بالنحر ولإطعام وسقاية الحجاج مع ما هم فيه من الشرك، فرد الله عليهم ذلك.

–176استحلالهم الشهر الحرام وتحريمهم غيره فأنزل الله فيه {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} الآية.

– 177التربص بالمؤمنين الدوائر.

– 178أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل.

– 179أنهم يتسرولون ولا يأتزرون، فقال)) :تسرولوا واتزروا وخالفوا أهل الكتاب. ((

– 180غسل أولادهم بماء المعمودية وصبغهم كما تفعله النصارى، فأنزل الله {صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً} الآية.

–181عبادة الصليب وتعظيمه.

– 182ذبح الفرعة. الفرع: أول النتاج، كانوا يذبحونه لطواغيتهم. والعتيرة في رجب. ولفظ الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا فرع ولا عتيرة» رواه البخاري

–183ذبح العتيرة فنفى ذلك، كما في الصحيح: ((لا فرع ولا عتيرة)).

– 184التسمي بالأسماء المستكرهة كما غير اسم عاصية وقال: ((بل أنت جميلة)).

– 185التسمي بما فيه تزكية فنهى عنه كما كانت زينب تسمى برة فسميت زينب وكذلك جويرية.

– 186إنكار الجن.

–187اكتساب المال بالميسر.

– 188كونهم يحيون عظمائهم بقولهم: أبيت اللعن وأنعم صباحًا وأشباهها فعوض الله المسلمين بالسلام .للحديث الوارد في سنن أبي داود، انظر التهذيب (جـ 8 حديث 5066) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: (كنا نقول في الجاهلية أنعم الله بك عينًا وأنعم صباحًا، فنهينا عن ذلك)

–189دخول نسائهم الحمام فنهى عن ذلك كما في حديث عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن دخول الحمامات، ثم رخص فيها للرجال أن يدخلوها في المئازر) . أخرجه أبو داود برقم (4009) ، والترمذي، والنسائي، وأحمد في المسند (20/1) : (عن أبي مليح الهذلي، أن نساء من أهل حمص أو من أهل الشام دخلن على عائشة فقالت: أنتن اللاتي يدخلن نساؤكن الحمامات سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت زوجها إلا هتكت الستر الذي بينها وبين الله عز وجل» . أخرجه ابن ماجة برقم (3750) ، وفي المسند (339/3

–190التألي على الله كما في قصة الرجلين من بني إسرائيل عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال رجل والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان» . الحديث. رواه مسلم.

- 191العلاج بالرقى الشركية ونحوها فنهى عن ذلك، كما في حديث ابن مسعود: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك. »

-192تعليق التمائم فنهي عنه، كما في الحديث السابق.

-193عمل التولة فنهى عنها، كما تقدم.

-194استعمال النشرة المنهي عنها فقال: «هي من عمل الشيطان. »

- 195ترك الحيات مخافة ثأرهن فنهى عنه بقوله: «من ترك الحيات مخافة ثأرهن فليس منا. » أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه: «اقتلوا الحيات» ، أما حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف ثأرهن فليس منا» . رواه أبو داود برقم. (5249)

- 196أنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

-197عدم فصلهم في صلاتهم بين الفرض والنافلة كما في حديث عمر. ومنه حديث معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: (أمر أن لا توصل صلاة بصلاة حتى تخرج أو تتكلم) . وحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أيعجز أحدكم إذا صلى أن يتقدم أو يتأخر، أو عن يمينه أو عن شماله» . أهـ. من المحصل في ترتيب المسند (جـ 3 ص 385).

-198تأخير الفطر فأمر بتعجيله. للحديث الوارد من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزال الدين ظاهرًا ما عجل الناس الفطر» . الحديث أخرجه أبو داود برقم (2353) ، وابن ماجة برقم (1698) ، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (جـ1 ص 431).

- 199أنهم اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً.

-200اشتراؤهم بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً.

- 201القول بدوران الأرض، كقول بعض الفلاسفة فأتى الشرع بالأدلة على ثبوتها.

-202القول بثبوت الشمس، فرده الله بقوله {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} الآية.

-203أنهم يتدينون في السياحة، فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله. »

204-أنهم يقومون على عظمائهم فنهى عنه فقال: ((فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم)) . الحديث.

205-الدعاء بدعوى الجاهلية فقال: ((ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)).

206-الاشتمال بالثوب كفعل اليهود فنهى عنه.

207-السدل لأنه من فعل اليهود.

208-تغطية الفم في الصلاة كما يفعل المجوس عند عبادتهم النار.

209 - تفضيل العجم على جنس العرب كفعل الشعوبية الذين لا يعترفون بفضل العرب.

210-قولهم إن المسيح قد قتل وصلب، فرد الله عليهم بقوله {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} وأخبر أنه رفعه إليه.

211 - رفع الصوت عند القتال والذكر الجنائز، فجاء شرعنا بخفض الصوت في هذا المواطن قال قيس بن عباد وهو من كبار التابعين: كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر وعند القتال وعند الجنائز. ذكره في الاقتضاء.